



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ
الرقم التسلسلي/.....

الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم
في التاريخ الحديث تخصص الجزائر عثماني

إشراف الدكتور احمد صاري

إعداد الطالب محمد أوجرتني

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
عميراي أحميدة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	رئيسا
الدكتور احمد صاري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	مقررا ومشرفا
عمار بن خروف	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي غرداية	مناقشا
صالح فركوس	أستاذ التعليم العالي	جامعة باجي مختار عنابة	مناقشا
جميلة معاشي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري قسنطينة	مناقشا
كمال لدرع	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	مناقشا

السنة الجامعية 2014-2015

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى
بسم الله الرحمن الرحيم

" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ "

سورة فاطر

شكر

إذا كان لا بد من كلمة شكر فإنها ستكون حتما لأهل العلم والمعرفة من علماء الجزائر ومفكرها ودعاتها ومصلحيها سواء الذين رحلوا وتركوا خلفهم عصارة أعمالهم مطوية داخل الكتب والصحائف، أو الذين لا يزالون يصارعون تيار الإلغاء والتهميش... كما أخص بالشكر الجام الأستاذ المشرف الدكتور أحمد صاري على جهده وحرصه ودقته ومتابعته لهذه الأطروحة حتى خرجت في ثوب متكامل من جميع الجوانب...

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر كذلك للمشرفين على مكتبة الشيوخ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ومكتبة الكلية بنفس الجامعة للمجهود الكبير الذي يبذلونه في سبيل خدمة البحث العلمي في مختلف مستوياته. والشكر لأساتذة قسم التاريخ على تشجيعهم لي لإتمام هذا العمل.... والشكر أيضا لموصول للأسرة الكريمة التي تحملت في سبيل انجاز هذه الرسالة الكثير حتى تخرج في هذا الثوب النهائي.

إهداء

إلى روح الوالدة رحمها الله التي طالما كانت
تشجعني على طلب العلم والاستمرار في تحصيله..
إلى الزوجة المتفهمة عناء البحث العلمي في الزمن
الصعب الذي يعيّننا معاناته اليومية ...إلى الأبناء
رمز البراءة والمستقبل الزاهر أنفال إياد وملاك..إلى
كل أفراد العائلة وجميع الأهل والأقارب والأصدقاء
والإخوان الذين دعوا لنا بالتوفيق والسداد خلال
مرحلة العمل على إنجاز هذه الأطروحة..
إلى الأسماء العديدة التي صنعت تاريخ الجزائر
ورسمت منهج المدرسة التاريخية الجزائرية....
إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل سائلا المولى
عز وجل أن يتقبل منا صالح الأعمال وكون لبنة
صالحة في الطريق للأجيال القادمة .
آمين

قائمة المختصرات بالعربية

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع	----- (ش. و. ن. ت)
ديوان المطبوعات الجامعية	----- (د. م. ج)
رسالة ماجستير غير منشورة	----- (ر. م. غ. ش)
الشركة الوطنية للنشر والإشهار	----- (ش. و. ن. ت)
المؤسسة الوطنية للكتاب	----- (م. و. ك)
ترجمة	----- تر
الطبعة	----- ط
الجزء	----- ج
تحقيق	----- تح
تاريخ الوفاة	----- ت
هجريّة	----- هـ
ميلادية	----- م
بدون تاريخ	----- د ت

بالفرنسية

Annales Algériennes----- *An.Alg*
Entreprise Nationale du livre----- *E.N.A.L,Alger.*

Office des Publications Universitaires----- *O.P.U.*
Presses universitaires de France ----- *P.U.F.*
Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la
province de Constantine ----- *R.A.S.C.*
Revue Africaine ----- *R.A*
Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée----- *R.O.M.M*
Volume----- *V*
Société Nationale d'Editions et de Distribution----- *S.N.E.D*
Tome ----- *T*

المقدمة

1. التعريف بالموضوع

أثارت العلاقة بين الفقهاء والسلطة على مدار التاريخ الإسلامي جدلا كبيرا بين المفكرين والمؤرخين، واستفزع الموضوع الكثير من الجهد للارتباط الوثيق بين عالم الفقه وعالم السياسة. فالفقهاء بما لديهم من فهم وإحاطة بقواعد الدين وصور تطبيقاته المختلفة في حياة الناس، سعوا دوما إلى تجلية هذه الصور حتى تستقيم حياة الناس، فيقومون بممارسة شتى الواجبات الدينية والدينية بالصورة الصحيحة، ويتعاطون بإيجابية في ما له علاقة بشؤون الحكم والسياسة في مقابل حصولهم على مختلف الحقوق، وهذا في ظل ما تؤكد النصوص الدينية وما تنتهي إليه اجتهادات العقل البشري.

وعملت السلطة الحاكمة في المقابل دوما على استغلال ما تملك من نفوذ وقوة للسيطرة على البلاد التي تحت هيمنتها بمختلف مكوناتها المادية والبشرية والتحكم في مسار العناصر البشرية المشكلة لها، وتجاوزت في كثير من الأحيان النصوص الفقهية المنظمة للحكم، وكان من نتائج هذا التباين نشوء الخلاف والاستقطاب بين السلاطين والعلماء، وتباينت مواقف الطرفين في التعامل مع بعضهما البعض.

ولم تكن العلاقة بينهما متشنجة دوما، فقد أدرك بعض السلاطين واجب التعاون بينهما لمصلحة العامة، كما استوعب بعض الفقهاء أهمية استمرار الصلة والتواصل مع دار السلطان، وعملوا على استثمارها في نشر الإصلاح وتقديم النصح للحكام ومعاونهم، وحرصوا على البروز بصورة حسنة تعكس صحة المبادئ التي يدعون لها، كما عملوا على تنقية الدين الإسلامي مما علق به من ممارسات سيئة ومحاربة البدع والخرافات، التي كثيرا ما يسكت رجال السلطة على انتشارها وشيوعها.

وتمثل هذه العلاقة محورا مهما من محاور الفقه السياسي الإسلامي، اصطلاح على تسميته بالسياسة الشرعية، وفي هذا الإطار يقول ابن تيمية " يكاد يتفق جل العلماء والأصوليين على أن الفقهاء والسلاطين هم رأس الأمر كله إذا صلحا صلحت الأمور كلها وإذا فسدا فسدت الأمور كلها"¹. فصلاح الدولة وانتظام شؤونها في فكر ابن تيمية وغيره من علماء الأصول الإسلاميين يأتي نتيجة اجتهاد فقهي جريء وعمل سياسي يكافئه في القوة والجرأة. تلك هي دائرة هذا البحث الذي بين أيدينا والمعنون بـ: " الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830 ".

ولقد كان اختيار عنوان البحث عملا شاقا ومضنيا لتجنب الدخول في تكرار أعمال وبحوث أخرى مشابهة وهي كثيرة، فبعد تحديد المجال المعرفي للموضوع ودراسة مكوناته من تعاريف ومصطلحات ومختلف

1- ابن تيمية الحراني، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق وتعليق علي بن نايف الشحود، بدون معلومات. 2012. ص 175..

الأقسام التي تخدم الدراسة، وقع الاختيار على مصطلح "الفقهاء" بدل "العلماء"² لاعتبارات عديدة منها أن الفقهاء أكثر رسوخا و تجذرا في ميدان الفقه والمعارف الدينية، ولو قلنا العلماء لانحسر المعنى في طائفة محدودة منهم، هي عموما تلك التي لها اتصال بالعلوم العقلية أو النقلية من لغة وآداب وحساب وتاريخ وفقه وعقائد، وتدور في دائرة من الركود والتقليد.

كما أن استخدام مصطلح العلماء سوف يزيد من شساعة البحث ليشمل مجالات كثيرة من العلوم والمعارف لا تخدم أهداف الدراسة، خلافا لمصطلح "الفقهاء" الذي يضم أولئك الذين احتوا العلوم النقلية والعقلية معا، وسطروا بما يملكوه من فهم لهذه العلوم، مناهج التعامل مع السلطة بعناصرها المختلفة، ومع المجتمع بكل فئاته والعوامل المؤثرة في الطرفين..

فالفقهاء هم العلماء الأصوليون المجتهدون الذين جمعوا علوم الدنيا من لغة وأدب وفقه وتفسير، وعلوم الآخرة التي تستند على معاني الزهد والتبصر والاعتدال وقيم التزكية والمجاهدة، كما ألموا بمعاني السياسة الشرعية ومقتضيات المرحلة وعملوا وفقها، وسعوا إلى رسم منهج حياة يكون نبراسا للمجتمعات التي عاشوا ضمنها، على خلاف العلماء الذين توطنوا في صنف من العلوم واقتصروا عليه فهمها وتدريسا.. وستتناول هذه الدراسة أغلب الفقهاء الذين نشطوا في إيالة الجزائر، وتركوا بصماتهم في ميدان الفكر والسياسة، وكانت لهم أنشطة متعددة وبارزة في مختلف جهات الإيالة، دون التغاضي عن فقهاء الأطراف – الباليكات - الذين كان لهم شأنًا بارزا في المدن والقرى التي عاشوا فيها.

2- إشكالية الدراسة

تدور إشكالية البحث إذا حول علاقة الفقهاء بدار السلطان في الجزائر خلال العهد العثماني، فقهاء الجزائر كما هو الشأن بالنسبة لغيرهم، تعاطوا كثيرا في موضوع السياسة الشرعية كغيرهم من فقهاء البلدان الإسلامية الأخرى، ومنهم من أثر الاقتراب من الحكم ومد جسور الحوار مع السلطة لسبب أو لآخر، ومنهم من أثر البعد عنها، وكل فريق استند إلى جملة من الحجج المستقاة من الشريعة الإسلامية والتاريخ. وما تزال مقاربات الكثير من فقهاء الجزائر في العهد العثماني في ميدان الفقه والدين والفكر الإنساني، مجهولة لدى دارسي تاريخ الفقه في المغرب الأوسط، وبجاجة إلى قراءة جديدة ومتعمقة وتحليل مستفيض، من أمثال الفقيه "يحيى الونشريسي" و"أحمد المقرئ" و"يحيى الشاوي" و"بوشقرون الوهراني" و"عبد القادر المشرفي" و"عبد القادر الراشدي القسنطيني" و"أبو راس الناصري" و"ابن العنابي" وغيرهم، ممن قدموا رؤى فقهية جديدة، إجابة عن جملة من الاستفهامات والاستفسارات الملحة في ذلك الوقت.

2 - هناك عشرات الرسائل الجامعية التي استخدمت هذا المصطلح.

وفي هذا الإطار تندرج جملة التساؤلات التي قدمناها لتكوين إشكالية البحث والتي من شأنها إبراز صورة العلاقة التي كانت بين الفقهاء والسلطة، فالطرفان يمثلان معادلة الصراع والتجاذب خلال العهد العثماني. فأما جانب الفقهاء فإن تساؤلنا ينصب حول مكانتهم الدينية والاجتماعية أولا، ومدى فهمهم لسياق الأحداث التي كانوا يعيشونها؟ وكيف عالجوا الفتاوى والنوازل والاجتهادات التي وضعوها المشاكل والأزمات الطارئة؟ وكيف كانت أجواء التعامل بين الفقهاء أنفسهم من مختلف المذاهب السائدة آنذاك سواء الفقهاء المالكيون أو الحنفيون أو الإباضيون؟ وما مدى انعكاس هذا التنوع الفقهي على الوحدة العقائدية والمذهبية للجزائريين خلال هذه الفترة؟ وهل كان للفقهاء دورا يذكر في إصلاح المجتمع وتنقيته من البدع والخرافات التي كانت سائدة من جهة ومن جهة ثانية ماذا كان موقف الفقهاء من الآفات التي كانت تنخر جسم المجتمع كمعاقرة الخمر وممارسة البغاء والتي كانت تمس مختلف طبقاته.

أما السلطة فإن تساؤلنا حولها يدور حول شكلها ونشأتها وعلاقتها بعالم الفقه والدين؟ وما هو دور الفقهاء والعلماء في ذلك؟ وهل كانت في انسجام معهم أم أنها كانت على طرف نقيض؟ وكيف كانت هذه السلطة سواء في المركز أو في الأطراف، تنظر للفقه والتجديد؟ وهل كانت تُعين الفقهاء وتوفر لهم مجال الدعوة والعمل على نشر الفقه الصحيح والفهم السليم للدين بكل حرية، أم كانت خلاف ذلك؟ كما لنا أن نتساءل أيضا حول وجود حكام متنورين من عدمه وفي حال وجود هذا الصنف فما هي أعماله البارزة؟ وهل كان هناك تعاون مع الفقهاء في سبيل إرساء قواعد دولة منظمة؟؟ تقوم على إعادة النظر في الموروث الحضاري المتهالك وإرساء قواعد الاجتهاد والتجديد...

3.- أسباب اختيار الموضوع

كل ذلك وغيره من التساؤلات شكلت محور دراستنا هاته ومنحتنا رؤية شاملة لتحديد أسباب اختيار الموضوع وأهداف الدراسة، وشجعتنا على المضي قدما في إنجازها والتي نوجزها في ما يلي:

نقص البحوث والكتابات في موضوع الفقهاء وعلاقتهم بالسلطة في العهد العثماني. محاولة معرفة وضعية الفقهاء والعلماء في الجزائر وتسلط الضوء على أدوارهم التي لعبوها في المحاولة للنهوض بالمجتمع وتوعيته وربطه بالقيم الإسلامية.

السعي لبلورة موقف الفقهاء من القضايا المطروحة إبانهم، منها خاصة مسألتنا الاجتهاد والتجديد، بعدما خاضت دول أوروبا تجربة الإصلاح لنظمها الدينية والسياسية، وقطعت أشواطاً كبيرة في البناء والرقى والتطور في شتى المجالات.

المساهمة في تقديم قراءة جديدة ومجملّة للسلطة الحاكمة خلال العهد العثماني في المركز والأطراف وعلاقتها بالفقه والدين والثقافة.

جمع ما يمكن من قضايا ومآثر الفقهاء الدينية والسياسية من خلال علاقتهم بالسلطة الحاكمة في الجزائر وإخراجه في هذه الرسالة.

الاطلاع والاستفادة من كثير من المواقف الحسنة التي قدمها الفقهاء الجزائريون في الفترة العثمانية كالموقف من التعامل مع السلطان، والموقف من تكفير بعض المسلمين لبعض والموقف من تعاون بعض المسلمين مع الكفار ضد بني دينهم وإخوانهم وغيرها من المواقف. إبراز مكانة المشرق الإسلامي بمراكزه الدينية - الحرمين الشريفين-، والفكرية - الأزهر-، وعلاقته الوطيدة بالمغرب الإسلامي في وحدة التلقي ووحدة الهم الإسلامي وتعاون فقهاء الإقليمين على فك رموز التخلف والتراجع الحضاري الذي بدأت ملامحه في البروز بعد سقوط غرناطة بيد الإسبان سنة 1492. التنويه بمركزية الثقافة الدينية الإسلامية وانخراط الفقهاء الجزائريين ضمنها ومساهمتهم في إثرائها والاستفادة مما تقدمه من آراء وأفكار.

4.- منهجية البحث

كما جرت عليه العادة فإن أغلب المناهج التي يتبعها الباحثون في مجال التاريخ تختلف حسب طبيعة الموضوع والفترة الزمنية المدروسة، وقد عملنا في هذا البحث وفق المناهج المتبعة في دراسة التاريخ الحديث فتارة نستعمل المنهج الاستقرائي الاستنتاجي، وتارة أخرى نعلم أسلوب المقارنة بين العينات التاريخية المتوفرة، وأحيانا نعلم إلى السرد والنقل بتصرف خاصة للمسائل المتعلقة بالقضايا الفقهية، فهو الأقر على توضيحها وتقديمها بصورة قابلة للاستيعاب.

كما عملنا على ترجمة ومقارنة كثيرا من النصوص والكتابات الأجنبية -الفرنسية- بالكتابات العربية محاولين تقديم أفضل الصور وأقربها للمنطق التاريخي، وحاولنا استنطاق بعض المخطوطات وتوظيفها في مجال بحثنا لتقديم الجديد في مجال الدراسة التي تضمنتها هذه المذكرة.

وقد قمنا بالاستعانة بالقضايا الفقهية التاريخية، واستغلالها دون تعمق في المسائل الخلافية التي حتما ستدفعنا بعيدا عن أهداف الدراسة، وقد سقنا بعض المسائل الفقهية من تعريفات ومسائل ليس من جانب الخوض في الفقه المقارن، بقدر ما هو استغلالها لخدمة الوقائع الجديدة وفهم التصورات المكتسبة التي عرفها الإيالة.

5.- ببليوغرافيا البحث

من خلال عنوان الرسالة يتبين لنا أن كتب التراجم العامة تشكل وسيلة عملنا الأساسية في هذا البحث، سواء تعلق الأمر بالفقهاء والعلماء من جهة أو بالسلطة الحاكمة من جهة ثانية، وقد لقيت كتب التراجم منذ زمن عناية واهتمام الباحثين والدارسين، وعدها البعض امتدادا لدراسة أحوال الرجال في إطار الجرح والتعديل، الذي اعتمد عليه الفقه الإسلامي منذ صدر الإسلام حرصا على استمرار انتقال الفقه والشريعة من الثقافات، فمعرفة التراجم تعد ضرورة لاستكمال صورة المعرفة الإسلامية، ساهم فيها ابن النديم من خلال كتاب الفهرست ت 1047 هـ، وحاجي خليفة ت 1096 هـ من خلال كتابه كشف الظنون، وطاش كبري زادة من خلال مفتاح السعادة فضلا عن كتب التراجم السابقة المعروفة.

وقد ركزت كتب التراجم على جانب الفقهاء والعلماء والمحدثين والقضاة وأهملت بعض الشيء ذكر السلاطين ورجال الحكم، ولم يفرد لهم باب سوى من خلال ما يتعرض لذكرهم من خلال المصنفات السابقة، أو الأعمال المشهورة والصالحة التي قاموا بها.

ومن الكتابات السابقة القريبة عهد بالفترة العثمانية: "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني. و"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم التلمساني.

أما الكتابات والأعمال التي تَمَّتْ بالصلة بالعهد العثماني فقليلة هي الأخرى، نجد من بينها مؤلف "عبد الكريم الفكون" المتمثل في "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، حيث تناول العلماء دون التعرض بشيء كبير لشؤون الحكم والسياسة في الإيالة³، وقد نال من الدراسة والنقد الشيء الكثير، واعتمد عليه أغلب الباحثين المعاصرين، وأما المصدر الثاني فهو لابن المفتي حسين بن شاوش، وقد شكل كتابه المعنون بـ"تقييدات بن المفتي"، إضافة نوعية في الجمع بين الفقهاء والسلطة، وقدم كثيرا من المعلومات للباحثين.

ومن خلال إطلالة أولية على تقييدات ابن المفتي، فإننا نجد صعوبة في تتبع المسار الزمني الذي سلكه فهو تارة يذكر شخصية معينة ثم يعود لذكر واقعة أو وقائع حدثت قبله، فيشتت الصور التي تنطبع لدى القارئ حول موضوع معين، وهذا بسبب غياب منهجية سليمة للمعالجة.

كما أضفى على تأليفه طابعا خاصا ميزه أسلوب الإطراء في ذكر العلماء، والمبالغة في وصفهم بالصلاح والورع والعلم والتبحر، خاصة مثلما قال في والده: "إن والدي هو الشيخ الإمام الصالح الكامل العالم الأصولي الفقيه المتبحر حسين بن رجب شاوش"، ويستفاد من تقييدات بن المفتي في معرفة الكثير من الأحداث التاريخية التي ذكرها المؤلف كحركات التمرد التي قامت بها الانكشارية والحرب بين الجزائر وتونس وثورات الكراغلة وغيرها.

واستفدنا كثيرا من "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي القسنطيني، من تحقيق عبد الله حمادي، في معرفة أجواء المجتمع القسنطيني والجزائري خلال القرن الثامن عشر من خلال تفشي ظاهرة التدخين.

ولكتب المغازي والسير التي تناولت تسجيل أعمال وبطولات بعض حكام الإيالة سواء في المركز أو في الأطراف دورا في تسليط الضوء على الفقهاء البارزين الذي عاشوا خلال تلك المرحلة ونجد من أبرزها التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون الجزائري، من تحقيق محمد بن عبد الكريم، والثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لأحمد بن سحنون الراشدي، تحقيق المهدي البوعبدلي.

3 - انظر الدراسة الكاملة حول الشيخ عبد الكريم الفكون في الفصل الثاني من هذا البحث.

ولا نمر على الفترة العثمانية دون ذكر كتابات الرحالة والمؤرخين الأوروبيين التي استعنا ببعضها في معرفة رؤية هؤلاء للأوضاع السياسية والثقافية للجزائر خلال الفترة المدروسة، منها "مارمول كارافيجال" وكتابه الهام إفريقيا مارمول، و"توماس شو" رحلة في إيالة الجزائر، و"بيار دان" تاريخ بربريا وقراصنتها، و"ميشال بارادي" تونس والجزائر في القرن الثامن عشر، و"لوجيه دوتاسي" تاريخ مملكة الجزائر⁴ وغيرها، وأفرد من هؤلاء القس الاسباني "هايدو" كتابا حول حكام الجزائر سماه "تاريخ ملوك الجزائر"، حيث يشكل مادة إخبارية لأغلب الدارسين والباحثين.

وأما خلال الحقبة الاستعمارية فقد برز مؤرخو المجلة الإفريقية كدوفولكس Devoulx ولويس رين L Rinn. وريني باسي René Basset وبودين A. Bodin، حيث أثاروا بكتاباتهم المختلفة علاقة الفقهاء بالسلطة، وكان لهم الفضل في إبراز كثير من حلقات الصراع بين الطرفين، وترجمة الكثير من النصوص الفقهية رغم الخلط الواضح لديهم بين مختلف أصناف العاملين في السلك الديني، وبرز في هذا الجانب أيضا هنري دوغرامون بكتابه "تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية"، Henry de Grammont. *histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)* وأوجين بلانتي صاحب "المراسلات السياسية بين دايات الجزائر وفرنسا"، Eugène Plantet. *correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France. 1579 1830* حيث حاولوا تقديم كرونولوجيا لحكام الجزائر في العهد العثماني، وأهم الأعمال التي قاموا بها، وتبقى كتابات المدرسة الغربية تصب في أطر إيديولوجية وتحمل مجموعة من الأحكام المسبقة تهدف من خلالها إلى تهميش المجتمع وتقليل دوره عبر مختلف العصور واعتبار الجزائر مستعمرة خاضعة للأتراك⁵.

وساهم المؤرخون الجزائريون خلال الحقبة الاستعمارية بأعمال متميزة فنجد عبد الرحمن الجيلالي بكتاب تاريخ الجزائر العام، فضلا عن مساهمة توفيق المدني بكتابه "كتاب الجزائر"، وكتاب "داي الجزائر محمد عثمان باشا" حيث أطنب في ذكر العلماء والفقهاء والسلاطين تحت تسمية مشاهير الجزائر الذين أنجبته خلال مختلف عهودها ومنها العهد التركي، كما استعرض الفقهاء والمفتين المالكيين والأحناف لنفس الفترة في كتابه الثاني.

- Pierre Dan **Histoire de Barbarie. et de ses Corsaires**, De Paradis Jean Michel Venture. (, 4 **Tunis et Alger au XVIIIe siècle**, De Tassy Laugier, **histoire du royaume d'Alger**, Marmol Caravejal, **l'Afrique de Marmol**, Shaw Thomas, **Voyage dans la régence d'Alger**

5 - جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات متحف المجاهد، 1994، ص، ص 11، 18.

واستفاد من تقييدات "ابن المفتي" السالفة الذكر الباحث الجزائري "نور الدين عبد القادر" سنة 1964⁶، وأخرجها في مؤلف واحد يحمل عنوان صفحات من تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، حيث ألقى الضوء على أغلب فقهاء الفترة مبينا المدة التي قضوها في مناصبهم، وقد اعتمدنا عليه كثيرا في دراستنا هاته، خاصة إنجاز جدول يضم الفقهاء المالكيين والأحناف الذين مارسوا هذه الوظيفة خلال الفترة المدروسة.

ولا ننسى جهود المرحوم "أبو القاسم سعد الله" في موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" وما حوته من ذكر وترتيب لكثير من العلماء والفقهاء المنتمين للفترة العثمانية، وكذلك مجهودات المؤرخ الجزائري "ناصر الدين سعيدوني" من خلال كتابه "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي".

ويضاف إلى ذلك جهود متعددة أخرى لباحثين برزوا في التسعينيات من القرن الماضي منهم "هواري تواتي" صاحب الدراسة بعنوان "بين الرب والرجال المتقنين الفقهاء والمشعوذين في المغرب في القرن السابع عشر"، *Houari Touati, Entre Dieu et les Hommes Lettrés Saints et Sorciers au Maghreb 17^{ème} siècle*,

وهي دراسة باللغة الفرنسية هامة ومفيدة، أثار من خلالها الباحث العديد من القضايا التي تخص تاريخ الفقه كعلم شرعي وعالم التصوف المنفصلي للطرقية والدروشة، ومن المسائل التي عالجها الباحث بإسهاب وبلغة فرنسية قوية يصعب استيعابها دون قراءة متأنية ومتكررة: "قوة الخطاب الديني وعلاقة الفقه بالتصوف". و"تطور الفقه في الجزائر ومعالم المدرسة الفقهية المالكية الجزائرية ومساهمة فقهاء بايلك الغرب فيها". و"الأسر العلمية في الجزائر". و"منطقة القبائل ومساهمتها في الفقه المالكي"، و"العلاقة بين القضاء والسلطة السياسية، والعلاقة بين الفقهاء المالكيين والأحناف"، بالإضافة إلى مباحث أخرى تتعلق بالجهاد البحري ومشروعيته، و"الصراع بين الشريفة المغربية والهايمونية العثمانية في المغرب الإسلامي"، وأخيرا "السحرة والمشعوذين ودورهم في المجتمع". وتعد هذه الدراسة من أهم الدراسات الحديثة التي كانت لها علاقة مباشرة بموضوع الرسالة التي نحن بصدد إنجازها وقد استفدت كثيرا منها.

أما الرسائل البحثية الجامعية فهي عديدة نجد منها رسالة ماجستير للطلبة لبصير سعاد من جامعة متنوري بقسنطينة والتي تحمل عنوان "هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر في العهد العثماني 1516-1830" "نوقشت سنة 2008. تحت إشراف الأستاذ كمال فيلاي، ورسالة ماجستير "العلماء والسلطة خلال عهد الدايات 1871 - 1830" للطلبة رشيدة شكري معمر من جامعة الجزائر، وإذا كانت الرسالة الأولى قد ناقشت حركة الهجرة للفقهاء من الجزائر إلى المشرق العربي فإن الرسالة الثانية قد حاولت تسليط الضوء على العلماء وعلاقتهم بالسلطة خلال فترة الدايات، رغم ما وقع فيها من خلط بين العلماء والفقهاء من جهة ورجال الطرقية الصوفية والمرابطين وأصحاب الزوايا من جهة ثانية، وغيرها من الرسائل.

6 - ناصر الدين سعيدوني، ورفقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2000. ص 81.

كما استوفقتنا كتابات أخرى لها علاقة بالموضوع منها "موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين" لصاحبها راجح عيدوسي، ذكر فيها نحو 1644 عالما وأديبا جزائريا عاشوا خلال الفترة العثمانية، وهي دراسة إحصائية يستفاد منها، وقد سقط من ذكره سهوا الرحالة الحسين الورتلاني الذي عاش في القرن الثامن عشر⁷ الغني عن التعريف. و دراسة أخرى بعنوان "العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)". لعمار هلال.

ولم يكن من السهل الحصول على المادة العلمية وجمعها وفق الخطة الموضوعية نظرا لتشتتها وتوزعها بين عديد المؤلفات، وقد قضينا الخمس سنوات الأولى في البحث والتنقيب والتنقل بين المكتبات الجامعية ومراكز الأرشيف والمكتبات الوطنية، كالمكتبة الوطنية بالحامة بمدينة الجزائر العاصمة، التي استفدت منها في بعض الوثائق المخطوطة، وتتمثل في مراسلات بين بايات قسنطينة والسلطة المركزية، فضلا عن دار أرشيف ما وراء البحار بمدينة "إكس أون بروفانس" Aix En Province الفرنسية، ومكتبة مركز إيرمام Iremam بنفس المدينة، هاتين الأخيرتين وجدتهما تفتقران كثيرا للوثائق التي تخص المرحلة العثمانية، ما عدا بعض المواضيع والوثائق التي تهم الشأن السياسي الخارجي للإيالة والمراسلات والتقارير التي تمت بعيد احتلال الجزائر سنة 1830.

وكان حظنا وافرا من المكتبة الوطنية بتونس ومن مركز أرشيفها، من خلال بعض المخطوطات والمؤلفات والكتابات التاريخية المعاصرة، التي تعالج الفترة العثمانية فضلا عن استفادتنا من أجواء البحث العلمي الكبيرة التي توفرها هذه المؤسسات.

ونظرا لكون موضوع الدراسة يشمل كثيرا من الجوانب الفقهية والفلسفية فقد استعنا بكتب الفقه وقواعده وأصوله، لدراسة نشأة الفقه الإسلامي وأسباب نشأة الفرق الإسلامية والمذاهب المختلفة، وفهم القضايا الفقهية والقواعد المذهبية التي كنا مضطرين للإجابة عنها، كالتعريفات المختلفة للمفاهيم والأفكار ومصطلحات الفقهاء وأسس المذاهب الفقهية وقواعدها، محاولين الإحاطة بالمشاكل والأزمات الفقهية التي نشبت في العهد العثماني، كمسائل الزواج والطلاق وحكم شرب الخمر والتدخين والولاء والبراء والتكفير وحكم التعاون مع أعداء المسلمين.

ومن أبرز الكتب والمؤلفات التي اعتمدنا عليها "القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية"، لأبي القاسم محمد بن جزي الكلبي (693هـ-741هـ)، من تحقيق محمد بن سيدي محمد مولاي، و"الفتوى المالكية في أفعال الصوفية"، لأبي فارس عبد العزيز محمد القيرواني من جمع وتحقيق أبو أحمد علي الكندي، وبعض مؤلفات الماوردي: "أدب الدنيا والدين"، و"نصيحة الملوك"، و"الأحكام السلطانية"، كما استعنا بكتاب "مقالات الإسلاميين

7 - راجح عيدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة للنشر، الجزائر، 2002.

واختلاف المصلين" لأبي الحسن الأشعري، و"إحياء علوم الدين"، لأبي حامد الغزالي، وجلها مؤلفات أصولية يعود أغلبها للقرون الإسلامية الأولى.

واستعنا أيضا بمؤلفات عديدة قريبة عهد بالفترة العثمانية، بعضها يتعلق بأصول الفقه والنوازل والأحكام والبعض الآخر يتناول دراسة التراجم منها خاصة "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب" للشيخ الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي نشر دار الغرب الإسلامي 1981، و"الدرة المصونة في نوازل مازونة" رسالة ماجستير في التاريخ الحديث.

وكانت المراجع والمصادر الإباضية قليلة نسبيا خاصة تلك التي تتناول الفقهاء الميزابيين وعلاقتهم بالسلطة التركية، ومن أبرز المراجع المستغلة في هذا الشأن "ميزاب بلد كفاح" لإبراهيم محمد الطلاي، و"مختصر تاريخ الإباضية" لأبي الربيع سليمان الباروني، و"دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا" لمحو عيسى النوري هذا الأخير يتوفر على معلومات غزيرة لكن بدون تهमيش أو ذكر للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها المؤلف، ومن المراجع الإباضية أيضا "العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب" لصالح بن عمر سهاوي من نشر جمعية التراث بغرداية، و "الإباضية بين الفرق الإسلامية" لعلي يحيى بن معمر، و"دراسات عن الإباضية" لعمر خليفة النامي وغيرها، وتتميز أغلب هذه الكتابات بالإطناب في الجانب الفقهي والديني والتقصير في ذكر الحوادث التاريخية والمصادر المعتمدة عليها، غير أن الربط بينها قد أفدنا في رسم ملامح الفقه الإباضي وتاريخ الجماعة الإباضية في العهد العثماني.

6.- خطة البحث

قسمنا البحث إلى أربعة فصول أساسية، أما الفصل الأول فقد جعلناه تحت عنوان المذاهب الفقهية في الجزائر العثمانية وقسمناه إلى أربعة مباحث أساسية، المبحث الأول الخلاف الفقهي ونشأة المدارس الفقهية، المبحث الثاني التعريف بالمذهب الحنفي خصائصه وانتشاره في المغرب الإسلامي ثم في المبحث الثالث تناولنا التعريف بالمذهب المالكي في الجزائر من حيث نشأة وتطور المذهب وانتشاره و مكانته عند السكان المغاربة، وفي المبحث الرابع تحدثنا عن المذهب الإباضي الذي عُيِبَ من طرف كثير من الباحثين في الحقبة العثمانية، فتناولت فيه نشأة المذهب وانتشاره في الجزائر وأراء الإباضية في الفقه والعقيدة، والتنظيم الإداري والاجتماعي لميزاب في العهد العثماني، وعلاقة الميزابيين بالسلطة الحاكمة ومساهماتهم في دعم الحكم التركي ودواعيه الفقهية والسياسية.

وأما الفصل الثاني الذي كان بعنوان مكانة الفقهاء في المجتمع الجزائري، فقد قسمناه إلى أربعة مباحث جعلنا المبحث الأول لمعالجة ظاهرة التدين في المجتمع الجزائري ومكانتها بين التقليد والاجتهاد، وكذلك حرية التدين، والمجتمع الجزائري بين الدين والتصوف، وموقف الفقهاء من التصوف، أما المبحث الثاني فقد جعلناه تحت عنوان الفقهاء المفتون والقضاة في الجزائر، حيث حاولنا تقديم دراسة عديدة ورقمية لتشكيل لنا صورة اقرب للواقع المعاش، فقدمنا ما توصلنا إليه من أسماء شخصيات شغلت هذه المناصب، سواء رجال الإفتاء

الأحناف والمالكيين و الأبازيين، وفي المبحث الثالث تناولت دراسة تراجم لعينات ونماذج لفقهاء رائدين في العهد العثماني لم يذكر أغلبهم ضمن كتب التراجم التي تولى أصحابها وظائف قارة. وفي المبحث الأخير قدمت صورة للتعايش بين المذاهب الفقهية في الجزائر بين الانسجام والتوتر تحت عنوان العلاقة بين المذاهب الفقهية.

وفي الفصل الثالث عالجنا مسألة الفقهاء ودورهم الديني والسياسي وقسمناه إلى أربعة مباحث، تناولنا في المبحث الأول الحياة العلمية للفقهاء من مناظرات ومساجلات فقهية، وما أدى إلى بروز ظاهرة التنافس بين الفقهاء أما المبحث الثاني فقد خصصناه للحديث عن دور الفقهاء الديني ومختلف الأعمال التي قام بها هؤلاء في هذا الميدان في الجانب العقدي والاجتماعي كمحاربة التطرف والتكفير، وتصحيح ولاء العامة للدين وموقفهم من آفات العصر العثماني في الجزائر، كنعاطي الخمر وشرب الدخان، وقضايا المرأة، والتبرك بالأضرحة والاحتفالات الشعبية. وموقف الفقهاء الجزائريين من هذه الظواهر ومن اجتهادات غيرهم في الموضوع، وأما دورهم في الميدان السياسي الذي كان عنوانا للمبحث الثالث فقد تناولنا فيه قضايا الفقهاء السياسية المتعلقة بالفكر السياسي وموقفهم من الخلافة الإسلامية العثمانية ومشروعيتها، ودعوة الفقهاء إلى تحمل مسؤولياتهم في الإصلاح.

وختمنا الفصل بالحديث عن المادة الفقهية المتداولة في الجزائر في العهد العثماني، ويعد هذا الفصل من أعقد فصول هذه المذكرة لكونه يشمل كثيرا من المسائل السياسية الشائكة والقضايا الدينية الدقيقة التي تحتاج الاطلاع والدراسة، في التراث الإسلامي وفتراته السابقة.

وفي الفصل الرابع والأخير تناولنا موقف السلطة الحاكمة من الفقهاء وقسمناه هو الآخر إلى خمسة مباحث تناولنا فيها الوجود التركي في الجزائر، محاولين من خلاله تحديد نشأة نظام الحكم التركي في الجزائر ومعرفة مركز السلطة السياسية وطبيعتها، سواء في المركز أو في الأطراف، وأينا إلا بعث بعض الكتابات الكلاسيكية التي أثارت موضوع الوجود التركي في الجزائر ومناقشتها لبورة صورة تقريبية للسلطة والفقهاء، والتي تعد جوهر هذه الأطروحة وركيزتها الأساسية. كما بحثنا في هذا الفصل رؤية السلطة الحاكمة للفقهاء والمعايير التي كانت تعتمد عليها في تعيين هؤلاء في مناصبهم، ونماذج الانسجام والتعاون ونماذج التوتر والنفور بين الفريقين وأسبابه وعوامله، ونتائج النفور بين السلطة والفقهاء والمؤدي في غالب الأحيان إلى هجرة الفقهاء خارج البلاد، أو اندلاع الثورات والانتفاضات الشعبية والدينية هنا وهناك، وكان يصاحبنا خلال مختلف المحطات الفكر التصوفي بصوره المختلفة وتجلياته المتعددة، لكونه كان يتقاسم مساحة شاسعة من الضمير الجمعي للجزائريين في الفترة المدروسة، سواء كانوا من النخب السياسية والدينية والعلمية أو من العامة.. وختمنا البحث بحوصلة نهائية جمعنا من خلالها أهم النتائج المتوصل إليها.

7.- صعوبات في طريق انجاز الرسالة

عائنا في طريق انجاز هذه الرسالة مشاكل جمة، خاصة منها ضبط الخطة النهائية وضبط العنوان الذي تقدمنا به في المشروع الأولي والذي هو تحت مسمى: "الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني

1830-1850"، وقد وجدنا عنتا كبيرا في وضع وتحديد تصور، وضبط تعريف علمي ومنهجي للعنوان، مع معطيات المادة الخبرية التي توصلنا إليها.

وكان ضبط الخطة النهائية للبحث هما كبيرا وهاجسا مؤرقا، خاصة في ما يتعلق بتشابه دور الفقهاء والسلطة في الحياة السياسية وموقف كل واحد منهما من الآخر، فحينما أتحدث عن موقف الفقهاء من السلطة كما هو في الفصل الثاني، إنما هو حديث من وجه آخر عن السلطة وموقفها من الفقهاء والذي هو موضوع الفصل الثالث، وكان الأمر يتطلب رسم خط رفيع بين الفصلين لتجنب التكرار في سرد الوقائع وتشابه الصور في الحديث. وطرحت الترجمة للنصوص الأجنبية خاصة الفرنسية منها إشكالا آخر، خاصة الكتب الكلاسيكية التي استعنا بها ككتب الرحالة الغربيين ومقالات المجلات الفرنسية التاريخية أو المؤلفات الأخرى...

وارتبط الموضوع بالجانب الفقهي من حيث تطور مفاهيم الفقه المتعلقة بالمذاهب المدروسة، ومدى تطبيقها في الواقع. وتشعب الآراء الفقهية بينها، وكنا مجبرين على تتبع نشأة الفقه منذ عهود صدر الإسلام ومراحل تطوره وانتقاله إلى المغرب الإسلامي، وذلك من أجل ربط المسائل الفقهية المطروحة في العهد العثماني موضوع الدراسة بأصولها، وخط تطورها التاريخي والجغرافي، فوجدنا أنفسنا نبحث في علوم أخرى لها أدواتها ومناهجها الخاصة، كعلم الحديث والطبقات وتراجم الرجال والفقه وأصول الفقه وعلم التفسير والعقيدة وغيرها، ولم نكن في حل من دراسة وقراءة النصوص الدينية، وقراءة القواعد الفقهية والعمل على استيعابها وتوظيفها في البحث.

وكان البحث في كتب التراجم والتاريخ الإسلامي، من أجل الوصول إلى الإحاطة النسبية بالشخصيات التي تعرضنا لها في المذكرة، يمنحنا أحيانا الشعور بالبحث خارج العهد العثماني بل خارج مادة التاريخ، خاصة وأن طبيعة البحث تركز بصورة كبيرة على دور الفقهاء في نقل الفقه ومفاهيمه، ومكانتهم الدينية والفقهية وتأثيرهم في طبقات الشعب الأخرى، وعلاقتهم بالسلطة، وتفسير مستويات التلقي عند كل جماعة بشرية في المغرب الإسلامي.

كما كان لطول الفترة الزمنية المدروسة وغياب وجود مسوغات لتحديد الإطار الزماني والمكاني مشكلا أساسيا، فالفترة العثمانية فقها واحدة ومتناسقة من البداية إلى انتهاء الحكم التركي لكنها سياسيا تعج بأحداث وتحولات جذرية.

ومن الناحية المنهجية صادفتنا مشكلة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه سابقا ألا وهي اتسام الكتابات الأوربية للفترة العثمانية بالتطرف والغلو، ووجود كثير من التناقضات في فهم طبيعة المجتمع المحلي وتأثير القيم الدينية فيه، لاستمرار سيطرة رؤية المدرسة الغربية المادية في كتابة التاريخ المحلي، ومحاولة استبعاد تأثير القيم الدينية المحركة للمجتمع المستمدة من الفقه، مقابل تأثير التصوف بمدارسه وطرقه، فيحصل الإحساس للباحث بوجود ازدواجية في التعامل مع النص الديني من طرف الأوروبيين فإن كان النص الديني فقها له دلالاته

وقرائه، نجد الكتابات الفرنسية تسعى لتحريفه وتوظيفه في غير مقاصده، وحينما يكون النص الديني له علاقة بالتصوف والطرق الدينية فإن المسار يختلف في التعامل معه تماما.

ولا يزال الخلط في تفسير الوظائف الدينية من طرف الباحثين الغربيين، واعتبار كل منتسب لعالم المرابطين والطرقيين متدينا وفقها مهما تدنت مرتبته، مما يشكل صعوبة في فهم مقصد الباحثين والسياق الذي يريدون بلوغه، فكانت الصعوبة في هذا الجانب كبيرة في التوفيق بين الكتابات العربية المحلية والكتابات الغربية. وفي الأخير كانت قلة المادة العلمية التي تتحدث في الموضوع بصدد البحث وتبعثرها في مختلف التصنيف والتأليف مشكلة أساسية من حيث جمعها وتنسيقها، وهو ما يجعل البحث فيه يمكن أن يستمر أكثر في المستقبل، ليعالج المزيد من القضايا الفرعية والمسائل الدينية والفكرية والسياسية التي تغطي فترة الوجود العثماني في الجزائر والممتد على أكثر من ثلاثمائة سنة، ولا ننسى مشكلة الضغوط الإدارية التي كانت ممتدة على رقابنا كسيف الحجاج...

ومهما قلنا وعملنا فإن هذا الجهد يبقى دون الغاية المأمولة، وهو كأي جهد بشري محدود في الزمان والمكان، فقير إلى غيره لكنه عسى أن يكون لبنة صالحة في البناء، وإضافة مفيدة في تاريخ الجزائر العثمانية...

الفصل الأول

المذاهب الفقهية في الجزائر العثمانية

المبحث الأول: الخلاف الفقهي ونشأة المدارس الفقهية

المطلب الأول: بداية الخلاف الفقهي

المطلب الثاني: نشأة المذاهب الفقهية

المبحث الثاني: المذهب الحنفي في الجزائر

المطلب الأول: التعريف به

المطلب الثاني: انتشاره في المغرب الإسلامي

المطلب الثالث : بعض خصوصيات المذهب الحنفي

المبحث الثالث: المذهب المالكي في الجزائر

المطلب الأول: التعريف به

المطلب الثاني: مسار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي

المطلب الثالث: مكانة المذهب المالكي عند السكان

المبحث الرابع: المذهب الإباضي في الجزائر

المطلب الأول: نشأة المذهب

المطلب الثاني: المذهب الإباضي في المغرب الأوسط

المطلب الثالث: آراء الاباضية الفقهية والعقدية.

المطلب الرابع : التنظيم الإداري والاجتماعي لميزاب

المطلب الخامس: الفقه الإباضي في خدمة الوحدة السياسية

المطلب السادس: علاقة الميزابيين بالسلطة الحاكمة

المطلب السابع : مساهمة الاباضيين في دعم الحكم التركي

المبحث الأول: الخلاف الفقهي ونشأة المدارس الفقهية

المطلب الأول: بداية الخلاف الفقهي

يرجع الكثير من الدارسين لتاريخ الفقه بداية الخلاف الفقهي بين المسلمين إلى تفرُّق الصحابة وابتعادهم عن الحجاز، سواء للجهاد أو السعي لكسب القوت، وعدم جلوسهم إلى النبي ص بصفةٍ دائمةٍ، ووقع نفس الشيء خلال فترة أبي بكر الصديق وعمر وعثمان من بعده.

وكانت القضايا الفقهية تعالج وتدرس تبعاً لحضور الصحابة في المدينة بعينها فإن كان للصحابة الحاضرين أثرٌ وحكم عن النبي عملوا به، وإلاَّ اجْتَهَدَ فقهاء تلك المدينة في ذلك، وقد يكون في تلك القضية حُكْمٌ عن النبي موجودٌ عن صاحب آخر في بلدٍ آخر، فحضر المدَّني ما لم يحضر المصري، وحضر المصري ما لم يحضر الشامي، وحضر الشامي ما لم يحضر البصري، وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي وهكذا⁸.

ومن الذين كتبوا في الخلاف الذي وقع بين الفقهاء بالتفصيل خاصة بين الجيل الأول من الفقهاء "فقهاء الصحابة"⁹ الإمام الشافعي في كتابه الأم.

وأهم مسائل الخلاف التي رصدها الشافعي ما اختلف فيه أبو حنيفة النعمان وابن أبي ليلى واختلاف علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، واختلاف مالك بن أنس والشافعي وذلك في مسائل شتى، وذكر خلاف ابن عباس مع فقهاء عصره في البُيُوع وزيد بن ثابت في الطلاق وعمر بن عبد العزيز في عُشُور أهل الذِّمَّة وغيرها من المسائل التي أثارت النقاش والجدل بين فقهاء الطبقة الأولى¹⁰.

ومن نتائج هذا الخلاف أن الصحابة لما تفرقوا في البلدان شرعوا يُفَقِّهون الناس، كلُّ يُفْتِي بما اجتمع له من علم، ويختص كل منهم ببيئة مُعَيَّنة، فاختص ابن عباس بمكة، وابن عمر بالمدينة، وابن مسعود بالكوفة، ومعاذ باليمن، وهكذا، وأخذَ الناس عنهم هذا الذي اجتمع لهم، إلى جانب ما أفتوا فيه بآرائهم فيما كان يحدُّ من أحداث، دون أن يحفظوا له أثرًا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو يعلموا له نصٌّ حُكْمٍ من الكتاب، فأصبحت الآثار وآراؤهم تُكَوِّن مجموعة الآثار التي يرجع إليها في البيئة، التي نزل إليها كلُّ صحابي.

8 - ابن حزم الأندلسي ، الإحكام في أصول الأحكام، ج2، تح احمد محمد شاكر، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1980 ص 126.

9 - محي الدين عبد السلام البلتاجي، "عرض للخلاف بين المدارس الفقهيَّة، من خلال كتاب "موقف الإمام الشافعي من مدرسة العراق الفقهيَّة" مقال الكتروني، 2008. www.alukah.net/alqseer/1051/page/12/

10 - محي الدين عبد السلام البلتاجي، المقال السابق.

وقد تَرْتَّبَ عن هذا الأمر أن انفردَ بعض الصحابة بأحكامٍ دون بعض، وأنَّ مَنْ كان منهم يوفد إلى بيئة، كان يُفْتِي بما عنده من أحكام، حتى إذا عرض له أمر ليس فيه لديه حكمٌ، اجتَهَدَ فيه برأيه، مقتدياً بما وَجَّه به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معاذ بن جبل إلى اليمن¹¹.

ويجمع المؤرخون بأن المدينة المنورة تعد موطن العلم والفقه وأنجبت العديد من الفقهاء مثل سعيد بن المسيَّب الذي كان حافظاً لقضايا عمر بن الخطاب، وحديث أبي هريرة، ومثل عروة وسالم، وعطاء بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله، والزُّهري، ويحيى بن سعيد، وزيد بن أسلم، وربيعه وغيرهم من طبقة التابعين الأولى. ولفضائل المدينة فقد صارت مأوى الفقهاء، ومجمع العلماء في كل عصر، ولذلك كان مالكا يُلَازِم ربوعها¹².

ثمَّ أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار كما يقول ابن حزم: كأبي حذيفة، وسفيان، وابن أبي ليلى بالكوفة، وابن جُرَيج بمكة، ومالك، وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان السبتي وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث بمصر، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحدٍ منهم عن التابعين من أهل بلدة فيما كان عندهم، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم، وهو موجود عند غيرهم¹³.

ومما سبق يمكن القول أن أسباب الاختلاف الأساسية تكمن في :

عدم تساوي الصحابة في العلم بكل ما جاء عن الرسول.

تفضيل علماء كل بلد على غيرهم، مما كان مأثوراً عند غيرهم في البلدان الأخرى¹⁴.

وجود أعرافٍ مستقرّة في البيئات التي انتشر فيها الإسلام، ميزتها دون البيئات الأخرى، وأثَّرت في الفقه الإسلامي من حيث الترجيح واستخراج الأحكام.

المطلب الثاني: نشأة المذاهب الفقهية

قبل الحديث عن نشأة المذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي يستحسن تقديم تعريف للمذهب، فالمذهب لغة الطريقة واصطلاحاً المعتقد الذي يذهب إليه يقال ذهب مذهباً حسناً ويقال ما يدرى له مذهب، ويطلق أيضاً على ما قاله المجتهد بدليل ومات قائلًا به، والمذاهب أنواع فهناك المذاهب

11 - محي الدين عبد السلام البلتاجي، المقال السابق، مقال اليكتروني.

12 - شاه ولي الله الدهلوي ، حجة الله البالغة، ج01، تح سيد سابق، دار الجيل للنشر والتوزيع، 2005. ص 144.

13 - ابن حزم، المصدر السابق، ص 128.

14 - البلتاجي محي الدين عبد السلام ، المرجع السابق، مقال اليكتروني.

الكلامية والمذاهب الفقهية والمذاهب اللغوية، وأشهر المذاهب الفقهية مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ومذهب الإمام مالك بن انس، ومذهب الإمام إدريس الشافعي ومذهب الإمام أحمد بن حنبل¹⁵.

والمذاهب الفقهية هي عبارة عن مدارس فقهية برزت ونشطت في مجال تفسير نصوص الشريعة واستنباط الأحكام منها، فهي مناهج فقهية في الاستنباط والتعرف على الأحكام الشرعية، وليست شرعا جديدا¹⁶، كما يحلو للبعض وصفها لأن الشريعة الإسلامية أكبر وأوسع من المذاهب وهي حجة على كل المذاهب الإسلامية.

ولعل من أسباب رواج المذاهب الأربعة دون غيرها هي التدوين ونشر التلاميذ لأقوال أئمتهم وعمل الأئمة وطرقهم في الاستنباط والإتباع. ويربط بعض المؤرخين بين نشأة المذاهب الإسلامية وتاريخ الفقه الإسلامي وبداية التشريع الإسلامي.

المبحث الثاني: المذهب الحنفي في الجزائر

المطلب الأول: التعريف به

كثيرا ما يقتصر ذكر الدارسين للمذاهب الفقهية في الجزائر على مذهبين فقط هما المذهب الحنفي والمذهب المالكي متجاوزين ذكر المذهب الإباضي الذي كان مذهباً ثالثاً اعتنقه أهالي ميزاب فضلا عن الميزابيين المقيمين في مدن الشمال.

سمي بالمذهب الحنفي نسبة للإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، ولد الإمام أبو حنيفة النعمان سنة 80هـ ونشأ بين ممارسة حرفة التجارة في الكوفة وطلب العلم في البصرة، التي كانت رائدة في علم الكلام¹⁷ والفلسفة في هذه الفترة، فقد نشأت بها مدارس علم الكلام المختلفة، وقد أفاد أبو

15 - خالد رمضان حسن، معجم أصول الفقه، الروضة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص 295 ص 256.

16- خالد رمضان حسن، المرجع نفسه، ص 295 - 256.

17 - علم الكلام هو علم الخطاب والتجادل بين الفقهاء بهدف تجلية الحقائق الدينية بالمنطق العقلي والنظر الفكري، ويؤيد المعتزلة هذا المنهج لأن العقل والتفكير العقلاني يزعمهم يؤديان إلى إدراك أوامر الله ونواهيه التي هي في متناول التفكير والبحث العقلاني . كما اعتمدت بعض المدارس السنية العقل في تقريب فهم النصوص الدينية كالأشاعرة في مقابل ذلك شددت المدارس

حنيفة كثيرا منها في تعلم أسلوب الحوار والمجادلة مع خصومه. ثم درس اللغة والقوانين¹⁸ وقد وفق أبو حنيفة في الجمع بين طلب العلم والتفقه فيه وبين التجارة والتي جعلته يعد من أثرياء البلاد، وكان يقول دوما "لا تشاور من ليس في بيته دقيق، حتى تكون مشورته خالصة لوجه الله فالفقير المحتاج أضعف عند الحاجة"¹⁹.

ويعد أبو حنيفة من الشخصيات التي جمعت المال والعلم معا، حتى أن خصومه وشوا به إلى المنصور من هذا الباب لينتقموا منه فاتهموه بدعم ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية²⁰.

وكان أبو حنيفة لا يترك الفتوى في أي جزء من أجزاء الحياة اليومية للناس ولو كان بسيطا، فقد أفتى بأن الماء المستعمل غير طهور، ومن أجل ذلك اتخذ الناس حياضا للماء ذات صنابير ينزل منها الماء جديدا لأول مرة، فنسبت هذه الصنابير لأبي حنيفة وصارت تسمى بالحنفيات²¹. وجالس أبو حنيفة العديد من الفقهاء والعلماء منهم شيخه حماد بن أبي سليمان، وقد تلقى هذا الأخير الفقه عن إبراهيم النخعي والشعبي، وبواسطتهما أخذ فقه القاضي شريح وعلقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع. وهؤلاء تلقوا بدورهم من فقه عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وغيرهما من الصحابة الكرام²².

وقد عُرف عنه حب التفقه والبحث ورأى من خصمه قوة في الحجة واجبة الإتيان رضى له وسلم، وكان دوما يذكر أتباعه وتلاميذه بمقولته الشائعة " رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا"²³. قال عنه تلميذه محمد بن الحسن الشيباني قال: كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينتصفون منه ويعارضونه حتى إذا قال استحسن لم يلحقه أحد

الصوفية في أن أية حقيقة دينية لا يمكن إدراكها عن طريق الجدال والمنطق، وكذلك المذاهب الفقهية التي وقفت ضد علم الكلام واعتبرته مخالفة للدين الحق.

18 - عبد الحليم الجندي، أئمة الفقه الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1972، ص 23.

19 - عبد الحليم الجندي، المرجع نفسه، ص 24.

20 - محمد أبو زهرة، أبو حنيفة حياته عصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1945، ص 143.

21 - عبد الحليم الجندي، المرجع السابق، ص 26.

22 - محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج 2، دار الفكر العربي، دت، ص 137.

23 - محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب، المرجع نفسه، ص 137.

منهم لكثرة ما يورد في الاستحسان من مسائل فيذعنون له جميعا ويسلمون، وما ذاك إلا لإدراكه لدقائق المسائل وصلتها بالناس ومعاملاتهم وأغراضهم²⁴.

وتعرض أبو حنيفة للكثير من المحن والفتن والابتلاءات التي كان وراءها الخصوم واختلقها المناوئون له، وحاول الخوارج في مرات كثيرة اغتياله وهو في حلقتة، وكذلك فعل أمراء زمانه الذين رفض الإمام أبو حنيفة ولاية قضائهم وموالاتهم في أعمالهم وسياساتهم²⁵.

وقد رفض أبو حنيفة ولاية القضاء العديد من المرات²⁶ وكان ينصح أتباعه وتلاميذه بتجنب القضاء، لما فيه من ظلم وعجز عن إقامة العدل بين الناس، وقد كتب إلى أحد تلاميذه لما تقلد القضاء قائلاً له: "أنت كالغريق التمس لنفسك مخرجاً" وكان تلاميذه يتذكرون قوله: "من جعل قاضياً فهو كالغريق إلى متى يسبح وإن كان سابحاً"²⁷

ومن خلال هذه المواقف يتضح لنا أن أبا حنيفة لم يكن يطمح للمناصب والرتب العليا وكان زاهداً فيها. سجن عقب تأييده للعلويين خاصة منهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم الذين أعلنوا الثورة على العباسيين سنة 145هـ 762 م في ظل خلافة أبي جعفر المنصور 136هـ - 158هـ 754 م 775 م وتوفي بالسجن²⁸.

وقد بلغ أبو حنيفة مكانة كبيرة بين رواة الفقه والعلم، ويذكر الرواة أن الإمام الأوزاعي كان يبالي في كرهه لما كان يبلغه عنه أول أمره ولم يكن لقيه من قبل، فلما لقيه وجاراه في المسائل قال لابن المبارك²⁹ "غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله، استغفر الله لقد كنت في غلط ظاهر، إلزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني"³⁰ وقال فيه: "لو كان الإمام قليل الاعتناء بالحديث ما أخذ أجل المحدثين

24- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب، المرجع نفسه، ص 138.

25 - عبد الحليم الجندي، المرجع السابق، ص 34.

26 - الصبحي العلوي، المرجع السابق، ص 69.

27 - عبد الحليم الجندي، المرجع نفسه، ص 35.

28 - محمد الطائي، الدولة الأغلبية 296هـ 184 909م 800م التاريخ السياسي، ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت 1985، ص 73.

29 - عبد الله بن المبارك تابعي جليل عاش في النصف الأول من القرن الهجري الثاني.

30- حبيب احمد الكيرواني، أبو حنيفة وأصحابه، مكتب البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دت، ص 52

وأكابهم بأقواله" وقال في شأنه يحيى بن معين³¹ "الفقه عندي فقه أبي حنيفة والقراءة قراءة حمزة وعليه أدركت الناس"³².

لقد كان أبو حنيفة فقيها أصوليا لم ينقص من قيمته العلمية ومكانته الفقهية كونه من رواد مدرسة الرأي التي له فيها أثارا بارزة شكلت منهجا جديدا لعلم أصول الفقه وترك مجموعة من التلاميذ الذين نقلوا فقهه من بعده، منهم محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني³³: وزفر بن هذيل بن قيس الكوفي والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي ت (204هـ).

ويتأسس المذهب الحنفي كغيره من المذاهب الإسلامية على جملة من القواعد العامة المشتركة وقواعد خاصة انفرد بها، ويمكن تحديد أهم قواعد المذهب في : أولا: القرآن الكريم، ثانيا: السنة النبوية، ثالثا: الإجماع³⁴، رابعا: أقوال الصحابة³⁵، خامسا: القياس³⁶، سادسا: الاستحسان³⁷، سابعا: الحيل³⁸.

31 - يحيى بن معين تابعي جليل إمام وحافظ ومحدث ولد سنة 158 ..

32 - حبيب احمد الكيرواني، المرجع السابق، ص 52.

33 - هو أبو عبد الله الشيباني الكوفي صاحب أبي حنيفة فقيه وعالم عراقي ولد بواسط، سنة (132هـ) ونشأ بالكوفة. ثم انتقل إلى بغداد حاضرة الدولة والعلم في ذلك العصر، واتصل بأبي حنيفة وأخذ عنه أصول المذهب توفي سنة (187هـ) انظر شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء، ج09، ط11، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1996م، ص 134.

34 - الإجماع هو ما اجتمع عليه أهل الفقه والعلم من المسائل الفقهية ولم يختلفوا فيها. انظر عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية عسر، القاهرة، 1978، ص53.

35 - قول الصحابي: اختلف الفقهاء في مسألة قول الصحابي هل هو حجة أم لا؟ فمنهم من قال حجة مطلقا، ومنهم من قال انه ليس حجة مطلقا، وذهب فريق ثالث إلى أنه حجة إذا وافق القياس أو خالفه، أو أنه حجة إذا صدر من الخلفاء الراشدين جميعا. انظر عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه 94.

36 - القياس هو إلحاق واقعة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص بحكمها في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في على هذا الحكم ومن أمثلة ذلك شرب الخمر واقعة ثبت بالنص حكمها لعله هي الإسكار فكل نبيذ توجد فيه هذه العلة يسوى بالخمير في الحكم ويحرم شربه. انظر عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه. ص52.

37 - الاستحسان: الاستحسان لغة عد الشيء ذا حسن واعتقاده حسنا. وفي الاصطلاح: عرف الاستحسان بأنه العمل بأقوى الدليلين في مسألة مختلف فيها، وقال البعض بأن الاستحسان ضرب من الترجيح لكونه يتراوح بين دليلين أحدهما أقوى من الآخر فيأخذ بالأقوى. انظر عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه ص79.

3- الترجيح لغة: هو التغليب والتمثيل ومنه رجح الميزان إذا مال. وفي الاصطلاح عرف بأنه: " تقديم المجتهد أحد الدليلين المتعارضين لما فيه من مزية معتبرة تجعل العمل به أولى من الآخر ". " تقديم المجتهد بالقول أو الفعل أحد الطريقتين المتعارضتين لما فيه

ومن أبرز الأصول التي بنى عليها الفقه الحنفي ويختلف فيها عن المذاهب الأخرى هو الاستعداد للبلاء قبل نزوله، وذلك بافتراض مسائل فقهية لم تحدث بعد والبحث في سبل معالجتها، خلافا للمالكية التي لا ترى في النازلة إلا عند وقوعها³⁹.

المطلب الثاني: انتشاره في المغرب الإسلامي

لم يعرف المذهب الحنفي انتشارا وذبوعا مثلما عرفه مذهب مالك، فقد كان من أبرز سبل التمكين والانتشار للمذهب الحنفي قيام هارون الرشيد بتعيين أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، قاضيا لقضاياه سنة 170هـ، فأصبح تولية القضاة بمشورته وتحت عينه فلم يكن يُولي بالبلاد الإسلامية من القضاة إلا الأحناف.

ومن خلال ذلك يتبين لنا مدى أهمية السلطان السياسي في التمكين للمذهب الحنفي الذي ربما لولاه لما عرف مثل هذا الشيوع، وفي هذا الإطار يقول ابن حزم: "مذهبان انتشرا في بادئ أمرهما بالرياسة والسلطان: المذهب الحنفي بالمشرك والمذهب المالكي بالأندلس"⁴⁰.

وقد مر انتشار المذهب الحنفي في المغرب الإسلامي بمرحلتين أساسيتين هما:

أولا / المذهب الحنفي في المرحلة الأولى

قدم الفقه الحنفي للمغرب الإسلامي بقيام الدولة العباسية ولم يلق إقبالا لقلّة اعتماده على الحديث وميله للرأي والاجتهاد⁴¹.

من ميزة معتبرة تجعل العمل به أولى من الآخر. والمجتهد يمثل الجهة المؤكول إليها الترجيح والترجيح من فعل المجتهد وهو مذهب الجمهور. انظر عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه ص229.

38 - الحيل يقصد بالحيل البحث في الخروج من المضايق التي تغيب فيها الرؤية الواضحة للمسألة الفقهية وهو أصل من أصول أبي حنيفة يندرج ضمن ما سماه (باب الحيل)، وقد وصفه البعض بـ"التحايل على إسقاط حكم شرعي، أو قلبه إلى أمر آخر خدمة للمكلف ورفع الحرج عنه". وقد لقي هذا الأصل معارضة الكثير من الفقهاء حتى بعض من يقول بالرأي، ورد عليه البخاري في كتابه (الجامع الصحيح). انظر عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه..

39 - ورد عن أبي حنيفة أنه سأل أحد تلامذته: "ما تقول في رجل غاب عن أهله أعواما فظنت امرأته أن زوجها مات فتزوجت بغيره ثم رجع زوجها الأول ما تقول فيها" فقال تلميذه: "ويل أوقعت هذه المسألة" قال أبو حنيفة: "لا" فقال له: "تسألني عن شيء لم يقع" فقال أبو حنيفة "أنا استعد للبلاء" انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج 13، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د ت، ص348.

40 - طه جابر العلواني، التمدد الفقه في العهد العثماني" في المجلة التاريخية المغربية، العدد، تونس ص 379-390.

41 - حسن احمد محمود واحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966. ص249.

والراجح أن أول شخصية عملت على إدخال الفقه الحنفي للمنطقة هو عبد الله بن المغيرة الكوفي⁴²، وذلك في النصف الأول من القرن الثاني الهجري بالقيروان بعدما التقى بأبي حنيفة في العراق، وعمل على نشر مبادئ فقهه كالقول بالرأي والنظر والاستدلال والقياس⁴³.

جاء في موسوعة شجرة النور الزكية لابن مخلوف، أن أول المذاهب التي سادت القيروان المذهب الحنفي الذي يعد المذهب الرسمي للدولة العباسية، إلى جانب مذاهب فقهية وفكرية أخرى نازعت القيروان وإفريقيا عامة، مثل الشيعة والخوارج، يقول ابن مخلوف: "ولقد كان بإفريقيا مذاهب الشيعة والصفورية والإباضية والنكارية والمعتزلة وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك"⁴⁴.

ويمكن تحديد الفترة التي سادها المذهب الحنفي كمذهب رسمي محمي من طرف السلطة في بلاد المغرب الإسلامي ابتداء بالقرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وظل قائما حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، بعد فترة ساد فيها انتشار مذهب السلف وأصحاب النص⁴⁵.

ومن أبرز عوامل انتشار المذهب الحنفي في المغرب الإسلامي تجاوز مرحلة الثورات وحركات التمرد التي هزت أركانه⁴⁶، وبداية ارتسام مرحلة جديدة اتسمت بالسعي لاستيعاب الثقافات الوافدة من المشرق. دون أن ننسى تأثير حركة الحج السنوية وهجرة العلماء.⁴⁷ وقد تركز المذهب الحنفي أولا في مدينة القيروان ثم انتشر في غيرها من الجهات كطبنة وبسكرة وطولقة التي تعد من أبرز قواعد إقليم الزاب⁴⁸ بالمغرب الأوسط.

42 - عبد الله بن المغيرة الكوفي: يرى بعض الباحثين مثل المستشرق فندر هايدن أنه وراء دخول المذهب الحنفي إلى إفريقيا انظر: نجم الدين الهنتاتي، تطور المذهب الحنفي بالقيروان خلال القرون الوسطى، المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية، جامعة الزيتونة، تونس، مقال اليكتروني.

43- إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص52.

44 - محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1349هـ. ص77.

45 - النص يعني به اللفظ الذي تكون دلالاته قوية الظهور وهو مصطلح الفقهاء، ويقصد به أيضا الكتاب والسنة انظر: خالد رمضان حسن، المرجع السابق، ص 311.

46 - إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 50.

47- إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 50.

48 - إقليم الزاب: يضم مدن بسكرة وتوزر وطولقة وقفصة ونفزاوة وبادس وبلاد ريغ، وصفه ليون الإفريقي بشدة الحرارة، وكثرة الرمال، وقلة الماء، ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ص 138.

ووقف الأحناف إلى جانب المذاهب السنية الأخرى في مقاومة أهل الملل والنحل المنحرفة، الذين كانوا يدعونهم بالزنادقة⁴⁹، وساهموا في محاربة مختلف الرذائل والتشدد في إقامة الحدود، في وقت بلغ الانحلال ذروته خاصة في صفوف طبقة الأشراف والنبلاء⁵⁰.

واعتنى فقهاء هذه الفترة بتأليف الكتب التي تساعد في نشر المذهب الحنفي وتعرف به، فقد جمع أبو الفضل المروزي المعروف بالحاكم الشهيد (ت 344هـ) كل كتب ظاهر الرواية في الفقه الحنفي وسماه المبسوط⁵¹ في 30 مجلدا فصار موسوعة المذهب يعتمد عليه الطلبة والدارسون للفقه الحنفي، والمبسوط أحد الستة مؤلفات الأساسية في الفقه الحنفي فضلا عن الجامع الكبير الجامع الصغير السير الكبير السير الصغير والزيادات⁵²، ومن أسباب زوال المذهب الحنفي في المرحلة الأولى:

1- اعتناق السلطة السياسية للمذهب الحنفي وميل المغاربة لمخالفة السلطة مهما صدر منها.

2- وقوف الأحناف مع المعتزلة في القول بخلق القرآن، بخلاف المالكيين الذين تمسكوا بمذهب أهل السنة والجماعة⁵³. ففي القيروان التي كانت محور صراع فكري ومذهبي وقد تأثر الحنفية بفكر المعتزلة نتيجة مجاراتهم للأغلبة، الذين قدموا الاعتزال مذهباً عقائدياً، والحنفية مذهباً فقهياً. فاختلطت الأوراق على أهل القيروان، وتخلوا عن المذهب الحنفي في إطار معارضتهم للأغلبة، مما ساهم في تراجع انتشاره بينهم. فأصبح المذهب الحنفي خلال النصف الثاني من القرن 3هـ/9م مذهب الخاصة، ومذهب الطبقة الأرستقراطية، فتراجعت خلالها شعبية المذهب⁵⁴.

3- النسب غير العربي لجيل الرواد الذين نشروا المذهب، فأسد بن الفرات ناشر المذهب الحنفي بإفريقية، كان من الموالي الفرس. وقد أخذ هذا المذهب عن مولى مثله وهو محمد بن الحسن

49- إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 155.

50- أورد أحد المؤرخين عن الأمير الأغلي زيادة الله أنه سأل القاضي أسد بن الفرات وأبا محرز الحنفي عن جواز دخول الرجل الحمام مع الجوّاري طلباً للذة ما دام الشرع يبيح التمتع بما ملكه اليمين، وكان الأمير يتوقع الإباحة والتيسير، فرد أبو محرز قائلاً: "إذا كان يحل لك أن تنظر إلى عورتهم فإنه لا يجوز لهن النظر إلى عورات بعضهن البعض" إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 99.

51 - المبسوط كتاب في الفقه الحنفي للعلامة الفقيه محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483 هـ).

52 - طه جابر العلواني، المرجع السابق، ص 379-390.

53 - إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 231.

54 - نجم الدين الهنتاتي، تطور المذهب الحنفي بالقيروان خلال القرون الوسطى، المقال السابق.

الشيبياني⁵⁵ صاحب أبي حنيفة الفارسي الأصل أيضا. وفي هذا المعنى يقول أحد المحققين: "إن من جملة ما يشنع به الحساد على أبي حنيفة أنه من جملة الموالي، وليس من العرب، وأن من كان مجتهدا من العرب أولى بالتقديم من غيره" وبالفعل، فقد انتهى أهل إفريقية بتقديم المذهب المالكي لأسباب منها انتساب صاحبه مالك، وناشره هناك، الشيخ سحنون، إلى العرب⁵⁶.

4- عجز الأحناف على تكوين جماعة فقهية متماسكة وبناء جبهة مركزية موحدة لمواجهة فقهاء المالكية، فقد ذكر الرواة أن الفقهاء الأحناف كانوا يميلون للتسرع في مناقشة المسائل والفتاوى ولا يعيرون خصومهم من المالكية أية تقدير، في حين أن سحنون مثلا كان يتجنب التسرع والتخطفة للمخالفين⁵⁷.

5- ضعف التكافل بين رجال الحنفية فقد كانوا لا يملكون حدا أدنى من التكافل الاجتماعي بينهم ولا يبدون استعدادا لذلك، في حين كان رجال المالكية خلاف ذلك. فعندما طلب حنفي متحمس لمذهبه مساعدة مالية من أصحابه، خذلوه، فمكنه منها عبد الله بن طالب أحد الفقهاء المالكيين⁵⁸.

6- استمرار ارتباط أحناف إفريقية بمصر، وكان من اللائق للمذهب الحنفي الإفريقي أن يتغذى من أحناف بغداد عاصمة العباسيين موطنه الأصلي، إلا أن العراق ليست على طريق الحجاج حتى يتسنى لهم النيل من مبادئ المذهب وأفكاره، لذلك ظل المذهب الحنفي الإفريقي معزولا عن نقطة ارتكازه الأولى وهي العراق، مما جعله يعرف تقوقعا وبالتالي ذبولا على المدى الطويل.

7- دور علماء المالكية غير المباشر في القضاء على المذهب الحنفي في إطار مقاومة الاعتزال، فمن الراجح أنهم تعمدوا اتهام الأحناف ككل بالاعتزال، حتى ينقروا العامة من المذهب

55 - محمد بن الحسن الشيبياني 132هـ 189هـ ولد بواسط عاش بالكوفة وتوفي بالري تفقه على أبي حنيفة ثم على أبي يوسف ولازم مالك أنس مدة وانتهت إليه رئاسة الفقه بالعراق وكان نابغة ومجتهدا وصنف الكثير من المصنفات وهو صاحب الفضل في تدوين المذهب الحنفي وكتابه ظاهر الرواية هي الحجة المعتمدة عند الأحناف. انظر : وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، الجزء 01 ، ط02، دار الفكر، دمشق 1985، ص16.

56- نجم الدين الهنتاتي، المقال السابق..

57 - الهنتاتي، المقال نفسه .

58 - الهنتاتي. المقال نفسه.

الحنفي. وربما ساعدت على ذلك عقلية أهل إفريقية التي لم تتفاعل مع الاعتزال. ولذلك فإنه من الطبيعي أن هؤلاء سينتهون بالتخلي عن المذهب الحنفي لفائدة المذهب المالكي⁵⁹.

ثانيا / المذهب الحنفي في المرحلة الثانية

عاود المذهب الحنفي القدوم إلى الجزائر مع قدوم الأتراك في بداية القرن السادس عشر ولا نعلم بالضبط أول قدوم له ولا كيفية العمل به. لكن الراجح أنه كان محدود الانتشار في البداية رافق الباشاوات وفرق الانكشارية الذين كانوا يعينون لإدارة شؤون الإيالة في بدايات الحكم العثماني. وقد كانت الأقطار المغاربية سنية مالكية ولم يكن أهلها حنفيون قبل مجيء الأتراك وكان معظم السكان ينطقون باللغة البربرية⁶⁰.

وكان للجزائر علماؤها من المالكية قبل نزول الأتراك بها، ثم بدأ ظهور هذا المذهب "وتوصل البعض من أولاد الترك إلى الإمامة والخطابة وخطبة الفتوى"⁶¹، كما يعبر عن ذلك ابن المفتي المشار إليه سابقا.

وكان المفتون الأحناف يأتون في البداية من القسطنطينية مع الباشاوات يساعدونهم في تسيير القضايا الدينية والفقهية والإفتاء، وبعد نهاية الخدمة يتولون وظائف أخرى كالجمارك ومؤسسات الأوقاف⁶²، كما كانوا لا يستمرون في تولي منصب الفتوى طول حياتهم فسرعان ما يتغيرون بتغير هرم السلطة، خاصة في مرحلة بداية الحكم التركي.

ويورد ابن المفتي أن أول من تقلد منصب الفتوى من الأحناف في مدينة الجزائر هو الفقيه سيدي محمد بن قرمان المتوفي سنة 1606م. حيث يقول: "ومن بين المفتي الذين ادركناهم العالم الفقيه مفتي الإسلام سيدي محمد بن قرمان المتوفي سنة 1606 وقد عاصر في الفتوى ابن عمار المفتي المالكي سنة 1608"⁶³

ونظرا لكون المذهب الحنفي مرافقا للنخب السياسية والعسكرية التركية القادمة للخدمة في الجزائر فإن إطاره الجغرافي حتما سيشمل الحواضر والحاميات، التي تعيش بها الأقلية التركية العاملة في

59- اهتتاقى. المرجع السابق.

60- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، اسطنبول، تركيا، 1988، ص 255.

61- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 08.

62- ابن المفتي، المصدر السابق، ص 28.

63 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 29.

الجيش الانكشاري والكراغلة والموظفين التابعين لنظام الحكم، في كل من بونة قسنطينة مدينة الجزائر المدينة مازونة وهران بعد تحريرها القل وبسكرة والبليدة شرشال تيبازة وغيرها⁶⁴.

المطلب الثالث: بعض خصوصيات المذهب الحنفي

تميز الحكم العثماني في الجزائر في كثير من القضايا والمسائل ذات الطابع الفقهي بنوع من الخصوصية والتميز عن غيره من المذاهب وألقت بظلالها على الحياة الاجتماعية والسياسية اليومية، ووقع في مرات عديدة التجاذب بين النخب الفقهية والمذهبية بسببها، وإن لم تتجلى كثيرا صوره عند فئة العامة، ففضلا عن خصوصيات اللغة والانتماء الجنسي وملامح الحياة العامة كالمأكل والملبس التي يتميز بها الأتراك فقد مس هذا التميز جوانب تتعلق بفقه المرأة ومسائل النبيذ والأوقاف والعمران وغيرها، وقد لقيت هذه المواضيع اهتمامات الباحثين للفترة العثمانية لكنها ما تزال بحاجة إلى الكثير من القراءات الجديدة، وقد تناولت في هذا المبحث بعض هذه الخصوصيات قصد البحث والإثراء منها:

أولا: ولاية المرأة في الزواج

منح الفقه الحنفي للمرأة المسلمة مكانة كبيرة لم تنلها في المذاهب الأخرى فهو يبيح للمرأة أن تجلس للقضاء قاضية وتقبل شهادتها فيه، كما لا يرى بأسا في مصافحة الأجنبية ولا يعد ناقدا للوضوء بقدر ما هو الملامسة المتعمدة التي تنتهي بجماع وتفضي لفاحشة⁶⁵. كما جعل للمرأة الحرة البكر الحرية في أن تزوج نفسها ممن تريد وترتضي، دون أن تكون صحة العقد مشروطة بحضور الولي وموافقته وليس له إجبار لها في تغيير عقد النكاح⁶⁶.

64 - صالح بوبشيش، "المدارس الفقهية في الجزائر"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، سنة 2004، ص 152..

65 - عبد الحليم الجندي، المرجع السابق، ص 27.

66 - عبد الحليم الجندي، المرجع نفسه، ص 29.

فقد تفرد الفقه الحنفي عن غيره في موضوع ولاية المرأة⁶⁷ في الزواج، بينما شددت المذاهب الأخرى على ضرورة موافقة الولي وجوبا لانعقاد الزواج⁶⁸، فلا تعقد المرأة النكاح على نفسها ولا على غيرها بكرا كانت أو ثيبا، شريفة أو دنية رشيدة أو سفيهة حرة أم أمة⁶⁹.

فعقد النكاح في المذهب الحنفي يقوم على ركن الرضا والإيجاب من الزوجة دون إكراه لها أو حملها على قبول الزواج سواء كانت ثيبا أو بكرا⁷⁰.

وأما عقد النكاح في المذهب المالكي فقد جعل من لزوم الولي وحضوره وموافقته ووجود الشهود- لإعلان الزواج في المحل الذي تسكنه المرأة - حتى لا يتقدم آخر لخطبتها فيقع حرج للزوج والزوجة فضلا عن صيغة العقد بالإيجاب والقبول بين أهلي الزوج والزوجة والمهر⁷¹.

وبالرغم من قلة معتنقي المذهب الحنفي في الجزائر مقارنة باتباع المذهب المالكي إلا أن هذه الخصوصية أفرزت جملة من الانعكاسات التي ربما لم تكن مألوفا من قبل، منها ذبوع زواج السر عند الأتراك، والذي يطلق عليه أحيانا الزواج العرفي، بحيث كانت المرأة خشية رفض أسرتها لهذا النمط من الزواج تستنجد بالفقه الحنفي ملتزمة منه المخرج وقد ذكر ابن حمادوش أن الخزناجي إبراهيم كانت معه امرأة تضاجعه سرا فاستنكر عليه بن حمادوش هذا الأمر فقال له بأن المرأة زوجته شرعا، فطلب منه أن يعلن الزواج عليها، "فاستظهر وثيقة فيها أنهما على نكاح السر على مذهبه فأمر بإفشائه فبعث به إلى قاضي القضاة بالجزائر ليشهره"⁷².

وتبرز هذه الحادثة من جانب آخر قوة الفقيه المالكي حينما لا يقبل المساومة في مذهبه والخلط في شريعته، حيث تمكن ابن حمادوش من فرض إعلان الزواج على الملا على الخزناجي تفاديا

67- ولي المرأة الذي يلي عقد النكاح عليها، ولا يدعها تستبد بعقد النكاح دونه، وتولى الشيء لزمه. ابن منظور، لسان العرب، ج15، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1994. ص ص 407، 410. وعرف ابن عرفة الولي بأنه: " من له على المرأة ملك أو أبوة أو تعصيب أو كفالة أو سلطة أو ذو إسلام"

68 - محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، قوانين الأحكام الشرعية ومساائل الفروع الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ص331-332..

69 - ابن جزي، المصدر نفسه، ص332.

70. عبد الرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، ج04، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1970، ص30.

71. صالح فركوس، تاريخ النظم القانونية والإسلامية، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة 2001، ص77.

72- عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة بن حمادوش المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح أبو القاسم سعد الله، (م. و. ك.) الجزائر، 1983. ص236.

للشبهة التي قد يثيرها هذا النمط من الزواج بين الأهالي، الذين يسير أغلبهم وفق المذهب المالكي، الذي ينص على ضرورة إشهار النكاح ليعلم به كل الناس.

ومن خلال هذه الواقعة أيضا يتبين مدى دقة الوضع الذي كان عليه فقه المرأة وسبل ارتباطها بالرجل، وقد حرص الفقه المالكي على ألا يدعو مجالا للشك والريب، فمن شروط المذهب في الزواج وجود ولي المرأة ليصح عقد النكاح من جهة، ومن جهة ثانية شدد في التضييق على المرأة في النكاح فلا تزوج نفسها بنفسها، دفعا لكل النتائج السيئة والقراءات السلبية التي يمكن أن تترتب عن نكاح المرأة نفسها بنفسها.

ثانيا : النبيذ

الشراب من المواد التي لا يُستغنى عنها في المجتمعات البشرية، وعادة ما يكون الشراب محليا مصنوعا من منتجات زراعية أو حيوانية، وكان سكان البلاد الإسلامية عموما يتحاشون تناول الأشربة المسكرة في مواعيدهم، التزاما بالنص التشريعي الذي يحرمها ويحرم غيرها من المسكرات. غير أن الملاحظ هو وجود تباين في فهم النصوص الفقهية التي يتبعها المالكيون وهم غالبية سكان المغرب الأوسط والأحناف الذين يمثلون الأقلية النخبوية السياسية والعسكرية ومن اندرج ضمنها⁷³.

ويعد موضوع تعاطي النبيذ والمسكرات من أبرز الانتقادات الموجهة للأحناف وقد سعت كتب طبقات المالكية عموما إلى إقناع قرائها بأن المذهب الحنفي هو مذهب الرخص⁷⁴. فهو يُجوز شرب النبيذ إلى حد الإسكار، ويبيح الربا عن طريق التحايل على النصوص الشرعية. فكان لهذا تأثير على الباحثين، بل إن أحدهم ذكر أن الذين تولوا نشر المذهب الحنفي بإفريقية بعد أسد بن الفرات "تجاوزوا أصوله وقدموه في صورة التيسير، فتعلق به الخاصة وأصحاب السلطة"⁷⁵.

وكان شرب الخمر معمولا به منذ تولي سليم الثاني الخلافة سنة 1566 فصار الانكشاريون يشربونها في الشوارع والثكنات، واستبيحت في الولايات التابعة للسلطنة ومنها الجزائر التي انتشرت بها

73 - ابن جزى الكلبي، المصدر السابق، ص299.

74- نجم الدين الهنتاني، المرجع السابق..

75- نجم الدين الهنتاني، المرجع السابق.

الحانات التي يديرها اليهود ويرتادها الانكشاريون والأهالي⁷⁶. ورغم أن الخمر محرمة إلا أنها كانت منتشرة بين الخاصة والعامة، باستثناء فترات بعض الحكام الذين منعوها وعاقبوا من يشربها كأحمد باي قسنطينة⁷⁷.

وقد حمل الأتراك معهم إلى الجزائر المالكية المذهب الحنفي ولم يقيم أتباعه بمراجعة الفروق التي تميزه عن مذهب أهل البلد، اتقاء للخلاف. وتعد مسألة النبيذ والخمر من القضايا التي أثارت في الكتابات وحاول من خلالها بعض المؤرخين والدارسين رسم صور معينة، وفي هذا الشأن يقول الكاتب الفرنسي **J.Desparmet**⁷⁸، في كتابه "عادات وتشريعات وعقائد أهل الجزائر"، أن الخمر شراب محرم في الشريعة الإسلامية ويذكر في كتابه آيتين من القرآن الكريم من سورة البقرة، مترجمة وهي قوله عز وجل "يسألونك عن الخمر والميسر"، ومن سورة المائدة قوله: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه" إلى آخرها، ثم يردف الكاتب قائلا أن هذه النصوص لا تنطبق فقط على النبيذ المستخرج من الفواكه المعصورة ولكن كل المشروبات المسكرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أي كل مسكر حرام" **tout ce qui enivre est prohibé**⁷⁹. "لكننا رغم ذلك - يضيف الكاتب - نشاهد الأهالي يشربون النبيذ في المقاهي الأوروبية ومقاهي اليهود، حتى سكان البوادي كانوا ينظمون حفلات الموسيقى والرقص ويحتسون الخمر بمختلف أنواعها بمعية الراقصات ويتغنون بالأشعار الحوزية والعربية التي تمجد الخمر⁸⁰.

ورغم ذلك تبقى مجموعة من الأسئلة التي لم نجد لها جوابا منها هل كان الأتراك في إيالة الجزائر وفي غيرها، يحتسون الخمر بناء على الرؤية الفقهية الخاصة للمذهب الحنفي في هذا الشأن، أم أنه تجسيد للاندماج الاجتماعي؟ وهل يمكن القول أن إجماع المدارس الفقهية على حرمة الخمر

76 - جميلة معاشي، الانكشارية والمجتمع ببابليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008 ص. 131.

77 - معاشي المرجع السابق، ص. 132.

78 - J.Desparmet , **Coutumes Institutions, et Croyances des Indigènes de l'Algérie** , tome1, imp. la tipo-litho et jules carbonel, Alger, 1939, p 276.

79 - J.Desparmet , **op. cit**, p 276.

80 - **ibid** . p 276.

قليلها و كثيرها⁸¹، ومخالفة أبي حنيفة الجمهور بالقول أن ما يتخذ من غير النخيل والكرم لا يحرم أسكر أو لم يسكر والمتخذ من التمر والزبيب يحرم منه ما أسكر لا القليل⁸²، وإتباع الأتراك لهذا المذهب قد أوقع إرباكا في المجتمع الجزائري المتبع للمذهب المالكي ويرفض بشدة التساهل فيه لرسوخ هذا المذهب في الضمير الجمعي للجزائريين... فألقى هذا الأمر بظلاله على بنية المجتمع وأضعف التماسك بين العربي والتركي؟؟

ثالثا: المساجد الحنفية

من المسائل المميزة للفقهاء الحنفي وأتباعه مكانة المسجد والمؤسسات الدينية عامة، إذ أن الصور التي تحدثت عن المؤسسات الدينية تبين بجلاء تباين في مكانة هذه المؤسسات وقديسيته، فهل كانت العلاقة بالمؤسسات الدينية هي الأخرى من مسائل الاختلاف بين الأحناف والمالكيين؟ أم أن المسألة لا تعدو عن كونها محض صدفة؟.

تعد المساجد من أقدس بقاع الأرض بالنسبة للمسلمين الذين يتطوعون لبنائها وتعميرها، متنافسين في ذلك لنيل الأجر والثواب، غير أن واقع هذه المؤسسات في إيالة الجزائر كما يقول الورتلاني دون هذا المستوى، وقد عبر عن ذلك في رحلته ووصف وضعية المساجد والجوامع بالسيئة، حيث يذكر: "أن المغاربة أقل اعتناء بالمساجد وأهل مغربنا لا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث ولا مهتما قد جدد أو واهيا قد أصلح، ولو أن شيئا من مساجدهم سقط كان مبنيا من الرخام أعيد بناؤه بالحصص والآجر، وهذا كله من عدم تعظيم شعائر الله"⁸³. ثم يردف: "وقد قيل إذا أراد الله خلاء ببلاد بدأ ببيته ثم يتبعه ما سواه وإذا أراد عمارته فبه يبدأ"⁸⁴.

81 - قال النووي: «أجمع المسلمون على تحريم شرب الخمر، وأجمعوا على وجوب الحد على شاربها سواء شرب قليلاً أو كثيراً» انظر الحديث الذي أخرجه بهذا اللفظ مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام الحديث رقم (2003).

82 - أراء فقهية أخرى ترى أن عصير العنب إذا لم يسكر فهو حلال إجماعاً، وأما سائر الأشربة المسكرة المتخذة من الزبيب والتمر والعسل والقمح والشعير وغير ذلك، فهي كالخمر عند مالك والشافعي وابن حنبل، انظر: ابن جزري، المصدر السابق، ص 194-195. ويروى عن قلة من الفقهاء ومنهم ابن شبرمة وابن أبي ليلى رأيا آخر يقول أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب حلال، وإذا سكر منه احد دون أن يعتمد إلى درجة السكر فلا يقام عليه الحد، وقد سئل ابن شبرمة عن تعريف السكر قال من مالت قدماء واختلط كلامه، ويذكر أن ابن أبي ليلى كان يشرب النبيذ، انظر: صبحي محمضاني، المجتهدون في القضاء، دار العلم للملايين، بيروت، ط 01، 1980، ص 86.

83 - الورتلاني الحسين، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1908. ص 266.

84 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص ص 254، 266.

ويرجع الورتلاني سبب إهمال المساجد للحكومة التركية التي لا تعمل على صيانتها كما ينبغي وقد لاحظ الورتلاني أن مساجد الأهالي كانت متواضعة من حيث شكلها ومادة بنائها بينما بنيت مساجد الأحناف بالرخام وزينت بالزليج وزودت بقناديل الزيت لإضاءتها وبثت الزرابي في باحاتها للصلاة⁸⁵،

وقد تكون الصورة السيئة التي رآها الورتلاني في الحجاز⁸⁶ والتي تعبر عن إهمال أحد المساجد التي يعتقد أنها تعود لفترة النبوة، هي التي جعلته يعمم أحكامه. فكلما رأى عيبا في بناء ديني معين ضخمه وهوله، وحكم على أهل زمانه بإهمال المساجد وبيوت العبادة.

وعلى النقيض من ذلك يقف ابن حمادوش الجزائري الرحالة المعروف، حيث يقول أن المساجد من المؤسسات المصونة في الجزائر في هذه الفترة، تمتاز بقدسيته عند جميع طوائف المجتمع، وكان بها العديد من الوظائف الممارسة، من الخطابة إلى الدرس إلى الوعظ والإرشاد إلى احتضان الاحتفالات الدينية والمناسبات المختلفة، كقراءة صحيح البخاري وختمه⁸⁷، إلى تبني الجهاد ضد الغزاة ونشر أجواء الرحمة والانسجام والتعاون بين الخصوم وغيرها من المهمات النبيلة.

فهل قادت الصدف ابن حمادوش إلى زيارة مساجد حنفية فوجدها مصونة ومعتنى بها أم أن الملاحظات كانت مجرد انطباعات من طرف الرجلين؟

والثابت أن المؤسسات الدينية كانت كثيرة في الجزائر، فالمساجد الحنفية كانت تعد 14 مسجدا وأما المالكية فكانت تضم 89 مسجدا، وكانت تتبعها مؤسسات وقفية تنفق على المسجد وصيائه⁸⁸، وكان من ضمنها 12 مسجدا جامعاً⁸⁹ بها المنارات والمنابر الكبيرة، وفي كل منارة من منارات المساجد يوجد عمود من الخشب ترتفع فوقه راية بيضاء عندما يتدنى المؤذن في النداء للصلاة، وتعد هذه التقنية وسيلة إعلامية لإعلان موعد الصلاة بالنسبة للجهات البعيدة التي لا يصلها صوت المؤذن أو بسبب هبوب رياح في الاتجاه المعاكس حيث تسوق صوت الأذان في

85 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص 266.

86 - يذكر الورتلاني انه رأى في خليص مسجدا ينسب إلى الرسول ص قد تهدم وامتلأ أوساخا وصار اصطبلا للدواب فعلق على ذلك تعليقا قويا مستنتجا انه يعود لضعف الاهتمام بالدين وقلة الرغبة في الخير. انظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 189-190.

87- عبد الرزاق ابن حمادوش ، المصدر السابق، ص 50.

88-MM. Aumerat, La propriété urbaine à Alger, in RA, n°41, année 1897, p327.-

89 - المسجد الجامع هو الذي تقام فيه صلوات الجمعة أما المساجد الأخرى فتؤدى فيها الصلوات العادية الأخرى.

جهات واحدة، وتنزل الراية عندما ينتهي وفي يوم الجمعة ترفع ابتداء من الساعة الحادية عشر راية خضراء ثم تنزل عند الساعة الثانية زوالاً⁹⁰، وكل هذه التراتيب تدل على العناية بهذه الشعيرة و بالمؤسسات التي تؤدي فيها.

وقد لاحظ كثير من المؤرخين الطابع الجمالي الذي عليه المساجد الحنفية وعزاه للموروث التركي والبيزنطي الذي مزجه المهندسون الأتراك بكل براعة مع الطابع الإفريقي، مثل جامع علي بجنين "بتشين" الذي بنيت قاعدته وفق الطراز العثماني ومئذنته وفق الطراز الإفريقي⁹¹.

ويرى كذلك المؤرخ الجزائري نور الدين عبد القادر أن المساجد الحنفية كانت أكثر تزيينا من المساجد المالكية مثل جامع كتشاوة بمدينة الجزائر⁹².

ومن الشواهد التي تؤكد هذا الأمر وصف دو نيكولاي (Nicolas de Nicolay) الرحالة الغربي معالم مدينة الجزائر وذكر مسجد واحد وصفه بأنه المسجد الأعظم والرئيس بمدينة الجزائر، والذي يمتاز بزخارفه الفريدة وأسلوب بناءه الرائع⁹³، وهو مسجد كتشاوة الحنفي.

و لاحظ هذه اللمسة الجمالية للمساجد الحنفية في معسكر قائد الجيش الفرنسي حين دخول المدينة، ووصف المسجد الحنفي بها بأنه غاية في الجمال⁹⁴. والمعروف أن هذا المسجد من بناء الباي محمد الكبير، الذي نال بفضلته كثيرا من المدح والتنويه، بالإضافة إلى مساهمته في تحرير وهران وحسن إدارة البايلك وتبدير شؤون السكان، وقد خلده الشاعر الجزائري القرومي في عدة قصائد منها قوله:

لما التقيت بوافد الحسن البهي يزجي المطايا مغربا في عسكر
عجبا له من مسجد في الأرض قد حاكى السماء تطاولا في الفخر
بنى الأمير محمد في الغرب قد لاحت آثاره كالصباح المسفر⁹⁵

وكان كثير من الباشاوات والبايات شغوفين ببناء العمران الديني في مختلف جهات الإيالة، ذكرها المؤرخون والرحالة الغربيون أو العرب في سيرهم، وكانت البنايات ذات أنماط عمرانية فنية راقية، كما في مدن قسنطينة ومعسكر والمدينة وغيرها.

90 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار الكتاب، البلدة، 1963، ص 170.

91 - ألبر ديفولكس، مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني، تح مصطفى بن حموش، دار الأمة، الجزائر،

92- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 158.

93 - Mahfoud Kaddache, l'Algérie durant la période Ottomane, O.P.U, Alger, 1991, p.59.

94 - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، (م و ك)، الجزائر، 1983 ص 214.

95- أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. المصدر السابق ص 62

ففي مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق اجتهد باياتها في ترك بصماتهم فيها مثل مسجد سيدي الكتاني الذي بناه صالح باي، ومسجد مدينة القل⁹⁶ الذي بناه بالمدينة الباي أحمد القلي⁹⁷ لما كان قائدا للحامية التركية بها، وعرفانا منه بطيبة سكان هذه البلدة وحسن سيرتهم مع الأتراك⁹⁸.

ويدفعنا هذا للتساؤل عن أسباب عناية الأتراك بالمساجد والمبالغة في تزيينها، هل يرجع ذلك لكونها مساجد رسمية يرتادها موظفو الإدارة التركية والحكام والنخب فيجب أن تبدو جميلة وأنيقة أم أن تأثر هؤلاء بفن العمارة التركي الراقي دفعهم للحفاظ على أصالة العمران الديني ونقاوته؟ أم أن الإهمال والتسيب كانا سمة بارزة في أهالي الإيالة في ذلك الوقت؟ أم أن الرصيد الفقهي المختلف⁹⁹ حول حكم بناء المساجد وتزيينها كان وراء هذا التباين؟

ولا تتوقف خصوصيات الأتراك في الجزائر عند هذه الخصوصيات المذكورة سابقا، بل إن جل أنماطهم المعيشية يتميز بطابع جديد غير مألوف، منها حفاظهم على اللغة التركية كتابة وتكلما

96 - القل مدينة كبيرة بناها الرومان عند قدم جبل شاهق كان اسمها القديم شلو احتلها الوندال فيما بعد وحطموها ثم وفد إليها المسلمون زمن الفتح وهي مدينة متحضرة مليئة بالصناع وأهلها طرفاء كرماء وأرضهم كثيرة العطاء، الحسن بن محمد الوزان - ليون الإفريقي - ، وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1983، ص 54.

97- Vayssettes Eugène, **Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517-1837**, Bouchene, Paris, 2002.

98 - محمد المهدي شغيب، المرجع السابق، ص 382.

99 - جاء في حكم بناء المساجد وتزيينها فتوى تلقي بعض الضوء على هذا الخلاف ومما جاء فيها باختصار: "اهتم المسلمون عبر التاريخ بإظهار الفن الإسلامي من خلال عمارة المساجد من حيث زخرفتها وتزيينها كالمسجد الأموي في دمشق وجامع عقبة بن نافع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس والجامع الكبير في قرطبة، والجامع الأزهر في مصر والجامع الكبير في سامراء وقد اختلف الفقهاء في مستوى التزيين والزخرفة فالمالكية يندب عندهم تحسين بناء المسجد، وتخصيصه، وأما تزويقه وزخرفته فمنهم من كرهه لكونه يشغل قلب المصلي، ومنهم من أجازة إذا كان خفيفاً، وأما الحنفية فقد قالوا لا بأس بنقش المسجد بالجص والساج وماء الذهب، وكرهوا كون ذلك في المحراب، قال السرخسي في المبسوط: (وَلَا بَأْسَ أَنْ يُنْقَشَ الْمَسْجِدُ بِالْجِصِّ وَالسَّاجِ وَمَاءِ الدَّهَبِ). وقال بعضهم (وَلَا أَنْ يَتَزَيَّنَ تَرْغِيبَ النَّاسِ فِي الْإِعْتِكَافِ وَالْجُلُوسِ فِي الْمَسَاجِدِ لِانْتِظَارِ الصَّلَاةِ، وَذَلِكَ لَا مُحَالَةَ حَسَنٌ). وأما حديث أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مِنْ أَسْرَاطِ السَّعَاةِ أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ ". رواه أبو داود والنسائي والدارمي وابن ماجه، فهو محمول على قصد التباهي والتفاخر كما هو ظاهر من لفظه. وجاء في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري: (أن يتباهى الناس) أي يتفاخرون، كأن يبالغ كل واحد في تزيين مسجده وتزويقه وغير ذلك، وفيه دلالة مفهومة بكراهة ذلك (في المساجد) أي في بنائها. كما جاء في عمدة القاري: وقال ابن المنير: (لما شيد الناس بيوتهم وزخرفوها ناسب أن يصنع ذلك بالمساجد صوناً لها عن الاستهانة). انظر الموقع

<http://www.awqaf.gov.ae/Fatwa.aspx?SectionID=9&RefID=4922>

واعتبارها اللغة الرسمية للدولة، التي بها تعقد المعاهدات وتبرم الاتفاقيات. بالإضافة إلى العادات اليومية والمعاشية كالمأكل والملبس اللذين تكيفا وفق نمط المعيشة الرجل التركي في السلطنة العثمانية. فمن ناحية المأكل نجد أن الأتراك قد نقلوا أغلب الأنظمة والترتيبات التي تقوم عليها معيشتهم اليومية، وأدخلوا للبلاد عادات جديدة كشرب الدخان والشيشة. ونفس الشيء يمكن أن يقال على اللباس التركي الذي اتخذ طابعا مميزا ومختلفا كثيرا عن اللباس المحلي مما كان من شأنه بروز التباين بين فئات الأهالي والوافدين الجدد.

المبحث الثالث: المذهب المالكي في الجزائر

المطلب الأول: التعريف به

ينتسب المذهب المالكي إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه الذي ولد سنة 93 للهجرة بالمدينة المنورة، ونسبه ينتهي إلى اليمن فهو مالك بن أنس بن مالك أبي عامر الأصباحي اليمني¹⁰⁰. ونشأ الإمام مالك ض عنه في بيت علم وصلاح، وفي بيئة تناول فيها أهلها علوم الحديث والأثر. وكان بيته مرتعا للعلم ولاستطلاع أخبار الصحابة والسير.

وقد عاصر الإمام مالك (ض) الخلافتين الأموية والعباسية، لكن حظه في الثانية كان أوفر، وقد لزم مالك المدينة المنورة وأخذ عن فقهاءها من التابعين كعبد الرحمن بن هرمز، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وابن شهاب الزهري، وربيع بن عبد الرحمن¹⁰¹، وخرج الإمام مالك في طلب العلم دون أن يبلغ العشرين من عمره، وتأهل للإفتاء وله إحدى وعشرين سنة، فقصده أهل العلم وطلبته في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، حتى صار عالم أهل الحجاز وحجة زمانه¹⁰².

وكان للبيئة التي نشأ بها الإمام مالك دورا أساسيا في تكوين شخصيته ونبوغه، وحرصه على تقفي النصوص والآثار، فالمدينة المنورة كانت موطن الشرع ومنطلق الإسلام ومرتع الصحابة الكرام وأهل الخير والفضيلة¹⁰³.

ونشأ الإمام مالك منذ الصغر ناصرا للسنة الصحيحة محاربا للبدع وأهل الأهواء، فعن مطرف بن عبد الله، قال: "سمعت مالكا يقول: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده

100 - أحمد أبو زهرة، الإمام مالك، المرجع السابق، ص 20.

101 - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج 01، ط 02، دار الفكر، دمشق 1985، ص 31.

102 - شمس الدين الذهبي، ج 05، المصدر السابق، ص 08.

103 - أحمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 22

سننا، الأخذ بها إتباع لكتاب الله، واستكمال طاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء يخالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصله جهنم وساءت مصيرا¹⁰⁴.

قال القاضي عياض¹⁰⁵: "كان مالكا رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلمين¹⁰⁶ وأشد نقدا للعراقيين"¹⁰⁷ وقال القاضي أيضا: "قال سفيان بن عيينة: سئل مالك رضي الله عنه يوما عن معنى قوله تعالى الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فسكت مالك حتى علته حمرة، ثم قال: الاستواء منه معلوم، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعة، والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالا أخرجوه. فناداه الرجل: يا أبا عبد الله، والله لقد سألت عنها أهل البصرة والكوفة والعراق فلم أجد أحدا وفق لما وفقت له"¹⁰⁸.

وذكر المؤرخون عن مالك أن الخليفة العباسي هارون الرشيد شاوره في أن يعلق الموطأ¹⁰⁹ بالكعبة ويحمل الناس على ما فيه فأبى، وقال: "إن أصحاب رسول الله اختلّفوا في الفروع وتفرّقوا في البلدان وكل مصيب"¹¹⁰، وهو ما ينبئ بسماحة مالك، وتقبله للرأي الآخر المخالف له.

104 - شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ص 98.

105 - أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي (476 هـ - 544 هـ / 1083م - 1149م). قاض مالكي. علامة محدث وفقه ومؤرخ ولد بمدينة سبتة بالمغرب وتلمذ بها وولى القضاء بها وله خمس وثلاثون سنة رحل إلى الأندلس وأخذ عن ابن رشد وابن سراج ثم جلس للتدريس فالتفت حوله الطلاب ونقلوا عنه ثم انشغل بالتأليف في مختلف فنون العلم، ومن أهم كتبه الشفا بتعريف حقوق المصطفى وترتيب المدارك وتنوير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. وغيرها..

106 - المتكلمون يقصد بهم الفلاسفة وأصحاب المنطق.

107 - يقصد بالعراقيين أهل الرأي من أتباع أبي حنيفة النعمان وقد تقدمت الإشارة إلى مذهبه.

108 - الذهبي شمس الدين، المصدر السابق، ج 08، ص 107.

109 - الموطأ هو أول كتاب وضعت فيه الأحاديث مصنفة ومبوبة وأول كتاب ألف في الحديث والفقه معا، ألفه الإمام مالك في أربعين سنة، وعن سبب تأليفه يقول مالك: (لقيني أبو جعفر المنصور في الحج فقال: إنه لم يبق للناس عالم غيري وغيرك، فأما أنا فقد شغلت بالسياسة، والأمل أنت فضع للناس كتابا في السنة، والفقه، تجنب فيه رخص ابن عباس، وتشديدات ابن عمر، وشواذ ابن مسعود، ووطئه توطئا. قال مالك: فعلمني كيفية التأليف). قال فيه الشافعي: "ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك"، ضم الموطأ الكثير من الأسانيد التي حكم المحدثون بأنها أصح الأسانيد، منها: الزهري عن سالم عن ابن عمر، ومالك عن نافع عن ابن عمر.

وذكر المؤرخون أن عدد نسخ موطأ الإمام مالك أربع عشرة نسخة وتعددت شروحه لتشمل أحكامه ومعانيه وغريبه ورجاله. وأما رواياته فكان أشهرها رواية محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة.

لقد كانت مكانة الإمام مالك كبيرة بين الفقهاء سواء المعاصرين له أو الذين جاؤوا من بعده، ولقد بلغ مرتبة متميزة في العلم، حتى صار إمام دار الهجرة، وقد أجمع على إمامته، ودينه وورعه كل أصحاب الفقه والحديث. فكان القاضي عياض يقول "لا أعلم من علم الناس بعد القرآن أصح من موطأ مالك" ثم قال :

إذا ذكرت كتب العلوم فخيرها كتاب الموطأ من تصانيف مالك¹¹¹

وأما تلميذه الشافعي فقال فيه: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمنٌ عليّ من مالك بن أنس". وقال الإمام أحمد بن حنبل: "مالك أثبت في كل شيء... وإذا رأيت الرجل يبغض مالكا، فاعلم أنه مبتدع". وقال ابن الماجشون¹¹²: "سمعت مالكا يقول من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله يقول: اليوم أكملت لكم دينكم فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً"¹¹³، وهو ما يبرز شدة تمسك الإمام بالكتاب والسنة ونبذ كل ما جاء به أصحاب الأهواء وأهل الكلام.

وقد أخذ الكثير من الطلبة العلم عن الإمام مالك، وتنوعت أقطارهم وبلدانهم التي جاؤوا منها بحثاً عن العلم والحكمة عند إمام أهل المدينة الذي شق صيته الآفاق، ومن أبرزهم المصريون كأبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي، المتوفي بمصر سنة 191هـ، وأبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم، وأشهب بن عبد العزيز القيسي، توفي سنة: (204هـ).

أما المغاربة فمنهم أبو الحسن، علي بن زياد التونسي، الذي أخذ العلم عن مالك توفي سنة: (183هـ). وأبو عبد الله، زياد بن عبد الرحمن القرطبي، الملقب بشبظون، سمع الموطأ عن مالك، وتوفي سنة: (193هـ).، وأسد بن الفرات بن سنان التونسي، أصله من نيسابور من بلاد خراسان، سمع الموطأ من مالك، وتوفي سنة: (213هـ).

110 - عبد المجيد بيرم، "التفقه في الدين بين التمدد والتحرر"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد 01، سنة 2004، ص 322.

111 - إبراهيم القادري بودشيش، صحوة المذهب المالكي خلال القرن الخامس الهجري/ مقال اليكتروني، جامعة مكناس المغرب.

112 - ابن الماجشون فقيه وعالم ومفتي عاش بالمدينة المنورة وتلمذ يد الإمام مالك، قال فيه ابن عبد البر: كان فقيهاً فصيحاً، دارت عليه الفتوى في زمانه، وكان ضريراً توفي سنة 213هـ.

113 - أبو فارس عبد العزيز محمد القيرواني، الفتوى المالكية في أفعال الصوفية، جمع وتحقيق أبو أحمد علي الكندي، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، 2009، ص 05.

وكان للإمام مالك تلاميذ أكثر حيث زاد عددهم على ألف وثلاث مئة، عد منهم السيوطي نحو تسعمائة بأسمائهم وأنسابهم¹¹⁴.

وقد اتسم أغلب هؤلاء التلاميذ بالأمانة والورع والصدق عند العامة من الناس، ومنهم البهلول بن راشد الفقيه المالكي الذي كان الناس يولونه حبا كبيرا، وسحنون الذي جمع صفات حب الفقه والورع والصرامة في التمسك بالحق والزهد وعدم خشية السلطان.

وقد قام فقهاء المالكية على مر العصور بدور كبير في مقاومة الفرق الدينية والباطنية المنحرفة سواء فرق الشيعة أو الخوارج أو فرق المعتزلة والقدرية التي قال بعضها بخلق القرآن، وقد نوه أحد الشعراء بمكانة مذهب مالك وتمسكه بالسنة وأخذه بالنص فقال:

نظرنا في المذاهب ما رأينا كمذهب مالك للناظرين
ومذهبه اتباع لا ابتداع كما اتبع الكريم الأكرمين
وعندي كل مجتهد مصيب ولكن مالكا في السابقين¹¹⁵

واختلف الفقهاء في ضبط قواعد وأصول المذهب المالكي فيرى بعض الباحثين والأصوليين أن مذهب مالك يعتمد على سبعة عشر قاعدة فقهية¹¹⁶، القواعد الخمسة الأولى مستنبطة من القرآن الكريم، وأما الخمسة الثانية فمن السنة النبوية، بالإضافة إلى قاعدة الإجماع والقياس وعمل أهل المدينة¹¹⁷ وقول الصحابي والاستحسان وسد الذرائع¹¹⁸ والاستصحاب¹¹⁹.

114 - خير الدين سيب، "انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب"، أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي، ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس، وزارة الشؤون الدينية، عين الدفلى، الجزائر، سنة 2008، ص 66.

115 - عبد المجيد بريم، المقال السابق، ص 322.

116 - الشاعر الزيتوني، ذكرى الإمام مالك بن انس ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، أعمال ملتقى، الجزء الأول، فاس، المغرب سنة 1980. ص 223.

117 - عمل أهل المدينة: تميز مذهب مالك عن غيره من المذاهب، بأصل فريد يطلق عليه إجماع أهل المدينة الذي قال فيه ابن خلدون: "وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصباحي إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتمدة عند غيره وهو عمل أهل المدينة. وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية."

118 - سد الذرائع: الذرائع في اللغة جمع ذريعة، وهي الوسيلة إلى الشيء وسدها يعني منعها. وفي اصطلاح أهل الشرع: "الذرائع هي الأمر الذي ظاهره الجواز، إذا قويت التهمة في التطرق به إلى الممنوع"، أو هي "عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع"، وسد الذرائع يعني منع جميع الوسائل المؤدية إلى المفساد ولو كانت هذه الوسائل جائزة في ذاتها. انظر

وعدد الفقيه المصري القرافي قواعد المذهب المالكي¹²⁰ في الأصول التالية:

القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع وإجماع أهل المدينة أو عمل أهل المدينة، والقياس وقول الصحابي والمصلحة المرسلة والعرف والعادات¹²¹، ثم ذكر سد الذرائع والاستصحاب والاستحسان. ويرى الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته أن مالك بن مذهب على عشرين أصلاً ذكر ما تقدم أعلاه وزاد عليها مراعاة الخلاف، والمصالح المرسلة، وشرع من قبلنا¹²². وقام فقهاء المذهب بحصر أصول المذهب وترتيبها، وشرحها بما يعتبره الناس من أدلة عبر الزمان والبيئات المختلفة وتوسعوا في ذلك توسعاً أدى إلى اعتبار مذهب مالك أكثر المذاهب أصولاً. ومن خلال ما سبق يتبين أن أمهات أصول مذهب مالك هي أصول بعضها مجمع على اعتمادها بين مختلف المذاهب الأخرى، كالكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. وبعضها الآخر يشاركه فيها بعض المذاهب، غير أن مالكا انفرد عنها جميعاً باعتماد قواعد: (إجماع أهل المدينة، أو عمل أهل المدينة) وقاعدة مراعاة الخلاف، وقاعدة المصالح المرسلة، وقاعدة شرع من قبلنا¹²³.

اسماعيل يحيى رضوان، الاستدلال بسد الذرائع عند المالكية، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص 51-67.

119 - الاستصحاب لغة هو المصاحبة أو استمرار الصحبة وجعل الشيء صاحباً ومصاحباً. وفي الاصطلاح: يطلق على اعتبار الحكم الذي ثبت بدليل في زمن سابق قائماً في الحاضر، حتى يظهر دليل مغاير يلغي استمرار الحكم السابق وهو على أنواع .

120 - هو أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله، المشهور بالقرافي. ولد سنة (616هـ) اتصف بشدته في طلب العلم والفقه منذ نعومة أظفاره تعلم على جهاينة العلماء في القاهرة وبغداد والشام والأندلس منهم العز بن عبد السلام، وابن الحاجب، وشمس الدين أبي بكر محمد المقدسي وتذكر تراجم القرافي أنه مالكي المذهب وأما عقيدته: فهو أشعري.

121 - العادة في اللغة الدأب والديدن وتكرار الأمر و العادة وفي الاصطلاح ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى، العوائد في اللغة جمع عادة والعادة الدأب والديدن وتكرار الأمر .

وأما العرف فهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه وفي الاصطلاح: العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول واتفق الفقهاء على اعتبار العادة والأعراف الصحيحة من مرتكزات الاجتهاد، مستندين إلى جملة من الأدلة من نصوص القرآن منها قوله عز وجل: (وَكُنْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَّهِ بِالْمَعْرُوفِ) سورة البقرة الآية: 227، وقوله تعالى: (وَعَلَى الْمُؤَلَّدِ لَهُ رِزْقُهُمْ وَكِسْوَتُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ) سورة البقرة، الآية: 232. للمزيد من الاطلاع ينظر عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق

122 - شرع من قبلنا هو احد أقسام الأدلة المختلف فيها والمقصود به الأحكام التي انزلها الله على من قبلنا من الأمم انظر: وهبة الزحيلي، المرجع السابق، ص32.

123 - انظر الجدول المتضمن قواعد المذاهب الإسلامية من باب المقارنة والفهم في الملحق رقم 14

المطلب الثاني: مسارات المذهب المالكي في المغرب الإسلامي

تفرع عن مذهب مالك الكثير من المدارس والخواضر الفقهية التي ارتبطت بمؤلفات أصحابها، أشهرها مدرسة المدينة المنورة ومدرسة العراق والمدرسة المصرية والمدرسة الأندلسية والمدرسة المغربية. وتضم المدرسة المغربية مجموعة من الخواضر العلمية والفقهية¹²⁴ تمتد من القيروان إلى فاس وتضم تونس بجاية مازونة تلمسان فاس مراكش وغيرها¹²⁵ وقد تجذر المذهب المالكي عند سكان المغرب الأوسط بعد اعتناق القبائل البربرية الكبيرة له تأسيساً بأهل الأندلس خاصة منها قبيلتا زناتة وصنهاجة¹²⁶، وعلى الرغم من بروز مذهب فكري وعقدي جديد في الأندلس والمتمثل في المذهب الظاهري إلا أن الوحدة الفقهية للأندلس سرعان ما استجمعت أنفاسها تحت قبة الفقه المالكي من جديد¹²⁷.

واختلف المؤرخون في أول شخصية عملت على إدخال المذهب المالكي إلى المغرب الإسلامي حيث يعد البعض الشيخ محمد عبد الله بن فروخ الفاسي المولود سنة 110هـ أول من قام بهذا الدور، وهو من مشايخ إفريقية، لقي مالكا وأبا حنيفة وسفيان الثوري بمصر سنة 176هـ، وقال فيه مالك هذا فقيه أهل المغرب¹²⁸. بينما يرى البعض الآخر أن علي بن زياد الطرابلسي (ت183هـ) أول من أدخل

124 - تعد هذه المدن من أبرز المدن الإسلامية التي احتضنت الفقه المالكي وطورته وفتحت سبل دراسته ونشره في المغرب الإسلامي

125 - أحسن زاقور، مدارس الفقه المالكي، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 27-51.

126 - أحسن زاقور، المقال نفسه . ص ص 27-51.

127 - الظاهرية مذهب فقهي، ومنهج فكري نشأ في بغداد في منتصف القرن الثالث الهجري على يد داود بن علي الظاهري، ثم تزعمه علي بن حزم الأندلسي، وترى بعض المصادر أن الظاهرية هو المذهب السني الخامس وتنادي المدرسة بالتمسك وفق رؤيتها بالقرآن الذي هو كلام الله وسنة الرسول وذلك بحسب الدلالة المتينة منهما وإجماع الصحابة، وطرح كل ما عدا ذلك من الأمور التي تعتبرها ظنية (كالرأي والقياس واستحسان ومصالح مرسله وسد الذرائع وشرع من قبلنا. من موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

128 - سيع قادة، المذهب المالكي بالمغرب الأوسط حتى منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، (ر.م.غ.م)، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران الجزائر، 2004، ص26.

موطأ الإمام مالك¹²⁹ لبلاد المغرب، ثم عمل تلاميذه على نشره من بعده ومنهم أسد بن الفرات وسحنون والبهلول بن راشد وغيرهم¹³⁰.

كما اختلف الفقهاء والمؤرخون حول ظهور مذهب مالك في المغرب الإسلامي هل كان ظهوره بشمال إفريقيا أولا ثم انتشر نحو الأندلس أم العكس. فقد ذهب بعضهم إلى القول بأن مذهب مالك ظهر أولا بالأندلس ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة.

وسبب ظهور مذهب مالك بالأندلس أن حجاج المغرب والأندلس قدموا على مالك فسألهم عن سيرة عبد الرحمن الداخل ف قيل له "إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله"، فقال مالك "ليت الله زين حرمنا بمثله"، فنقم بنو العباس على مالك، وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسر بها كثيرا وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب¹³¹، وترك مذهب الأوزاعي¹³².

ويرى آخرون أن المذهب المالكي ظهر بإفريقيا قبل استيلاء صنهاجة والعبديين على المغرب، وذلك على يد أبو الحسن علي بن زياد التونسي (ت183هـ)¹³³، وأسد بن الفرات، وعبد السلام بن سعيد التنوخي (ت240هـ)، المعروف بسحنون، وغيرهم من أئمة المغرب.¹³⁴

والراجح أن المذهب تمكن من بلاد المغرب كغيرها من البلاد الإسلامية وغلب غيره من المذاهب، يقول القاضي عياض: "غلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان"¹³⁵ ويقول ابن خلدون في تاريخه: "وأما مالك رحمه الله تعالى فاخص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ولم يقلدوا غيره

129 - أحمد الزاوي الطاهر، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، وبه ملحق الفتاوى الزاوية على مذهب السادة المالكية، تح ناصر الدين محمد الشريف، 1999، ص03.

130 - أحمد الزاوي الطاهر، المرجع نفسه، ص04.

131- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء01، تح جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص139.

132- نذير حمادو، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، دار الفجر للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 2008، ص40

133 - أحسن زاقور، "مدارس الفقه المالكي"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 27-51.

134- الناصري السلاوي، المصدر السابق، ص138.

135- نذير حمادو، المرجع السابق، ص08.

إلا في القليل"¹³⁶. ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى عامل الهجرة إلى الحجاز خلال مواسم الحج وغيرها حيث كانت الحجاز دار العلم ومنتهى أسفار أهل المغرب¹³⁷.

وتمكن الفقه المالكي من نفوس المغاربة بفضل مدرسة القيروان التي كان لها شأن كبير، وقف المغاربة للمذاهب الأخرى بالمرصاد، إذ لما انتشرت أفكار الاعتزال ومحنة خلق القرآن في المشرق وقف المالكية متمسكين بالكتاب والسنة، حتى هزموا المعتزلة فلم يبق لهم رأي ولا أتباع ولم يجد الأمراء بدا من النزول عند قول المالكية¹³⁸.

وقد واجه المذهب المالكي في طريقه إلى الانتشار في الغرب الإسلامي واقعاً اجتماعياً وثقافياً مغايراً لما واجهه في جهات أخرى من العالم الإسلامي، واعترض علماء المالكية في جهادهم المستميت في الدفاع عن مذهبهم وفي العمل على نشره وترسيخه فرق مخالفة عديدة، منها ما كان لها أصل في المشرق مثل فرقة الخوارج الصفرية والإباضية والشيعة الفاطمية والغزالية، ومنها ما لم يكن لها أصل في المشرق وذلك مثل الطائفة البرغواطية والمذهب التومرتي¹³⁹.

وتميز الجيل الأول من تلامذة مالك بالحیطة والحذر والاكتفاء بالدفاع عن أصول العقيدة، وكانت مواقفهم العقدية تمليها ردودهم على الخصوم من الخوارج والمرجئة والمعتزلة. منهم أبو محمد الغازي بن قيس ت199 هـ، وزيد بن عبد الرحمن الشهير بشبظون ت193 هـ، وعبد الله بن فروخ، وعلي بن زياد، والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات. في حين ظهر جيل آخر اشتغلوا بالرد على الفرق، وألفوا في ذلك رسائل ردوا بها على الخوارج من صفرية وأباضية، وعلى المعتزلة، والشيعة

136 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961، ص805.

137- ابن خلدون، المرجع نفسه، ص802.

138 - حسن احمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص249.

139 - نسبة لمحمد بن تومرت الزعيم الروحي ومؤسس الدولة الموحدية (1080 م - 1128 م) التي قامت على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى التوحيد الخالص، ومن هنا جاءت تسمية الدولة الموحدية. بدأت دعوته بين قبائل مضمودة في جبال الأطلس ثم انتشرت بفضل عبد المؤمن بن علي الكومي، وفي جنوب المغرب الأقصى ادعى المهديّة ثم انتقل من أغمات إلى " [تينمل](#) " معلنا الخروج عن طاعة المرابطين ومحتما بقبائل مضمودة. ثم انتقل إلى الشمال وحاصر مراكش أربعين يوما، إلا أن الإمدادات العسكرية المرابطية تمكنت من فك الحصار وإلحاق الهزيمة بالجيش الموحي. وفي سنة 1128 توفي ابن تومرت وسلم القيادة لخليفته عبد المؤمن بن علي الكومي.

الإسماعيلية. ومن أشهرهم: عيسى بن دينار ت212 هـ، ويحيى بن يحيى الليثي ت234 هـ، وابن أبي زيد¹⁴⁰ القيرواني ت386 هـ¹⁴¹.

لقد ثبت أن المذهب المالكي دخل الغرب الإسلامي في حياة صاحب المذهب، الإمام مالك رحمه الله، وذلك على يد مجموعة من الفقهاء ترجم لهم القاضي عياض في كتابه "ترتيب المدارك"¹⁴²، وكانوا شديدي الحرص على قواعد المذهب والذود عنه والصبر في مختلف المحن والابتلاءات التي تعرضوا لها.

وقد انتصر الفقهاء المالكيون في أغلب المواجهات التي جمعتهم بالسلطات الزمنية، ففي العهد الأغلبي سلكوا سياسة المقاطعة للحكام والأمراء وعدم السير في ركابهم، وأخذهم بالبأس والشدة مما كان له آثارا حسنة في نفوس المغاربة الذين عرفوا منذ القديم بنزعة الاستقلال عن دار السلطان، فصار هؤلاء الفقهاء رمزا للزعماء المعارضين للظلم والمدافعين عن الضعفاء¹⁴³، ورمزا للتمسك بالدين وبنصوص الشريعة وقد مدح الشاعر هبة الله الأنصاري أصحاب المذهب منوها بمدرسة الحديث التي أسس لها فقه مالك:

عليك بأصحاب الحديث فإنهم على منهج للدين ما زال معلما
وما النور إلا في الحديث وأهله إذا دجى الليل البهيم واظلما¹⁴⁴

ولما قامت الدولة الرستمية في تاهرت (تيارت) بالمغرب الأوسط سنة 160 هـ، تعامل الرستميون بمبدأ التسامح مع مذاهب أهل السنة فانتعشت الحياة الفكرية وازدهرت¹⁴⁵.

140 - ابن أبي زيد القيرواني هو أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي (310 - 386 هـ = 922 - 996 م فقيه ومفسر وأصولي، ولد بالقيروان بتونس درس بها وتولى خطة الفتوى، له تصانيف عديدة منها "النوادر والزيادات"، و"مختصر المدونة"، و"كتاب الرسالة"، و"اعجاز القرآن"، وغيرها، ويعد مرجعا فكريا وفقهيا للمالكيين.

141 - عبد الخالق أحمدون، "عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية"، في مجلة التاريخ العربي، جامعة عبد الملك السعدي، العدد 51، تطوان، المغرب، ص03.

142 - عبد السلام شقور، جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان - المغرب، مقال اليكتروني. www.attarikh-alarabi.ma/Html/Adad41partie11.htm.

143 - حسن احمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص249.

144 - أبو القاسم بن عبد الملك ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تح عزت العطار الحسيني، جزء 01، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994 ص119.

145 - مسعود بن موسى فلوسي، "المذهب المالكي والسلطات المتعاقبة في الجزائر"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص68-97..

غير أن الواقع تغير بظهور الدولة الفاطمية الشيعية حيث بذل الفاطميون¹⁴⁶ كل ما في وسعهم لمحو المذهب المالكي في إطار محاربتهم لأهل السنة، وعاش فقهاء المالكية في ذلك العصر في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ) ، وأبو عمران الفاسي¹⁴⁷، ويذكر أن المالكيين تحالفوا مع الخوارج ضد الفاطميين لقيامهم بالطعن في المعتقدات التي قام عليها إيمان الناس، وبالتشنيع الفظيع بصحابة الرسول ص وآذوا المالكية فنكلوا بهم أشد التنكيل وكان نصيبهم المزيد من العنت والضيق والمحن¹⁴⁸، ولم يزل الأمر كذلك حتى ظهر المعز بن باديس¹⁴⁹ الذي جمع أهل المغرب على المذهب المالكي¹⁵⁰، بعد رحيل الفاطميين إلى مصر.

ولم تنجلي المحنة إلا بقيام دولة الزيدين الصنهاجيين (361-405) التي تنتسب للشيخ زيري بن مناد. وفي هذا الصدد يذكر ابن أبي دينار أن المعز بن باديس بن منصور أظهر الدعوة لبني العباس، وورد عليه عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وفي سنة 440هـ -1048م قطع الخطبة للفاطميين وقطع بنودهم وأحرقها بالنار. وجمع المعز الفقهاء وسألهم عن الفقه ومدارسه ثم قال لهم "عالم أهل المدينة يكفيننا"، وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال لا أحب أن يكون في عملي مذهبان¹⁵¹.

146 - بقيام الدولة الفاطمية (297-387) أوائل القرن الرابع الهجري، تعرض أتباع المذهب المالكي لمحنة كبيرة فقد نشط الشيعة في نشر عقائدهم وأفكارهم في حلقات ومجالس الذكر التي أقاموها في حواضر المغرب الأوسط خاصة رقادة والقيروان وتلمسان وبجاية ولما كانت هذه الأفكار غريبة عن الناس فقد جلس العلماء المالكيون لهم للمناظرة فغلبوهم وهزموهم شر هزيمة فقام الشيعة بفرض عقائدهم بقوة السلاح والعنف فتعرض العلماء والمشايخ إلى محنة عظيمة واستشهد الكثير منهم ولم ينج من هذه المحنة سوى رجال المذهب الحنفي لمواقفهم اللينة من الشيعة.. مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق، ص 68-97. وانظر كذلك: عادلة علي الحمد، قيام الدولة الفاطمية في بلاد افريقية والمغرب، دار ومطابع المستقبل، الإسكندرية، مصر، 1980 ص 215.

147 - أبو عمران الفاسي فقيه ومحقق مغربي درس في الأندلس والعراق على يد كبار شيوخ المالكية، ثم عاد إلى فاس فأخذ عنه الطلاب من أقطار المغرب وتخرج عليه كبير منهم، وقد لعب دورا كبيرا في تدعيم المذهب عن طريق تكوين طلبة أكفاء يعملون على نشره وذيوه، انظر إبراهيم القادري بودشيش، المرجع السابق،

148 - عبد السلام شقور، المرجع السابق، مقال اليكتروني.

149 - المعز بن باديس بن بلكين قائد وزعيم بربري صنهاجي جده زيري بن مناد الصنهاجي أول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الأوسط. بنى مدينة آشير كان حسن السيرة شجاعا مقداما كان مواليا للفاطميين ودام حكمه 26 سنة. ولما جاء المعز بن باديس الخليفة الرابع من عائلة زيري أعلن رسميا تبنيه للمذهب المالكي وإلغاءه لكل المذاهب التي كانت في المغرب.

150 - السلاوي الناصري، المصدر السابق، ص 138.

151 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق، ص 68-97.

والراجح أن المغرب والأندلس وعامة الغرب الإسلامي على شدة حبه لآل البيت عامة، فإنهم لم يتجاوزوا في حبه هذا إلى حدود التشيع المقيت، مما اضطر الفاطميين الشيعة ودفعهم إلى الخروج من المغرب لفشلهم الذريع في الاستقرار به اعتماداً على القوة والعنف¹⁵².

وفي العهد الحمادي (398-547هـ) حظي المذهب بعناية الحكام وأولوه الرعاية الكاملة بحثاً وتمكيناً، حتى صار المذهب المالكي مصدراً للأحكام والقضاء في الدولة، ونجم عن ذلك استتباب الاستقرار الثقافي والفكري في الدولة، ونشطت الثقافة والتحصيل العلمي في مدن بونة وبجاية والقلعة وتاهرت¹⁵³ رغم تنوع التيارات الفكرية والدينية¹⁵⁴.

أما المرابطون فقد شددوا انتماءهم للمذهب المالكي وقدموا الفقهاء والعلماء في مختلف المراتب العليا حتى صار لهم شأن كبير، كيف لا وقد كان لهم اليد الطولى في قيام دولة المرابطين اللمتونية على يد عبد الله بن ياسين¹⁵⁵. وتمتعوا بمنزلة كبيرة ونفوذ واسع في ميادين التشريع والشؤون السياسية والمجالات الفكرية¹⁵⁶. ونقلنا عن المعجب يقول: "ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكام كبيرها وصغيرها موقوفة عليهم فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس إليهم"¹⁵⁷.

وفي المقابل ضيق المرابطون الخناق على أهل الفرق والمذاهب الأخرى فاتهم الفلاسفة بالزندقة، ومورس عليهم حصار كبير فقد جاء في وصية أحد الفلاسفة لبنيه: "وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة". ويبدو أن بعض الفقهاء من معتنقي المذاهب الأخرى المخالفة للمذهب المالكي قد اضطروا لهجرة أوطانهم والنجاة بأنفسهم بالتوجه نحو المشرق الإسلامي، حيث لا تزال أجواء الحرية الفكرية ترفرف هناك.

152 - عبد السلام شقور، المرجع السابق، .

153 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق، ص ص 68-97.

154 - بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، (د. م. ج)، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977 ص 163-164.

155 - لخضر بولطيف، المرجع السابق ص 24.

156 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق ص ص 68-97.

157 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع نفسه ص 68-97.

وقد امتد تأثير فقهاء المالكية في الحياة الفكرية والدينية حتى بلغ الطعن في حركات التصوف فقد رأوا في حركة أبي حامد الغزالي خروجاً عن الإجماع، فأفتوا بإحراق كتاب "الإحياء" وصدرت الفتوى عن فقهاء قرطبة سنة 503 هـ¹⁵⁸ في مقدمتهم ابن حمدين، وكتب الأمير المرابطي تاشفين بن علي (537 - 539 هـ) باعتبار الكتاب المذكور بدعة وجبت محاربتها في رسالة بعث بها إلى أهل بلنسية سنة 538 هـ، ومما جاء فيها: "ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي، فليتبّع أثرها، وليقطع بالخرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلّظ الأيمان على من يتّهم بكتماؤها"¹⁵⁹، وتصدى عدد من الفقهاء المالكيين بالأندلس، للرد على كتب الغزالي، منهم صاحب كتاب "النكت والأُمالي في الرد على كتاب الغزالي"¹⁶⁰.

وخلاصة القول أن العهد المرابطي شهد تحولا خطيرا وحاسما لصالح الفقهاء المالكيين يقوم على إرساء تقاليد جديدة مبنية على الإكراه والأحادية الفقهية.

وعند قيام دولة الموحدين التي تشبع مؤسسوها بالفكر السلفي اللامذهبي فرضت على الناس منطقاً جديداً يقوم على أساس الاجتهاد المطلق، وأخذ الأحكام الشرعية مباشرة من الكتاب والسنة، والإعراض عن كتب فقه الفروع والمذاهب، ولذلك أسس الموحدون لجنة¹⁶¹ من الفقهاء دورها البحث

158- كان موضوع هذه الفتوى وما بعدها من إحراق لكتب الغزالي مجالاً لمساجلات عديدة بين الفقهاء حيث فسر بعضهم ذلك العمل بجمود وتحجر الفقهاء وعدم قبولهم للرأي المخالف، ورأى آخرون أن أفكار أبي حامد الغزالي التي ضمنها كتابه "الإحياء" لم تكن لتنسجم مع ما كان عليه المغرب الإسلامي من مواجهة دائمة مع النصارى تستلزم فقه الشدة والأخذ بالعزائم وتحريك الهمم للجهاد، وليس الدعوة إلى الانزواء والشعور الانحزامي، ومنهم من رأى أن المالكية حاربوا الغزالي لما صدر عنه في حق الفقهاء في باب العلم من كتابه "الإحياء" حيث رماهم بالتهافت على المناصب الدنيوية، وطلب المال. وبناء عليه فقد برر بعض المؤرخين إحراق مؤلفات الغزالي لصيانة الوحدة المذهبية للمغرب الإسلامي، كما أن هذا الإجراء يدخل في نطاق عملهم القائم على التوجيه والمراقبة، وقد كانوا حريصين على الدعائم التي قامت عليها دولة المرابطين وهم الذين فتحوا لرجالها المغرب والأندلس قبل أن تفتتحها رماح المرابطين. انظر الونشريسي، المعيار، المصدر السابق، ج 12، ص. 185 وما بعدها.

159 - إبراهيم القادري بودشيش، المرجع السابق.

160 - أحرقت الإحياء أولاً في رحبة مسجد قرطبة ثم صدرت الأوامر بإحراقه في جميع الولايات، واستمرت عمليات الحرق زهاء سنة كاملة.

161 - يعتبر الكثير من الفقهاء ما قام به الموحدون يشبه محاكم التفتيش التي تحمل الناس بالإكراه على ترك ديانتهم ومعتقداتهم وتلزمهم بإتباع منهج الموحدين وقبول منطق التوحيد في ثوب جديد لم يكن معهوداً من قبل.

في أصول الفقه وإخراج الأحاديث مباشرة من الكتاب والسنة، ونشرتها الحكومة وألزمت بها الناس، وأحرقت ما دونها من كتب الفقه والفروع وأنزلت العقاب الشديد على كل من يخالفها¹⁶².

وعمل ابن تومرت على غرس عقيدة التكفير لدى أتباعه لكل ما يمت بصلة للمرابطين ودعا إلى قتالهم فوقف الفقهاء المالكيون له بالمرصاد وأضعفوا حجته بالمنظرات والدعوات المضادة في بجاية والمغرب الأقصى، معتبرين أن عقيدة التكفير خروجاً عن منهج أهل السنة والجماعة¹⁶³ وقد تدخلت السلطة الموحدية للحد من نفوذ الفقهاء¹⁶⁴ ولم يستسلم فقهاء المالكية لتيار الموحدين الجارف بل اعتبروا ابن تومرت وأتباعه خوارج وبغاة ومثيري فتنة¹⁶⁵. وتجلّى الصراع بين الطرفين في عهد يعقوب المنصور الموحي¹⁶⁶ الذي قام بحرق كتب سحنون وابن يونس وابن أبي زيد¹⁶⁷.

ولما تفككت دولة الموحدين ملك الحفصيون¹⁶⁸ تونس (627-981هـ) وبسطوا ملكهم على شرقي المغرب الأوسط حتى بجاية ودام ملكهم نحو ثلاثة قرون¹⁶⁹ واعتنوا بالفقهاء المالكيين بادئ الأمر، فغص بلاط ملوكها بالفقهاء والعلماء، وازدهرت الدراسات الفقهية والعلمية للمذهب، وسرعان ما تحول هذا الانتعاش إلى نقمة على أتباع المذاهب¹⁷⁰ لكثرة الخلافات وضعف الاجتهاد وكثرة الشروح والتدوين على الحواشي وتراجع الإبداع.

162 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق، ص 68-97.

163 - لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص 41.

164 - المرجع نفسه، ص 62.

165 - المرجع نفسه، ص 74.

166 - يعقوب المنصور الموحي أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور ثالث خلفاء الموحدين خلف أبا يعقوب يوسف. حكم من 1184 حتى وفاته في مراكش عام 1199. تميز عهده بانجاز مشاريع كبيرة عمرانية وعسكرية وأدبية احتضن ابن رشد في بلاطه وحماه. هزم ألفونس الثامن القشتالي في معركة الأرك في 19 يوليو 1195م. واتخذ لقب "المنصور بالله". وحين حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، تجمع الفرنج من كل جهة ولم يستطع مواجهتهم لضعف أساطيله يومئذ، فبعث إلى المنصور يطلب إعانته فلما وصل المغرب قدم له الرسول الرسالة وكان عنوانها: "من صلاح الدين إلى أمير المسلمين" ولما وقف عليه المنصور ورأى فيه عدم خطابه ب "أمير المؤمنين" لم يعجبه ذلك ورد الرسول دون قضاء حاجته.

167 - لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص 221.

168 - الحفصيون نسبة للشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وهنتاة قبيلة من المصامدة تسكن جنوب المغرب الأقصى وقد كان الشيخ أبو حفص من أصحاب المهدي محمد بن تومرت ومؤيديه.

169 - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 39.

170 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق ص 68-97.

وملك المرينيون (668-796هـ 1269-1393م) المغرب الأقصى واتخذوا من مراكش عاصمة لهم، أما الزيانيين¹⁷¹ (633-962هـ 1235-1554م) فقد ملكوا المغرب الأوسط وجعلوا من تلمسان عاصمة ملكهم، وكلتا الدولتين عملتا على الاعتناء بالمذهب المالكي، فانتعش المذهب وحاول الفقهاء بالرغم من الصراع الدائر بين الأنظمة السياسية بعثه من جديد وإعادته لربيعان شبابه، ونبغ في هذا الشأن العشرات من الفقهاء الذين أثروا خزانة المذهب كالمقري والمشدالي¹⁷² والمغيلي¹⁷³.
و لعب إقليم توات¹⁷⁴ دورا هاما في صيانة الفقه الإسلامي في منطقة وسط الصحراء، قال عنه صاحب كعبة الطائفين هي بلدان طيبة وأهلها مباركون، وعليها يضرب المثل اليوم، عليك بتوات لاتفات¹⁷⁵.

ويعد الإقليم فضاء طبيعيا ودينيا فريدا، حافظ على خصوصياته خلال مختلف محطات التاريخ التي مرت بها المنطقة، وقد شكل خصوصية تاريخية نظرا للأدوار التي لعبها سواء في الحفاظ على المذهب المالكي، أو نشر الإسلام واللغة العربية في هذه الجهات.

ويتشكل الإقليم من عدة مدن تقع بمحاذاة وادي مسعود منها تمنطيط وتمي هذه الأخيرة بها مدينة ادرار، وبمدينة تمنطيط يوجد الحجر المقدس وهو حجر اسود قطره نحو 50 سم عليه آثار أصابع يزعم السكان انه هابط من السماء وقد أخذه الفرنسيون إلى متاحفهم بعد الاحتلال¹⁷⁶.

171 - أسس هذه الدولة قبيلة بنو عبد الواد والتي تمتد من نواحي سعيدة بالجزائر حتى نهر ملوية راجع نشأة الدولة الزيانية في تلمسان بمزيد من التفصيل احمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 30.36.

172 - المشدالي فقيه وعالم من علماء الجزائر ولد بزواوة ببجاية سنة 822 حفظ القرآن ودرس الحساب والصرف والنحو وعلوم الشرع ثم رحل إلى تلمسان والتقى محمد بن مرزوق ابن حفيد العالم الشهير وأبي القاسم بن سعيد العقباني فأخذ عليهما ثم عاد لبجاية وتصدر للتدريس والفتوى ثم زار بونة وقسنطينة، وتونس ثم تنقل إلى قبرص وبغروت ودمشق، وسكن القدس مدة، وفي سنة 849 حج بيت الله. وكان له حدة في الذهن وذكاء وسرعة البدهاة والإدراك، وبلاغة القول، وقد انتقده السخاوي وأظهر له بعض التحامل و العداء مقابل الانتصار لشيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني وهذا ما يستشف من كتاباته حوله. غير أن كثيرا من الفقهاء والمؤرخين انتصفوا له منهم المقري حيث قال فيه: "الشيخ الناسك أبي علي منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدالي"، ولسان الدين بن الخطيب الذي ذكره في الإحاطة بقوله: "الإمام الكبير ناصر الدين المشدالي". توفي المشدالي بحلب السورية، انظر: مختار الأخضر طيباوي، مقال اليكتروني،

173 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق.

174 - مسعود بن موسى فلوسي، المرجع السابق.

175 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج1، ط2، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1981، ص 167..

ويتشكل المجتمع التواتي من طبقة الأشراف المنحدرين من النسب العلوي، ثم الأحرار المنحدرين من العرب والبربر ثم العبيد، واتسم أهل توات بالجوهر والكرام والتقوى والصالح وحب الأجانب وإكرامهم، وهو ما نوه به الرحالة المارون بالمنطقة مثل العياشي والرحالة الألماني جيرهارد رولف¹⁷⁷. وكانت الجماعة التواتية جماعة سنية تأخذ الفقه والعقائد من المذهب المالكي¹⁷⁸، ومن أبرز فقهاء توات في العهد العثماني الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني (ت1521) الذي كان يحرص على الفتوى اعتمادا على الدليل الشرعي، بعيدا عن الهوى مراعىا ظروف الحال والمصلحة¹⁷⁹، وكانت مدرسة توات الفقهية مدرسة إصلاحية دعوية¹⁸⁰، وتعرض الإقليم قبل ذلك لحملة عسكرية أرسلها السلطان أحمد المنصور السعدي¹⁸¹ في نهاية القرن السادس عشر لكن الحملة استقبلت دون مقاومة، وأحسن الشيخ عمرو بن محمد حاكم الإقليم في التعامل مع الغزاة مما حدا بالمنصور إلى تثبيته في منصبه¹⁸². وكان يحكم الإقليم ممثل عن سلطان المغرب ومركزه تمنطيط في البداية ثم انتقل إلى ادرار، وكان هذا الانتقال في القرن السابع عشر الميلادي بسبب الصراعات القبلية المختلفة ويطلق على الحاكم لقب الباشا¹⁸³.

المطلب الثالث: مكانة المذهب المالكي عند السكان

ذكر المؤرخون أن مذهب مالك حفل بانتشار كبير عند المغاربة حتى صار المذهب الأوحدهم، لا يقبلون بغيره بديلا ويوعزون ذلك إلى عدة أسباب وعوامل منها:

-
- 176 - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، د م ج، الجزائر 1977. ص 20.21
- 177 - فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص14.
- 178 - فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص51
- 179 - المصري مبروك، "المدرسة الفقهية التواتية"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص98-115.
- 180 - المصري مبروك، المرجع نفسه، ص ص98-115.
- 181 - المنصور السعدي ملك مغربي قام بحملة واسعة جنوب المغرب بهدف الحصول على موارد مالية جديدة واخضاع البلاد لسلطانه.
- 182 - السلاوي الناصري، المصدر السابق، ص46.
- 183 - فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص 20.21

1. مرونة المذهب المالكي وسهولته وتوقيه الحكم لرفع الحرج والمشقة عن الناس وعنايته بتحصيل المصلحة والمنفعة قدر المستطاع.
 2. اعتقاد عموم المغاربة أن مذهب مالك هو الأقرب للشريعة الإسلامية الحققة، وذلك لكون أن مالكا رحمه الله استقر بدار الهجرة وعایش أهل المدينة من أحفاد الصحابة والتابعين، وأخذ من أفواههم الحديث والسنة النبوية.
 3. قوة مالك وتشده في نقل الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقلة اعتماده على الرأي في إصدار الفتاوى الفقهية، وقد قيل أن القاضي عياض قد رتب بابا في المدارك لترجيح مذهب مالك وبيان الحجة في وجوب إتباعه وتقليده¹⁸⁴.
 4. كفاءة علماء المذهب الذين تصدروا لنشره منهم عبد الله بن فروخ، البهلول بن راشد وأبو الحسن علي بن زياد، الذي كان أول من أدخل موطأ مالك إلى المغرب كما ذكرنا آنفا¹⁸⁵.
 5. قوة الشخصية المغربية: كان للشخصية المغربية أثرا بالغا في فقه مالك، حيث أرسى المغاربة منهجا ثالثا في الفقه والتشريع، غير فقه أهل العراق ولا أهل المدينة بل جامعا بينهما، فقد خالفوا منهج التأليف المتبع في الموطأ إلى المنهج المتبع في المدونة، فالموطأ يأتي بالحديث ثم أقوال الصحابة وغيرهم، أما المدونة فأنت على شاكلة سؤال من سحنون يوجهه لابن القاسم فيجيب عنه بما رواه عن مالك وما بلغه عنه ثم يأتي سحنون ببعض الآثار لتأييد هذا الفقه¹⁸⁶.
- واعتنق السكان المذهب المالكي بصدق والتزموا العمل بمقتضاه وتعصبوا لصالحه ولم يسمحوا لمذهب آخر بمزاحمته¹⁸⁷، وعن سبب عزوفهم عن المذاهب الأخرى يرجح أنها خالفت مالكا في الأخذ بالنص الصحيح الصريح واستخدامها القياس والعقل في كثير من المسائل، وكان مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من المذاهب التي ضرب عنها المغاربة الصفح، لا شيء سوى لأنه أخذ بالخبر

184- الشاعر الزيتوني، "ذكرى الإمام مالك بن انس"، في ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، ج01، فاس، المغرب، 1980. ص221.

185 - سبع بن قادة، المرجع السابق . ص31.

186 - محمد الورياغي، "أثر الشخصية المغربية في فقه مالك"، في ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، ج01، فاس، المغرب، 1980، ص298.

187 - محمد الورياغي، المرجع نفسه، ص301.

الضعيف وفضله على القياس. كما كان الإمام مالك شديد الإعجاب بالطلبة المغاربة لما لمسهم فيهم من حسن الاستعداد والجد والحرص على الإتيان، فخصهم بمكانة مرموقة¹⁸⁸.

وكثيرا ما يثير الباحثون مسائل الارتباط الوثيق بين أهالي المغرب الإسلامي والمذهب المالكي حيث يتجلى قوة تأثير السكان به بل ومساهماتهم في تطويره وفق ما يضبطه علماء أصول من قواعد اجتهادية، حتى برزت الشخصية المغربية في فقه مالك جلية واضحة¹⁸⁹.

ويرد أحد الباحثين في هذا الموضوع بقوله: "ولئن شرفت تربة المشرق باحتضان بيئات الوحي وإشعاع النبوءات والأنوار والرسالات واستحكام شرائع الكتاب ومواطئ الصحابة والتابعين ونشوء مدارس الحديث فان ساحة المغاربة لها الحظوة بقويم المناهج ووافر العلوم وخصيب الإنتاج وعمق الدراية وأساطين المجتهدين ومجالس الفقهاء وتجلى ذلك في قدرة علماء المغرب والأندلس على الإبداع وتفجير طاقات المجتهدين"¹⁹⁰.

يقول أحد الشعراء من بلاد شنقيط داعيا إلى التزام كل بلاد المغرب الإسلامي بمذهب مالك:

وأهل مغربنا عليهم يمنع غير الإمام مالك أن يتبعوا
لفقد غيره وكل خارج عن نهجه فهو من الخوارج

المبحث الرابع: المذهب الإباضي في الجزائر

المطلب الأول: نشأة المذهب

سمي المذهب الإباضي بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن أباض الذي تعتبره المصادر غير الاباضية مؤسس المذهب، أما العلماء الاباضيون فينسبون إلى عبد الله بن أباض دورا ثانويا بالمقارنة مع جابر بن زيد الأزدي العماني¹⁹¹ الذي يعتبرونه إمام أهل الدعوة ومؤسس فقههم ومذهبهم،

188 - إبراهيم القادري بودشيش، المقال السابق.

189 - محمد الورياني، المرجع نفسه. ص 298.

190 - محمد البشير الهاشمي مغلي، "حيرة الاختلاف بين مقلدة المالكية ومجتهدة الغرب الإسلامي" في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد 01، 2004، ص 237.

191 - هو جابر بن زيد الأزدي العماني تابعي محدث وفقهه عام 21 هجري في بلدة فرق في عمان وفيها نشأ وترعرع ثم انتقل إلى البصرة لطلب العلم. وصار من أبرز علمائها اخذ العلم عن كثير من الصحابة والتابعين كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله وغيرهم. وكان يصلي الجمعة خلف زياد بن أبيه وولده عبيد الله وخلف الحجاج وعاتبه أصحابه حضور الصلاة خلف الحجاج فقال إنها صلاة جامعة وسنة متبعة. توفي

ويجمع المؤرخون أن آراء وأفكار عبد الله بن أباض كان يستمدّها من جابر بن زيد¹⁹² الذي يقدمونه على كل أحد ويروون عنه مذهبهم¹⁹³.

وقد تُسبوا إلى عبد الله بن إباح لشهرة مواقفه مع الحكام¹⁹⁴، واسمه عبد الله بن يحيى بن إباح عاصر معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير وكانت له آراء في السلطة والحكم.

ويقول مؤرخوهم ان بعض ولاية الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان هم من أطلق هذه التسمية فيما يبدو، بسبب المراسلات والمناقشات الطويلة التي جرت بين عبد الله وعبد الملك بن مروان، ولحركته النشطة في انتقاد الحكم الأموي، ولم يُعرفوا بالاباضية إلا بعد موت جابر بن زيد¹⁹⁵، وأنهم لم يجدوا فيه عيباً ولا نقيصة عكس كلمة "الخوارج" التي أطلقها المؤرخون الاباضيون أنفسهم على جماعتهم بادئ الأمر، وكانوا يقصدون بها الخروج في سبيل الله على الجور والظلم¹⁹⁶. ويذكر بعض المؤرخون أن لقب المحكمة من أوائل الألقاب التي أطلقت عليهم لإنكارهم تحكيم الحكّمين بعد موقعة صفين سنة 36 هـ وقولهم لا حكم إلا لله¹⁹⁷.

وقد قام للإباحيين في التاريخ دولتان، إحداهما في المغرب والأخرى في المشرق، فأما الأولى فقامت بالمغرب الأوسط "الجزائر" وأما الثانية فقامت ببلاد عُمان جنوبي شرق الجزيرة العربية، وتمتع المذهب الإباحي فيهما بالنفوذ والقوة.

وقد كان الخروج إلى الأصقاع البعيدة لنشر الدعوة¹⁹⁸ من طرف مؤسسي المذهب ضرورة حتمية، فقد ساعد على انتشار المذهب الإباحي في عُمان¹⁹⁹ بُعْدُها عن مقر الخلافة، ومسالكتها

سنة 82 هـ. انظر: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج3، دار السعادة، مصر، 1996، ص 85.

192 - عوض محمد خليفات، الأصول التاريخية للفرقة الاباضية، ط03، وزارة التراث القومي والثقافة، العدد 27، سلطنة عمان، 1994، ص 09.

193 - اعوشة بكير بن سعيد، دراسات إسلامية في الأصول الإباحية، ط03، د. ت، ص 20.

194 - علي يحيى بن معمر، الإباحية بين الفرق الإسلامية، ط 1 مكتبة وهبة، القاهرة، 1976 م. ص 353.

195 - علي يحيى بن معمر، المرجع نفسه، ص 353.

196 - عبد الحميد صائب، المذاهب والفرق في الإسلام النشأة والمعال، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، كتاب اليكتروني. ص 65.

197 - إبراهيم علي التهامي، أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقيدية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة، 1412، ص 506.

198 - إبراهيم علي التهامي، المرجع السابق، ص 507.

الوعرة. وفرار بعض الخوارج بعد معركة النهروان إلى هذا البلد، مما مكنهم من بناء دولة لهم فيها استقلوا بها عن الدولة العباسية، وامتد نفوذهم حتى جزيرة زنجبار²⁰⁰ ولا تزال مبادئ الاباضية وأفكارها سائدة في هذه المناطق، وقد انقرضت أغلب فرق الخوارج وصارت أثرا بعد عين لأفكارها المتطرفة وغلوها²⁰¹، أو ربما لعدم توفيقها في ترتيب سلم الأولويات وبلورة خطاب سياسي يؤثر في نفوس الناس.

وأما ما يخص المغرب الإسلامي فإن سلمة بن سعيد²⁰² كان أول دعاة المذهب الخارجي الإباضي فيه، حيث يقول المؤرخون أنه جاء يطلب مذهب الاباضية بالمغرب، قادما من أرض البصرة ومعه عكرمة²⁰³ مولى ابن عباس²⁰⁴. وبوصولهما إلى افريقية - تونس - استوطن عكرمة القيروان وكانت له في مسجدها حلقة ينشر فيها العلم والمذهب الخارجي، وعنه انتشرت آراؤهم في القيروان وفي بقية أنحاء المغرب، واستطاع أن يكون مدرسة صفرية²⁰⁵ نفذت تعاليمها إلى قلوب البربر²⁰⁶. وهكذا وجد الاباضيون في المغرب الإسلامي ضالتهم في تأسيس دولة وفق مذهبهم حتى هذا المؤرخ الهولندي رينهييرت دوزي إلى القول وهو يتحدث عن نجاح الخوارج في الشمال الإفريقي: "لقد وجد الكالفيينيون المسلمون أخيرا اسكتلندتهم"²⁰⁷.

199 - تقع عُمان بضم العين في جنوب شرق الجزيرة العربية تطل على الخليج العربي والمحيط الهندي

200 - الزهراني علي بن بخيت بن عبد الله، المرجع السابق، ص 26-27.

201 - الزهراني ، المرجع السابق، ص 26-27

202 - سلمة بن سعيد تابعي جليل اشتهر برواية الحديث.

203 - عكرمة مولى ابن عباس اختلف المحققون في عدالته فمنهم من وصفه بالقدر كابن معين ومصعب الزبيري وقال الإمام أحمد: يقال إنه كان صفريا، وقال ابن المديني: يقال إنه كان يرى رأي نجدة، وقيل لأحمد ما كان شأن عكرمة قال: كان ابن سيرين لا يرضاه قال: كان يرى رأي الخوارج. وقال أبو بكر المروزي يحتج بحديث عكرمة، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

204 - إبراهيم علي التهامي، المرجع السابق، ص 513.

205 - الصفرية نسبة إلى زياد بن الأصفر ويقال نسب الصفرية الى عبيدة الذي خالف نجدة مؤسس فرقة النجدات الخارجية يقولون بان مخالفيتهم مشركون توجب محاربتهم كما حاربهم الرسول ص. انظر أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج 01، دار النهضة المصرية، 1969، ص 182.

206 - إبراهيم علي التهامي، المرجع السابق، ص 513.

207 - ألفرد بيل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، تح عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989، ص 146.

وقد اعتمد شيوخ المذهب على التعليم لنشره بين الناس، كما أوفدوا لهذه المهمة شبابا متحمسين إلى البصرة يتعلمون أصوله ثم يعودون للمغرب لنشره منهم عبد الرحمن بن رستم، وأبو داود القبلي النفزاوي، وأبو الخطاب المعافري، وعاصم الصدرائيني، وإسماعيل بن ضرار الغدامسي²⁰⁸. وكان هؤلاء الثوار الأوائل يُدعون بحملة العلم الخمسة أرسلهم أبو عبيدة مسلم التميمي²⁰⁹ وكلفهم بالدعوة للأخوة والمساواة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات بلا تمييز في اللون والأصل والحرص على أن الحق في ممارسة السلطة مكفول لكل المسلمين وليس لفئة أو طائفة بعينها ولو كانت من قريش²¹⁰.

وكان الإحساس بوجود أفكار غريبة يراود سكان المغرب الإسلامي منذ بداية قدوم دعاة الفكر الإباضي إلى المنطقة، وتجلى الشعور بوجود خلاف مذهبي عقدي عميق بين الإباضيين وبقية السكان ولم يكن خلافا أو صراعا سياسيا وقبليا²¹¹.

و بلغ الصراع أوجه حين عمد الإباضيون على وضع أحاديث نسبوها للنبي ص منها ما رواه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي: " يا أهل مكة ويا أهل المدينة أوصيكم بالله وبالبربر فإنهم يأتونكم بدين الله من المغرب أن يضعوه هم الذين ذكر الله في كتابه يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه إلى آخر الآية"²¹²

ويطلق الإباضيون على أنفسهم عبارة المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل الدعوة والحق رافضين في الوقت نفسه أن يسموا بالإباضية أو أن ينسبوا إلى فرق الخوارج، ويرون أنهم المسلمون الحقيقيون وان شرعتهم هي الدين الإسلامي الصحيح، وفي هذا يقول طفيش محمد بن يوسف²¹³. "

208 - أبو بكر يحيى أبو زكرياء ، سير الأئمة وأخبارهم تاريخ أبي زكرياء، تح إسماعيل العربي، (ش.و.ن.ت) الجزائر 1983 ، ص 14 وما بعدها

209 - محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 43-44.

210 - محمد الطالبي، المرجع نفسه، ص 43-44.

211 - إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 200.

212 - إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 202.

213 - عمرو خليفة النامي، دراسات عن الإباضية، تر ميخائيل خوري، تح محمد الصالح ناجر ومصطفى باجو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2001 ، ص 156.

قولنا صواب يحتمل الخطأ وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب²¹⁴ ولم تنكر مؤلفاتهم الأولى تسمية الاباضية على أنفسهم إطلاقاً²¹⁵.

المطلب الثاني: المذهب الإباضي في المغرب الأوسط

تمكن الاباضيون في المغرب الأوسط من تأسيس الدولة الرستمية نسبة إلى عبد الرحمن بن رستم²¹⁶ الذي بويع بالإمامة سنة 160هـ 876 م وامتدت حدودها حتى بلغت نواحي غيليزان غرباً وفرنجة جنوباً حتى جبال العمور ومنه إلى الأغواط وادي ميزاب ووادي ريغ، وعبر سهول السرسو حتى ثنية الحد وقصر البخاري²¹⁷، واتخذت من مدينة تاهارت - تيارت - عاصمة لها²¹⁸.

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم تولى بعده ابنه الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ثم افلح بن عبد الوهاب الذي حكم أطول فترة خلال وجود الدولة الرستمية، امتدت خمسين سنة كاملة عاشت المنطقة في ظلها استقراراً اقتصادياً واجتماعياً كبيراً²¹⁹.

وتوالى على حكم الرستميين بعد وفاة افلح نحو ستة أئمة واجه بعضهم ثورات داخلية عنيفة وحركات تمرد قام بها بعض القادة المحليين كثورة ابن فندين²²⁰، الذي ثار يطلب الملك لنفسه، وتمرد

214 - الثابت عند مؤرخي علم الأصول أن هذا القول لأبي حنيفة النعمان، بإجماع المحققين والمحقق لم يسنده لصاحبه من باب الأمانة العلمية.

215 - عوض محمد خليفات، الأصول التاريخية للفرقة الاباضية، ط03، وزارة التراث القومي والثقافة، العدد 27، سلطنة عمان، 1994، ص12

216 - عبد الرحمن بن رستم نسبة إلى الأسرة الفارسية وهو من موالي عثمان بن عفان بويع بالإمامة سنة 160هـ بتاهرت وكان على جانب كبير من العلم والعدل والزهد مشغولاً بشؤون الرعية ساهراً على مصالحها كانت أيام حكمه تتسم بالاستقرار والأمان والرخاء توفي سنة 181 هـ.

217 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص150.

218 - تاهرت أو "تيارت"، مدينة جزائرية تقع بالهضاب العليا الغربية، سكنتها قبائل زناتة، وبني يفرن، ولواتة، ودخلها العرب من بني هلال وأكثرهم من سويد، خاصة في منطقة السرسو والجعافرة والحوالد، قال الحميري في المدينة: "مدينة مشهورة من مدن الغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان، كثيرة الخيل البقر والغنم والعسل والسمن، وسائر غلاتها كثيرة، وبها مياه متدفقة، وعيون جارية يجري غربها نهر كبير وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج.

219 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق ص197.

220 - كان ابن فندين من أعيان الاباضيين بايع عبد الوهاب بن عبد الرحمن ثم خرج عليه لأنه لم يشركه في حكمه ولم يسند إليه منصبا وانضم إليه ثوار آخرون من الإباضية الطامعين في الحكم وهجموا على عاصمة الدولة تيهرت لكنهم انهزموا وقتل ابن فندين؛ وهرب الثوار إلى طرابلس. وموت ابن فندين قتل المشاكل التي واجهت عبد الوهاب لكن سرعان ما اندلعت ثورة جديدة تزعمتها قبيلة زناتة دون جدوى.

قبيلة زناتة البربرية سنة 173هـ ورفضها مبايعة الرستميين، خاصة منها بطن مغراوة وبني يفرن، حيث قامت ببيعة الادارسة في المغرب الأقصى نكاية في الرستميين الذين احتفوا بالمذهب الخارجي²²¹. وفي سنة 296هـ انهارت الدولة الرستمية أمام النفوذ الشيعي المتزايد بالمغرب الأوسط وقتل آخر ملوكها الإمام أبو حاتم، فخلفه الملك اليقظان الذي لم يستطع مقاومة النفوذ الشيعي الفاطمي فقرر الاستسلام له دون قتال.

وغادر الرستميون تاهارت ونزلوا جنوبا عند ورقلة وكان لهم بها مع مرور الزمن نشاطا كبيرا وحيوية، ثم انتقلوا إلى غرب الصحراء إلى جبال بني مصاب أو ميزاب²²² فسكنوا الخيام بادئ ذي بدء، ثم خططوا المدن والقرى المبنية من الصخر والطين، وكانت أول مدينة بنوها في هذه الجهات هي مدينة العطف التي اختطها رئيسهم خليفة بن أبغور سنة 402 هـ 1011م، ثم بنيت بونورة وغرداية وبني يزقن ومليكة، و هذه المدن تمثل النواة الجديدة للمجتمع الإباضي بعد نكبة تاهارت²²³.

المطلب الثالث: آراء الاباضية الفقهية والعقدية.

أولا: العقائد الاباضية

لا يزال موضوع آراء وعقائد الاباضيين يثير نقاشا كبيرا بين النخب الدينية والفكرية على مر العصور بين مُصنّف لهم ضمن جماعة "أهل السنة" وبين مخرج لهم من هذه الدائرة، وقد ضبط أهل السنة والجماعة جملة من القواعد العقائدية والفقهية التي اتفق عليها جمهور العلماء لتحديد مدى ارتباط وانتماء الجماعات والفرق الدينية المختلفة بدائرة الإسلام الكبرى، والتي يعد المنتمون إليها من أهل القبلة والإسلام.

221 - عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع نفسه، ص196

222 - أقدم وصف لميزاب في العهد العثماني يعود للحسن الوزان 1552 حيث يقول فيها ميزاب منطقة ماهولة في قفار نوميديا على بعد نحو ثلاث مائة ميل من تيكورارين وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط، الحسن الوزان، المرجع السابق، ص 135.

223 - عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع نفسه ص206

والدارس للعقائد الاباضية يجد دون شك شرخا كبيرا في كثير من المسائل العقيدية، منها مسألة الولاء والبراء، فمن أصول الدين في الفقه الإباضي الولاية للمؤمنين والبراءة من غيرهم، أي الولاية للموفي بدين الله أيا كان والبراءة من مقترف الكبيرة²²⁴ أيا كان أيضا.

وقد عدد المحققون جملة من المسائل العقائدية والفقهية التي يختلف الاباضيون من خلالها مع باقي الفرق الإسلامية، نوجزها في ما يلي:

- أن مرتكب الكبيرة كافر ما لم يتب منها، وإذا ثبت بالشهود العدول أن شخصا ما اقتترف مثل هذا الجرم كحرمان حق الزوجة واليتيم أو تمرد عن العشيرة أو طعن في دين الله أو في المقامات الدينية أو ارتكب فاحشة أو شرب خمرا أو دخانا فانه يعلن على رؤوس الخلق في الجامع ويعزل نهائيا عن الجماعة حتى يعود إلى رشده وان مات دون ذلك فانه لا يغسل ولا يشهدون جنازته²²⁵
- اعتبار المخالفين من أهل القبلة كفاراً نعمة غير كاملي الإيمان، في مقابل أهل السنة الذين يسمون مرتكب الكبيرة بالمؤمن العاصي أو الفاسق.
- القول باستحالة رؤية الله تعالى²²⁶ يوم القيامة لأن العقل يعجز عن ذلك ويستبعده، واستدلوا بقوله تعالى: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار"²²⁷، وقوله تعالى: "قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني"²²⁸، وقد وافق الاباضية المعتزلة في استحالة رؤية الله تعالى يوم القيامة²²⁹.

ويرى جمهور أهل السنة أن رؤية الله تعالى تعتبر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة، بعد ثبوتها في القرآن وفي السنة النبوية فلو كانت الرؤية غير ممكنة إطلاقاً لما سألها موسى عليه السلام، ولنهاه ربه عن ذلك السؤال مثلما نهي نبيه نوح عليه السلام لما سأل ربه أن ينجي ابنه من العذاب والطوفان، بعدما عصى نبيه والتحق بالكفار في قوله تعالى: "وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ

224 - يرى الاباضيون أن مقترف الكبيرة ما لم يتب منها في الدنيا فهو خالد مخلد في النار بينما يذهب جمهور أهل السنة أن مقترف الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن عاص لا يخلد في النار.

225 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 106-107.

226 - أبو الربيع سليمان الباروني، مختصر تاريخ الاباضية، مطبعة الضامري للنشر والتوزيع، ط05، سلطنة عمان، 1995، ص 73.

227 - سورة الأنعام الآية 103.

228 - سورة الأعراف الآية 143.

229 - محمد حسن مهدي، الاباضية نشأتها وعقائدها، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، 2011 ص 153.

وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ²³⁰.

- القول بخلق القرآن وحدوثه، متفقين في ذلك مع المعتزلة.
- اختلاف الاباضيين في بعض المسائل العقائدية كمسألة صفات الله تعالى، حيث انقسموا إلى فريقين: فريق نفى الصفات نفياً تاماً خوفاً من التشبيه، وفريق ثان يرجع الصفات إلى الذات، فقالوا إن الله عالم بذاته وقادر بذاته وسميع بذاته إلى آخر الصفات، فالصفات عندهم عين الذات، فلا يثبتون وجهاً ولا عيناً ولا غير ذلك مما هو ثابت عند جمهور أهل السنة ويؤولونها بالذات فوافقوا المعتزلة والأشاعرة²³¹. ويؤمن أتباع الاباضية كغيرهم من فرق أهل السنة والجماعة بعالم البرزخ خلافاً للخوارج الأخرى²³².
- عدم التسليم للصحابة في أعمالهم واجتهاداتهم المختلفة في محطات الفتن ما لم يتوبوا منها²³³.
- تحريم تناول الدخان والمخدرات والمسكرات الأخرى.

ثانياً : المسائل الفقهية

يتبع الاباضيون عدة مسائل فقهية يختلفون فيها مع بقية المذاهب الإسلامية ويتفقون مع بعضها، ويصعب الإحاطة بجميع المسائل الفقهية المختلف حولها لذا فسوف نقتصر في ذكر بعضها من باب المقارنة خاصة وأن بعضها قد لفت انتباه الكتاب الغربيين، منهم وليام شالر الذي يقول في مذكراته: "والميزابيون يدينون بالإسلام ولكنهم يخرجون عنه في مسائل يصعب علينا شرحها، فلهم مساجد خاصة ويرفضون الصلاة في المساجد العمومية، ولقد علمت أن من الذي يمنعهم من الصلاة في المساجد العمومية اعتبارها أماكن غير طاهرة بسبب المجاري التي تجري فيها القاذورات"²³⁴.

230 - سورة هود الآيات 45-46.

231 - الأشعرية : إحدى الفرق الإسلامية، تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري ، تختلف مع مذهب السلف في بعض مسائل الاعتقاد، فهم يثبتون من صفات الله سبعاً، ويؤولون ما ورد من سائر الصفات، ومن مذهبهم تأويل استواء الله بالاستيلاء، والإيمان عندهم هو التصديق فقط، وأن كلامه تعالى معنى قديم قائم بذاته. انظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ط02، تح أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان ، 1413 - 1992، ص ص 40-44...

232 - محمد حسن مهدي، المرجع السابق، ص194.

233 - أبو الربيع سليمان الباروني، المرجع السابق، ص 73.

234- وليام شالر، مذكرات قنصل، المرجع السابق، ص ص 112-112.

وتشير المصادر إلى أن الاباضيين يضيّقون الارتباط الشرعي - الزواج - مع غير الاباضيين، بل ويمنعونهم مع المذاهب السنية الأخرى بشدة، وفي هذا الإطار فقد ذكر الكاتب الفرنسي ماسكوري في رحلته التي قام بها إلى الجزائر حادثة وقعت بمدينة سطيف، حيث يذكر أن مجلس العزابة الإباضي والذي من شأنه أن يدير شؤون الأقليات الميزابية في مختلف المدن والمناطق، ويفصل بين المتخاصمين ويدفع الديات، إذا ثبت لديه أن أي فرد من المجموعة الميزابية اقترف جرم شرب الخمر أو التدخين أو يقيم علاقات مشبوهة مع النساء فإنه يعزل من المجموعة. والحكم نفسه يقع على النساء اللواتي يسرن سيرة غير صحيحة في المجتمع²³⁵.

ويذكر كاتب فرنسي آخر أن شخصية سياسية ميزابية مرموقة تزوجت بإحدى النساء الأجنبية من بونورة وطلب من زوجته الأولى اللحاق به، فرفضت الجماعة انتقال زوجته الأولى وأبناءه إلى بني يسقن²³⁶.

وفي بعض الأحيان لا يتوقف العقاب إلى هذا الحد بل يمتد إلى عقوبات جسدية قاسية. فما وقع في مدينة سطيف ورواية ماسكوري أن أحد الميزابيين تزوج من امرأة عربية²³⁷، وبعد أيام من ذلك اختفى الرجل فجأة ففتشت عنه زوجته طويلا، ثم تقدمت للسلطات الفرنسية التي فتحت تحقيقا في الموضوع واكتشفت أن الرجل الضحية كان عند أحد زعماء الميزابيين بالمنطقة، حابسا إياه في قبو المنزل ومسلطا عليه أشد أنواع العقاب الجسدي حتى يطلق زوجته²³⁸.

وتمثل هذه الحادثة مثالا حيا حول صعوبة إقامة علاقات الزواج بين الاباضيين وغيرهم من السكان، ويعد هذا المنهج وسيلة للحفاظ على سلامة المذهب ونقاوة الأتباع وسلامة عقائدهم، حتى لا تمتزج بغيرها من العقائد، و لا يزال مثل هذا الأمر قائما إلى اليوم.

وأشار الونشريسي في نوازله إلى نماذج عديدة من الارتباطات الزوجية التي فشلت بسبب اختلاف المذهب، منها أن امرأة سنية تزوجت من رجل خارجي - إباضي - جهلا منها، فلما علمت

A Coyne, "le Mzab", in **RA**, journal des travaux de la société historique algérienne, - 235 volume 23, année 1879, challamel aîné, libraire, paris 1879 p172-210

A Coyne , ibid. p172-210 -236

237 - يطلق لفظ العربي في المناطق التي تسكنها العناصر البربرية المحلية في منطقة القبائل والأوراس ووادي ميزاب على المجموعات التي تتكلم اللغة العربية وذلك قصد تمييزها عن العناصر المحلية فالعربي في هذه الجهات يمثل عنصرا دخيلا.

238 - Paul Bourde, **A travers l'Algérie: souvenirs de l'excursion parlementaire** (septembre-octobre 1879), / gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France. P08.

بمذهبه طلبت فراقه، فتعهد بالرجوع عن مذهبه لكنه لم يفعل، فقام الفقهاء وأهل الفتوى بالتفريق بينهما لأنه يُخشى على دينها والفتنة على أولادها²³⁹.

كما ذكر الورتلاني في رحلته عند مروره بنواحي جنوبي تونس وجود عناصر اباضية لها ممارسات فقهية خاصة بما جد قاسية²⁴⁰.

وينقل الورتلاني عن التيجاني²⁴¹ كما جاء في رحلته قوله أنهم كانوا يوجبون على أنفسهم الغسل كل صباح أجنبوا أو لم يجنبوا، ويشترطون في الوضوء غسل الأيدي من الأكتاف، ويقول الورتلاني أنه التقى بأحد شيوخهم وتجادل معه في قضية المسح على الخفين، فشنع به، فذكر له الورتلاني الأحاديث الواردة في ذلك فردها جملة²⁴²، وقال له: "نحن لا نعمل بخبر الآحاد"²⁴³

ومن المسائل الفقهية الأخرى التي يتبعها الاباضيون:

- عدم رفع الأيدي عند تكبيرة الإحرام، فلا تنص أي قاعدة فقهية على وجوب رفع اليدين في الصلاة.
- لا نص يدل على وجوب القيام بدعاء القنوت²⁴⁴.

239 - كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، 1997، ص 24.

240 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 647.

241 - لم يذكر عنه أي تفصيل أو شرح ضاف يبين شخصيته.

242 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 647.

243 - خبر الآحاد هو الحديث لم يجمع شروط الحديث التواتر لروايته من سند واحد، وقد اختلف علماء السنة في مسألة العمل به فقال بعضهم هو خبر لا يفيد العلم بنفسه، وإنما يفيد العمل، ووجوب العمل بخبر الواحد قد تضافرت عليه الأدلة من كتاب وسنة، وهو مذهب الصحابة ض والتابعين، ويرى أتباع مذهب مالك في أخبار الآحاد أنها توجب العمل دون العلم، وقال ابن عبد البر: "أكثر أهل العلم منهم: أنه يوجب العمل دون العلم، وهو قول الشافعي وجمهور أهل الفقه والنظر. وقال النووي: "وأما خبر الواحد الثقة فهو حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها ويفيد الظن ولا يفيد العلم، وقال الحنفيون والشافعيون ان خبر الواحد لا يوجب العلم..." ومن أشهر ما يمثل به علماء المصطلح لخبر الآحاد حديث: "إنما الأعمال بالنيات" حيث تفرد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بروايته عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتفرد علقمة بن وقاص الليثي بروايته عن عمر وتفرد محمد بن إبراهيم التيمي بروايته عن علقمة وتفرد يحيى بن سعيد الأنصاري بروايته عن عمر بن إبراهيم. انظر موقع انظر كذلك موقع..

<http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=49999>

244 - القنوت هو الدعاء والطاعة، وهو السكوت، وهو أيضا طول القيام في الصلاة. وأفضل الدعاء في القنوت ما رواه الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر: "اللهم أهديني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت

- لا يرون وجوب إقامة صلاة الجمعة لغياب الإمام العادل، والصلاة لا تصح دون قراءة البسملة في تلاوة القرآن.
- لا يحل لرجل أن يتزوج من امرأة زنا بها²⁴⁵.
- حلق اللحية عند الاباضية حرام على عكس الحنفية الذين يرون في إبقائها سنة²⁴⁶.

المطلب الرابع : التنظيم الإداري والاجتماعي لميزاب

أولاً: الوضع العام

كانت ميزاب تضم مجموعة من القرى والقبائل المختلفة المشارب والجذور، والراجح أن المذهب السائد بها كان يتمثل في مذهب أهل السنة والجماعة حتى مجيء الاباضيين، وما إن حل القرن العاشر الميلادي حتى برزت ميزاب كمجموعة فقهية ودينية متميزة.

وبالرغم من الوحدة المذهبية والعقدية والقدرة التنظيمية الفائقة للمجتمع الميزابي، إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث اختلالات اجتماعية وسياسية داخل المجموعة الاباضية فمن 1405 حتى 1828 وقعت منطقة بني ميزاب فريسة لعشرات الفتن والحروب، ونشبت الصراعات بين مختلف قصور ميزاب لأسباب اقتصادية وسياسية كحق احتكار الأسواق والقوافل التجارية القادمة²⁴⁷. وقد تنشبت المشاكل والفتن بين القرى الميزابية لأسباب تافهة كما كان في بلدية العطف حين اختلف السكان حول تسمية بقل من البقول المحلية تاميسا أو تاخسايت فأقاموا سورا يقسم الحي إلى قسمين وقد أزيل نهاية القرن الثامن عشر، وعادة ما يكون الصراع بالحجارة والعصي والسيوف²⁴⁸،

ولا يعز من عادات تباركت ربنا وتعاليت". رواه أبو داود والترمذي وحسنه .. والقنوت سنة في الوتر في جميع أيام السنة ، قاله أحمد وغيره، والأفضل أن يكون بعد الركوع، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في مشروعيته فذهب أحمد وأبو حنيفة رحمهما الله إلى أنه لا يسن القنوت في صلاة الصبح ولا في غيرها من الصلوات سوى الوتر، وذهب مالك والشافعي إلى أن القنوت في صلاة الصبح سنة في جميع الزمان ، لأن أنسا قال: ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا . رواه أحمد، وكان عمر رضي الله عنه يقنت في الصبح بمحضر من الصحابة وغيرهم. . للمزيد انظر الموقع ..

<http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=49999>

245 - عمرو خليفة النامي، المرجع نفسه، ص156.

246- إسماعيل سامعي المرجع السابق، ص198.

247 - يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي ميزاب نموذج قصر بني يزقن من القرن 10 هـ 16م إلى القرن 13 هـ

19م، ر م غ م، كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر 2002م. ص24.

248 - المرجع نفسه ص72.

كما اندلعت بين قرى ميزاب وغيرها صراعات مدمية بسبب رغبة كل الأطراف في السيطرة على ممتلكات الإقليم وعلى المساحات الرعوية ومصادر الماء، وقد أدت هذه الفتن إلى نتائج كارثية ساهمت في نفي الكثير من الأعراس ومقتل آلاف الأبرياء²⁴⁹، وحرقت الممتلكات وتشريد العائلات المهزومة خارج موطنها مثل ما وقع في بونورة حيث اندلعت فتنة سنة 1799 بين أولاد بني إسماعيل وأولاد عبد الله من جهة وأولاد حمو وأولاد سبع من جهة ثانية انتهت إلى نفي بعض العائلات من المجموعة الثانية.

و كانت هذه الصراعات في غالب الأحيان بين قبائل الشعانية والأرباع والمذاييح²⁵⁰ وبني ورقلة وبني الأغواط وهي قبائل مالكية تقيم في الجهات الشمالية والشرقية من ميزاب مقابل قرى القرارة ومليكة بني يزقن وبونورة والعطف غرداية وبريان وهي قبائل اباضية، فضلا عن تدخل بني جلاب أمراء توقرت في الصراع²⁵¹.

ولجأت أطراف الصراع إلى إقامة أحلاف مشتركة من أجل تغيير موازين القوى وتحقيق النصر في الميدان على الخصوم، وقد كانت محاور هذه الأحلاف متباينة جمعت بين القبائل والقرى الاباضية ضد القبائل المالكية الأخرى من جهة وجمعت بين القرى والقبائل الاباضية والمالكية ضد قبائل وخصوم آخرين، كاستنجد اباضية ورجلان بغرداية ضد الغزاة من بني جلاب فانجدوهم واندحر العدو من بني جلاب²⁵² مرارا.

وقد قام الشيخ عيسى بن إسماعيل المصعبي ت1564م²⁵³ بكتابة رسالة إلى مشايخ سلطنة عُمان، ضمنها جملة من معاني الاستعطاف لرجال السلطنة لضرورة دعم إخوانهم في المغرب الأوسط، بعدما غدر بهم الناس وأحاطوا بهم من كل جهة وكادوا يستأصلونهم²⁵⁴.

249 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية غرداية 1992، ص72.

250 - المذاييح قبائل عربية جاءت من اليمن استقروا بجبل عمور وفي 1586-994 جاؤوا لغرداية وحافظوا على المذهب المالكي وكانوا 42 عائلة، ووقعت فتنة كبيرة بينهم وبين الشعانية جعل واد انتيسا حدا فاصلا بينهما.

251 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع نفسه ص72.

252 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق، ص68.

253 - انظر ترجمته في الفصل الثاني من هذا البحث.

254 - يحي بوراس، المرجع السابق، ص 26

كما تحالف الميزابيون مع القبائل المالكية الواقعة على الطريق التجاري الرابط بمدينة الجزائر ففي سنة 1640 وقعت قوافل تجارية ميزابية قادمة من الجزائر نواحي الجلفة في كمين لقطاع الطرق فانحازت القبائل العربية الأخرى إلى الميزابيين، ورفضوا تغريمهم من طرف الغزاة. وبعدها بسنتين عقد التجار الميزابيون مؤتمرا جامعا بباب الوادي وقرروا فيه جملة من القضايا المهمة منها:

- ضم العناصر المالكية بميزاب إلى مجموعة التجار الاباضيين في اجتماعاتهم التنسيقية.
- الإذن لهم بدفن مواتهم في مقبرة سيدي بنور الاباضية.
- مرافقتهم في الأسفار من وإلى غرداية لمزيد من الحماية والأمن.
- التعاون المشترك في القضايا المحلية التي كانت في المنطقة.
- التعاون المشترك في صد أي عدوان أجنبي²⁵⁵.

ومن خلال هذا الاتفاق يتبين أن الفروق المذهبية التي كانت تميز المنطقة لم تقف أمام تحقيق تحالف بين مختلف القبائل عند الضرورة، وأن هذه الاتفاقات عبرت بالعلاقات بين مختلف فئات السكان إلى مستويات رفيعة من التنسيق والانسجام فرضتها مصلحة مختلف الأطراف.

ثانيا: التنظيم الإداري

أجمع أغلب المؤرخين والدارسين على أن الميزابيين في الجنوب كانوا يعيشون حياة عزلة²⁵⁶ شعورية عن سكان الشمال، ويعود السبب في ذلك إلى التباين العقدي والفقهية بين المنطقتين، فسكان الشمال يتبعون مذهب أهل السنة والجماعة، بمذهبيه السائدين سواء المذهب المالكي أو المذهب الحنفي، بينما يتبع سكان ميزاب المذهب الإباضي كما شرحناه سابقا.

لقد اختار الاباضيون نمط الحياة القاسية في تلك البلاد التي تعيش في عزلة عن الدنيا في سبيل الحفاظ على كياناتهم الفكرية والروحية رغم فقر المادة²⁵⁷ وقحالة المحيط.

ولاحظ لويس رين أن الميزابيين جسدوا نموذج المجتمع المغلق، حينما شكلوا فرقا للدفاع عن بلادهم من الخطر المحدق بها، وهو نفس التنظيم الذي وجدته معمولا به في بلاد القبائل الكبرى بجزيرة تحت تسمية إيمسابلن أو المسبلين، أي المتطوعين الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله، ويستدعون

255 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق، ص48.

256 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص42.

257 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص138.

للدفاع عن البلاد حينما تتعرض لخطر أجنبي²⁵⁸. ويشترط في هؤلاء ألا يقاتلون أبدا عندما تكون
مناوشات بين القبائل أو تتعرض القبيلة لقطاع الطرق²⁵⁹.

ويشبهه لويس رين المجتمع الإباضي بعقائده وتقاليده وأفكاره بطائفة الارثودوكس الغربية²⁶⁰،
والتي كان التضامن بين أفرادها شعارا مقدسا، ويتجلى ذلك في مؤازرة الضعيف منها والبالس والمغرم،
وقد نصت الكثير من الوثائق على ذلك²⁶¹.

ويقول فونتور دو بارادي: "ويشكل الميزابيون فرقة منفصلة لها أمين منهم وهم الذين يملكون
جميع مطاحن الدقيق ومخابز المدينة والحمامات العامة وجباية ضرائب اللحوم ويتمتعون بامتيازات أكثر
من الأهالي"²⁶².

ومن أبرز التنظيمات التي أرساها الإباضيون في الجزائر خلال العهد العثماني نظام العزابة الذي
يعزى ظهوره إلى الإمام أبو محمد بن أبي بكر²⁶³ حيث وضع أصول هذا النظام لحفظ مبادئ المذهب
الإباضي²⁶⁴.

واشتقت تسمية هذا النظام من لفظ عزب يعزب من العزوب، والتي تعني تغيب الانسان عن
أهله وماله ووطنه والعازب والأعزب الذي لا أهل له²⁶⁵، كناية لانقطاع الفرد في هذه المؤسسة عن

258 -. كتب القبطان روبين مقالا في المجلة الإفريقية تحت عنوان لميسابليين شرح فيه هذا التنظيم بصورة وافية انظر في
le Commandant Robin, **les Imesseblens** in R.A. Jourdan, Libraire-éditeur Constantine
Volume 18 Année 1874 p401
- op.cit., p401. 259
- **ibid.** p401 260
sur l'islam en Algérie Adolphe Jourdan, - Louis Rinn **Marabouts et Khouans/ étude** 260
pp144- 145. **1884** libraire-éditeur. Alger
261 - عمار بن خروف، "جماعة بني ميزاب في مدينة الجزائر في العهد العثماني 1520-1830" في مجلة الواحات للبحوث
والدراسات، المركز الجامعي غرداية، العدد الأول 2006. ص43.
نقل صاحب المقال نصا من قانون مدينة الجزائر جاء فيه: "الحمد لله اتفقنا مع جماعة بني ميزاب المتوالين كذا... كراء الحمامات
ببلد الجزائر بين يدي الشيخ المفتي وعبد الله محمد بن الحاج يوسف الشويهد وأنهم ضامنون بعضهم بعضا وأن من غاب منهم من
البلد وبقي بدمته كراء لرب الحمام يؤدون عليه البقية في الجزائر"
Venture de paradis **op.cit** . p. - 262
263 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص105.
264 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص50.
265 - صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، ج1، نشر جمعية التراث، غرداية، الجزائر،
2005، ص 292.

شواغل كثيرة خدمة لمصالح المجتمع الاباضي، فالعضو فيها والذي يقال له العزابي يلتزم الطريق الصحيح وروح الجماعة وينبذ الدنيا بكل ما تقدمه للانسان من مغريات وشهوات²⁶⁶.

وكان لكل قرية ميزابية مجلس محلي يدير شؤونها وينظم أمورها وينظر في مختلف المنازعات التي تطرأ، ولكل قصر من قصورهم عزابة، وكل القصور تخضع لنظام مركزي موحد²⁶⁷.

وبعد مرور زمن معين تطور التنظيم وأصبح في شكل مجلس جهوي يضم ثلاثة من كبار العزابة من كل قرية، وهم أعضاء دائمون يستدعون من يرون لحضور اجتماعاته والإدلاء برأيه في مختلف الشؤون²⁶⁸.

المطلب الخامس: الفقه الإباضي في خدمة الوحدة السياسية

من وسائل التنظيم والقوة الإدارية التي اعتمد عليها الاباضيون في ميزاب مجلس العزابة الذي يستند على الفقه الديني في تنفيذ قراراته ومنها:

أولاً : قوة الجماعة المعنوية

للجماعة الميزابية قدرة كبيرة في تكوين رأي عام مؤثر على كل مخالف للترتيبات التي يقرها مجلس العزابة، فإذا تنصل أحد منها وأبى الخضوع لها، فإن المجلس يعتصم بالمسجد ويمكث به - على شكل اعتصام - حتى يذعن المخالفون تحت ضغط وسطوة الرأي العام²⁶⁹.

ويذكر الشيخ أبو اليقضان أن أقدم اتفاق لهذا المجلس يرجع إلى سنة 807هـ 1405م وينعقد بمسجد الشيخ عبد الرحمن الكرتي أو بمسجد عمي سعيد بن علي الجري، وتأخذ الاتفاقات المتخذة خلال هذا المجلس طابع المحافظة على الأمن أو الإصلاح الاجتماعي²⁷⁰.

وعندما يحصل اتفاق حول مسألة ما تسجل المداولات على محضر الجلسة، ويوقع الحاضرون على ذلك، ثم تتلى على الناس في المساجد، وغالباً ما يكون ذلك ليلة الجمعة قبل صلاة العشاء. فتصبح الاتفاقات قانوناً يجب احترامه من طرف الجميع²⁷¹.

266 - صالح بن عمر سماوي، المرجع نفسه. ص 292.

267 - - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص 138.

268 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص 50.

269 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع نفسه، ص 54.

270 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق ص 50.

ومن أبرز نماذج هذه الاتفاقيات التي وقعت في العهد العثماني، اتفاقيات "عمي السعيد" التي وقعت في حدود سنة 1052هـ، وكانت الاتفاقيات أمنية نصت على تحريم حمل السلاح ومنع تداوله وتغريم المخالفين، أو نفيهم خارج ميزاب لمدة معينة. كما نص الاتفاق على تحريم الدعوة للعصية والحمية القبلية²⁷²، والتعدي على ترتيبات توزيع المياه الخاصة بالسقي، أو تجاوز الكمية المحددة لكل ميزابي²⁷³.

ويمكن لمجلس العزابة إعادة النظر في قراراته السابقة ولو كان ذلك بعد مدة طويلة، حيث يذكر أن الاتفاق المذكور سابقا، قد تم تعديله بعد مرور نحو مائة وخمسين سنة²⁷⁴، أي سنة 1199 وهي تعديلات تقنية تفصل في كيفية تطبيق النصوص السابقة، وفتح مجالات تنفيذ العقوبات المنصوص عليها، وكان كاتب هذه التعديلات الشيخ عبد العزيز بن صالح بن حمو²⁷⁵.

ثانيا : حمل العامة على رأي فقهي واحد.

قد يلجأ مجلس العزابة في بعض الحالات إلى مدارس القضايا الفقهية، من أجل توحيد المجتمع الميزابي على قول واحد من أقوال العلماء ونبد الفرقة والخلاف، فيرجحون رأيا ويتفقون عليه لما فيه مصلحة العامة أو أن يكون موافقا لروح الشريعة الإسلامية، وإذا رفض العامة إقرارات مجلس العزابة فإن أعضائه يلتزمون بيوهم فلا يخرجون منها أبدا فلا يؤذن لصلاة ولا تقام صلاة جامعة حتى ترتعد فرائس العامة وتحشى على ذهاب الدين والوقوع في الإثم فيقومون إليهم ويوفدون إليهم من يسترضيهم ويعلن إذعان الجماعة لهم²⁷⁶.

وقد عقدت العشرات من الاتفاقيات الفقهية والاجتماعية خلال العهد العثماني تنظم الشؤون العامة وبعض هذه الاتفاقيات تشارك فيه مجموعة من القصور البعض الآخر تشارك فيها مجموعة أخرى مما أفقد هذه الاتفاقيات الطابع الإلزامي لجميع صور ميزاب²⁷⁷.

271 - إبراهيم محمد الطلاي المرجع السابق ص52.

272 - استطاع الاباضيون مع مرور الزمن الحفاظ على هويتهم المذهبية التي شكلت عنصر الوحدة الأساسي بين مختلف فروع القبائل التي ينحدرون منها وبهذا يمكن القول أنهم جسدوا فعلا الهوية الدينية التي تعلو على الانتماء القبلي والعصية.

273 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق ، ص53.

274 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص53.

275 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع نفسه ، ص54.

276 - حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، مج01، دار البعث، قسنطينة، دت ، ص167.

277 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق، ص50.

ويشرف عليها أعضاء من مجلس العزابة الكبير الذي يدير منطقة بني ميزاب وممثلين عن كافة قرى ميزاب ومن علمائها وأعيانها وقد كان اجتماع المجلس يتغير من مكان لآخر حسب ما تمليه الضرورة فعقد بمسجد "باعد الرحمن الكرثي" سنوات 807-815-974-1242-1245هـ وانعقد في مسجد مقبرة أبي مهدي عيسى بن إسماعيل سنوات 975-1052-1197-1199هـ ، كما تذكر المصادر انه اجتمع في مسجد عمي السعيد سنوات 1108-1145-1245هـ²⁷⁸.

وقد يكون اجتماع المجلس من أجل إعادة النظر وتصحيح بعض القواعد التنظيمية والدينية السابقة، مثلما حدث سنة 1240هـ الموافق لـ 1826 م حيث نوقشت مسائل سابقة وعدل الاتفاق الواقع في القرن العاشر الهجري وجاء فيه: "وبعد فإن العلماء المجتمعين في مجلس الشيخ عمي سعيد قد اتفقوا على أمور تصلح لفتاويهم حتى لا يختلفوا وتكون ملجأ لهم ولمن يأتي بعدهم، لأن أقوال العلماء كثيرة فقصدوا باتفاقهم عدم الخلاف وعدم نقض بعضهم على بعض"²⁷⁹.

من ذلك ما وقع عليه الاتفاق سابقا في روضة أبي مهدي عيسى بن إسماعيل²⁸⁰ في زمن الشيخ محمد بن زكرياء النفوسي الباروني وهو ثلاثة أشياء:

الأول أن الجعي²⁸¹ يلحق بأمه وأخواله لا بمن زنى بالمرأة.

الثاني نكاح السر قد فشا في ذلك الزمان فقطعوه لأنه منسوخ في الشرع.

الثالث أن الأقرب لا يرد الوصية إلى الثلث إذا أشغله الميت بشيء، وكذلك المرأة في بلد من بلدان ميزاب²⁸² فان أرادت أن تتزوج رجلا في مدينة غير مدينتها، فإن عقد نكاحها يكون في البلد التي هي فيه، لا في المدينة التي فيها زوجها، لأن ذلك أصلح لمعرفة حالها ومن أولى بتزويجها من أوليائها"²⁸³

278 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع نفسه، ص50.

279 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق ، ص56.

280 - من علماء قرية مليكة الميزابية ونزيلها توفي سنة 971هـ الموافق لـ 1562ف

281 - الجعي لم أجد لها تعريفا في قواميس اللغة وربما يقصد بها الولد من الزنا.

282 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق ، ص56.

283 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق ص53.

ومما وقع عليه الاتفاق²⁸⁴ : "إن عرف شيء من الأصول والأملاك لأحد، فدخل عليه رجل آخر، فقام به على الحيازة يحرث ويحصد ويتصرف ويشغل ويعطي ويمنع، وصاحبه حاضر دون غائب وطفل ومجنون، حتى مضى على ذلك عشرون سنة، فإن المتصرف الحاضر يأخذ ذلك بالحيازة". ومن ذلك أن "الدّين إذا أظهره أحد بعد عشر سنين، ولم يطلبه صاحبه ولا وقع عليه التحجير والطلب، فليس له بعد تلك المدة سبيل إلى طلبه"²⁸⁵ ومن ذلك أن "المرأة إذا طلقها زوجها وهو غائب عنها، فأشهد شهودا له في غيبته أنه طلقها، فلما وصل الخبر للزوجة فإنها ترفع عدتها من اليوم الذي وصلتها الشهود في بلدها، ولا تعتبر باليوم الذي شهد فيه الشهود في الغيبة، لأن العدة عند المرأة عبادة والعبادة لا تصح إلا بالنية ونيتها لا تصح إلا بوصول الخبر إليها." كتب هذا الاتفاق في اليوم 21 من شعبان سنة 971 هـ الموافق لـ 1562.²⁸⁶

المطلب السادس: علاقة الميزابيين بالسلطة الحاكمة

تميز الواقع الاجتماعي والسياسي الذي كانت تعيشه الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر بالضعف والفوضى، فعلى الصعيد الخارجي لا زالت سواحل البلاد الشمالية تتعرض للتحرش الاسباني المسيحي الذي احتل بعض موانئها، وهدد كثيرا من الجهات الداخلية لا سيما الغربية منها في ظل فقدان قوة مركزية توحد البلاد في وجهه.

وأما على الصعيد الداخلي فقد عصفت الصراعات القبلية المختلفة بوحدة البلاد وتوزعت السلطة السياسية بين مشيخات وقبائل متعددة، كان بعضها يستقوي على البعض الآخر ببقايا الحفصيين أو بالأسبان بتمكينهم من امتيازات ومكاسب لم يحصلوا عليها بقوة السلاح، مثلما وقع لمدينة الجزائر حينما منحت الإسبان قلعة البينون.

ويرى كثير من المؤرخين والدارسين لمنطقة ميزاب أنها كانت تعيش في عزلة عن العالم منذ نكبة تيهرت التي ذكرناها آنفا وعندما ظهر الأتراك على مسرح الأحداث فكروا جيدا في أمر هذا الوافد الجديد ثم قاموا بالاتصال بهم قبل أن يبادروا هم بالاقتراب من المنطقة والمهاجمة²⁸⁷

284 - من خلال النص الذي يسبقه نفهم أن الاتفاق تم في حدود سنة 971 هـ الموافق ل ميلادية

285 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق ص50.

286 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق ص50.

287 - علي يحي معمر، الاباضية في موكب التاريخ - الاباضية في الجزائر-، مكتبة وهبة، القاهرة، 1979. ص329.

لقد كانت الخيارات قليلة أمام الجماعة الميزابية، وكان أفضلها التقرب من السلطة الجديدة التي أرسى قواعدها الإخوة بربروس، وكانت كل المؤشرات تدل على نجاحها في مساعي الدفاع عن البلاد وتوحيد جهاتها ومناطقها. فوضعت الجماعة نفسها في خدمتها وفي خدمة المشروع السياسي الذي تبلور بعد انضمام الجزائر للسلطنة العثمانية.

ويبدو من خلال استقراء الكتابات الإباضية والغربية أن انضمام الميزابيين للدولة العثمانية في الجزائر إسمياً حيث تعهدوا بجمع الضرائب اللازمة كل سنة وحملها لدار السلطان دون الحاجة للمجيء للبلاد والاختلاط بالناس وهذا حفاظاً على الجماعة الميزابية من أي تأثير أجنبي مهما كان نوعه²⁸⁸ وقد اعتمد الميزابيون للتغلب على جفاف الأرض التي سكنوها وقحالتها على التجارة²⁸⁹ متنقلين بين التل الشمالي الرطب الغني بثرواته وموارده، وبين الجنوب القاسي. فكانوا بحاجة لتأمين تجارتهم وضمان حرية التنقل داخل أراضي الإيالة فبادروا بالاعتراف بالسلطان التركي²⁹⁰. وإذا سلمنا برواية المزاري فإن الإباضيين يكونون قد وقعوا أول اتفاق سياسي بينهم وبين العثمانيين قبل الالتحاق الرسمي للجزائر بالدولة العثمانية، وكان ذلك في حدود سنة 1510، ولنا أن نتساءل عن طبيعة هذا الاتفاق، هل كان اتفاقاً سياسياً يخضع من خلاله الميزابيون للسلطة الجديدة، بالرغم من الاختلاف المذهبي واللغوي، أم كان اتفاقاً تجارياً فقط يمنح للميزابيين حرية التنقل بتجارهم من الشمال إلى الجنوب؟²⁹¹

288 - علي يحي معمر، المرجع السابق. ص331..

289 - أجمع جل المؤرخين الغربيين على أن أتباع المذهب الإباضي كانوا يعتمدون بصورة كبيرة على التجارة، وهي نشاط حربي يعتمد على الحيوية والحركة التي تحقق لصاحبها الحرية في نشر وممارسة أفكاره السياسية والتمكين لعقائده ومن أمثلة من ذكر ذلك: Ernest Zeyls, (1835-1909). **Législation mozabite, son origine, ses sources, son présent, son avenir.** Leçon d'ouverture faite à l'École de droit d'Alger, 1886 p Masqueray, Émile (1843-1894). **Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouïa de l'Auras, Béni Mzab).** Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France 1886.

290 - احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق ، ص138.

291 - الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة د. يحي بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. ص

وبالرغم من اعتراف ميزاب بالسلطة الجديدة إلا أن العثمانيين لم يولوا المنطقة أية اهتمام أو رعاية خاصة تأمين الطرق التجارية التي كانت القوافل تسير خلالها وفي أغلب الأحيان تتعرض لهجمات قطاع الطرق²⁹²

ومن اجل ذلك قام الميزابيون بتكوين فرق عسكرية للدفاع عن القوافل أو تأجير مقاتلين أشداء يوكل إليهم أمر حماية القوافل التجارية.

وقد منحت السلطة الجديدة الاباضيين كثيرا من الامتيازات نظير الدور الايجابي الذي كانت تلعبه فقد كان لهم في مدينة الجزائر قضائهم ومسئولي حرفهم التي سيطروا، عليها خاصة حرف التجارة والتنظيف وجلب الماء²⁹³، وكان لهم أمينا لا ينظر في شؤون ميزابي الجزائر فقط، بل في شؤون ميزابي وهران وعنابة وغيرها من المدن التي بها هذه الجماعة²⁹⁴.

وقد أشار الشيخ اطفيش²⁹⁵ في تقييده إلى بعض الأمناء الذين تولوا هذا المنصب كحمو بن صالح الذي تولاه سنة 1212هـ 1798م وصالح بن سليمان سنة 1222هـ²⁹⁶

وكانت أكثر اتصالات الميزابيين في علاقاتهم اليومية ببائلك الشرق وبائلك الغرب وبائلك التيطري، وفي حال نشوب النزاعات والخلافات كانوا يكتابون ممثل الداي في منطقة التيطري، الذي كانت عاصمته المدية.

ولم تصفُ علاقة الميزابيين بالأترك مطلقا فقد اهتزت بين الحين والآخر بفعل رغبة الطرفين في كسب المزيد من الامتيازات على حساب بعضهما البعض ففي عهد الباي صالح حاكم بايلك

292 - علي يحي معمر، المرجع السابق . ص331.

293- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص.400.

294 - عمار بن خروف، المقال السابق، ص41.

295 - محمد بن يوسف اطفيش عالم إباضي معاصر ولد بمدينة غرداية سنة 1236 هـ / 1820 م. أخذ مبادئ العلوم المختلفة كالنحو والصرف والمنطق والفقه معتمدا على نفسه في الاستزادة من العلم، فكان عصاميا حريصا على طلب العلم مجدا في التحصيل بالمطالعة الجادة وجلس إلى تعليم أبناء المسلمين بالمعهد الذي أسسه في بيته، فقصده الطلبة والعلماء للنيل منه والاستزادة وترك الشيخ اطفيش مكتبة ثرية ومؤلفات عديدة قيمة في علوم مختلفة، منها وفاء الضمانة بأداء الأمانة. الرد على الصُفوية والأزارقة. الرد على العقبي. عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية. حكم الدخان والسعوط. الرسالة الشافية في بعض تواريخ وادي ميزاب. أجوبة لأهل عمان. توفي الشيخ اطفيش بمدينة بني يزجن سنة 1914م.

296 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق ، ص 43.

الشرق تبدت ملامح التغيير حيث طمح صالح باي على وضع يده على المزيد من خيارات المجتمع الإبااضي وعدم الاكتفاء بما نصت عليه الاتفاقيات السابقة فقاد المحلة نحو ميزاب قاصدا احتلالها²⁹⁷.

وقد ذكر الشيخ الحاج إبراهيم بن بيحمان المتوفي سنة 1232هـ أن الميزابيين كتبوا رسالة لممثل الداوي للاحتجاج على سياسة صالح باي التوسعية، بعد حملته السابق ذكرها والتي قادته لإخضاع مدينة الأغواط ومحاولته بسط نفوذه على منطقة ميزاب سنة 1785م، وجاء في هذه الرسالة: "من جموع بني ميزاب المشتكين إليك ما نزل بهم وحل بأسماعهم وهي انك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد صاحب الولاية الشرقية، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة عليهم من الأسلاف والأجداد في الديوان، مع أن ما كانوا عليه لا يطاق وصفه ولا يحصى عدده، من تحمل الصنائع على عواتقهم والخسارة التي فيها المطوقة على كواهلهم، وقد تحملها السلاطين الجسام فلم يستطيعوها، فسلموها لهم في الساعة والحين وهربوا منها على رؤوس الأشهاد"²⁹⁸.

ثم يردف "وحاصل ما ذكر من الأمر والشأن أن حُدْمَةَ العسكر الأعلى والجند الأسمى، هم بنو ميزاب من قديم الزمان، إما أن تسعى فيهم بقواعد الأسلاف والأجداد وتجري عليهم قواعد العسكر من غير تبديل قاعدة ولا تغيير ضابطة، أو تسرحهم للخروج من بلد الجزائر كما دخلوها بأمان ليدبروا على أنفسهم، قال الشاعر:

عجبت لمن يقيم على خسف يراد به وأرض الله واسعة الفضاء"²⁹⁹.

ويذكر الكاتب أن الداوي الذي كتبت في عهده الرسالة هو حسن باشا الدولتلي وقد أجاب عنها بعد شهرين من كتابتها، بأن تراجع عن نية توسيع سلطانه على منطقة ميزاب، وقد كلف بها ممثلهم لدى الداوي إبراهيم بن صالح بن بيحمان أحد تلاميذ الشيخ الثميني³⁰⁰.

وفي المقابل وبالرغم من أن الجماعة الإباضية في العهد العثماني كانت متحالفة مع السلطة العثمانية³⁰¹ ويتجلى ذلك خاصة من خلال منحها كثيرا من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية في

297 - علي يحي معمر، المرجع السابق، ص 331.

298 - انظر نص الرسالة المخطوطة في قسم الملاحق .

299 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص ص 44-45

300 - علي يحي معمر، المرجع السابق، ص 331

المدن، ومساهمتها في تقوية الحكم المركزي، إلا أن ذلك لم يشفع لها عند السلطة غض الطرف عن تحقيق طموحات وتوسعات عسكرية على حساب جيرانها، ففي أثناء حملة الباي محمد الكبير باي الغرب التي قادته نحو الجنوب ولما هم بالخروج من الأغواط، وإذ بمجموعة من جنود بني ميزاب تنزل المنطقة المتاخمة لها وتحاول أن تستولي على قرى الأغواط، آملة أن يسكت الباي عن ذلك بقطع عهوده السابقة مع بني الأغواط³⁰².

ويبدو أن مواجهات مسلحة اندلعت بسبب هذه الأطماع غير المشروعة، فأعلن الباي محمد الكبير رفضه لذلك، وسأل بني الأغواط أن يطلقوا من كان بأيديهم من الأسرى الميزابيين، وأعطى لهم الحرية في الصيغة التي يتعاملون بها معهم قائلا: "وأما الصلح فلا أحملكم عليه فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسلام"³⁰³.

فاكتفى الميزابيون بما تحت أيديهم من مناطق وقرى، ورجعوا عن حمل بني الأغواط على مذهبهم، أو الاستيلاء على مواطن أراضيهم، وهكذا فإن التحالف بين الطرفين التركي والإباضي لم يكن على حساب الأهالي الآمنين في بلدانهم وقراهم ولا على حساب مصالحهم، ومناطق نفوذهم التي تعني الكثير بالنسبة لهم.

المطلب السابع: مساهمة الإباضيين في دعم الحكم التركي

ساهم الإباضيون في دعم الحكم التركي بمختلف الوسائل المادية والمعنوية، فمن الدعم المالي كان الميزابيون يدفعون قروضا للدايات راس كل سنة، قدرها أربعمئة صائمة. وكان إباضية عنابة يدفعون نحو مائة صائمة، كل سنة³⁰⁴.

301 - الحاج موسى بن بكير بن عمر مزاب في العهد العثماني 1510 - 1830 ، في دورية الحياة ، مقال اليكتروني العدد:

12، 1429هـ/2008م، ص 121-143

302- ابن هطال، المرجع السابق ، ص75.

303- ابن هطال أحمد التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص75.

304 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، المرجع السابق، ص58.

وبالرغم من اعتبار الاباضيين دار السلطان القائمة في مدينة الجزائر تحت راية الأتراك، دار جور وظلم إلا أن التجارب القاسية التي مرت بها الجماعة أثبتت أنهم بحاجة إلى حماية دولة قوية كالدولة التركية.

وجدد الميزابيون فلسفة الدفاع عن أنفسهم وفق المنظور التاريخي القديم، الذي ينطلق من مصطلح الشراة³⁰⁵ ووظيفه مرة أخرى في العهد العثماني تحت مسمى الفدائيين³⁰⁶.

ومن أكبر المعارك التي ساهم فيها الاباضيون كما يذكر المؤرخون، معركة الدفاع عن مدينة الجزائر سنة 1518 ضد الحملة الاسبانية، التي اصطدمت بالمقاومة العنيفة، للأهالي والحامية التركية، بالإضافة إلى العمليات الفدائية التي قام بها الميزابيون³⁰⁷.

حيث تذكر المصادر أن خير الدين بربروس استدعى الميزابيين لمناقشة الوضع فأشاروا عليه بالقيام بعملية فدائية، فوافق على ذلك. وقام الميزابيون بإعداد أنفسهم للقاء الحاسم فحملوا نعشا مدججا بالأسلحة، ثم اتجهوا به صوبا نحو كدية الصابون الواقعة قرب مصب وادي الحراش، والتي تمكن الإسبان من احتلالها، ولما وصلوا إلى المكان المتفق عليه مسبقا، وعند الإشارة فتحوا النار على الجند فتشتت الإسبان وذهلوا لهول المفاجأة التي لم تكن في الحسبان، وانسحبوا بين قتيل وجريح وكان ذلك في يوم 24 أوت 1518³⁰⁸.

بعد المعركة استدعى خير الدين باشا الميزابيين وكافهم بمنحهم اربعة حمامات هي حمام فويطة وحمام سيدنا وحمام سرکاجي وحمام كشاوة علاوة³⁰⁹.

أولا : حملة شارلکان 1541

كان للميزابيين مساهمات عسكرية كثيرة تدل على حسن وفائهم والتزامهم مع السلطة الحاكمة منذ تأسيس الحكم التركي، وبطولات "أسطورية" في الدفاع عن مدينة الجزائر، وقد ذكر

305 - يقصد بهذا المصطلح فئة من المؤمنين باعت نفسها لله تعالى، تدافع عن الدين والعقيدة ولا تتوانى عن ذلك، مهما كلفها من أمر، انطلاقا من قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)سورة التوبة.

306- حمو عيسى النوري، المرجع السابق، ص201.

307- حمو عيسى النوري، المرجع السابق، ص205.

308- حمو عيسى النوري، المرجع نفسه، ص206.

309- حمو عيسى النوري، المرجع نفسه، ص208..

دوماس أسطورة تعود إلى سنة 1541 حين قام شارلكان بحملته الكبيرة على مدينة الجزائر حيث شرع أهلها في تحصينها لردع المسيحية³¹⁰.

فقد تطوع الميزابيون للدفاع عن المدينة وحمايتها من أحد الأبراج الذي نصبه جنود شارلكان شرقي المدينة، وكان الأهالي قد دعوه برج بوليلة لان الإسبان تمكنوا من نصبه في ليلة واحدة، وحصنوه بالحفر والأخاديد التي تحول دون اقتحامه، وكان للبرج تأثير كبير على المدينة فقد كان القصف يصيب الأحياء والمنازل بكل سهولة.

وقد عقد الميزابيون مع الداوي صفقة حيث يقوم بنو ميزاب من جهتهم باقتحام الحصن الاسباني وإنقاذ المدينة من شره مقابل أن يمنحوا تسهيلات تجارية³¹¹، وحق إدارة الحمامات العامة وحوانيت الجزيرة، وان يسمى من بينهم أميناً عاماً يسير شؤونهم ويحتكمون إليه في منازعاتهم.

ووافق الباشا على هذه الشروط، فقام الميزابيون بالتسلل من مدينة الجزائر المحاصرة قاصدين البرج الاسباني، في شكل نساء عربيات، حيث قام كل فرد من أفراد الفرقة الميزابية بالتحاف ملاء وتغطية وجهه، حتى لا تبدو منها لحاهم وشواربهم، ولما رأى الإسبان هذا المشهد توقفوا عن إطلاق النار، ظنا منهم أن المحاصرين استسلموا لهم فأرسلوا نساءهم كعلامة خضوع، ودخلت الفرقة الميزابية البرج وما أن دخل آخرهم حتى فتحوا النار على الإسبان، وبعد مقاومة عنيفة حرر البرج نهائيا بعدما استشهد العشرات من رجال الفرقة الميزابيين الذين تطوعوا لتحرير مدينة الجزائر³¹².

وبعد ذلك قامت الفرقة المهاجمة بإعطاء إشارة لفرقة المشاة التركية التي خرجت من المدينة نحو برج أبو ليلي وتحرير مدينة الجزائر³¹³.

ويضيف دوماس أن الأسطورة اكتملت بالتسمية الجديدة للبرج التاريخي، حيث مر من قرب مدينة الجزائر في تلك الآونة، مولاي يزيد أحد أقرباء الملك المغربي مولاي الحسن، ولما اطلع على المغامرة التي عاشتها مدينة الجزائر وفشل حملة شارلكان الكبيرة في احتلالها، تقدم للباشا بمبادرة تغيير البرج وتحويله إلى قلعة عسكرية، وتطوع من أجل ذلك بخمسين ألف دورو اسباني، فقبل الباشا وشرع

, tell — Kabylie — Sahara de l'Algérie - le général Dumas, mœurs et coutumes 310 pp 136-137. 1853. PARIS . librairie de l. hachette et Cie

op.cit. p137 -311

. p137 Dumas le général op.cit -312

ibid. p137. -313

في تحويل البرج، وبعد أربعة سنوات تم له ذلك، ووفاء منه لقريب ملك المغرب سماه برج مولاي الحسن اعترافا بالجميل للملك المغربي، غير أن الفرنسيين أطلقوا عليه اسم برج الإمبراطور³¹⁴.

وإذا اعتبرنا بصدقية هذه الأسطورة التي أوردتها دوماس فان الميزابيين كان لهم الفضل الكبير في رد حملة شارل كان مقابل ما كان لهم من امتيازات حرصوا على الاحتفاظ بها على مر العصور.

ثانيا : القضاء على تمرد الكراغلة

لعب المزابيون في ولاية حسين باشا دورا بارزا في القضاء على ثورة الكراغلة سنة 1633، والتي كانت تهدف إلى الإطاحة بالحكم التركي، الذي بالرغم من علاقتهم به إلا أنهم استبعدوا من مواقع النفوذ، خاصة مع نهاية القرن 16 لما زاد عددهم وباتوا يشكلون قوة عددية لا يستهان بها³¹⁵. ووضع أسس حكم يشاركون فيه، فقاموا أولا بالاعتصام ببرج مولاي الحسن، منتظرين اندلاع المواجهة مع الجيش الانكشاري ومن ثمة القضاء عليه.

ويذكر حمدان خوجة أن الباشا حسين عندما بلغته أخبار التمرد، استعان بعدد من أهل ميزاب المقيمين بالمدينة لإحباط المؤامرة، بأن يلبسوا لباس نساء المدينة³¹⁶، ويخفوا السلاح والذخيرة تحت ملاحفهم ثم يتقدموا لدخول البرج³¹⁷.

وعند دخول هؤلاء المتنكرين البرج هاجموا المتمردين على حين غفلة بمساعدة من كان يتبعهم عن كثب، من أفراد الإنكشارية فأجهضوا التمرد وأحبطوا المؤامرة.

ثالثا : المساهمة في صد الحملة الفرنسية سنة 1830

ومن جهة أخرى يذكر سيمون بفايفر في مذكراته أن ممن ساهم في الدفاع عن مدينة الجزائر خلال الحملة الفرنسية عليها سنة 1830 الميزابيون حيث شاركوا بأربعة آلاف جندي³¹⁸ وقد عبر الميزابيون عن حزنهم الشديد على اثر سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي سنة 1830 حيث يذكر أنهم مكثوا ثلاثة أيام لم توقد لهم نار في بيت ليس حزننا على موتاهم الذين سقطوا في ساحة

ibid p137.-314 .

315 - ارزقي شويثيام، المرجع السابق، ص 155

316 - تكررت هذه الأساليب التي كان يستعملها الاباضيون في هجماتهم والسؤال يطرح حول سبب انتباه الخصوم لها في الوقت المناسب

317 - حمدان خوجة، المرجع السابق، ص48.

318- سيمون بفايفر ، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تر أبو العيد دودو، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1974 ، ص80.

المعركة، ولكن حزنا على مدينة الجزائر التي غدت بيد الاحتلال الأجنبي، ومغبة ما ينتظر المسلمين والإسلام من ويلات ونكبات بعد سقوط هذه الدولة التي علقوا عليها آمالا³¹⁹.

وبعد سقوط المدينة شكل الميزابيون حيزا منفصلا في الصحراء الجزائرية وامتنعوا عن التعامل مع إدارة الاحتلال ويرى لويس رين³²⁰ أن "الاباضيين الآن - فترة الاحتلال الفرنسي - لا يملكون إماما يسوسهم كما كانوا من قبل ولذلك فقد لجؤوا إلى السرية لتنظيم شؤونهم فضلا عن تنظيمات العزابة" التي حافظوا عليها. حتى ضاقت بهم السبل، وقد تركوا في استقلالية شبه كاملة ولم تقم سلطة الاحتلال بضم الإقليم الميزابي إلى الإدارة الفرنسية سوى في 1882/11/01³²¹.

319 - إبراهيم محمد الطلاي، مرجع سابق ، ص46.

- Louis Rinn, **Marabouts et Khouans, opcit**, p154. 320

321 - Robin, Commandant. **Le Mzab et son annexion à la France**, par le commandant Robin,... (20 mars 1884.). 1884

الفصل الثاني

مكانة الفقهاء في المجتمع الجزائري

المبحث الأول: التدين في المجتمع الجزائري

المطلب الأول: واقع التدين

المطلب الثاني: التدين بين التقليد والاجتهاد

المطلب الثالث : حرية التدين

المطلب الرابع: المجتمع الجزائري بين الفقه والتصوف.

المطلب الخامس: مستويات التأثير الصوفي

المطلب السادس: الفقهاء والتصوف:

المبحث الثاني: الفقهاء المفتون والقضاة

المطلب الأول: الفقهاء الأحناف

المطلب الثاني: الفقهاء المالكيون

المطلب الثالث: الفقهاء الإباضيون

المبحث الثالث: نماذج لفقهاء بارزين في العهد العثماني³²²

المبحث الرابع: العلاقة بين المذاهب الفقهية

322 - توصيفنا لكل فقيه بما يغلب عليه من نشاط خلال فترة حياته أمر اجتهادي بحت.

المبحث الأول: التدين في المجتمع الجزائري

المطلب الأول : واقع التدين

قبل الحديث عن الفقهاء ومكانتهم ودورهم في المجتمع الجزائري نتعرض بداية للحديث عن التدين في المجتمع كظاهرة اجتماعية خلال العهد العثماني، متسائلين عن طبيعة هذا التدين هل كان وراثيا، اكتسبه الناس بالتقليد وتوارثوه جيلا بعد جيل دون فهم واستيعاب؟ أم هو نتاج فهم وبحث وعمل قام به العلماء والفقهاء؟

وما هو مستوى التدين ودرجة رسوخ العقائد الإسلامية في نفوس الأهالي؟ وفي أخلاقهم وسلوكياتهم اليومية؟

إن تقديمنا لهذا التصور لمستوى التدين هو في الحقيقة محاولة لقراءة جديدة لمعطيات قديمة كما يقول الأستاذ الباحث في تاريخ الدولة العثمانية محمد حرب³²³، وأول ما يجب الإشارة إليه هو وجود فروق جوهرية بين فئات المجتمع الجزائري، من حيث التأثير بمختلف العلوم والثقافات، والعادات والتقاليد المتحكم فيها، فقد كانت المدن الجزائرية عكس الأرياف مسرحا لعدة تيارات وافدة سواء من أوروبا والمشرق الإسلامي والأندلس³²⁴، في وقت كان الريف يعيش في عزلة عنها.

لقد كانت الظواهر الاجتماعية السلبية كشرب الخمر وممارسة البغي والفساد الاجتماعي، منتشرة بصورة كبيرة في المدن، ونجم عنها جملة من المشاكل والأزمات الأسرية والاجتماعية. بسبب انفتاح المدينة على الثقافات الجديدة والظواهر الاجتماعية الوافدة من الخارج، والتي تجدد من يشيعها بسهولة ويعمل على نشرها، فضلا عن شرب القهوة وشرب الدخان والذين قام حولهما جدل كبير بين الفقهاء، بين محرم ومحلل لتناولهما، في وقت كانت تجارتهما تدر أرباحا طائلة³²⁵.

323 - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، سوريا، دت، ص 32.

324 - كان للأندلسيين تأثيرا كبيرا في المسار الثقافي والاجتماعي للمغرب الأوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر، خاصة في الحواضر التي استقروا بها كمستغانم تلمسان شرشال البليدة قسنطينة و عنابة، وقد تناول هذا التأثير العديد من الباحثين والمؤرخين.

325 - تحريم وتحليل شرب القهوة والدخان لبقيا جدا كبيرا بين الفقهاء خاصة بالنسبة للدخان للمزيد انظر الورقات اللاحقة من هذا الفصل.

كما أدى وجود الأسيرات المسيحيات إلى إدخال عناصر جديدة للمجتمع الجزائري كتعدد الزوجات والاستمتاع بهن بصورة أو بأخرى، خاصة بين فئات القادة ورجال الدين وحذا بالكثير منهم إلى إخفاء زواجه الثاني³²⁶ خوفا من المجتمع أو من زوجته الأولى وأهلها.

إن وضعية المدن الأساسية التي كانت موجودة في العهد العثماني مثل تلمسان ومازونة وتنس وجزائر بني مزغنة وبجاية وقسنطينة وبونة كانت ضعيفة دينيا وفكريا، ويبدو أنها لم تستطع التأثير في الناس، وهذا ما أثاره الرحالة الغربيون والمحليون في كتاباتهم. وقد يعود السبب في غالب الأحيان إلى غياب سلطة سياسية وفقهية قوية تحرص على وحدة المجتمع وانسجامه مع معطيات عصره.

وكانت الأرياف من جهة أخرى تعيش في ظل تخلف وركود منذ القرن السادس عشر بسبب انعدام الأمن وتفشي الأمراض والأوبئة³²⁷ التي كانت تنخر جسم المجتمع وكان أغلبها قادم من الأقطار المجاورة، نتيجة لسهولة انتقالها وانفتاح البلاد على أقاليم الشرق والغرب و الجنوب الشاسع، فانتقلت مختلف الأمراض كالكوليرا والجذري والطاعون والسل³²⁸، فضلا عن موجات الفقر والمجاعات والجهل³²⁹، وسيطرة فرقة الإيكليروس³³⁰ الإسلامية عليها، المتمثلة في طبقة المرابطين والمشعوذين، فلا تكاد تخلو قرية أو قبيلة من زعيم ديني وروحي يقودها في ظل تعدد الزعامات وتنافسها على قيادة المجتمع.

في ظل هذه الأوضاع اختلف الدارسون في تحديد مستوى التدين عند الجزائريين في الجزائر، فقال بعضهم بوجود مستوى مقبول من التدين وسمو الأخلاق وحسن التعامل بين أفراد المجتمع، كالرحالة الأسير الاسباني "دييغو دو هايدو" Diego de Haido الذي نوه بالخصال الحميدة التي

326- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، 241-242.

327 - لمزيد من الاطلاع على الأوضاع الاجتماعية والصحية أثناء العهد العثماني انظر : موساوي فلة القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2005.

328- نصر الدين سعيدوني و المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني المرجع السابق، ص 88.

329 - محمد مكحلي، "الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827م" في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.

330 - الإيكليروس نظام كهنوتي خاص بالكنائس المسيحية ظهر في القرن الثالث الميلادي ويضم النظام جملة من المراتب تنتهي عند البابا الذي يمثل أعلى درجة في السلم الكهنوتي. ويقوم النظام الكهنوتي بتعليم الناس الديانة المسيحية والإشراف على ممارسة الطقوس والتوسط بينهم وبين خالقهم ليغفر لهم ويحط من خطاياهم. انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الاليكترونية الحرة.

اتسم بها الجزائري في هذه الفترة، منها الصبر والمثابرة خاصة في الأزمات والشدائد والحروب، وتحمل الألم والجوع لأيام طويلة، وذكر أن الجزائريين كانوا حين المصائب والملمات لا يكفرون بالله - لا يتفوهون بكلمات الفحش - بل لا توجد في قاموس لغتهم، سواء بالنسبة للعربي أو التركي أي عبارات كفر ومعصية لله³³¹، وهذا يدل على قوة إيمانهم بالغيب وبعنصر الجزاء والحساب الأخروي.

ثم يقول: "وكان السكان لا يلعبون النرد ولا الأوراق ويعتبرون ذلك جرم كبير، ولا يلعبون في هذا المضمار إلا بالضامة والشطرنج لتسلية الوقت. كما أنهم لا يتقاتلون ولا يتبارون بالسكاكين فيما بينهم"³³²، "وإذا حصل بينهم ذلك فإن إمكانية الصلح بينهم قائمة جدا، وسرعان ما تتحول اللكمات والصراعات إلى قبالات حارة. كما كانوا شديدي الطاعة والتسليم لحكامهم وقضاةهم"³³³.

وخلاصة القول بالنسبة إلى هايدو تكمن في إعجابه لما كان عليه المجتمع الجزائري، عبر عنه بقوله: "وكان الحرص على العيش كمسلم كامل الإيمان والاستقامة، يؤدي واجباته كما ينبغي، شعورا كائنا ومعاشا في هذه الفترة"³³⁴.

وفي نفس السياق يتحدث الكاتب الفرنسي الجنرال دumas³³⁵ عن وجود عن وجود أخلاق عالية اتسم بها المجتمع الجزائري، بالرغم من أن الكاتب ينتمي لفترة ما بعد الاحتلال الفرنسي، حيث يقول: "إن كلمة السلام عليكم التي أخذناها من العرب تكفي للدلالة على مدى تمسك المسلمين بمعاني التحضر، هذه الكلمة بسيطة الثمن لكنها تجلب الكثير من الخير".

ثم يحلل شخصية العربي - الذي لا يزال حديث عهد بالفترة العثمانية - بقوله: "العربي يحرص على إحاطة من حوله بعبارات دافئة تهيئ أجواء الترحيب بالشخص. كما لا يوجد مثل العربي من يدرك أسرار التخاطب مع الناس وفق مراتبهم وانتماءاتهم، وكل شيء عند العربي مضبوط بدقة ومعلوم ومتوارث، يحرص الآباء على تعليمه ونقله للأبناء. ومنها التحية بين أي شخصين يلتقيان"³³⁶.

331 - Fraye Diego de Haido , **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, Traduit de l'espagnol par, Dr. Monnereau A. Berbrugger. 1870. p196

332 - كانت عادة المبارزة بالسيف سواء للتسلية أو التدريب أو الخصومة عادة يومية عند السكان في أوروبا آنذاك، وقد أثار انعدام وجودها في الجزائر انتباه الكاتب لما ينجم عنها من خصومات وعداوات بين الناس في حال الإصابة لأحد الطرفين.

333 - Haido, **op.cit.**, p197.

334 - **ibid.**, p 198.

335 - Le Général Dumas, **Mœurs Et Coutumes de L'Algérie Tell — Kabylie — Sahara**, - 335 librairie de La Hachette Et Cie, Paris, 1853, p36..

336 - Dumas, **Op.cit.** . p36.

ولاحظ دوماس حرص الناس على تجسيد التناغم والاندماج بينهم، دون تفريق بين عنصر وآخر، وقلمما يحدث هذا التناغم إذا عاش كل فرد منعزلا عن المجموعة قابعا على ذاته. وكان من أكثر وسائل تحقيق هذا التناغم فعالية: إلقاء التحية بين الناس³³⁷، حيث ينقل دوماس أن إلقاء التحية كان لا يستثني حتى الناس الأجانب، ولو كانوا كافرين ومن ديانات أخرى، حتى لا يتأذى هؤلاء³³⁸، كما أن الفرد لا يمر أبدا على مجموعة من أقرانه دون أن يلقي عليهم تحية الإسلام بصوت مرتفع وقوي، وفي فصل الصيف يمكن للعربي البسيط أن يحبي قائدته والقبعة على رأسه³³⁹.

إن ارتصاص البنیان الاجتماعي خاصة على مستوى الأسرة والتزام العادات والتقاليد الصارمة وخصوصيات الأسر الجزائرية وأسرارها، كانت من أكثر ما شد انتباه دوماس، حيث يقول: "وكانت الأخلاق العربية تلزم عدم الخوض في الأعراض، خاصة أعراض النساء فلا يجوز حتى ذكر أسمائهن"³⁴⁰، والذي يعد في عرف العرب جرما لا يضاهاه³⁴¹.

ومن خلال ما ذكر دوماس يمكننا الوقوف على جملة الملاحظات التي ضمنها الكاتب حول المجتمع الجزائري في:

- البعد الاجتماعي الإيجابي الكامن خلف العربي في التعامل مع غيره من بني جنسه.
 - الانسجام والتناغم الاجتماعي بين طبقات وفئات المجتمع.
 - استكمال الفرد أدوات التربية المدنية والتي تلزم عليه الانضباط والانسجام داخل المجموعة.
 - حرص الآباء والأولياء على تربية أبنائهم وتوريثهم لهذه المنظومة التربوية الفعالة.
- وفي المقابل تحدث دارسون آخرون ممن كتبوا في الفترة العثمانية عن صور مغايرة للتي ذكرناها سابقا، فقد أشار هؤلاء إلى ضعف التدين عند الجزائريين، وفساد مزاجهم وسوء أخلاقهم كالرحالة "الحسين الورتلاني" الذي قال أن المجتمع الجزائري يتسم بضعف التدين وترك السنن والشعائر

337 - إلقاء التحية بين الناس من أبرز مقومات الدين الإسلامي وصى بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام: "ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟؟ حديث شريف.

338- ibid p36..

339- يبدو جليا تأثر دوماس بهذا الموقف مقارنة بالغربيين الذين ينزعون القبعة لتحية الكبراء.

340- وهذا مرده لتعاليم الشرع الحنيف فقد ورد في السنن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تجنبوا السبع الموبقات وذكر من بينها قذف المحصنات المؤمنات الغافلات" حديث شريف.

341- Dumas, op.cit., p37.

الإسلامية،" وكثير من السنن والشعائر الإسلامية تركت ونبتت في وطننا بل بدلت بالضد والعياذ بالله³⁴².

وأكد الورتلاني وجود العادات السيئة الناتجة عن ضعف الدين منها انتشار البغاء وشرب الخمر وقطع الطريق والحروب بين القبائل وانتشار ظاهرة السرقة والسطو داخل المدن وفي الأرياف. وساق الرحالة الجزائري ابن حمادوش من جهته بعض الظواهر الاجتماعية السيئة في زمانه منها ظاهرة البغاء، التي كانت منتشرة في البلاد وكيف كان العلماء يعالجونها بكل جرأة وعزم، دون مقاطعة أو ملاءنة لهذه الشريحة المنحرفة³⁴³.

وفي الجانب العقدي كان المجتمع الجزائري كثير التأثر بالقضايا الغيبية، التي ينسجها المرابطون والمشعوذون وكان المجتمع شديد التقرب للشائعات التي تتحدث عن الخوارق، خاصة إذا كان مصدرها الأولياء "الصالحين" وأصحاب الزوايا "المرابطين"، للثقة المفرطة في هذه الدوائر.

وقد ذكر صاحب الزهرة النيرة محمد بن رقية التلمساني عدة حوادث طريفة تبين بطريقة أو بأخرى، مستوى التفكير والاعتقاد عند الجزائريين، وضعف إدراكهم للظواهر الطبيعية وتفسيرها، ففي عهد محمد باشا حدث كسوف كلي للشمس بمدينة الجزائر سنة 1748، نتج عنه حالة من الهلع والفوضى، وأخذ الناس يتصايحون ويجرون في الطرقات، كأنما قامت القيامة على رؤوسهم³⁴⁴.

ويدفع هذا السلوك إلى التساؤل عن موقف النخب الدينية من هذه التصرفات وهل عجزت عن تقديم تفسير علمي أو تفسير ديني لها؟ على اعتبار أن الكثير من الشواهد القرآنية والنبوية، تحدثت عن هذه الظاهرة الفلكية، واعتبرتها آية من آيات الله في الكون، مما يدفع إلى الاعتقاد بوجود حالة كبيرة من الجهل والتخلف تلف المدينة وأهلها، وقد تلى ذلك نزول كميات كبيرة من الثلوج والجليد سنة 1754 على مدينة الجزائر "الساحلية"³⁴⁵، فحُقَّ فعلا تسمية عهد "محمد باشا" بعهد الظواهر الطبيعية الغريبة³⁴⁶.

342 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 111.

343 - بن حمادوش، المصدر السابق، ص 236.

344 - Muhammad Ibn Muhammad Al-Tilimsani. **Chroniques de la Régence d'Alger**. traduites d'un Manuscrit Arabe intitulé el-Zohra-el-Nayerat, traduit par Alphonse Rousseau, imprimerie du gouvernement Alger, 1841, p 133.

345 - مدينة الجزائر ساحلية مناخها معتدل حار جاف صيفا ومعتدل ممطر شتاء.

346 - Al-Tilimsani. **op.cit.** p 133.

المطلب الثاني: التدين بين التقليد والاجتهاد

إن الناظر للاتجاه العام الذي سارت فيه الدولة العثمانية والولايات التابعة لها منذ القرن السادس عشر الميلادي يرى أن خط السير كان غير مواكب للتجديد وغير مشجع على التجديد والتفكير في أغلب الأحيان، وكانت النخب الدينية والفقهية تدعو للتمسك بالعلوم الموروثة والثقافة المكتسبة، ففي مصر يذكر المؤرخ المصري الجبرتي أن أحد الوعاظ أخذ يحض الناس على عدم التوجه للقبور قصد الزيارة والتوسل بها، فتأثر به الناس وشرعوا يكفون عن زيارتها، لكن شيوخ الأزهر وقفوا ضده، وتحرك الحراس يفضون تجمع الناس حوله حتى قضى عليه³⁴⁷.

إن في ظل الجمود الفكري ترسو قواعد التقليد الأعمى في جميع المجالات، وتكرس ثقافة الاكتفاء بما خلفه الأولون، فيسعى كل أتباع مذهب ومجموعة فقهية، إلى إبراز محاسنها لكسب الأنصار والمؤيدين، مما قاد إلى نشوب معارك مذهبية ودينية عنيفة، غذاها الترف الفكري والنقاش العقيم الذي أعاد وضع المجتمع عند نقطة الانطلاق. ودار مجمل الصراع الكلامي والجدل في مسائل ثانوية لا تقدم ولا تؤخر، ومن أمثلتها مسألة جواز التقليد³⁴⁸ من عدمه، ووجوب الاجتهاد بالنسبة للعامة من الناس، وتكفير أتباع المذاهب المخالفة ونبد تقليد الكفار وغير ذلك.

لقد كانت الصعوبات القاسية التي عاشها المغرب الإسلامي، ومنها سقوط الأندلس بيد الإسبان، وشيوع الفوضى والاضطرابات المختلفة في أغلب الأصعدة، سببا في توقف العطاء الحضاري. وفي ظل الركود الفكري والديني الذي ألم بالمنطقة وضعف التدين وهشاشة إيمان الناس، وعودة الصراعات القبلية³⁴⁹ وانحسار الدعاة وقلة العلماء والفقهاء، وبداية سيطرة التصوف الطريقي،

347 - طه جابر العلواني، التمدد الفقهى في العهد العثماني، المرجع السابق، ص ص 379-390.

348 - انظر الفصل الثالث من هذه الرسالة للمزيد من القراءة لموضوع الاجتهاد والتقليد...

349 - الصراعات القبلية كانت رائجة في هذه الفترة وكانت تدور أساسا حول مصادر الرزق من ماء وكلاً ومرعى، وجباية الضرائب، ومناطق النفوذ وتتحول أحيانا إلى حروب طاحنة كما وقع بين الذواودة وقبائل الشايبية حول الأراضي الجنوبية من إقليم بابل الشرى، وكانت المشاجرات العنيفة تَعْتَرِي حتى ركب الحج، فينقسم أقساما عديدة حسب الأعراس، وقد ذكر الورتلاني أمثلة عنها في رحلته، واستفاد الأتراك من العداوة بين القبائل، و عَبَّرَ عن ذلك أحمد باي في مذكراته بقوله : " إن الحرب هي عادة الأعراب وأن الذي يريد أن يحكمهم قد يَتَحَتَّمُ عليه إبقاؤها بينهم والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس".

برزت مسائل علم الكلام، وظهرت النقاشات لبعض المواضيع العقدية من طرف العامة، والتي انتهت إلى جملة من النتائج الخطيرة، منها خاصة انتشار ظاهرة التكفير للمسلمين³⁵⁰.

ونظرا لكون تماسك المجتمع الإسلامي ووحدته الفكرية والعقدية، من أهم الرهانات التي يحرص الفقهاء والعلماء على صيانتها والذود عنها، فقد قام الفقيه الجزائري بوشقرون الوهراني³⁵¹ بتأليف رسالة في الموضوع سماها "الجيش والكمين لمن كفر عامة المسلمين". وقد نالت هذه الرسالة مساندة كثير من الفقهاء المعاصرين لبوشقرون الوهراني كإبراهيم بن أحمد الوجديجي، ومحمد بن عيسى، وأحمد بن ملوكة، ومحمد بن العباس³⁵².

وتعد الرسالة نموذجا للفقيه المجتهد الحامل للواء التجديد والمواكبة، والمحافظ على الخط الفقهي المالكي القائم على الاعتدال في طرحه الفكري والواقعية في معالجة المشاكل والأزمات، التي تعصف بالمجتمع من حين لآخر.

كما تعد هذه الرسالة نموذجا للمدرسة الفقهية الجزائرية القائمة على الوسطية والاعتدال، ومرجعا فقهيا وعقديا في التعاطي مع مختلف النوازل التي أملت بالأمة في مواجهتها لفكر التكفير، في سبيل الحفاظ على الوحدة الدينية والمذهبية.

وبرزت من ناحية أخرى اجتهادات فقهية لكنها ظلت بعيدة عن التأثير في الواقع الاجتماعي وحبسية التقليد داخل جدران النسيج الاجتماعي المغلق، ومن تلك الكتابات التي دارت في هذا

350 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الثقافي، المرجع السابق، ص 80.

351 - ولد الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الوهراني، نحو سنة 1473م، في أسرة محافظة فأبوه هو العالم الشيخ أبو العباس أحمد بن جمعة المغراوي الوهراني المتوفي سنة 1514م صاحب الفتوى الشهيرة إلى الموريسكيين بالأندلس، تدعوهم للبقاء في بلادهم وعدم هجرانها، انتقل إلى فاس وتلمذ على يد الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي (ت 951هـ - 1544م)، وأحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي، المعروف بالدقون (ت 921هـ - 1515م) واستقر بمدينة فاس التي كانت تعرف استقراراً نسبياً، وكان بوشقرون واسع المطالعة شديد حضور الفكر. من مؤلفاته منظومة شعرية بعنوان "تقريب المنافع في الطرق العشر لنافع" في علم القراءات، ونال حظوة كبيرة عند العلماء منهم أحمد بابا التنبكي الذي قال فيه: "الأستاذ المتكلم المقرئ الحافظ الضابط" وقال فيه ابن محمد مخلوف: "الأستاذ المتكلم القدوة المقرئ العالم العمدة". وكان للشيخ مساجلات كثيرة مع فقيه المشرق العربي الزمخشري، انظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 ص 208. وانظر كذلك: يوسف عدار، محمد بن أبي جمعة الوهراني (حياته وآثاره)، مقال اليكتروني.

352 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الثقافي، المرجع السابق، ص 81.

الفلك "نوازل المازوني"³⁵³، تضمنت الكثير من القضايا التي تنبئ عن مستوى التفكير لدى فئات المجتمع وتكشف اللثام عن اهتماماتها الفكرية والدينية في ذلك الوقت.

فبالإضافة إلى الفتاوى القديمة المتجددة التي يدل ورودها مرة أخرى، على ضعف المنظومة الفقهية وعجزها على بناء معرفي متكامل، فقد وردت للشيخ المازوني مسألة مهمة تعد معيارا لقياس هذا الضعف تدور حول حكم استعمال الورق الذي يصنعه الأوروبيون بغرض الكتابة في البلاد الإسلامية، ومن خلال النازلة يبدو أن الكثير من الفقهاء قالوا بكراهة استخدامه حتى اصطلاح على تسميته "الكاغد الرومي". ولكون هذا الورق من صنع النصارى، ولا يُعلم بمادة صنعه، وهل كانت فيها نجاسة أم لا؟ استند هؤلاء على القول بكراهته وحملوا الناس على الامتناع عن استخدامه.

وكان رد المازوني على ذلك الرأي جريئا حيث رأى أن القول بنجاسته ليس من باب حرمة، ولكن من باب كراهته³⁵⁴، وأففى بأن لا بأس من استعماله لضرورة التدوين لأمر الدين والدنيا³⁵⁵. وقدم دليله في الإباحة إلى انقطاع وزوال النجاسة إن وجدت أصلا، كما أن استعمال العلماء له في كثير من البلدان الإسلامية كائن وقائم إلى اليوم ولم يحرمه أحد من قبل.

ونقل المازوني في نوازل مسائل أخرى بسيطة في إشكالياتها الفقهية وفرعية كالصلاة خلف إمام لا يغض بصره عن المحارم، وعن بيده أو بثوبه نجاسة ويذكر الله كثيرا، وعن الإمام لا يحجب امرأته ويتركها تخرج سافرة، وعن جلد القملة يتعلق بالثوب ويصلى به، والصلاة خلف الإمام المجهول ما حكمها؟ وعن الجماعة إذا صلوا في السفينة وهي في عرض البحر ورؤوسهم منحنية ذات اليمين وذات الشمال، وعن التيمم على الحشيش والخشب، والتيمم على الرحي³⁵⁶، وغيرها من المسائل التي لا يستساغ اعتبارها من النوازل لبساطتها وإمكانية إيجاد الحلول لها دون مشقة...

353 - تعرف هذه النوازل بـ: "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" لأبي زكريا يحيى المازوني، وقد كانت موضع العديد من الأبحاث والدراسات الأكاديمية نظرا لأهميتها، منها رسالة ماجستير الطالب: بركات إسماعيل، تخصص التاريخ الوسيط جامعة منتوري 2010.

354 - بركات إسماعيل، الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحيى المازوني، (ش.م.غ.م.)، تخصص التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010، ص 290.

355 - بركات إسماعيل، المرجع نفسه، ص 308.

356 - بركات إسماعيل، المرجع السابق، ص 308.

وبالمقارنة بين مسائل الاستفتاء التي جمعها المازوني في نوازلته بتلك الفتاوى التي ذكرها بن عظم المراد التونسي والذي كان يعيش نفس الفترة تقريبا التي عاش خلالها المفتي الجزائري، نلاحظ أن هناك تباينا واضحا في نمط القضايا المطروحة على الاستفتاء في البلدين، من حيث جدية المسائل المقصود البحث عن حلول فقهية لها، ومن حيث نمط تفكير الناس في البلدين المتجاورين³⁵⁷.

المطلب الثالث : حرية التدين

أثارت مسألة حرية التدين في الجزائر اهتمام مؤرخي الفترة العثمانية خاصة ما يتعلق بالأسرى المسيحيين في مدن الجزائر، واعتبر بعضهم أن حرية التدين وممارسة الشعائر لم تكن متوفرة وأن الأسرى يتعرضون للإكراه على اعتناق الدين المحلي. بينما ذكر البعض الآخر من الذين زاروا البلاد وكتبوا عن هذا الجانب معبرين عن دهشتهم واستغرابهم، لمستوى الحرية التي يتمتع بها الناس في التدين وممارسة كل شخص طقوسه بالصورة المرضية، ومن تحدثوا في الموضوع الرحالة الفرنسي لوجي دوتاسي حيث يقول: "إن حكومة الجزائر وضعت مبدأ في التدين، يتمثل في ترك حرية التدين لكل شخص وكلما مارس الإنسان ديانته بحرية كلما لقي الاحترام والحماية"³⁵⁸ ثم يقول "ويعتقد العديد من المؤرخين أيضا أن الأسرى الأوروبيين كانوا يُجبرون على الدخول في الإسلام بالإكراه أو بالترغيب، وهو خطأ كبير ومستبعد جدا أن يعمل الأسياد على إسلام عبيدهم، بل إن الكثير منهم يشتمنون من ذلك ويُغضبهم تحول عبيدهم إلى الإسلام، لأنهم سيخسرون من جراء ذلك الكثير"³⁵⁹ يضيف دو تاسي. ويؤكد "دوتاسي" **Laugier de Tassy** أن أقصى ما كان يتعرض له المسيحي أن بعض الدايات كانوا يرغبون أسراهم النصراني الذين أدينوا بجرم معين لإنقاذهم من عقوبة الإعدام في الدخول في الإسلام³⁶⁰.

ولم يكن في عرف الجزائريين إكراه الأسرى على اعتناق الإسلام لإدراكهم أن الدخول فيه ينبغي أن يكون طوعية ودون إكراه، تماشيا مع النصوص الدينية من القرآن والسنة الواردة في هذا

357 - من مسائل الاستفتاء التي طرحت على بن عظم التونسي: الأموال أصولها وإنفاقها الموارث البيع الشراء الكراء العارية مسائل النكاح وما تعرق به من قضايا الزواج والطلاق النفقة الدين والرهن والأموال والأحباس والحيازة وغيرها للمزيد من الإحاطة بالموضوع يرجع الى: أبو القاسم بن عظم المرادي، كتاب الأجوبة، تح محمد الحبيب الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج تونس، 2004. .

- Laugier de Tassy, **Opcit** p106 358

- ibid , p86 359

- ibid, p87 360

المضمار، كما أن القول بإكراه المسيحيين على اعتناق الإسلام مردود لحسابات تجارية محضة والتي سوف تغرم ملاكهم الكثير من الأموال الطائلة في أوقات افتداء الأسرى.

لقد كانت حرية التدين مكفولة للأجانب بحكم كونهم من أهل كتاب أو ذميين، لهم حقوق على المسلمين بنص الدين الإسلامي، غير أنه يجب على المسيحيين واليهود أن يحرصوا على السلوك الحسن والسيرة السليمة، وعدم المساس بالشرع الحنيف، أو انتقاص أهله للنيل منهم وإلا تعرضوا للعقوبة، مثلما تعرض لها أحد البحارة البريطانيين حين جُلد خمسمائة جلدة لأنه سب الشريعة الإسلامية³⁶¹. كما يضاف إلى عقوبة المساس بالدين الإسلامي عقوبة أخرى تتمثل في المساس بأمن الدولة بصورة أو بأخرى حيث يتعرض الجاني لعقوبات زاجرة³⁶².

وفي مثل هذه الحالات يخير المسيحيون الذين يقتربون جرم القتل أو المخالفة للدين بين الدخول في الإسلام أو الحرق حيا، وقد ذكر "إيمانويل دارنده" Emanuel d'Aranda ما وقع لعبد مسيحي اتهم بقتل تركي، فبعد المحاكمة رفض المسيحي العودة عن دينه، وكاد يقدم لنيل جزائه لولا تدخل الباشا حيث اتخذه من ضمن عبيده، ورماه في سردابه مثقلا بالقيود، واستمر هناك حتى 1642 سنة خروج دارنده من الجزائر³⁶³.

لقد كان احترام شريعة المسيحيين من المظاهر التي جلبت انتباه مؤرخي الفترة العثمانية، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قيام سلطات الإيالة بمنح الأسبان رغم تاريخهم الحافل بالمواجهات الدموية مع الجزائريين، الإذن في بناء المستشفيات والكنائس للأسرى³⁶⁴، خاصة منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث قاموا بإنشاء مؤسسة كاثوليكية بمدينة الجزائر تضم مستشفى، تقام فيه طقوس الصلاة يوميا، وقد لعب هذا المستشفى دورا كبيرا في تمريض الأسرى في فترات الوباء، وصفه

361 ibid. p107 -.

362 - محمد عايشة، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين 16 م و 17 م، (ر. م. غ. م)، المركز الجامعي، غرداية، 2011، ص 36.

363 - Latifa el Hassar Zeghari, **Les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave a Alger XVIIème siècle**, casbah éditions, Alger, 2004 p86.

364 - كان للمسيحيين ثلاثة كنائس في مدينة الجزائر: هي كنيسة الثالوث المقدس في سجن البايك، وكنيسة سجن علي بتشين، وكنيسة سانت كاترين، انظر: محمد عايشة، المرجع السابق، ص 38.

"كاثكارت" بأنه "من أكبر المؤسسات الخيرية في العالم كله، حيث يقدم رعايته لجميع المسيحيين الأسرى دون أن يأخذ في الاعتبار عقائدهم وطوائفهم الدينية وقومياتهم"³⁶⁵.

كما كان الأسرى في سجون المدينة يتمتعون بحرية في ممارسة عقائدهم ولهم مصحات يعالجون فيها ومعابد يمارسون بها طقوسهم³⁶⁶، وفي هذا الإطار كتب الأسير المحرر "ج ميتزن" في يومياته أن سلطات الإيالة مكنت الأسرى المسيحيين في سجن سرکاجي من ممارسة شعائهم، حيث خصص الأسرى جزءاً من السجن وجعلوه كنيسة كاثوليكية، وفي كل صباح كانوا يؤدون صلاتهم قبل الذهاب للعمل³⁶⁷.

ولم يكن هذا الاعتراف بحرية التدين متقاسماً من طرف جميع الكتاب والمؤرخين، فقد أثار القس الاسباني بيار دان **Pierre Dan** حفيظة الأوروبيين وجيشهم للثورة والانتقام من الجزائريين تابه "تاريخ بربريا وقراصنتها"³⁶⁸، بما ضمنه من صور مبالغ فيها عن المضايقات والتعذيب الذي يتعرض له الأسرى المسيحيون³⁶⁹ والإكراه لترك دينهم والدخول في الإسلام.

ويحمل "وليم لينغو" **William Lightgow** الرحالة الانجليزي المغامر من جهته ، أبناء بلده مسؤولية وقوعهم في الأسر لعدم يقظتهم وتوغلهم في المياه القريبة من سواحل الجزائر، لأن الملاحه في البحر الأبيض المتوسط كانت مغامرة حقيقية مجهولة العواقب، بالنسبة لكثير من الأوروبيين³⁷⁰.

365 - جيمس ليندر كاثكارت، مذكرات أسير الداى كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب ، تر إسماعيل العربي، (د.م.ج) ، الجزائر، 1982، ص.103.

366 - أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص162.

367 - ميتزن ج، يوميات أسر في الجزائر 1814-1816، تر: ج ه بوسكي، وج ق بوسكي، تعريب محمد زروال، دار هومة للنشر، الجزائر، 2011، ص 28.

368- صور كثيرة ذكرها بيار دان تقشع لها الأبدان للاطلاع عليها يرجع لكتابه تاريخ بربريا وقراصنتها. والذي يعج بكثير من الصور والأحكام القاسية عن الدين والإسلام، منه قوله في الصفحة 37 : "الشيطان عدو الإنسان يبحث دائما لغوايته وخسرانه ويشجع محمد وأتباعه لتهديم كنيسة الله، والمسلمون دوما في لهفة لموت النصارى، سواء رجال أو نساء أو مرابطين أو غيرهم من الفئات الاجتماعية" انظر **Pierre Dan, op.cit.**

369 - لقد كان الأسرى الأوروبيون يقعون في الأسر في ظل ظروف عديدة فمنهم من يؤسر في المعارك ومنهم من يؤسر في إطار القرصنة التي كانت ظاهرة عامة وواقعا معاشا، انتهت إليه العلاقات الإقليمية بين ضفتي البحر المتوسط.

370- Pierre Grand Champ , « le prétendu voyage de William Lightgow dans les états de 224..Barbarie (1615-1616) » in, **R. A**, n°412-413, Alger, 1947, p

فبعد أن وصف الحالة التعيسة التي كان عليها عدد كبير من الأسرى وأغلبهم من الإسبان الذين يشتغلون في حقول وبساتين أسيادهم الجزائريين، تأسف من كون السفن الإنجليزية الصغيرة أو الضعيفة تغامر بنفسها في البحر الأبيض المتوسط، وتنهزم أمام الأسطول الجزائري ويُساق أفرادها أسرى، ثم يستنجد هؤلاء بالمواطنين الإنجليز لدفع الفدية وتخليصهم من الأسر. فالأحرى بهم أن يعاقبوا ويتركوا هناك تأديبا لهم على مجازفتهم داخل أخطار معروفة ودون حماية تليق بالسفن الكبرى وأن لا تستعمل أي وسيلة لمساعدتهم أو افتدائهم³⁷¹ كما يقول.

وفي المقابل كان الأسرى الجزائريون في دول أوروبا يعانون الأمرين من عذاب نفسي وبدني تحت وطأة الظلم والبؤس والغربة والبعد عن الأهل والأوطان، ولم تسمح سلطات أي بلد أوروبي في ذلك الوقت للجزائريين في الاتصال بأهلهم أو الاستفادة من مشاريع الإنقاذ لهم وتحسين ظروفهم وأحوالهم³⁷².

وشكل الأسرى الجزائريون نحو ثلث الأسرى الذين كانوا يغنمون من الإغارة على المدن الساحلية كبونة والقالة والقل وجيجل وبجاية ووهران ومستغانم وتنس وشرشال، أو عن طريق اقتحام مراكب الجزائريين الآمنة التي كانت راسية ببعض موانئ أوروبا³⁷³، مما يوحي بانعدام وجود تقاليد وأعراف تنظم العلاقات البحرية بين الدول³⁷⁴، ويساق بعدها الأسرى إلى أسواق النخاسة في روما وليفورن والبندقية وجنوة وصقلية وسردينيا ومرسيليا حيث يباعون إلى أسيادهم الجدد³⁷⁵.

المطلب الرابع / المجتمع الجزائري بين الفقه والتصوف.

كان ليشغو من الرحالة القلائل الذين عارضوا جمع الأموال لافتداء الأسرى للأسباب المذكورة أعلاه، ونقد سفراء بلاده في القسطنطينية بشدة لأنهم لا يفعلون شيئا إزاء هجمات السفن الجزائرية ضد السفن الإنجليزية وبالتالي فهم ليسوا أهلا لتولي مناصبهم.

371- Pierre Grand Champ, Op.cit, p224.

372 - إبراهيم سعيود، "من تراث الأسرى الجزائريين في إيطاليا خلال القرنين 17 و18 الميلاديين"، في مجلة واحات، جامعة غرداية، العدد الأول، 2006، ص71.

373 - إبراهيم سعيود، المرجع نفسه، ص71.

374 - ظاهرة القرصنة كانت أمرا شائعا في هذه الفترة تحدثت عنه المصادر الكلاسيكية الأوروبية لكنها لم تتحدث كثيرا عن القرصنة الأوروبية للأهالي المسلمين سواء في عرض أو من خلال الهجوم على السواحل ومباغتة سكانها الأمنين حيث تنقلهم السفن المسيحية إلى المجهول. وقد نال هذا الموضوع قسطا يسيرا من البحث والدراسة لأن المصادر الأوروبية الكلاسيكية التي تحدثت عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني قد تجاهلت هذا الموضوع كليا.

375 - إبراهيم سعيود، المرجع نفسه . ص71.

ي طرح التصوف والطرق الصوفية نفسه بقوة في العهد العثماني كإشكالية بارزة، نجدها خلف أي قضية يثيرها الباحث والمؤرخ، وهو ما دفعنا للحديث عنه في هذا المقام لمعرفة مجال تأثيره في عالم الفقه والفقهاء موضوع الدراسة. وبالرغم من وضوح المجال الذي يشغله التصوف إلا أن الواقع المعاش يفرض صورا غير قابلة للإدراك عن التصوف وعلاقته بالفقه، مما حذا بالكثير من الباحثين إلى اعتبار فئة المتصوفة من الفقهاء، وهو اعتقاد غير صحيح.

فالتصوف الذي هو من الظواهر الاجتماعية نتجت عن حالة الضعف الروحي التي بلغت المجتمعات الإسلامية بعد صدر الإسلام وجاءت كرد فعل على الانغماس في الشهوات والبذخ والترّف. واختلف المؤرخون والدارسون لهذا الموضوع في تعريف التصوف بين من اعتبره رياضة روحية هدفها تصفية النفس وتنقيتها، ومنهم من اعتبره العكوف على العبادة والانقطاع لله والإعراض عن الدنيا وزخارفها³⁷⁶، بينما اعتبره آخرون علما قابلا لاكتساب كغيره من علوم الفقه والعبادات، لكنه يعالج الباطن وجوهر القلوب، و استبعده آخرون من أن يكون فلسفة، إنما هو طريقة عيش وسلوك بشري دون قواعد وضوابط عقلانية تسيّره³⁷⁷. وقد عرفه البعض على أنه تجربة روحية فردية واتجاه فكري يبحث في توطيد العلاقة بين الإنسان وخالقه بالانقطاع للعبادة والإعراض عن زينة الدنيا وملذاتها³⁷⁸.

وقد ربط الباحثون بين التصوف ونشأة علم الباطن، الذي أرسى جملة من المصطلحات والمفاهيم الجديدة ظلت محور نقاش دائم بين النخب الفقهية والصوفية والفلاسفة، الرقي الروحي والسمو النفسي والتصوف النقي والحقيقة المطلقة وعلم الظاهر وعلم الباطن والكشف والإلهام وغيرها.

376 - انظر مدلول هذه المفاهيم من خلال جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، لحمزة حمادة، ش.م.غ.م، جامعة قاصدي مرباح، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ورقلة، الجزائر، 2007-2008، ص 01 وما بعدها..

377- بعارسية صباح، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ر.م.غ.م، جامعة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2012، ص38.

378 - مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، ج 01، معهد الإنماء العربي اللبناني، بيروت، لبنان، 1986، ص259.

ويعد الخلط بين الفقه والتصوف من أبرز مظاهر الضعف التي بلغها العالم الإسلامي، أدت إلى تعدد مصادر التلقي وتضاربها وتناقضها، فالتصوف منهج يعتمد على المسائل الظنية والتحسينية والانطباعية خلافاً للفقه الذي يعتمد على نصوص قطعية ثابتة وإن وقع الاختلاف في تفسيرها³⁷⁹.

وكان من أبرز نتائج هذا الحراك حدوث الخلاف الكبير بين الفقهاء أصحاب علم الظاهر والنص و بين المتصوفة أصحاب علم الباطن من جهة، كما برزت طبقة الفلاسفة أصحاب الترجيح العقلي من جهة ثالثة في محاولة لإنقاذ الناس من هذه الوضعية.

ويستمد التصوف سواء في مراحل تأسيسه الأولى أو في العصور المتأخرة التي تزامنت مع الوجود العثماني في الجزائر فكرته من جملة الأحاسيس والمعاني والقيم التي يحس بها المنتسب والمنخرط في هذا المجال من خلال اقتحامه عالم الزهد والتبتل والتنسك والمجاهدة³⁸⁰، ويقع تبليغ الصور والإلهامات و الاشراقات المرافقة لها للناس والعامة بطرق متعددة، يغلب عليها الطابع الخرافي، حيث يتلقفها المريدون والعامة ويحولونها إلى قيم ثابتة وأفكار دينية مؤسسة³⁸¹. فأخذ المجتمع الإسلامي ينأى بنفسه شيئاً فشيئاً عن الارتباط بعالم الفقه والاجتهاد الذي يقوم على النصوص الدينية الصحيحة لينغمس في دوائر التصوف التي اعتمدت على الخرافة والأسطورة في الإجابة عن مختلف انشغالات العامة اليومية.

ولا يتهياً للباحث الفصل بين الفقه والتصوف بسهولة خاصة التصوف الطريقي³⁸²، لالتصاق المفهومين بعضهما ببعض، ولم يستطع أغلب الفقهاء الذين سلكوا طريق الفقه والعلوم الدينية في هذه الفترة، التخلص من هذا المأزق. ووقعوا في شرك الفكر الصوفي الطريقي الباطني، وانبهروا بلمعان خوارقه.

ومن أكثر النماذج التي جسدت تأثر الفقيه بالأوساط الصوفية نموذج "أبو راس الناصري" الفقيه المتنور صاحب التأليف العديدة، فبالرغم من باعه الطويل في طريق الفقه والعلوم العقلية

379 - بعارسية صباح، المرجع السابق، ص 26

380 - بعارسية صباح، المرجع نفسه، ص 58.

381 - بعارسية صباح، المرجع السابق، ص 90.

382 - صنف أبو القاسم سعد الله رحمه الله مجموعة كبيرة من الشخصيات ضمن باب المرابطين والطرق الصوفية ومنهم أحمد بن يوسف الملياني محمد بن علي الخروبي عبد الرحمن الاخضري محمد بن علي أبجلول محمد بن عبد الرحمن الأزهري وغيرهم انظر فهرس مواضيع الكتاب تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول. ص 598.

الأخرى، إلا أننا حينما نقرأ له في كتابه "الحاوي لنبد من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي"، مطنبا في مدح أحد شيوخ الصوفية يدعى الشيخ سيدي محمد أبو عبد الله المغوفل ت 1023³⁸³ ، نكاد نجزم أن التفكير الطريقي منهجا مسيطرا على جميع مناحي الحياة، يقول الناصري: " هو أحد أعجوبات الدهر في علمه وورعه وكراماته، يشهد لعلمه قصيدة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها سبعون بيتا وليس فيها حرف يستحق النقطة، بل كلّها عواطل من النقطة، وكفى به حجة" 384

وقال عن هذا الشيخ، الفقيه الصباغ القلعي نقلا عن أحد الشيوخ قولهم: " وقد قبض مع لحيته، هذه اللحية بفضل الله تنفع بعد موتها ما لا تنفع في حياتها" 385؟؟؟
وتنقل بعض المصادر من أنّ ابن المغوفل هذا قد ظهرت "ولايته" في تونس، وأنّ المشيخة قد أُعطيَتْ له هناك، ثمّ جاء إلى منطقة "الشلف" ونزل قرية "بومليل" حيث ظلّ يتعبد، ثمّ انتقل إلى قرية "نداية" 386 غرب الشلف.

383 - محمد أبو عبد الله المغوفل متصوف وزاهد من منطقة غرب الجزائر ولد سنة 828هـ، 1424 م وتوفي سنة 923هـ 1517 م من أبرز تآليفه "فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب" يعالج فيه التصوف وحياة المتصوفين وعدّ فضائلهم، خاصة متصوفة العهد الزياني بالجزائر أراد من خلاله إماطة الحجاب عن هذه الفئة عاصر المغوفل الشيخ يحي أبو زكرياء صاحب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" وعاش في أواخر حياته دخول العثمانيين الجزائر واستقرارهم بها فظل الشيخ مكتسبا مكانة مرموقة ومهابا من طرف الجميع، وحاول العثمانيون الاستفادة من نفوذه الروحي وتذكر المصادر أنه قد اشتغل بالقضاء فترة. وكان مؤيدا للسلطة العثمانية وهو ما دفعه إلى أن يرسل اثنين من أبنائه مع الحملة العثمانية على تلمسان. وكان الغرض من تأليفه فلك الكواكب تقريب الشخصيات الدينية التي ذكرها من الناس و التبرك بهم و بالصلحاء الذين ذكرهم، وكان الشيخ المغوفل كذلك شاعرا له عدة قصائد مديحية دفن الشيخ بعد مماته على ضفاف نهر الشلف قرب قرية وادي أرهيو. انظر حمدادو بن عمر، الشيخ سيدي محمد أبو عبد الله المغوفل 1023 دفن وادي شلف وتآليفه: قصيدة في مدح النبي فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب. مقال اليكتروني، وكذلك أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري. (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1981. ص123.

384 - حمدادو بن عمر، المقال نفسه.

385 - حمدادو بن عمر، المقال نفسه.

386 - من المصطلحات الغريبة والشائعة في الأوساط الطرقية والصوفية "إعطاء أسرار الطريقة" لشخص ما ليستمر على نهج الشيوخ الأوائل، ولا يزال المجتمع إلى اليوم يحتفظ بهذه الفكرة، ومصطلح "فلان معطية له"، فما الذي أُعطي له يا ترى؟؟ هل هي سلطة روحية أم أسرار غيبية تنأى العقول البسيطة على فهمها واستيعابها؟؟

وقد سعى بعض الفقهاء إلى التخلص من الإرث الصوفي الممزوج بالكثير من الدجل والكهانة منهم شيوخ عائلة الفكون خاصة عبد الكريم صاحب منشور الهداية التي جمعت خلال العهد العثماني عناصر القوة السياسية والمكانة الدينية وبما تحصلت على امتيازات مرموقة بسبب سمعتها الدينية و العلمية، كان أفرادها البارزون يتحركون ضمن دائرة تأثير الفكر الصوفي، وكان الشيخ عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية قد جسد مثال الفقيه الذي عجز عن الخروج برؤى فقهية صالحة لزمانه³⁸⁷.

وقد نوه به وبأسرته أحمد المقري (ت 1041 هـ) حيث قال : " فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلاله، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفُكُون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف.

ودام عبد الكريم فردا في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز فضل سبق وصار في الزمان آية³⁸⁸

ولم يخلص رجال التصوف في طريق النسك والعبادة والمجاهدة الدينية، إذ سرعان ما آلت إليهم مقاليد السلطة الفعلية على الناس، وخلطوا بين التصوف والسياسة. وما إن حل مطلع القرن السادس عشر الميلادي حتى كانت الطرق الصوفية المرابطية تلعب أدوارا سياسية هامة، خاصة مع بداية التحرش الإسباني على شمال إفريقيا، وبشهادة ليون الإفريقي فان تسعة من أوطان³⁸⁹ البلد كانت بيد الطريقين وزواياهم من أصل اثني عشرة وطنا³⁹⁰.

387 - للمزيد انظر الدراسة حول عبد الفكون في الفصل الثالث من هذا البحث.

388 - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية"، تح وتع، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص13.

389 - الوطن لغة يعني البلد أما في المغرب الأوسط خلال هذه الفترة المدروسة فإن لوطن بضم اللام يعني إقليم أو مقاطعة صغيرة تضم مجموعة من القبائل المحلية وغالبا ما ينسب لوطن لأقوى القبائل الساكنة فيه فيقال وطن بني فلان

390 - حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982، ص. ص 267-270.

لقد كانت الطرق الصوفية تبحث عن أفضل المواقع في علاقاتها مع المحيط السياسي وأكثر الكيانات السياسية عطاء وهو ما يبرر التحالف الذي كان بين المرابط "أحمد بن يوسف الملياني" والعثمانيين³⁹¹ كما مر بنا ذكره.

وتقاسم النفوذ الصوفي في المغرب الأوسط خلال بداية العهد العثماني مجموعة من الشيوخ الأقطاب منهم، الشيخ أحمد بن يوسف الملياني في منطقة الوسط الغربي، والشيخ سيدي أحمد الكبير³⁹² بمنطقة المتيجة، والشيخ أحمد التواتي بمنطقة حوض وادي الصومام، والشيخ محمد الهواري في ناحية وهران، أما مدينة تلمسان فقد خضعت لسيدي بومدين الغوث³⁹³.

وسيطر القادريون المنتسبون لأحد أسلاف الأمير عبد القادر على ربوع منطقة معسكر وأحواضها، مثلما ذاع صيت آل أبهلؤل المجاجي في أحواض شلف وتنس، وفي عنابة كانت المشيخة الصوفية في عائلة ساسي البوني، الذي حوله سكان المدينة في فترة قصيرة من فقيه وعالم ولغوي إلى ولي صالح لا ترد له دعوة³⁹⁴.

وفي منطقة دار السلطان، نجد أن خمسة من الأضرحة تستقطب إليها الآلاف من الناس من مناطق غير خاضعة للسلطة، وهي ضريح "أحمد بن يوسف" في مليانة و ضريح "سي محمد بن مبارك"³⁹⁵ بمدينة القليعة و ضريح "ابراهيم الغبريني" بشرشال وقبري "سيدي عبد الرحمن" بوقبرين أحدهما في مدينة الجزائر والآخر في "أيت إسماعيل" بجرجرة.

وكان بمدينة قسنطينة وحدها نحو عشرين شخصية يتمسك بها السكان كمصادر للقوة الغيبية والقدرة على الاستجابة وتحقيق المراد، منهم سيدي بومدين الذي يذكر عنه الفكون انه كان مجنونا يجوب الطرقات ثم صار وليا³⁹⁶، ويعتقد سكان مدينة الجزائر أن الولي "دده ولي"³⁹⁷، هو من أنبأ كما تقول الذاكرة الشعبية عن العاصفة التي أغرقت أسطول "شارل كينط" سنة 1541³⁹⁸..

391- صادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د.م.ج، الجزائر، 1964، ص 101.

392 - انظر ترجمته في: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ الجزائر، المرجع السابق ص266..

393 - عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة و.ن.ت، الجزائر 1978 ص25..

394 - المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ- مقال سابق ص 4-121.

395 - أحمد بن مبارك تقول الرواية أنه ينتمي إلى قبيلة هاشم من منطقة غريس انتقل إلى الوسط وأقام بمدينة القليعة في سنة

وهكذا لا تكاد تخلو مدينة من قطب روحي يتبرك به الناس ويلجئون إليه عند الملمات والأزمات. وصار لكل مدينة وقرية وليها الصالح الذي يحميها من النوائب ويحرسها من سوء الأقدار، ويعد هؤلاء الشيوخ من أكثر الشخصيات الفاعلة والمؤثرة، ولا يزال ارتباطهم بالمخيلة الشعبية قائم إلى يومنا هذا.

وقد نسج المرابطون علاقات قوية مع السكان بفضل دورهم في الحياة الثقافية والاجتماعية ودورهم في تكريس السلم بين القبائل يقول حمدان خوجة: "أما السلم فإنه يتم دائما بتدخل المرابط"³⁹⁹

وكان الاعتقاد السائد عند الأهالي في شفاء المرابطين وأنهم يملكون السر الإلهي الذي منحه لقليل من عباده ولذلك تجدهم يثقون فيهم ثقة عمياء، وكان كل مرابط شبه متخصص في نوع من الأمراض فهناك المتخصص في أمراض الحمى والعقم والصداع والشقيقة والأوجاع التي تصيب الأطفال، وتقتضي من المستشفى زيارة قبر الضريح الولي في فترات معينة والقيام بطقوس محددة كتناول فاكهة تنبت قرب ضريحه أو التبخر بالأعشاب القريبة منه ليزول بعدها ما جاء يشكو بسببه وغيرها من العلل⁴⁰⁰.

وكان خير الدين بربروس نفسه يؤمن بالفكر الزواوي والصوفي، حيث كان يستريح بعد كل مواجهة في إحدى الزوايا الصوفية يستقدم منها البركة والجهد لمواصلة الكفاح ضد الإسبان، خاصة زوايا جربة وزوايا بجاية، هاته الأخيرة كان بها الشيخ سيدي محمد التواتي المتوفي عام 1505 عن عمر

397 - كان هذا الولي ذا سمعة كبيرة بلغت حتى خارج حدود الإيالة ففي رسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية نقرأ فيها رغبة أحد الجزائريين المقيمين بأزمير يدعى الشيخ محمد درويش بزيارة ضريح الولي دادة وتقديم النذور إليه الرسالة تحت رقم 68 مخطوطات المكتبة الوطنية المجموعة رقم 3190.

398 - يعتبر الأهالي أن انكسار حملة شارل كينت عند سواحل المدينة سنة 1541 كان لثورة الأولياء وغضبهم على الكفار فكانت نكسة المسيحيين مصدر الفرح والتهليل عندهم، بالرغم من أن الظروف الجوية الصعبة التي وقعت في عرض البحر وتزامنت مع وجود الحملة المسيحية كانت كافية لإفشالها، صحيح أن الإرادة الإلهية تنتهي عندها عزائم الناس ومصائر الحروب والمعارك والانتصارات لكن الاعتماد عليها دون إعداد وتقديم الأسباب يعد ضربا من ضروب الجهل الذي حاربه الشرع الإسلامي انظر: عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص124.

399 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص56..

- Abou Baker Abdessalem Ben Chouaib, "Les marabouts guérisseurs", in R.A N°51 400 1907, pp 250.255.

يناهز 120 سنة، قبل سقوط المدينة بيد الإسبان وهو الذي ذكره بيري راييس بأنه قدم ملاذا ومكان آمنا لغزاة البحر⁴⁰¹.

وكان حكام الإيالة كلما اشتد بهم البأس وضافت عليهم الدوائر يلجؤون إلى المرابطين أحياء كانوا أو أمواتا، طالبين منهم العون والنصرة على أعدائهم، وكان هذا موقف الداوي حسين سنة 1830 حينما أمر وزراءه وقواده بضرورة زيارة قبور الأولياء والصالحين والذبح عندها، وأمرهم بتفريق الأموال على الفقراء وبعث بالهدايا للأئمة، وطلب منهم الدعاء له ليندحر جيش الحملة الفرنسية الرابض أمام مدينة الجزائر، والذي حول ليلها ونهارها إلى جحيم من القذائف والدخان، فقام الأئمة ينتشرون في الشوارع ملبين رغبة الداوي يدعون الناس للتوسل للأولياء الصالحين الذين يحرسون مدينة الجزائر، منهم سيدي عبد القادر، وسيدي عبد الرحمن، وسيدي ولد دادة⁴⁰²، وكان توسلهم من أجل أن يرفع الله غضبه ومقتته عن الناس وتنجلي غيوم الحملة التي كانت تحاصر المدينة.

لقد وجد الأتراك الذين كانوا يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم⁴⁰³، ضالّتهم في المغرب الأوسط حيث بلغ التصوف عند الناس في هذه الفترة درجة "زبدة الدين وخلاصته"⁴⁰⁴، وصار كثير من السلاطين يحبون التصوف ويكرمون أهله.

ومما تجدر الإشارة إليه هو غياب الطرق الصوفية في منطقة ميزاب غيابا كلياً تقريباً⁴⁰⁵، ولا نكاد نرى مرجعاً تاريخياً يتحدث عن هذا الأمر، فهل يعود السبب لاستغناء المذهب الإباضي عن التصوف بحكم ما يملك من مقومات دينية وعقدية؟ أم أن التصوف وطرقه في الفلسفة الاباضية لا يعد سوى ضرب من ضروب الجهل والانحراف،؟؟

المطلب الخامس : مستويات التأثير الصوفي

بالغ رجال التصوف بما علموه من حب الأهالي وتقديسهم لهم في نيل المزيد من المكانة تادينية والاجتماعية، بلغت في بعض الجهات درجة التقديس الأعمى للشيوخ، فأسقطوا الفرائض

401 - Kamel Filali, *ibid* p. 117-140

402 - سيمون بفايفر، مذكرات أو لحة تاريخية عن الجزائر، تر أبو العيد دودو، (ش.و.ن.ت.) الجزائر 1974. ص75.

403 - الزهراني علي بن بخت بن عبد الله، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثرها في حياة الأمة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، 1414هـ، ص258.

404 - الزهراني بن عبد الله، الانحرافات العقدية والعلمية، المرجع نفسه، ص259

405 - ابو الربيع سليمان الباروني، مختصر تاريخ الاباضية، المرجع السابق، ص 79.

والتكاليف الشرعية عن أنفسهم، وصدّق العامة بذلك. وفي هذا الإطار ذكر "بيار بواي" أن إحدى بنات القناصل الغربيين لم يستطع أحد الشيوخ المرابطين أن يلجم نفسه أمام جمالها فاعتدى عليها، ولم قدمت شكوى للداي قال: "إن هذا شرف كبير أن يتقرب شخص مثل الشيخ المرابط من هذه المرأة ذات الحظ الكبير؟"⁴⁰⁶

ومن مستويات الانحراف التي بلغها التصوف أن صار الناس السذج يرون الولاية الدينية في أي شيء خارق، في المشعوذ الرث الثياب أو المجنون أو الحيوان، وترك لهذا الولي حرية الفعل وكثيرا ما تعلق المرابطون بنساء في الشوارع وزنوا بهن في خلواتهم كما حدث للمرأة التي حملت من أحد المرابطين وكانت تردد "إن الأولياء أعطوني له" ⁴⁰⁷

ولم تتزعزع مكانة المرابطين في نفوس الأهالي بالرغم من فشل كثير منهم في تثبيت رؤاهم وتنبؤاتهم، حيث يُذكر أن أحد الانكشاريين أراد الاستيلاء على الحكم بالجزائر، فاستشار أحد المرابطين الذي اقترح عليه التصديق بمبلغ مالي كبير وذبح أربعة كباش، وتوزيع لحومها على الفقراء والمساكين واعداء إياه بالنصر، ولبس برنس المرابط اعتقادا منه أنه سيحميه ويستتره حتى يتم له ما أراد، لكنه لما وصل إلى قصر الباشا اكتشف أمره وألقي عليه القبض وأعدم ⁴⁰⁸.

وكانت حادثة "علي بن محمد الجزائري" المعروف بابن الترجمان (ت 1185هـ 1771م) من أكثر قصص المرابطين تجسيدا لهذا الأمر، فابن الترجمان الفقيه والعالم يبدو أنه قد وقع تحت تأثير القائلين بعصمة الأولياء والصالحين، كأبي مدين الغوث دفين تلمسان، وقدرته على إغاثة من يلتجئ إليه في كل وقت، وإذا طلبت منه حاجة تحققت، وقد تزامن وجود ابن الترجمان في القسطنطينية، في وقت كان فيه السلطان العثماني مصطفى ⁴⁰⁹ يتجهز لحرب الروس، فدعا ابن الترجمان السلطان إلى تكليف مجموعة من الأفراد يقومون بقراءة أوراد أبي مدين الغوث قبيل المعركة، مؤكدا له أن النصر لن يكون سوى حليفا لجيش السلطان بفضلها، فقال له السلطان: "إنا لا نجد من يقرأها أحسن منك"،

- Pierre Boyer, **La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française** In: 406
Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°1, 1966. p80.

407- صباح بعارسية، المرجع نفسه، ص110

408 - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 المرجع السابق، ص469

409- مصطفى الثالث تولى عرش السلطنة سنة 1171 هـ حتى سنة 1187 هـ تميز حكمه بالتنظيمات الإدارية والإصلاحات العسكرية التي باشرها منها إنشاؤه أول مدرسة بحرية وغرفة للهندسة الحربية وأما على الصعيد الخارجي فقد دخل في حرب مع روسيا انتهت بخسارة العثمانيين الذين فقدوا شبه جزيرة القرم إلى الأبد. انظر: محمد خير فلاح، المرجع السابق، ص64-65.

ولما التقى الجيشان انهزم العثمانيون هزيمة نكراء، وأسر ابن الترجمان مع من أسر من أفراد الجيش، واقتيد على العاصمة موسكو التي قضى بها بقية أيامه في الأسر بعيدا عن أهله ووطنه⁴¹⁰.

وقد خفف بعض الدارسين من وطء ما وقع لابن الترجمان نتيجة اعتقاده الخاطئ حين قالوا أن السعي للجهاد في سبيل الله، بدافع الأخوة الإسلامية، والمشاركة في صد الأخطار التي تهدد المسلمين، كانت من مبررات ودوافع ابن الترجمان للمضي في هذا الأمر⁴¹¹ دون أن يعي أن الحرب تتطلب تهيئة أسباب النصر مصداقا لقوله تعالى: "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة".

وتذكر الروايات التاريخية الكثير من الطرائف الأخرى في هذا الشأن، منها ما ذكر عن أحد الأولياء خرج من ضريحه في مالطة⁴¹²، وأخذ يتنبأ بقدوم الكفار وشرع في لعن الداي، وراجت الشائعة كثيرا في الإيالة مما حذا بالداي علي باشا إلى فرض عقوبات ضد مروجيها ولكن دون جدوى⁴¹³.

وذكر أيضا أن مرابطا من الريف الجزائري رأى في المنام رؤيا أولها بوجوب قتل نصراني، فذهب للمدينة واتصل بأحد الأتراك طالبا منه تسخير مسيحي لهذا الغرض، فاستجاب له التركي على الفور، ولولا فرار النصراني المسكين بجلده لكان أعمل فيه بالسيف⁴¹⁴.

وذكر ابن سحنون الراشدي من أن الشيخ محمد الهواري⁴¹⁵ بعث خادما له إلى أحد طغاة بني عامر⁴¹⁶ يقال له عثمان ليرد مالا لبعض أصحاب الشيخ أخذه ظلما، فلما وصله الخادم أفحش له في القول وأمر بسجنه، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل خلوته بعد أن غضب حتى اسود وجهه، وسمع وهو يقول "مفرطخ مفرطخ" "مفرطخ مفرطخ".

410 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، (م.و.ك) الجزائر، 1986، ص70.

411- هلال عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 308.

412 - مالطة جزيرة بشرق المتوسط كانت ملتقى الحضارات الوافدة بين ضفتي البحر المتوسط.

413 - عزيز سامح البتر، المرجع السابق، ص600.

414 - Pierre Boyer, Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles) In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°1, 1966. pp. 11-49.

415 - الشيخ سيدي الهواري دفين وهران من الأولياء الذين يتبرك بهم ما زال إلى يومنا هذا محط الأنظار وقبله الزوار في الغرب الجزائري. انظر، محمد المهدي شغيب، المرجع السابق، ص 197.

416 - من القبائل العربية التي كانت متعاونة مع الإسبان في بايلك الغرب الجزائري.

واتفق أن عثمان يومئذ يلعب في عرس كان في حيه فرأى الحاضرون شيخا أبيض يتقدم من بين الحاضرين ثم أخذه وضرب به الأرض فأقبلوا إليه فوجدوه مفرطخا، قد دخل رأسه في جوفه، فأطلقت أمه خادم الشيخ وقامت تندب ولدها⁴¹⁷.

وسجل الرحالة الغربيون الذين زاروا الجزائر الكثير من الظواهر التي تميز عقيدة الجزائريين حيث اعتبرها بعضهم عقائد بدائية تنسب الحكمة والقوة لأي شيء دون تفكير وتمحيص، وفي هذا الإطار ذكر أحد الرحالة أن البرابرة كانوا يحترمون الضفادع ويعتبرونها بمثابة مرابطي الحيوانات⁴¹⁸؟، مما يدفعنا إلى القول بوجود تقلص في تأثير العلم والفقه في حياة الناس، لحساب تأثير الخرافات والظواهر الغيبية، كما أن الاعتقاد في كرامات الأولياء والصالحين أصبحت عقيدة لا تهتز في المجتمع الذي سلم بتأثيرها دون مناقشة.

المطلب السادس: الفقهاء والتصوف

لاقت الطرق الصوفية معارضة كبيرة من طرف الفقهاء والعلماء للحفاظ على النظام، والحرص على حسن الإلتباع والتطبيق للتعاليم الدينية، وحراسة الشريعة. وعرفت أغلب البلدان الإسلامية كالجزائر والقسطنطينية ومصر وبلاد فارس هذا الدور، حيث اعتمد الفقهاء والعلماء على نصوص الكتاب والسنة لدحض مزاعم المغالين من الطريقين، بينما اعتمد خصومهم على كتب أسلافهم من الطريقين⁴¹⁹، وما تركوا من وسائل التأثير في العامة القائمة على الكرامات والولايات الدينية القائمة على أساليب التضليل والتحايل.

وقد عني الفقهاء بتتبع أعمال الصوفية والدعوة ببطلانها ونبذها، خاصة تلك التي تدعو للغلو ورفع التكاليف الشرعية عن شيوخها وأقطابها. وقد أدى هذا بفقهاء المتصوفة المتنورين كالقشيري والصهروردي وأبو حامد الغزالي، إلى محاربة البدعيين منهم، فكتبوا في الموضوع وبينوا للناس الخطوط الحمراء التي تفصل بين التصوف الصحيح المستند على الصحيح من الكتاب والسنة وبين الانحراف عن الدين والتقول على نصوص الشريعة، فبدأ التصوف يتخذ شكل العلم المدون بعد ما كان عبارة

417 - أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح المهدي البوعبدلي، مطبعة دار البعث، قسنطينة، 1973. ص444.

227418 - Latifa el Hassar Zeghari, **les Captifs d'Alger**, opcit, p
419 - louis Rinn, **marabouts et khouans étude sur l'islam en Algérie**, adolphe jourdan, libraire-éditeur, 1884 p103.

عن مواعظ وأفكار تغص بها حلقات الذكر ودور العبادة في ظل أجواء المجاهدة والرياضة الفردية والجماعية⁴²⁰ ..

ومن الفقهاء الذين تصدوا للتصوف البدعي فقيه المالكية في الأندلس الطرطوشي⁴²¹، الذي أفتى ببطلان عمل الصوفية حيث قال "وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، فالرقص دين الكفار وإنما كان مجلس النبي وأصحابه محفوفاً بالوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد ولا يحل لمؤمن أن يحضر معهم"⁴²².

وقال القرطبي "وأما ما ابتدعه الصوفية فمن قبيل النفوس الشهوانية التي غلبت على الكثير حتى ظهرت منهم فعلات المجانين والصبيان، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة"⁴²³ ولقد سيطر التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني وصار ظاهرة منتشرة على أوسع نطاق، سيطرت وتمكنت من توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية، بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت له مثيلاً⁴²⁴.

وتعد مدينة تلمسان معقلاً كبيراً للتصوف والطرق الصوفية بمختلف أنواعها وأورادها، وكانت أواخر القرن 15 وأوائل القرن 16 الميلاديين قد عرفت المدينة رواج الفكر الصوفي مما دفع ببعض

420- صباح بعارسية، المرجع السابق، ص55.

421 - أبو بكر الطرطوشي فقيه مالكي، ولد سنة 451 هـ وتوفي سنة 520 هـ في مدينة طرطوشة الأندلسية زار بغداد والبصرة وحلب وإنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية ثم القاهرة، من تلاميذه القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي، وابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، اشتهر الطرطوشي بالرد على خصوم الدين والمبتدعين وكانت له مكانة مرموقة عند الفقهاء، أثنى عليه ابن بشكوال في كتاب "الصلة" فقال: "كان إماماً عالماً، عاملاً زاهداً، ورعاً ديناً متواضعاً، متقشفاً، متقللاً من الدنيا، راضياً منها باليسير".

422 - أبو فارس عبد العزيز محمد القيرواني، الفتوى المالكية في أفعال الصوفية، جمع وتحقيق أبو أحمد علي الكندي، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، 2009، ص07.

423 - أبو فارس القيرواني، المرجع نفسه، ص07.

424 - كانت الدول المحلية التي نشأت في المغرب الأوسط كالدولة الحمادية والرسومية والمرابطية والموحدية والزيرية اعتمدت بصورة كبيرة على العلماء والفقهاء في تأسيسها واستمرارها خلافاً للدولة العثمانية التي اعتمدت بصورة أكبر على نفوذ الطريقين وحركات التصوف.

فقهاؤها إلى الكتابة في الموضوع لتبيين حقيقة الدين فألف بن مرزوق العجيسي التلمساني "الحفيد"⁴²⁵ كتابا بعنوان "النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص" في الرد على قاضي قضاة تلمسان قاسم العقباني⁴²⁶، الذين كان يميل إلى تشجيع الصوفية، كما وقع التنازع بين رجال التصوف الذين كانت السلطة العثمانية تدعمهم ضد خصومهم من الفقهاء والنخب، وهو ما نستشفه من خلال ما وقع بين "بن زاغو" الفقيه وبين "سعيد منداسي" الشاعر الثائر، الذي نسب لخصمه ما استطاع من تم تحط من قيمته العلمية والدينية متهما إياه بالنفاق والوقوف إلى جانب سلطة باغية.

وزاد من مشقة الفقهاء في تنبيه الناس تعلق الأهالي بالمرابطين والأولياء إلى درجة التقديس والتنزيه والعبادة، حتى حوّلهم الأهالي في المغرب الإسلامي من أناس بسطاء إلى عارفين بأسرار الغيب، وكان من سلوكات هذه العقيدة الخاطئة أن بعض أمراء بني راشد كانوا يعرضون بناقم على أحد المرابطين يدعى "أبو زيد عبد الرحمن" (1543ت) لاسترضائه لكنه أبقى؟⁴²⁷.

وعرفت البلاد اختلاط التصوف بالسحر والدجل فكان أحد المرابطين يدعى "عيسى البسكري" يفسر القرآن على هواه ويجعل كل آية دواء لمرض معين، وأحيانا يخلط وصفاته ببقايا الكائنات الحية ولم يجد من يزجره، وكان سكان وسط وغرب إيالة الجزائر يعتقدون أن النافذة التي تطل على ضريح الشيخ "أحمد بن يوسف الملياني" تشفى من كل الأسقام، وغيرها من المعتقدات الخاطئة التي لم يستطع الفقهاء تطهير المجتمع منها⁴²⁸..

وأثار الورتلاني في رحلته مسألة تحول التصوف والدروشة إلى ظواهر سيئة وممارسات طقوسية أقرب إلى الجاهلية منها إلى الإسلام، مست المجتمع الجزائري في العمق خاصة المجتمع الريفي، ومن الظواهر السيئة التي ذكرها وقوع تجمعات مشبوهة يختلط فيها الرجال بالنساء في أماكن مختلفة ظاهرها

425 - هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني "الحفيد" ت 842 هـ من علماء تلمسان أخذ عن سعيد لعقباني وابن عرفة والسراج ابن الملحن وابن خلدون له "الروضة" و"الحديقة" منظومتان في علم الحديث أحدهما، وله "أنوار الدراري في مكررات البخاري" و"المتجر الربيع والمسعى الرجيع والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح" وغيرها.

426 - هو الإمام سعيد بن محمد العقباني ت 1172 هـ، وسمي كذلك نسبة إلى قرية "عقبان" بالأندلس، وهو قاض وفقه مالكي من مدينة تلمسان تولى القضاء بها ثم في بجاية، ثم انتقل إلى المغرب ليستزيد في طلب العلم والفقهاء المالكي عرفت سيرته بالميل للتصوف وتشجيع أهله، نرك العقباني عدة مؤلفات وشروح وتعليق منها "شرح جمل الخونجي" و"العقيدة البرهانية" وغيرها.

427- صباح بعارسية، المرجع السابق، ص 127.

428- صباح بعارسية، المرجع نفسه، ص 117.

الخير والصالح وفي حقيقتها سبيل للتوصل إلى الزنا والفواحش والمنكر المختلفة⁴²⁹، التي كانت تنخر جسد المجتمع وترتكب باسم الدين⁴³⁰، لكن دعوة الورتلاني وتنبيهاته لم تغير من واقع الأمر شيئاً.

المبحث الثاني: الفقهاء المفتون والقضاة

لم يكن من السهل على الباحثين إحصاء عدد الفقهاء الذين عملوا في هذه الفترة وضبط أعمالهم ومواقفهم، لانعدام وجود كتابات تضم هؤلاء جميعاً في سجلات ووثائق، بل لقد تعددت المصادر والمراجع التي تناولتهم بالذكر، كما أن هناك اختلافاً بين المؤرخين والكتاب في تصنيفهم لاعتبارات دينية أو مذهبية، وقد سعينا في هذا المبحث إلى محاولة ضبط الفقهاء الذين تولوا مهنة الفتوى والقضاء، معتمدين على ابن المفتي في تقييداته وخاصة على نور الدين عبد القادر من خلال كتابه صفحات من تاريخ الجزائر، وجورج دلفين في المجلة الأسبوعية، وكذا ما ذكره توفيق المدني في كتابه محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 م.

وكان الهدف من محاولة ضبط عدد الفقهاء هو الخروج برؤيا إحصائية لهذه الفئة خلال فترة الحكم العثماني، لمعرفة أدوارها ومدى تأثيرها في مسارات الحياة السياسية سواء تعلق الأمر بفقهاء المذهب المالكي أو الحنفي أو الإباضي.

المطلب الأول: الفقهاء الأحناف

من أبرز الكتابات التي ذكرت العلماء والمفتي من المذهب الحنفي أولئك الذين ذكرهم ابن المفتي في تقييداته، ولم يكن ابن المفتي متأكداً في صيغة الذكر من دقة ما يتعلق هؤلاء الأشخاص من أحوال، حيث يقول "ومن بين المفتي الذين أدركنا خبرهم" ثم ذكر منهم :

الترتيب	اسم الفقيه وكنيته	فترة التولية	نهايته
01	محمد قرمان ⁴³¹	1608	توفي مفتياً

429 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 138.

430 - Pierre Boyer, Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles), In: **R.O.M.M**, N°1, 1966. p33

431 - يقول ابن المفتي عن ابن قرمان أنه أول من تقلد خطة الفتوى من الأحناف في الجزائر وعاصر المفتي المالكي الشيخ أبا العباس أحمد الزروق بن عمار بن داود، خطب بالجامع الأعظم وتولى الفتوى على المذهب سنة 1608. كما زار الشيخ التواتي في

02	محمود بن قرمان ⁴³²	1655	توفي مفتيا
03	حسين أفندي		توفي مفتيا
04	مسلم أفندي بن علي	24 سنة	مات
05	محمد خوجة بن مسلم ⁴³³	08 سنوات	عزل
06	حسين بن رجب شاوش ⁴³⁴	12 سنة	عزل
07	محمد النيار ⁴³⁵	05 سنين	عزل
08	محمد بن الماستيجي ⁴³⁶	سنة 04 أشهر	عزل

قسنطينة والتقى الشيخ الفكون. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 236. والملاحظ أن الخطبة في الجامع الأعظم بمدينة الجزائر كانت تعد بمثابة نوع من التشريف العلمي والديني، فمن استطاع بلوغ هذه المرتبة فإنه ينال تشريفا كبيرا وتقديرا وسط النخب العلمية والدينية والسياسية.

432 - ورد ذكره بمعية ثلة من الفقهاء الذين التقى بهم أبو العباس أحمد المقرئ أثناء رحلته إلى المشرق حيث يقول: "بأنه نزل بالجزائر العاصمة يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1027 هـ، حيث خرج إلى رأس تافورة صحبة جماعة من الأعيان منهم مفتي الحنفية الخطيب محمود بن حسين بن قرمان، والشاعر الأديب محمد بن راس العين الذي تبادلته معه نظم الشعر بمناسبة هذا الاجتماع، كما التقيت بعالم الجزائر وفقهها الأخ في الله سيدي سعيد الشهير بقدورة، الذي كنت قد رافقه في الأخذ عن عمي سعيد المقرئ". انظر: محمد بن معمر، تحقيق رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004 - ص 72.

433 - محمد خوجة هو ابن مسلم أفندي وكان من الحضرة أديبا وذو أخلاق حسنة اعتنى بوظيفته أكثر من أبيه حيث مكث في داره ولم ينزل للمقهى ولما تولى الحاج شعبان باشا عزله لأسباب لم يذكره ابن المفتي وكانت مدة توليه الفتوى اقل من 08 سنوات انظر: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 89.

434 - حسين بن رجب شاوش الكرغلي ت 1102 هـ/1690 م أول مفتي كرغلي تولى خطة الفتوى في الجزائر، انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، المرجع السابق، ص 393.

435 - محمد النيار صب عليه ابن المفتي جام غضبه وساق له جل أوصاف الحقايرة والجهل دون أن يبين أسباب ذلك، فمما قال فيه رجل مرتش قليل الدين، وكان أول من أهان العلم وأهله وكان قبل توليه يقف الأمراء للعلماء عند الورد عليهم ويقبلون أيديهم ويودعونهم عند انصرافهم ورأيت من قبل كيف أن قاربغلي حسن شاوش الدولتلي يقبل يد والدي، ويد سيدي احمد بن سيدي السعيد مفتي المالكية ويد ابن الحنفي القاضي، ويد قاضي المالكية سيدي محمد بن القوجيلي، وقليل الدين النار ينحني على يد أهشي ويقبلها مرارا، فتبعه الرفقاء وبقت عادة وبقي هذا الجاهل خمس سنين في خطة الفتوى. وكان لا يكلف نفسه جهد البحث والتتقيب عن المسائل، فإذا سألته عن رأي قال لك ذاك هو الجواب أي الذي كنت تخمن فيه أو تشك فيه. انظر: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 89...

09	حسين العنابي ⁴³⁷	03 سنين.	عزل
10	محمد النيار ثانية	04 اشهر	عزل
11	حسين خوجة الطوبال	15 يوم	عزل
12	حسين العنابي ثانية	شهرين	عزل
13	محمد بن الماستيجي ثانية	سنتين	عزل
14	حسين العنابي للمرة الثالثة	شهرين	عزل
15	محمد بن الماستيجي للمرة الثالثة	10 سنين	عزل سنة 1644
16	علي تركمان	12 سنة	عزل 1734.
17	حسين العنابي للمرة الرابعة	03 سنوات	توفي 1737
18	محمد بن علي بن المهدي بن رمضان بن يوسف العالج	مكث بالفتوى 06 سنوات حتى كتابة ابن المفتي تقييداته	

ومن خلال هذا الجدول لمفاقي الحنفية الذين ذكرهم ابن المفتي والذين تولوا على امتداد نحو مائة وخمسين سنة، نلاحظ ما يلي:

أن عدد المفتين الأحناف الذين تولوا من سنة 1606 إلى غاية سنة 1743 كان ثمانية عشرة "18" مفتيا، وكان أطولهم مكوثا في المنصب مسلم أفندي بن علي الذي ظل في هذا المنصب نحو 24 سنة . وكان أقصرهم خدمة في المنصب المفتي حسين العنابي لما تولى للمرة الثالثة سنة 1734 حيث

436 - تولى الماجيستي صغيرا ولم يدرك بعد الثلاثين من عمره وكان عالما وعارفا وفق تعبير ابن المفتي، لكن الباشا عزله بعد أشهر قليلة.

437 - هو جد محمد بن محمود ابن العنابي المفتي الحنفي الجزائري المشهور الذي عاصر بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وصاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، وكان حسين العنابي الجد فقيها وعالما ومفتيا لا يشق له غبار له تفسير للقرآن الكريم ذكره حفيده في كتابه السابق حيث يقول في شأنه: "قال مولانا الجد الأكبر حسين بن محمد رحمه الله في تفسيره" انظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري المصري ابن العنابي وكتابه السعي المحمود في نظام الجنود، مستخرج من كتاب بحوث في تاريخ الجزائر، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، دت.

مكث شهرين ثم عزل. كما نلاحظ أن 05 خمسة من المفتاي ظلوا في المنصب حتى وفاتهم من أصل 18 ثمانية عشر. وأن 13 ثلاثة عشر منهم عزل عن المنصب مما ينبئ عن حالة من عدم الاستقرار والتصادم والتضارب بين المفتين ورجال الحكم.

كما نلاحظ كذلك تعدد المفتاي الذين تولوا مرات عديدة منصب الإفتاء منهم:

الشيخ حسين عنابي تولى منصب الفتوى 04 أربع مرات.

الشيخ محمد بن الماستيجي تولى منصب الفتوى 03 ثلاث مرات.

الشيخ محمد النيار تولى منصب الفتوى 02 مرتين.

وهو ما يدعو إلى التساؤل خاصة وأن ابن المفتي لم يذكر سبب التغيير في التولية والعودة إلى المفتي المعزول سابقا؟ فهل كان المفتي المعزول يملك نفوذا داخل مؤسسات الدولة أم أن مكانته العلمية هي من تشفع له ليعود إلى منصبه مجددا؟؟ أم أن تغير الحكام على رأس الإيالة كل مرة كان يحدث التغييرات في أجهزة الدولة بصورة جذرية؟؟

أما الباحث والمؤرخ الجزائري نور الدين عبد القادر فقد كان أكثر وضوحا ودقة في تعداد المفتين الأحناف الذين تولوا خطة الفتوى بمدينة الجزائر عاصمة الدولة منذ قيام وتكوين هذا المنصب إلى غاية وقوع البلاد تحت الاحتلال الفرنسي 1830. وفق ما يوضحه الجدول أدناه:

المفتي وفترة توليته	سنوات الخدمة
الشيخ محمد بن يوسف 1022-1029	07
محمد بن حسين 1029-1037	08
مصطفى بن محمد 1037-1045	08
محمد بن رمضان 1045-1068	23
حسين بن مصطفى بن رمضان 1068-1090	22
مسلم بن علي 1090-1090	00
محمد بن مسلم 1090-1101	01
محمد بن حسين 1101-1101	00
محمد بن مسلم ثانيا 1101-1102	01

08	حسين بن رجب ⁴³⁸ 1110-1102
08	محمد بن مصطفى المدعو بن المستي 1118- 1110
04	حسين بن محمد 1122-1118
00	محمد بن مصطفى ثانيا 1122-1122
00	حسين بن محمد ثانيا 1122-1122
03	محمد بن مصطفى ثالثا 1125- 1122
03	حسين بن محمد ثالثا 1128-1125
08	محمد بن مصطفى رابعا 1136-1128
12	الحاج علي بن المصلي 1136-. 1148
02	حسين بن محمد بن العنابي 1150-1148
19	محمد بن محمد بن سيدي بن علي 1169-1150
01	حسين بن مصطفى 1170-1169
01	حسن بن فضلي 1171-1170
02	محمد بن مصطفى اللواتي 1173-1171
07	حسن بن احمد التفاحي 1180-1173
00	مصطفى بن عبد الله 1180-1180
00	محمد بن مصطفى 1180-1180
11	الحاج مصطفى بن عبد الله 1191-1180
09	حسن بن أحمد 1200-1191
04	محمد بن إسماعيل 1204-1200
20	محمد بن عبد الرحمن 1224-1204
00	احمد بن إبراهيم بن احمد 1224-1224
02	محمد بن عبد الرحمن بن حسين 1226-1224

06	احمد بن إبراهيم البابوجي 1232-1226
01	محمد بن عبد الرحمن بن راسيل 1233-1232
01	احمد بن حسين 1234-1233
01	محمد بن محمود بن حسين العنابي 1235-1234
09	احمد بن إبراهيم 1244 - 1235
00	محمد بن عبد الرحمن 1244 - 1244
00	الحاج احمد بن الحاج عمر بن مصطفى 1244 - 1244 1829

ومن خلال الجدول أعلاه يتبين أن عدد التعيينات في منصب المفتي الحنفي وفق ما ذكره نور الدين عبد القادر بلغ "تسع وثلاثين" تعيينا ابتداء من 1022 هـ حتى 1244، على امتداد 222 سنة دون الأخذ بعين الاعتبار التعيينات المتكررة لبعض المفتين.

وأما الجدول التالي فإنه يمنحنا مقارنة إحصائية جديدة تكون لنا صورة أكثر تجسيد لواقع الفقهاء والمفتين:

عدد التعيينات في المنصب	الفترة التي قضاها المفتي	النسبة المئوية
09	عزلوا في نفس السنة التي عينوا فيها	23.7 %
07	تقلدوا المنصب لسنة واحدة	17.5
03	تقلدوا المنصب لسنتين	7.5 %
02	03 سنوات	05 %
02	04 سنوات	05 %
01	06 سنوات	2.5 %
02	07 سنوات	05 %
05	08 سنوات	12 . %
02	09 سنوات	05 %
01	11 سنوات	2.5 %
01	12 سنوات	2.5 %

01	19 سنوات	2.5 %
01	20 سنوات	2.5 %
01	22 سنوات	2.5 %
01	23 سنوات	2.5 %
المجموع 39	222 سنة	100 %

ومن الجدول نلاحظ:

1- أن من مجموع أربعين تعيين 22.5 % منها عزلوا في نفس السنة التي عينوا فيها وإن دل على شيء فإنما يدل على عدم استقرار مؤسسة الفتوى على المذهب الحنفي بالرغم من كونه المذهب الرسمي للدولة العثمانية في الجزائر.

وإذا أضفنا لهذه الفئة مجموع الذين تقلدوا منصب الفتوى خلال سنة واحدة والبالغ عددهم سبعة تعيينات والذين يمثلون بنسبة 17.5 % يصل حاصل الفئتين نحو 40 %

2- أن ستة تعيينات مكث أصحابها في الفتوى أكثر من عشر سنوات ويقدر مجموع السنوات التي قضاها المعينون في منصب المفتي بـ 11 + 12 + 19 + 20 + 22 + 23 = 107 سنة ، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن علة هذا التباين وما إذا يرتبط بدوره الأساسي والهام وعلاقته الجدلية مع دوائر السلطة الحاكمة، التي كثيرا ما كان يقلقها تمرد الفقهاء...

3- أن أطول فترة تولية في منصب المفتي الحنفي كانت من نصيب الشيخ المفتي محمد بن رمضان 1045-1068 الموافق لـ: 1635-1658م. حيث مكث نحو 23 سنة.

4- أن هناك تباينا واضحا بين ما ذكره ابن المفتي وما ذكره نور الدين عبد القادر في ترتيب المفتين وفي الأسماء وفترات التولية إلى حد التضارب.

أما الفقهاء الذين ذكرهم المدني في كتابه من المفتين فقد قدمهم على صنفين شيوخ الإسلام من المذهب الحنفي بدءا بالشيخ محمد بن يوسف الحنفي المعين سنة 1022 هـ ويأتي خلفه نحو ستة وثلاثون مفتيا، آخرهم الشيخ محمد بن شعبان المعين سنة 1251 هـ⁴³⁹.

المطلب الثاني: الفقهاء المالكيون

يقول ابن المفتي في صدد ذكره للمفتين المالكيين الذين تولوا الفتوى بمدينة الجزائر أن الفتوى كانت بالمدينة تتم دون تخصيص أي أن منصب المفتي لم يكن موجودا ثم تطور الوضع وصارت الفتوى محصورة في فقيهين اثنين يكون أحدهما نائبا للآخر وهذا ما استشفه من خلال الورقة المخطوطة التي حصل عليها والتي تنبئ بوجود جواب على استفسار فقهي بخط معين ويوجد خط آخر يتضمن تعليقا وموافقة على الفتوى⁴⁴⁰.

وقد استنتج "ابن المفتي" أن صاحب الخط إنما يعود للفقير المالكي "سيدي أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور" الذي ضريحه بزاوية "يوب" ؟ والخط الثاني إنما لسيدي "سعيد البكوش"⁴⁴¹. وقد ذكر "ابن المفتي" أن من هؤلاء المذكورين لا يعلم سوى السادة أحمد ومحمد وأحمد أما منصور والبكوش فلا يعرف عنهما شيئا⁴⁴²، ما عدا "محمد بن سعيد البكوش" الذي كان إماما بمسجد كتشاوة.

وقد نقل "ابن المفتي" معلوماته التاريخية بصورة ضعيفة التركيب لا يكاد الباحث يتبع نسقها إلا بجهد جهيد، حيث يقول أنه سمع هذا الشرح من الشيخ "سيدي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو" الأندلسي الأصل الجزائري المنشأ والولادة⁴⁴³، حيث سمع الشيخ عن آبائه وشيوخه أن "أبا البركات" كان إماما بمسجد "ستنا مريم" قرب باب الواد والمشهور الآن - في زمن ابن المفتي - بمسجد "بن النيقرو"، و"أبو البركات الباروني" هذا تولى الإفتاء حسب معلومات "ابن المفتي" وفق المذهب المالكي سنة 1364م⁴⁴⁴؟؟؟.

أما أبرز علماء ومفاتي المذهب المالكي حتى منتصف القرن الثامن عشر زمن كتابة ابن المفتي تقييداته فهم :

الترتيب	اسم الفقيه وكنيته	فترة التولية	نهايته

440 - ابن المفتي ، المصدر السابق، ص92

441 - ابن المفتي، المصدر السابق ، ص92

442 - ابن المفتي، المصدر السابق ، ص93.

443 - ابن المفتي، المصدر نفسه ، ص91

444 - ابن المفتي، المصدر نفسه، ص90

01	أحمد زروق بن سيدي عمار ⁴⁴⁵	عزل سنة 1618
02	سعيد قدورة	توفي سنة 1655 محمد بن سعيد قدورة لانشغاله بالتجارة
03	محمد بن قراوش ⁴⁴⁶	04 أشهر لم يُقنع العامة فعزل
04	محمد بن سعيد قدورة	عزل سنة 1769م ثم أعيد لمنصبه بسبب وشاية كاذبة توفي سنة 1695م.
05	أحمد بن سعيد قدورة ⁴⁴⁷ أخ المفتي المذكور أعلاه	عزل 1695-1706م
06	عبد الرحمن المرتضى	عزل 03 أيام

445 - أحمد زروق بن عمار إمام ومفتي وصاحب مبادرة حرة لفعل الخير فكان يقصده الناس في كل شيء ذي بال يهم الرعية، وكان مما اشتهر به إصلاح ما أنهدم من أسوار الجامع الأعظم خاصة تلك التي كانت بواجهة البحر وكان يجري الترميمات من ماله الخاص لأنه كان صاحب ثروة ومال ولما أتم الإصلاح عزل عن المنصب، ولا ندري سبب العزل هل كان بسبب الغيرة والحسد أم أن هناك أسباب أخرى وراءه؟ وعين مكانه سعيد قدورة وتناوب سعيد قدورة في الفتوى مع أحمد زروق مرارا لا يكاد ابن المفتي أن يحصيها لكثرتها وكل ذلك بسبب تدخل العامة بالوشايات التي يصنعها بعضهم ضد بعض وينفخ فيها المغرضون والحساد.

446 - محمد بن قراوش قدمه سعيد قدورة للفتوى مكانه لكن العامة لاموه على ذلك فقدم مكانه ابنه محمد بن سعيد قدورة، مثلما يذكر ابن المفتي وهو أمر خطير حيث تصبح مناصب الدولة الحساسة خاصة المفتين والقضاة مطية للجهلة والمغرضين وأشباه العلماء.

447 - أحمد بن سعيد قدورة كان مفتيا وخطيبا بالجامع الكبير حيث كان يحتوي على عشرات المئات من الكتب والمخطوطات ولما عزل طلب منه خليفته إرجاع الكتب التي كانت مفقودة وذلك بحضور القاضي الحنفي والمالكي فجاء بنحو اثنا عشرة غرارة مملوءة تحوي أكثر من مائة كتاب ويبدو أن الشيخ سعيد قدورة لم يكن يملك مؤهلات إدارية في تنظيم شؤون المكتبة الملحقة بالجامع فسببت له كثيرا من الحرج بسبب الإعاقة الخارجية التي كانت تتم وفق ما يبدو دون ضوابط أو متابعة دقيقة لها، وهذا ما جعل ابن المفتي يصفه بقوله وكان الحاج سعيد مفرطا في الإهمال. وذكر ابن المفتي من أعمال السي للمكتبة ما يصيب بالذهول حيث ذكر قصة الشيخ سيدي الطيار الماروني الذي استعار من المكتبة مجموعة من الكتب الثمينة ولما توفي قام ابنه بجرأة غير معهودة في أبناء الفقهاء والعلماء، بأخذ هذه الكتب إلى تونس وبيعها هناك؟؟؟ وكذلك استباح أبناء فقهاء آخرين سرقة المكتبة ومنهم أبناء بنت سعيد قدورة المفتي الكبير. انظر: ابن المفتي، المصدر السابق، ص 100.

07	أحمد بن سعيد قدورة ثانية	عاود تعيينه أهشي مصطفى ربما نادما أعدمه الباشا محمد بعدهما تبين أنه مظلوم بكداش .
08	عبد الرحمن المرتضى ثانية	عزل
09	الحاج سعيد	07 سنين عزل
10	المهدي بن الحاج صالح	05 أشهر عزل
11	عبد الرحمن المرتضى الثالثة	05 سنين توفي 1715
12	عمار بن عبد الرحمن التلمساني	1715-1731 توفي سنة 1731
13	محمد بن احمد بن المبارك	1731-1737 1737
14	محمد بن إبراهيم بن احمد بن موسى النيقرو	1737-1739 1739.
15	الحاج زروق بن محي الدين بن عبد اللطيف	1739-1753 1753 كان متواجدا حيا حين كتابة المؤلف

ومن خلال ابن المفتي يمكن القول :

- 1- أن خطة الفتوى تكررت عند المفاتي المالكية كثيرا فقد تولى الشيخ الحاج سعيد بن احمد مرتين سنة 1122هـ ثم في سنة 1125هـ، كما تولى الشيخ عبد الرحمن بن احمد المرتضى ثلاثة مرات في سنوات 1118هـ و 1128هـ وأخيرا سنة 1135هـ، وتولى الشيخ عمر بن عبد الرحمن مرتين سنة 1135هـ، أما الشيخ مصطفى بن احمد المسيسني فقد تولى منصب الإفتاء سنتي 1170هـ ثم 1176هـ.
- 2- بلغ عدد توليات الشيخ الحاج علي بن عبد القادر رقما لا يُنافس حيث تقلد منصب الإفتاء المالكي نحو ست مرات، وكان ذلك على التوالي سنوات: 1206هـ، 1207هـ، 1208هـ، 1214هـ، 1230هـ، 1233هـ⁴⁴⁸.

3- . يرجع ابن المفتي بعض أسباب هذه التعيينات المتجددة ويرجع أغلبها إلى الخصومات التي تحدث بين الفقهاء والعلماء والتي يكون عادة مردها إلى الحسد والغيرة، خلافا للمدني الذي مر عليها مرور الكرام، مكتفيا بذكر أسماء المفتين دون ذكر شيء آخر.

أما توفيق المدني فقد ذكر مقابل المفتين الأحناف مجموع شيوخ الإسلام⁴⁴⁹ من المذهب المالكي بدء بالشيخ محمد بن بلقاسم بن إسماعيل الموجود في هذا المنصب سنة 1012هـ، ومرورا بنحو أربعة وثلاثين شيخا، آخرهم مصطفى بن الكبابطي، الذي استمر في أداء وظيفته حتى سنة 1259هـ⁴⁵⁰.

ومن خلال قراءة أولية في ما أورده المدني نقف عند الملاحظات التالية:

1- . أن عدد مفاتي الأحناف البالغ عددهم أكبر من مفاتي المالكية الذين كان عددهم نحو أربعة وثلاثين - فتيا.

2- . تكررت خطة الفتوى الحنفية مرتين فقط عند الشيخين محمد بن مسلم الذي عين سنة 1090هـ ثم عين مرة ثانية بعد محمد بن حسين سنة 1101هـ، ومحمد بن مصطفى المعين أولا سنة 1122هـ ثم سنة 1128 بعد الشيخ حسين بن محمد، وهو ما لم يذكره ابن المفتي في تقييداته السالفة الذكر.

وبنفس الصورة من الوضوح التي أشرنا إليها سابقا والتي ذكرها الباحث الجزائري نور الدين عبد القادر⁴⁵¹ في تعداد المفتين الأحناف الذين تولوا خطة الفتوى بمدينة الجزائر، يعدد الباحث المفتين الذي تولوا خطة الفتوى المالكية منذ قيام وتأسيس هذا المنصب إلى غاية وقوع البلاد تحت الاحتلال الفرنسي، وفق الجدول التالي:

المفتي وفترة توليته	سنوات الخدمة
الشيخ محمد بن بلقاسم 1012هـ - 1022	10
الشيخ سيدي عمار 1022هـ - 1030	08
الشيخ سيدي سعيد قدورة الحاج إبراهيم 1030هـ - 1066	36
الشيخ محمد سيدي سعيد قدورة الابن 1066هـ - 1107	41

449 - يستخدم المدني لفظ "شيوخ الإسلام" ويعني به منصب "المفتي".

450 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص ص 73-75.

451 - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 183-184.

11	الشيخ احمد بن سيدي السعيد الحفيد 1107هـ - 1118هـ
04	الشيخ عبد الرحمن بن احمد المرتضى 1118هـ - 1122هـ
02	الشيخ الحاج سعيد بن احمد بن سعيد 1122هـ - 1124هـ
01	الشيخ عبد الرحمن بن احمد الأخ 1124هـ - 1125هـ
02	الشيخ الحاج احمد بن احمد ثانيا 1125 - 1127
01	الشيخ المهدي بن صالح 1127 - 1128
07	عبد الرحمن بن احمد المرتضى ثانيا 1128 - 1135
00	عمر بن عبد الرحمن 1135 - 1135
00	عبد الرحمن بن احمد المرتضى ثالثا 1135 - 1135
00	عمر بن عبد الرحمن ثانيا 1135 - 1135
12	محمد بن مبارك 1147 - 1151
04	محمد بن إبراهيم 1151 - 1153
02	الحاج احمد الزروق بن محيي الدين 1153 - 1169
16	عبد القادر بن محمد البراملي 1169 - 1170
5	مصطفى بن احمد المسيسي 1170 - 1175
1	الطاهر بن محمد 1175 - 1176
0	عبد الرحمن بن احمد المرتضى رابعا 1176 - 1176
3	مصطفى بن احمد المسيسي 1176 - 1179
1	احمد بن محمد 1179 - 1180
0	الحاج احمد بن عمار 1180 - 1180
0	عبد الرحمن بن احمد المرتضى 1180 - 1180
5	الحاج احمد بن عمار ⁴⁵² 1180 - 1185

452 - أحمد بن عمار هو أبو العباس أحمد بن عمار فقيه وعالم و محقق جزائري ومفتي المالكية بالجزائر خلال العهد العثماني حج سنة 1166 كان نابغة من أفاضل بلده منح عقلا مستنيرا وقلبا يقظا ألف كتابه "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" الذي حوى معاني وحقائق كثيرة استفاد منها الشعراء والفقهاء والمؤرخون. وله كتاب آخر للتراجم بعنوان سماه لواء النصر في

7	الحاج محمد بن احمد بن جدعون 1185-1192
14	محمد بن الشاهد ⁴⁵³ 1192-1206
0	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين ⁴⁵⁴ 1206-1206
1	محمد بن الشاهد ثانيا 1206-1207
0	محمد بن محمد الخواجة 1207-1207
1	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين ثانيا 1207-1208
0	محمد بن محمد بن علي 1208-1208
2	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين ثالثا 1208-1210
4	الحاج محمد بن احمد بن مالك 1210-1214
12	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين رابعا 1214-1226
4	محمد بن محمد بن علي 1226-1230
3	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين خامسا 1230-1233

فضلاء العصر ترجم فيه لنحو مائتي عالم وفقه من عاصروه ووصف الرحالة المغربي أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال صاحب الرحلة التي بعنوان نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد، بالعالم الجليل والفقيه الكبير، وشهد له بالعلم والفقه، وذلك لما لقيه في الجزائر وسمع منه، بعدما بعثه ملك المغرب محمد بن عبد الله سنة 1182 للتوسط في مبادلة الأسرى الجزائريين بالأسرى الأسبان، انظر: ابن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني، المصدر السابق**، ص 76.. وكان ابن عمار معاصرا لمحمد بن ميمون الأديب وعبد الرزاق بن حمادوش والمفتي ابن علي ومحمد بن نيكرو والمفتي عبد الرحمن بن المرتضى والمفتي الزروق وعلي بن عبد القادر بن الأمين ومحمد بن جدعون وبوراس الناصري وعبد القادر الراشدي والورتلاني، هذا وقد تولى بن عمار الفتوى أثناء حكم الباشا محمد عثمان باشا 1179 - 1205. انظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 02، المرجع السابق، ص 238.

453 - يذكر المؤرخ نور الدين عبد القادر أن ابن الشاهد أندلسي الأصل جزائري النشأة، تولى وظيفة الفتوى على مذهب الإمام مالك مرتين الأولى عام 1778 حتى عام 1791، والثانية 1792، انظر: أبو القاسم سعد الله: **تجارب في الأدب والرحلة - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1983**. وأبو القاسم سعد الله، "الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر" - في مجلة **الثقافة**، العدد (61) - وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر 1981...

454 - ذكره نور الدين عبد القادر بأنه كان معاصرا للمفتي محمد بن علي الحنفي، والشيخ أحمد بن عمار فضلا عن محمد بن الشاهد، الأديب الشاعر، انظر: نور الدين عبد القادر، **المرجع السابق**، ص 195. وذكر فيلالي مختار الطاهر نقلا عن الورتلاني أن المفتي المالكي عبد القادر بن الأمين هو من نظر في القضية المرفوعة ضد محمد بن عبد الرحمن الجرجري، من ايت إسماعيل والمقدمة من طرف الطرق الصوفية في منطقة القبائل ضده وحكم المفتي لصالحه.. انظر: فيلالي مختار الطاهر، **رحلة الورتلاني، عرض ودراسة**، دار الشهاب، باتنة، 1998. ص ص 40-41.

0	احمد بن علي جدعون 1233-1233
2	الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين سادسا 1233-1235
4	محمد بن الحاج إبراهيم بن موسى 1235-1239
2	علي بن محمد المنقلاقي ⁴⁵⁵ 1239-1241
4	مصطفى بن الكبابطي 1241-1245 الذي وقع في عهده الغزو الفرنسي سنة 1830 ⁴⁵⁶ .

ومن خلال قراءة أولية يمكن تسجيل ما يلي:

1- عدد التعيينات في منصب المفتي المالكي وفق ما ذكره نور الدين عبد القادر بلغ ثلاثة وأربعين تعيينا، وهو نفس العدد الذي ذكره توفيق المدني⁴⁵⁷ في كتابه محمد عثمان باشا، وذلك ابتداء من سنة 1012هـ بتعيين الشيخ محمد بن بلقاسم 1022 هـ حتى سنة 1244، أي على امتداد 232 سنة دون الأخذ بعين الاعتبار التعيينات المتكررة لبعض المفتين.

2- أن خطة الفتوى وفق المذهب المالكي وفق ما يراه نور الدين عبد القادر قد سبقت خطة الفتوى الحنفية بنحو - عشرة سنوات كاملة.

وأما المقاربة الإحصائية للجدول فتكوّن لدينا الصورة التالية:

عدد التعيينات في منصب المفتي	الفترة التي قضاها المفتي	النسبة المئوية

455 - ينتمي المنقلاقي إلى عائلة علم وفقه سكنت بجاية منذ القرن السادس الهجري وأنجبت العديد من الفقهاء والعلماء منهم يعقوب بن يوسف الزواوي المنقلاقي 1291م ومحمد بن يعقوب بن يوسف ت 1330 كان فقيها وعالما كبيرا بعثه أمير بجاية الحفصي للمغرب في مهمة سياسية فاجتمع عليه طلبته وعلماءه ليأخذوا منه، قال فيه أحمد بابا التنبكتي: "كان فقيها ابن فقيه مليح البحث حسن النظر وهو من شيوخ المقرئ الجد". انظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط02، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980، ص.ص 318 - 319.

456 - تولى خطة الفتوى المالكية بعد عزل مصطفى الكبابطي الشيخ مصطفى القاديري ت 1259 بسبب رفضه انتقال أملاك الأقباس الجزائرية والأوقاف للإدارة الفرنسية ثم تولّاها حميدة العمالي ت 1273 والحاج علي بن الحفاف (ت 1290)، ويُذكر أن الكبابطي ينتمي لعائلة أندلسية ثرية، وكان فقيها محققا عاصر ثلة من علماء الجزائر منهم ابن عمار وأبوراس الناصري وابن الشاهد وأحمد العباسي القسنطيني، وتولى خطة القضاء المالكي بطلب من الداوي حسين ولما سقطت الجزائر سنة 1830 استقال من منصبه لكن سلطات الاحتلال تمسكت به، وظل قاضيا مالكيًا حتى سنة 1841، حين توترت العلاقات بينه وبين الإدارة الفرنسية فقرر الانسحاب من خطة القضاء والانضمام للجنة المغاربة التي تأسست للدفاع عن حقوق الشعب الجزائري.. انظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء المرجع السابق، ص12..

457 - احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص. ص 73.74.

10	عزلوا في نفس السنة التي عينوا فيها	23.25 %
06	تقلدوا المنصب لسنة واحدة	13.95 %
06	تقلدوا المنصب لسنتين	13.95 %
02	03 سنوات	04.65 %
06	04 سنوات	13.95 %
02	05 سنوات	04.65 %
02	07 سنوات	04.65 %
01	08 سنوات	02.32 %
01	10 سنوات	02.32 %
01	11 سنوات	02.32 %
02	12 سنوات	04.65 %
01	14 سنوات	02.32 %
01	16 سنوات	02.32 %
01	36 سنوات	02.32 %
01	41 سنوات	02.32 %
المجموع 43	232 سنة	100 %

ومن خلال هذه المقاربة في الجدول يمكن حوصلة ما يلي:

- 1- أن الذين مكثوا في منصب الفتوى لأكثر من عشرة سنوات يبلغ نحو ثمانية مفتين، شغلوا المنصب للسنوات التالية: 10 سنوات+ 11 سنة+ 12 سنة+ 14 سنة+ 16 سنة+ 36 سنة+ 41 سنة= وبلغ مجموع ما بقوه في المنصب نحو 140 سنة من أصل 232 سنة أي بنسبة 60.34 %.
- 2- أن عشرة تعيينات كاملة عزل أصحابها في نفس السنة التي عينوا فيها وستة تعيينات تقلد أصحابها منصب الفتوى لسنة واحدة، ومجموع الفتتين يبرز أن ستة عشر تعيينا في منصب الفتوى لم

يمكث أصحابها في هذا المنصب لأكثر من سنة، وتمثل نسبة هاته الفئة بالنظر للمجموع نحو 37.2 %.....

3- . متوسط ما يقضيه كل المعينين في هذا المنصب لا يزيد على 5.39 سنة

4- . أطول فترة قضاها فقيه معين في منصب الفتوى في المذهب المالكي هي فترة تولية الشيخ محمد سيدي سعيد قدورة الابن 1066هـ - 1107 حيث قضى نحو واحد وأربعين سنة في هذا المنصب، ويذكر ابن المفتي أن محمد بن سعيد قدورة قد عزل بسبب وشاية كاذبة ثم أعيد لمنصبه لما بانته براءته⁴⁵⁸.

أكثر الفقهاء المالكيين تعيينا في منصب الفتوى هو الشيخ علي بن عبد القادر بن الأمين الذي عين في هذا المنصب نحو ست مرات⁴⁵⁹، مما يدفعنا للتساؤل عن أسباب ذلك هل تعود لمكانته العلمية وحاجة المنصب لمثله ليتولاه، أم تعود المسألة لأسباب أخرى؟؟

المطلب الثالث: الفقهاء الاباضيون

تأتي المدرسة الفقهية الاباضية في المرتبة الثالثة من حيث التأثير في اية الجزائر إذ لا يتعدى تأثيرها منطقة وادي ميزاب وغرداية والمناطق المحيطة بها⁴⁶⁰، بالإضافة إلى تأثيرها بالنسبة للأقليات الميزابية المقيمة في المدن كالجزائر وهران قسنطينة بونة وغيرها.

وقد أنجبت المدرسة الفقهية الاباضية القليل من الفقهاء مقارنة بالمدرسة المالكية والحنفية فهل هذا مرده إلى وجود هؤلاء الفقهاء الأكفاء القادرين على خدمة المجتمع الميزابي وبالتالي اكتفاء المدرسة الاباضية بما أنجبت من فقهاء وعلماء أم أن هناك عوامل أخرى ما تزال بحاجة لبحث وتحري للكشف عنها؟؟ ومن أشهر أعلام المدرسة الاباضية في العهد العثماني يمكن ذكر الفقهاء التاليين:

1. - الشيخ باحيو بن موسى:

من مواليد قرية العطف بميزاب، من أهم مآثره تكوين جيش من المتطوعين الميزابيين ووقوفه إلى جانب خير الدين بربروس في صده لهجوم النصارى على جزيرة جربة سنة 1510، وقامت فرقته بصد هجوم الإسبان على مدينة الجزائر سنة 1518⁴⁶¹، قبيل انضمام الجزائر للدولة العثمانية.

458 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 86.

459 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 24.

460 - صالح بوبشيش، المدارس الفقهية في الجزائر خلال الحكم العثماني، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد سنة 2004 ص 160

2. - الشيخ إبراهيم بن بيحمان

ولد في قرية بني يستقن بميزاب كان فقيها وشاعرا وحكيما، وله عدة مراسلات مع داي الجزائر حسن الدولاتلي في شان باي قسنطينة صالح باي، الذي قاد حملة عسكرية بالمنطقة، كما كانت له مراسلات مع الباشاوات العثمانيين، يدعوهم فيها للعدل والكف عن الجور. ترك عدة رسائل كما كان له صلات عديدة بعلماء الجزائر والمغرب من مختلف المذاهب الأخرى⁴⁶².

3. - الشيخ أبو العباس احمد بن محمد الشماخي (ت 1522)

كاتب ومؤرخ وفقه يهود أصله إلى جبل نفوسة بليبيا ينتمي لعائلة محافظة متمسكة بالدين والأخلاق توفي سنة 1522 له كتاب "السير" الذي قسمه إلى قسمين، القسم الأول جعله للتراجم الاباضية في المشرق، أما القسم الثاني فقد خصصه لاباضية المغرب، وله العديد من المؤلفات في المجال العقدي والفقه والتفسير، منها شرح العقيدة "شرح على مختصر مرج البحرين" وغيرها من التأليف⁴⁶³.

4. - الشيخ أبو مهدي عيسى بن إسماعيل: (ت 1564).

ينتمي لعرش أولاد نايل كان عالما من علماء المالكية، ثم اعتنق المذهب الإباضي كما يقول المؤرخون الاباضيون لما رأى فيه من الحق⁴⁶⁴، ونزل بقرية مليكة من قرى ميزاب. ورفض الضغوط التي مارسها عليه الفقهاء المالكيون يدعونه من خلالها الرجوع لعقيدة أهل السنة والجماعة، لكنه لم يكثرث وبعث بردود إليهم يشرح فيها عقيدته الجديدة. ومن أبرز مؤلفاته، "رسالة إلى أهل ورجلان" و"جواب من عزابة بني مصعب إلى أبي علي بن علي البهلولي"، و"رسالة في معنى التوحيد والوحدانية والإلهية والربوبية". ومن أشهر تلاميذه الشيخ محمد بن زكرياء الباروني، الذي لازمه حتى وفاته سنة 1564.

461 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية غرداية 1992، إبراهيم محمد الطلاي، المرجع نفسه ص78.

462 - محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص 281.

463 - تاديوس ليفيتسكي، المؤرخون الاباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة ماهر جرار وربما جرار، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص43

464 - يوسف بن بكير، المرجع السابق، ص ص79-81.

وكان للشيخ عيسى مراسلات مع مشايخ سلطنة عُمان، ومن بينها رسالة ييدي فيها نوعا من الاستعطاف لدى رجال عمان وفقهائها، لضرورة دعم إخوانهم في المغرب الأوسط، بعدما غدر بهم الناس، وأحاطوا بهم من كل جهة وكادوا يستأصلونهم.⁴⁶⁵

كما كتب رسالة إلى القائد التركي يحي المشهور بكاهية، يشكو له ظلم الجيش التركي وهجومه على ميزاب سنة 1564، وأخذه نحو 20 ألف قطعة ذهبية وفضية ظلما وعدوانا، والرسالة عبارة عن مخطوط بمكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي بني يزقن⁴⁶⁶

5. - الشيخ أبو يعقوب يوسف بن محمد (ت 1773)

ولد سنة 1669 بقرية مليكة ثم هاجر لجزيرة جربة لأخذ العلم حيث استقر بها، أخذ الفقه عن الشيخ سليمان بن محمد الباروني، ثم سافر لمصر وحضر دروسا في الأزهر الشريف ليستكمل زاده العلمي والفقه، ثم عاد ليتولى الإفتاء بجربة والتدريس بجامعها الكبير، كان ذا هبة وشجاعة ولا يخشى قول الحق، فقد كتب رسالة للباي "حسين باي" تونس يرد من خلالها على من نقد شهادة الاباضيين ولم يعتبر بها، وكتب رسالة أخرى للباي "يوسف بن محمد"، يعرض بمن شتم الاباضية ويبين دينهم الصحيح.

وقد كان الشيخ أبو يعقوب في نظر السلطة التركية يمثل الزعيم الإباضي الأوحى الذي يرجع إليه الأمر، فكان سفيرا للإباضية لدى سلطات تونس والجزائر وليبيا، لحل المشاكل والمعضلات المستعصية، بين الطوائف الاباضية، والسلطة الحاكمة، توفي بتونس سنة 1773 وترك العديد من الرسائل والحواشي.⁴⁶⁷

6. - الشيخ عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني (ت 1808)

فقيه من فقهاء الاباضيين في العصر الحديث، وهو صاحب كتاب النيل وشفاء العليل الذي اعتكف على تأليفه نحو 18 سنة، بعدما اعتزل الناس والدهماء الذين قدحوا فيه وأطلقوا عليه من

465 - يحي بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي ميزاب نموذج قصر بني يزقن من القرن 10 هـ 16م إلى القرن 13 هـ

19م، (ر.م.غ.م)، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2002م. ص 26

466 - يحي بوراس، المرجع السابق، ص 27

467 - يوسف بن بكير، المرجع السابق، ص 79-81.

باب التنايز بالألقاب تيس المجزرة⁴⁶⁸، فظل خلال هذه الفترة الطويلة منقطعا عن الناس لا يفتح بابه لأحد حتى انتهى من تصنيفه، الذي جمع فيه مصادر الفقه الإباضي، وجعله أقرب لفهوم معاصريه لغة ومعنى حتى يسهل تناوله وكان دوما يردد: "عبارة الخلف وان قصر ذراعها أوضح من عبارة السلف وان طال باعها"⁴⁶⁹.

ويعد هذا الكتاب مصدرا من مصادر الفقه الإباضي وهو بمكانة مختصر خليل بالنسبة للمالكية وقد تناوله العلماء بالشروح والتعليق والإضافات⁴⁷⁰، بلغت به 10 مجلدات كاملة.

وقد شبه بعد الدارسين عمل الثميني في الفقه الإباضي بعمل الونشريسي لغزارة المعلومات الفقهية والتاريخية والأدبية التي تسطر مراحل الفقه الإباضي⁴⁷¹. ويعد في نظر فقهاء المنطقة شيخ المذهب في وقته والمرجع الأكبر في الفتوى⁴⁷².. وممن أخذ عن الشيخ الثميني الشيخ أبو زكريا يحيى بن صالح الافضلي، توفي الشيخ سنة 1808 ودفن بمسقط رأسه بني يسقن⁴⁷³.

7. - الشيخ أبو يعقوب يوسف بن عدون بن حمو، (ت 1808م،)

يعد الشيخ بن عدون رمزا من الرموز الاباضيين ومن دعاة الإصلاح في وادي ميزاب، رحل إلى القاهرة ومكث أربع سنين ينهل من ربوع الأزهر الشريف، وبعدها سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث ظل يؤدي رسالته الدعوية حتى وفاته من أبرز آثاره "حاشية على تفسير البيضاوي"⁴⁷⁴.

8. - الشيخ داوود بن يوسف⁴⁷⁵

كان للشيخ داوود وابنه مدرسة بغرداية تُعَلِّم أصول الدين والفقه واللغة، وقد حبس العديد من الأموال والخيرات على طلبة العلم، من آبار وجنان، وجعلها لطالبي العلم والمعرفة القادمين من المناطق

468 - أطلق عليه هذا اللفظ من باب السخرية كونه كان يسكن قرب المجزرة ويملك لحية طويلة. وهو ما يبرز ثقل الدهماء على طبقة الفقهاء والعلماء.

469 - صالح بوبشيش، المقال السابق، ص160.

470 - من الذين علقوا على هذا التصنيف الفقيه الإباضي المعاصر محمد بن يوسف اطفيش.

471 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص72..

472 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 92..

473 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص581 .

474 - جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، أعلام المغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت مج03.

475 - لم أعثر بالضبط على تاريخ ميلاده ووفاته

البعيدة، ولما توفي الشيخ داوود بن يوسف خلفه ابنه أبو بكر، بعدما اتفق مشايخ ميزاب على أن يتولى الابن مهمة أبيه.

ونال ابنه شرف الانضمام للجنة المحلية التي شكلت لدراسة الموقف من صالح باي قسنطينة لما أراد ضم ميزاب إلى ولايته سنة 1792⁴⁷⁶، فكان ذكر هذا الشيخ مقرونا بهذه الأحداث الكبيرة التي مرت بالمنطقة.

9. - يوسف بن حمو اليسجني (1745م-1836م)

كان الفقيه يوسف بن حمو ممن أدرك سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال، ورأى بأمر عينه ما وقع من تقتيل وإبادة وتهجير للسكان لذلك فقد انقطع للتأليف التاريخي، ومما كتب رسالة مخطوطة بعنوان "بيان التواريخ التي عملت بها في زماني" ونسخة الرسالة بمكتبة "آت يدر" ببني يسقن⁴⁷⁷، والرسالة تعج بذكر مختلف المصائب والنوازل التي حطت رحالها على منطقة ميزاب، والآفات التي هزت ربوعها، خلال الفترة الحديثة.

هذا وقد نوه المؤرخون الإباضيون بفقهائهم الذين كانوا في العهد العثماني معتبرين إياهم في مستوى الرسالة العلمية التي حملوها ولم يستسلموا للمغريات المختلفة التي واجهتهم فأثبتوا بجدارة أن المذهب الإباضي هو أصح المذاهب وهو مذهب الجماعة⁴⁷⁸.

ويمكن القول أن دور الفقهاء الإباضيين كان جسيما ومرتبطا في المساهمة في تحقيق نوع من الانسجام والتكامل بين المجموعة الإباضية والحكم التركي، وتقديم صورة فقهية ليسير على ضوئها المجتمع الإباضي، حيث اعتبر الفقهاء الميزابيون أن الدولة التركية في الجزائر تمثل قوة الإسلام وتحمل لواءه، وأن سلاطينها هم الخلفاء الذين يجب أن يسمع لهم ويطاع أمرهم⁴⁷⁹، فهم بذلك راضون عن الدولة مطيعون لها، وإن نعموا بعض الأحكام من بعض الأفراد والولاة أو الموظفين، فهم لا يطمعون منها في أكثر من ذلك لأنها دولة مستبدة وليست دولة الخلافة الرشيدة⁴⁸⁰.

المبحث الثالث: نماذج لفقهاء بارزين في العهد العثماني

476 - يوسف بن بكر، المرجع السابق، ص 81.

477 - يحيى بوراس، المرجع السابق، ص 28

478 - علي يحيى معمر، المرجع السابق، ص 339.

479 - المرجع نفسه، ص 339.

480 - المرجع نفسه، ص 339.

إن الحديث عن كل الفقهاء والعلماء الذين ظهوروا في إيالة الجزائر في العهد العثماني أمر في غاية الصعوبة والعسر، ويتطلب أعمالاً كثيرة لإحصائهم وإحصاء منجزاتهم وأفكارهم وفي هذا الصدد جمع الأستاذ نصر الدين سعيدوني في كتابه من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم نحو سبعين فقيه وعالم من ابن الصغير التيهري سنة 912 م إلى محمد الأعرج السليماني سنة 1925م، وعدّ منهم سبعة وعشرون عاصروا الفترة العثمانية بدء بالمغيلي سنة 1505 وانتهاء بحمدان خوجة سنة 1845م⁴⁸¹.

وقد اخترنا من بين هؤلاء الفقهاء نماذج بارزة من الفقهاء المؤثرين بمواقفهم السياسية واجتهاداتهم الفقهية المتنوعة خلال القرون الثلاثة التي سبقت احتلال الجزائر سنة 1830. والسمة البارزة التي تجمع هؤلاء هو عدم تولي أغلبهم منصب الفتوى الذي يربط الفقيه بالنظام السياسي، ويكبل حركته ويقلل من قدرته على المناورة، لقد كانوا فقهاء متحررين ومتنورين وسعى بعضهم إلى كسر النظام الثقافي والفكري الأحادي الذي تتمسك به وتحرص عليه النخب الدينية الطرقية من جهة والنخب السياسية من جهة ثانية، ومن أبرزهم:

1. - سعيد قدورة: نموذج التعاون مع السلطة⁴⁸²

ولد سعيد قدورة بقرية قدورة التونسية حوالي سنة 979 هـ. فهو تونسي الأصل ومدينة قدورة قريبة من جزيرة جربة على الساحل التونسي⁴⁸³، وكان يكنى بأبي عثمان و بأبي محمد، وانتقل إلى الجزائر ودرس على يد الشيخ محمد بن أبي القاسم المظمطي⁴⁸⁴، و سافر إلى الحج⁴⁸⁵ مع أبي علي أجهلول المجاجي⁴⁸⁶ و هو في سن المراهقة سنة 993 هـ، وكان أبوه خبازا بباب عزون بالجزائر، وقد

481 - ناصر الدين سعيدوني، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999،

482 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، المرجع السابق، ص 364.

483 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 94.

484 - محمد بن أبي القاسم المظمطي فقيه وعالم جزائري سافر معه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وهو لا يزال يافعا سنة 993 هـ، وكان المظمطي خطيبا وشارحا للحديث ومدرسا في الجامع الكبير بمدينة الجزائر فدرس عليه سعيد قدورة مختصر خليل و ابن الحاجب في الفقه و الفرائض و التوحيد.

485 - أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي ج 01 المرجع السابق، ص 364.

486 - أبي علي أجهلول المجاجي فقيه وعالم وصوفي وأحد شيوخ سعيد قدورة المفتي والفقيه موضوع الترجمة كانت له زاوية لتلقين الفقه واللغة والشعائر قرب مدينة تنس وكان أحد شيوخ سعيد قدورة البارزين وكان يسميه تلميذه ويصفه بالشيخ " العارف بالله "

درس قدورة بالرباط ثم عاد للجزائر وتقلد إمامة مسجد البلاط، ثم جامع سيدي رمضان وتولى الفتوى بعد عزل احمد زروق بن عمار سنة 1618م وعاصر مفتي الحنفية بن قرمان وطال في الفتوى أعواما وقد تعرض لمحنة المحاسبة على أوقاف الجامع الأعظم التي صرف منها على شراء كتب للجامع وترميم أماكن عديدة بوثائق صحيحة فخرج من المحنة منتصرا⁴⁸⁷.

وكان لسعيد قدورة أربعة نواب ينوبون عنه حين يتأخر عن الخطبة⁴⁸⁸ أو الصلوات منهم "بن راس العين" و"سيدي مزيان" و"سيدي محمد بن قراوش" وكان يتكلف بأجرهم من حسابه الخاص لا من حساب الأوقاف لأنه كان صاحب ثروة ومال⁴⁸⁹.

وكان سعيد قدورة قد ورث الإفتاء لأبنائه من بعده وصارت أسرته من أشهر الأسر التي تولت الإفتاء على مذهب مالك في مدينة الجزائر وتوارثته⁴⁹⁰.

ووصف سعيد قدورة بالعالم المتفنن الزاهد الورع الموصوف بالصلاح، تولى الفتوى بالجزائر فأحسن فيها، وصفه شاه ولي الله الدهلوي " بشيخ الإسلام وصدر الأئمة الأعلام"⁴⁹¹

وفي سنة (1012 هـ 1603م) تتلمذ قدورة على يد الشيخ "سعيد المقرئ" عم "أحمد المقرئ" صاحب "نفح الطيب" الذي بلغت شهرته في ذلك الوقت القاصي و الداني، وخاصة في ميدان العلوم العقلية، وأخذ عنه أيضا الحديث الشريف والأدب و التاريخ و البلاغة و البيان، و قد أجازته سعيد المقرئ بتلمسان، رفقة ابن أخيه أحمد المقرئ ونشأت بينهما صداقة و محبة و أخوة⁴⁹²، كما

وأنه ورث العلم وإدارة شؤون الزاوية لابنيه علي و محمد، الذين كانا شديدي الاعتناء بالعلم و فنونه كالتفسير و الحديث و الأصول و المنطق و البيان والفقه و التوحيد و غيرهما، كما يقول صاحب الترجمة" ويورد قدورة بكل أسف ما تعرض له محمد أحد أبناء الشيخ المجاجي من العامة الدهماء حيث يقول و بعد ثلاث سنوات من الدراسة في الزاوية أي سنة 1008 هـ ، يقع حادث مؤلم اثر أيضا تأثير في حياة مترجمنا إذ قام رجل نقم من فتوى لمحمد أبهلول يحرم فيها عليه الزواج من سيدة غاب زوجها ، فطعنه بخنجر ظل حيا بضع ساعات لفظ أنفاسه بعدها بين يدي تلميذه سعيد قدورة ، فتأثر كما قلنا من هذا الحادث ، فرثى شيخه بقصيدة اعتبره فيها شهيد العلم انظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ص366.

487 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص97.

488 - ابن المفتي، المصدر نفسه، ص97.

489 - ابن المفتي، المصدر نفسه، ص97.

490 - الفكون، المصدر السابق، ص 223

491 - صالح بن محمد الفلاحي، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، ج01، تح عامر حسن صبري، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، 1984، ص21.

492 - ذكر ذلك أحمد المقرئ في رحلته، انظر " الفصل الثالث من هذا البحث..

تتلمذ على يد الفقيه المصري الشيخ إبراهيم بن الحسن بن علي "اللقاني" المالكي (ت 1041 هـ 1631م⁴⁹³).

وانتقل "سعيد قدورة" إلى مدينة فاس ضمن وفد تلمسان من المهنيين لأحد ملوك المغرب الذي انتصر على غريمه بعدما تمرد عليه⁴⁹⁴ ومكث بمدينة فاس للاستزادة في طلب العلم سبع سنوات، ثم عاد إلى الجزائر.

وبعد عودته إلى الجزائر من رحلة العلم والسياسة التي قضها بالمغرب، عينه الفقيه الشيخ المظماطي نائبا له للتدريس بالجامع الكبير ووكيلا لأوقاف المسجد، وفي سنة (1028 هـ 1618م) عُين مفتيا للمالكية بمدينة الجزائر ومكث بالمنصب نحو 38 سنة حتى وفاته سنة (1066 هـ 1655م).

وكان لقدورة نشاطا كبيرا ودورا بارزا في تشجيع الحركة الثقافية والتعليم بمدينة الجزائر، فقد جدد مكتبة المسجد وزودها بمخطوطات قيمة وبنى زاوية قربهِ وشيّد مدرسة و مأوى للفقراء من الطلبة و الغرباء، ووفر لهم الإطعام والمأوى بلا مقابل، بفضل ما يملك من الخيرات والأموال، فقد كان قدورة رجلا غنيا واسع الأرزاق له تجارات كثيرة وأراضي شاسعة وقد استغل ماله الخاص في الإنفاق على سبل الخيرات المختلفة⁴⁹⁵.

و تصدر لتدريس الصحيحين "البخاري ومسلم" و"الموطأ" رواية ودراية في المسجد الجامع فالتفت حوله كثير من الطلبة ليتفقهوا على يديه و اشتهر بعلمه و فتاويه فأحبه الناس لجرأته في قول الحق، ونال عند الحكام الأتراك هبة كبيرة⁴⁹⁶. وقد بلغت مكانته منزلة أعلى من منزلة شيخ الإسلام المفتي الحنفي، مما كان له أثر بارز في ظهور التنافس بين الطرفين. وكان سعيد قدورة محظيا عند الباشاوات لدرجة أنهم كانوا يقفون له إجلالا ويقبلون يده، ويقدمونه على المفتي الحنفي (شيخ الإسلام) الذي كان يمثل المذهب الرسمي للدولة⁴⁹⁷...

493 - أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن علي اللقاني المالكي عالم مصر وإمامها وأحد الأعلام المشار لهم بسعة الاطلاع في علم الحديث والتبحر في بقية العلوم ومن مؤلفاته " قضاء الوطر في توضيح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر" و " إجمال الرسائل وبهجة المحافل في التعريف برواة الشمائل " و جزءا في مشيخته سماه " نشر المآثر فيمن أدرك من أهل القرن العاشر."

494 - الناصري أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج1 ص369،.

495 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 369.

496 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج01، ص 370 .

497 - أبو القاسم سعد الله. المرجع نفسه. ص ص 368... 371 -.

وسافر قدورة إلى اسطنبول والتقى بمفتيها الشيخ "سعيد أفندي" وذكر هذه السفارة "أحمد المانجلاتي" في قصيدة بعث بها إلى مفتي اسطنبول يعرفه فيها بمنزلة و مرتبة ومكانة "سعيد قدورة"، وخلف سعيد قدورة ابنه "محمد" بعد وفاة والده، وبقي فيها حتى وفاته هو أيضا سنة (1107هـ 1695م)، ثم خلفه أخوه أحمد في هذا المنصب ومكث فيه حتى سنة (1118 هـ 1706م). وترك سعيد قدورة قلة من التلاميذ منهم الفقيه المحدث "أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري" (ت 1080 هـ 1669م) الذي قال عنه "أبو سالم العياشي" في رحلته: "عكف في آخر أمره على سماع الحديث وإسماعه فجمع من الطرق العوالي والأسانيد الغريبة والفوائد العجيبة ما لم يجمع غيره وكتب الكثير وسمع وأسمع من المسانيد والمعاجم والأجزاء ما لم يتفق لغيره مثل ذلك ولا قريب منه لأهل عصره".⁴⁹⁸

ومنهم المحدث والفقيه "أبو زكرياء يحيى بن أبي عبد الله محمد النابلي الشاوي"⁴⁹⁹. (ت 1096 هـ 1685م)، والعلامة المغربي الفقيه والمحدث "محمد بن سليمان الفاسي الروداني" (ت 1094 هـ، 1683م) الذي جال في المغرب الأقصى والأوسط، ودخل مصر والشام والقسطنطينية والحجاز واستوطنه، وتولى النظر في شؤون الحرمين الشريفين فترة من الزمن، ثم انتقل إلى دمشق، وتوفي بها، وقد ترك كثيرا من المؤلفات منها الجمع بين الكتب الستة، في كتاب سماه "جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد"، وكتاب "صلة الخلف بموصول السلف". وقد ورد ذكر شيخه سعيد قدورة في كتاب الفهرست الذي ألفه بعنوان "صلة الخلف بموصول السلف"، وقال فيه: "شيخنا شيخ الإسلام و صدر أئمة الأنام أبي عثمان سعيد بن إبراهيم الجزائري الشهير بقدورة"⁵⁰⁰.

وأكد علماء الحديث أن لسعيد قدورة سندا⁵⁰¹ في رواية موطأ الإمام مالك رضي الله عنه، ذكرها أحد المحققين المعاصرين⁵⁰². وقد علق العلامة "صالح الفلاني" على هذا السند بقوله: "وفي

498 - العياشي عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية "ماء الموائد"، تح وتقا سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي، ليو طي 2006. ص 183.

499 - أبو زكرياء يحيى بن أبي عبد الله محمد النابلي الشاوي تمت ترجمته.

500 - عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشايخات والمسلسلات، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1986.

501 - السند في رواية الحديث معناه اتصال الفقيه سماعا ومشاهدة بفقيه سابق له أخذ منه رواية موطأ مالك وهذا الأخير أخذها عن فقيه سابق حتى تتصل الرواية بمالك بن أنس صاحب الموطأ وتشكل هذه السلسلة أصح رواية لأحاديث الرسول ص بعد صحيح بخاري وصحيح مسلم.

هذا السند مع علّوه لطائف اتصاله بالسماع، وكون رجاله كلهم مالكيون، وفقهاء، ومصنفين، وكونهم مغاربة⁵⁰³

توفي الفقيه سعيد قدورة في سنة (1066 هـ 1656 م) ، و كان موكب جنازته مهيبا حضره جمع كبير من العامة والعلماء والأعيان والمشايخ يتقدمهم أحمد باشا⁵⁰⁴ حاكم الجزائر. ودُفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري⁵⁰⁵.

لقد شكل سعيد قدورة نموذج الفقيه العارف بخبايا الأشياء والمدرك لسنن التغيير وشروط النهضة حيث نذر نفسه لنشر العلم والمعرفة بما بذله من جهد ومن خطب و تأليف نافعة، وتشجيع للطلبة بالبذل والسخاء، وفي مقابل ذلك لم يكن من الفقهاء الذين غفلوا عن دور الحكام والمسؤولين في ترشيد حكمهم والتزام الحق والعدل والإنصاف بين الرعية، فكان دائم الاتصال ببشوات الجزائر ناصحا ومسددا في وقار وعزّ قلما يتحقق لفقيه آخر.

2.- أحمد المقرئ / الفقيه النائي عن دار السلطان⁵⁰⁶ (1041هـ - 1632م)

ولد الفقيه أحمد بن محمد أبو العباس المقرئ التلمساني سنة 986 هـ 1578 م بتلمسان⁵⁰⁷ ونشأ بها وحفظ القرآن، ودعي بالمقرئ نسبة لقرية مقرة الواقعة بنواحي المسيلة بالمغرب الأوسط على ما ذهب إليه أغلب المترجمين الذين تناولوا حياته⁵⁰⁸.

تعلم المقرئ بادئ ذي بدء على يد عمه الشيخ أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان، فقرأ عليه صحيح البخاري وغيره من أمهات التأليف، ثم تتلمذ على يد الشيخ علي بن يحيى الجديري ت1565، العلامة الفقيه والمحقق الأصولي ذا الدراية بعلوم الفرائض والحساب وعلم الكلام والفقه والأدب.

502 - انظر نص السند في الملحق رقم 15 .

503 - عبد الرحمن بن سعد الدوسري، إتحاف المريد بعالي الأسانيد، ط02، مراجعة وتحقيق بدر بن علي بن طامي العتيبي، موقع أهل الحديث.

504 - حكم حاج أحمد باشا من سنة 1656 إلى سنة 1657 خلفه إبراهيم باشا.

505 - نور الدين عبد القادر. المرجع السابق ص.191

506 - تم ضبط تاريخ الميلاد والوفاة من خلال: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص144.

507 - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت، الجزائر، دت ص 238.

508 - احمد يعقوبي، كتاب البلدان، تح هنري بيريس، المطبعة الرسمية، الجزائر، 1960، ص13.

وبانت على المقري منذ الوهلة الأولى جودة القرينة وصفاء الذهن وقوة البديهة، فانتقل إلى فاس مرتين وتعلم فيها على يد الشيخ أحمد بابا التنبكتي⁵⁰⁹. والتقى بملكها أحمد المنصور الذهبي، وصار مفتيا بحضرتها.

ولما اختلت أحوال المملكة بسبب صراع أولاد المنصور على السلطة ارتحل نحو الحجاز سنة 1027هـ - 1617م حاجا بيت الله الحرام، ثم زار بيت المقدس، ثم عرج على القاهرة وظل يتنقل بين مصر والشام والحجاز وزار إقليم "غزة" وأقام عند أحد طلبته الغزاويين يدعى "عبد القادر ابن الشيخ الغصين"⁵¹⁰. وبالقاهرة اشتد به وضعه المادي وساء شح أهلها فأنشأ يقول مداعبا⁵¹¹:

يا أهل مصر وجدت أيديكم في بذلها بالسخاء منقبضة
لما عدمت القرى بأرضكم أكلت كتبتي كأني أروضة⁵¹²

وكانت للمقري مكانة مرموقة في المغرب ومصر والشام وحيثما حل تعلقت به جماهير الناس لحسن عرضه للدين وقوة حجته وبلاغته، ففي المغرب لما علم الناس بخبر رحيله اهتز الجميع حزنا عليه، وقال فيه "أحمد بن محمد الغنيمي": "كم ترك الأول للآخر واعني به مولانا وسيدنا حافظ العصر ونادرة الدهر العلامة الفهامة الشيخ محمد المقري المالكي"
ونال المقري الكثير من المدح وحسن الإطراء وليس ذاك إلا لعلمه وفقهه ومكانته وتواضعه، قال فيه أحد الشعراء:

إذا رمت أن تلقى نظيرا لمثله عجزت ورب الناس عن عد واحد⁵¹³

ومدحه أحد الشعراء بقصيدة - ذكرها الجيلالي - ضمن الرسالة التي بعث بها عبد الكريم الفكون للمقري سنة 1038 هـ، لما رأى من فضله وعلمه بقوله:

509 - أحمد بابا التنبكتي (ت. 1036 هـ / 1627 م). هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني، فقيه وعالم ومحقق ولقب بالتنبكتي نسبة إلى مدينة تنبكتو ولد سنة 963 هـ وتوفي سنة 1036 هـ وبرز آثاره: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» و«معراج الصعود».

510 - خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط07، دار العلم للملايين بيروت، 1986، ص203..

511 - ينسب بعضهم هذه الأبيات لابن الحاجب الفقيه المالكي. انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص45.

512 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر 1907. ص46.

513 - محمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، 319.

يَا نُحْبَةُ الدَّهْرِ فِي الدَّرَايَةِ

عَلَّمَا تُعَاصِدُهُ الرِّوَايَةُ

لَا زِلْتَ بَحْرًا بِكُلِّ فَنِيْرَوِي

بِهِ الطَّالِبُونَ غَايَةَ

لَقَدْ تَصَدَّرْتَ فِي الْمَعَالِي

كَمَا تَعَالَيْتَ فِي الْعِنَايَةِ

مِنْ فِيكَ تُسْتَنْظَمُ الْمَعَانِي

بَلَغْتَ فِي حُسْنِهَا النَّهَائِيَةَ

رَفَاكَ مَوْلَايَ كُلَّ مَرْقَى

تَحْوِي بِهِ الْقُرْبَ وَالْوَلَايَةَ

أَعْجُوبَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ

فِي الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ وَالْهِدَايَةِ

يَا أَحْمَدُ الْمَقْرِي دَامَتْ

بُشْرَاكَ تَصَحُّبُهَا الرِّعَايَةُ

صَلَاةُ رَبِّي عَلَيْهِ تَتَرَى نُكْفَى بِهَا الشَّرُّ وَالْغَوَايَةُ⁵¹⁴

وكان للمقري جولات ومساجلات فكرية وفقهية وقعت بينه وبين علماء الشام، حول مختلف القضايا منها ظاهرة قراءة القرآن على قبور الأولياء والصالحين⁵¹⁵ والتي كان لا يستحسنها بعدما انحرف الناس عن جادة الصواب، وصار القرآن مطية للضعفاء والسوقة من الناس، اغتنمه بعضهم ليدر عليه الربح الوفير عند أبواب المقابر وفي الجنائز.

ورغم ذلك فقد كان المقري نفسه من الفقهاء شديدي الميل للاعتقاد بالولاية الدينية وفق المنظور السائد آنذاك، والملتبس بمسائل الكرامات والتجليات التي كان يروج لها صنف من العاملين في الحقل الديني، فكان شديد التأثر بالإشاعات، وقد ذكر المؤرخ المغربي السلاوي قصة "الحجر الأسود" الذي وجدته إحدى النساء بمملكة المغرب، ومكتوب عليه عبارة "لا اله الا الله محمد رسول الله" وذاع صيت الحجر حتى بلغ الآفاق، وطلبه الوجهاء والعلماء والنبلاء بالغالي والنفيس ليكون لهم سنداً في الحياة على حد زعمهم، وحاول المقري نفسه شراءه من عند المرأة بوزنه ذهباً لكنها أبت، وكان النساء يأخذنه ليتيسر لهن وضع مواليدهن ببركة ما فيه من القوة والمنعة⁵¹⁶.

وقد كان المقري مولعاً بزيارة قبور الأولياء والصالحين، فمن أسباب رحلته إلى المغرب كما يقول عن نفسه، التماس إجابة الدعاء عندهم أي عند أضرحة الأولياء. يقول المقري "وقبر أبي العباس

514 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص 153.

515- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ص ص 50.56.

516 - السلاوي، المصدر السابق، ج06، ص 173.

الخزرجي مقصود بإجابة الدعاء وقد زرته مرارا فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف وهو تريقا
مجرب؟؟"517

ويقول مبرز شغفه بزيارة الأولياء والصالحين في أرجوزة :

فزرت الشيخ الشاذلي القطبا نجل مشيش فأزاح الخطبا
وكننت عند قبره رأيت ما يقتضي بلوغ ما نويت
نفعنا الله بأوليائه أهل المقامات وأصفياه⁵¹⁸

أما عن علاقة المقرئ بعالم السياسة ودواليب الحكم، فلم يكن الرجل يحب السياسة والرياسة
وكان زاهدا فيهما، فلم يذكر أنه كان له مع السلطان فلان ولا الباشا فلان اتصالات، مثل ما كان
لبعض معاصريه كابن الخطيب وابن خلدون⁵¹⁹. بالرغم من أن عمه سعيد المقرئ قد مكث يخدم
العثمانيين فترة تزيد عن أربعين سنة في خطة الفتوى بمدينة تلمسان....⁵²⁰
ومما زهد المقرئ في السياسة مأساة ابن الخطيب⁵²¹ التي أثرت فيه كثيرا وكتب قصيدة شعرية
يذم فيها السلطة والسياسة والدنيا وما تنطوي عليه من فتن وبهارج⁵²².

517 - محمد بن عبد الكريم، المقرئ... المرجع السابق، ص 137.

518 - محمد بن عبد الكريم، المرجع نفسه، ص 191.

519 - ولد ابن خلدون بتونس سنة 1322 وعاش خلال القرن 12 الميلادي وهو عصر الضعف والتحلل وبوادر انتقال الحضارة والنهضة إلى بلاد الغرب، والحروب بين الأشقاء والأمراء وحدث الثورات والانتفاضات هنا وهناك، والجهل والبدع والخرافات التي أطبقت على عقول الناس وضعف النخب المفكرة، عاش ابن خلدون ثلاثة مراحل: النشأة وطلب العلم، الاستوزار وتقلد المسؤولية، وأخيرا العزلة والتفرغ للتأليف، تنقل كثيرا بين عواصم المغرب الإسلامي، وكابد الحزن والمؤامرات، حتى توفي سنة 1406. انظر: خليل شرف الدين، ابن خلدون، دار مكتبة الهلال، بيروت 1985 ص.ص 23-40.

520 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجائر الثقافي، ج 01، المرجع السابق، ص.ص 383. 384.

521 - ابن الخطيب هو محمد بن عبد الله فقيه مالكي وكاتب ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي أندلسي ولد سنة 1313م، نشأ في أسرة عرفت بالعلم والرياسة عاش بن الخطيب حياة حافلة بالأحداث والتغيرات السياسية التي شهدتها الأندلس في مرحلة الضعف فعمل أمين سر للوزير أبي الحسن بن الجيَّاب. ثم تولى منصب الوزارة، وكان ابن الخطيب شغوبا بالمناصب التي تقلدها للتخلص من خصومه ثم هاجر الأندلس بعدما انتقم منه خصومه واتهموه بالزندقة وأحرقت كتبه وفي سنة 773 هـ توجه إلى تلمسان ثم فاس. وفي سنة 774 هـ كان أمير غرناطة ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام منه فبعث وزيره ليعيد المتهم، فقام سلطان المغرب بعقد مجلس علمي مناقشة آراء ابن الخطيب لكن حاشيته أمير غرناطة دخلوا عليه إقامته في فاس وقتلوه خنقا سنة 776 هـ/ 1374م ترك ابن الخطيب عدة مؤلفات أهمها: "الإحاطة في أخبار غرناطة".

522 - محمد بن عبد الكريم، المقرئ وكتابه نفح الطيب، المرجع السابق، ص 159.

وقد عانى بمصر بعد عز ومكانة ذلا وهوانا، بسبب حساده ومن أكتوى بنار الغيرة من علماء البلد، فقلّ ناصروه وكثر منتقدوه ومن يضمرون له الكره والغلّ، وقد فسر "أحمد الخفاجي" أحد الأدباء المعاصرين للمقري، الوضع الذي آل إليه هذا الأخير، فيقول في كتابه "ريحانة الألبا": "ولما رأى المقري ما بمصر من الحسد والنفاق وتجارة الأدب ليس لها بسوقها إنفاق ولم يرض بالكساد ومسابقة الحمير للجواد ارتحل إلى الشام ذات العماد"⁵²³ وبهذه المناسبة قال البيتين الشعريين السابقين الذكر، فضلا عن هذه الأبيات التي تصور ألمه وغرته في مصر التي لم يجد بها الاطمئنان وراحة البال منها قوله:

ولي عزم كحد السيف ماض ولكن الليالي من خصومي
وقوله:

تركت رسوم عزى في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم
ونفسي عفتها بالذل فيها وقلت لها عن العلياء صومي⁵²⁴

ومن خلال قراءة بسيطة للبيت الثاني نستشف أن المقري قد بلغ منزلة من اليأس والضعف حتى أنه يقيّد نفسه ويدعوها للكف عن العمل والعطاء ما دام هذا الجهد لا طائل من ورائه بل قد يسبب للمقري عنتا وعبئا جديدا هو في غنى عنه، وهو ما يدفع للتساؤل عن أسباب هذا الوضع الحرج الذي آل إليه مترجمنا في مصر، هل كان بسبب فقدانه زوجته وغرته مثلما ذكر أبو القاسم سعد الله، أم أن هناك أمورا أخرى غير معروفة وراء ذلك؟؟ .

توفي المقري سنة 1041هـ، 1632م بعد حياة حافلة وشاقة ظل خلالها يعاني الهجران والتضييق، ودفن بالقاهرة بمقبرة المجاورين على قول أغلب المترجمين، لكن "اليفراني" و"محمد بن عبد الرحمن بن زكريا الفاسي" رجحا وفاته بدمشق⁵²⁵، خلافا "للمختار بن الأعمش" الذي ذهب في تحديد وفاته بالحرم الشريف بمكة المكرمة.

3.- عبد الكريم الفكون / بين الفقه و التصوف(ت) : 1073هـ-1663م

523 - محمد بن عبد الكريم، المرجع نفسه، ص233.

524 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج02، المرجع السابق، ص 227.

525 - عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ص 14.

ينتمي عبد الكريم الفكون لبيت علمي مشهور في مدينة قسنطينة ويرجع نسب الأسرة إلى قبيلة تميم العربية كما يرى بعض الكتاب⁵²⁶، ويرى مارسويه أن أسرة لفكون لم يكن لها ذكر في عهد ما قبل ظهور الأتراك، فقد تحصلت أسرة " أولاد عبد المؤمن" على لقب شيخ الإسلام في مقاطعة قسنطينة من طرف الحفصيين، وكان بيد بعض أفرادها في هذه الفترة "إمارة الركب"، وعندما خضعت قسنطينة للحكم التركي والذي يرجحه فايسيت⁵²⁷ سنة 1534، بدأ شان الأسرة في البروز.

وكان لرفض أسرة عبد المؤمن مد يد المساعدة للأتراك سببا في إبعادها عن مسرح الزعامة الذي شغلته أسرة "آل الفقون" ومن أجل ذلك ربط هؤلاء أنفسهم بالنسب الشريف، رغم أن بعض الباحثين يؤكدون أنهم لا ينحدرون من دوحة النبي وإنما ينتمون لقبيلة فقونة بالأوراس كما ذكرنا ذلك في الفصل التمهيدي من هذا البحث⁵²⁸. وفي العهود الأخيرة صارت العائلة الفكونية تعرف بعائلة سيدي الشيخ، ولا ندري متى بدأت تتلقب بهذا الاسم؟

واشتهرت عائلة الفكون بكثرة الأموال و الأملاك الواسعة المتنوعة من أراضي وعقارات، وزاد نفوذها بعدما أسند إليها رئاسة ركب الحج الجزائري أو الركب الحجازي في بداية العهد العثماني،

ويعد عبد الكريم الفكون (الجد) (ت 988 هـ 1580م) أول من تولى وظيفة الإمامة و الخطابة والفتوى من عائلة الفكون بالجامع الكبير بقسنطينة خلال العهد العثماني بعد سنة 975 هـ 1567م. و قد ترجم له حفيده عبد الكريم الفكون في " منشور الهداية " فقال عنه : " كان منشغلا بما يعنيه ديننا و دنيا معتكفا على الإقراء و التدريس"، و كان إماما بالجامع الأعظم و خطيب فيه، و إليه يرجع القول في نوازل الأحكام و كانت الولاية الدينية في المدينة بيده، وأرسله سكان المدينة

526 - يرى عبد القادر الراشدي (ت 1194 هـ 1780م) الفقيه والمفتي الحنفي بقسنطينة في القرن الثاني عشر هجري، أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أن هذه النسبة غير صحيحة، ويذكر في آخر صفحة من كتابه " عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس" أن نسب الأسرة ينتهي إلى "فكونة" يقول الراشدي : " وأولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتانة و أولاد المسيح من بني مرداس بن عوف السلمي و أولاد الخيتمي من ختيمة قرية بأوراس، وأولاد الفقون من فكونة قرية بأوراس أيضا، و لم يتحر نسبهم كمن قبلهم ".

à- Eugène Vayssettes , **histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517** 527

1837 , Editions Bouchène , Paris , 2002.

Ernest Mercier : « Constantine au 16ème siècle , Elévation de la famille El Feggoun » , -528

in **R.S.A.C** , 1878 , p 218 .

ضمن الوفد المفاوض مع الباشا محمد بن صالح رايس رفقة المفتي المالكي عبد اللطيف المصباح⁵²⁹.

أخذ الفكون الفقه والعلم عن سليمان القشي⁵³⁰، الذي قال عنه في كتابه منشور الهداية: "ومن أشياخنا في البداية الشيخ البركة أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي نسباً" ويذكر الفكون أن القشي أصله من بلدة نقاوس رحل إلى مصر وقصد الجامع الأزهر فقرأ على شيخ عصره العلامة أبو النجاة سالم السنهوري، المختصر والرسالة وألفية المرادي وألفية العراقي، وأقام بها مدة ثم رجع إلى قسنطينة... و قد انتفع به خلق كبير كما يقول مترجمنا عن شيخه لوضوح عباراته واتساع معارفه فلا تجد المبتدئ يقرأ إلا إليه لبساطة كلامه و حسن نيته، ثم يقول: "وقد قرأت عليه أوائل الرسالة"⁵³¹ وحضرت باقيها، وقرأت شرح الصغرى والقطر، لابن هشام النحوي وغيرها"⁵³².

وقرأ الحساب و بعض الفرائض⁵³³، على الشيخ عبد العزيز النفاتي وأبو عبد الله محمد الفاسي المغربي الذي قرأ عليه علم الاضطراب⁵³⁴ و بعض الفرائض. كما قرأ أيضا على الشيخ محمد التواتي المغربي الذي ترجم له في "منشور الهداية" فقال عنه: "وممن لقيناه وقرأنا عليه الشيخ الأستاذ النحرير النحوي، آخر المتكلمين، لسان حجة المسلمين، أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي قرأت عليه المرادي، سنة إحدى و ثلاثين و ألف مرارا، و عقائد السنوسي الكبرى و الوسطى و الصغرى بشراحها، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه، والتذكرة

529 - يحي بوعزيز، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاؤهم على أوطانها، دار البصائر، الجزائر، 2008، ص 31..

530 - سليمان بن أحمد القشي (ت 1611م) نسباً النقاوسي أصلاً عالم من فقهاء المالكية ولد في نقاوس وسكن قسنطينة وتعلم بها ثم رحل إلى مصر فأخذ عن علماء الأزهر وعاد إلى قسنطينة مدرسا ومفتيا بها انظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص 60.

531 - "الرسالة" يقصد بها رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه، و"الصغرى" عقائد السنوسي الصغرى.

532 - الفكون، المصدر السابق، ص 60.

533 - علم الحساب والفرائض من العلوم التي كانت تدرس في الفترة العثمانية وكان الهدف منها ضبط أوقات الصلاة وحساب مطالع الأشهر القمرية وحساب الموارث وتوزيع التركات.

534 - جهاز الإسطرلاب جهاز فلكي يستعمل في ضبط منازل القمر والحركة الظاهرية للشمس ويساعد في تحديد المواقيت الشرعية ومطالع الشهور القمرية. ويدرس من طرف الفقهاء لتمكينهم من تسيير شؤون المسلمين التعبدية وضبط تواريخ الشعائر ومواقيت الصلاة والحج والشهور القمرية والتجهز للفتاوى المختلفة المتعلقة بالموضوع.

للقرطبي، و كتاب مسلم بن الحجاج المسمى إكمال الإكمال في شرح صحيح مسلم⁵³⁵.

كان الفكون محبا للمطالعة و تثقيف نفسه، يعتكف على القراءة في مكتبة العائلة الزاخرة بأمّهات الكتب والمخطوطات⁵³⁶، التي جمعها شيوخ العائلة خلال عقود من الزمن. وتولى التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، كما درّس في زاوية العائلة و في مصلّى بيته، وكان الطلبة يأتونه من قسنطينة و من زواوة و الجزائر والزيان و عنابة. يعيش متواضعا في غاية الانقباض والانزواء عن الناس خشية على نفسه ومجانبة لأهل الزيف والجهل⁵³⁷.

وكان يُدرّسُ التفسير و صحيح البخاري و الفقه من ابن حاجب و الرسالة، و بعد وفاة أبيه عام 1045 هـ 1635م خلفه في إمامة المصلين و الخطبة أيام الجمع و الأعياد، كما واصل العناية والسهر على أوقاف الجامع الكبير، وتقلد إمارة ركب الحج، التي مكنته من الحصول على لقب شيخ الإسلام بعد أن بلغ نفوذه العلمي و الروحي ذروته.

وشارك عبد الكريم الفكون في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة. وساهم في الحياة الثقافية ببايلك الشرق، وكان له صيت ذائع في ربوع إيالة الجزائر كلها، دعا إلى تحرير التفكير ونبذ التقليد والجمود، ورغم أنه كان سلفي المنهج وصوفي السلوك، فقد دعا إلى نبذ المعتقدات الزائفة والباطلة التي انتشرت في زمانه على يد المشعوذين وأدعياء العلم والولاية فألف فيهم كتابه المشهور⁵³⁸، وكان يقول فيهم: "عقول سخيصة تتوسم في مثل هؤلاء الولاية وتنسبهم إلى أهل العناية"⁵³⁹.

535 - الفكون، المصدر السابق، ص 55

536 - بعض المؤلفات التي عثر عليها الفرنسيون في قسنطينة في مكتبة سيد حمودة بلفقون تاريخ السلالة العثمانية، الرحلة الخليجية، تاريخ ابن خلكان، تاريخ اسبانيا للمقري، تاريخ بيت المقدس، سراج الملوك الطرطوشي، رحلة العبدري، حسن المحاضرة للسيوطي، جغرافية ابن الوردي، تراجم الذهبي، فتوح الشام للواقدي، مشوار الهداية في رجال بجاية، إزهار الرياض للقاضي عياض، تاريخ بني زيان نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، صلافة العصر في محاسن أهل العصر، انظر

William Mac Guckin de Slane, **Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique** ; suivi du Catalogue des manuscrits arabes les plus importants de la bibliothèque d'Alger et de la bibliothèque de Cid-hammouda à Constantine, ..1845/

537 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 4 المرجع السابق، ص 150

538 - الفكون، المصدر السابق، ص 223.

539 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص 148.

وكانت له مراسلات و علاقات مع نظرائه من الفقهاء في زمانه، كسعيد قدورة مفتي الجزائر في وقته، و مع "بلغيث القشاش" و "تاج العارفين" العثماني، و "إبراهيم الغرياني" و المقرري صاحب "نفح الطيب"، و "عبد الرحمن الأجهوري" مفتي مصر الحنفي، و "السوسي المغربي"، وغيرهم. وكان يرى أن القدرة على المنافسة والجدال نعمة من النعم التي يمنحها الله لمن يشاء من عباده لإظهار الحق وإبطال دعاوى أهل الزيف.

وتخرج على يديه مجموعة كبيرة من الطلاب منهم أبو مهدي عيسى الثعالبي⁵⁴⁰، أبو سالم العياشي المغربي، يحيى الشاوي الجزائري، بركات بن باديس⁵⁴¹، أحمد بن سيدي عمار، محمد وارث الهاروني، محمد البهلولي، وغيرهم.

وتحدث عنه علماء عصره وأبرزوا خصاله منهم المقرري الذي قال فيه: "عالم قسنطينة و صالحها و كبيرها و مفتيها سلالة العلماء الأكابر و وارث المجد كابرأ عن كابر، المؤلف سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله عالم المغرب الأوسط غير مدافع، و له سلف علماء ذوو شهرة ، و لهم في الأدب الباع المديد".

ثم قال: "وهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلاله، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفكون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف".

ثم مدحه شعرا فقال:

ودام عبد الكريم فردا في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز فضل سبق وصار في الزمان آية

540 - تقدمت ترجمته في الفصل التمهيدي.

541 - الشيخ المفتي بركات بن باديس ينتمي لأسرة عريقة في العلم والفقهاء عاشت بقسنطينة في العهد العثماني وقد أنجبت هذه الأسرة عدة شخصيات من بينها: "أبو العباس أحمد بن باديس" (ت 969 هـ/1561م) قاضي قسنطينة حسن الأداء وعدل، قال عنه شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون "هو من بيوتات قسنطينة وأشرفها ومن وصلت إليه الرئاسة والقضاء والإمامة بجامع قصبته، وخلف سلف صالحين علماء حازوا قصب سبق في الدراية والمعرفة والولاية، وناهيك بهم من دار صلاح وعلم وعمل"، وقال عنه فايسيت في كتابه "تاريخ قسنطينة تحت حكم البايات" هو من عائلة عريقة تقدم أفرادها في سلك القضاء والوظائف الدينية والسياسية، ويقال أنه في وقت من الأوقات كان أربعون من أفراد هذه الأسرة يشغلون في وقت واحد، أهم المناصب العليا في مدينة قسنطينة. انظر: أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص62.

ورغم ذلك فقد كان ابن الفكون على عداوة وخصومة مع المقرئ، ويصفه بالنفاق ويعتبر رده عليه نوعاً من القوة حتى لا يظن الناس به الضعف⁵⁴²، وفي أواخر أيامه انغزل عبد الكريم الفكون عن الناس وترك الانشغال بالعلوم، وسمع يقول: "قرأتها لله وتركها لله"، وتوفي بوباء الطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة 1073 هـ الموافق ل 3 أوت 1663 م وقيل سنة 1664م عن عمر يناهز خمس وثمانين سنة. تاركا خلفه العديد من الكتب والمؤلفات منها، "محدد السنان في نحر إخوان الدخان"⁵⁴³ رد فيه على من ادعى بحلية شرب الدخان ومنهم خاصة الفقيه والعالم المصري الأجهوري⁵⁴⁴. وله "شفاء الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض" وهو نظم صوفي قاله في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه و التابعين و الأولياء. و"منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية"، ويعد من أفضل ما كتب الفكون حيث عده الفقهاء والمؤرخون مؤلفاً ذا قيمة كبيرة ووثيقة تاريخية ترجمت لأكثر من سبعين شخصية ما كان لنا أن نطلع على أحوالها لولا منشور الهداية، كما أنه أرخ لمدينة قسنطينة والأحداث التي عاصرها ونصب محكمة علمية وفقهية للكثير من العلماء والفقهاء الذين عاصروه أو سمع بهم وصنفهم إلى حكام سلطان وجاه يبيعون دينهم بدنيا غيرهم، وفقهاء متنورين وعد أنفسهم من ضمنهم وأشار إلى طائفة ثالثة من أدعياء التصوف والخرافة، والمبتدعة الذين اكتظت بهم البلاد فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

وللفكون قصيدة مشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش⁵⁴⁵، كتب بها إلى أبي البدر بن فردقيس تحدد معالم المدن والحوضر التي يتشكل منها القطر الجزائري أو المغرب الأوسط :

وَجِئْتُ بِجَايَةٍ فَجَلْتُ بَدْوً يَضِيقُ بِوَصْفِهَا حَرْفُ الرَّوْيِ
وَفِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ هَامَ قَلْبِي بِمَعْسُولِ الْمَرَاشِفِ كَوْثَرِي
وَفِي مَلْيَانَةٍ قَدْ ذُبْتُ شَوْقًا بِلَيْنِ الْعُطْفِ وَالْقَلْبِ الْقَسِي
وَفِي تُنْسٍ نَسِيتُ جَمِيلَ صَبْرِي وَهَمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهِ رَضِي

542 - الفكون، المصدر السابق، ص13.

543 - كتاب تحريم الدخان ويسمى أيضا " بمحدد السنان" عبارة عن رسالة كتبها الشيخ الفكون يرد فيها على دعاة إبادة شرب الدخان "التبغ"، خاصة الشيخ الأجهوري وساق الفكون جملة من المسائل الفقهية التي عالج بها الموضوع بالحجج و البرهان، للمزيد انظر تفصيل الموضوع في عنصر شرب الدخان في الفصل الثالث من هذا البحث.

544 - العالم المصري الأجهوري فقيه مصري مشهور حنفي المذهب له عدة اجتهادات منها قوله بجواز شرب الدخان.

545 - هي قصيدة تشبه رحلة أحد المطربين المعاصرين على بساط الريح متغنيا بمدن الجزائر وقراها وطاف من خلالها حول أغلبها في السبعينيات من القرن الماضي.

وَفِي مَازُونَةٍ مَا زِلْتُ صَبًّا بَوَسْنَانِ الْمَحَاجِرِ لَوْدَعِي
وَفِي وَهْرَانَ قَدْ أَمْسَيْتُ رَهْنًا لِطَّامِي الْخَصْرِ ذِي رَذْفٍ رَوِي
وَأَبْدَتُ لِي تَلَمَّسَانِ بُدُورًا جَلَبَنَ الشَّقَّوَقَ لِلْقَلْبِ الْخَلِي⁵⁴⁶

ومن خلال كتاب "منشور الهداية"⁵⁴⁷ يمكن القول أن الفكون كان يعيش في ضيق من واقع العلماء والفقهاء، ناقما على معظمهم خاصة علماء السلطان، الذين يحسنون التزلف عند الحكام ففوتوا الفرصة على علماء الحق في تقديم النصيح للحكام وفي إرشادهم سواء السبيل، لذلك فكان الشيخ الفكون لا يفوت فرصة في معرض الحديث عنهم إلا وصبّ عليهم جام غضبه، وألحق بهم الدعاء بالثبور والخسران، فيقول في أحد الفصول: "لله درهم ما أنصفهم وما أعرفهم بالفضل لأهله إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه فأين ذاك من زمن لا يعرفون منكرا وإن عرفوه لا ينكرونه بل يدبون على المواظبة عليه وإن وجدوا مآثر حسنة لأهلها لم يألوا جهدا في إطماسها وإخمادها وإن قدر الله بإظهارها عنفوا ناقلها واستهزؤوا به وردوها عليه من كل وجه وربما أولوها على مقتضى تأويلاتهم الفاسدة وأخرجوها عن قلبها إلى قوالب ما طبعوا عليه من الحرمان لا جمع الله شملهم ولا أكثر في الدنيا مثلهم وما أنصف قصيدي المنبئة بأوصافهم فيهم وضماناها تأليفنا "محدد السنان في إخوان الدخان" مع الإشارة إلى بعض ما هم عليه من الأوصاف القبيحة فمن أراد فليطالع⁵⁴⁸ لكنه في المقابل لا يذكر لنا حادثة وقعت له بنفسه يكون من خلالها قد قام بتقديم نصيحة لأحد الحكام أو البايات المعاصرين له.

وقد غلب على تأليفه طابع السجع والإطناب والحشو في الكلام والإكثار من الأوصاف والمرادفات وهي سمة بارزة لذلك العصر، ولم يستطع الفكون التخلص من إرث عائلته⁵⁴⁹ ومكانتها التي حققتها في الماضي في كتاباته، حيث جعل نفسه وعائلته مقياسا للخير والشر، وكان يجب إخضاع خصومه ودفعهم للاعتراف به كزعيم روحي وعالم وحيد زمانه في تلك الفترة.

546 - القصيدة منقولة من موقع رابط الموضوع: <http://www.alukah.net/culture>

547 - في مقال تاريخي بعنوان "دراسة ووصف منقوشة تاريخية عربية في قسنطينة" وفي معرض حديثه عن بعض أسر قسنطينة يذكر الباحث الفرنسي "أو بيقوني" أن عنوان كتاب ابن الفكون هو "منشور الدراية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" وليس منشور الهداية.... انظر:

E Bigonet, une Inscription Arabe de Constantine, in RA; n°47, 1903, p307.

548- الفكون، المصدر السابق، ص227.

549 - الفكون، المصدر نفسه، ص36

و"منشور الهداية" مليء بالكرامات والأحاديث الصوفية التي كان يؤمن بها الفكون ويؤمن بالذين يرى فيهم البركة والصلاح، وكثيرا ما كان يصدق بكرامات كانت تحكيها له جدته عن جده وصدق رؤياه في المنام للنبي عليه السلام في الجنة وأن اسمه عبد الكريم⁵⁵⁰.

وكان رأيته معتدلا عموما في مسألة الإيمان بالخوارق وشروط تحققها عند الولي الصالح، حيث يقول: "ومن رأيتموه مؤمنا مقيما بإيمانه بعيدا عن الشبهات مقيما على الجادة قولا وفعلا واعتقادا مجانباً للحرام وتاركا للشبهات مباعداً للصوف ومخالطتهم فان ظهرت عليه ظواهر الخوارق فامنوا به وسلموا له ومن خالف هذه الأوصاف فالزندقة أقرب إليه من الإسلام"⁵⁵¹، لكنه كان يخلط بين علم التصوف كظاهرة سلوكية فردية وعلم الفقه الذي يكتسب من البحث والدراسة، وكان كثير التأثير ببعض شيوخه الصوفيين روى عنهم قصصا لا تمت للواقع المعقول بشيء ولا ينبغي عليها عمل واجتهاد، كروايته حول الشيخ الوزان أبو حفص⁵⁵²، حيث يقول: "وكان عالما بارعا متفنا واسمه بالكامل أبو حفص عمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني ذكره صاحب نيل الابتهاج بقوله: "انه كان من عباد الله الصالحين"⁵⁵³

وقد أحاط الفكون شيخه الوزان بمالة من التقديس والكرامة حيث يذكر أنه في مرة من المرات خرج من بين يديه شخص في الجامع فقال له "يا عمر عليك بالأحاديث النبوية تنورك ظاهرا وباطنا" فترك الشيخ التصوف واشتغل بالأحاديث فحفظ البخاري بأسانيده إلى أن مات. ويعتقد الفكون أن الرجل الذي خرج عليه هو الخضر عليه السلام⁵⁵⁴.

ويذكر مرة أخرى أنه خرج في يوم شديد الحر على باب البلد فاتبعه رجل من الطلبة يقفوا أثره وما يعلم به الشيخ، فخرج عليه رجل وتكلم معه مليا ثم انصرف، فلحق الطالب بالشيخ وسأله عنه، فقال له: "أرأيت؟" فقال له "نعم"، فقال له: "هو القطب"⁵⁵⁵.

550- الفكون، المصدر نفسه، ص36.

551- الفكون، المصدر نفسه، ص36.

552 - الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الكماد، فقيه وعالم صوفي شارك في مختلف العلوم النقلية والعقلية ذكره التنبكي صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وله العديد من المؤلفات والشروح والتعليق على أمهات كتب العقيدة والفرائض. انظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص106.

553 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص352.

554 - الفكون، المصدر السابق، ص36.

555- الفكون، المصدر السابق، ص36.

وأما علاقته بدواليب السلطة فلا ينكر أحد دور عائلة الفكون في تثبيت الحكم التركي بالجهات الشرقية والقضاء على المناوئين والمنافسين والعصاة للسلطة التركية، وقد عاملت السلطة التركية حليفها أسرة الفكون بنفس المستوى من التعاون والاحترام والتقديم للمسؤوليات والتشريفات المختلفة فقد عرض حاكم الجزائر حسن أغا على الفكون الجد خطة القضاء لكنه اعتذر إليه⁵⁵⁶، وأبى قبولها ربما لحدثة عهد الأسرة في مثل هذه المسؤوليات الكبيرة.

4. - يحيى الشاوي: الفقيه الموسوعي (1096 - 1030 هـ - 1621 - 1685م):

هو أبو زكرياء يحيى بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى النائلي، نسبة إلى قبيلة أولاد نائل⁵⁵⁷ بالجزائر، الملياني⁵⁵⁸ الشاوي⁵⁵⁹ الجزائري المالكي، ولد بمدينة مليانة سنة 1030 هـ، ونشأ بالجزائر في أسرة علم وأخلاق فكان لها أثر عليه، وأخذ في طلب الفقه والعلوم والمعارف من شيوخ كثيرين في الفقه والتفسير والقراءات، والنحو والصرف والقواعد العربية وعلوم الحديث وغيرها، كالعلامة سعيد قدورة، و"علي بن عبد الواحد الأنصاري"⁵⁶⁰، و"محمد بن بهلول الزواوي السعدي"، وأجازه شيوخه هؤلاء لما عرفوا منه من استقامة وباع في العلم والزهد. ودرس عقائد الشيخ السنوسي⁵⁶¹ عن "عبد الله بن عمر الشريف"، والتصوف والفقه عن "عبد الرحمن الهواري"، نقلا عن "أبي علي" عن أخيه "محمد بن علي" عن الشيخ "أحمد بن يوسف الملياني" عن الشيخ زروق بأسانيد.

556 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه. ص 352

557- أولاد نائل قبيلة عربية كانوا قديما بنواحي قسنطينة بجنوبها، وانتقل بعضهم إلى نواحي مدينة "أفلو" جنوب مدينة "تيارت" في طريق مدينة "الأغواط"، وهذه المنطقة الممتدة من مدينة عين الذهب إلى نواحي الأغواط هي مجال لقبائل أحرار الشراقة، ومنهم الشاوية وهم فرقة عربية من سويد نقل ملوك تلمسان أكثرهم إلى المغرب الأقصى.

558- نسبة إلى مدينة "مليانة"، جاء في توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي: "الملياني نسبة إلى مليانة من أعمال تلمسان، و إليها ينتسب الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني المتصوف الذي تنسب إليه الطريقة (اليوسفية) .

559 . لفظ "الشاوية" نسبة إلى الشاء التي هي جماعة الغنم، ولا يقتصر وجود لفظ "الشاوي" بالمغرب الأوسط فقط، بل يوجد بالعراق قبيلة تسكن شرق الفرات، تسمى آل الشاوي، وبالمغرب كذلك.

560 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 02، ص 109.

561 - عقائد الشيخ السنوسي مجموعة من الشروح للعقائد الإسلامية تتسم بالبساطة والوضوح والاختصار وتصلح لطلبة العلم.

وعندما قامت ثورة ابن الصخري في بابل ك الشرق كان الشاوي مقيما في الجزائر ويلمح المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله بأنه خرج من البلاد مضطرا بسببها⁵⁶²، فهل وقف الشاوي ضد السلطة وساند الثورة أم ماذا؟ فوقوفه بجانب الثوار يعني الحكم عليه بالتضييق والنفي والتشريد وربما القتل على يد السلطة الحاكمة غير أن زيارته البعدية للقسنطينية ربما ينفي هذا الاحتمال إذ أن من المستبعد أن تستقبل السلطنة عالما وفقهيا ساند ووقف إلى جانب حركات التمرد في الإيالة العثمانية...

ثم سافر قاصدا بيت الله الحرام للحج سنة 1074⁵⁶³ فالتقى في مصر بشيوخ كثر، منهم "الشمس البابلي" و"النور الشبراملسي" والشيخ "سلطان المزاحي" كما أخذ عنه أهلها وسلموا له في كثير من المسائل التي تباحثوها معه.

وقد قال عنه معاصروه من العلماء والفقهاء الشيء الكثير في علمه وتقواه وبركته وكراماته التي لا تنقطع حتى صار تشد إليه الرحال.

وقد ذكر "النور عليّ النوري الصفاقصي"⁵⁶⁴ في فهرسته أنه نظم قصيدته اللامية في إعراب كلمة الشهادة في ساعة بين العشائين - صلاتي المغرب والعشاء-، وهو يتحدث مع بعض الأصحاب. وقال في شأنه "أشعري الزمان، وسيبويه الأوان، وقال: لم أر أسرع منه نظاماً".

وزار يحيى الشاوي القسنطينية عاصمة الخلافة مرارا وجلس للتدريس فيها، في الدرس الذي كان يحضره السلطان "محمود خان"⁵⁶⁵ ونزل عند "مصطفى باشا" الصدر الأعظم، وبان عليه الإتقان والفهم وبعد النظر ولفت إليه الحاضرين⁵⁶⁶.

وذكر "أحمد بن ساسي البوني" أنه نزل عليه في داره بمصر وتبادل أطراف الحديث معه في مختلف العلوم، فكان يرد عليه في كل يوم نحو العشرين سؤالاً وأكثر، فيجيب عنها بلا كلفة ولا مطالعة، قال: "الحاصل أنه لا نظير له، وما ذكرت من وصفه حتى العشر، وطوبى لعين رآته ولو مرة في الدهر". ثم يقول: "كان يحفظ كثيرا من الشروحات والكتب كمختصر ابن عرفة الفقهي، وهو ستة مجلدات جمع فيه مسائل المذهب، حتى إنه يذكر في بعض المسائل خمسين قولاً منسوبة لقائلها

562 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه، ج 02، ص 109.

563 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 110

564 - مؤرخ تونسي معاصر له كتاب الفهرس.

565 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج 03، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص 199.

566 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 67.

وأمثال ذلك"، ونفس الإطراء ناله من تلميذه المحبي حين يقول : " كانت حافظته مما يقضى منها بالعجب "567، فقد كان يحفظ من "التوالي" الرسائل القصيرة وهي كراريس قليلة الصفحات ما لا يحصى، وقد قيل أنه يحفظ المتون من خلال ثلاث عرضات لا غير، وقد حفظ القرآن من قبل وهو ابن ثمان سنين.

كما اشتهر يحيى الشاوي فضلا عن القدرة على الحفظ بحدة الذهن وجودة الإدراك حتى وصفه الشيخ الفقيه "بركات بن باديس" القسنطيني بقوله: " إنه عالم الربع المعمور " . وعرف عنه حدته في القول لمن يتمادى في الجدل العقيم المفضي للمحرمات خاصة في المسائل العقديّة، فقد كتب رسالة في الرد على "نور الدين إبراهيم بن حسن الكوراني" وحكم عليه فيها بالكفر والزندقة، وطالب بقتله وعنوان الرسالة هو "النبيل الرقيق في حلّ قوم الساب الزنديق"568. وكانت عقيدته سلفيا أثريا حيث هاجم الفلاسفة وعلماء الكلام لقولهم بنفي الصفات عن الله رب العالمين حيث يقول:

أقول لكل فلسفي يدينه ألا لعنة الرحمن تعلق مزورا
أجبريل فلك عاشر يا عداتنا أعادي شرع الله نلتم تحيرا
بأي طريق قلتم عشر عشرة ونفي صفات والقديم تحجرا⁵⁶⁹

والغريب كما يقول أبو القاسم سعد الله أن الفقيه والعلامة "محمد بن رسول البرزنجي" انتصر للكوراني وألف رسالة يتهم فيها على يحيى الشاوي، سماها "العقاب الهاوي على الثعلب العاوي والنشاب الكاوي للأعشى العاوي والشهاب الشاوي والأحول الشاوي"570، وهو ما يدعو للتساؤل حول طبيعة هذا الصراع و التنازع بين الفقيهين وما مدى حجم المشكلة التي تأججت بينهما؟؟؟ .

وتصدر يحيى الشاوي للدعوة ببلده وكانت قدراته عجيبة فشهد له معاصروه بالبراعة في التفسير و الحديث رواية و دراية⁵⁷¹، شرحا و إسنادا، والأصول والعربية والمعاني والبيان و الفقه، ولما

567 - المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن، ج03، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1983 ، المصدر السابق، ص112.

568 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج02 ، ص107.

569 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص106.

570 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص107.

571 - تستخدم عبارة "رواية ودراية" للتدليل على قدرة العالم على التحكم في مجال بحثه شكلا ومضمونا، أي له القدرة على تقديم الشروح الوافية لموضوع البحث دون إغفال الشواهد المختلفة التي تعضد رأيه في الموضوع

ظهر لهم من قدراته العلمية و تمكنه من العلوم الشرعية، قدموه للتدريس في المسجد الجامع فعقد مجالس التحديث و الإقراء، وكان يدرس و يشرح الكتب الستة.

واشتهر برواية الموطأ و شرحه وكان كثير الأسفار و الرحلة فزار مصر، و الحجاز، و دمشق، و بغداد، و القسطنطينية وغيرها للاستزادة والتعرف على أحوال الناس وأصحاب العلوم. كما تصدر للتدريس بالأزهر والقراءة لمختصر خليل وشرح الألفية للمرادي وعقائد السنوسي وشروحها، وشرح ابن عرفة⁵⁷² في المنطق، بالإضافة إلى حاشية الشيخ التاودي ابن سودة على صحيح البخاري، وكان له مجلس درس في الجامع الأموي بدمشق يحضره العلماء⁵⁷³.

وقد ذكر أن الشيخ يحيى الشاوي تعرض للامتحان في مصر مثلما تعرض من قبل الإمام إسماعيل البخاري في القرن الثاني الهجري، بقلب أسانيد الحديث ثم عرضها عليه فنجح في معرفة مواطن الخلط فيها أيما نجاح، وسرعان ما أدرك المصريون أن الشيخ يحيى الشاوي قد ظهر على أهل مصر بحفظه وذكائه، وفي أثناء ذلك كتب سلطان الدولة العثمانية لعلماء الأزهر أن يبعثوا له عالماً لمناظرة رجل ظهر بعاصمة السلطنة يزعم أنه لا يقدر عليه أحد، فقالوا له: "نبعث له هذا المغربي فإن ظهر عليه قلنا: ليس من بلدنا"، فبعثوا الشاوي في هذه المهمة الصعبة ولما استقر به المجلس قال لهم: أنا فلان بن فلان فمن هذا؟ قالوا: هذا فلان بن فلان، ثم أكمل الشاوي نسب خصمه وفصله، فلما انتهى قال لهم: "فمن أنا؟" فلم يجد أحداً يحفظ نسبه. فأفحمهم بحفظ أنسابهم وأقوامهم وأحوالهم، وهو ما يثبت رسوخ قدم يحيى الشاوي في علم الأسانيد والأنساب وهي علوم لا بد من استيعابها ومعرفتها⁵⁷⁴.

572 - شروح ابن عرفة في المنطق من أفضل الشروح التي ألفها الفلاسفة المسلمون في الفلسفة والغرض منها استغلالها في بحث المسائل الدينية والعقدية.

573 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ نفسه، ص 105.

574 - علم الأسانيد والأنساب فن عربي أصيل عرفه العرب قديماً، حيث كان الشعراء والخطباء يتفننون في ذكر الأجداد والبطولات والتنويه بها، ومع مرور الزمن اتخذ علم الأنساب أسسه وأصوله وصار جزءاً من علم التاريخ والتراجم، وصار من العلوم المطلوبة والمعارف الضرورية، لما يترتب عليه من منافع ومعرفة بالأحكام الشرعية والشرائع الدينية، فالتأقّل للعلوم والقواعد الأصولية يجب أن تتوافر فيه جملة من الشروط الموضوعية، منها أن يتّضح نسبُه ويثبت انتماءُه لبيت الصلاح والاستقامة والعدالة، فلا يصح أن تؤخذ هذه العلوم عن امرئ لا يُعْلَمُ أصلُه وفصله. وحدد الفقهاء والعلماء جملة من المنافع لهذا العلم منها تحقيق التعارف بين الناس وترتيب مصالحهم المختلفة، انظر سمير عبد الرزاق القطب، أنساب العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1968، ص 6.

ورغم قربه من السلاطين لكنه لم يمتحن مدحهم لنيل أعطياتهم أو الظفر بأحد المناصب التي يسيطرون بها على رقاب الفقهاء، ويتحكمون فيهم سواء في مصر أو في القسطنطينية⁵⁷⁵ وكان بإمكانه نيل أفضل ما يطمح إليه أي أحد.

وكانت فلسفة الشاوي في ما يتعلق بالصراع بين القدماء والمحدثين أن العلم لا ينتهي بجيل من الأجيال، وكان يرى ببقاء العلم للمتأخرين، وأن كثيراً من المسائل عجز المتقدمون على فهمها وتفسيرها خلافاً لتلميذه البوني الذي كان يرى غير ذلك⁵⁷⁶.

وَألف الشاوي العديد من المصنفات والتفاسير المهمة التي تدل على نبوغه وتبحره وإدراكه لقضايا عصره، منها "ارتقاء السادة لحضرة شاه زاده" ألفه باسم السلطان محمد بن السلطان إبراهيم خان العثماني. و"نتائج أفكار ذوى المجد في تحرير أبحاث أما بعد" وهي رسالة مؤلفة حول النوادر التي وقعت في ميادين التاريخ والأدب والقصص، وهي رسالة فريدة من نوعها لم يؤلف مثلها أحد من قبل جاء فيها بكل الحوادث الغريبة والعجيبة التي وقعت في الماضي ويستلهم منها الفائدة والعبرة. ومن كتبه أيضاً "المصنفى من أحاديث الموطأ برواية يحيى الشاوي"⁵⁷⁷. و"المحاكمات بين أبي حيان و الزمخشري"، وحاشية على العقائد الصغرى للسنوسي⁵⁷⁸، و"الترجيح في بيان ما للبخاري من التصحيح".

وترك خلفه العديد من الطلبة والعلماء والفقهاء المجتهدين والمؤرخين منهم على المفتي، والمؤرخ محمد أمين المحبي، صاحب كتاب "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" الذي أجازته الشاوي وذكر ذلك من خلال منظومة شعرية ذكر فيها مرويياته التي أجازها بها، وقد سجلها المحبي في خلاصة الأثر⁵⁷⁹. ومن تلاميذه أيضاً أحمد بن القاسم ساسي البوني ذكر ذلك المحبي في تاريخه وسجل اعتراف البوني بأستاذه حيث يقول "النابلي الشاوي هو أستاذه و شيخه وولي نعمته".

575 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 02، ص 113.

576 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 110.

577 - شاه ولي الله الدهلوي. الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد، موقع أهل الحديث.

2- أحمد بابا التنبكي، المصدر السابق، وانظر كذلك الكتاني، فهرس الفهارس، ج 02، ص 1132.

579 - نص الإجازة يبدأ بـ: "الحمد لله الحميد والصلاة والسلام على الطاهر المجيد وعلى آله أهل التمجيد، و بعد:

أجزت الإمام اللوذعي المعبراً ... أميناً أمين الدين روحاً مصوراً

سليل محب الدين بيت هداية ... وبيت منار العلم قدماً تقرراً

وصل وسلم بكرة وعشية ... على من به أحيى القلوب تحيراً"

ومن المفاخر التي نالها يحيى الشاوي تولى مشيخة الجامع الأزهر بالقاهرة، لكن دون أن يُذكر السنة والمدة التي قضاهما في هذا المنصب⁵⁸⁰. وذلك ما أكدته الشيخ محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي التونسي⁵⁸¹ المصنف والمؤرخ في تصنيفه الموسوم بـ "نزهة الأنظار في علم التواريخ والأخبار"، وإن صح الخبر فإن الشاوي يعد أول شيوخ الأزهر من غير المصريين، مما يبين قوة علمه وإحاطته..

وكانت وفاة الشيخ يحيى الشاوي فريدة ذات دلالات ومعاني، ففي سنة (1096 هـ / 1685 م) سافر بحرا لأداء فريضة الحج⁵⁸²، وعلى ظهر السفينة قبالة السواحل المصرية، أتاه أجله المحتوم فقضى نحبه على ظهر السفينة، ولما أراد الملاحون إلقاءه في البحر لبعد البر عنهم، قامت ريح شديدة قطعت شراع السفينة، فقصدوا البر وأرسوا بمكان يقال له رأس "أبي محمد" فدفنوه به، ثم نقله ولده "الشيخ عيسى" في ما بعد إلى مصر ودفنه بالقرافة الكبرى بتربة السادة المالكية، وقيل أن جسده لم يتغير خلال عملية نقل الجثمان، وهو ما أوله البعض بظهور كرامته وبركته⁵⁸³.

5. - مصطفى الرماصي / الفقيه المتنور 1630 - 1725م

يعد مصطفى الرماصي أحد أعمدة الفقه المالكي في المغرب الأوسط، ورغم البيئة الثقافية التي طغى عليها الفكر الصوفي والطريقي إلا أن الرماصي كان في مستوى منزلته الفقهية والعلمية، رافضا الانحراط في صفوف الفكر الباطني ومدعي الولاية والكرامة.

انظر المحي، المصدر السابق، ص235..

580 - محمود بن سعيد مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ترجمة علي الزواري، ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، فرع تونس، تونس، 2002.

581 - محمود بن سعيد مقديش ملقب بأبي الثناء الصفاقسي (1154هـ - 1228هـ = 1742م [1] - 1813م) فقيه ومؤرخ تونسي، ولد بصفاقس وزار العديد من البلدان منها مصر توفي بالقيروان، في سنة و توفي بالقيروان و هناك اختلاف في تاريخ وفاته. له كتابات عديدة منها نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار في جزأين ضمن مجلد واحد ، معظمه حول مدينة صفاقس وعلمائها في القرن الثالث عشر الهجري، والكتاب من ترجمة علي الزواري، ومحمد محفوظ، وطباعة دار الغرب الإسلامي، مقتبس من موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

582 - يرجح بعض الباحثين سبب سفره بالبحر عدم التحاقه بقافلة الحجيج البرية فامتطى أول سفينة تبحر إلى جدة عبر البحر الأحمر.

583 - المحي، المصدر السابق ج03، ، ص235.

نشأ وترعرع الرماصي في بلاد غريس⁵⁸⁴ وبالأخص بلدة "رماصة" التي ارتبط اسمه بها، الواقعة بتلك المنطقة السهلية المترامية والخصبة بحقولها ونشاطاتها الفلاحية والرعية والتي استقطبت إليها سكان منطقة جبال العمور بعد الغزو الهلالي للبلاد، اشتهرت المنطقة فقهيا بإتباع المذهب المالكي والاهتمام بعلوم الفقه والتوحيد⁵⁸⁵.

ومن يرجع لهم الفضل في انتشار العلوم الدينية وتفاعل المنطقة معها الفقيه "محمد بن يوسف السنوسي" (ت1498) العالم الزاهد المحقق، الذي قدم للقراء والمهتمين بالعقائد الدينية كتابا فريدا وهاما في العقيدة سماه عقائد السنوسي، ويضاهي مكانة مختصر "خليل المصري" 776هـ 1375م⁵⁸⁶. وقد عمل ثلاثة تلاميذ لدى الشيخ السنوسي على ترسيخ فكره وفلسفته وعقائده في منطقة غريس، وهم "محمد بن موسى المغراوي"، و"محمد بن يحيى المديوني" الذي صار أحد أقطاب الولاية الدينية في المنطقة بالإضافة إلى الشيخ "عمار العطافي"⁵⁸⁷. كما عمل على المساهمة في نشر الفكر السنوسي الشيخ "أبو عمر بن عثمان" الذي أخذ فقه السنوسي عن طريق تلميذه "عبد الله الماللي"، دون أن ننسى فقهاء تلمسان الذين تأثر غالبيتهم بهذه المدرسة.

ولم يمض وقت طويل حتى صارت العقائد التلمسانية التي أرسى لها السنوسي الأركان، ذات مكانة مرموقة في منطقة غريس وتلمسان وضواحيها ونسجت حولها الكثير من الخرافات والأساطير، كتلك التي نقلها ابن مريم (ت1632) عن أحد المعاصرين له قوله انه رأى في المنام كأنه في الجنة ورأى نبي الله إبراهيم الخليل، يدرس عقائد السنوسية للأطفال بالألواح على الطريقة المغاربية⁵⁸⁸. وأما في ميدان الفقه فقد ساهم علماء غريس بصورة فعالة، وقد اعتمد في تدريسه على مؤلف أساسي هو مختصر بن الحاجب (ت1248) الذي جلبه "نصر الدين بن زواوي" سنة 1343 من مصر إلى بجاية، ومنها انتشر في مختلف الجهات، وكان الفقيه التلمساني يحيى الونشريسي يدرس من خلاله وعندما هاجر للمغرب أخذه معه.

584 - تعددت تسميات غريس فتارة يطلق عليها الراشدية وتارة ثانية بني راشد.

585 - Houari touati **Entre Dieu Et Les Hommes Lettres Saints Et Sorciers Au Maghreb**

17eme Siècle, éditions de l'école des hautes études en science sociales Paris. 1994.

- Houari touati, **opcit** p46. 586

- **ibid**, p46. 587

- **ibid**, p46. 588

في مثل هذه الأجواء العلمية المنتعشة التي كانت تعيشها منطقة غريس والتي مكنتها من الارتباط بعواصم الفقه المالكي كفاس وتلمسان والقاهرة⁵⁸⁹، نشأ الفقيه المالكي الجزائري الشيخ مصطفى الرماصي الذي تجرد لطلب العلم والتفقه فيه، وكان علما من أعلام غريس في بدايات القرن السابع عشر الميلادي.

ينتسب الرماصي كما ذكرنا لقرية صغيرة تعرف برماسة تقع في الطريق بين "معسكر" و"غيليزان"، حيث ولد بها في حدود سنة (1630م) ورغم أن هذه القرية التي وصفها الرحالة البريطاني "توماس شو" بالمعدمة إلا أنها أنجبت أعظم فقهاء الفترة، وأحد دارسي وناشري الفقه المالكي والعقائد السنوسية.

ويعرف الرماصي عند فقهاء العلوم الدينية بـ: "صاحب الحاشية الشهيرة على شرح التتائي"⁵⁹⁰ على مختصر خليل، التي اعتمد عليها الشيخ الدردير⁵⁹¹ وتلميذه محمد بلقندوز المستغامي، في تدريس الفقه وتعليم السنن، كما اعتمد عليها الشيخ البناني الفاسي المغربي⁵⁹².

درس الرماصي على الشيخ "علي بن محمد الخروبي" وتلمذ على يد "عبد الرحمن أبو زكريا الراشدي" الذي علمه السنة النبوية من خلال دراسة صحيح البخاري. ثم انتقل الرماصي بعدها إلى مدينة مازونة⁵⁹³، التي احتلت مكانة مرموقة منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وهناك انخرط الرماصي

ibid, p50.. - 589

590 - هو قاضي القضاة الإمام شمس الدين التتائي شارح مختصر بن الحاجب وغيرها، فقيه وزاهد شغل وقته بطلب العلم، أخذ عن النور السنهاوري واللقاني وشغل منصب قاضي القضاة بمصر، قال عنه "محمد بن مخلوف" في "شجرة النور الزكية" "الإمام المتفنن الفقيه الفرضي العالم العامل العمدة القدوة الفاضل" وقال عنه "أحمد بابا التنبكي" في نيل الابتهاج "كان موصوفاً بدين وعفة وصيانة وفضل تواضع تولى القضاء ثم تركه".

591 - هو أحمد بن أبي حامد الغدوي الشهير بـ: "الدردير"، ولد سنة 1127هـ/1715م، درس بجامع الأزهر التصوف والفقه. ومن مؤلفاته "شرح مختصر خليل". و"أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك". وكان له مع أحد الولاة في مصر حادثة حيث زار الوالي جامع الأزهر فلما دخل رأى الإمام الدردير جالساً ماداً قدميه وهو يقرأ وردّه، فغضب لأنه لم يقيم لاستقباله فهدأه بعض خدمه وقال له: "يا سيدي إنه مسكين ضعيف العقل"... وبعد برهة أرسل إليه الوالي صرة نقود فرفض الدردير قبولها وقال للمرسل "قل لسيدك من مدّ رجله فلا يمكن له أن يمدّ يديه". من موقع ويكيبيديا.

592 - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص 571.

593 - كانت مازونة الى جانب زاوية "مراجعة" الواقعة على ضفاف نهر الشلف قلعيتين فقهيتين كبيرتين، وأسس القلعة الأخيرة "محمد بن علي أجهلول" (ت1594) الأندلسي الأصل.

في سلسلة الفقهاء الراوين للفقهاء المالكي، والناشرين له فقها وعقيدة⁵⁹⁴. ودرس على الشيخ أبو طالب محمد بن عليّ المعروف بابن الشارف المازوني.

انتقل الرماصي بعدها إلى القاهرة التي كانت تعد موطن العلم والجهاد، وحديقة العالم الإسلامي بتعبير "بن خلدون"، ومن الذين لقيهم الرماصي في وقته بجامع الأزهر، الشيخ "عبد الباقي الزرقوني" (ت1688)، و"أبو عبد الله محمد الحرشي" (ت1690) تلميذي الشيخ الاجهوري المفتي الحنفي، وقد منح الفقيهان الإجازة للشيخ الرماصي من خلال اختباره في قراءة وشرح مختصر خليل، لكن الرماصي لم يقتنع بما عندهما، وانتقد رواية الفقيهين للمختصر، مبرزاً الأخطاء التي ارتكبت فيه، ولم تكن اعتراضاته محض رغبة في البروز أو السخط، بل ضمن ملاحظاته وآراءه في سبعة ورقات قدمها بكل جرأة لمعارضيه⁵⁹⁵.

لقد كان الرماصي رمزا ومرجعا دينيا، اعتمد على نفسه بصورة كبيرة في تحصيل العلم وبلوغ المنزلة التي بلغها، حتى أساء فهمه أحد المعاصرين له ويدعى "البرجي"، حيث قام بكتابة رسالة له قال له فيها: "لقد اخترت أن تكون فارسا بمفردك، ولقد علمت أن الذي يستغني عن غيره ويغتر بنفسه سيضل ويرتكب الحماقات ثم يتيه في خضم عالم متغير"⁵⁹⁶.. والحقيقة أن الرماصي من خلاله موافقه لا يبدو في صورة الفقيه المتعطر الرافض لأخذ العلم من أي مكان يثبت الأخذ منه، إنما كان معتدا بنفسه وبقوته في الصبر على طلب العلم وتحصيله.

كان مفهوم الفقه ووسائل تحصيله وغاياته عند الرماصي واضحا جليا لا يساوره شك، فهو يعتبره أحد الوسائل الأساسية لمعرفة الشريعة الإسلامية بعد الكتاب والسنة لا غير، وكان يستشعر عظمة الرسالة وثقل الأمانة التي يحملها الفقهاء فكان دوما يحذر أتباعه ويوصيهم بقوله: "التمزوا طريق الفقه واحذروا سهامه التي يرسلها الله للذين يخونون رسالته"⁵⁹⁷..

..3Houari touati, **op.cit.** p5 – 594

.. 3p5 , **op.cit.**–595

ibid... p p21-22. –596

..4- **ibid.** p5 597

وقد جسد الرماصي من خلال استعراض بعض تجاربه مع تلاميذه وأتباعه، نموذج الفقيه العالم والمدرّك لُكنه الفقه ودائرته وعلاقاته بالمفاهيم الدينية الأخرى، فقد طلب منه مرة أحد أتباعه يدعى "محمد بن علي الجعدي"، أن يدخله في دائرته وخاصته فقال له الرماصي: "إنني لا أحسن هذا"⁵⁹⁸. كان الرماصي فقيها مجتهدا مطلعاً على أحوال المجتمع ومدرّكا لاجتهادات فقهاء عصره ومشاركاً بالرأي والبحث والفتوى في عديد المسائل التي كانت تعرض للاستفتاء، ولم يكن الشيخ الرماصي متزمتاً في طرحه في التمسك بعالم الظاهر فقد كان لا يرفض العلم الباطني⁵⁹⁹، وما يسوقه على صاحبه من كرامات وولايات، إذا كانت لا تتعارض مع الشريعة، لكنه لا يبيح تلك الممارسات الجاهلية الغربية عن الفقه. فقد عارض الرماصي ممارسات بعض الطرّيقين منهم "سيدي علي بن شنتوف" الذي فتح مجال الانخراط للنساء في السلك الطرّقي، وما تبعه من اختلاط وخلوة بهن، الشيء الذي يتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحة، التي لا تبيح الخلوة بالنساء الأجنيات مهما كان الظرف.

ومن المسائل الفقهية التي أثّرت في المغرب الإسلامي منذ قرون سابقة، مسألة حصول المرأة على الميراث سواء من زوجها أو أبيها، فمن المعروف أن كثيراً من القبائل التي كانت تسكن الجهات النائية بالمغرب الإسلامي تمنع المرأة من الميراث، كقبائل "فليسة" شرق مدينة الجزائر، والهدف من هذا المنع على حد فهم أفرادها هو حماية الرجل من تشتت الملكية ودخول الأعراب في نصاب العائلة، ورغم أن النص القرآني قد منح المرأة الحق في الميراث وتوعد من حرّمها من حقها بالويل، إلا أن الأعراب والبرابرة بالمغرب الإسلامي تبادوا في حرمانها، وصار هذا السلوك عرفاً سائداً مهيمناً على نصوص الشريعة الإسلامية⁶⁰⁰.

598 - 599 Ibid ..

599 - تذكر الرواية المتناقلة شفويا في الأوساط الصوفية أن الشيخ "بن الشريف" قسم رموز الولاية الدينية والمكانة الفقهية بين ثلاثة من تلاميذه حيث منح "الرماصي" أصول المذهب المالكي وفقهه، ونال الشيخ "عمار بن دوبة" الولاية الدينية وأسرار الطريقة بينما كان حظ تلميذه الثالث الشيخ "العربي بن حطاب" الطلبة و"البندير"، ورغم اعتراض هذا الأخير على القسمة و اعتراض أسرته كذلك، إلا أن الشيخ "بن الشريف" أخبرهم بأنه لا يستطيع التراجع عنها لأنها قسمة النبي محمد؟؟؟، ولا يرجع عنها مهما كلفه ذلك، فسكن روع المحتجين وعلموا أن رمزية الطبل والبندير تعني الكثير، فهي تمنح للعائلة إقامة المدائح الدينية للنبي عليه السلام ورفع ذكره من خلالها، وتوارث هذه الفنون بنوهم من بعدهم، ويقال أن طبوع الغناء من حوزي ومحلي، انبثقت من سلالة

هذا الشيخ. انظر: Houari touati, op.cit., p5

600 - 62Houari touati, op.cit. p

وقد رفض الرماصي حرمان المرأة من الميراث لأي اعتبار كان، مؤكدا أنها حرة في التملك وأن ما تتنازل عنه لذويها قصد الانتفاع به لا يصرف عنها ملكيتها له، وبهذا وافق الرماصي مجموعة الفقهاء المالكيين الذين تبنا هذه الفتوى، ومنهم فقيه المغرب الإسلامي أبو الوليد الباجي المالكي، وأبو حامد الغزالي وأبو زيد القيرواني والقلشاني، وقالوا بان المرأة المقهورة بإمكانها أن تطالب بما لها من أبيها وإخوتها⁶⁰¹..

ترك الرماصي خلفه الكثير من التلاميذ الذين تحروا الوسطية في الفتوى مراعين مقاصد الفقه المالكي ومقتضيات المرحلة، ومنهم خاصة "الشيخ عبد القادر المشرفي" 1778ت⁶⁰² صاحب الفتوى الشهيرة في حق القبائل المتعاونة مع الإسبان والموسومة بـ "بھجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان من الأعراب كبني عامر"⁶⁰³.

ويعد الرماصي رغم قلة البحوث والأعمال التي تناولت شخصيته، من الفقهاء المتنورين الذين استوعبوا بوضوح ووعي خطوط العلاقة الرفيعة بين الفقه والتصوف، في زمن غلبت عليه المسوح الصوفية والطقوس الدينية، وكان بإمكانه بلوغ أرقى المراتب والمناصب بفضل علمه وفقهه ونباهته لو انخرط في السلك الصوفي لكنه أبى ذلك، فعلا ذكره عند الناس ونال احتراما وتقديرا كبيرين عند أقرانه من الفقهاء والعلماء الذين أثنوا عليه كثيرا ومنهم عبد الرحمن الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي حيث قال فيه: "العلامة الدراكبة الفهامة الدراية الناقد، سراج التحقيق الوقاد منهل العلوم الأصفى" وذكره محمد بن مخلوف صاحب شجرة النور الزكية بقوله: "الرماصي هو غاية في الجود والنبيل"⁶⁰⁴، ووصفه بعضهم بـ: "حامل راية الفقه المالكي في عصره ومصره"⁶⁰⁵.

601 - Ibid., p - 601.

602 - وصفه تلميذه أبوراس الناصري بوعاء المحققين وإمام بني راشد كان فقيها متعلما ومجاهدا، حاضرا في سقوط وهران الثاني سنة 1732 وألف كتابه بھجة الناظر بالمناسبة. وكان هذا التأليف بمناسبة صدور حكم قضائي قاس، حكم به الفقيه احمد الفيلاي المقرري على الجزائريين المتعاونين مع الإسبان من قبائل بني عامر بالكفر كلهم دون استثناء، وأباح أموالهم وممتلكاتهم وذرائعهم ونسائهم للمسلمين، فدعا المشرفي في رسالته إلى ضرورة التفرقة بين المتعاونين مع الإسبان، وإمعان النظر في الأسباب والدوافع وراء ذلك، انظر الفصل الثالث من هذا البحث لمناقشة موضوع تكفير الأهالي ودور عبد القادر المشرفي في تبين حكم الله في هذا الأمر.

603 - Houari touati op.cit. p - 601.

604 - محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية، المرجع السابق، ص334.

605 - عمار هلال، المرجع السابق، ص 299.

توفي الرماصي بعد حياة حافلة بعيدا عن وطنه وأهله سنة 1137 هـ . 1724م بالقاهرة، بعدما بلغ سنا متقدمة وهو ما ذكره الكتاني صاحب الفهارس بقوله : "الشيخ مصطفى بن عبد الله بن موسى الرماصي القلعي المعسكري المتوفى عن سن عالية جاوز التسعين"⁶⁰⁶.

6. - أبو العباس أحمد البوني: الفقيه الشاعر 1063-1139 هـ 1653 - 1726 م

من علماء بونة⁶⁰⁷ (عنابة) وفقهائها وصلحائها الذي سارت بمؤلفاته الركبان، ولد ببونة سنة 1063 هـ 1653 م ثم رحل إلى المشرق، فأخذ بمصر عن "عبد الباقي بن يوسف الزرقاني" و"يحيى الشاوي الملياني" الجزائري وغيرهما، وكانت له مراسلات وعلاقات مع علماء قسنطينة، كالشيخ "بركات بن باديس" وله مراسلات عديدة مع بشوات الدولة "محمد بكداش" و"حسين خوجة بن الشريف" و"يوسف باشا"⁶⁰⁸. وينتمي البوني إلى عائلة علم وفقه عريقة وضاربة بجذورها في الماضي عدد من شيوخها "عادل نويهض" في كتابه نحو تسعة فقهاء وعلماء تركوا الكثير من التأليف والذكر الحسن في مدينة بونة أو في الحواضر التي نزلوا بها⁶⁰⁹.

وساهم البوني بفعالية في الدعوة لتحرير العقل من دركات التقليد المميت، وفتح باب الاجتهاد وكثيرا ما كان يردد قول الشاعر:

قل لمن يرى المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان جديدا وسيبقى هذا الجديد قديما⁶¹⁰

وقال عنه السخاوي⁶¹¹ في "الضوء اللامع": "هو الإمام العلامة المحدث المسند الجماع المطلع صاحب التأليف العديدة والأنظام الكثيرة، أبو العباس أحمد بن قاسم ابن أبي عبد الله محمد ساسي التميمي البوني"⁶¹².

606 - الكتاني عبد الحي، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ، 1986.

607 - سميت مدينة عنابة نسبة لشجر العُنب الذي كان كثير الانتشار بها.

608 - أبو القاسم سعد، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 66..

609 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 50-52.

610 - صالح بوبشيش، المدارس الفقهية في الجزائر، المرجع السابق، ص 147.

611 - من مؤرخي القرن العاشر عاصر ابن إياس، وابن الداية، وجلال الدين السيوطي. له عدة تأليف منها "التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة"، و"المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة" و"الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" توفي السخاوي سنة 902 هـ.

وقال فيه المحبي في " خلاصة الأثر " : " هو الأستاذ الذي ختمت بعصره أعصر الأعلام، وأصبحت عوارفه كالأطواق في أجياد الليالي والأيام والعالم المحدث والفقيه أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي البوني ت 1129 هـ أحد علماء عناية بونة وصلحائها له فتح الباري بشرح غريب البخاري، والدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة وغيرهما، وكان البوني يردد دائما أن النابلي الشاوي هو أستاذه و شيخه وولي نعمته".

وترجم له الأديب المغربي أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي⁶¹³ في رحلته المسماة ب " نظم الدرر المديحية في محاسن الدولة الحسينية " و " التاج المشرق الجامع ليوافيت المغرب والمشرق " قال : لما دخلتها يعني بونة أمت دار الشيخ الرباني العالم العرفاني الذي بنيت هذه الرحلة المباركة على قواعد بركته أساسي أبي العباس أحمد بن الولي الصالح البر الناجح أبي عبد الله قاسم ابن الولي الصالح أبي عبد الله محمد المعروف ساسي، فوجدته طلق الحيا، وأنزلي بمنزل لإكرام أضيافه مهياً، فأقمت عنده ينزهي في كل يوم في رياض تأليفه الحديثية وغيرها، وينثر عليّ كل ساعة من فرائد فوائده ما تبخل به على الغائصين قعور بحرهما، وكنت أحضر أثناء تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه، مع مشايخ بلده وولديه، ومما رويت عنه فسح الله في أجله وأسهب، وإن تأليفه بلغت ما ينيف على المائة ما بين مختصر ومسهب، ولما وقفت في علم الحديث على البحر العباب، والعجب العجائب، سألته الإجازة فيما وقفت عليه وغيره من تصانيفه... "614

وكان البوني لا يكتف العلم وينشره ويقدمه لكل طالب صادق ومخلص ومجد، كما يضيف عبد الرحمن الجامعي في رحلته⁶¹⁵، وبعدها تحدث الجامعي عن لقائه بالبوني وعن المصنفات التي ألفها، دعاه إلى إجازته من خلال قصيدة جاء فيها:

يا إماما به أعاد لنا الله علوما بمن يطاع الرسول

612 - السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج 05، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، دت، . ص306..

613 - عبد الرحمن الجامعي الفاسي، التاج المشرق الجامع ليوافيت المغرب والمشرق مقال اليكتروني من بيبليوغرافية المغرب - maroc Bibliography

614 - محمد المتوني، عبد الرحمن الجامعي الفاسي حامل راية الأدب على مستوى المغرب الكبير، رحلة عبد الرحمان بن عبد الله الجامعي الفاسي، التاج المشرق الجامع ليوافيت المغرب والمشرق، مقال اليكتروني من بيبليوغرافية المغرب - maroc Bibliography

615 - ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية، المصدر السابق، ص 54

لك خضت العباب مقتبسا من نور علمك الزمان بخيل
فاسمحن بإجازة بعد سرد للنهاية إذ سواها يطول
واعمل الفكر بعد ذا في شؤوني فهي شيء له تطيش العقول

وهذا ما يدل على تبحره في فنون العلم والفقه والدين التي كانت لازمة آنذاك كما ينبئ عن شح الزمان بمثله خاصة عند جيران الجزائر.

وللبوني تأليف كثيرة اشتهر منها خاصة نظمه لقصيدة "الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة"، وله رحلة حجازية سماها "الروضة الشهية في الرحلة الحجازية"⁶¹⁶ وقد عدد بعضهم تأليفه بأزيد من 100 مصنف.

وكان للبوني فيما يبدو علاقات طيبة مع الحكام العثمانيين ترجمتها عدة مراسلات بينه وبينهم⁶¹⁷، ومن خلال هذه المراسلات يتبين لنا أن البوني قد لعب دورا سياسيا بارزا في ناحية عنابة، خاصة في التخفيف من أثار ثورة بن الصخري التي هزت باليك الشرق حتى بلغت ضواحي المدينة، حيث بعث الباشا يوسف حاكم الجزائر إلى البوني يطلب منه التدخل لدعوة الأهالي لترك الثورة والعودة إلى حياتهم الطبيعية، وزعم يوسف باشا أنه ترك الجهاد ضد الإسبان لكون ثورة ابن الشريف قد اشتدت، وكادت تعصف بالبلاد، فطلب منه البوني العفو عن الأهالي الذين انخرطوا في الثورة، فأجابه إلى ذلك قائلا له: "إن هذا تكريما له فقط وليس للأهالي"⁶¹⁸.

07. - عبد القادر الراشدي: الفقيه المجدد (1111 - 1194هـ / 1699 - 1780م)

هو العلامة الشيخ عبد القادر بن محمد بن أحمد بن مبارك الراشدي . ولد بقرية "الرواشد" من قرى ومداشر فرجيوة بمدينة ميلة⁶¹⁹، درس على والده بادئ ذي بدء، ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة منذ نعومة أظافره لطلب العلم، حيث نهل من شيوخها وعلمائها، ثم رحل إلى تونس ومدينة الجزائر، ومكث بهما مدة، وأخذ عن علمائهما، ثم عاد إلى قسنطينة وتولى القضاء والتدريس والفتوى على

616 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 182.

617 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص69.

618 - محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية، تح يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص36.

619 - يذكر الحفناوي في تعريف الخلف، أن عبد القادر الراشدي نفسه نسبته وأصل عائلته إلى راشد، وهو نسبة إلى راشد جد عالٍ جدا، وهو راشد بن فرقان الذي اشتهروا به، ويقول: هو الإمام حافظ المغرب أبو الفضل راشد الوليدي أمّا ومدفنا.

مذهب مالك⁶²⁰، وتفجرت قريحته منذ الصبا حتى صار علما بارزا وفارسا في الفقه ومجادلا في علم الكلام لا يشق له غبار.

قال فيه الورتلاني: "قاضي الجماعة، النحوي المتكلم الأصولي، المنطقي البياني، المحدث المفسر، صاحب الأبحاث الشريفة، والفوائد المنيفة"⁶²¹.

وجمع الراشدي بين عدة فنون ومراتب فبلغ درجة الاجتهاد، والتحديث، والتحقيق، وهي مراتب لا ينالها إلا القلة من الناس. وقال أيضا: "العلامة المحقق، المجتهد الأصولي الكلامي، عالم وقته، وعضد زمانه"⁶²². كما وقف بحزم ضد التصوف الطريقي وممارساته ويتجلى ذلك من خلال عناوين الرسائل التي ألفها.

وقد ترك خلفه عشرات المؤلفات السامقة التي توحى بقوة الرجل وسعة فهمه وبعد نظره وترجيحه الاجتهاد في مسائل كثيرة كانت إلى ذلك الوقت من القضايا المسلم بها، منها "عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس" و رسالة في بيان حرمة الدخان وما شابهه من المشروبات مسماة "تحفة الإخوان في تحريم الدخان"⁶²³، ورسالة في التوحيد تسمى "عقيدة السلف"، ورسالة فقهية في حكم القسم بالله تحت عنوان "حكم من جرى حلفه بالحرام ليفعلن فلم يفعل"، وقد رد فيها ومن خلالها على بعض أقوال أهل عصره في هذا الموضوع، ووثيقة في حكم التحجيس على الذكور دون الإناث، كم تنسب له قصيدة شعرية يصف فيها إحدى الوقائع التي كانت بين النصاري والمسلمين في الجزائر، وقصيدة أخرى يمدح فيها شيخه الإمام أبا العباس أحمد بن الحسن، وقصيدة ثالثة في الرد على معاصريه من الفلاسفة وعلماء الكلام والفقهاء في قضية المتشابهة و تفضيل النقول على العقول، وكتاب "تجديد الإيمان في أواخر الزمان"، فضلا عن كتاب صغير الحجم في الأنساب، تعرّض فيه لكثير من العائلات القسنطينية وقبائلها وبطونها وبيان الشريف منها والعربي والبربري والأجنبي،

وأما كتابه "متسعة الميدان في إثبات وجه الوزن وآلة الميزان"، والذي فرغ منه سنة عام 1187م وتعرض فيه لمباحث اعتقادية وكلامية، وناقش فيه على وجه الخصوص مذهب أهل التأويل

620 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 145.

621 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 692

622 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص 692.

623 - قال فيها الحفناوي "وله رسالة في تحريم الدخان شحنها أولا ببيان شاف في حال الدخان، ثم جلب من الأدلة المقتضية لحرمته ما لا مزيد بعده" الرسالة من تحقيق عبد الله حمادي. انظر الفصل الثالث من هذا البحث.

في مبحث المتشابه، فقد كان سببا في محنته واتهامه بالزندقة. ومن خلال دراسة بعض كتبه يتبين لنا أن الرجل قد تحكم في أدوات التحقيق والاجتهاد وفي بعض كتبه يظهر بعض آراءه في المسائل التي تعترض ويخالف بها جمهور العلماء والفقهاء بمدينة قسنطينة، مما أدخله في مشاحنات و مشاكل دائمة معهم. وقد ترك الراشدي من تلاميذه القاضي محمد بن المسبح القسنطيني⁶²⁴ والمؤرخ المحقق محمد مرتضي الزبيدي⁶²⁵.

وكان الراشدي سلفي العقيدة⁶²⁶، أي يقدم النصوص وأقوال الصحابة والتابعين عن غيرها، من أقوال المجتهدين وأهل النظر، وهو ما تشهد به قصيدته التي قالها بعد المحنة لتي تعرض لها مبينا هذا الموضوع :

خَبْرًا عَنِّي الْمُوَوَّلَ أَنِّي	كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَيْتُهُ الْعُقُولُ
مَا قَضَيْتُهُ الْعُقُولُ لَيْسَ بِدِينٍ	إِنَّمَا الدِّينُ مَا حَوَّثَهُ النَّفْسُ
أَتَقُولَانِ إِنَّ ذَا أَكْثَرُ	النَّاسِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَعُدُولُ
شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا	لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ
فَاخْذَرَاهُمْ وَمَنْ تَلَاهُمْ إِذَا قِيلَ	«اتَّبِعُوا» مُنْزِلَ الْكِتَابِ يَقُولُ
بَلْ هُنَا نَتَّبِعُ الْآبَاءَ وَالْأَشْيَاخَ	كَمَا قَالَ كَافِرٌ وَضَلُّوا
لَيْسَ قَوْلُهُمْ أئِمَّةٌ دِينٍ	نَافِعًا كُلَّهُمْ بِكُفْرِ يَصُولُ
قَالَ رَبِّي فِي أئِمَّةٍ كُفِّرَ	«قَاتِلُوهُمْ» لَيَنْتَهُوا أَوْ يَزُولُوا
بَيَّنُّوا مَا بِهِ الْبَيَانُ بِجَهْلٍ	كَذَبُوا كَذْبُوهُ صِدْقٌ فَصُولُ
أَضَلَّ أَوْ انْتَفَاءً حَقِّ	قَالَ «يَهْدِي» وَشَبَّهَهُ يَا جَهْلُ
وَنَفَى بَاطِلًا وَأَثَبَتْ حَقًّا	ضَمَنْ نُطْقٍ خَطَابُ كُلِّ يَهُولُ
وَنَفَى أَنْ يَكُونَ مَعَ حُكْمِهِ	حُكْمٌ كَذَاكَ مُعَقَّبٌ وَفُلُولُ

624- أبو عبد الله محمد بن المسبح القسنطيني أحد تلاميذ الراشدي كان أديبا وعارفا باللغة العربية والحديث وعلومه، وكان مالكي المذهب ثم تحول إلى المذهب الحنفي وتولى القضاء في مدينة قسنطينة، والخطابة بجامع سوق الغزال حيث كان يصلى بايات قسنطينة وكان في مصاهرة مع بعضهم، توفي سنة 1242هـ قبيل وقوع الجزائر تحت براثن الاحتلال الفرنسي. انظر: أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، المرجع السابق، ص 176.

625- هو أبو الفيض محمد بن محمد الزبيدي الملقب بمرتضى، لغوي ومحدث ونسابة مشهور، ولد بالهند عام 1145هـ (1732) ونشأ بزبيد في اليمن وأقام بمصر وتوفي بها سنة 1205هـ 1790م، له مؤلفات كثيرة أشهرها تاج العروس بشرح القاموس، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، المرجع السابق، ص 70.

626 - سلفي العقيدة أي يعتقد بما يعتقده السلف الصالح خاصة في مجال العقائد.

بَعْدَ هَذَا أَفِيهِ أَخَذَ بِكُفْرِ بِسَمًا نَطَقُوا وَبُسَ النُّزُولُ

وتعرض الراشدي لمحنة كبيرة بسبب أقرانه من العلماء الذين لم يتبعوا مكانته، فاتهم بالتجسيم⁶²⁷ في تفسيره لقوله تعالى: "لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ" فقال اليد حقيقية، ومع ذلك ليست بجارحة، ولا جسمًا، بل يستحيل ذلك، لأنه يؤدي إلى الحدوث والمكان. وقد اتفق أهل السنة قاطبةً على نفي الجارحة، وما يؤدي إلى الإمكان والحدوث والتجسيم، فمن قال: إنَّ اليد حقيقية، والعلم بها مُوكل إلى الله تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم الذي يستلزم ما لا يليق به.

ويبدو من خلال استقراء للظروف التي أحاطت بعلاقة الفقهاء والعلماء بقسنطينة بالراشدي أن هذا الأخير قد نال حظوة كبيرة عند حكام قسنطينة خاصة المتنورين خاصة منهم صالح باي الذي كان كثير التردد عليه ويحضر مجالسه العلمية ليقيم المناظرات والمساجلات العلمية. وقد نوه بهذه المسألة الحفناوي في تعريف الخلف⁶²⁸، حين قال: "وله تعليقات جمّة وفتاوى ومسائل ابتكاره جليّة وتفسير عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي"

لقد كانت العلاقة التي تجمع صالح باي بالفقيه الراشدي وطيدة إلى حد التماسك والإعجاب والصحبة في الحضر وأثناء الغزوات والمعارك التي يقودها صالح باي، ويمكن أن نستشف هذا من خلال القصيدة الطويلة التي ألفها الشيخ الراشدي في وصف قدوم الإسبان إلى الجزائر وتشيد باستماتة صالح باي في الدفاع عن العاصمة⁶²⁹.

ومن أجل القضاء على هذه المكانة التي نالها الراشدي بعلمه وفقهه تعدد خصومه وتنوعوا وشكلوا حلفاً قوياً تمكنوا من الإطاحة به وكادوا يقتلون، ومن أبرز خصومه نجد علماء الكلام والقضاة وأقطاب التيار الصوفي المتطرّف، الذي يعمل على نشر البدع والشعوذة والمهرطقة والخرافات،

627 - التجسيم والمجسمة فرقة من فرق الكلام التي ظهرت في القرن الثاني الهجري وكانت ترى تفسير الآيات التي تتعلق باليد والعين والرجل التي ذكرت في القرآن الكريم، بما عند الإنسان من جوارح، متحدثة عن الذات الإلهية أنها حقيقة لا تقبل التأويل ولا السكوت، فهي تفسر العين بالعين واليد باليد فأنكر عليها الكثير من الفرق الإسلامية خاصة أهل السنة والجماعة هذا الجناح في التفسير، واتهمت بالتجسيم الذي يعد بدعة كبيرة لم يقل بها أحد من السلف، انظر موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

628 - الحفناوي، المرجع السابق، ص 220 .

629 - يبدو من خلال البيان التاريخي أن المقصود بها حملة "أوريلي" على مدينة الجزائر سنة 1775.

فضلا عن رؤوس العائلات القسنطينية التي طعن الراشدي في أنسابها وانتماءاتها الشريفة كأسرة الفكون.

وأثم الراشدي بعدة ثُم فُرمي بالتشيع والحشوية⁶³⁰ والجاحظية المعتزلية⁶³¹ وكذلك اُثم بالظاهرية، وجاء في إحدى الرسائل التي تدعو لمحاكمته: "فالواجب على الأئمة وطلبة العصر أن ينبهوا على بطلان عقيدة هذا لشيخ بل يمنع إتباعه لأن هان كان يرجح مذهب الشيعة فقد أبطله أكبر الأئمة من أهل الدين كالنسرين وشرح الحديث لكن فضيحة الدين ظاهرة والملة المحمدية قائمة إذ أن هذا الدين تحمله عدول من عدول إلى قيام الساعة... وقد محا الله سائر الفرق الضالة من مغربنا فإذا أراد هذا الشيخ إحياءها فلا حول ولا قوة إلا بالله ولولا خوفنا من تملك هذه العقيدة من قلوب الطلبة لما نخضنا للرد عنه"⁶³²

وبالغت النخب الدينية والفقهية والفكرية في التحرش بالراشدي حيث جيّشت الطلبة والعامّة عليه، قال أحد المعاصرين يصف الوضع: "وقد وقعت بينه وبين الطلبة في قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم بل بعضهم كفره ومن الإسلام أخرجه وذلك أمر عظيم في الدين"⁶³³

وأوغروا عليه صدر صالح باي ومنعوه من التدريس والفتوى وبالغوا في الطعن فيه، وقد ذكر محنته هاته الورتلاني في الرحلة، ولم يذكر الورتلاني مدبري هذه المكيدة ربما خوفا من سطوتهم، لكنه وقف إلى جانبه بكل ثبات مستشعرا عظم المسؤولية في الدفاع عن فقيه وعالم من مثل الراشدي ومستشعرا فتوى الشيخ زروق⁶³⁴ التي يقول فيها: "إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند الله من إخراج مسلم واحد بشبهة كفرية"⁶³⁵

630 - الحشوية من الفرق الباطنية.

631 - الجاحظية المعتزلية نسبة للجاحظ الأديب المعروف، والمعتزلية نسبة للمعتزلة الذين يرجحون العقل على النقل في معرفة الأحكام الدينية عامة.

632 - الراشدي، المصدر السابق، ص 38.

633 - الراشدي، المصدر نفسه ص 39.

634 - يعتقد بعض الباحثين أنه الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي الفقيه الصوفي مؤسس الطريقة التي تحمل اسمه "الطريقة الزروقية"، ولد سنة 846هـ 1443م له تصانيف عديدة وشروح للحكم العطائية، كما ينسب له شرحا لمختصر خليل، وكتاب "الحوادث والبدع: توفي سنة 899هـ 1493، انظر: محمد بن مخلوف، المرجع السابق، ص 268.

635 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 623.

ويعلق الورتلاني على رسالة الراشدي بالقول ولما قرأتها: "رايتها سالمة من سوء الاعتقاد وخاصة التجسيم".

لكن خصومه كانوا أقوى دهاء ومكرا حيث قرروا بعد محاكمته الدفع به خارج مدينة قسنطينة لعزله عنها فحرموا سكانها من عقل متنور وعالم جهبد رفض التقليد الأعمى والتصوف المقيت وناصر الاجتهاد والعقل.

ويعد الراشدي من خلال استقراء مراحل حياته ومواقفه فقيها ومجددا استطاع أن يجسد نموذج الفقيه المجتهد الراض لسطوة التقليد ودوائر الفقه المنغلقة وثقافات الأسر المسيطرة على واقع الناس والرافضة للتفكير والتطوير والتجديد.

ولم يكن الراشدي مغلقا على نفسه لا يسمع رأي غيره فيه، وكان دائم الاتصال بأهل العلم يستشيرهم ويبحث معهم ويدعوهم للنظر في ما ذهب إليه من رأي وهذا ما ذكره تلميذه مرتضى الزبيدي في قاموسه ويبين بجلاء خلو ساحة الراشدي من أي تنطع في الدين أو رؤيا أحادية خالف بها الجمهور يقول الزبيدي: "أرسلت إليه كتابا استجيزه فيه فأرسل لي كتابين مضمونهما واحد وقد صرح لي بالإجازة فيهما بجميع مروياته ومسموعاته، وأرسل لي مع واحد من طلبته رسالة نظمها في تحقيق مذهب السلف، وأمرني حاملها بأن أكتب عليها فكتبت عليها ارتجالا بعد أن كتب عليها في الحرمين صاحبنا إبراهيم بن الأمير وصاحبنا الصوفي السيد منصور السرميني وفي مصر الشيخ احمد الدردير، وهذا نص ما كتبتة: "ما قاله هذا السيد الشريف - يقصد به عبد القادر الراشدي - ذو القدر المنيف عمّر الله بالعلوم رباعه ووسع في فحوى المنطوق والمفهوم باعه، هو الحق الصريح الذي لا يحيد عنه ذوو العقول السليمة والفهوم المستقيمة، فإن حقيقة مذهب السلف وهو الحق رد الأمر إلى الكتاب والسنة، وهما لمن اتبعهما الواقية والجنّة، ثم التسليم لأهل المعرفة مع الكف والإمساك،⁶³⁶ وعدم اعتبار كل قوال وافاك، وأما مضايق العقول⁶³⁷ فإنها مسلم لا يسلكها إلا كل جهول بل هجوم على المشكلات واقتحام في الورطات وخوض في الغمرات وتوغل في العضلات وانحلال عن ربة الدين المتين، وإبطال لأساس الأئمة المتقين والخلف المتأخرين، فما نهجوا ذلك المنهج إلا لضرورة إبطال حجج الطاعنين والكشف عن تأويلات المفسدين مع اعتقاده خطر استعماله، ولكن في وقت

636 - يقصد بما ما تعارف عليه مجتمع الفقهاء من احترام الآراء في غطار البحث العلمي النزبه والكف عن الأذى باللسان في إطار القاعدة الفقهية التي سار عليها السلف: "نعمل في ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه"

637 - يقصد بمضايق العقول المسائل الشائكة التي لا يستطيع العقل البشري البحث فيها ويعجز عن إدراك كنهها وحقيقتها.

الحاجة وعلى قدرها وعند انتفائها يلجؤون إلى الكتاب والسنة، ويسدون على الناس هذا الباب والحالة هذه والله أعلم⁶³⁸.

توفي الراشدي محاصراً أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في حدود سنة 1194 هـ 1780م، وقال فيه مرتضى الزبيدي⁶³⁹: "ولم يزل على حاله من نشر السنة وإلقاء الدروس وإفادة الطلبة حتى توفي في أوائل ذي الحجة من شهور سنة 1194، رحمه الله رحمة واسعة، فما خلف بعده مثله، وتأسف الناس على فقدته وحزنوا عليه"⁶⁴⁰.

ويبقى التساؤل عالقاً: هل كان الراشدي ضحية إقامته في مدينة قسنطينة التي كانت تنجب العلماء ثم تتنكر لهم لسبب أو لآخر؟. مثلما ذكر ذلك الورتلاني بقوله: "دخلنا قسنطينة وهي قاعدة من قواعد بلدنا وقد سمعنا أنها منذ عهد الخليل إبراهيم لم يطفأ لها سراج وهذه المدينة غير خالية من العلماء والفضلاء والصلحاء غير أنها سريعة الفتك بأهل الصلاح فمن ظهر بها بالقبول والفضل إلا سارعت بهلاكه فيقبض ساعتئذ وهذا معلوم عند أهلها لكثرة الخيرات بها والمملذذات والمقبلين عليها"⁶⁴¹.

وكذلك فإن لكل مدينة قيمها وأصولها وطبيعتها وتقاليدها الراسخة في التعامل مع العلماء والنخب توارثتها كابراً عن كابر، وفي هذا الشأن ذكر الرحالة الحسن الوزان صاحب وصف إفريقيا الكثير من الطرائف حول المدن والقرى التي تهتم بالعلم وتبجل العلماء، وتلك التي تنفر منهم⁶⁴²، وتجد من غريب الطباع أن تستجيب العامة فيها لدواعي الفتنة والانسياق وراء التيارات المناهضة للتجديد والاجتهاد⁶⁴³. وقد أحس الفكون صاحب منشور الهداية من قبل بوطء وثقل أعيان المدينة

638- محمد مرتضى الزبيدي، المعجم المختص، يحتوي على تراجم أكثر من ستمائة من أعيان القرن الثاني عشر، تح نظام محمد صالح يعقوبي ومحمد بن ناصر العجمي، شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006، ص431.

639 -مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص432.

640 - مرتضى الزبيدي، المصدر نفسه، ص432.

641 - الورتلاني، المصدر السابق، ص687.

642 - ذكر الوزان حالة كل مدينة وقرية مر بها وعلاقتها بدوائر العلم والفقهاء.

643 - والغريب أن هناك مدناً وقرى أخرى في الجزائر ترحب بالعلماء وتوفر أجواء الاجتهاد والبحث لهم كمدينة بجاية ومدينة تلمسان، هاته الأخيرة التي قال فيها صاحب مخطوط كعبة الطائفين "أها مدينة تعمل الشأن لمن لا شان له". انظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء...، ج1، ط2، (ش و ن ت)، الجزائر، 1981، ص167.

المزيفين وبغضهم للدين والشرعية فانحال عليهم يقدح فيهم ويعرض بهم من خلال الأبيات الشعرية التي قالها في الموضوع منها:

ألا فاحذر أناسا قد تبرأ رب العرش منهم والملائك
وقالوا نحن إحضار بدار نعم صدقوا ولكن في المهالك
لقد جلبوا على غش البرايا كما جلبت يهود على الأفائك
طريق الشرع قد نبذوا وراموا أموراً قد تبدت من هنالك⁶⁴⁴

8. - أبو رأس الناصري: صاحب الرؤى الجريئة 1150 - 1239 هـ 1737 - 1824م

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري الجزائري، الملقب بأبي رأس، فقيه ومؤرخ، وعالم من العلماء الأجلاء تفقه في علوم الحديث ورجاله والسند. والده يعرف بالسنوسي وجده يعرف بابن عبد الله مات والداه ولم يبلغ بعد سن الاقتدار فذاق الأمرين لمواصلة مشواره العلمي⁶⁴⁵... قرأ على والده وأخيه الأكبر "سيدي محمد السنوسي" و"مصطفى بن المختار"⁶⁴⁶. ودرس على ثلثة من الشيوخ منهم "عبد القادر المشرفي" والشيخ "عبد القادر بن السنوسي بن دحو" وتزوج بأخت عالم غريس الشيخ "محمد بن فريجة"⁶⁴⁷.

وقلدته الحكومة التركية منصب قضاء مدينة معسكر فقام بمنصبه أحسن قيام⁶⁴⁸ من تحقيق العدل وتحري الحق وإتباع منهج السلف في القضاء، ومن خلاله يتبين أن الرجل كان لا يرى مانعا في تولي الوظائف الهامة لدى الأتراك ولا يرى باسا في التقرب منهم إحقاقا للعدل والإنصاف.

شارك الناصري في حملة الحرب والجهاد لاسترداد وهران في 1792م، وقاتل إلى جانب الباي محمد بن عثمان الكبير، واستغل مواهبه الخطابية والدينية في حث الناس على الجهاد والقتال⁶⁴⁹.

نزل الناصري مدينة فاس وتونس وقسنطينة، ورحل للمشرق فزار مصر والشام والحجاز، والتقى بأعلام ووجهاء البلاد التي زارها ووقعت بينه وبينهم مناظرات ومساجلات فقهية يمكن

644- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المرجع السابق، ص222.

645 - بوعمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، دار تالة للنشر، الجزائر، 2003، ص69.

646 - مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص434.

647 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص570..

648 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ص570.

649 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ص570

تشبيهها بالندوات العلمية والملتقيات المعاصرة التي يكشف فيها ومن خلالها كل عالم ما يجعبته أمام أقرانه ويقع النقاش حولها والتذاكر.

ويعصر جاور الجامع الأزهر وحضر دروس علمائه آنذاك، منهم الشيخ "حسين الجداوي" و"محمد الأمير" و"أحمد البيلي" والشيخ "أحمد الدردير" وغيرهم، واجتمع بالزبيدي أول مرة في يوم الجمعة من صفر سنة 1192هـ⁶⁵⁰ مثلما أخبر الزبيدي بذلك، وهو ممن نال الحظوة لديهم⁶⁵¹، وكذلك الشيخ الأمير الكبير، ووصفاه في إجازتهما له بالحافظ، وتلقى إجازة أخرى من الشيخ "الشرقاوي" ووصفه بشيخ الإسلام. وقد قال الزبيدي واصفا أحوال الناصري بقوله: "ولما استقر بمصر وهو على حاله من الحضور علي وملازمي حتى بدا له التوجه إلى الوطن في ثالث ذي القعدة سنة 1195هـ 1780م"⁶⁵². ثم يردف القول: "ولا زمني في منزلي ملازمة كلية في سائر ما يقرأ عندي ... وعنده قوة في فهم المعقولات وعارضة حسنة في البحث وحج عن طريق البحر وأدى ما عليه من المناسك وزار وعاد في الرجوع مع الركب المصري معززا مكروما ولكن ذاك لم يخطر بباله أن يتفق له مثل ذلك وهذا قليل في حق من يبذل جهده في طلب اشرف العلوم، ثم توجه إلى تونس فهرع إليه أكابرها من العلماء والأمراء وصارت بينهم مباحثات كان هو الغالب في أكثرها"⁶⁵³

وحج الناصري مرتين على الأقل خلال سنة 1204 وسنة 1226، وقد ذكر رحلاته وتنقلاته في كتابه "عدتي ونحلي في تعداد رحلي"⁶⁵⁴. وفي الحجة الأولى التي كانت سنة 1204 التقى الناصري بأحمد بن عمار مفتي الجزائر، أثناء مروره بالمدينة⁶⁵⁵.

ولقي أبو راس الناصري في الشام، جميل الترحيب، وبالغ الحفاوة من عامة الناس ومن علمائها بالخصوص، الذين تذكروا معه في مسائل علمية، فقدروا مكانته، وأنصفوه، دون حسد أو اختبار

650 - مرتضى الزبيدي، المصدر السابق، ص 434.

651 - المصدر نفسه ، ص 435.

652 - المصدر نفسه ، ص 434.

653 - المصدر نفسه ، ص 436.

654 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء... المرجع السابق، ص 185.

655 - المرجع نفسه، ص 185.

لعلمه وحفظه مثلما جرى له مع أهل تونس ومصر، وزاد الشاميون إحساناً لأبي راس، بأن قدّموا له المال الكافي لمواصلة رحلته، وودّعوه، وشيّعوه، عند خروجه من المدينة⁶⁵⁶.

وكان للناصري ذاكرة جامعة لا تغادر معلومة سبقت إلا واستحضرتها في الوقت المناسب، فكان لا يزيد على مرة واحدة في مطالعة الدرس الذي سيلقيه أمام الناس، لما منحه الله من سيلان الذهن وسعة الحافظة. وكان ذو حجة دامغة وبيان وحضور بديهة، ناظر الكثير من العلماء من أقرانه في تونس وفاس والقاهرة ودمشق ومكة وتغلب عليهم بفضل ذكائه وذاكرته وقدراته في توظيف المعلومات المخزنة في ذاكرته سواء من الشعر والتفسير والسنة والحكم والأمثال⁶⁵⁷.

وكان ذا صدر واسع وخلق سمح يتقبل النقد ويتفهمه، بل ويتفهم جنوح خصومه ويلتمس لهم الأعذار، مثلما التمس "للحلاج"⁶⁵⁸ عذراً في ما ذهب إليه من القول بعقيدة "الحلول"⁶⁵⁹ حيث يقول أبو راس: "كان خطؤه في العبارة لا في الحقيقة" ويستشهد بقصيدة لبومدين الغوث⁶⁶⁰ دفين تلمسان يقول في بدايتها:

فلا تلم السكران في حال سكره فقد رفع التكليف في سكرنا عنا⁶⁶¹.

وأنهم أبو راس الناصري باطلاً بالوقوف إلى جانب ثورة درقاوة سنة 1802 رغم ما أسداه للسلطة التركية ببايلك الغرب، وقد كان خلف ذلك خصوم ومروجون أرادوا أن يكيدوا به لدى

656- سميرة أنساعد، "صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني"، في مجلة التراث العربي، -مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 97، دمشق، مارس 2005.

657 - بوعمران الشيخ **قضايا في الثقافة والتاريخ** دار تالة الجزائر 2003، ص71.

658 - الحلاج أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج (26 - 858) مارس، (244) (922هـ 309 هـ) (من أعلام التصوف من أهل العراق، طاف الكثير من البلدان داعياً إلى أفكاره وطريقته، وقد اتهمه خصومه بالدعوة للديانة الزرادشتية، وتعاون مع الجن والشياطين لخدمته، فقام الفقيه محمد بن داود قاضي بغداد، بالدعوة لمحاكمته لأفكاره المتعارضة مع الإسلام، وضُلب بباب خراسان على دجلة في زمن الخليفة العباسي المقتدر.

659 - الحلول ما ينتقد به المعارضون للصوفية أنهم يقولون بالحلول والاتحاد، بمعنى أن الله قد حلّ في جميع أجزاء الكون.

660 - أبو مدين شعيب (الغوث)، (509 - 594، 1198-1126) لقبه ابن عربي بمعلم المعلمين متصوف وشاعر أندلسي، أحد مؤسسي أهم مدارس التصوف في بلاد المغرب العربي والأندلس، تعلم في أشبيلية وفاس وقضى أغلب حياته في بجاية، وشى به البعض لدى الحاكم الموحد "يعقوب المنصور" بمراكش، فبعث إليه الخليفة للقدوم عليه لينظر في مزاعم حول خطورته على الدولة الموحدية، وفي طريقه أصيب بوعكة مفاجئة وتوفي نواحي تلمسان، ولأبي مدين مؤلفات كثيرة في التصوف، وديوان في الشعر الصوفي. انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة....

661 - بوعمران الشيخ، **المرجع السابق**، ص72.

الأتراك حتى تخلو لهم الساحة من بعده، لكنه استطاع بفضل فطنته وقدرته على إدراك خيوط المكيدة أن يخرج منها سالماً⁶⁶².

و ناظر الناصري علماء الوهابية⁶⁶³ فوجدهم لا يستندون على أي من أدلة المذاهب الأربعة في الفروع ولكنه لم يتأثر بهم⁶⁶⁴، لكنهم في العقائد والأصول يميلون إلى الاعتقاد بمذهب أحمد بن حنبل⁶⁶⁵ وهو ما يدل على حسن تبحر الناصري في العلوم النقلية وقدرته على المناظرة وحسن الاستنباط للقضايا والمسائل التي يناقش فيها غيره.

قال عنه بعض تلامذته: "كان حافظاً متقناً لجميع العلوم عارفاً بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن نازلة إلا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفثيه، محققاً لمذهب مالك غاية لا سيما مختصر خليل فله فيه الملكة التامة بحيث يلقيه على طلبته في أربعين يوماً، والخلاصة في عشرة أيام. وكان شيخنا المذكور حافظ عصره وإمام قطره"

وقد حدث مفتي وهران الشيخ الحبيب بن عبد الملك، عن شيخه عالم وهران السيد الحبيب بن البخاري الوهراني عن أبيه وقد عاصر الشيخ أبا رأس فقال أن جماعة من تلاميذه تذكروا في قوة حافظته وكأنهم اتهموه بالاختلاق فركبوا اسماً نطق كل واحد منهم بحرف منه وجعلوه اسماً لملك، وسألوا الشيخ عنه فأملى لهم ترجمته وسيرته وأعماله، فاتفقوا على أن الشيخ كاذب، ولما طالت المدة وقف أحدهم على الاسم والسيرة في كتاب تاريخي على نحو ما كان أملاه الشيخ أبو رأس عليهم، فعلموا أن الشيخ صادق وهم مقصرون متهمون الشيخ مما هو منه برئ، وتأكدوا أنهم أمام علامة موسوعي يجمع في رأسه الكثير مما يعجز غيره عنه⁶⁶⁶.

662 - الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام المرجع السابق، ص 570.

663 - الحركة الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب (1115 - 1206 هـ / 1703 - 1791 م)، الذي خرج بدعوته في الحجاز فدعا إلى إحياء سنن السلف الصالح وتحقيق التوحيد الصحيح ونبذ الشرك ومظاهره المختلفة، ورفض محمد بن عبد الوهاب ما طرأ على الإسلام من أفكار جديدة خاصة التصوف، كما رفض مَدَنِيَّة الغرب. وتعد الحركة الوهابية الوحيدة التي بلغت السلطة وجسدت مشروعها على خلاف الحركات الإصلاحية الأخرى، للمزيد انظر: محمد إقبال، تجيد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمود عباس، دار التأليف و الترجمة، القاهرة، مصر، 1955. وكذلك، محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، دار الفكر، 1971.

664 - بو عمران الشيخ، المرجع السابق، ص 73.

665 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 187.

666 - أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج 01، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص 19، وما بعدها.

وكان الشيخ الناصري قد اتخذ من معسكر مقرا له للتدريس ونشر الفقه والعلم والدعوة بالحسنى بين الناس فكان يلتف حوله من الطلبة في المسجد نحو سبعمائة طالب من كل حذب وصوب يعلمهم ويؤدبهم بمختلف العلوم والفنون وكانت تأتيه الرسائل تدعوه لحضور المناسبات والأعياد المختلفة فيخطب ويوجه⁶⁶⁷.

وكان الناصري قد اتصل بسلطان المغرب المولى سليمان بن محمد فقر به من مجلسه، وكانت له مباحث ومناظرات مع فقهاء المغرب وعلمائه⁶⁶⁸.

ترك الناصري عدة مؤلفات تزيد على الخمسين مصنفا في مختلف أنواع العلوم منها تفسير القرآن، و"الحاوي الجامع بين التوحيد والتصوف والفتاوي". و"لب أفيافي في عدة أشيافي"، و"السيف المنتضى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضى"، و"در السحابة فيمن دخل المغرب الأقصى من الصحابة"، و"ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس"، ويذكر أن الناصري نفسه كتب رسالة مختصرة تحوي جميع مصنفاته سماها "شمس معارف التكليف في أسماء ما انعم الله به علينا من التأليف"⁶⁶⁹..

توفي أبو راس الناصري بعد حياة حافلة بالجهاد العلمي والعمل سنة 1823 ودفن نواحي مدينة معسكر⁶⁷⁰. في ظل ظروف سيئة كان يعيشها بابلك الغرب فقد تردت الأوضاع الأمنية وتعددت مواسم الجفاف والمجاعات والأوبئة، التي فتكت كثير من السكان، ومنها طاعون 1823 الذي أجهز على أبي راس الناصري نفسه⁶⁷¹.

09. - محمد بن العنابي / الفقيه المخضرم (1189-1267 هـ / 1775-1851 م.)

هو أبو عبد الله، محمد بن محمود بن محمد بن حسين الحنفي الشهير بابن العنابي الأزميري⁶⁷²، وُلد سنة 1189 في الجزائر وينتسب ابن العنابي إلى أسرة عريقة في العلم والفتوى يرجع

667 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 570 .

668 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه ص 570 .

669 - يحيى بو عزيز، "الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصري المعسكري"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 53_54، تونس، جويلية 1989. ص 246 وما بعدها.

670 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ص 576.

671 - بن قادة صادق، "الذاكرة المكتوبة والتاريخ أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)" في مجلة إنسانيات، معهد العلوم الانسانية جامعة منتوري قسنطينة... 1998، ص 35-45.

672 - نسبة لمدينة إزمير التركية.

أصلها إلى نواحي تركيا، ثم نزحت لُعْنَابَة⁶⁷³، ثم استوطن بعض أجداد المترجم مدينة الجزائر. ويرجح أبو القاسم سعد الله نسب الأسرة إلى اليونان وبالضبط من مدينة "جنينة"، نزحت للجزائر واستقرت بمدينة عنابة ومنها اكتسبت اسم الشهرة "العنابي"⁶⁷⁴ وكانت الجزائر تجلب إليها المهاجرين من النخب الدينية والسياسية والعسكرية خاصة من الأناضول بحكم كونها القطب الغربي الأساسي للدولة العثمانية⁶⁷⁵.

وقد ساهمت أسرة ابن العنابي من خلال تاريخها بصورة فعالة في إحياء وتجديد الفقه الحنفي بإيالة الجزائر بما يماثله من الواقع المعاش⁶⁷⁶. فأبوه محمود من علماء الحنفية وأحد أعيان البلد ولقبه شيخ الإسلام (ت1236)، وجده حسين بن محمد تولى الفتوى على المذهب الحنفي بمدينة الجزائر أربعة مرات، ولقب بشيخ الإسلام أيضاً، وكان له تفسير للقرآن الكريم، وكان أخوه لأُمّه الشيخ مصطفى العنابي باحثاً وفقهياً حنفياً استقر بمدينة الجزائر منذ أوائل القرن الثامن عشر، وله أرجوزة في الفرائض على الفقه الحنفي توفي سنة 1718⁶⁷⁷.

ومن أبرز الشخصيات التي ساهمت في تعليم وتربية ابن العنابي والده، فقد قرأ عليه القرآن الكريم والتفسير، وتلقى عنه الفقه الحنفي، ومختلف العلوم المتداولة، وتلقى عنه أيضاً صحيح البخاري قراءة وسماعاً لجميعه، فأجازه أبوه في رواية الحديث. كما أدرك المترجم جدّه محمداً، وسمع عليه قطعة من صحيح البخاري، وحصل على إجازته هو الآخر⁶⁷⁸.

ومن أكبر شيوخه مفتي المالكية علي بن عبد القادر بن الأمين، الذي قرأ عليه أيضاً بعض أجزاء صحيح البخاري، وجملة من صحيح مسلم، وتلقى عنه بعض المرويات وتلقى إجازته. كما أخذ عن الشيخ حمودة بن محمد المقياسي الجزائري⁶⁷⁹، فروى عنه الحديث، وذكر عبد الحميد بك في

673 - بلاد العناب مدينة تقع بشمال شرق إيالة الجزائر مطلة على البحر المتوسط يقول عنها "مارمول" سميت عند العرب بلد العناب والمسيحيون يسمونها "بون"... معتدلة المناخ وكثيرة الكسب... انظر مارمول كارافيغال، المصدر السابق، ج03، ص08.

674 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980، ص 198.

675 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 195.

676 - صالح بوبشيش، المدارس الفقهية في الجزائر، مرجع سابق، ص 155.

677 - صالح بوبشيش، المرجع نفسه، ص 155.

678 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص ص. 99-102.

679 - الشيخ حمودة بن محمد المقياسي الجزائري درس في الأزهر الشريف الأدب والفقه والنحو والفلسفة والتصوف ودرس حكم بن عطاء الله السكندري والموطأ والسنن، وغيرها، وفي رحلة العودة مر بتونس، ودرس بها ردحا من الزمن ثم عاد للجزائر، وامتنهن

تاريخه أن محمد صالح البخاري الرضوي لما اجتاز الإسكندرية أجاز ابن العنابي بعد ما استقر بالمدينة⁶⁸⁰.

تولى ابن العنابي القضاء سنة 1208هـ - 1793م وهو دون العشرين من عمره، حيث عينه محمد باشا (1765-1791م) في هذا المنصب الرفيع ولم تمض سوى سنتان حتى عَزَلَ نفسه، لخلاف وقع بينه وبين الداوي بابا حسن (1791-1797) الذي ربما قد يكون أَلْزَمَهُ بأمر مخالف للشرعية الإسلامية⁶⁸¹، وقد أشار دوفولكس في التشرifications إلى هذه الحادثة بقوله: "في هذا الشهر من شعبان كانت مناقشة كبيرة في مجلس العلماء الذين تبادلوا كلمات قاسية، وفي الغد المصادف ليوم الجمعة وبعد الصلاة قام القاضي الحنفي "حاج إسماعيل بن سفينجة" بتقديم تقرير بما حدث للباشا فقام من توه بعزل المفتي الحنفي "محمد بن العنابي" والمفتي المالكي "سيدي احمد بن الأمين"⁶⁸². فاعتزل ابن العنابي العمل في دواوين الدولة - العمل السياسي - متفرغا للتأليف والتدريس وطلب العلم.

ثم عاد للوظائف الرسمية سنة 1213هـ - 1798م، بطلب من مصطفى باشا (1797-1805م) ففي هذه السنة توفي مفتي الجزائر الحنفي، فتولى ابن العنابي مكانه، كما تولى وظيفة السفارة إلى المغرب ورئاسة نقابة الأشراف⁶⁸³.

ونظرا لكون بن العنابي يتمتع بقدرة كبيرة على العمل السياسي والتفاوض مع الدول الإسلامية عالما بأهمية الوحدة والتعاون بين الأقطار الإسلامية ونصرة بعضها بعضا، فقد كانت السلطة لا تجد غيره لتكلفه بالمهمات الدقيقة، ومن أجل ذلك فقد كُلف بالبحث عن سبل دم الأسطول الجزائري

صناعة الحلبي "المقاييس" للنساء، من تلاميذه "أحمد الشريف الزهار" صاحب المذكرات، و"قدور بن رويلة" صاحب كتاب "وشاح الكنائس وزينة الجيش الحمدي الغالب"، الذي يتحدث فيه عن حرب "الأمير عبد القادر الجزائري" مع الفرنسيين وتنظيماته المتبعة. توفي المقاييسي سنة 1245، انظر: نور الدين عبد القادر المرجع السابق، ص 210.

680 - إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، دت، ص 173.

681 - لم تذكر المصادر طبيعة النزاع الذي كان بين الداوي والمفتي الحنفي ولا طبيعة الأمر الذي خالف به الشرع والراجح انه نزاع فقهي بين المفتي الحنفي والمالكي لان الداوي عزل كلاهما من المنصب للمزيد انظر: أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990، ص 34.

682 - A.Voulx, de. Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France.... 1852..p77.

683 - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، المرجع السابق، ص 33.

الذي تحطم خلال حملة اللورد أكس ماوث البريطاني على مدينة الجزائر سنة 1232هـ - 1816م⁶⁸⁴، فكلف بالكتابة إلى باي تونس ثم بالسفارة سنة 1232هـ 1817م إلى القسطنطينية وطرابلس الغرب⁶⁸⁵.

وأرسله الداوي "عمر باشا" في سفارة للسلطان "مولاي سليمان" يطلب الإعانة لتجديد الأسطول فأعطاه السلطان المغربي سفينتين وأمره بتسليمهما للمجاهدين في الجزائر لصد العدوان المسيحي على البلاد⁶⁸⁶.

وتولى ابن العنابي إحدى وزارات الداوي حسين باشا سنة 1234هـ - 1818م ويبدو أنه لم يكن راضيا بأداء أجهزة الدولة فانسحب من الحكومة وحمل أغراضه متوجها نحو المشرق، وقد يكون السبب هذه المرة كثرة حبه للرحلة نحو المشرق ومصر حاجا وطالبا للعلم، لأن في مصر ألف كتابه المشهور "السعي المحمود في نظام الجنود" سنة 1242هـ - 1826م.

وفي سنة 1236هـ 1821م حجّ مترجما مع والده برفقة "محمد أفندي" - أخ الداوي حسين باشا- وفي طريق العودة استقر المترجم في الإسكندرية، ثم توجه للقاهرة، وبقي يدرّس بها في جامع الأزهر ما يربو على العشرة سنوات من (1235هـ 1819م) إلى (1244هـ 1828م). وبمصر أخذ عنه عدد من العلماء، منهم العلامة "عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ"، والشيخ "إبراهيم السقا"⁶⁸⁷. هل كان ابن العنابي مغضوبا عليه في بلاده ففضل المكوث بمصر أم أن هناك أسباب أخرى وراء هذا الهجران للوطن والأهل والخلان؟؟.

وفي أواخر سنة (1244 1829م) أرسل له "حسين باشا" والي الجزائر سفينة خاصة يطلبه للمجيء، حين بدأ حصار فرنسا للجزائر، فلبى النداء وفي طريقه مرّ بتونس، وأخذ عنه بعض علمائها، ووصل إلى الجزائر أوائل سنة 1245هـ 1830م، حيث استقبله الداوي حسين وقلّده الإفتاء من

684 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص35.

685 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص35.

686 - احمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص127.

687 - الشيخ إبراهيم بن علي السقاء فقيه وعالم وخطيب الجامع الأزهر تزامنت مشيخته مع قدوم السلطان عبد العزيز خان لمصر سنة 1281 فخطب بحضرته في جامع القلعة درس على ثلة من العلماء منهم العلامة محمد بن محمود الجزائري، والشيخ محمد صالح البخاري، وغيرهم له عدة تصانيف منها "رسالة في الطب" "رسالة في المناسك" و"بلوغ المقصود مختصر السعي المحمود في تأليف العساكر والجنود" حج وخطب في الحرم المكي ثم رجع إلى مصر حيث توفي سنة 1298 1880. انظر: عبد الستار الدهلوي، فيض الملك المتعالي، المرجع السابق، ص 130.133

جديد بعدما عزل سابقه لتذمر الأهالي منه⁶⁸⁸، آملا أن يستفيد من آرائه ونظراته المستقبلية التي كانت تحملها أخباره التي ترد الباشا حسين، لكن استدعاءه جاء متأخرا جدا بعدما بلغت أوضاع البلاد حالة لا يرجى البرء من بعدها..

وقد أشار "أحمد الشريف الزهار" في مذكراته أن زمن نكبة احتلال الجزائر سنة 1830م كان محمد بن محمود العنابي قاضي ومفتي المذهب الحنفي، أما قضاة المالكية فكان منهم "الحاج بن عبد القادر محمد بن الحاج إبراهيم علي بن محمد المنجلاتي" الفقيه والعلامة، أما المفتي المالكي فكان الشيخ "مصطفى بن الكبابي"..⁶⁸⁹

وشارك ابن العنابي بكل ما يملك من أدوات التعبير والتحريك والتشجيع لنصرة المقاومة ودفع الاحتلال الفرنسي للجزائر. لكن القيادة السيئة - كما يقول المؤرخون - للمقاومة من طرف صهر الداى الأغا إبراهيم كانت سببا في حدوث كارثة الاحتلال لضعفه العسكري وتسرعه وعدم إدراكه لتغير موازين على أرض الميدان، حول المعركة المصرية مع فرنسا من معركة وجود إلى حسابات ضيقة⁶⁸⁹.

ودافع ابن العنابي بقوة عن أوقاف المسلمين حينما قام الاحتلال الفرنسي بالسيطرة عليها، وأقام في منزله مظهرًا للمسالمة، مع إنكاره على الحاكم الفرنسي الجنرال كلوزيل⁶⁹⁰، ولكنه كان يتواصل مع الأعراب خفية ويجرّضهم على الجهاد لطرد المستعمر، فلما كشفت أمره سلطات الاحتلال هاجم الجنود منزله، فقام برمي الوثائق والأوراق في بيت الخلاء، ففتشوا المنزل ولم يحصلوا على شيء، فكفوا عنه، لكنهم كانوا يراقبونه من بعيد، ويصرّحون بخطرهم عليهم وتأثيره في البلاد وتحريضه للأهالي، وقاموا باستدراجه في الكلام - بإرسال من يتجسس عليه -⁶⁹¹، حول مقدرته على تسلّم زمام الحكم

688 - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط03، (ش و ن ت) الجزائر، 1982، ص37.

689 - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر، المرجع نفسه، ص38

690 - "كلوزيل" قائد عسكري وسياسي فرنسي عينته حكومة الملك لويس فليب قائدا عاما للقوات الفرنسية بعد "الكونت ديرمون" من 12 أوت 1830 الى 21 فبراير 1831. حَفَلَ سَجَلُهُ بالجرائم، وكان من دعاة الاحتلال الشامل، من أبرز أعماله إنشاء فرق "الزواوة" العسكرية وتوزيع الأراضي على فرقه لمكافأته، وجعل أملاك الأوقاف جميعا تابعة لإدارة الاحتلال لتمويل المشاريع الحربية.

691 - ذكر أبو القاسم سعد الله أن كلوزيل أوقع ابن العنابي في مكيدة نصبها له حيث سَير له أحد أعوانه موهبا إياه بأنه ينوي الجلاء عن الجزائر وتسليم الحكم له، وسأله ما إذا كانت لديه القدرة على تنظيم جيش والدفاع عن البلاد، فأجابه المفتي بأن ذلك

وتنظيم جيش كبير يبلغ ثلاثين ألفاً، فسُجن. وحصلت منهم الإهانة له ولأسرته، وأمر الجنرال الفرنسي كلوزيل بنفيه فوراً، ولم يُمهله وقتاً كافياً لترتيب أموره، إلى الإسكندرية حيث مكث هناك حتى توفي بها⁶⁹².

ولما عاد ابن العنابي إلى الإسكندرية كان مفتيها الشيخ خليل السعران قد توفي، فقام محمد علي باشا بتعيينه مفتياً للحنفية فيها، وهناك انتفعت بعلمه طائفة كبيرة من الطلاب والعلماء من أهل الإسكندرية ومن خارجها.

وتضايق محمد علي باشا أواخر أيامه بسبب الصراعات الفكرية والمذهبية التي كانت تحدث في مصر، فطلب من ابن العنابي أن يؤلف له كتاباً يجمع فيه ما رجع من أقوال الأئمة الأربعة، ويُعتمد في القضاء، ويوحد المسلمين ويقضي على أسباب الفرقة فألف كتابه: "صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة"⁶⁹³.

ولما تولى عباس باشا عرش مصر سنة 1265 سعى بعض المشايخ لإبطال الكتاب، وما زالوا يكيّدون له عند والي ويتّهمونه زوراً بالعظائم حتى نقم عليه وعزله سنة 1266، وولّى مكانه تلميذه الشيخ محمد البنا، فأقام المترجم معتزلاً في بيته، حتى وافاه الأجل⁶⁹⁴.

كان ابن العنابي أثرياً سلفياً متبعاً لمنهج السلف الصالح، لكنه لم يكن متحجراً وجامداً على مذهب معين بل كان قابلاً لتغيير وتصحيح بعض جوانب عقيدته، عندما يكتشف بالدليل الحق عند غيره فيذعن ويتراجع عن أقواله السابقة، فقد كان ابن العنابي في البداية يميز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالصالحين، ثم تخلّى عن عقيدة التوسل لما استقر بمصر واطلع على أدلة جديدة في الموضوع⁶⁹⁵، وقد يكون ابن العنابي قد تخلّى عن عقيدة التوسل بالنبي لتأثره بالحركة الوهابية التي ذاع صيتها في البلاد العربية..

في استطاعته إذا اقتضى الأمر، وأنه سيجيش جيشاً يبلغ ثلاثين ألفاً من كل البلاد. وكان العون قد أخفى حسب الرواية شخصين ظلاً ينصتان لهذه المحادثة. ليكونا شاهدين ضده. انظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 260، وأبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي.. المرجع السابق، ص 30.

692 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 182-183.

693 - أبو القاسم سعد الله، ابن العنابي رائد التجديد، المرجع السابق، ص 99-102.

694 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 99-102.

695 - قال فيه العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، بعدما لقي ابن العنابي بمصر سنة 1247، : "وأما ما ورد في السنن من السؤال بحق السائلين وبحق ممشي الذاهب إلى المسجد ونحو ذلك: فالله سبحانه وتعالى جعل على نفسه حقاً تفضلاً

وكان يقول برأي أهل السنة والجماعة في مسألة الصفات: "ونحن لا نقول برأي الشيعة والمعتزلة، القائل بنفي رؤية الله يوم القيامة، لضيق مجاله، فنُسَلِّمُه لأربابه، سالكين مسلك الجمهور من أهل السنّة، لوضوح أدلتهم"⁶⁹⁶.

وأما فكره السياسي فقد كان ابن العنابي فقيها متكاملا في بنيته التكوينية الفكرية، منفتحا على روح العصر و متمسكا بأصالته، ففي جدلية العلاقة بين الراعي والرعية يرى ابن العنابي أن العلاقة بينهما مقدسة ونظر إلى الراعي والرعية بنظرة مثالية جادة، قوامها الإخلاص والصدق بين الطرفين، وتكون خالية من الخداع والنفاق، وفي ذلك نفع للبلاد⁶⁹⁷.

فمن حق السلطان - كما يرى ابن العنابي - على الرعية الطاعة والولاء والسرعة في الاستجابة ما لم يأمر بمعصية، ومن حق الرعية عليه أن يحسن اختيار أعوانه⁶⁹⁸. والولاة لا يضمنون الطاعة إلا إذا كانوا أهلا للولاية وحكموا الناس بالعدل، حتى يحصل الانقياد ظاهرا وباطنا والبعد عن الغيبة والبغض والنفاق، فالوالي مطالب بالتقرب من الرعية والحرص على حبها والتودد لها والصدق معها لتبادل نفس المشاعر⁶⁹⁹.

لقد كان ابن العنابي يدعو إلى أخلاقة العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتبدأ من خلال "كف الألسن عن ذكر الولاة والكبراء إلا بالثناء فإن هذه الأمور بواعث اجتماع الأمة"⁷⁰⁰.

ولا تكتمل رؤية ابن العنابي التجديدية دون الحديث عن دعوته لبناء جيش قوي وحديث ومحترف، وهي رؤية متقدمة سبق بها معاصريه، وتطمح إلى بناء مجتمع قوي فاضل في دولة جادة،

منه وإحساناً إلى عباده، فهو توسلٌ إليه بوعده وإحسانه وما جعله لعباده المؤمنين على نفسه؛ فليس من هذا الباب - أعني باب مسألة الله بخلقه-، وقد منعه فقهاء الحنفية، كما حدثني به سيدي محمد بن محمود الجزائري الحنفي رحمه الله بداره بالإسكندرية، وذكر أنهم قالوا: لا حق لمخلوق على الخالق".

696 - أبو القاسم سعد الله، ابن العنابي رائد التجديد، المرجع السابق ص30.

697 - ابن قينة عمر، الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي، دار أسامة، عمّان، الأردن، ص 60.

698 - كان ابن العنابي يدرك صراحة أن صلاح المتأخرين لا يكون إلا بما صلح عليه الأولون، ونستشف هذا من دعوته السلطان لحسن اختيار الأعوان فلا يكونوا ظلمة متمردين يعزلون الرعية عن الراعي وينفردون بالسطوة والحظوة وهو ما اصطلاح عليه قديما بالبطانة الصالحة والبطانة السيئة.

699 - ابن قينة، المرجع السابق، ص 60.

700 - ابن قينة، المرجع السابق، ص 60.

يحكمها الشرع يسعى الجميع فيها إلى التطور والازدهار، وتنتفي فيها الآفات وأسباب المذلة والهوان، ولا تتحقق حياة قوية دون التزام الجدية والشرع والقانون والعدل والفضيلة والتعاون والحب والإخلاص، بين جميع مكوناتها⁷⁰¹، ورغم ذلك كان ابن العنابي يميل إلى تحميل الولاة المسؤولية في صلاح الأوضاع السياسية، إلا إذا طبقوا العدل وكانوا حريصين على الرعية.

وقد جسد ابن العنابي حقيقة شخصية الفقيه المفكر المدرك لنكبة أمته والعارف بخبايا التمكين وأولويات البناء ومراحل ومقتضياته، وكان يرى كغيره من النخب الإصلاحية في الدولة العثمانية على أن تدخل الجيش في السلطة كان وراء الأزمات التي عرفتتها السلطنة العثمانية من خلال التعسف في تحصيل الضرائب وظلم الرعايا⁷⁰²، ولم يكن هذا على مستوى السلطنة فقط بل تعداه إلى الولايات التابعة لها حيث أصابها ما أصابها من ظلم وجور تدخل الجيش في شؤون الرعية⁷⁰³، ودعا في هذا الإطار إلى عزل الجيش عن الحياة السياسية وجعل مهمته الدفاع عن حياض الأمة ورعاية الاستقرار وتنفيذ القانون⁷⁰⁴، كما سبق غيره من متنوري حركات التغيير العربية في الدعوة للأخذ بأسباب المدنية الحديثة وكسر طوق التقليد والجمود وفتح باب الاجتهاد للمقتدرين وأجاز الأخذ بأسباب المدنية الحديثة⁷⁰⁵.

وكان ابن العنابي يرى المسلمين كلهم من جانب تجميعي، لا يستثني من بلاد الإسلام شيئا، ويعتقد أن الكفار جميعا أعداء للإسلام والمنافقون وأهل الذمة والعهد، وأنهم إذا رأوا كمال تيقظ المؤمنين واستعدادهم دخلتهم الرهبة واليأس، فباطنوا المسلمين الشر والكيد دون أن يعلنوها⁷⁰⁶..

701 - ابن قينة، المرجع نفسه، ص 61

702 - عبد الحي الخيلي، النخبة والإصلاح نماذج من الفكر الإصلاحي العثماني بين القرنين 16م و19م، تق عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس أكادال، المغرب، 2014، ص 159.

703 - عبد الحي الخيلي، المرجع نفسه . ص 161.

704 - عبد الحي الخيلي، المرجع نفسه ص 61

705 - كانت دعوة ابن العنابي الإصلاحية نابعة من إحساسه كعالم وفقيه ومفكر ومصلح ولم يتأثر بمن قبله من عاصر ورواد الحركة الإصلاحية التي انبثقت عن الإرهاصات الأولى للنهضة العربية الحديثة وقد يكون ربما قد سبق روادها الأوائل في الدعوة لأفكار جديدة وجريئة، ترفع لواء الاجتهاد والتجديد وتبذ التقليد الأعمى لتراث القرون الماضية، والانفتاح على مكتسبات العصر.

706 - محمد بن محمود بن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تح محمد بن عبد الكريم، (م.و.ك)، الجزائر، 1983، ص 60.

وفسر قوله تعالى "الله يعلمهم" بأن الكفار بالغوا في مباطنة العداوة للمؤمنين وإخفائها إلى حد لا يقف عليه ولا يعلمه إلا الله، مبالغة في التحذير منه عز وجل على الأخذ بالحزم والتحرز من الغفلة وعدم الاغترار بما يظهر من الأمن وتودد الأعداء وساق قول الشاعر:

كل عداوة قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين.⁷⁰⁷

ووقف ابن العنابي من قضايا عصره المستجدة بكل حزم، فقد وقف من الحركة الوهابية المنبثقة في الحجاز التي رفعت راية تجديد الدين وهدم أصول الشرك والوثنية، موقف المعجب بها، الداعي لها بالنجاح، فقد نُقل عن المؤرخ ابن غنام في تاريخه⁷⁰⁸، قوله في معرض حديثه عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "وكذلك أهل مصر والشام والعراق والحرمين تواتر عن فضلائهم وأذكيائهم مدحه والثناء عليه، والشهادة له أنه جدد هذا الدين، كما قال شيخنا محمد بن محمود الجزائري رحمه الله تعالى"⁷⁰⁹.

ولم يكن ابن العنابي رغم انتمائه لفقهيا للمذهب الحنفي متعصبا لمذهبه ولا جامداً على نصوصه كما كان أقرانه في ذلك الوقت، فاستدلّاه بالحديث والأثر كثير، ولا سيما في كتابه السعي المحمود في نظام الجنود، حيث ينص على عبارات تفيد الترجيح وإعمال العقل في كثير من المسائل وكان يردد قوله الذي يفيد أن التزام مذهب معين ليس لازماً ولا واجباً، وكان يصرح بأن "الواجب على العامي تقليد عالم لا بعينه، كما يُفَيِّده قوله تعالى: "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"، فمتى فعل ذلك فقد أتى بواجبٍ عليه، فصار خارجاً من العهدة".

ومن مواقفه التي تنبئ عن حزمه وقوة موقفه إزاء بعض القضايا المعاصرة، موقفه من حجاب المرأة ودعاوي إسقاط العفة والاحتشام عنها، والتي كان أصحابها يتسترون بأخوة الدين بين المسلمين والمسلمات، لتحقيق أغراضهم وأطماعهم، فقد أجب أحد السائلين الذين أثاروا مسألة إمكانية انعقاد الأخوة الإسلامية بين المرأة والرجل من غير وجه حق فقال: "وأما مؤاخاة المرأة في الله بهذا الغرض المحرّم فإنها من كبائر المعاصي، فإن حرمة النظر إلى موضع الزينة من الأجنبية من الأمور القطعية الثابتة بقوله تعالى: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ" الآية، وعلى ذلك إجماع الأمة، وهو من ضروريات الدين، ومن استحلال الحرام القطعي الذي يعلمه كل أحد من أهل الإسلام فإنه يصير كافراً، فإن غلبَ فاعل ذلك الجهل والغباوة فإنه يُزجر عنه وتُكشف شبهته، فإن انتهى فذاك المراد، وإن أبى إلا تمادياً على ضلاله

707 - بن العنابي، المصدر السابق، ص60.

708 - حسين بن غنام، تاريخ نجد، "تاريخ ابن غنام"، تح ناصر الدين الأسد، دار الشروق، الرياض، 1380، ص93.

709 - ابن غنام، المصدر السابق، ص93.

وغِيّه فيجبُ على أمراء الإسلام قتلُه وإراحة المسلمين من شره، لظهور زندقته، والزندق إذا أُخذ قبل التوبة قُتل ولا تُقبل له توبة"710.

كما كان موقفه شديداً على دعاة الزندقة والتصوف المغشوش، الذين أدخلوا على الإسلام وأهله صورا عديدة من الفساد، ودعا إلى قتالهم وصدّهم عن غاياتهم على حدّ تعبير ابن العنابي "من أعظم ما يُتقرب به إلى الله تعالى، فهو من أعظم الجهاد، ولا تغتر بما يُظهرونه من الإصلاح والنسك، فإنه من مكر الزندقة وخداعها، أخزاهم الله، وأبعدهم، وسلّط عليهم من ملوك الإسلام الذابّين عن حمى شريعة سيد المرسلين من يشّتت شملهم ويحسم مادة فتنهم وشرّهم"711.

وقد صرح ابن العنابي بهذا الموقف دون خشية في وقت ساد فيه التصوف والغلو، وقل الإنكار على شطحات المتصوفة ومخالفاتهم الشرعية الصريحة.

ولم تكن مواقف ابن العنابي لتمرّ دون ضجة فبعض مشايخ عصره آذوه وكادوا له حتى آخر عمره، واتهموه بما يُتّهم به أمثاله المصلحون الداعون للسنة، فقالوا: إنه خارجي زنديق! يسعى لضعف الديانة المحمدية ودّوسها! ولم يكتفوا بالقول، بل سعوا ضده عند الحاكم التركي حسين باشا إلى أن عزله712. وكان يعلق على خصومه بكل موضوعية فيقول: "كان قصدهم في ذلك ارتزاقهم من الفتاوى على الاختلاف في المذاهب وأقوالها"713.

وقال عنه أبو القاسم سعد الله: "أنه كان رائد دعوة التجديد الإسلامي في مجاله وعصره، ولكن نظراً لتسلّط الأعداء وأتباعهم وتأثيرهم في وقته، ممن شابت دعوتهم التأثيرات الغريبة على حساب النهج الإسلامي، فكانت دعواتهم في الحقيقة تحرّراً من الدين، لا تجديداً فيه. فكان ضحية فكره ومساعيه من أجل تحرير قومه من الخرافات والأوهام والتخلف، وهو أيضاً ضحية الاحتلال الفرنسي لبلاده"714.

710 - أبو القاسم سعد، ابن العنابي رائد التجديد.. المرجع السابق. ص 121-122).

711 - الزهراني علي بن بجيت، الانحرافات العقدية المرجع السابق، ص 540-546).

712 - إبراهيم بك حليم، المرجع السابق، ص 190.

713 - إبراهيم بك حليم، المرجع نفسه، ص 190.

714 - أبو القاسم سعد الله، ابن العنابي رائد التجديد.. المرجع السابق، ص 122.

وترك ابن العنابي عدة تأليف منها له منها "السعي المحمود في نظام الجنود"، وهو أجلّ مؤلفاته وأشهرها، و"صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة"، و"شرح الدر المختار في الفقه الحنفي"، و"العقد الفريد في التجويد"، و"إمعان البيان في بيان أخذ الأجرة على القرآن". وغيرها من المؤلفات الهامة. كما له فضلا عن ذلك فتاوى كثيرة وإجازات عديدة لثلة من العلماء من مختلف الأمصار كما له مراسلات مع العلماء والساسة، وتعاليق على بعض الكتب. وقد ذكره الأعيان والعلماء بكل فخر واثنوا عليه كل الثناء فقال فيه حمدان بن خوجه: "كان المفتي سيدي محمد العنابي رجلاً نزيهاً فاضلاً"⁷¹⁵.

وقال فيه الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: "لقيت بمصر مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري، فوجدته حسن العقيدة، طويل الباع في العلوم الشرعية". وكتب عنه عبد الحميد بك في تاريخه⁷¹⁶: "وكان رحمه الله تعالى إماماً فاضلاً، عارفاً بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها، واختلاف أقوالها، والراجح منها، والضعيف فيها، وعالماً في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية، وله إنشاءات وشعر"⁷¹⁷.

كما وصفه تلميذه إبراهيم السقا في كتابه بلوغ المقصود: ب"كشاف الحقائق، ومنبع الرقائق والدقائق، شيخنا المحفوف باللطف الحفي، محمد بن محمود بن محمد الجزائري الأثري". أما المؤرخ عبد الستار الدهلوي فقد أوجز فيها واصفاً إياه في كتابه فيض الملك الوهاب المتعالي: ب"العالم الفاضل، صاحب التأليف النافعة"⁷¹⁸.

وقد ترك ابن العنابي ثلة كبيرة من الفقهاء والمؤرخين والأصوليين والمفتين ورجال الإصلاح والسياسة، نهلوا من علمه وفكره ومقارباته منهم محمد بن خليل القاوقجي 1876م، ويبرم الثاني التونسي (ت1794م)⁷¹⁹ العلامة المصلح والمفكر الفقيه، كما تتلمذ عنده إبراهيم السقا⁷²⁰، وأحمد بن

715 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 259.

716 - إبراهيم بك حليم، المرجع السابق، ص 190

717 - إبراهيم بك حليم، المرجع نفسه، ص 190

718 - الدهلوي عبد الستار، فيض الملك الوهاب المتعالي، ج 03، المرجع السابق، ص 1811.

719 - قال فيه ناميذه محمد بيرم التونسي في رثائية لابن العنابي:

به كُسيَ الإسلامُ حُلَّةَ مَجْدِهِ وأضحى له فخرٌ به وسرورٌ
ولو قيل: مَنْ حازَ العلومَ بأسرها؟ إليه جميعُ العالمين تُشيرُ

حسن الرشيدى، وأحمد بن يوسف بن يوسف القنياتي، ومحمد بن محمد مطر العفيفي الشافعي، وعبد الرحمن بن عثمان الدمياطي الغمراوي، وإبراهيم بن حسن الأسعدي، ومحمد بن علي الطحاوي، وعبد القادر الرفاعي الطرابلسي، ومن أخذ عنه كذلك أحمد التميمي الخليلي مفتي القاهرة، ومحمد البنا مفتي الإسكندرية، وعلي البقلي، و خليل الرشيدى، ومحمد الكتبي، ومحمد الملاح الأسكندري، والمترجم ممن أجاز الكثير من أهل عصره، كما ذكر في إجازته لمحمد بيرم التونسي لوغيرهم⁷²¹.

توفي ابن العنابي سنة 1267 هـ الموافق لسنة 1850م، عن عمر يناهز ثمانية وسبعين سنة، وأرخ وفاته الشاعر محمد عاقل⁷²² بقوله: "اليوم رمس مفتي الإسكندرية".

المبحث الرابع: العلاقة بين المذاهب الفقهية

بعد عرض واقع المذاهب الفقهية المختلفة الموجودة في الجزائر من حيث نشأتها ومبادئها وأهم رجال الفقه المنتمين لها، لنا أن نتساءل بعد ذلك عن العلاقة التي كانت تجمع بين هذه المذاهب هل كانت علاقة مستقرة يسودها التعاون والاحترام ام ها.

والحديث عن هذه العلاقة مرهون بالفترة التي سبقت الوجود العثماني في المنطقة، ذلك لأن الحاضر مرهون بالماضي، وما شهدته المنطقة من صراعات تلقي بظلالها على الأزمنة اللاحقة. وتباين الصراع المذهبي الذي ساد المغرب الإسلامي طيلة الأربعة قرون التي تلت فتحه، بين التنافس الإيجابي في الميدان الفكري والفقهى القائم على الاجتهاد والبحث، وبين النزاعات السياسية والقبلية التي اتسمت بالعنف والدموية. خاصة بعد قدوم الخوارج وما إن حل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي⁷²³، صارت الغلبة للمذهب المالكي.

720 - خطيب وشيخ من مشايخ الجامع الأزهر خطب في جامع القلعة بالقاهرة أمام السلطان عبد العزيز خان سنة 1281 فكان فارس البلاغة والبيان، توفي سنة 1298. انظر: عبد الستار الدهلوي، المرجع السابق، ص 133.130.

721 - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي، المرجع السابق، ص 42-44.

722 - محمد عاقل كاشف زادة العمري ولد في مدينة الإسكندرية، وتوفي فيها حفظ القرآن الكريم، وتلقى علوم الدين واللغة والأدب والشعر اشتغل بالتجارة إلى جانب قيامه بتدريس علوم اللغة والأدب في المسجد الأنور بالمدينة من أشهر قصائده تلك التي وصف فيها مشاركة الجيش المصري في حرب القرم (إلى جانب الخلافة العثمانية ضد روسيا يغلب على شعره النزعة الدينية الإرشادية وتوجيهه للنصح للشباب، وله قصائد أخرى في الرثاء وذكر الحوادث المختلفة منها: وفاة ابن العنابي، انظر:

<http://www.almoajam.org>

723 - إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 181.

لقد كان التفاهم والتناغم سمة بارزة بين المذاهب السنية خاصة المالكية والحنفية، وكان فقهاء المذهبين يتعاونون عند ظهور الأفكار المتطرفة، كالمذهب الشيعي الاسماعيلي، الذي كان ظهوره سببا في انضمام الاباضيين إلى هذا التحالف ليحولوا بينه وبين الناس، وقد صور بعض المؤرخين بعض مظاهر التضامن، حيث قال أن الحاكم في البلد كان يسير سنة بالفقه الحنفي وسنة أخرى بالفقه المالكي⁷²⁴، تعبيرا عن روح التعاون والتآزر بينهما.

ورغم التباين في ممارسة بعض شعائرها فإن المذاهب السنية تتفق على جواز الخلاف بينهما، وأن هذا الخلاف لا يخرج من الملة ولا يفسد عقائد الناس، فحرية اعتناق المذاهب الفقهية السنية سواء مذهب مالك أو مذهب أبي حنيفة وحتى مذهب أحمد بن حنبل والشافعي، مكفولة للمسلمين خاصة للمجتهدين الذين بلغوا القدرة على معرفة أدلة الإمام المتبع وترجيحها على أدلة إمام آخر⁷²⁵. ويرى الباحثون في تاريخ نشأة الفرق والمذاهب، أن الاختلاف الفقهي في كثير من البلدان الإسلامية كان يمس طبقة الفقهاء والنخب العاملة، أما العامة فلم تكن آبهة سوى بالبحث عن لقمة العيش، إلا إذا جُيشت واستغلت لتحقيق أغراض بعض التيارات والمذاهب.

ففي العهد العثماني الذي هو مجال دراستنا كانت العلاقة بين الأحناف والمالكية في الجزائر في أغلب الأحيان ساكنة وهادئة ومتناغمة، شعارها التعاون والانسجام، والسبب يعود فضلا عما ذكرناه سابقا إلى كون المذاهب الفقهية كانت مفتوحة على بعضها، وكانت الفتوى صحيحة عند المذهبين إذا صدرت من فقيه من الفقهاء يشهد له بالعلم والنبوغ، غير أن الأهالي كانوا يتحينون الفتاوى السهلة المنسجمة مع ما يريدون، فيكثرون التردد على المفتي الحنفي ثم المفتي المالكي أو العكس، للحصول على أحسن ما يرضيهم، ولما تفتن الفقهاء والمفتون لهذه المناورة، صار المفتي يسأل صاحب الحاجة هل مررت بالمفتي الآخر؟ فإن أجاب بنعم، قال له: ذلك هو الرأي الصواب اذهب فاعمل

724- إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 181.

725 - التقليد معناه الإلتباع واقتفاء الأثر ويسوغ للعامي أن يتبع مذهبا معينا من المذاهب المعروفة لان المذاهب مظنة تعريف متبعتها بأحكام الدين والمقلد هو من ليس بعالم ولا مجتهد هو السائل عن أحكام الدين والمتبع مذاهب المجتهدين. والمجتهد هو من بذل جهده واستفرغ ما في وسعه لإدراك حكم شرعي، للمزيد انظر: خالد رمضان حسن، معجم أصول الفقه، المرجع السابق، ص 277.

به، وهو سلوك حسن ورؤية جادة لضرورة توحيد المعالجة الفقهية للعوام والتي من شأنها التخفيف من حجم الخلافات الفقهية والسياسية⁷²⁶.

وعليه يمكن الإشارة إلى وجود حالة راقية من التعايش المذهبي بين الأتباع، فالاختيار بين المذاهب كان متاحا للعامة، وكان المذهب الحنفي يستهوي الناس أكثر من المذهب المالكي، أما في مسائل المعاملات والحدود والزجر فقد كان الأهالي يفضلون الفقه المالكي لأنه أكثر صرامة وتشددا، ففي مسائل قذف المحصنات أو سلوك العبيد المحررين مع أسيادهم فقد كان المالكيون أكثر صرامة من الأحناف⁷²⁷، ويؤكد هذا التعايش المذهبي حسب الدراسات التاريخية لوثائق الأوقاف في الأرشيف أن سكان الجزائر المالكيين كانوا يوقفون ممتلكاتهم حسب المذهب الحنفي⁷²⁸، نظرا لما يتيح من مرونة وديناميكية⁷²⁹، بل إن كثيرا من الارتباطات الشرعية بين الانكشاريين الأحناف بالجزائريين تتم وتوثق جل عقود النكاح على مذهب الزوجة رغم قوة المذهب الحنفي وقوة أئمتة ومؤسساته⁷³⁰.

726- أكد لنا "الشيخ إسكندر" أحد أحفاد آخر مفتي حنفي بمدينة المدية استمرار مثل هذه التصرفات من طرف الأهالي حتى خلال الاحتلال الفرنسي وبعيد الاستقلال، ويدعى الشيخ "فضيل إسكندر"، أجازته الشيخ "عبد الحميد بن باديس" سنة 1933 للتدريس في المسجد الحنفي بالمدية، ثم تولى شؤون الفتوى في الجزائر وتوفي سنة 1966، وقد نفى الشيخ إسكندر - الذي حدثناه في هذا الموضوع خلال زيارة قمنا بها لمدينة المدية سنة 2010 - وجود عائلات حنفية في الوقت الحاضر. بسبب عدم متابعتها لفقه المذهب، وينتمي جلها لفئة الكراغلة.

727- houari touati, *Opcit* p 107.

728 - من مظاهر انفتاح الجزائريين المالكيين على المذهب الحنفي التحبيس وفق المذهب الحنفي، و تنص إحدى الفتاوى التي قدمت بين يدي المفتي الحنفي أن رجلا مالكيا أراد تحبيس داره على نفسه مدة حياته ينتفع بغلتها ثم بعد وفاته على ذريته وزوجه وعلى أعقابهم فان انقرضوا، يرجع ذلك وقفا على فقراء الحرمين الشريفين، وفق مذهب أبي حنيفة وقد ذكر مفتي الحنفية أن المستفتي قد قبل وقفه ووافق على ذلك مفتي المالكية الشيخ "محمد بن سعيد" والقاضي الحنفي "أحمد القاضي". انظر: خليفة حماش، *الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني*، دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة منتوري قسنطينة 2006، ص 1064

729- عقيل نمير، *حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر: أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية*، أبحاث الندوة العلمية حول الوقف في الجزائر أثناء القرنين 18 و19 م ص 121.

730 - عائشة غطاس، "سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني"، في مجلة *إنسانيات*، ع 3، الجزائر 1997، ص 71.

غير أن العلاقة على مستوى النخب المالكية والحنفية كانت تهتز بين الحين والآخر ويطبعها التنافس والصراع في فترات معينة⁷³¹. وكانت الخلافات والصراعات تتجدد بينهما لسبب أو لآخر، خاصة إذا كانت تغذيها الطموحات السياسية والخلافات الفقهية الفرعية⁷³².

وحفل التاريخ بكثير من الحوادث والوقائع التي كانت بين فقهاء المذاهب، تتم أغلبها عن الحسد وحب الظهور والتنافس المحموم على ألقاب القضاء وخطط الفتوى، لما تقدمه لصاحبها من امتيازات وقد بلغ ببعضهم حب المنصب والجاه إلى شرائه بالمال ودفع الرشوة للحصول عليه⁷³³.

ولم يكن التنافس المحموم هو وحده سمة المرحلة فقد شهدت إقامة نقاشات علمية موضوعية في بعض الفترات، كذلك التي كان يحرص عليها بعض حكام البايلاكات كالباي صالح بقسنطينة والباي محمد الكبير بوهران، وكان يحضرها فقهاء بارزون متمكنون من الفقه وعلم الكلام والمنطق، كابن ميمون الذي تشير المصادر أنه كان يحضر بعض هذه المجالس، ثم بعد مدة أثر الانسحاب منها للحفاظ على راحة باله ومتجنباً للخصومة والعداوة الناشئة، والتي طالما كانت تنتهي بسلوكات غير مرضية وصفها ابن ميمون نفسه بقوله: "على أن أبناء العصر ابتلوا بالحسد يطلقون ألسنتهم بالفحشاء في كل مرصد ومن كانت له ملكة فليصنف أو فليصنف"⁷³⁴ وهي دعوة للفقهاء بلزوم منهج الهداية والالتزام بأخلاق هذه الطائفة المعول عليها في تبديد سحب الجهل والتخلف.

وإذا كان المذهب الحنفي كما يذكر شارل أندري جوليان خاصاً بالحكام الأتراك ومن اتصل بهم، فإن المذهب المالكي كان هو المسيطر داخل المجتمع الجزائري. ولعل ذلك راجع، كما يقول للملاءمة المذهب المالكي طبيعة السكان الأصليين في الجزائر، لاتصافه بالصرامة والشدة وإتباع النص وهي صفات يمتدحها سكان المنطقة. كما أن تاريخ المذهب حفل بكثير من الانجازات السياسية، منها توحيد المغرب الإسلامي المتنازع عليه تحت قبة بيت الموحدين⁷³⁵، خلال القرنين الثاني عشر

731 - صالح بوبشيش، "المدارس الفقهية في الجزائر خلال الحكم العثماني"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، سنة 2004، ص 163.

732 - إسماعيل سامعي، المرجع نفسه، ص 183.

733 - الورتلاني المرجع السابق، ص 109-111.

734 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص 163.

735 - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 02، ترجمة م مزال، دار بوسلامة تونس 1980، ص 64-65.

والثالث عشر الميلادين، ووقوفه في وجه جل الحركات الدينية المتطرفة والباطنية التي استهدفت المغرب الإسلامي بعدما عصفت من قبل بالمشرق الإسلامي، وأضعفت شوكة المسلمين.

أما في ما يخص علاقة الاباضيين بغيرهم من أتباع المذاهب الأخرى فتكاد تجمع المراجع القليلة والمصادر التي عملنا منها على وجود تمايز وافتراق واضح في التعاملات بين الطرفين.

لقد كانت الانتماءات و الولاءات الدينية والطائفية أقوى من أي رباط آخر، وظلت المجموعات الفقهية السنية من جهة والاباضية من جهة ثانية تتقرب بعضها البعض، وكانت روح التعايش بينهما ضعيفة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمساس بالكيان الجيوسياسي لكل منهما. وقد ساق الونشريسي أمثلة متنوعة في هذا الموضوع من خلال نوازلها منها أن رجلا سنيا أعجب بفتاة شيعية بارعة الجمال ولكنه رفض الزواج بها خشية على دينه⁷³⁶، وذكر لنا امرأة أخرى طلقها الفقهاء المالكيون من زوجها الخارجي خشية عليها من عقيدته.

وكان الاتصال بين أتباع المنطقتين الاباضية والسنية في أوقات السلم والأمن قائما وطبيعيا لكنه اقتصر على التبادل التجاري مع المناطق القريبة بواسطة رؤساء العشائر كأولاد سيدي الشيخ وأولاد جلاب في توقرت⁷³⁷، ومع مناطق أقصى الشمال بمدنه الثرية كقسنطينة والمدية والجزائر. في حين كانت تنقلب الأمور في أحيان أخرى فيحل الترقب والحيطه والاستعداد للحرب بين الطرفين⁷³⁸.

وقد ساهمت المجموعة الاباضية في إرساء قواعد الانسجام والتعاون مع الطوائف الأخرى خاصة مع الأتراك لضرورة قصوى تفرضها الظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية السائدة⁷³⁹.

وكان الصراع يحتدم بين الفينة والأخرى بصوره العسكرية و الفكرية بين الاباضية والمالكية، وكان كل طرف يسعى للنيل من خصمه بمختلف الوسائل الممكنة، وهذا ما يمكن أن نستشفه من خلال الصراعات السياسية والعسكرية التي أشرنا إلى بعضها سابقا من هذا الفصل، فضلا عن الرسائل والكتابات المؤلفة بين الفريقين، كالرسالة التي ألفها الشيخ أحمد بن محمد الطرابلسي المالكي

736 - كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، 1997،

737 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص42.

738 - إبراهيم محمد الطلاي، المرجع نفسه، ص42.

739 - علي يحي معمر، المرجع السابق، ص 339.

المتوفي سنة 1056 هـ 1646م وسماها "شكر المنة في نصر السنة"⁷⁴⁰ وهو عبارة عن رسالة "مخطوط لم يحقق" ويتشكل من 121 ورقة، ومبتور في آخره،، وضمنه صاحبه الرد على أقاويل رجال الاباضية في ما يتعلق بكثير من قضايا تاريخ صدر الإسلام، والقوائم التي تلت وفاة النبي وعن خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. وقال فيه أحد المصنفين يدعى ظافر الأزهري في طبقاته "وقفت على كتابه المذكور وهو نفيس حافل رد به على الاباضية"⁷⁴¹. ولم يتسنى لنا تحديد قصة تأليف الكتاب بالضبط رغم الجولات البحثية التي قمنا بها.

ومما يؤيد وجود هذا التنافس الفقهي والفكري بين الطرفين ما أورد الورتلاني في رحلته عند مروره بنواحي جنوبي تونس، حيث لاحظ وجود عناصر خارجية لم يشر إليها بالاباضية، لكن يبدو من خلال وصفه لها أنها من أتباع المذهب الإباضي، وذلك حينما ذكر بعض أحوالها وعلاقتها بأتباع الفرق الأخرى من أهل السنة والجماعة، حيث يذكر أن لهذه الجماعة ممارسات فقهية خاصة بها، فهم لا يتركون ثيابهم تتلامس بشياخ مخالفيهم ولا يؤاكلونهم في آنية واحدة، وإذا استقى شخص من مخالفيهم من بئر أفرغت البئر عن آخرها⁷⁴².

ويمكن إجمال أسباب الاختلاف بين المذاهب والفرق الإسلامية في:
الاختلاف في الأصول الشرعية ومصادر الاستنباط⁷⁴³.

اختلاف الفقهاء والمحققين في آليات الضبط في الجرح والتعديل وفي الراوي الواحد⁷⁴⁴.

740 - انظر الملحق رقم 02.

741 - انظر الملحق نفسه ..

742 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 647.

743 - وقع الاختلاف في بعض الأصول كأبي حنيفة الذي يقدم القياس على الحديث المرسل ومالك يأخذ بالمصالح المرسلة وعمل أهل المدينة ويترك القياس في مرتبة لاحقة انظر أصول المذاهب الأربعة فيما سبق من هذا البحث .

744 - يطرح الحديث الذي ينقطع سنده أو يجرى في أحد رواياته إشكالا في العمل به عند الفقهاء ، وقد اختلف المحدثون في ترجيح وعدالة كثير من الرواة فيوثقهم البعض ويجرهم البعض الآخر ، وقد حدد فقهاء صدر الإسلام أن كل من يعتنق فرقة غير أهل السنة والجماعة، ويدعو لها لا يؤخذ منه شيء حماية للشريعة والدين، كما هو حال الاباضية والشيعة. وقد تعاملت هذه الفرق بالمثل فلا تأخذ من مرويات أهل السنة والجماعة.

ومن أمثلة ذلك الإخباري وصاحب السير محمد بن إسحاق - أكبر مؤرخ في حوادث الإسلام الأولى - قال فيه قتادة : لا يزال الناس في علم ما عاش محمد بن إسحاق، وقال فيه النسائي : (ليس بالقوي)، وقال سفيان: (ما سمعت أحدا يتهم محمد بن إسحاق)، وقال الدارقطني: (لا يُحتج به وبأبيه)، وقال مالك: (أشهد أنه كذاب) الخ. وكذلك عكرمة مولى ابن عباس الذي تقدمت ترجمته.

الاختلاف في فهم نص الحديث أو الآية⁷⁴⁵.

ويختلف الاباضيون عن بقية المذاهب السنية الأخرى بالاعتماد على مراجع عقائدية وفقهية وتاريخية خاصة بالمذهب الإباضي لا يعتمد عليها غيرهم بالضرورة، الشيء الذي زاد في مساحة الخلاف بين المذاهب ومن هذه المصادر نذكر بإيجاز⁷⁴⁶:

الموجز، لأبي عمار عبد الكافي الإباضي، وكتاب السير، لأبي العباس الشماخي، و طبقات المشائخ، لأبي العباس الدرجيني، وقواعد الإسلام، لأبي طاهر الجيطالي، والدليل والبرهان، لأبي يعقوب الورجلاني، وعقيدة التوحيد، لعمر بن جميع، وشرح صحيح الربيع بن حبيب، لنور الدين السالمي، وطلعة الشمس، لنور الدين السالمي، ومشارك أنوار العقول، لنور الدين السالمي، وتيسير التفسير، لقطب الأئمة محمد أطفيش، وشرح النيل، لقطب الأئمة محمد أطفيش، والإباضية في موكب التاريخ، لعلي يحي معمر، والإباضية بين الفرق، لعلي يحي معمر

ومما تتميز به المؤلفات الإباضية عموماً المزج بين الفقه والعقيدة والتركيز على مسألتَي الولاء والبراء والإطنا ب في الحديث عن الإمام والإمامة وشروطها وحكم البقاء تحت حكم الجبابة في حالة العجز عن التغيير، كما تتميز مؤلفاتهم بقلّة الترتيب والتنظيم، وافتقار العديد منها لذكر الأدلة والمصادر والمراجع المعتمد عليها.

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن فرقة الإباضية على مر تاريخها قد تعرضت عمداً للتشويه في جوانبها السياسية والفكرية والفقهية وخص بالذكر كتب الجغرافيا والرحلات وكثيراً من كتب التاريخ، ولذلك لزم الأمر العودة إلى مصادر المذهب، لمعرفة حقيقته تماماً مثلما تؤخذ أدلة المذهب الحنفي من مؤلفات الأحناف وليس من المالكيين والحنابلة على حد تعبيره، ويعتقد أن القضايا التي ساهمت في تشويه المذهب الإباضي منذ نشأته الأولى تكمن في:

- التقية والكتمان⁷⁴⁷ التي اتبعها أصحاب المذهب خلال فترات عديدة من التاريخ.

745 - اختلف العلماء والفقهاء في فهمهم لنص الحديث منذ الزمن الأول للبعثة ومن أمثلة ذلك وقوع الاختلاف بين الصحابة قبيل غزوة بني قريظة حينما قال لهم النبي: " لا يصلين أحدُ العصر إلا في بني قريظة"، فأدركتهم صلاة العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها، وقال آخرون: "بل نصلي"، لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك". فلما ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم أقرهم جميعاً على فعلهم، رغم أن اجتهاد بعضهم أدى إلى تأخير الصلاة عن وقتها عمداً أخذين بظاهر النص، وأدى اجتهاد غيرهم إلى مخالفة ظاهر النص. انظر: عبد السلام محمد هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة

- تجني فرقة الخوارج والمعتزلة وممارستهم السياسة الضالة والمزيفة.
 - الدور السلبي لمؤلفي كتب الفرق والملل والنحل، وكتب الجغرافيين والرحالة (البلدانيون) من أهل الملل الأخرى خاصة أهل السنة على مر العصور.
- ويدعو صاحب المقال في نهاية المطاف الباحثين الأكاديميين إلى ضرورة نفوذ الغبار عن الفكر الإباضي ودراسته من أصوله وقراءته قراءة جديدة، وتجنب الأحكام التاريخية السابقة...

747 - يعرف الباحث التقيّة والكتمان بالقول بأنهما "غلبا على إباضية المغرب لأنّ الإباضي إذا خرج من حدود دولة الظهور اضطرَّ إلى ممارسة التقيّة ما دام في دولة الإسلام لأنّه بتقيته تلك يتّقي السلطة وغيونها والمذاهب المعادية لمذهبه. ولا شك أنّ هذه التقيّة، قد خدمت الإباضية أئما خدمة، ووقّرت لها كثيراً من الطمأنينة والأمن، ومارس تجّارها نشاطهم، واحتكّوا بغيرهم في المشرق والمغرب، فكانوا إباضية في المذهب حقيقة، وغير إباضية تقيّة، هذه التقيّة يمكن أن نسمّيها التقيّة الدينية السياسية، التي تخفي الاتجاه السياسي لصاحبها، فالمذاهب الإسلامية في العصور الوسطى كانت بمثابة الأحزاب السياسية المتنافسة على المناصب، وعلى التقرّب من السلطان أو المعارضة له"، انظر إبراهيم بحاز، المقال نفسه. .

الفصل الثالث

الفقهاء ودورهم الديني والسياسي

المبحث الأول: الحياة العلمية للفقهاء

المطلب الأول: وضعية الفقهاء و مكانتهم

المطلب الثاني: الأنشطة العلمية للفقهاء

المطلب الثالث: التنافس بين الفقهاء

المبحث الثاني: دور الفقهاء الديني

المطلب الأول: الجانب العقدي

المطلب الثاني: الجانب الاجتماعي

المبحث الثالث: دور الفقهاء السياسي

المطلب الأول: الفقهاء والفكر السياسي

المطلب الثاني: الخلافة الإسلامية في اللغة والتراث

المطلب الثالث: مشروعية الخلافة العثمانية

المطلب الرابع: الفقهاء الجزائريون والخلافة العثمانية

المطلب الخامس: دعوة الفقهاء إلى تحمل مسؤولية الإصلاح.

المبحث الرابع: المادة الفقهية المتداولة في العهد العثماني

المطلب الأول: كتب الفقه

المطلب الثاني: المنتجات الفقهية والدينية ومكانتها

المبحث الأول: الحياة العلمية للفقهاء

المطلب الأول: وضعية الفقهاء و مكانتهم

بعدما ألقينا الضوء عن التدين في المجتمع الجزائري والعوامل المتحكمة فيه وحرية التدين التي كانت مكفولة للجميع شريطة احترام النظم وخصوصيات المجتمع الذي يعيشون في كنفه، لنا الآن أن نتساءل عن وضعية الفقهاء - بمختلف صفاتهم ووظائفهم التي شرحناها سابقا ومكانتهم للوصول لمعرفة أوضاعهم ومكانتهم المادية والأدبية، والإجابة عن التساؤل الذي طرحناه في المقدمة حول كون هؤلاء متفهمين لمجريات الانتقال التاريخي التي كانت تمر به الأمة في المغرب الإسلامي وهل كان بإمكانهم إضافة لبنة ما في طريق هذا الانتقال؟

والحديث عن طبقة الفقهاء والعلماء في إيالة الجزائر لا يكون بمعزل عن الحديث عنهم ضمن إطار الخلافة العثمانية التي تعد في المنطق السياسي مرجعا للولايات المختلفة التابعة لها، وقد نوهت جل المراجع والمصادر التي تناولناها بمكانتهم الراقية التي كانوا يحضون بها، ففي العاصمة القسطنطينية كان للعلماء والفقهاء والمفتون مكانة مرموقة يحسدون عليها، فقد ذكر مفتي الإمبراطورية العثمانية الشيخ "شمس الدين أحمد بن كمال باشا" كيف أنه تحوّل من طائفة العسكريين إلى طائفة العلماء، في عهد السلطان "بايزيد الثاني" لما رأى من تكريم السلطان والدولة للعلماء، وجلوسهم في مراتب أعلى من الأمراء، ثم يضيف قائلاً: "إن العلماء معظمون بعلمهم فلو تأخر أحدهم عن مجلسه تواضعا لم يرض بذلك السلطان والصدر الأعظم والوزراء"⁷⁴⁸.

وفي مصر نال فقهاء الأزهر وعلماءه حظوة بالغة، نتيجة احترام الناس وعامة الشعب لهم وتبجيلهم إياهم إلى درجة التقديس، لما يحملونه من علم وفقه ولما يقفونه من مواقف مشرفة⁷⁴⁹، فكانوا لا يُذكرون إلا بسادتنا الشيوخ⁷⁵⁰. وقد خلد الشاعر المصري المعاصر أحمد شوقي ذكرهم منوها بهم مشيدا بوقوفهم البطولي في كثير من المرات، خاصة فقهاء الأزهر الذين لعبوا على مر التاريخ أدوارا بارزة فقال:

قم في فم الدنيا وحي الأزهر وانثر على سمع الزمان الجوهرا

748 - إسماعيل عبد الجواد، دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996 ص14.

749- سعيد إسماعيل علي، الأزهر على مصرح السياسة المصرية دراسة في تطور العلاقة بين التربية والسياسة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص62.

750 - إسماعيل عبد الجواد، المرجع السابق، ص14.

واخشع مليا واقض حق أئمة طلعا به زهرا وماجوا أبحرا⁷⁵¹

وكان الوضع في تونس والمغرب لا يقل شأنا عما ذكرنا حيث نال فقهاء البلدين ما يصبون من المكانة والرفعة بصورة عامة دون تفصيل في الوقائع المنفردة والأمثلة الشاذة التي كانت تقع بين الحين والآخر.

غير أن واقع الفقهاء والعلماء في الجزائر لا يحسدون عليه، فعلماء الجزائر كما يقول أبو القاسم سعد الله لم يكونوا يشتكون من ظلم الحكام فحسب، بل كانوا يشتكون حتى من ظلم الناس لهم أيضا، وقد اشتهر الجزائريون منذ القديم بأنهم لا يعرفون للعلماء وزنا ولا يعترفون لهم بعهد أو حرمة؟؟ وقد تكون هذه الظاهرة هي التي أجبرت العديد منهم علي الهجرة ونقلا عن محمد السنوسي أنه قال "إن أهل المغرب..... أقل عناية بمشايخهم"⁷⁵².

ويعتبر "تال شوال" Tal shuval أن طبقة الفقهاء والعلماء تقع في الوسط بين الراعي والرعية، وهم رجال الدين والعلماء تنحدر في أغلبها من الأهالي. ولا يشكل هؤلاء طبقة منسجمة ومتناغمة ولكنهم يشكلون فئة تضم جل أنواع الفئات الاجتماعية، ويتشكل هؤلاء من نحو خمسمائة شخص في مدينة الجزائر وحدها تضم الخطباء والأئمة والقضاة ونظار الأوقاف، وقد كانوا متفتحين جدا، على حد تعبير "تال شوال" والانتماء لجماعتهم قد يمكن أن يفيد في إمكانية ارتقاء الشخص في مدارج الفئات الاجتماعية خاصة فئة عمال المساجد وخدامها⁷⁵³، ومن خلال هذا التوصيف يمكن أن نستنتج أن فقهاء الجزائر لا يتميزون عن غيرهم من الفئات المهنية والاجتماعية الأخرى الموجودة بمدينة الجزائر وهو ما يدفع للتساؤل عن مدى أحقية تسميتهم بالنخب المثقفة؟؟.

وكان من أبرز مظاهر ضعف مكانة العلماء والفقهاء تحرش السفهاء والعامة بهم دون رعاية أو احترام، حيث تتغلب دواعي الشر والحقد والضعينة في الناس، ويدفع العلماء ثمن حمقهم وجهالتهم. وفي هذا الإطار تذكر المصادر الكثير من الأمثلة التي كان الفقهاء فيها ضحية رعونة بعض الناس، منها ما وقع للشيخ القاضي "محمد أبهلول" الذي أفق أحد العامة بجرمة الزواج من امرأة غاب عنها زوجها دون معرفة مصيره، فنقم الرجل من هذه الفتوى التي كبحت شهواته الجاحمة وأراد أن يشبعها

751- إسماعيل عبد الجواد، المرجع نفسه، ص14..

752 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، المرجع السابق، ص405

753- Tal shuval , la ville d'Alger vers la fin du XVIIIème siècle population et cadre urbain CNRS éditions, 2005,p119.

من هذه السيدة التي غاب عنها زوجها، فقام بطعنه غدرا بخنجر، وظل القاضي المسكين يتلوى ويتضرج في دمائه بضع ساعات، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة بعدها بين يدي تلميذه "سعيد قدورة" الذي لحق به حينما سمع بالحادثة.

كما عمل التنافس في الحصول على الوظائف على تردي مستوى الفقهاء والعلماء وشاعت مظاهر الطمع والجهل والتساهل في أمور الدين والفقه، وتعدى الكثير منهم على أموال الأوقاف ليسدوا بها نفقاتهم المتزايدة التي تفرضها عليهم الوضعية الاجتماعية⁷⁵⁴.

ولعب شظف العيش الذي يمثل السمة البارزة للإيالة خلال العهد العثماني دورا في تردي مكانة هذه الفئة، فقد كان شبح الفقر جاثما على صدور فئات كثيرة من المجتمع بما في ذلك الفقهاء والعلماء، نظرا لضعف المردود المادي نظير ما يقومون به من أعمال واجتهادات، فشحت الوظائف وزاد الإقبال على المعروض منها بمختلف الوسائل المتاحة، بما في ذلك البحث عن الوساطات والعناصر المتنفة في جهاز الدولة، أو عن طريق رشوة عناصر الجهاز التنفيذي للحصول على هذا المنصب، وقد ذكر الورتلاني العديد من الأمثلة في هذا الشأن منها أن منصب القاضي كان يظفر به أصحاب الأيدي الطويلة وبالطرق غير المشروعة⁷⁵⁵.

وكان من نتائج ذلك بروز ظاهرة توريث المناصب الدينية بين أفراد الأسرة الواحدة. وعلى الرغم من أن بعض الدارسين فسر هذه الظاهرة بقدرة الأسرة على تعليم أبنائها، والحفاظ على المناصب الدينية، بفضل العلم والقدرة على الإنتاج الفقهي والاجتهاد، إلا أن البعض الآخر برر هذا السلوك بالحرص على مصادر الرزق المتاحة آنذاك، وهو ما يفسر جنوح بعض الفقهاء إلى موادة السلطة حفاظا على امتيازاته المختلفة.

ومن أشهر العائلات التي توارثت العلم والفقه في مدينة الجزائر عائلة "سعيد قدورة" الذي قدم ابنه من بعده لتولي خطة الفتوى والخطابة في الجامع الكبير المالكية رغم صغر سنه⁷⁵⁶، كما احتكرت أسرة "ابن العنابي" منصب الفتوى الحنفية أزيد من مائة وخمسين سنة، فضلا عن عائلة "ابن الفكون"

754 - فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع، المرجع السابق، ص 55.

755 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 248.

756 - أبو القاسم سعد الله،، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص 399.

التي استمرت في منصب الوجهة الدينية بمدينة قسنطينة نحو أربعمئة سنة، جمعت خلالها عدة ألقاب دينية وسياسية منها الإمامة والخطابة والقضاء والفتوى وقيادة ركب الحج⁷⁵⁷.

ولجأت كثير من الأسر العلمية المتواضعة للمصاهرة مع النخب العلمية والسياسية والعسكرية والمرابطة القوية والمتنفذة لحماية نفسها، ويصنف الكثير من الباحثين هذا الصنف من الزواج ضمن ما يعرف بالزواج السياسي، ومن الأسر التي عملت به عائلة قدورة التي كانت قد صاهرت عائلة المرتضى⁷⁵⁸، وعائلة الزهار الشريفية التي ارتبطت بمصاهرة عائلة بن المبارك المرابطية بالقلعة، كما صاهرت أسرة المقرئ أسرة الونشريسي بمنطقة تلمسان⁷⁵⁹ وغيرها، كما حافظت بعضها على مهمات تنظيمية داخل المدن مثل أسرة عبد الله بن الشويهد التي احتكرت الحسبة، وهي أسرة لها مكانة مرموقة بمدينة الجزائر خلال أواخر القرن السابع عشر⁷⁶⁰.

ولم يكن الوضع سهلاً وميسوراً كذلك أمام طالبي العلم في العهد العثماني، فنيل التعليم وتحصيل العلم لم يكن يقدم بالجان، حيث يتطلب التفرغ والنفقة، والرعاية من طرف الأسرة. فمن فقد هذه العناصر فلا أمل له في أن ينال أي تحصيل للفقهِ والعلم، إلا إذا جاهد وبذل في سبيل ذلك الأمرين. فهذا أبو راس الناصري المعسكري بعد وفاة والده قد عانى قساوة كبيرة في سبيل طلب العلم، وذاق الفقر والتسول لكنه جاهد نفسه ونهض بها في هذا المعترك، فحفظ القرآن ونهل من ضروب العلم الأخرى من تفسير وفقه وأدب وتاريخ، حتى بلغ منزلة عالية حسده عليها معاصروه بفضل الصبر والمرابطة في هذا الطريق الشاق⁷⁶¹.

ويصور أبو راس الناصري الوضع "أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر" بقوله: "في زمان عطلت فيه مشاهير العلم ومعاصروه وسدت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه وعفت أطلاله ومعامله، لاسيما في علوم التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا

757- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص.399.

758- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.399.

759- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص.406.

760 - ناصر الدين سعيدوني، "مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر"، مجلة حوليات جامعة الجزائر العدد 05 سنة 1990 الجزائر ص.118. وما بعدها

761 - بوعمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، دار تالة، الجزائر، 2003، ص.69.

الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرقت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون عن أدناس العلم والفضائل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل⁷⁶². وكانت أوضاع جل الفقهاء لا تسر الناظرين، ليس من جانب المجتمع غير المبالي بهم فحسب، بل بسبب سياسة التهميش التي يُعاملون بها من طرف الحكام الأتراك، وكذا عدم إدراج بعض الوظائف التي يتقلدونها ضمن الوظائف التي يتقاضى أصحابها أجورا ثابتة كالقضاء مثلا، بل حتى أولئك الذين يتقاضون أجورا على أعمالهم في السلك الديني كالخطابة والوعظ ورعاية المساجد، كانت أجورهم لا تغني ولا تسمن من جوع، وقد عقب على هذا الوضع بسخرية الرحالة الايطالي "فيليبو بانانتي" بقوله أن: "الجزائري الذي يلعب ويعزف الموسيقى في حالة عادية يتقاضى أجرا عشرة أضعاف، ما يتقاضاه الرجال المثقفون"⁷⁶³، وقد كان الأهالي ينفقون بسخاء على المغنين والعازفين في الحفلات وجلسات الطرب التي يقيمونها لمختلف المناسبات⁷⁶⁴، ولا يزال هذا النمط المعيشي سائدا إلى يومنا الحاضر.

ولذلك فقد اختار بعض علماء وفقهاء مدينة الجزائر، العيش من مواردهم الخاصة ومما أفاء الله عليهم من رزق بعيدا عن أموال الأحباس اتقاء للشبهات، فكان الفقيه سعيد قدورة لا ينفق على نفسه من مال الأوقاف التي كانت تحت يده، بل كان ينفق من أرض كانت له، كما ينفق منها على عماله⁷⁶⁵ ومنهم من حاول التخفيف من معاناته بالسعي للتوفيق بين التجارة وطلب العلم وفي غالب الأحيان كان التوفيق بينهما صعبا مثلما وقع لابن حمادوش.

غير أن دائرة التهميش والفقر لم تشمل كل الفقهاء، ولم يكن فقهاء المالكية والأحناف في نفس المستوى من حيث طريقة التعامل التي يتلقاها فقهاء المذهبين من طرف السلطة الحاكمة، ولا من حيث المكانة الاجتماعية والأدبية، أو من حيث الأجر الذي يتلقاه كلاهما، فقد كان المفتي الحنفي الذي يمثل المذهب الرسمي للدولة، يحظى برعاية خاصة في أغلب الأحوال، فقد كان بإمكانه الدخول على الباشا بدون تكلف ودون حاجة لطلب الإذن، ويحضر جلسات الديوان، كما أن له

762- أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، المرجع السابق، ص52.

763 - Pananti Filippo, **relation d'un séjour à Alger**, édition le normant, Paris, 1820. p382.

764 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص456.

765- نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 279.

الكلمة العليا في المجلس الشرعي الأعلى⁷⁶⁶، لقد كانت السمة البارزة في سياسة التعامل مع فقهاء المالكية، تشريف أقل وتضييق أكبر عليهم، إلى درجة ممارسة الضغوط والتهديد بالسجن والتعرض للقتل⁷⁶⁷.

وهكذا فالسلطة الحاكمة التي كان من المفروض أن تعمل على تحقيق حرية التمدد، وإرساء قواعد التنافس النزيه نظرا للتعدد المذهبي التي كانت تعيشه الإيالة، نجدها قد جنحت إلى دعم مذهب الدولة الرسمي - المذهب الحنفي - والتمكين لفقهاء⁷⁶⁸، الذين كان أغلبهم يقدمون من المشرق. ولم يكن كل القادمين من المشرق أقوىاء فقهاء، فمكانة كثير من علماء المغرب كانت دوما محل اعتراف وتقدير من طرف نظرائهم في المشرق.

ولم يكن المجتمع الإباضي رغم خصوصياته الدينية والسياسية بمنأى عن الوقوع في بعض هذه السلوكات السابق ذكرها، فقد عانى الفقيه عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني (ت 1808) وهو فقيه إباضي وصاحب كتاب "النيل وشفاء العليل" الذي اعتكف على تأليفه نحو 18 سنة، بعدما اعتزل العامة الذين كانوا يسخرون منه وأطلقوا عليه عبارة نائية وصفوه بـ: "تيس المجزرة" للحيته الطويلة، فانقطع عن الناس وظل يكابد لوعة الوحدة والغربة بين عامة الناس الذين لا يقدر على ولا يوقرون فقيها حتى وفاته⁷⁶⁹.

766 - بوبشيش صالح، المدارس الفقهية في الجزائر، المرجع السابق، ص162.

767 - بوبشيش صالح، المرجع نفسه، ص162.

768 - بوبشيش صالح، المرجع نفسه، ص144.

769 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص160.

المطلب الثاني: الأنشطة العلمية للفقهاء

أولاً : المناظرات والمساجلات الفقهية⁷⁷⁰

كان المجتمع الفقهي في عهد بني زيان وبني حفص وبني مرين، نشطاً متحرراً ساهم في بعث الحياة الثقافية والعلمية وتنشيط النقاشات الفقهية والمذهبية في أجواء من الموضوعية بعيداً عن التعصب والخلافات المذهبية، وقد .

انطبعت أجواء التداول بين العلماء بطابع البيئة السياسية المعاشة وتنوعها، واختلاف الاهتمامات المحلية وطبيعة المرحلة التي يعيشها البلد. ومهما كان من شأنهم فالعلماء كانوا كغيرهم من الناس، أبناء بيئتهم يفرحون لفرحها وبهزهم ما يحزنها وينغص أمنها، وأما في أوقات السلم فالفقهاء يفقدون المحفز في طلب العلم ونشره لغياب مشروع سياسي وثقافي يؤسس لكيان ونظام سياسي واضح المعالم، فينبري هؤلاء إلى السكون والدعة ويصيرون جزء من المجتمع، في بساطته وروتينه القاتل للهمم والإبداع.

وقد كان التقليد الفقهي والفكري ظاهرة سارية في العهد العثماني، وكان أغلب الفقهاء يعتمدون على الحفظ دون وعي لفقه الواقع، وقد أرجع الفكون - صاحب منشور الهداية - شيوع ظاهرة التقليد في عصره لضعف الإيمان عند الفقهاء وطلبهم العلم من أجل التباهي ليس لحاجة الناس إليه، وهو ما نستشفه من خلال تعليقه في نعيه للمقري بقوله " كان شديد الاعتماد على الحفظ، والعلم ليس بكثرة الرواية وإنما يظهر عند الحاجة إليه في الفتوى من الدراية، وإن السرد للمعلومات إنما حدث عند فساد القلوب بطلب الظهور والتعالي على الأقران وكثرة الرياء في الأعمال"⁷⁷¹

وقد شكلت نكبات المنطقة كسقوط الأندلس واحتلال وهران وتلمسان وبجاية وكثير من سواحل المغرب الإسلامي، مادة غزيرة للفقهاء والعلماء، لأن نفوسهم كانت تهتز لهذه المآسي فيتهافتون للنصرة بالقلم والسيف والدعم المادي والمعنوي للمسلمين.

770 - المناظرة في اللغة من "ناظر" أي رأى في أمر معين مع شخص آخر، وتعني "المباحثة" في شأن من الشؤون الدينية أو الفكرية بين مجموعة من العلماء والفقهاء، لكل منهم رأيه الخاص ووجهة نظره التي يسعى إلى تثبيتها بكل الوسائل العقلية و النقلية، وتعد المناظرات بين العلماء والفقهاء من أهم وسائل التواصل بينهم في ذلك الوقت، وتضم مادة تاريخية هامة ومفيدة تصور لنا الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي لدول المغرب الإسلامي، وكانت تتم المناظرات عادة في بيوت العلماء والفقهاء والحكام والباشاوات وكبار التجار والقضاة وغيرهم من النخب.

771 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص10.

وبالرغم من الوقع السلبي لِلْفَظِ "المناظرات والمساجلات الفقهية" عند سامعه، غير أن الفقهاء كانوا يعولون كثيرا على المناظرات الفقهية للحصول على الفتاوى وذلك بتنوع العروض الفقهية بواسطتها، وكان الجدل الفقهي بين الفقهاء يوصل إلى أفضل الأحكام في النازلة الواحدة، وهذا ما نستشفه من خلال مادة النوازل الفقهية كنوازل الونشريسي و يحي المازوني و الفكون حيث تتردد المسألة الواحدة عند مجموعة من الفقهاء وكلما تعددت وجوه الفتوى بين الفقهاء حصل الاطمئنان على مقاربتها للصواب، فتعدد المفتين في المسألة الواحدة مثلما ذكره الفكون في نوازله، يمنح مزيدا من الاطمئنان للفتوى حتى أن بعض الفتاوى درسها وأجاب عنها نحو عشرة من الفقهاء⁷⁷².

لقد كانت المسائل الفقهية تكسر حاجز الحدود بين المجموعات الإقليمية آنذاك وكانت مصلحة الفتوى تغلب على أي مصلحة أخرى، فكانت الفتوى تُرَخَّل إلى تونس والمغرب ومصر ثم تقدم الجزائر مشروحة ومخرجة بموامشها وتعليقاتها وشروحها وهو جهد كبير، بالغ فقهاء الفترة العثمانية في بذله خاصة في فترات الحج والمواسم الدينية التي يلتقي حولها الفقهاء⁷⁷³.

وكان فقهاء الجزائر لا يستصغرون أنفسهم أمام فقهاء البلاد العربية، خاصة البلاد المجاورة للجزائر كالمغرب وتونس، حيث تبين نوازل الفكون من خلال التعليقات الواردة على الحواشي والشروح مدى مواكبة الفقهاء الجزائريين لتطورات الفقه المالكي والحنفي، وكانوا يعتبرون أنفسهم في نفس درجة غيرهم من الفقهاء، ولا ريب فقد استطاع بعضهم تولي مشيخات مجامع فقهية ذات صيت إسلامي عريق كالأزهر والزيتونة، هاته الأخيرة التي استطاع يحي الفكون أحد أجداد عبد الكريم الفكون المذكور أعلاه أن يتولي مشيختها لموفور علمه وسعة معرفته⁷⁷⁴، ونقل مرتضى الزبيدي في ترجمته لأبي راس الناصري المعسكري أنه عند عودته من مصر ومروا بتونس هرع إليه الطلبة والعلماء يبحثون معه ويتناظرون معه في مختلف القضايا المطروحة⁷⁷⁵.

772 - قشي فاطمة الزهراء، "الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 57-58 تونس 1990، ص 328.

773 - قشي فاطمة الزهراء، الحياة الفكرية... المرجع نفسه، ص 330.

774 - قشي فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 330.

775 - الزبيدي، المصدر السابق، ص 434.

وكانت المناظرات تقام عندما يعجز الفقهاء المحليون في فك طلاسم فتوى معينة أو يتجرأ بعضهم على القول الشاذ في بعض المسائل. مثلما وقع عندما أفتى الشيخ أبو زكرياء يحيى المحجوب⁷⁷⁶ بجواز فسخ عقد الحبس فثارت ضجة كبيرة في مدينة قسنطينة ونوقش الموضوع في المسجد وعلى الملأ⁷⁷⁷، ودعي الناس والأعيان والقضاة لشهود المناظرة التي دارت حوله. وأما في زمن السكون والأمن فتحل القضايا الجدلية والترفيهية محل النوازل الفقهية، ويحلب اهتمام الفقهاء تبادل الأسئلة الثقافية المتنوعة، حول ظواهر خارقة ومعاني خافية لآيات وكلمات وأشعار، أو يطلبون تفسير آيات أو إعراب جمل وكلمات معقدة، أو البحث عن لطائف ونوادر لا يعلمها إلا القليل من الناس.

ومن أمثلة ذلك ما أورده الفكون عن سؤال الفقيه القسنطيني ابن باديس، له حول إعراب آية لابن عطية⁷⁷⁸ جاء في السؤال: "ونص السؤال عنها بعد الحمد لله سيدي بلغكم الله الآمال ونفعكم بصلاح الأعمال واذهب عنكم ما تجدونه في أنفسكم من الآلام وعافاكم من جميع الأسقام المقصود منكم الإفادة فيما عرض لنا من الإشكال في مسألة وهي ما أعربه الشيخ ابن عطية في قوله تعالى "ولأتم نعمتي عليكم"⁷⁷⁹. وأجاب المؤلف عن سؤال ابن باديس نافيا ما ذهب إليه ابن عطية في إعراب الجملة التي طلب إعرابها.

وعاش الفقهاء في الجزائر في بعض الأوقات، خاصة زمن الفتن أحوالا متقلبة، انعكست على طبيعة العلاقة بينهم، فتنشأ بينهم العداوات لأسباب واهية، غالبا ما يكون خلفها الحسد والغيرة، فينقل بعضهم صورا سيئة عن البعض الآخر، خاصة في المسائل التعبدية والعقدية وتغتتم السلطة الحاكمة، دوما مثل هذا الانقسام والتشتت للامعان في إضعاف الفقهاء وصرف الناس عنهم. وغالبا ما كانت تنتهي الصراعات بإقامة مناظرات ومساجلات بين الفقهاء، يحضرها الباشا أو من ينوب عنه، وتُناقش مسائل شخصية تتعلق بالفكر وحرية التعبير، ولا تتناول المسائل الخطيرة التي

776 - أبو زكريا يحيى المحجوب، فقيه وصوفي تولى خطة القضاء في العهد الحفصي.

777 - قشي فاطمة، المرجع السابق، ص 331.

778 - ابن عطية فقيه وفيلسوف مالكي ومحقق.

779 - الفكون، المصدر السابق، ص 227.

تتهدد البلاد في حاضرها ومستقبلها⁷⁸⁰، وتنتهي المحاكمات بزندقة شخص معين أو تحكم عليه بالكفر، لقولة قائلها لم يستوعبها سامعوه أو لمسالة تافهة لم تبلغها فهمهم كما يقول الراشدي.

ومن أبرز المناظرات تلك التي حدثت بين المفتي محمد النيار الحنفي وسعيد قدورة المالكي حول اختلاف الزوجين في محل الإقامة بعد سوء تفاهمها، واختلاف الراشدي المفتي الحنفي بقسنطينة مع خصومه واتهامه بالزندقة والكفر لأنه يقول بالتجسيم، فانعقد المجلس العلمي وحكم بكفره وكاد يقتل لولا شفاعة صالح باي فيه، وحوكم الفقيه محمد الزجاجي بقول خصومه أنه يعتمد الرأي وينبذ النقل من الكتاب والسنة، وانعقد له مجلس علمي لمحاكمة أفكاره بحضور الباي نفسه، الذي وقف على براءة الزجاجي وأعاد له الاعتبار معتذرا إليه مما أحدثه خصومه⁷⁸¹.

ولم تكن المناظرات دوما تنتهي بحصول المشاكل و التجادبات بين الفقهاء، فقد كانت تقام في بعض الأحيان جلسات يشرف عليها أبو راس الناصري حيث يجمع الفقهاء في مكتبته التي بناها له الباي محمد الكبير وكان قد سماها مكتبة" المذاهب الأربعة"⁷⁸²، لتحرر النقاش فيها من المذهبيين السائدين في الإيالة حيث يجتمع العلماء لدراسة كتاب ما⁷⁸³، أو فتح نقاش موضوع بعينه، ويذكر أيضا أن الفقيه "ابن ميمون الجزائري" كانت له دارا كالنادي يجتمع فيها العلماء كابن حمادوش و ابن المفتي وابن علي و ابن عمار.

ومما سبق يمكن القول أن عقد المجالس العلمية والمناظرات الفكرية تخضع لعدة معايير وتندرج ضمنها عدة أهداف لم تكن تخدم بالضرورة شؤون الفقه والبحث العلمي، بقدر ما كانت تعد امتحانا للفقهاء واختبارا لمعارفهم ومحاولة معرفة طرق تفكيرهم والمذاهب التي يؤمنون بها ويدعون لها.

وكانت البلدان الإسلامية في الفترة العثمانية تسلك هذا الطريق أيضا وكثيرا ما تعرض الفقهاء الجزائريون المهاجرون إلى المشرق طلبا للعلم والمعرفة، للامتحان بالمناظرات والمساجلات الفقهية والعلمية، التي تدخل في إطار امتحان هؤلاء لمعرفة عقائدهم وامتحان أفكارهم وما يحملونه من ثقافات ومؤثرات لحماية البلد، وفي درجة ثانية يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر التقصي لمعرفة أحجام الفقهاء ومستوياتهم العلمية والإدراكية.

780 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص456.

781 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص457.

782 - الورتلاني، المصدر السابق، ص285.

783 - ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 60.

ثانيا : التفقه بالشعر والألغاز

كان الشعر وسيلة من وسائل التفقه في الدين، لجأ إليه بعض الفقهاء من باب الترويح عن عبء النصوص الفقهية الدسمة، ولم يكن الشعر المستعمل دوما راقيا من حيث البلاغة وأدوات التصوير الفني واللغوي ليحقق تلك الحالة من الانتعاش الفكري على اعتبار أن الفترة كانت تتسم بالضعف الفكري والانحسار الحضاري، فشاعت مكان العلوم والمعارف المساجلات الفقهية العقيمة والمناظرات والألغاز. التي لا يرجى من وراءها المنفعة الكبيرة.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ المغربي ابن زاكور الفاسي⁷⁸⁴، وهو من المؤرخين الذين عاصروا الفترة أن "كان الشعر أسلوبا مستخدما في الحوار بين الفقهاء والعلماء والمفتين وهو ضرب من المفاكهة والملاطفة والترويح"، فقد سأل بن زاكور الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد بن المولى سيدي عبد القادر أحد معاصريه، عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من باع جلد أضحيته⁷⁸⁵ فلا أضحية له" وكان السؤال في قالب شعري فقال:⁷⁸⁶

الحمد لله في الأحيان والمدد	ثم الصلاة على المحفوف بالمدد
وآله وكذا الصحب الكرام ومن	يقفو سبيلهم في أقوم الجدد
هذا وأهدي إلى الشيخ الذي بهرت	أعلامه وغدت تنبو عن العدد
أركى سلام عميم عرفه عاطر	يهمي عليه بطول الحين والأمد
يا أيها العالم الصدر الذي شرفت	فاس به وازدهرت بالعلم والرشد
إنا نريد الجواب منكم كرما	يروي ويغني عن ينبوع والشمس
عن قول خير الورى المختار سيدنا	عليه أسنى صلاة الواحد الصمد
في جلد أضحية ما أن لبائعه	أضحية أو كما جاء بالسند ⁷⁸⁷
هل الثواب نفي أو الكمال فقد	أم صحة جملة يا مبتغي خلدي
وإن يكن للثواب النفي مرجعه	فهل عن الجلد لا عن سائر الجسد
بين لنا ولكم أجر يفوق ولا	زلتم بنور وعلم دائم الأبد

784- ابن زاكور الفاسي، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، مطبعة فونتانا، الجزائر، 1902. ص44.

785 - ولا ندري في الحقيقة عن طبيعة السؤال والغاية منه هل كان بدافع البحث عن حكم شرعي فيمن باع جلد الشاة التي ضحى به في العيد أم أن ابن زكور اختار هذا الموضوع اعتباطا ودون قصد سابق.

786- ابن زاكور الفاسي، المصدر السابق، ص44.

787- ابن زاكور الفاسي، المصدر السابق، ص45.

ثم الصلاة على خير الأنام ومن أضحى بمنهجه الأقوى على سند⁷⁸⁸

فأجابه الشيخ المذكور بقصيدة أخرى شارحة للمسألة، وكذا طرحت مسائل فقهية بسيطة يمكن للمبتدئين الإحاطة بها كمسائل التقصير في الصلاة ونحوها.

وفي سنة 1663 مرّ بمدينة قسنطينة الشيخ الفقيه يحيى الشاوي في ركب الحج متوجهاً إلى الحجاز فاغتنم فقهاء المدينة هذا الحدث ليتقربوا منه وينالوا حظهم من علمه، ومنهم الشيخ بركات بن باديس الذي سأله حول جواز أكل لحوم الطرائد التي تصطاد بالبندقية، وكان السؤال في صيغة أبيات شعرية، قال فيها :

أبدر بدا من جانب الغرب قادم وبحر علوم لا يكاد يلاطم
سألتك يا فخر الزمان وصدرة عن حادثة أحدثتها الأعاجم
افيم يصاد بالبندق رخصة تزيج ظلام الشك والصدر سالم
اجب سائلا يبغي الإفادة منكم وأنت إمام بالشريعة قائم
واختم نظمي بالصلاة على الذي وفدتم إليه بالركاب تراحم⁷⁸⁹
فأجابه المترجم

أتانا سؤال من فقيه منادم إمام أهل التحقيق خذه وصارم
يؤمل مني في البنادق رخصة تزيج ظلام الشك عن كل عالم
وأجاب عن سؤاله بأن ساق له أقوال الفقهاء والعلماء في هذا الموضوع بين مباح ومحرم لصيد
البنادق⁷⁹⁰.

ومن خلال ما سبق هل يمكن القول أن الفقهاء كانوا حبيسي المرحلة الدقيقة التي مرت بها الجزائر العثمانية من ركود وتقهر؟ فعجزوا أن يتصدروا المجتمع فيكون لهم دورا رياديا في طريق التغيير والثورة على الجهل والأعراف القاتلة التي كانت تكبل المجتمع، وتزكيها دوائر السلطة القائمة والفئات التي تدور في فلكها.

788- ابن زاكور، المصدر نفسه، ص46.

789 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 174.

790 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ص 174.

كما كانت ثقافة تعاطي الألغاز⁷⁹¹ سائدة خلال فترة القرن 17م خاصة وصار هذا الأسلوب شائعاً بين العلماء والفقهاء واللغويين والنحويين ومن ذلك أن أرسل سعيد قدورة لغزا في "هاج الصغير" فأجابه بسرعة وبديهة⁷⁹².

ومن كان متعاطيا لثقافة الألغاز "أحمد البوني" حيث يقول "ابن حمادوش" في رحلته أنه وقع لديه كتاب للشيخ البوني في تأليف الألغاز شعرا يقول فيه:

ثم يقول فتداولناه حتى بلغ كل أديب وعالم ولم يستطيعوا أن يجدوا له حلا، ما عدا الشيخ "يحيى الشاوي" الذي فك رموز اللغز كما قال ابن حمادوش شعرا⁷⁹³ ..

وذكر "أحمد المقرئ" أنه عندما نزل بمدينة الجزائر يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1027 هـ، في رحلة قادته إليها، خرج إلى رأس تافورة صحبة جماعة من الأعيان، منهم مفتي الحنفية الخطيب "محمود بن حسين بن قرمان"، والشاعر الأديب "محمد بن راس العين" الذي تبادل معه نظم الشعر بمناسبة هذا الاجتماع، ثم قال: "كما التقيت بعالم الجزائر وفقهها الأخ في الله سيدي سعيد الشهير بقدورة، الذي كنت قد رافقته في الأخذ عن عمي سعيد المقرئ"⁷⁹⁴.

وفي هذا اللقاء لاغز "المقرئ" "سعيد قدورة"، في لفظ "القوس" شعرا فأجابه ومما ذكره حول هذا اللغز يقول: "كتب إلي مفتي الجزائر وعالمها وإمامها وخطيبها الأخ في الله سيدي سعيد الشهير بقدورة - حفظه الله - ملغزاً في القوس فقال:

يا بارعاً أربى على ذوي النهى ولا معاً يسمو على نجم السهى

791 - اللغز في معناه اللغوي الحفر المتتوي والألغاز طريق تلتوي وتشكل على صاحبها وقيل هو جحر الضب والفأر واللغز جمع الغاز وهو علم تبارت بعض العقول في صوغ بعض التراكيب الدالة على معاني مقصودة بصفة خفية مع استحسانها وانشراح الأذهان لها وقد عد عند بعضهم من فروع علم البيان، وعادة ما يكون الإلغاز متضمنا في أبيات شعرية. قال شاعر ملغزا ولما رأيت النسر عز بن داية وعشش في وكره جاشت له نفسي، وهو يريد بالنسر الشيب لأن النسر يميل إلى البياض عكس الشباب الذي يضرب له المثل بالغراب في اسوداد شعره. وقد مست الألغاز جل جوانب الحياة وتنوعت مجالاتها لتشمل معارف الإنسان المختلفة، انظر بن فرحون برهان الدين إبراهيم، درة الغواص في محاضرة الخواص، تح محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، تونس، دت. ص 28 وما بعدها. ويرى البعض أن الحكمة من الألغاز في المجالات الفقهية والدينية استعمال أدوات النظر لتحصيل الأحكام، و تغيير أسلوب العرض الفقهي لئلا تملّ النفوس من تكرار المعهود، واختيار الأذهان و ترفيتها. انظر الاخضري، فتاوى مدرسة مازونة، مقال اليكتروني..

792 - الفكون، المصدر السابق، ص 223.

793 - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 130.

794 - محمد بن معمر، تحقيق رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004، ص 72.

لفظ تراه في كتاب الله
للم يثن فيه واصطحبه ...
أتى مثني يا أخا انتباه
في السفر المبرور تستطبه
فأجبتة:

الحمد لله الذي ألهمنا ...
وصلواته على المُقَرَّب ...
كقَاب قوسين النبيّ العربي
ثم الرضى عن صحبه وعترته ..
الفائزين بمزايا أثرته
السعداء العاملين الجلة⁷⁹⁵
ووارثيه علماء الملة ...

كما كان للفكون مشاركات شعرية حاول من خلالها الترويح عن نفسه خاصة بعدما ألم به المرض والسقم وأحاطت به الهموم، فجعل في ديوان شعر له التماسات لربه أن يشفيه مما هو فيه ويذهب همه ويفرج غمه، وفي كل قصيدة منه رجاء يقرؤه السامع إذا جمع الحرف الأول من أبيات القصيدة فتتشكل له عبارة " اللهم اشفني بجاه محمد أمين" أو عبارة " الاهی بحق الممدوح اشفني آمين"⁷⁹⁶.

ويعتبر أبو القاسم سعد الله المؤرخ الجزائري الألباز أهم رياضة فكرية كان العلماء يقضون فيها وقتهم هي حل مسائل الميراث، والمجادلة في حل الألباز و يتحدثون بها بعضهم البعض.

المطلب الثالث: التنافس بين الفقهاء

كانت دوافع التنافس بين العلماء تدور في غالب الأحيان حول الانتماءات الجهوية، والمكاسب المادية والأحقاد الشخصية، أكثر مما تتعلق بدافع البحث العلمي والتنافس النزيه، ويمتد التنافس بجذوره عميقا في تاريخ المنطقة، ولعل من أمثلة ذلك تلك النادرة التي أوردها ابن قنفذ القسنطيني، والتي وقعت قبيل الوجود العثماني في الجزائر، حيث قال: " يحكي بعض عدول بلدنا أن الأمير أبا زكريا مرض مرة بقسنطينة، وورد أهل بجاية بعد برئه للهناء وطلع جماعة من أهل بلدنا واجتمعت الطائفتان بجامع القصبة واستأذن على الجميع فجلس مع أهل بلدنا والد والدي الخطيب بجامع القصبة يومئذ علي بن القنفذ وغيره، فخرج الحاجب وقال لهم: مولانا يقول لكم أنتم عندنا بالمكانة المعلومة، وهؤلاء فقهاء بجاية أضياف علينا وعليكم، فتسلموا لهم في الدخول علينا قبلكم إن

795 - سعيدوني والبوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص 170

796- سعودي يمينة، الحياة الأدبية في قسنطينة خلال الفترة العثمانية، (ر.م.غ.م) كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.

طابت بذلك نفوسكم؟ فقالوا نعم. وقاضي بجاية يومئذ الفقيه المحدث أبو العباس أحمد الغبريني صاحب عنوان الدراية وقاض قسنطينة الفقيه أبو محمد عبد الله بن الديم، فدخلوا على الملك بالترتيب آخر البجائيين أول القسنطينيين، فسلم البجائيون بترتيب ووقار وأدب مع قاضيه، وتزاحم القسنطينيون وقاضيه بينهم كأحدهم، وكل واحد يريد أن يكون هو الموالي للملك في جلوسه، ولما اجتمع القاضيان، قال الفقيه الغبريني لابن الديم: " رأيت أدب أهل بلدنا معي وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك؟ فقال له القاضي ابن الديم: " السبب في ذلك أن فقهاءكم محدثون ببلدكم وهؤلاء كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدكم وقدم نعمتهم" فسكت الغبريني كالنادم في قوله⁷⁹⁷.

فالتنافس بين العلماء والفقهاء ظاهرة بارزة وكانت على أشدها بدافع الغيرة أحيانا وبدوافع البحث والتحري عن الحقيقة أحيانا أخرى، غير أن الحسد والسعي لنيل مراتب المجد والشهرة والمكانة عند الناس وعند أهل الخطوة غلب على كثير منهم. وقد يسعى بعض الفقهاء لدى الحكام للنيل من خصومهم.

وفي هذا الإطار يُذكر أن "سعيد قدورة" الفقيه والمفتي تعرض لمحنة كبيرة بسبب حسد منافسيه له على مكانته المرموقة، وتبحره في فنون العلم والمعرفة، وقدرته الفائقة في تسيير شؤون الدين الإسلامي ومرافقه بكل إخلاص في مدينة الجزائر، وفضله الذي لا ينكر فيها، وقد عرض به أحد الخصوم فطرد من المدينة بأمر من الأتراك، وكان القاضي أحمد المانجلاتي صديقا حميما له ويعلم جيدا إمكانياته وإخلاصه لفقهه ودينه، فتدخل لدى شيخ الإسلام بالقسطنطينية ومفتيها "سعد أفندي"، يعرفه بالرجل وقدراته وورعه وزهده وكان لالتماسه أثرا طيبا، وعاد "سعيد قدورة" معززا إلى مكانته السابقة⁷⁹⁸.

وكانت حالة التشنج السياسي والتعفن الاجتماعي والمكائد والمؤامرات بين الفقهاء والعلماء المواليين للسلطة والرافضين لها، سمة بارزة ومظهرا من مظاهر التنافس اليومي المعاش، وكان كل متنافس إذا بلغ المرتبة الرفيعة على خصمه، يسعى بكل هودة من أجل طمس منافسيه والنيل منهم، وقد يقضي هذا التنافس الحاد بين الخصوم على أجمل الذكريات التي يصنعها الرفاق في طفولتهم، وكثيرا

797- روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ترجمة حمادي ساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 425.

798 - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي ج01، المرجع السابق، ص371.

منهم داس هذه الذكريات وتنكر لصداقات الطفولة، كما وقع بين الفقيهين عبد اللطيف بن عبد الكريم الفكون ت 1622، وحميدة الغربي ت 1621 من أجل الظفر بمنصب القاضي⁷⁹⁹. وتحول التنافس بين الطرفين إلى معركة من أجل البقاء فارتقاء أحدهما، يعني تراجع الآخر وتدرجه في السلم الاجتماعي والفكري بالمدينة سياسيا وشعبيا⁸⁰⁰.

كما كان التنافس الكبير بين الشيخين أبو عبد الله بن نعمون وأبو العباس بن باديس⁸⁰¹ الذين تصارعا على لقب المفتي في مدينة قسنطينة⁸⁰². وتنافست عائلتا بن نعمون وبن لفقون على مراتب القضاء والولاية الدينية رغم علاقات الدم بينهما، كما تنافست عائلتا بن محجوبة والكماد، وعائلتا بن جللول وبن العطار⁸⁰³.

ومن أجل تثبيت أقدامهم في المدينة على مستوى النخب الفقهية، كان الفقهاء عادة ما يصنعون أحلافًا مشكلة من القضاة والمفتين وأعيان البلد يلجؤون إليهم، كلما دعت الضرورة. فانقسم المجتمع العلمي إلى عدة طوائف، وكل طائفة تناصر فقيها بعينه وتساهم في تبييض صورته لدى العامة⁸⁰⁴.

وكان كل فريق من المتنافسين إذا سقط في معركة التنافس أمام خصمه، يهوي بسلسلة الشخصيات والأسر والعناصر المتنفذة التي تسانده، مثلما وقع للشيخ بن باديس الذي حين أنزلت مرتبته إلى مرتبة إمام بمسجد القصبة، دفع صديقه القاضي عبد اللطيف بن سعيد الثمن، حيث عزل عن منصبه ومنح للشيخ محمد المسبح المؤيد بمجموعة بن نعمون⁸⁰⁵. وكان الفقهاء لا يألون جهدا في سبيل الظفر بدعم السلطة السياسية في مدينة الجزائر فيتنقلون إليها طامعين في نيل رضاها⁸⁰⁶.

ولم يكن التنافس والتحاسد على مستوى الأسر العلمية الكبيرة بل تعداه إلى الشخصيات العلمية المفردة، وفي هذا الشأن تذكر لنا المصادر أن الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني، كما مر بنا أُلّف رسالة في علم الكلام بقسنطينة أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، تحدث من خلالها على

- Houari touati, **op.cit.** p82. 799

- ibid , p82. 800

801 - عائلة بن باديس تعد من أبرز العائلات العلمية في قسنطينة برزت في مجال الخطابة والتأليف الفقهي والفتوى انظر، أبو

القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 32.

- Houari touati, **op.cit.** p82 802

- ibid , p 83 803

- ibid , p82 804

- ibid , p 83 805

- ibid , p82 806

المتشابه في العقائد وذهب إلى منع التشابه في العقائد فثار عليه بعض علماء عصره، وجيشوا العامة ضده لجهلهم وحقدهم عليه، ووقف إلى جانبه في هذه المحنة "الحسين الورتلاني"⁸⁰⁷، وقد ذكر الحفناوي هذه المحنة التي عاشها الراشدي⁸⁰⁸، وبين أن سببها يعود للبيئة السياسية والعلمية المعقدة بالمدينة، وصعوبة البحث في مسائل الدين، والغيرة والحسد والخوف من زوال مكانة البعض⁸⁰⁹ على حساب بعض آخر.

وتعرض سعيد قدورة في فترة توليه كرسي الفتوى كما ذكرنا آنفاً، إلى الكثير من الحسد الذي نال منافسيه فتربصوا به وحاولوا أن يوقعوا به عند باشا الجزائر. وكانت التهمة الموجهة له إنفاق أموال المسجد و الأحباس على نفسه وأبنائه، وكان الحسد قد أعمى أبصارهم عن النظر في حال الرجل، إذ كيف لم ينتبه حساده أن الرجل كان غنياً جداً وأتاه الله بسطة في العلم والمال، لكنه بفضل توثيقه كل حركات وسكنات الأموال نجا وخرج من المحنة منتصراً⁸¹⁰، كما اتهم أبو راس الناصري رغم ما أسداه للسلطة التركية ببايلك الغرب، بالخيانة والانضمام لثورة درقاوة سنة 1802 وخرج منها سالماً⁸¹¹.

ولا نمر دون الإشارة إلى الخصومة الحادة التي جمعت بين "ابن علي" المفتي الحنفي مع "محمد النيكرو" مفتي المالكية سنة 1150هـ والتي أدت إلى وفاة هذا الأخير كمداً⁸¹² لافتقاده عناصر الدعم والمساندة، وكان "ابن علي" المفتي الحنفي كثير التخاصم مع أقرانه شديد الانتقاد لكثير من الفقهاء والعلماء لأسباب تافهة، فقد تخاصم مع الحاج "حسين بن رجب" المدعو "ابن المفتي" لا لشيء سوى لأنه انتصر لمحمد بن نيكرو، وقد وصفه الرحالة ابن حمادوش مختصراً إياه بقوله: "المفتي الحنفي في الوقت ابن علي المستحق المقت"⁸¹³.

وكانت الخصومة تتحول أحيانا إلى فجور في القول وفحش في الألفاظ⁸¹⁴ مما ينم عن عقلية ضيقة وفقه ضعيف لدى هذه الفئة من النخبة، ورغم ذلك فقد قامت صداقات انعقدت بين الفقهاء

807 - أحمد بن المبارك العطار، تاريخ قسنطينة، تح رابع بونار، (ش.و.ن.ت) الجزائر ص11..

808- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص228.

809 - عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص ص 34-40.

810 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص97.

811 - الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق ص 570 .

812 - بوبشيش صالح، المرجع السابق، ص 163.

813 - الورتلاني، المصدر السابق، ص265..

814 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص163.

من مختلف المذاهب، وتجاوز أصحابها الخلافات الضيقة والتحاسد المذموم، فهذا "ابن علي" المفتي الحنفي السابق الذكر يرتبط بصدقة قوية مع تلميذه "ابن عمار" المالكي، وكان الأخير يبالغ في مدحه ووصفه بمختلف الأوصاف الحسنة من مثل قوله: "شيخنا وأستاذنا شيخ الإسلام" مشبها إياه في قول الحكمة بالفيلسوف الإغريقي "سقراط"⁸¹⁵.

ويقول "ابن عمار" في ابن علي "هذا الإمام هو خاتمة الشعراء العظام بهذا الصقع ليس لغيل الأدب بعده نقع، وكثيرا ما كنت ارتاح إليه رحمه الله ويرتاح إلي ويا طالما كان يفرغ من سجل آدابه علي ومضت لي معه مجالس قطع الرياض تكسي النفس والطبع منها مطارف ارتياح وارتياض"⁸¹⁶.
وكان ابن علي يذكر تلميذه بخير ويمدحه وقال فيه شعرا منوها به وبخصاله:

ما كل من صاغ القريض يجيده معنى وبصره على أوزانه
إلا ابن عمار فحسبك من فتي زان النشيد وعد في أعيانه⁸¹⁷

وما يمكن استنتاجه مما سبق أن أغلب الخصومات لم تكن تحدث لدوافع عرقية بل كان جلها نابع من التنافس والتحاسد والغيرة، من تمكن بعض الفقهاء من مادتهم العلمية خلافا للبقية الأخرى، لقد كان عالم الفقهاء تمزقه الخلافات الشخصية من أجل المناصب الدنيوية⁸¹⁸، كما أن غياب الفقهاء المتنورين الذين يسيرون بالدين نحو التجديد ومواكبة الحداثة بتجميع الجهود لبناء مشروع نهضوي حديث، وهو ما يفسر لنا جمود الدولة العثمانية وأطرافها وعدم قدرتها على تغيير نظمها مع تطور العالم المحيط بها. وليس من السهل القول بأن الفقه المتحجر الذي يقوم على التقليد وينبذ الاجتهاد يستطيع أن يواكب دورة الحياة ويغير الموازين، وهو ما يفسر لنا ربما عجز فقهاء وعلماء المغرب الأوسط على القيام بما قام به جيرانهم في تونس والمغرب، من بناء جامعة علمية، توجه البحث العلمي وتقيم مستوى الفقهاء بالنظر إلى أقرانهم في المشرق والمغرب، فلم يكن الفقهاء أكثر حرصا من الحكام الأتراك في المطالبة برفع المستوى العلمي والمطالبة بفتح باب الاجتهاد ليكونوا في مستوى غيرهم⁸¹⁹.

815 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص 163

816 - نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 196.

817 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص 163

- Houari touati, opcit p82 818

819 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 18. وص 320.

المبحث الثاني: دور الفقهاء الديني

المطلب الأول: الجانب العقدي

أولا : محاربة الغلو والتطرف ..

في ظل الظروف الاجتماعية والسياسية الصعبة التي ألمت بالمغرب الإسلامي منها سقوط الأندلس بيد الأسبان و شيوع الفوضى والاضطرابات المختلفة في جميع الأصعدة والتي كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي. شاعت ظاهرة التكفير للمسلمين بعضهم لبعض بل حتى من طرف بعض العلماء ممن يحسبون على هذه الفئة.

ويمثل تماسك المجتمع الإسلامي ووحدته الفكرية والعقدية من أهم الرهانات التي يحرص الفقهاء والعلماء على صيانتها والذود عنها إذ أن إدراك مسارات الانحراف الديني والأخلاقي داخل المجتمع، من أبرز ادوار الفقهاء والعلماء. على اعتبار أن ظاهرة الغلو في المجال العقائدي والكلام في ما لا ينبغي عليه عمل هو من الإشارات البارزة التي تدل على الانحراف والضلال بتعبير بعضهم.

ومن هذا المنطلق يعد الفقيه والعلامة الجزائري بوشقرون الوهراني⁸²⁰ من الفقهاء العاملين الحارسين لمسارات المجتمع الإسلامي ويتجلى ذلك من خلال كتابه الهام "الجيش والكمين لمن كفر عامة المسلمين".

ويعد هذا الكتاب الذي ألفه بوشقرون سنة (1514 م 920 هـ) نموذجا للمدرسة الجزائرية ومرجعا فقهيا وعقديا في التعاطي مع مختلف النوازل التي ألمت بالأمة، وكادت أن تعصف بوحدتها الدينية بالرغم من الوحدة المذهبية التي تجمعها.

وتتمثل هذه النازلة في شيوع ظاهرة تكفير عامة المسلمين من طرف بعضهم البعض من جهة، ومن طرف بعض الفقهاء الذين يعدهم بوشقرون من أشباه العلماء، لإغفالهم مقاصد الشريعة في صيانة وحدة المسلمين

820 - هو الفقيه الجزائري بوشقرون الوهراني ابن فقيه ومفتي وهران السابق أبو العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي (ت1514م) صاحب الفتوى الشهيرة الموريسكيين التي خالف بها فتوى يحيى الونشريسي، انظر: محمد الأمين بلغيث، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير 2006، ص120، وانظر كذلك للمزيد من الاطلاع في الموضوع: يوسف عدار، أصول أحكام النظر والتقليد عند علماء الغرب الإسلامي في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الهجرية، مع تحقيق "الجيش والكمين" (ر.م.غ.م) كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر، 1999 .

فوجود ظاهرة الغلو في المجال العقائدي والكلام في ما لا ينبني عليه عمل هو من الإشارات البارزة التي أشار إليه الفقيه بوشقرون الوهراني في رسالته السابقة، حيث تطرق فيها لبدعة التكفير التي كانت سائدة في بعض الأوساط، للمقلدين في الدين أي الذين يأخذون شرائع الدين دون تحقيق في أدلتها وتفرعاتها المختلفة.

ويقول في هذا المضممار "والذين لا علاقة لهم بالشرع إلا قليلا أفتوا بغير علم وفتحوا مجالات الفتنة على الناس بالقول بتكفير العامة الذين لا حيلة لهم"⁸²¹ على حد تعبيره.

ويرد الفقيه بقوله: "ولما شاع أمرهم وفشا وذاع قولهم رأيت من الواجب الرد عليهم وإظهار الحق قبل أن تفسد حياة الناس وسميت هذا الجواب الجيش والكمين لمن كفر عامة المسلمين"⁸²².

وساق المؤلف من خلالها العديد من الشواهد والمواقف والآراء التي أبطل بها دعاوى تكفير العوام وذكر مواقف بعض العلماء منهم "أبو حامد الغزالي" و"الفاكهاني" و"مالك" و"الشافعي" و"أحمد بن حنبل" و"سفيان الثوري" و"ابن العربي" و"الماتريدي".

والواقع الديني المنحط الذي لاحظته بوشقرون بفعل الغلو وخلط العقائد بعلم الكلام في ما لا ينبني عليه عمل، كبدعة التكفير للمقلدين الذين يأخذون شرائع الدين دون تحقيق في أدلتها وتفرعاتها المختلفة⁸²³.

ويرى "بوشقرون" أن العوام لا يطلب منهم إلا اليسير من الفقه والعلم الذي به يحصل الاطمئنان واليقين والثقة وقد أورد في هذا الشأن عدة أقوال لعلماء أصوليون منهم الإمام الغزالي الذي قال: "لا ينقب على قلوب العوام ولا يبحثون عن البراهين والأدلة التفصيلية، فتكليفهم بذلك تكليف من لا يطيق وربما أداهم الخوض في ذلك إلى ضلال عظيم لشبهات لا يقدر على دفعها فيصرون كراكب بحر بسفينة مكسرة قد تغرق به وحينئذ قد تحصل سوء الخاتمة فلا ينجو"

وأورد قول الإمام الفاكهاني في شرح الأربعين نووية بقوله: "تحميل العوام على الصحة والسلامة في العقيدة اسلم وإنما يطلب منهم دليل جمعي يحصل به الاطمئنان وهو يحصل بأيسر نظر،

821 - بوشقرون الوهراني، الجيش والكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، دار الصحابة للتراث للنشر والتحقيق والتوزيع، طنطا، مصر، 1992، ص12.

822 - بوشقرون، المصدر نفسه، ص13.

823 - بوشقرون، المصدر نفسه، ص18.

كما قال الإعرابي البصرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير وسماء ذات أبراج وارض ذات فجاج
أفلا تدل على اللطيف الخبير⁸²⁴

وذكر "بوشقرون" قول "ابن العربي" في شرحه لموطأ مالك: "أن ما يطلب من العوام إنما هو
التوحيد بالتيسير وبأسهل دليل بما يقدرون عليه، وإن الله تعالى يرضى منهم باليسير" فعلى قوله هذا
لا يصح الحكم عليهم بالتضليل لعدم البرهان والدليل⁸²⁵، و ساق "بوشقرون" شعرا لطيفا لأحد
الشيخوخ يدعى "سيدي احمد بن زكرياء" قال فيه:

ولا ينبه من لم يتقن القواعد عن التعرض لذي المقاصد

تحريكه بمنظر الدليل لقاصر يفضي إلى التطويل

من أجل ذا قد قيل يحرم النظر وان مكلف عليه قد قدر

ولهذا كما يردف بوشقرون، ألف الإمام الغزالي رحمه الله كتابه "إلجام العوام عن الخوض في
مسائل الكلام"، قال فيه وللناس في هذا العلم غلو وإسراف في أطراف، فمن قائل أن الخوض فيه
بدعة وحرام نقل ذلك عن مالك والشافعي واحمد بن حنبل وسفيان الثوري وجميع أهل الحديث من
السلف، ومن قائل أنه واجب على الكفاية يحمله من قام به وقدر عليه، ومن قائل أنه واجب على
الأعيان وانه أفضل الأعمال وأعلى القربات إلى آخر ما ذكر⁸²⁶.

ومن الأدلة التي ساقها نقلا عن الماتريدي⁸²⁷ قوله: "الإجماع على أن عوام المسلمين مؤمنون
وأهم برهم عارفون ويعني لأنهم إذا قيل لأحدهم مثل من خلقك وخلق والدك أو أمك أو هما معا؟
فإنه لا بد أن يقول بل الله خلقتني كما خلقهما وإذا قيل له من يفعل كذا وكذا أو من يحيي ويميت
ومن يرفع ويضع فيقول الله تعالى هو الذي أعطى ومنع وحكم ولو شاء لعكس"⁸²⁸

وقد أورد "بوشقرون" مثال على صحة عقيدة العاصي حيث ذكر أن فقيهين تكلمتا في
الموضوع، وتساءلا: هل عقيدة العوام صحيحة أم فاسدة؟ فقال القائل بالصحة لصاحبه تعالى نذهب

824 - بوشقرون، المصدر السابق، ص 26.

825 - بوشقرون، المصدر نفسه، ص 27.

826 - بوشقرون، المصدر نفسه، ص 29.

827 - الماتريدي أبو منصور فقيه وأصولي وفيلسوف إسلامي عاش في القرن الرابع الهجري في مرحلة ازدهار الفلسفة وعلم الكلام
وكان له مساهمات كثيرة في علم الكلام والعقائد وكان يرى في كثير من مسائل العقيدة رؤية الأشاعرة للمزيد انظر الأشعري
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

828 - بوشقرون، المصدر نفسه، ص 28.

إلى سكران فقد جل عقله وغلبه الشراب أشد ما يكون، فوجداه في هذيان فضيع، فَخَلَّوْا به وقال له القائل بالصحة حرصا منه على إظهار صحة قوله: " اكفر بالله أو اشم النبي" أو نحو ذلك، فرفع السكران عند ذلك إليه بصره، وقال له أذهب ما بقي لي إلا هذه" أو نحو ذلك، ثم قال له : " اذهب ما بقي لي إلا هذه العين صحيحة -يعني عين الإيمان- أرجيها مع ما أنا عليه من عظيم المعاصي أردت أن تعميني فيها حاشا لله لا أقول شيئا من ذلك اذهب عني" فقال الفقيه لصاحبه أين ما تقول من فساد عقائدهم وحيفها، وأنت رأيت الرجل في حالة من الانغماس في السكر والمعاصي، لا يزال قلبه ينبض بالإيمان ويرجي حبه لله ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم⁸²⁹.

وقد عدد الباحثون كثيرا من دواعي الجهل والأمية الدينية التي كانت تنخر في جسد المجتمع وتفرز الظواهر السلبية العديدة، والتي منها ظاهرة التكفير وتهميش الاجتهاد وتجريمه في بعض الأحيان، والاكتفاء بما تركه الأولون، مما قد لا يلاءم حاجات العصر والحد من الإبداع في ظل انتشار الخرافة والبدع المتنوعة.

ويمكن تصور نفسية الجزائريين آنذاك من خلال طبيعة علاقة الجزائريين بالشعوب الأخرى، فقد كان الجزائريون كثيرون السخرية من الأجانب مثل النصارى، وغيرهم من الشعوب والمبالغة في احتقارهم، على اعتبار أنهم كفارا استحقوا النار خالدين مخلدين فيها، وخير شهادة على ذلك ما أورده هايدو الاسباني حيث يقول أن مما هاله وأثر فيه اعتقاده أن سكان الجزائر يرتكبون إحدى أكبر الكبائر، التي أفسدت أخلاقهم وتتمثل في "الكبر" خاصة أمام النصارى. حيث يقول : " كنا نجدهم يسخرون دوما من رجال الديانة المسيحية ويقولون أن ذنوبنا في اعتقادهم أكبر منا أما بالنسبة للمسلمين فإن النهاية السعيدة دائما بانتظارهم وعندما يكلمنا المسلمون يصفوننا بالجبن وعدم الرجولة⁸³⁰ poule mouillée.

ويبدو أن هذا الشعور تجاه الأوروبيين كان عاما شمل النخب الدينية كذلك، فهذا ابن سحنون الراشدي يجسده ويصف الأوروبيين بالجهل والكذب وتفشي الخرافات بينهم ويعتبرهم ضالين بعيدين عن الطريق الصحيح⁸³¹.

829 - بوشقرون، المصدر السابق، ص 29.

- Fraye Diego de Haido, **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, Tra de l'Espagnol 830 par mm. le Dr. Monnereau et A. Berbrugger, 1870, p168.

831 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 221.

ورغم أن الدين الإسلامي دعا أتباعه إلى احترام الآخرين وعدم النيل منهم والتعرض لهم، بل دعا إلى التعاون الإيجابي بين الناس بمختلف ألوانهم ودياناتهم، وبين أن مقاطعة الشعوب لبعضها البعض في التعامل اليومي وتبادل الأفكار والتجارب، والانغلاق والانكفاء على الذات يعد من أكثر الأسباب المساهمة في تخلف الشعوب وركودها عن اللحاق بركب الرقي والتطور وهو ما حصل للجزائريين في هاته الفترة، لكن قلما نجد أحد الفقهاء قد أثار هذا الموضوع في كتاباته ودعا إلى تغيير هذه الرؤية الخاطئة في التعايش مع الملل الأخرى⁸³².

وبرغم ما ذكرنا فإن ذلك لم يمنع من وجود إقبال محتشم على الفقهاء والعلماء من طرف الأهالي كما يذكر ذلك الورتلاني فيقول: "ومع هذا فإن أهل وطننا لم يعدوا العلماء، ولا إفادة بكل العلوم أو جلها، قراءة وتحقيقا وبجثا غير أن النفع مقصور على الإذعان والامتثال"⁸³³، أي الاكتفاء بما لدى العلماء من علم وفقه دون التفكير في تطويرها.

وكاد يعتبر عزوف الناس عن طلب العلم والمعرفة مبررا عند بعض العلماء، بسبب انعدام وقلة إمكانيات التوظيف بعد التخرج، فمن حسن حظ المتعلم صاحب الشهادة المتخرج أن يجد وظيفة في إمامة مسجد أو الخطابة فيه أو ينتسب لدار القضاء والأوقاف⁸³⁴، إذ لم يكن للدولة إستراتيجية تذكر للاستفادة من قطاع التعليم، مما دفع بالأهالي إلى نبذه وعدم استفراغ الجهد في طلبه، والتوجه لاكتساب حرفة أخرى للاستزاق.

ثانيا : تصحيح ولاء العامة للدين⁸³⁵

832 - من الحالات التي يحتفي من خلالها الجزائريون بالأجانب عندما يدخل احدهم في الإسلام حيث يقومون بالاحتفالات الممتدة طويلا و يقيمون الولائم فرحة بدخول نصرني إلى دينهم، انظر: جميلة ثابت، دور الأعلام في العلاقات بين الجزائر ودول جنوب غرب أوروبا خلال القرنين 16م و17م ، (ر م غ م) ، المركز الجامعي، غرداية، 2010-2011، ص 41.

833 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 111.

834 - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، المرجع السابق، ص362.

835 - الولاء من الموالة، أي المحبة والنصرة والموالة بمعنى الولاء للإسلام، لقوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ" سورة محمد، 11. والموالة ضد المعادة، والولي ضد العدو، قال تعالى: "يَا أَيَّتُهَا النَّبِيُّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا" سورة مريم: 45 قال الفقهاء: "كل من عبد شيئا من دون الله فقد اتخذهُ ولياً". ومنه الولاية التي تعني النصرة والمحبة والإكرام، وموالة الكفار تعني الذل والهوان الذي يدفون إليه مواليهم ويقابل الولاء لفظ البراء جاء في القاموس المحيط برئ إذا تخلص، ومنه قوله تعالى: "بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" التوبة، قال ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة، وتقتضي عقيدة الولاء والبراء بغض الكافرين وحب المؤمنين وموالاتهم لقول النبي: "من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة". والموالة لأعداء الله تختلف في المستويات، فمنها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية،

تسبب الاستعمار الإسباني لجهات كثيرة من بايلك الغرب في حدوث الكثير من الويلات والدمار والتهجير، مما أدى إلى فقدان الاستقرار الاجتماعي فضلا عن مشاريع التنصير القصري التي شرع يمارسها بكل وحشية وقسوة.

وقد تركت هذه الممارسات العدوانية أجواء غائمة وهلعا كبيرا وسط الأهالي، الذين لم يكونوا يملكون أي وسيلة للمقاومة غير الفرار بدينهم وعقيدتهم، وقد ذكر المؤرخون أن سكان القرى والمدن القريبة من وهران، كانوا قد بنوا قرب الغابات والجبال النائية بيوتا من الشعر، ليفروا إليها ملتجئين عندما يتبدى لهم خطر الإسبان، أو من كان يعاونهم من قبائل سويد ويني عامر⁸³⁶.

وأثارت مسألة تعاون بعض الجزائريين مع المعتدين الإسبان حفيظة الكثير من العلماء والحكام، وكتب فيها الفقهاء رسائل وفتاوى عملوا على نشرها وبثها لعلها تردع أصحابها فيعودوا إلى جادة الصواب، وخير من كتب في الموضوع الشيخ "عبد القادر بن عبد الله المشرفي" الفقيه المحقق⁸³⁷، الذي وصفه تلميذه أبوراس الناصري بوعاء المحققين وإمام بني راشد، كان فقيها متعلما ومجاهدا وحاضرا بسيفه، ومدافعا عن مدينة وهران حينما سقطت للمرة الثانية سنة 1732 بيد الإسبان، وكانت هذه النكسة من دوافع تأليفه لهذه الرسالة⁸³⁸.

كما جاء هذا التأليف ردا على صدور فتوى للشيخ أحمد الفيلاي المكري، حيث حكم فيها على الجزائريين المتعاونين مع الإسبان بالكفر والفسوق فأباح أموالهم وممتلكاتهم وذرايعهم ونسائهم، فدعا المشرفي إلى ضرورة التفرقة بين المتعاونين وإمعان النظر في الأسباب والدوافع التي كانت وراء جنوح هذه القبائل وتحالفها مع عدو الأمة.

ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات. وقد نهي الإسلام عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين. أنظر:

محمد بن سعيد القحطاني، **الولاء والبراء في الإسلام**، تق عبد الرزاق عفيفي، كتاب اليكتروني، ص ص 90 - 94 ..

836 - تعاون بنو عامر مع الإسبان ضد أهلهم من سكان المغرب الأوسط وقد أفتى الفقيه أبو عبد الله ابن عرفة بأن قتال هؤلاء الأعراب واجب ولا ينبغي أن يتخلف عنه احد وثوابه ورجحانه على جهاد الكفار ثابت وأكد، ولا يجب الابتداء بقتالهم واستباحة أموالهم وإتباعهم في هروبهم لا شك في ذلك ولا ينكره إلا جاهل، انظر الونشريسي المعيار المعرب والجامع المغرب لفتاوى، المصدر السابق، ج 02، ص 437.

837 - هو الفقيه الأصولي رمز الاعتدال والوسطية المالكي "أبو المكارم عبد القادر المشرفي" (ت) 1778.

Houari Touati **op.cit.** p64. - 838

ففي رسالته " بهجة الناضر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبان من الأعراب كيني عامر⁸³⁹ " ذكر المشرفي حكم هؤلاء في الشرع الإسلامي الحنيف وقال إن هذه الفرق الضالة، والتي حددها في قبائل " كرشتل، شافع، حميان، حمزة أو غمرة، قيزة، أولاد عبد الله، أولاد علي، والونازرة"،⁸⁴⁰ ساهمت في اشتداد عود الإشبان بالمنطقة، فعاثوا في البلاد فسادا وانتهكوا حرمتها ووالوا الكفار موالاة تامة تضمنت خدمتهم والنصيحة والمبايعة لهم على الطاعة والإذعان⁸⁴¹، ولم يقرؤوا قول الله تعالى " ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون"⁸⁴²

ومما يبرز عدالة الفقيه عبد القادر المشرفي أنه لم يحمل جميع القبائل وزر ما يقوم به مجموعها من عبث بالدين وانتهاك لبيضة المسلمين، بل قسمها إلى ثلاثة أصناف ولم يشملهم في نفس المرتبة من المعصية والفسق، وهو ما ينبئ بتحكم هذا الفقيه في مادة الموضوع ودرايته به، وإمساكه بالمبادرة حتى يتبين لكل واحد ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات، وهذه الأصناف الثلاثة هي:

- صنف عدو محارب وحكم الله فيها أن يقتل ويسبي إذا تمكن المسلمون منه.
- صنف عدو محارب ومنافق يقتل ويسبي إذا علم بما يؤول إليه أمره. أي يجب تنبيهه وتوضيح الخطر الذي يحيط بها لعله يرعوي فإن عاد عن غيه عد في جماعة المؤمنين.
- صنف ثالث يشمل من تاب وعاد إلى جماعة المسلمين⁸⁴³.

وكان محمد الزباني الوهراني يرى أن سقوط وهران بيد الإشبان هو السبب في تغيير قبائل بني عامر لولائتها للمسلمين وتعاونها معهم خوفا وطمعا⁸⁴⁴، وقد استفاد محمد الكبير باي وهران كثيرا من

839 - نشر الرسالة ودرسها في المجلة الإفريقية أ بودين A. BODIN انظر الملحق رقم 05 وحققها محمد بن عبد الكريم الجزائري، ونشر دار مكتبة الحياة. بيروت.

840 - يذكرها المازري بن عودة باسم "المغنطيس" أو "المغاطيس" اتخذها الإشبان كوسيلة للسيطرة على بايلك الغرب انظر المازري المرجع السابق ص 209.

841 - المهدي البوعبدلي، "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، مجلة الأصالة، عدد خاص، سنة 1971، ص 275.

842 - سورة المائدة، الآية (81)

843 - المهدي البوعبدلي، أضواء... المرجع السابق، ص 288.

844 - محمد الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق وتعليق المهدي البوعبدلي، (ش.و.ن.ت). الجزائر، 1972. ص 142...

هذه الرسالة حيث عاد الكثير من الأهالي لجادة الصواب ووقفوا إلى جانب إخوانهم حتى فتحت وهران وطويت صفحة الولاء لغير الدين والمسلمين وبني جلدتهم.

ومن خلال هذه الرسالة يتبين لنا مدى حرص الفقهاء على تصحيح عقائد الناس وتطهيرها من مظاهر الشرك والكفر والغلو، وهي مسائل تتطلب صنفا من الفقهاء مضطلع بأمور الدين والفقه وعارفا بخباياه حتى يجيب على المشاكل والنوازل التي يتعرض لها الناس في زمانه، وهذا الصنف من الفقهاء عملة نادرة كما أشار لذلك الفكون، فواقع العلم على حد قوله لم يكن بأحسن من ذي قبل، قال ابن الفكون حين برر دوافع تأليفه كتابه منشور الهداية: "ولما رأيت الزمان بأهله تعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل⁸⁴⁵ رئيسا والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة" الخ⁸⁴⁶.

ثالثا : الفقهاء والتبرك بالأضرحة.

كانت بداية القرن الثاني عشر الميلادي بحق بداية انتصار الفكر الطريقي والصوفي في العالم الإسلامي وتراجع دور الفقهاء والعلماء⁸⁴⁷، وكان من أهم أسباب هذا التمكن للفكر الصوفي بداية تملل الدولة الإسلامية، وقلة الحكام الأقوياء الذين يزودون عن عقائد المسلمين، وانشغال النخب السياسية والعسكرية والتجارية والثقافية - الطبقة البرجوازية - بأجواء الترف والبدخ التي توفرت لها في ذلك الوقت. فلم تجد جموع العامة والأهالي بدا من البحث عن سند روحي تتكئ عليه لمواجهة الأخطار العديدة المترتبة.

وكان المجال الديني في الجزائر يتقاسمه الفقهاء والمرابطون وشيوخ الزوايا، وكانت الخصومات بينهم كثيرة ومتعددة، بسبب إنكار الفقهاء على أتباع الطرق الصوفية ما يأتونه من بدع

845- الفكون، المصدر السابق، ص 31.

846- الفكون، المصدر نفسه، ص 32.

847 - كان الفكر الإسلامي خلال مختلف مراحله تتنازعه ثلاث تيارات أساسية: أصحاب النص والفقهاء سادوا خاصة في القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن الثاني، أصحاب الفلسفة وعلم الكلام تطور هذا الاتجاه ابتداء من القرن الثاني الهجري حتى عصر الضعف، وثالثا تيار الصوفية وأصحاب الطرق بدأت ملامحه في البروز منذ القرن الرابع الهجري.

وضلالات⁸⁴⁸، يراها هؤلاء من صميم الدين ومن الكرامات التي تحصل عليها هؤلاء من شيوخهم وأقطابهم⁸⁴⁹.

ومن أكثر الظواهر الدينية السائدة في هذه الفترة، ظاهرة التبرك بأضرحة الأولياء والصالحين، والتقرب منهم لنيل رضاهم وبركاتهم، وكان بعض الأتباع يدعون لزيارة قبور أوليائهم معتقدين حصول البركة والتوفيق للزائرين وقال بعضهم⁸⁵⁰:

زُرْ ضريحاً ضمَّ حبراً
عالمًا عاملاً في علمه دون مرا
خادمُ النعمان في مذهبه
شارطُ في الفقه أعني الدرا
شيخنا الإسلامبولي أحمد
الفقيه ابن الفقيه عمرا⁸⁵¹

وقال على منواله الشيخ إبراهيم التازي منوها بزيارة الأضرحة:

زيارة أرباب التقى مرهم يدي
ومفتاح أبواب الهداية والخير⁸⁵²

وتعد هذه العادة من أهم مظاهر التدين في المجتمع الجزائري في العهد العثماني، وتتجلى خاصة في المواسم الدينية كالمولد النبوي الشريف والأعياد الدينية الأخرى. وصاحب هذه الظاهرة العديد من التقاليد التي أفرزتها الممارسات المتكررة لها، حتى صارت بمثابة تكليف شرعي يجب على الناس القيام به. فقد كان الحجاج على سبيل المثال لا يرحلون إلى مقاصدهم حتى يطوفون بقبور

848- سعيدوني و البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق ص137.

849 - في جهات عديدة في الشرق الجزائري لا تزال دلالات تأثير الطرق الصوفية والمرابطية تبيّن عمق وتحذر المعتقدات الطرقية مثل فلان معطية له أي أن الولاية الدينية ورثها عن أبيه الذي ورثها هو الآخر عن أبيه وعن جده وهكذا. وقد صار من أمر تأثير الطرق أن لا تجد قبيلة دون أن يكون لها مرابطا يحميها وتحميه من مختلف الأخطار خاصة المعنوية والنفسية التي يعتقد فيها الناس آنذاك وقد نمت هذه الطرق وانتشرت بكثرة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، انظر : العيد مسعود، "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني" في مجلة سيرتا، جامعة قسنطينة، الجزائر ، 1988 ن ص10 وما بعدها.

850 - هو العلامة الشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن الشهير بابن الشطي الحنبلي الدمشقي، صاحب هذه الأبيات. انظر: أبو الفيض عبد الستار بن عبد الوهاب البكري الصديقي الهندي المكي الحنفي، فيض الملك الوهاب المتعالي بأبناء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي، دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهاش، 2006. ص281.

851 - هو الشيخ أحمد الإسلامبولي الصوفي الباطني، مدرس وفقه وشيخ صوفي توفي سنة 1281 ن وتنسب له العديد من الكرامات له من المؤلفات "تحفة الأنام الأعلام شرح درر الحكام"، انظر عبد الستار الدهلوي، المرجع السابق،

852- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج02، المرجع السابق، ص224

الأولياء في جهتهم. فحجاج تلمسان كان واجبا عليهم زيارة ضريح الولي "أبو مدين شعيب"⁸⁵³، وضريح "سيدي أحمد السنوسي" شيخ الطريقة السنوسية.

ومن المعلوم أن العثمانيين شجعوا هذه الظاهرة التي عرفت رواجاً كبيراً في زمانهم وقربوا إليهم المرابطين وأغدقوا عليهم بالعطايا، وأعفوه من الضرائب، ومنحوهم جزءاً من عائدات الأوقاف وغنائم البحر بهدف كسب تأييدهم لتأثيرهم الكبير على السكان، وبعد وفاتهم بنوا عليهم الأضرحة، فأصبحت مزارات للتبرك بها.

ومن مظاهر احترام المرابطين والأولياء، أن السكان قد ربطوا بمؤلاء كرامات وخوارق. وكانت لهذه الأضرحة قداستها، فكان بإمكان أي شخص ارتكب جريمة أن ينجو من العقاب إذا تمكن من اللجوء إلى ضريح أحد الأولياء الصالحين، بحيث يمنع على الجيش والحراس اقتحامها والقبض على المجرم. وكان ضريح "سيدي عبد القادر" و"سيدي عبد الرحمن" من أهم هذه الملاجئ في مدينة الجزائر⁸⁵⁴.

وعمد الجنود والمقاتلون في أغلب الأحيان قبل خروجهم إلى الجهاد أو الغزو إلى التوجه نحو الأضرحة وقبور الأولياء لطلب النصر والبركة وإظهار المحبة والاحترام لهم والتسليم المطلق بقوتهم وقدرتهم على تغيير موازين القوى في أرض المعركة، وفي أحيان أخرى كانوا يصطحبون معهم أحد المرابطين خلال تنقلاتهم⁸⁵⁵.

وقد ذهب جل فقهاء المسلمين إلى تحريم زيارة قبور الأولياء ووضع أي شيء عليها أو حولها والاعتقاد، بأنها تنفع وتضر ويحجب عندها الدعاء. والتسابق في استرضاء الأموات بتوقيد الشموع وبث العطور والبخور بدعة وخروج عن حدود الدين⁸⁵⁶. وقد شح موقف فقهاء الجزائر من هذه الظاهرة في العهد العثماني إلا القليل منهم.

853 - لا يزال موضوع انتشار الطرق الصوفية وكثرتها في بايلك الغرب والوسط دون غيرها يثير الكثير من علامات الاستفهام والتساؤلات التي ما تزال تشكل موضوع بحث ودراسة.

854 - J M Venture de Paradis, **Tunis et Alger au XVIIIe siècle**, mémoires et observations rassemblés et présentés par Joseph Cusq, Edition Sindbad, Paris, 1982, p.257

855 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 112.

856 - محمد شلتوت، الفتاوى دراسة لمشكلات المسلم المعاصر، ط02، دار القلم، دت، ص 195.

واعتبر أغلب الفقهاء الذين درسناهم في هذا البحث أن زيارة القبور المتعلقة بالأولياء والصالحين، عملاً خيراً يجلب لصاحبه الثواب، ويكون سبباً في استجابة الدعوات وتلبية الحاجات؟؟؟

وكانوا وليعين بزيارة الأضرحة معتبرين ذلك من القربات، كالمقري وابن حمادوش وابن عمار و الورتلاني، حيث يعتبر هذا الأخير أولياء الله في تونس كالنجوم، واغتنم مروره بالبلد ليزور أضرحة الشيخ "محرز بن خلف"، و الفقيه "ابن عرفة"، و "البرزلي"، و "الغبريني"، ومغارات "أبي الحسن الشاذلي"، ثم يقول: "هؤلاء هم سلاطين البلد وعليهم الاعتماد في جميع الأمور"⁸⁵⁷.

وأما في ما يتعلق بمنطقة ميزاب الاباضية فالراجح وفق ما توصلنا إليه من معلومات ومراجع أنها تكاد تخلو من مظاهر تقديس الأولياء وزيارة أضرحتهم، مثلما ذكرنا سابقاً فهل مرد ذلك إلى أن المجتمع الإباضي محصناً من هذه الظواهر بحكم تأثير النخب الفقهية فيه أم أن هناك أسباب أخرى وراء ذلك؟؟ ولا ينطبق هذا القول على أغلب الجهات التي يقيم بها الإباضيون ففي جبل "نفوسة" بليبيا يُعَدُّ الإباضيون لبعض النساء مكانة مرموقة بفضل علمهن وكثرة إحسانهن، ولا تزال به قبور بعض النسوة الاباضيات، تعتبر من المناطق المباركة التي تزار في المنطقة، ذكرها الباحث الفرنسي "ريني باسي" في مذكراته حول المناطق المقدسة في جبل نفوسة، وذكر أن إحدى هؤلاء النسوة كانت أمةً سوداء دخلت في الإسلام بمجرد سماعها للقران الكريم يتلى لأول مرة، فانبهر الناس بسرعة إسلامها وتخلصها من الوثنية، فعقدوا حولها الخرافات في حياتها وبعد وفاتها، وجعلت من الصالحات⁸⁵⁸ وصار ضريحها مزاراً للطائفتين بهذه الجهات.

المطلب الثاني: الجانب الاجتماعي

أولاً : الفقهاء وقضايا المرأة.

تساهم المرأة بدور كبير في استقرار المجتمع، وقد صدق الشاعر العربي حين قال الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق⁸⁵⁹، فصلاح المجتمع منوط بالتزام المرأة والرجل الحد الأدنى من الأخلاق الذي لا يسمح بشيوع الرذيلة والفواحش.

857 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 668.

858 - Edmond Douté. Notes Sur L'islâm Maghrébin. Extrait de la Revue de l'Histoire des Religion. Tomes XI Et Xli. Ernest Leroux, Éditeur Paris. p 89

859 - الشاعر المصري المعاصر حافظ إبراهيم.

وقد استرعى موضوع المرأة ودورها في صيانة الأخلاق والمجتمعات رعاية الكثير من الباحثين والفلاسفة على مر التاريخ، ويعتقد الكثير من الفقهاء والعلماء المسلمين أن سلوك المرأة المسلمة محدود في الشريعة ومحكوم بجملة من القواعد التي تنظم شؤونها في التربية والزواج والسفر والخروج لقضاء حوائجها، ومختلف شؤونها اليومية، واصطلح على تسمية هذه المباحث في كتب الفقه بأحكام النساء⁸⁶⁰.

و لم تكن المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة تطبق الآراء الفقهية الواردة والتي يستند إلى مذهبها، ففي موضوع خروج المرأة للشارع وممارستها لبعض شؤونها فقد دار حوله جدل كبير بين ميسر ومشدد⁸⁶¹، حيث تذكر المصادر أن أغلب المدن المغاربية كانت المرأة تخرج بصورة عادية للشارع ضاربة بعرض الحائط الآراء الفقهية التي تناولت وضعها خارج البيت، سواء تعلق الأمر بطريقة مشيها أو لباسها أو زينتها⁸⁶²، وكانت لها الحرية الكاملة في الخروج سافرة الوجه، وتحضر مع الرجال الأعراس والاحتفالات المختلفة، وتساعد الرجل في أعمال الفلاحة وتربية المواشي⁸⁶³.

كما كانت المرأة تتردد الأسواق والحمامات، والتي تعتبر من أكثر المناطق نهيًا وزجرا من طرف الفقهاء، ففي العهد الحفصي الذي هو قريب من الفترة العثمانية جرّ خروج المرأة للحمام جدلا كبيرا بين الفقهاء بين محرم وزاجر ومكروه، ويذكر أن أحد أولي الأمر في الدولة الحفصية حاول أن يفرض سلوكات الاحترام على النساء فطلب من أصحاب الحمامات إجبار المرأة أن تلبس إزارا للستر، فعمدت رائدات الحمام على الاستهتار واللعب داخل الحمام، وتحول الأمر من إقرار مصلحة بفرض الستر على النسوة، إلى وقوع مفسدة أخرى لم يحسب لها، وهي اللعب والاستهتار والهزل بالأزر⁸⁶⁴.

ويتباين وضع المرأة الديني والسلوكي بتباين البيئات الاجتماعية، حيث تذكر الشواهد أن منطقة القبائل الريفية خاصة الجهات الممتدة من بجاية حتى شرق مدينة الجزائر، كان وضع المرأة فيها لا يحسد عليه، وقد ذكر الورتلاني في سياق الحديث عن الجهل العام بالدين من طرف الناس في هذه

860 - منير وريس، "استفادة البحث التاريخي من كتب التراث الفقه والأحكام والفتاوي"، في مجلة التراث والتحديث في الحضارة الإسلامية، جامعة الزيتونة، تونس، 2003-2004، ص169.

861 - منير وريس، المرجع نفسه، ص169.

862 - الورتلاني، المصدر السابق، ص19.

863 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص19.

864 - منير وريس المرجع السابق، ص171.

الجهات، كيف أن قبائل عديدة امتهنت الغارات والسلب والنهب، وأن بعض تعاليم الإسلام وشعائره اختفت عندها، حتى الأئمة وقضاة البلاد صاروا غير مستمسكين بها، ولا تزال كثير من العادات الجاهلية القبيحة متمسكين بها، كحرمان المرأة من الإرث. فإذا مات الرجل وورثه أخوه، تملك متاعه وزوجته وكل ما تحت يده⁸⁶⁵، وشاهد الورتلاني في بعض القرى والمدن كثيرا من الأمثلة تزوج فيها الرجل بأكثر من أربعة نساء⁸⁶⁶.

أما نساء المدينة فقد كان لهن مكانة أفضل من أخواتها في الريف وفق ما ذكره الرحالة الغربيون، فقد كان النساء يخرجن للتجول في أزقة المدينة، وفي المنتزهات ويتردّن الحمامات -جنة المرأة- حيث تفضل الكثير منهن تبادل أطراف الحديث في مختلف الشؤون المتعلقة بعالم الزينة والزواج والمهور وغيرها⁸⁶⁷، وكثيرا ما كانت تعالج أمور الزواج بتفاصيلها المملة في هذه الجلسات الحميمة⁸⁶⁸. ولم يقف الفقهاء مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع، حيث يُذكر أن "ابن عمار" الفقيه المالكي الذي عاصر المرحلة، بين أن كثيرا من علماء المذاهب الأربعة أفتوا بضرورة التضييق في مسألة خروج المرأة من بيتها، رغم أنه كان ممن لا يميلون إلى تحريم خروج النساء إلى الشوارع مطلقا حتى ولو كان ذلك في البلد الحرام، على خيفة ما يصدر منهن من أعمال فتنة وغواية للرجال. وقد خالف أقوال هؤلاء بضرورة إتباع السنة الصحيحة فهي لا تمنع الاختلاط جملة، بل تدعو إلى إتباع هدي الإسلام، في تحري العفة والأخلاق الحسنة، ونبد التبرج والتعطر على النساء الذي يدرك ريحه من على بعد مسافات، إن أردن الخروج إلى الشارع، واستند ابن عمار في هذا التوجه⁸⁶⁹ على الفقيه العراقي "البرزنجي"⁸⁷⁰..

865 - الورتلاني، المصدر السابق، ص137.

866 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص 138.

867 - منير رويس، المرجع السابق، ص169.

868- وليم سنسر، المصدر السابق، ص97.

869 - بن عمار، المصدر السابق، ص94

870 - البرزنجي هو محمد بن رسول بن عبد السيد بن قلندر الحسيني البرزنجي الشهرزوري المدني، ولد بشهرزو قرية من بلاد الكرد بالعراق سنة 1040هـ ونشأ بها وقرأ القرآن على مشايخ كثر، ثم رحل في طلب العلم إلى حلب واليمن ودمشق ومصر وبغداد والمدينة المنورة، ولازم "إبراهيم بن حسن الكوراني" و"أحمد القشاشي" وعمل مدرسا بالحرم النبوي، ألف البرزنجي مصنفات كثيرة منها "الإشاعة لأشراط الساعة"، "إضاءة التبراس لإزاحة الوسواس الخناس"، "الترجيح والتصحيح لصلاة التسبيح"، "رفع الإصر

وبلغ التشدد في التعامل مع قضية خروج المرأة إلى الشارع حدا لا تقره الشريعة، حينما طالب بعض الفقهاء المرأة عند خروجها أن تحرص على ألا تُعرف عيُنها، بلباس يغطيها وتصبح غير معلومة أصلاً⁸⁷¹. وذهب التشدد في بعض الجهات إلى قطع الميراث عن النساء حتى لا يكن لهن مقدورا في التصرف والقوامة فيتحررن من سيطرة الرجال بزعمهم، بل كان الرجل إذا مات تُورث زوجته متاعا كما في الجاهلية الأولى⁸⁷².

وكان لهذا الأسلوب في التعامل مع المرأة في العهود الإسلامية ما قبل الفترة العثمانية انعكاسات جمة في عدة ميادين من بينها العمران، حيث حرص الفقهاء على إنجاز عمران يحفظ للبيت الإسلامي حرمة وأسراره وقد ساد الخلاف بين الفقهاء والبنائين طويلا حول الأسوار التي تحيط بالمنازل والكوات⁸⁷³ وحجمها وشكلها ووظيفتها، واستمر هذا النمط المعماري يستمد من هذه الرؤى الفقهية خلال الفترة العثمانية موضوع الدراسة.

ففي العهد الحفصي الذي يعد أقرب عهد للفترة العثمانية، ظهر أول كتاب يضع ضوابط للبناء الإسلامي، من طرف خبير البنائين ابن الرّامي، حيث جمع ملاحظات فقهاء وقضاة عصره، في مؤلف لطيف سماه: "الإعلان بأحكام البنيان". وقد ساق صاحبه أمثلة عديدة على ضوابط اتخذت لتجنب هتك أسرار المنازل والبيوت، فلا يسمح ببناء باب دار مقابل باب أخرى، أو فتح كوة تمكن من النظر إلى المنزل المقابل⁸⁷⁴، فكانت الرغبة في حجب النسوة عن أعين الأجانب له لمسات هامة على العمارة الإسلامية⁸⁷⁵.

ومن جانب آخر فقد كانت المنظومة الفقهية والاجتماعية لا تعير في أغلب الأحيان أدنى أهمية لدور المرأة الديني، ولا يكثر الرجال لها إن كانت تصلي أم لا ؟ ولا تُلزم بالذهاب إلى

عن معنى كونه صلى الله عليه وسلم أميا لم ينطق الشعر" وغيرها، تولى منصب الإفتاء على مذهب السادة الشافعية بالمدينة المنورة، وتوفي سنة 1103هـ بالمدينة المنورة، ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

871 - منير وريس، المرجع السابق، ص 168.

872 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 112.

873 - الكوات جمع مفردة كوة وهي النافذة الصغيرة التي تطل على الشارع.

874 - منير وريس، المرجع السابق، ص 171.

875 - منير وريس، المرجع نفسه، ص 173.

المسجد، فقد كانت قليلة الممارسة للشعائر الدينية⁸⁷⁶، وكان النسوة يعشن في أمية فظيعة لا يمكن تخيلها، وحتى المرأة كانت لا ترى في نفسها سوى "خادمة للرجال وملبّية لرغبتهم"⁸⁷⁷.

ويرى عدد من الفقهاء والكتاب أن أزمة انخراط المجتمع مرده إلى ضعف عقيدة المرأة وانحرافها عن جادة الدين، مما جعلها تقع لقمة سائغة للأراجيف والإشاعات المختلفة، خاصة تلك التي تتعلق بعالم الغيب، فقد كان النساء كما يعبر عن ذلك هايدو، يقضين جل أوقاتهم في استعمال وسائل التجميل والتنظيف وزيارة الأقارب، والحدائق العامة بعيدا عن أعين الرجال وزيارة المرابطين، والأولياء كسيدي يعقوب وسيدي بنوس وسيدي بتقة وسيدي عبد العزيز وغيرهم، كما يقضين وقتهم في زيارة المقابر، ومدارسة ومعالجة أعمال السحر، والسعي لمعرفة عوالم الغيب لمعرفة حظهن المستور، والقيام بجلوسات الحضرة مع المشعوذين والمشعوذات والذهاب للحفلات والأعراس⁸⁷⁸..

لقد كانت جل اهتمامات النساء تدور حول موضوع البيت وشؤون المنزل، وقضايا الطبخ والحلي والألبسة وأصنافها، وعن الجنس وآداب المعاشرة ومتعة الأزواج، وهي قضايا يدعمها الرجال ويرغبون في تحصيلها، حتى أن النساء إذا بلغن سن اليأس تلقين معاملة سيئة من طرف أزواجهن، بل حتى من أولادهن، مما يدفعهن إلى حياة التهميش، وكُن يُعددن ضمن طواقم الخدم ولا يأكلن إلا من بقايا الموائد⁸⁷⁹.

وتدل الشواهد أن المرأة ساهمت بنفسها في تهميشها وإبعادها من مواطن القوة والمكانة المحترمة بما كانت تعتقد من خرافات وظواهر غيبية لا يقبلها العقل، وقد ساق الوزان في رحلته الكثير من أمراض العصر العثماني وآفاته، التي ساهم النساء في رواجها بسبب سرعة إيمانهن بالخوارق والخرافات، منها قصة السلاحف المقدسة التي تسكن قرب نهر الرمال تحت الصخرة المبنية عليها مدينة قسنطينة⁸⁸⁰، بالإضافة إلى التسليم بقداسة المرابطين والأولياء وإرادتهم النافذة التي لا تقبل الشك.

وتباينت وضعية المرأة ومكانتها والمستوى الأخلاقي الذي كانت عليه ونظرة المجتمع إليها، بالتباين الحاصل بين نساء المدن والأرياف من جهة ونساء العامة ونساء العائلات المشهورة من جهة ثانية، فالنساء الحرائر صاحبات البيوت الراقية والأسر النبيلة ويتواجدن خاصة في المدن، يعشن في

95 Laugier de de Tassy. **Opcit** P -876

95 **ibid.** P -877

- **Haido Opcit** p146. 878

879- Laugier de Tassy. **ibid.** p95.

880 - حسن الوزان، المصدر السابق، ص 325

أجواء من الرفاهية ولهن اهتمامات خاصة بهن، والتزاماتهن بأجواء المدينة يبعدهن عن الوقوع في مثالب الرذيلة، يقول في هذا الشأن بانانتي: " في برابريا النساء لا يرقصن أبدا وهذا مفتوح لنساء العامة والعبيد حيث يستغل هؤلاء لتسلية الأغنياء، وفي إفريقيا ممنوع على النساء الرقص مع الرجال". ومنهن من ينتسبن للطبقة العامة الفقيرة والمعدمة، والتي تتواجد خاصة في الأرياف وهن متحررات من مختلف القيود، ويمكن لهن السقوط في أوكار الخنا والفجور بسبب ذلك⁸⁸¹.

لقد اجتمعت عناصر عديدة ومتشعبة لتشكّل الطابع المعيشي للسكان وغط التفكير لدى الرجل والمرأة، سواء في القرى أو المدن، كرواج الموسيقى والغناء في المناسبات والأعراس والولائم وفي الحمامات، وصارت هذه الحفلات في غياب "نساء الرقص وبائعات الهوى" بدون نكهة، فيستدعين إلى الأعراس للغناء والرقص ويتقاضين أجورا عالية⁸⁸²، وتتنافس بعض الأسر الجزائرية في توفير أقصى أجواء الرجولة والفجور خلال حفلات الزفاف، وفي بعضها يشترط على الأصهار جلب مغنين مشهورين وراقصات ذاع صيتهن، وكان ارتياد الشباب المتهور للحانات في المدن القريبة للاستماع للموسيقى والغناء وشرب الخمر، ثم القيام بمغامرات في الحقول المجاورة مصحوبين بزجاجات الخمر وخليلاتهن أمرا شائعا⁸⁸³...

وكانت ظاهرة البغاء من أخطر الظواهر الاجتماعية، تباينت رؤى المؤرخين في تحديد أسبابها وأماكن انتشارها، غير أن سلطة الإيالة التنفيذية والقضائية حرصت على الحد منها والقضاء عليها. وكان القضاء في المدينة في حراك مستمر لمحاربة الدعارة ومعاقة أصحابها، بالرغم من حرص بعض مكونات المجتمع على بقائها، وقد أوكلت هذه المهمة للمزوار وهو بمثابة شرطي مسؤول عن هذا الملف يسجل أسماء النساء المشبوهات، ويرصدن في كل مكان بمساعدة جهاز تنفيذي ملحق به، وإلحاق أقصى العقوبات بهن⁸⁸⁴.

ويعد التخطيط في معالجة هذه الأزمة من مظاهر فشل النخب الدينية والسياسية، ويتبين ذلك من خلال طبيعة العقوبات التي فرضت على النساء دون الرجال وهو أمر مخالف للنص القرآني. ففي

332 Pananti Filippo, **Relation D'un Séjour à Alger**, le Normant, Paris, 1820. P- 881

882 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 02، ص 444

883 - Tomas Shaw, **op.cit.**, p421.

884 - E.-A. Duchesne, **De La Prostitution Dans La Ville D'Alger Depuis La Conquête**, j.-b. baillière, libraire paris, 1853, PP. 21...

فترة حكم الداوي علي باشا أصدر مرسوما يقضي برمي النساء الزانيات في البحر، ومارس الديوان والقضاة ضغوطا عليه فاكتفى بنفيهن إلى إقليم شرشال⁸⁸⁵.

وكان الموظفون السامون في البايلاكات وفي الإيالة مسموح لهم بمحاربة الرذيلة وحوادث الاعتداء على النساء مع مراعاة الشرع الإسلامي في تنفيذ العقوبات، ففي سنة 1827 قاد "أحمد باي" قسنطينة حملة لتأديب قبائل "بني هندل" قرب بجاية، لاعتدائهم على امرأة حرة، وبعث بتقرير في الموضوع للداوي حسين⁸⁸⁶.

ولا تكتمل صورة الواقع الاجتماعي المتعلق بالمرأة خلال العهد العثماني دون الحديث عن المرأة الميزابية، فقد أدرك الميزابيون منذ فترة سابقة، خطر المرأة على كيان الجماعة الميزابية ومستقبلها إن هم تركوا لها الحبل على الغارب، فبادروا بوضع نظام تربوي نسوي يشرف عليه العزابة، ويكون دوره تربية المرأة الميزابية وتثقيفها في دينها وتعليمها الأخلاق الإسلامية الثابتة، والعادات المتعارف عليها بالمنطقة، فالمرأة الميزابية ركن أساسي في المجتمع الميزابي، الذي يتميز بخصوصيته الدينية المتوارثة منذ القدم⁸⁸⁷.

ومن معالم التربية التي لقنت للمرأة، والضوابط الأخلاقية الصارمة تلك التي تعالج مسألة سفر المرأة. فقد أجمع فقهاء المنطقة على تحريم سفرها خارج منطقة ميزاب مهما كانت الحجة، وذلك حماية لها من التأثير الأجنبي، وتعود اتفاقات ضبط منع سفر المرأة خارج القصور السبعة لميزاب، إلى الاتفاقيات التي كانت بمجلس أبي عبد الرحمن الكرثي⁸⁸⁸، ثم جددت هذه الاتفاقيات سنة 1928⁸⁸⁹.

ومما لاحظته الباحثون هو عدم تساهل الاباضيين في مسألة المرأة، معتبرين إياها ركنا أساسيا في الحفاظ على الجماعة، فبادروا بتحسيس المرأة بأهمية دورها ومكانتها ساعين في الوقت نفسه تعويضها بما تفتقده من عناصر الإثارة الخارجية، بما وفروه للأسرة من أسباب المعيشة داخل الواحة

885- عزيز سامح البتر، المرجع السابق، ص615..

886- رسالة "أحمد باي" إلى "الداوي حسين" توجد ضمن المجموعة رقم 1642 بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

887 - حمو عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، مج01، دار البعث، قسنطينة، دت، ص175. (الكتاب بدون تهميش وبدون ذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها).

888 - تم التعريف به سابقا.

889 - حمو عيسى النوري، المرجع نفسه، ص178.

الميزابية من حدائق وثمار وغللال⁸⁹⁰. وفي مقابل التزام المرأة الميزابية بميثاق الأخلاق الفاضلة فإنها تشترط على زوجها ثلاث شروط وإن خالفها كان لها الحق في تطليقه: "أن لا يتزوج عليها، ولا يشرب الخمر ولا يلعب الميسر، ولا يزني وأن لا يغيب عنها أكثر من سنتين"⁸⁹¹.

ثانيا : الفقهاء والاحتفالات الشعبية.

تعد الاحتفالات الشعبية بعد شعيرة الحج من أعظم المجامع الدينية والتظاهرات الشعبية التي يلتقي حولها الناس بالآلاف كل سنة، يستلهمون المعاني والعبر ويتبادلون قصص السابقين وكرامات الأولياء والصالحين، ويعتبر الاحتفال بمولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من المواسم الدينية الرائجة، يقول الرحالة الورتلاني في هذا الشأن متحدثا عن احتفال أهل الحجاز بالمولد النبوي الشريف: "كانوا يكثررون ليلة المولد من إيقاظ المصاييح ويخرجون إلى الساحات يتذكرون بينهم ويعرضون مختلف أنواع المشروبات والمأكولات ويزورون الأضرحة والقباب والقبور التي بمكة للصحابة والتابعين"⁸⁹² ويقول الفقيه الجزائري "أحمد بن عمار" متحدثا عن احتفال الجزائريين به: "هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر انه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة، وعليه المعول إلى نظم القصائد المديحيات والموشحات، ويلحنونها عن طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقومها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات، وهم في أكمل زينة وأجمل مظهر"⁸⁹³، تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام⁸⁹⁴.

890 - حمو عيسى النوري، المرجع نفسه، ص178

891 - محمد علي دبوز، نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج01، المطبعة التعاونية، الجزائر، 1965، ص231.

892 - الورتلاني، المصدر السابق، ص436.

893 - أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا، الجزائر، د ت، ص15

894 - كان لبن عمار عدة قصائد ومدائح قال في بعضها:

يا نسима بان من زهر الربا	يقتفي الركبان
احملن مني سلاما طيبا	لاهيل البانا
اقرأن مني سلاما عبقا	إن بدت نجد
إن لي قلبا إليها شيقا	شفه وجسد
وفؤادي يجتنيتها حرقا	وضنى يعدو

ويضيف ابن عمار أن عادة الاحتفال بالمولد النبوي سنة جارية في العالم الإسلامي كله، حيث يجتهد الحكام والأمراء في الإنفاق على القائمين على الاحتفالات بسخاء، وقد ذكر من هؤلاء ملوك الهند والأندلس وآل عثمان، الذين استحسنوا هذه الأفعال بأحاديث ومنامات يرونها.⁸⁹⁵

وأول من أحدث الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كما يذكر الفقيه "أبو بكر الطرطوشي"، الفاطميون العبيديون كما نقله "المقريزي" في خططه و"القلقشندي" في صبح الأعشى.

وذكر ابن عمار أن مجموعة كبيرة من العلماء لا يرون بأسا في الاحتفال بمولد النبي شريطة عدم إحداث البدع وأورد من الأقوال، من أمثلتهم "البرزنجي"⁸⁹⁶ في كتابه السراج المنير الذي اشترط تعمير بيوت الله بالذكر والتلاوة وقراءة سير الأولين، وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحال مولده ودعوته، وإغاضة أهل البدع والزيف⁸⁹⁷، وكان ابن الوقاد الفقيه التلمساني يرى نفس الرأي كذلك ومن الداعين إلى الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وكان يجمع الناس في منزله ويتذاكرون سيرة النبي محمد ثم قرؤوا قصائد المدح في شخصه عليه الصلاة والسلام⁸⁹⁸.

لكن ابن عمار وإن كان يميل للجواز فإنه ينبه لضرورة تجنب البدع المتناولة في إحياء المولد النبوي، كبدعة استخدام المشامع والمجامر المصنوعة من الفضة من طرف العامة معتقدين أن ذلك من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو جهل عظيم "فتعظيمه إنما تعظيم شرعه وإتباع سنته"⁸⁹⁹ كما يقول ابن عمار.

ويرى ابن عمار أن إيقاد الشموع والتي لا يخلو منها بيت من البيوت، إذا كان الهدف منه إدخال السرور على الأطفال والبنين، وخلصت النيات فلا بأس به، وقد رخص به جمع من الفقهاء المتأخرين كابن عباد والرصاع، بل وإن من دواعيها إظهار الزينة المباحة في اللباس والطيب وغيرها⁹⁰⁰.

انظر: ابن عمار، المصدر نفسه، ص 16

895 - ابن عمار، المصدر نفسه، ص 15.

896 - البرزنجي تم التعريف به سابقا

897 - ابن عمار، المصدر السابق، ص 93.

898 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 343.

899 - ابن عمار، المصدر السابق، ص 94

900 - ابن عمار، المصدر نفسه، ص 93.

ومن المحاذير التي أشار إليها بن عمار في هذا الشأن ما ذكره بن حجر العسقلاني في أن الناس كانوا يأتون بالمولد، وهو عبارة عن قاص يقعد ويسرد حكايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وجلها غير صحيح⁹⁰¹.

وشجب بن عمار ظاهرة خروج المرأة ليلة المولد حتى في الحرم المكي والمدني، دفعا للفتن والشبهات، وقد أثارت هذه الفتوى حفيظة الدهماء فثاروا على العلماء والفقهاء وتحرشوا بهم فنالوا منهم، وقد تعرض بن عمار نفسه لهذا الأذى، حينما أفتى بضرورة منع المرأة من الخروج في مواسم الاحتفال بالمولد أو الحج وغيرها من المناسبات، التي يقع فيها الاختلاط والسفور⁹⁰².

لقد صور بن عمار ليلة الاحتفال بالمولد النبوي تصويرا بليغا وشاملا ومن خلال ما طرحه من مسائل يمكن لنا أن نستنتج جملة من القضايا التي تربط الجزائريين بهذه الاحتفالات منها:

1. أن الحكام والسلطة القائمة في الجزائر كانت تشجع على الاحتفالات الدينية وتعمل على توفير كل الوسائل لذلك.

2. شكلت السلطة جهازا يشرف على تنفيذ هذه الاحتفالات ورعايتها سماه "بن عمار" "القائمون على الاحتفالات"⁹⁰³ وهو ما يشبه لجان الاحتفالات، التي تؤسس في زمننا هذا للإشراف على الاحتفالات المختلفة.

3. إنفاق السلطة بكل بذخ على هذا الشأن، ورعاية الاحتفالات وما تتضمنه من ألعاب ورجال البهلوان والفرق الغنائية المختلفة وفرق الرقص وغيرها.

وبالغ المؤيدون في الدعوة لإقامة الاحتفال بالمولد النبوي، ومنهم من اعتبر ليلة مولده صلى الله عليه وسلم أفضل من ليلة القدر⁹⁰⁴.

وتعرض الونشريسي في فتاويه لموضوع الاحتفال بالمولد النبوي، وكان شائعا ومهتما به عند الولاة والعامّة، حيث يظهرون التزيين وأدوات اللعب، ويبرزون الفرحة والابتهاج بمولد النبي، كما سعت طوائف أخرى إلى تقديم الصدقات للفقراء والمساكين⁹⁰⁵، وأشار الونشريسي إلى شيوع بعض البدع

901 - ابن عمار، المصدر نفسه، ص 96

902 - ابن عمار، المصدر نفسه، ص 94.

903 - ابن عمار، المصدر السابق، ص 94.

904 - كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 44.

905 - كمال أبو مصطفى، المرجع نفسه، ص 44.

الضارة التي برزت في هذا اليوم، كاجتماع الرجال والنساء في أصعدة واحدة، فأنكر ذلك عليهم وعليهن، الفقهاء والعلماء لأنه مجلبة للفواحش والزنا⁹⁰⁶.

ونقل عن الونشريسي في بعض فتاويه تحريم الاحتفال بليلة المولد النبوي حيث يقول: "ليلة المولد لم يكن للسلف الصالح وهم أصحاب رسول الله ص والتابعون لهم، يجتمعون فيها للعبادة ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة، لان النبي لا يعظم إلا بالوجه الذي شرع فيه تعظيمه، وتعظيمه من أعظم القرب إلى الله"⁹⁰⁷

ومن العلماء المالكية الذين قالوا بحرمة الاحتفال به أبو الفقيه المالكي "الوليد الباجي"⁹⁰⁸ (ت474هـ) في رسالة سماها "حكم بدعة الاجتماع في مولد النبي".

وكان الاحتفال به في بلاد الهند و المشرق العربي قائما، وأيضا في الشام والعراق وعند الشعوب الخاضعة للسلطنة العثمانية⁹⁰⁹.

ثالثا: الفقهاء وآفات العصر العثماني

تعددت الآفات التي كانت تنخر جسد المجتمع خلال العهد العثماني ذكرنا بعضها في المبحث السابق من هذا الفصل، ومن جهة أخرى يعد تعاطي الخمر من أبرز الآفات التي استرعت انتباه الفقهاء على اعتبار أن تعاطيه يتسبب في كثير من المفساد، منها الإدمان على تناول هذه المادة والتقصير في مزاولة الواجبات المتعلقة بالفرد سواء في الأسرة أو في المجتمع.

906 - كمال أبو مصطفى، المرجع نفسه، ص44.

907 - مصطفى باجو، "علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم"، جريدة السبيل، الجزائر، 2007، ص127

908 - أبو الوليد الباجي هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي الأشعري، فقيه ومحقق مالكي وصاحب تصانيف. ولد في سنة 403 هـ. في مدينة بطليوس ثم انتقل إلى باجة قرب إشبيلية من تلاميذه "ابن عبد البر"، و"أبو بكر الطرطوشي"، ولي القضاء بالأندلس. وكان على اتصال بالرؤساء والولاة ويقبل عطاياهم، من تصانيفه "المنتقى في الفقه" و"المعاني في شرح الموطأ"، و"الإيماء في الفقه"، و"التسديد إلى معرفة التوحيد"، و"الإشارة في أصول الفقه" و"إحكام الفصول في أحكام الأصول"، وغيرها.

909 - محمد خالد ثابت، تاريخ الاحتفال بمولد النبي ومظاهره في العالم، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011. يتناول فيه الكاتب فيه الاحتفال بالمولد النبوي، ومظاهره عبر التاريخ مارا بحوالي خمسين دولة إسلامية وكتب في الصفحة الأولى عبارة "من لم يفرح بمحمد لم ير فرحا أبداً."

وأفرد فقهاء المذاهب الإسلامية لهذا الموضوع الكثير من البحوث والشروح والتعليق لتوضيح موقف الشرع الإسلامي من هذا الموضوع، وقد بيننا في الفصل الأول من هذا البحث تحت عنوان خصوصيات المذهب الحنفي عنصر المسكرات، وبيننا من خلاله اختلاف المذهبين المالكي والحنفي في بعض الجزئيات المتعلقة بالنبيذ.

وقد كانت المسكرات من أبرز القضايا التي شكلت مادة الخلاف بين المذهبين، سواء في تناوله كشراب مسكر أو في ما يخص بعض استعمالاته، والتي منها تطهير النجاسة. حيث يرى الأحناف أن ذلك جائز ومقبول، في حين يقول المالكية خلاف ذلك، على اعتبار أنه نجاسة لا يُطهَّر. واستغلوا ذلك في تدعيم نفوذهم وسط الجماهير⁹¹⁰.

وقد تناولت بعض الكتابات الأوروبية المعاصرة للوجود العثماني هذا الموضوع، ومن خلالها نرى أن الجزائريين لم يكونوا يعاقرون الخمر بالشكل الذي كان موجودا في أوروبا فتصير على موائد المسلمين في كل الأوقات، ومن هذه الكتابات ما ذكرته الكاتبة الانكليزية "صوفيا برناردتي"، التي زارت الجزائر سنة 1811، حيث قالت: "أنهم - الجزائريون - يمتنعون عن تناول المشروبات الروحية، ليت جميع الأمم تحذو حذوهم، وأما لباسهم فجميل جدا وأما سلوكهم مع الأجانب فهو يتسم بطيبة القلب وروح المجاملة، لقد كانت إقامتي بالجزائر قصيرة لكنها كانت مليئة بالمتعة"⁹¹¹.

وسجل من جهته الرحالة "ج.أو.هابنسترايت" في مذكراته نفس الرؤية حيث يقول أن المسلمين يمتنعون عن شرب الخمر، والبعض الذي يشربها خاصة بعد انتهاء شهر رمضان لا يجرؤون على تناولها جهارا، أما الخمارات فكان يديرها الأسرى النصارى ويترددون عليها وكذلك الانكشاريون⁹¹². وقد فضل بعضهم تناول الحشيش على شرب الخمر وهو رأي سجله الراشدي في رسالته ونقله شعرا عن هؤلاء الأقوام بقوله:

910 - إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص186.

911 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص478.

912 - ج.أو.هابنسترايت، رحلة ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، تر ناصر الدين سعيدوني، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص48.

وخضراء قد لا تفعل الخمر فعلها لها وثبات في الحشا وثبات

تؤجج نارا في الحشا وهي جنة وتبدي لذيق العيش وهي نبات⁹¹³

وكان الحشيش هو الآخر رائجا حيث يتعاطى خلف المقاهي العامة عن طريق تدخينه بالغليون ومن أنواعه ما يصيب العقل بالهلوسة وفقدان التركيز⁹¹⁴، ويلتقي متناوله في زاوية خلف المقهى تسمى المحشاشة⁹¹⁵، ثم تدور بينهم الغليون الممتلئة بالدخان المشبع برحيق الحشيشة المحترقة فيشبعون منها أنفاسهم.

ومن الآفات التي نخرت جسم المجتمعات الإسلامية آنذاك مسألة شرب الدخان، التي اختلف الفقهاء كثيرا حولها⁹¹⁶، في بيان حكمه، ومشروعيته. ويبدو من خلال ما أورد الورتلاني أن شرب الدخان غدا مشكلة للفقهاء، وعينة من عينات الخلاف الفقهي، منذ بواكير انتشار تناوله بين الناس، حيث يذكر أنه وقف على أكثر من ثلاثين قولاً من أقوالهم بين مبيح ومحرم لتناوله دون اقتناع بما طرحوه من أدلة واهية باعتقاده⁹¹⁷.

ويشير الورتلاني أن مقياس حدوث الضرر من عدمه، في بلادنا منوط بسادتنا الصوفية فهم أحزم من الفقهاء في نصره الدين وإنكار شرب التبغ، وأما علماء المشرق فمتساهلون لا يرجي منهم حزم وعزم، حتى صار العامة يستعملونه في المساجد غاضين الطرف عن روائحه الكريهة وصورته غير السليمة⁹¹⁸.

ومن الفقهاء القائلين بكراهته من المذهب الحنفي نجد الشيخ "العمادي"، ومن المذهب المالكي الشيخ محمد عليش⁹¹⁹، ومن المذهب الشافعي "عبد الله الشرقاوي"، ومن الحنبلية الشيخ مصطفى الرحيباني والشيخ مصطفى البهوتي، وهؤلاء استخدموا نفس أدلة التحريم وأسبابه، وقال عبد

913 - عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص 66.

914 - معاشي جميلة، المرجع السابق، ص 133.

915 - لا تزال هذه العبارة متداولة وتعني المكان الذي يلتقي فيه متناولي هذه العشبة والذي يرتادها يحرص على اكتساب الخفة والبساطة وعدم التكلف في الحياة.

916 - قال عنه الراشدي: "الدخان أو التبغ والتبناك حشيشة يستهلكها أصحابها بعد إحراقها واستنشاق دخانها اختلف في أصل تسميتها فمن قائل بأن أصلها من أوروبا أو الهند أو البلاد العربية" عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص 104.

917 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 637.

918 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص 637.

919 - مال إلى تحريمه في ما بعد.

النافع محمد بن الحاجي علي، صاحب كتاب (تخليص الإنسان من ظلمات الدخان) كتبه سنة 1115 هـ ، يقول في نهايته انه استطاع أراء أهل العلماء ساكني مكة في الموضوع فمنهم من قال "ريحه كريه" وقال آخر "لا أشبهه في خبثه" وقال ثالث "طبعي ينفر منه". فتكررت الصور السيئة للتدخين لكن لم تدفع الفقيه إلى تحريره فقال بكرهته.

وقال مكرهوه أن الدخان لا يُحدث سكرًا وتغييبًا للعقل، بل هو أقرب للمرققات منه للمسكرات، لذا لا يحدّ شارب، وتجاوز صلاة حامله.

أما الفقهاء القائلون بإباحته فمنهم "أحمد الشوري" الحنفي المصري و"بهائي أفندي العثماني"، و"إسماعيل النابلسي" صاحب كتاب (الإحكام) وكان الجلساء يشربون الدخان في حضرته وابن "القاسم العبادي الشافعي"، وأفتى الشيخ "الحلي" بأن الزوج يجب أن يشتري الدخان لزوجته إن اعتادته، وكذلك الشيخ "مرعي الحنبلي" في كتابه (غاية المنتهي).

وأباحه الشيخ "علي الاجهوري" الفقيه المصري المالكي الذي كتب في المسألة فتوى بعنوان: "غاية البيان في إباحة الدخان" وقد جاءت الفتوى ضمن رسالة كتبها لطلبة "السودان"، ولما سمع "الشيخ إبراهيم اللقاني" بالأمر قصده مستفسرا لكن الأجواء اضطربت بينهما، فدعوا بعضهما إلى "المباهلة"⁹²⁰ ولما فعلوا أصيب الشيخ علي الاجهوري بالعمى⁹²¹.

ويذكر أن ابن الفكون صاحب منشور الهداية رد على فتوى "الاجهوري" وناقش معه المسألة محاولا إثناؤه عن هذه الفتوى الخطيرة لكن دون جدوى وفق ما يبدو⁹²².

وأباح شربه الشيخ "عبد الغني النابلسي" صاحب كتاب (الصلح من الإخوان في حكم إباحة الدخان)، وينفي الشيخ النابلسي وجود ضرر للتدخين، ويقول انه ما سمع أحدا مات بسببه، وإذا أصيب أحد بضرر منه دون غيره فهو عليه حرام، ويقول إن فتوى الفقهاء بتحريم التدخين مبنية على أوصاف قبيحة منسوبة للتدخين، فتأتي الفتوى مطابقة مع تلك الأوصاف القبيحة، وقال إنه حتى مع

920 - المباهلة تعني دعوة طرفين لبعضهما البعض اختلفا في قضية ذات شأن وكل طرف منهما مصر على ضلال صاحبه ثم يخرجوا إلى صعيد ويدعون الله أن يصيب المخطئ بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده. مصدقا لقوله تعالى: "فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِساءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ" (61) سورة آل عمران.

921 - عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص 162.

922 - الفكون، المصدر السابق، ص 224.

وجود ضرر ما، فليس ذلك موجبا لتحريمه، إذ أن الكثير من المباحات قد يستخبثها البعض لكنها مباحة. ثم ذكر منافع التدخين في فصل خاص بذلك، أورد فيه ثقافة عصره العثماني⁹²³.

كما أباح التدخين القاضي محمد بن علي الشوكاني صاحب المؤلفات المشهورة في كتابه "إرشاد السائل إلى دلائل المسائل" حيث يقول في حكم التدخين "الأصل الذي يشهد به القرآن والسنة المطهرة هو إن كل ما في الأرض حلال ولا يحرم منه شيء من ذلك إلا بدليل خاص، وما لم يرد فيه دليل خاص فهو حلال استصحابا بالبراءة الأصلية وتمسكا بالأدلة العامة كقوله تعالى "خلق لكم ما في الأرض جميعا" و"قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم". وشجرة التبغ لم يأت فيها دليل علي تحريمها وليست من جنس المسكرات ولا من السموم ولا من جنس ما يضر آجلا أو عاجلا، فمن زعم أنها حرام فعليه الدليل، ولا يفيد مجرد القيل والقال. كما رفض الشوكاني إدراج التبغ تحت مسمى الخبائث.

وللإشارة فإن العصر العثماني الذي ظهر فيه النابلسي والشوكاني لم تكن أضرار التدخين قد اتضحت فيه بعد، وكان في ذلك حجة قوية لمن أفتى بإباحة التدخين، بناء على القاعدة الفقهية "الأصل في الأشياء الإباحة".

أما الفقهاء القائلون بحرمته فمنهم "إبراهيم اللقاني" حيث يقول أن هذا السقم حدث في آخر القرن العاشر وأول من جلبه لأرض الروم الإنكليز ولأرض المغرب يهودي زعم أنه حكيم ثم جلب إلى مصر والحجاز، وقال في رسالته نصيحة الأخوان بإجتنب الدخان أن الحشيشة تنسي الشهادة عند الموت ولا شك أن الدخان أقبح منها⁹²⁴، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ تَكَاثُفِ دُخَانِهَا فِي أَجْوَافِهِمْ أَمْرَاضٌ وَعِلَلٌ، ويضيف اللقاني أن خروج الدخان من أرض النصارى الإنكليز حيث استعملوه على هذه الهيئة، فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُ فَقَدْ أَحْيَا سُنَّتَهُمْ وَقَوَّى بِدَعَتِهِمْ. ويذكر أن بعض النصارى حرموه لأضراره حيث تَتَوَلَّدُ مِنْهُ الْحَرَارَةُ فَتَكُونُ دَاءً مُزْمِنًا مُهْلِكًا. واستعمال المضير حرام كما ذكر ذلك "السرخسي" في كتاب "الإستحسان"⁹²⁵.

923 - عبد الغني النابلسي، الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان، دمشق، 1983 ص 2، 10، 12، 25.

924 - عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص 215.

925 - محمد بن محمد، رضي الدين السرخسي (ت. 571 هـ / 1175 م) : فقيه من أكابر الحنفية. أقام مدة في حلب، وتعصب عليه بعض أهلها فسار إلى دمشق، وتوفي فيها. لقبه السرخسي نسبة إلى سرخس من أرض الشام. من مصنفاته "المحيط الرضوي"، و"الطريقة الرضوية" في الفقه وغيرها.

كما حرمه العلامة الحنفي سَلَامُ السَّنْهُورِي، والفقيه المغربي محمد بن علي الجمالي المالكي الذي ألف رسالة في تحريمه تحت عنوان "تنبيه الغفلان في منع شرب الدخان" في مجلد فرغ منه سنة 926¹¹²⁹.

وأفتى بحرمته أيضا الفقيه التونسي "عليش"⁹²⁷ في مرحلة ثانية في معرض رده عن الذين اعتبروه مكروها مثل مكروهية الثوم والبصل فيقول: "وَلَأَنَّ الْبَصْلَ وَالثُّومَ مِنَ الْمُضْلِحَاتِ لِلْمُقْتَنَاتِ وَالمُقْتَنَاتِ لِلْفُقَرَاءِ وَكَانَ غَالِبُ الْمُقْتَنَاتِ فِي غَزْوَةِ حَيْبَرِ الثُّومِ وَالْكُرَّاثِ حَتَّى قَرِحَتْ الْأَشْدَاقُ مِنْهُمَا وَالدُّخَانُ لَيْسَ مُقْتَنَاتًا وَلَا مُضْلِحًا لَهُ فَمَقْيَاسُهُ عَلَيْهِمَا فَاسِدٌ"⁹²⁸، وحرمه كذلك محمد الطرايشي الحلبي خلال القرن التاسع عشر في رسالة سماها: "تبصرة الإخوان في بيان أضرار التبغ المشهور بالدخان" وذكر أن الدخان يعرف بالتبغ وهو نبات قادم من بلدة "تباغو"⁹²⁹ بالمكسيك ثم انتقل إلى أوروبا سنة 1518 وسمي بالعربية تبغا ودخانا وتبكا⁹³⁰.

وأما الفقيه الجزائري "عبد الكريم الفكون" فقد ألف رسالة بعنوان "محدد السنان في نحر إخوان الدخان" رد فيها على من ادعى بحلية شرب الدخان ومنهم خاصة الفقيه والعالم المصري "الأجهوري"⁹³¹، وكذلك ألف "أحمد المقرئ" رسالة في الموضوع ودعا إلى تجنب الدخان لضرره تحت عنوان "أجوبة في اجتناب الدخان".⁹³²

وذهب "عبد القادر الراشدي" في رسالة له سماها تحفة الإخوان في تحريم الدخان⁹³³ إلى تفسيق من يحلله، وذكر نحو خمسة عشر سببا يدعو إلى تحريمه، كما أشار إلى الكثير من العادات

926 - إسماعيل باشا البغدادي، المرجع السابق، ص 314.

927 - الفقيه عليش تمت ترجمته آنفا.

928 - علي بن نايف الشحود، فَتْحُ الْعَلِيِّ الْمَالِكِيِّ فِي الْفُتُوَى عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ - فتاوى ابن عليش، مقال اليكتروني

929 - ومن هذه التسمية أخذت العبارة اللاتينية "تاباك" Tabac

930 - محمد الطرايشي الحلبي، تبصرة الإخوان في بيان أضرار التبغ المشهور بالدخان، مطبعة الجمالية، مصر، دت، ص 29.

931 - العالم المصري الأجهوري فقيه مصري مشهور حنفي المذهب له عدة اجتهادات من باب التجديد في الفقه منها قوله بجواز شرب الدخان.

932 - يحي سعيدي، "جهود علماء الجزائر في خدمة الفقه المالكي إبان الحكم العثماني 920هـ 1516م"، الملتقى الخامس للمذهب المالكي، عين الدفلى، 2009، ص 263..

933 - الرسالة من تحقيق وتقديم عبد الله حمادي ونشر دار الغرب سنة 1997م

القيحة الجارية في تناوله⁹³⁴. ويقول في شأنه أنه "يجلب من بلاد النَّصَارَى وَالرُّومِ وَمِنْهُ مَا يُجْلَبُ مِنْ بلاد السُّودَانِ وَبَعْضِ أَرْضِ الْمَغْرِبِ وَمِنْهُ مَا يُزْرَعُ فِي بلاد الإسلام و يُجْلَبُ مِنْ بلاد النَّصَارَى وَمِنْهُ مَا هُوَ مُطَبَّقٌ وَمُسْنَقَى بِحَمْرِ وَمَعْجُونٌ بِهَا"⁹³⁵.

وللراشدي قصيدة طويلة في تبين مضار الدخان وذكر العلماء الذين حرموه ومن جاء ذكره في هذه القصيدة من العلماء الشيخ سالم السنهوري الحنفي 1538-1606، "إبراهيم اللقاني" أحمد الخفاجي "الشيخ خالد" إمام الحرم المكي والفقير "ابن غازي"⁹³⁶. وفرق الراشدي في رسالته بين القهوة والدخان في حكم تناولهما ومن حيث درجة التحريم. مؤكداً أن الحشيش ظهر قبل الدخان بنحو ثلاثة قرون ومنه الأفيون الذي ظهر بمصر. ويذكر أيضاً أن أحد وزراء صالح باي قسنطينة يدعى "محمد بن كوجوك علي" كان يحمل بشدة على من يؤيدون شرب الدخان، وله في ذلك أشعار عديدة منها قوله:

لا تقل في التبغ صالح جائز ليس هذا من أصول المذهب⁹³⁷

وقد يكون "محمد بن كوجوك علي" قد دفع ثمن مواقفه عند باي وهران "خليل باي" (ت1778م) الذي نكل به⁹³⁸.

غير أن الواقع أن هذه الآفة صارت شائعة ومنتشرة كثيراً، ولم تستطع النخب الفقهية والدينية الحد من انتشارها بتوعية الناس من أجل الابتعاد عنها، فعمت المقاهي والبيوت والشوارع والساحات، وصار للبايات والباشاوات تنظيم خاص يشرف على حسن إدارة تناول هذه المادة من طرفهم، حيث عين لها أميناً يسهر على راحة الحاكم في إشباع نهمه منها في الحل والسفر، وكان يلقب هذا الموظف بـ"قائد السبسي"⁹³⁹.

المبحث الثالث: دور الفقهاء السياسي

934 - عبد الغني النابلسي، الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان، دمشق، 1983، ص ص 2-25.

935 - الراشدي، المصدر السابق، ص186.

936 - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص187.

937 - الراشدي، المصدر نفسه، ص189.

938 - أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، ط02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991، ص145.

939 - أحمد سليمان، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر، دت، ص43-44.

المطلب الأول: الفقهاء والفكر السياسي

يعتقد كثير من الباحثين أن التأليف التاريخي المبني على الآراء النقدية والتحليلية والاستشرافية للمستقبل خطوة هامة في تمهيد طرق البناء السياسي والتجديد للشعوب والأمم، وقد ساهمت المدرسة التاريخية الغربية في تقديم كثير من الصور عن الدولة العثمانية، وعلاقتها بالعالم المحيط بها مبنية على أسس غير صحيحة فساهم المؤرخ الأوربي بسبب تأثره بالفتوحات الكبيرة التي حققها العثمانيون خاصة بعد فتح القسطنطينية، في إذكاء نار العداوة والصراع بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي⁹⁴⁰. وقد كان اهتمام العلماء والفقهاء المسلمين بالتاريخ ضعيفا في المغرب الأوسط قبيل الوجود العثماني وبعده، ويعد الوعي بالتاريخ والتغيير كما يعبر عنه "عبد الله العروبي" من أهم سمات النخب السياسية والفكرية، التي غاب عنها هذا الأمر، ولا يتحقق الوعي السياسي بدون الكتابة والتأليف في علم التاريخ والفكر السياسي الناقد والبناء، والذي أخذ في الضعف والضمور - كما يرى أغلب النقاد - بعد وفاة العلامة والمفكر "ابن خلدون".

ولم يستطع أحد من المؤرخين أن يأتي بمثل ما أتى به من قبل⁹⁴¹، من نظرة نقدية وتقويمية للتاريخ البشري، خاصة بعدما تصدرت الحضارة الإسلامية قيادة ركب البشرية، بالرغم من ظهور عشرات المؤرخين بعده، إلا أن الاهتمام كان منصبا على التأليف في مجال التراجم (التاريخ البطولي) و(الملاحم) وسير الأولياء و السادة الصوفية والعلماء وطبقاتهم، و"الأنساب" و"العائلات الشريفة" والطبقات والنوازل⁹⁴²، وهي مجالات صامتة وغير قابلة للحراك والفعل الحضاري.

وكان سرد السير وتراجم الرجال والأنساب دون تحليل وتمحيص واستخلاص للعبير والمعاني، ولسنا بحاجة لذكر جميع من انتهجوا هذا الأسلوب عشية دخول العثمانيين للجزائر أو قبل ذلك بقليل، فقد برز بعضهم ببريق التأليف التي وضعوها منهم يحيى بن خلدون صاحب "بغية الرواد"، و"محمد بن مرزوق" الذي كتب "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" تحدث فيه عن الخلافة الإسلامية، ووجوب الطاعة للأمرء والتنويه بفضل ومكانة وأفضلية السلاطين على

940 - محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين، طرابلس، 1992. المقدمة

941 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص50.

942- ألفرد بل، المرجع السابق، ص415، (416..

الفقهاء⁹⁴³. وكذا ابن الخطيب وابن قنفذ، وابن مرزوق الحفيد الذي أظهر ميلا واهتماما بالتاريخ، و عبد الرحمن النعالي صاحب " جامع الهمم في أخبار الأمم"⁹⁴⁴.

ويعتقد بعض المحللين أن ندرة الكتب والتأليف التاريخية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، له ما يبرره حيث شهد القرنان أحداثا سياسية كبيرة، قد يكون لها أثرا في تراجع الاهتمام بالعلوم الإنسانية وبعلم التاريخ على وجه أخص⁹⁴⁵. ويرجع الباحثون هذا التراجع أيضا لسيطرة التصوف على العلوم الموجودة ومنها علم التاريخ، فضلا عن خشية الطبقة الحاكمة التي لا تريد كتابة التاريخ بالصورة التي تدفع الناس للقراءة والثورة⁹⁴⁶.

كما أن الخلط الواقع في اعتبار التاريخ من العلوم الدينية دفع به إلى دُرج الإهمال وعدّ بعضهم قراءة السير والأخبار الماضية مثوبة يُجزل لها العطاء ويحصلُ الجزاء لقارئها، وهو ما أورده ابن المفتي صاحب التقييدات بقوله: "فان علم التاريخ عبادة ومنة جزيلة ومعرفة أخبار العلماء منقبة جليلة"⁹⁴⁷. وأضاف الورتلاني أسبابا أخرى أدت إلى ضعف علم التاريخ وتتمثل في عدم احترام الأهالي له والاهتمام به وتقديسه وهو ما نستشفه من قوله: "علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء او الاشتغال بما لا يعني..."⁹⁴⁸.

ومن المؤلفين من كان دافعه التسلية ودفع الهموم والمشاكل التي ألمت به وكانت بواعث كتابه تسلية النفس ودفع همومها بعد وفاة الأحبة من الأهل والأقارب وهو حال عمدة المؤرخين التونسيين ابن أبي الدينار الذي فقد ابنه فسعى إلى تجاوز المحنة بالكتابة التاريخية حيث يقول "إلا أن قدر الله علي بفرقة الأحباب وموت الأولاد ودهيت بما تقطع منه كبدي وكبد غيري من أهل البلاد فكان هذا هو الباعث لي في هذا التقييد"⁹⁴⁹. وهو الشأن نفسه بالنسبة لابن المفتي صاحب التقييدات الذي يقول في مقدمة تأليفه: "ومما حملني على هذا التقييد وإن كنت لست من فريق المؤلفين ولا من

943 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، المرجع السابق، ص51.

944 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص57.

945 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص331..

946 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص331..

947 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص35.

948 - الورتلاني، المصدر السابق، ص597.

949 - ابن أبي الدينار، المصدر السابق، ص04.

عدادهم هو التسلي عن الهموم بعد فقد الأنجال والأولاد فوقع لي العزم على ما نويت وأطلب من الله الإعانة"⁹⁵⁰.

ويرى أبو القاسم سعد الله أن العثمانيين لم يطوروا العلاقة بين المؤرخ وبيئته فلم يهتم المؤرخون بقضايا تاريخ المنطقة والوطن وتاريخ البلاد العربية والإسلامية⁹⁵¹، وهي الأعمال التي من شأنها صناعة الهوية وربط الجزائريين بدول الجوار لبناء الكيان السياسي للجزائريين وقد عمل أغلب من سلك هذه المسارات ضمن هذه الأطر الضيقة بالرغم من تنوع دوافع ومواضيع أعمالهم من أمثال الورتلاني وابن مريم صاحب "البستان"⁹⁵²، والفكون والمقري والبوني وأبو راس الناصري صاحب التأليف العديدة وابن ميمون صاحب "التحفة المرضية" وابن رقية التلمساني صاحب "الزهرة النيرة" وابن سحنون صاحب "الثغر الجماني" الذي يعد أول مفكر جزائري يتحدث عن الثورة الفرنسية (1789م) وحاول أن يقدم بعض صورها للقارئ آنذاك⁹⁵³ بالرغم من علامات الاستفهام التي ساقها حولها. ولم تستطع هذه التأليف رغم كل شيء رسم سياسة ثقافية محلية - وطنية - تكسر جدار الصمت الفقهي والتقليد الديني.

فالنخب العاملة التي برزت في العهد العثماني على قلتها لم تكن لها منهجية مشتركة ولا منظور واحد للتاريخ، قد تعود أسبابه ربما للعوائق اللغوية فكانت حركة التأليف أحادية التأثير ولا تؤثر خارج النطاق اللغوي، وتسبب هذا الوضع في وجود تفسير أحادي للتاريخ وتكريس لفكرة الانحطاط العثماني وإيالاته دون أن يجد من يرد عليه⁹⁵⁴.

المطلب الثاني : الخلافة الإسلامية في اللغة والتراث

أثارت مسألة تلقيب الدولة العثمانية بالخلافة جدلا كبيرة بين العلماء والمؤرخين والفقهاء حول جدوى هذا اللقب ومشروعيته، ومكانته بين المسلمين في العالم وإلى أي مدى استغلت الدولة العثمانية هذا اللقب في تحقيق مكاسب سياسية وكسب مجال نفوذ في البلاد العربية.

950 - ابن المفتي المصدر السابق، ص35.

951 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص334. ..

952 - بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص66.

953 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص224.

954 - ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، تر حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي، 2008 ص102.

والخلافة لغة من الاستخلاف واستخلف فلانا من فلان أي جعله مكانه، وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته. ويقال: خلفه في قومه خلافة. وجاء في القرآن الكريم: "وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي" وخلفته أيضاً إذا جئت بعده. ويقال: خلفت فلاناً أخلفه تخليفاً واستخلفته أي جعلته خليفتي. واستخلفه : جعله خليفة. والجمع خلفاء⁹⁵⁵. والخليفة: الذي يُستخلف من قبله، والجمع خلائف، وأما الخلافة اصطلاحاً فتعني رئاسة الدولة الإسلامية⁹⁵⁶، وتعد من المسائل الكبرى التي أسالت الكثير من الخبر ودار حولها جدل كبير بين فقهاء المسلمين وعلمائهم، تباينت آراؤهم بتباين النحل والملل التي ينتمون إليها، كما تقاطعت حولها رؤى الكثير من العلماء والفقهاء والباحثين، قديماً وحديثاً.

وعلى خلاف ما يقوله الشيعة بكامل فرقهم في أن الإمامة "الخلافة" ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، فإن أهل السنة والجماعة متفقون في أن الخلافة ليست من أصول الدين التي لا يقوم إلا بها، وهي واجبة الإقامة والنصب على المسلمين إذا استطاعوا ذلك، وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن وجوب الإمامة عن طريق الإجماع معروفة في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين"⁹⁵⁷.

ويقول الجرجاني⁹⁵⁸ أن: "نصب الإمام من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين"⁹⁵⁹، ويقول النسفي⁹⁶⁰: "والمسلمون لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدودهم وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم واخذ صدقاتهم وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات بين العباد"⁹⁶¹.

955 - القاسمي ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ط03، دار النفائس، بيروت لبنان، 1980، ص117.

956 - القاسمي ظافر، المرجع نفسه، ص117.

957 - صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين بيروت 1982، ص275.

958 - الجرجاني هو محمد بن يحيى بن مهدي الجرجاني أحد أعلام علم الحديث، وكان زاهداً ورعاً عابداً، روى الحديث عن: عبد الله بن إسحاق بن يعقوب البصري، وأحمد الغطيفي، وأبي بكر الرازي، وتفقه عليه حتى نبغ وصار يناظره. روى عنه وتفقه على يديه الكثير من الفقهاء، توفي الجرجاني 1007م، من موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

959 - صبحي الصالح، المرجع السابق، ص275.

960 - أبو حفص أحمد بن إسماعيل النسفي (461. 537 هـ/1068. 1142م) فقيه وعالم في العقائد وهو صاحب العقيدة النسفية، ولد بمدينة "نسف" بالعراق زار بغداد ومكة، والتقى الزمخشري صاحب "الكشاف"، وعدد شيوخه في خمسمائة وخمسون رجلاً، لقب بـ"مفتي الثقلين"، وبلغ منزلة كبيرة في العلوم والفنون المتنوعة، وأشاد بعلمه وفضله الفقهاء والعلماء، اتسمت كتاباته بالقوة والجلال مما جعلها تسهم في رسوخ الدين في النفوس، توفي النسفي بسمرقند، وللتنويه يجب التفريق بينه وبين النسفي عبد الله

وينبه بن تيمية في كتابه "الخلافة والمملك"، من أن الخلافة ليست خلافة عن الله، لان الله "حي قيوم مهيمن رقيب حفيظ ليس له شريك"، وهو ليس في حاجة للاستخلاف لان المستخلف يكون بموت أو بغيبة وعجز⁹⁶². وقال بوجوب نصب الخلافة الماوردي في الأحكام السلطانية، والإمام الجويني إمام الحرمين في الغياثي، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، والنووي وابن حجر في الصواعق المحرقة⁹⁶³.

ولم يغير المتأخرون من أهل السنة والجماعة في شيء من هذا، فقد نقل عن الفقيه المغربي عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي من أن نصب الإمام واجب عند كل أئمة الفقه، وقال الفقيه حلولو⁹⁶⁴ في كتابه "شرح جمع الجوامع": "لو نصبوا المفضل مع فقد الفاضل فالإمامة تنعقد وأما مع وجوده فهي مسألة فيها خلاف والرأي عند الجمهور أنها تنعقد"⁹⁶⁵.

ويُشترط في الخليفة أن يكون عاقلاً بالغاً حراً ذكراً شجاعاً ذا رأي وسمع وبصر ونطق وممن سلم الناس شرفه وشرف قومه، وعرف منه انه يتبع الحق في سياسة المدينة، قال الرسول لما ولى الفرس عليهم امرأة: "لن يفلح قوم ولوا عليهم امرأة"⁹⁶⁶.

وأما الخلافة عند الاباضية⁹⁶⁷ فإنهم يقولون أنه يمكن الاستغناء عنها إذا عرف كل واحد الحق الذي عليه للآخر، وهذا القول أكثر ما اشتهر به فرق المحكّمة والنجيدات⁹⁶⁸، وبالرجوع إلى كتب

أبو البركات (ت. 710هـ - 1310م) والذي من أهم كتبه: اعتماد الاعتقاد، تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، كشف الأسرار وغيرها.

961 - صبحي الصالح، المرجع السابق، ص275.

962 - بن تيمية، الخلافة والمملك، تح حماد سلامة ومحمد عويضة، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص53.

963- عبد القادر بن علي الفاسي، رسالتان في الإمامة العظمى، تح هشام بن حيجر الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص27.

964 - الفقيه حلولو هو العلامة أحمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الحق الزليطني القروي المعروف بـ "حلولو"، ولد حوالي سنة (805هـ)، ببلدة زليطن بليبيا، وبها نشأ وترعرع أخذ الفقه عن عدة شيوخ منهم الشيخ أبو القاسم بن أحمد البرزلي، وأبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، وأبو حفص عمر بن محمد القلشاني، وله مؤلفات مفيدة كشرح على مختصر خليل، وجمع الجوامع، وغيرها، توفي بتونس وقبر بها سنة (898هـ).

965 - عبد القادر الفاسي ت1091هـ. المصدر السابق، ص35.

966 - عبد الستار الدهلوي، المرجع السابق، ص230.

967 - يرى الاباضيون أن واجب الخليفة هو أن يكون الراعي الأمين والحارس للشرعية كما كانت على زمن الرسول وأبي بكر وعمر، وهذان في رأيهم إمامان كاملان ونبذوا خلافة عثمان لأنه ارتكب في نظرهم بدعا عديدة، والخليفة عند الاباضيين يلقب

الإباضية نجد أنهم ينفون هذا القول عنهم، ويعتبرونه من مزاعم خصومهم عليهم، وأن مذهبهم هو القول بوجوب نصب حاكم للناس، لكنهم يسقطون النسب القرشي⁹⁶⁹.

ويتفقون مع أهل السنة في أنهم يرون وجوب نصب الحاكم حتى وإن كانوا جماعة قليلة، ولكن لهم شروط قاسية جداً يشترطونها في الإمام⁹⁷⁰ قد لا تتوفر إلا في القليل النادر من الرجال، وإذا صدر من الإمام أقل ذنب فإما أن يعلن توبته منه وإلا فالسيف جزاؤه العاجل⁹⁷¹. وجوزوا كأهل السنة صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل⁹⁷²، إذا تمت للمفضول، خلافاً لسائر الخوارج⁹⁷³.

المطلب الثالث: مشروعية الخلافة العثمانية

بالإمام أي الذي يؤم الناس في الصلاة ويرأس الجماعة، ويجب أن يكون مثلاً أعلى للتقوى، انظر: الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ط02، تر عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص142.

968 - المحكمة والنجدات من الخوارج يرون أنه قد يُستغنى عن الإمام إذا تناصف الناس فيما بينهم، مستنديين على مبدأ: "لا حكم إلا لله"، ويعني أنه لا ضرورة لوجود الحكومة مطلقاً. وأن الحكم ليس من اختصاص البشر بل تهيمن عليه قوة علوية. فإذا تمكن الناس من تطبيق أحكام الشريعة، بأنفسهم فلا حاجة لهم إلى نصب خليفة. كما يرون أن النبي عليه السلام لم يُشر صراحة ولا وضع شروطاً لوجود الخلفاء من بعده. وأن كتاب الله لم يبين حتمية وجود إمام، وإنما أبان "وأمرهم شورى بينهم".

969 - يرى الأباظيون "أن الخلافة وهي أهم مركز وأقوى سلطة في الإسلام لا يمكن أن تنحصر في بيت خاص أو قبيلة معينة"، وهم بذلك يقفون على النقيض مع جمهور "أهل السنة والجماعة" في اشتراط النسب القرشي لتولي الخلافة الإسلامية، في حين اتفق الاباضيون مع طوائف الخوارج في إسقاط شرط النسب القرشي انظر: إبراهيم محمد الطلاي، المرجع السابق، ص33.

970 - يتمسك الاباضيون بنفس شروط الإمام عند الخوارج منها: أن يكون شديد التمسك بالعقيدة الإسلامية، مخلصاً في عبادته وتقواه، أن يكون قوياً في نفسه ذا عزم نافذ وتفكير ناضج وشجاعة وحزم، أن لا يكون فيه ما يُخلُّ بإيمانه من حب المعاصي واللهو، أن لا يكون قد حُدَّ في كبيرة سابقة حتى لو تاب منها، وأن يتم انتخابه برضا الجميع، ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ط03، دار النفائس، بيروت لبنان، 1980، ص330-337.

971 - ينظر الخوارج إلى الإمام على أنه المثل الأعلى للمسلمين وينبغي أن يتصف بكل صفات الورع والسمو والكمال وإذا بدر منه شائبة على الرعية الثورة عليه ومحاسبته، فإذا تركته رعيته دون إنكار فإنهم يكفرون أيضاً.

972 - يطرح الشيعة بين الفرق الأخرى وجوب نصب الإمام القادر والأفضل على الناس ولا يجوزون نصب غيره ويجب على الأمة البحث عن الأفضل، ويشترطون فيه العصمة وحفظ الشرع، وقد أورد "ابن حزم" أن الكثير من الطوائف من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة والروافض بمختلف فرقها، لا تجيز إمامة من يوجد في الناس من هو أفضل منه.

973- علي يحيى بن معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية، المرجع السابق، ص462.

كان اللقب الديني للخلفاء المسلمين على مر العصور - خليفة المسلمين - سواء في فترة حكم الأمويين أو العباسيين وحتى الفاطميين، يمارس نوعاً من التأثير السياسي والديني على الأتباع، فينزعون إلى الطاعة والبذل لنصرة الخلفاء والحفاظ على أركان حكمهم من الزوال والضعف⁹⁷⁴، وعند قيام الدولة العثمانية وتبوءها صدارة الدول الإسلامية لم يعد ينقصها لتكتمل عناصر قوتها سوى الاصطباغ بهذا اللقب، خاصة وأن الانتساب للشرف القرشي - كشرط من شروط الخلافة - لم يعد مطروحاً بقوة وكان بإمكان الخليفة أن يستمد سلطته مباشرة من عند الله. والعثمانيون لا يدينون في قيامهم بتكوين دولة عظيمة فقط للقوة العسكرية التي توارثوها عن أجدادهم، بل إلى القوة المعنوية التي استمدوها من الإسلام المتمثلة في معاني الوحدة والخلافة⁹⁷⁵.

وأول من تسمى بالخلافة السلطان العثماني "مراد الأول" (1360-1388م) لكن اللقب لم يثبت له بصورة دائمة وقطعية، كما نحا السلطان "محمد الأول" (1413-1429م) نحوه، حيث وصف عاصمته بدار الخلافة الإسلامية⁹⁷⁶ دون أن يغير في مسار السلطة شيئاً.

ويرجح جل المؤرخين أن السلطان العثماني "سليم الأول" هو أول من لقب نفسه خليفة في أول صلاة جمعة بحلب يوم 1516/08/29، ولقب فيما بعد بـ "خادم الحرمين الشريفين"⁹⁷⁷، ويذكر المؤرخ المعاصر "إسماعيل ياغي" أن "ابن إياس" المؤرخ المصري المعاصر لفتح القاهرة على يد سليم الأول، لم يذكر هذه المسألة ومر عليها مرور الكرام⁹⁷⁸، ويؤيد المستشرق الألماني "كارل بروكلمان"⁹⁷⁹

974 - عمل أغلب الخلفاء والحكام والولاة في التاريخ الإسلامي إلى الاستناد على آيات الطاعة الملزمة لأولي الأمر بينما استند الفقهاء والمعارضون السياسيون على ربط الطاعة بمدى التزام الحكام بشرع الله وحراسة الدين.

975 - أحمد آق كندوز و سعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، Mass matbaacilik khagitane istanbul مؤسسة وقف البحوث العثمانية استنبول، 2008، ص 48

976- إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، 2003، ص 61 .

977- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، اسطنبول، تركيا 1988 .

978- إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 61 . لكن المؤرخين "أحمد آق كندوز" و "سعيد أوزتوك" يؤكدان على أن السلطان سليم استلم مفاتيح الكعبة من شريف مكة "أبو البركات" في جامع أيا صوفيا واستلم من الخليفة المتوكل رمزية الخلافة، وقد ذكرا أن المؤرخ المصري المعاصر "ابن عياض" - هو نفسه ابن إياس بناء على عنوان الكتاب - في كتابه "بدائع الزهور" الجزء الثالث ص 19 وما بعدها، يذكر هذه الحوادث المهمة، انظر: أحمد آق كندوز و سعيد أوزتورك، المرجع السابق، ص 214.

979 - كارل بروكلمان (1868-1956) مستشرق ألماني مشهور اعتنى بدراسة الثقافات الشرقية من تاريخ ولغات وآداب ترك العديد من المؤلفات التي لا تزال مرجعاً مهماً لطلبة العلوم الإنسانية في مختلف أنحاء العالم وترجم بعضها إلى العربية، انظر ترجمته الوافية في عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993 ص 98 .

هذا القول معتبرا أن ما قام به السلطان سليم الأول من نقل شخص الخليفة "المتوكل على الله الثالث" إلى القسطنطينية واستلامه مفاتيح الكعبة، من باب الأسطورة لا غير⁹⁸⁰.

غير أن الحكم العثماني بعدما شمل الجزائر وتونس وليبيا منذ القرن السادس عشر، صار يجسد طموح السلاطين الكبار كسليم الأول وسليمان القانوني وغيرهما، ويضفي على الدولة الإمبراطورية صورة الدولة الإسلامية الراعية لشؤون المسلمين حيثما كانوا، ولم يثني البعد الجغرافي من عزم ورغبة السلاطين في تجسيد هذا الطموح، لأن السلاطين العثمانيين كانوا يعتقدون أن سلطة الخلافة تطالها عن بعد باسم الإسلام خاصة، ويكفي أن هذه البلاد متصلة برا بالدولة العثمانية⁹⁸¹.

ومهما يكن فإن السلطان "سليم الأول" نال لقب الخليفة سنة 1514م 920هـ رسميا حينما لقب نفسه " خليفة الله في طول الأرض وعرضها"⁹⁸²، ثم لُقّب نفسه "خادم الحرمين الشريفين"⁹⁸³، ويرى البعض أن الدولة العثمانية صارت تحكم البلاد التي تحت سلطانها باسم الخلافة، وتحت هذا الاسم استطاعت أن تنتزع العراق من الحكم الفارسي، حين انتصر السلطان سليم الأول على الفرس في 1516⁹⁸⁴. واستعمل السلاطين لقب الخليفة من السلطان سليم الأول إلى آخر السلاطين "عبد المجيد" الذي صدر في عهده قانون إلغاء الخلافة سنة 1924⁹⁸⁵.

وكان سليم الأول يتعامل مع الايالات الجديدة كأنها جزء ثمين ومهم من الخلافة، فيوصي ولاية الأقاليم بها خيرا، وقد جاء في رسالة بعث بها لعلج علي: "وأوصيكم بحفظ البلاد وصون العباد ودفع المحن والرزايا عن جميع الرعايا وإحياء شعائر الدين وإجراء قوانين سيد المرسلين ليكون أهل الإسلام في تلك الأراضي في ظل ظليل وعدل جميل"⁹⁸⁶...

980 - كارل بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ط 3، تر نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان 1961.

981 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 125.

982 - محمد خير فلاح، الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد، كتاب اليكتروني، ص 45.

983 - محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس ، 1286هـ ص 172

984 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 124 .

985 - أحمد آق كندوز و سعيد أوزتورك، المرجع السابق، ص 228.

986 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر... ج 03، المرجع السابق، ص 463.

وكان لظهور الأخوين خير الدين وعروج من قبل سندا قويا لتحقيق هذا الامتداد، فالدولة كانت بحاجة لسلطة بحرية إسلامية للدفاع عنها فكان لها ما أرادت، ولا نعلم بالضبط كما يقول الباحث التونسي "عبد الجليل التميمي" كيف كان إحساس الجزائريين ولا موقفهم بالنسبة للخلافة العثمانية⁹⁸⁷، وقد أُنْهَكَ البلد على مرّ مائتي سنة الأخيرة بفعل صراع ولاية الموحدين: الحفصيون في تونس والزيانيون في تلمسان وبنو مرين في فاس، وساهموا بشكل كبير في ضعف وركود المنطقة وتآكل الفكر الوحدوي.

والراجح أن فكرة شرعية الخلافة الإسلامية العثمانية هي التي يَسَّرَت الوجود العثماني في الجزائر، فرسالة سكان مدينة الجزائر حينما طلبوا الانضواء والحماية من العثمانيين تحمل بين طياتها العمق الديني الذي يكمن خلفه الإيمان بفكرة الخلافة الإسلامية.

غير أن سرعة قيام الحكم العثماني في الجزائر والتفاف الكثير حوله رغم المناورات المتعددة، وضعف خصومه وتراجعهم من بقايا الحفصيين وبنو زيان يبعث على التساؤل حول الأسباب التي أدت إلى ذلك، هل كانت السلطة العثمانية الجديدة في الجزائر ترمز للملك الراشد، والخلافة السنية التي كانت بعيدة عن ممارسة الاستبداد والقوة والعنف مع العامة والمعارضين، خلافا للملك المغتصب الذي يستولي عليه الفرد في أجواء من القتل والإكراه، بمختلف الوسائل المتوفرة لديه⁹⁸⁸. أم أن الخصوم كانوا في مراحل السقوط الأخيرة التي لم تنقذهم منها حتى التحالفات الاضطرارية مع الإسبان؟

إن المتأمل للوقائع التاريخية يكاد يجزم أن الصراع الإسباني العثماني في البحر المتوسط، وتصدّر الأتراك الحملة لمواجهة التحرش الإسباني كان من أكبر الدوافع التي منحت للأتراك، المكانة الروحية لدى السكان ولدى الفقهاء الذين واكبوا المرحلة ووقفوا على حقيقة الأعمال التي قام بها هؤلاء. ولا نكاد نجد توصيفا مناسباً للخلافة عند أغلب المؤلفين والكتاب الجزائريين، رحالة كانوا أو فقهاء من الذين مر بنا الحديث عنهم في هذه المذكرة، فمنهم من اعتبرها دار السلطان الأعظم، مثلما

987 - عبد الجليل التميمي، "أول رسالة للسلطان سليم الأول من طرف أهالي الجزائر سنة 1519"، في المجلة التاريخية المغربية،

العدد 06، زغوان، تونس، ص 116-120

988 - 3houari Touati op.cit. p11 - 988

نجده عند "الورتلاني"⁹⁸⁹، بينما اعتبرها القاضي المالكي "محمد بن علي أقوجيل" خلافة إسلامية مشروعة، وتتوفر على جميع الشروط الواجبة، ومنها النسب القرشي حيث يزعم أن مؤسسي الخلافة العثمانية ينحدرون من الخليفة الراشد الثالث "عثمان بن عفان" رضي الله عنه ومنه استمدوا تسميتها⁹⁹⁰، خلافا لابن حمادوش الذي اعتبر أن الأتراك ينتسبون لمؤسس الدولة "عثمان خان"⁹⁹¹ الذي أسس الدولة العثمانية وفق النظام الملكي لا غير.

ففي معرض تقديمه لمخطوط جديد يتعلق بتاريخ الجزائر الثقافي، ذكر أبو القاسم سعد الله إشادة مؤلف المخطوط بمدن إسلامية في ذلك الوقت، منها فاس والقاهرة والقسطنطينية ووصف عاصمة الأتراك بقوله: "هي دار ملك الترك الأعظم اليوم وهو الخليفة الأكبر مالك البرين والبحرين ومصر والشام والعراقين، خديم الحرمين الشريفين أصلح الله حاله وحال جيشه ورعيته وإقليمها، هو بر الترك ومنه تخرج الأمراء والقضاة لجميع عمالاتها المذكورة ودار ملكها كمصر أو أعظم في الكبر وتسميتها بالتركية وتفسيرها إسلام عريض أقامها الله دار إسلام إلى يوم القيامة"⁹⁹²

وفي قسطنطينة التي كانت تمثل حاضرة فقهية وروحية تختلف موقف السكان من الأتراك بين موالين لهم ومعارضين، فأما الموالين لهم فكان منهم أبو زكريا يحيى الفكون، وحجته في ذلك قائمة على أساس ديني وهي أن الأتراك جاؤوا إلى هذه البلاد موفدين من طرف دولة الخلافة الإسلامية العثمانية، التي لها حق الطاعة على عموم المسلمين⁹⁹³، ومن أجل ذلك سارع سكان قسطنطينة للكتابة للسلطان سليمان القانوني شاكين له من سياسة "صالح ريس" سنة 933هـ 1526م⁹⁹⁴.

ومن الفقهاء من انبهر بالخلافة ممثلة في عاصمتها "القسطنطينية" وغض الطرف عن إيالة الجزائر، فلا يتحدثون عنها ولا يعدونها جزءا مهما في الخلافة، مثلما ذكر صاحب "كعبة الطائفين" حين يقول: "هي دار ملك الترك..... مصر والشام والعراقين.. خديم الحرمين الشريفين" ثم

989 - أورد الورتلاني في رحلته كلاما كثيرا عن حملة "سليم الأول" على مصر سنة 1518 وقضائه على دولة المماليك، وأطنب في ذكر كرامات وتقديم تأويلات في الموضوع، انظر: الورتلاني، المصدر السابق، ص 503. وما بعدها.

990 - houari Touati op.cit. p112.

991 - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 112.

992 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 01، (ش.و.ن.ت) الجزائر، 1981، ص 168.

993 - محمد المهدي شغيب، المرجع السابق، ص 93.

994 - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2000، ص 101.

يتوقف الكاتب عند ذاك الحد ولا يذكر شيئاً من إيالاتها سواء الجزائر أو تونس ويحمل هذا السكوت الكثير من الدلالات⁹⁹⁵.

المطلب الرابع: الفقهاء الجزائريون والخلافة العثمانية

لقد كان للفقهاء عموماً في كثير من المرات اليد الطولى في تعيين الحكام وعزلهم بفتاويهم أو بعدم رضاهم عنهم، عن طريق التشهير بأعمالهم الشنيعة التي يقومون بها، لكنهم لم يكونوا دوماً مصيبين في اجتهاداتهم إزاء الأحداث السياسية الكبرى التي تمر بها منطقتهم، فقد يعترى العلماء ضعف أو سوء تقدير، أو عدم إلمام كاف بالمعطيات الواقعية، إذ أن الواقع الاجتماعي والسياسي ومعطياته المتشعبة، قد يعجز عن الإلمام به من كان بعيداً عنه.

ففي مصر على سبيل المثال لعب الفقهاء في بادئ الأمر دوراً كبيراً في مساندة دولة المماليك وبعث الحياة فيها كل مرة بالرغم من ضعفها، و بعد الانتصارات العسكرية الحاسمة التي حققها العثمانيون على المماليك في مواقع "مرج دابق" 1516 و "الريداينة" 1517، غير أن المقاومة الشعبية التي أججها الفقهاء ضد العثمانيين داخل شوارع وأزقة القاهرة خاصة تلك التي دعا إليها الإمام الشيخ "يحيى بن العباس" خطيب جامع القاهرة، كادت أن تؤتي أكلها لولا قوة بنادق العثمانيين وكثرة جندهم⁹⁹⁶، ولما أستأنس الفقهاء بالدولة العثمانية، بعدما علموا أنها دولة من الدول الإسلامية السنية، تدافع عن المسلمين وترفع لواء الجهاد في البر والبحر ضد العدوان الصليبي، وتحمي الحرمين الشريفين وتبني المساجد والمدارس والجوامع وتجل العلماء، اطمأنوا إليها وساندوها⁹⁹⁷.

وفي سنة 1798 حين قدوم الحملة الفرنسية اجتمع في الأزهر الشريف بعض الفقهاء والمشايخ وتشاوروا في الموضوع، ثم راسلوا كتاباً للفرنسيين⁹⁹⁸، لمعرفة كيف سيكون جوابهم عليه⁹⁹⁹، فكتب

995 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السابق، ص 168..

996 - إسماعيل عبد الجواد، المرجع السابق، ص 13

997 - إسماعيل عبد الجواد، المرجع نفسه، ص 14.

998 - نقل الرسالة شخص مغربي، حيث قابل كبير القادة الفرنسيين وأعطاه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه، وكان مضمونها الاستفهام عن قصدهم وسبب مجيئهم.

لهم نابليون " ...إننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنسية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ونحن في طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصري وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفي مساكنهم ومتاجرهم مرتاحين"¹⁰⁰⁰، وكانت نتيجة سياسة المواجهة الفرنسية دعوة الفقهاء جموع المصريين إلى الكف عن مقاومة الفرنسيين حتى يتبين لهم الطريق¹⁰⁰¹، الذي تحول فيما بعد على مقاومة بأسلة لطرد الاحتلال الفرنسي، بعدما وقفوا على نواياه السيئة.

ولعب فقهاء تونس أدوارا سياسة مهمة داخليا وخارجيا¹⁰⁰²، كإرساء السلم والأمن وتجنيب الإيالة التونسية والجزائرية الحرب بسبب الحدود، خاصة بعد واقعة "عام الشطار" في رمضان من سنة 1037 هـ¹⁰⁰³. وبحسب رأي المؤرخ "عبد الله العروي" فإن بايات تونس استطاعوا كسب ثقة زعماء

999 - عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 04، الغزوة الفرنسية، تح عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997، ص 81.

1000 - الجبرتي، المصدر نفسه، ص 82.

1001 - وهو ما يستشف من جوابه الثاني على رسالة علماء الأزهر حينما قال: "يا أهل القاهرة إنني راض عن مسلككم فقد أحسنتم بالامتناع عن الوقوف ضدي لقد جئت للقضاء على جنس المماليك فليطمئن كل خائف وليؤدي الصلاة كالمعتاد لا تخافوا من شيء على عائلاتكم وبيوتكم وخاصة على دين النبي الذي أحبه" الجبرتي، المصدر السابق.

1002 - حرص الحفصيون على إقامة علاقات وثيقة مع الفقهاء وأصحاب الزوايا، فلما حاصر السلطان "أبو فارس الحفصي" أخاه الثائر في صفاقس ورد عليه الشيخ "عبد العزيز الغرياني" ووقف بجانبه ودعا له بالنصر، فأسلمت المدينة قيادتها للسلطان وعاد منصورا غالبا على أخيه الثائر. انظر، المنصف وناس، الدولة والمسألة الثقافية في المغرب العربي، سراس للنشر، تونس، 1995. ص 118

1003 - يقول صاحب النص: "خرج الشيخ محمد تاج العارفين ومعه ولي الله الشيخ إبراهيم الجديدي والشيخ عبد النبي خطيب جامع القصر ومن معهم لعقد الصلح بين الفريقين وتعيين الحدود، فكان الحد الذي تعيّن بين المملكتين هو "وادي سراط" بحيث أن غريبه للجزائر وشرقيه لتونس. وكتب رسم التحديد لشهادة المفتي المالكي الشيخ قاسم البرشكي والشيخ محمد بن أبي الربيع الحنفي ورمضان أفندي خطيب الجامع اليوسفي وعلي أغا كرسي الجزائر، ورجع الشيخ محمد تاج العارفين بإتمام الصلح وقرار الراحة". انظر: أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الطريف بحسن التعريف، ج 01، تح محمد الشاذلي النيفر، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1983، ص 107. ... وانظر كذلك عميرواي أحيدة، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، دار البعث، قسنطينة، 2002.

الحاضرة، وانصهرت نخبة تونس المحلية مع النخب التركية القادمة¹⁰⁰⁴، واضعة بذلك أسس الوحدة الفكرية والفقهية للبلاد.

ولئن كان فقهاء الجزائر في الفترة التي واكبت مجيء العثمانيين للمنطقة، أوائل القرن السادس عشر الميلادي، قليلي التأثير نتيجة الحالة الثقافية المزرية التي تعيشها المنطقة، فإن دورهم كان متصاعدا مع مرور الوقت وحاولوا أن يكون لهم دورا في ترشيد الحكم والسلطة الزمنية، رغم أن سيف الحجاج كان مطبقا على رؤوسهم في كثير من الأحيان، وكان مزاج الحاكم دائم التغير لمجرد هفوة بسيطة، أو لكلمة توغر صدره ضد فقيه أو عالم معين.

وصار للفقهاء الذين تولوا وظيفة القضاء مكانة معنوية وروحية، أهلتهم لأن يكونوا ضمن أعضاء الديوان، فقد كان توقيع القاضي والمفتي ونقيب الأشراف ضروري ومهم على الرسالة التي كانت تبعث إلى القسطنطينية، مخبرة عن وفاة الباشا القديم وقيام باشا جديد مكانه¹⁰⁰⁵. ومن أبرز الأدوار السياسية التي لعبوها المساهمة في تأييد وتعيين الداوي الجديد حيث يساهم القاضي والمفتي ونقيب الأشراف¹⁰⁰⁶ في تعيينه، وكان العلماء والفقهاء هم أول فئات النخب التي تتابع الباشا الجديد¹⁰⁰⁷. كما كانت الحركات الانقلابية التي يقوم بها ضباط الانكشارية دوما بحاجة لتأييد العلماء والمفتين والقضاة لعزل البشوات¹⁰⁰⁸، مثلما وقع في عزل شعبان خوجة¹⁰⁰⁹، حيث أيّد الفقهاء الانكشارية لتصفيته.

ولعب الفقهاء أدوارا سياسية ودبلوماسية تتعلق بمسائل شتى فقد ذهب الفقيه "سعيد قدورة" في سفارة إلى المغرب، واستغلها في طلب العلم و ملاقة الشيوخ و المحدثين للأخذ عنهم، وقد اختير

1004 - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 510.

1005 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 132.

1006 - حمدان خوجة، المصدر نفسه، ص 132.

1007 - الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 23.

1008 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 57.

1009 - تميز حكم "حاج شعبان" (1100هـ - 1689م) بالاضطراب فقد جاء عقب ثورة الانكشارية على حسن ميزومورتو الذي فر إلى تونس ثم إلى القسطنطينية، وبدأ عهده بوقوع حريق مهول في ميناء الجزائر، وفي سنة (1103 1692م) انتصرت القوات الجزائرية على المغاربة، وتوقيع معاهدة مع فرنسا سنة 1104-1693م ووقوع مجازر في حق الجزائريين خارج باب الواد في مناسبة عيد الأضحى. انتهى حكم حاج شعبان بالقتل خنقا من طرف الانكشارية الثائرة. انظر De Grammont, *opcit*, p 258.

ضمن وفد مدينة تلمسان للذهاب إلى سجلماسة لتهنئة "أحمد بن عبد الله السجلماسي" الشاعر المعروف بابن المحلى الذي استولى عليها¹⁰¹⁰، وكان الفقيه "محمد الخروبي" 1556م المالكي، متضلعا في كثير من الفنون والعلوم، وأديبا سياسيا له إلمام كبير بمشاكل عصره، أرسلته السلطة الجزائرية هو الآخر مرتين للتفاوض مع "العلويين المغاربة" في عهد الأمير أبي عبد الله الشريف، فدخل مراكش سفيرا ومفاوضا حول الحدود بين البلدين خلال سنتي 1552 و1554م، وكانت له في المغرب مساجلات ومناظرات مع علمائها¹⁰¹¹، قال فيه الفقيه المغربي "أبو حامد الفاسي": "كان واسع العلم والمعرفة، شهير الذكر وله هوية جامحة في جمع الكتب والمؤلفات النفيسة، التي ذخرت بها مكتبته الشخصية"¹⁰¹².

وعندما تجددت الأزمة بين الجزائر وتونس سنة بين 1694 لم يتردد الداوي شعبان في إرسال مجموعة من الفقهاء والعلماء للحدود الشرقية للجزائر حينما تمرت فرق الحراسة التونسية وقررت أن تهجم على الأراضي الجزائرية، وكان يتقدم الوفد القاضي والمفتي الحنفيان، وكانت مهمتهما دعوة الجنود التونسيين للرجوع عن هذا العمل الذي يسيء لحسن الجوار والأخوة الدينية بين الإيالتين، لكن المهمة فشلت لاندلاع اضطرابات الانكشارية في مدينة الجزائر، وانتهت بمقتل الداوي شعبان سنة 1695 م 1106هـ¹⁰¹³.

وساهم بعض الفقهاء في تحرير رسائل فقهية ذات توجه سياسي بطلب من الحكام والولاة، مثلما فعل محمد بن زرقة الفقيه الوهراني، الذي ألف للباي محمد بن عثمان الكبير كتابا في موضوع الأموال والممتلكات والضرائب، التي تحت حكمه وكيف يتناولها الباي، وما هي نسبة ما يحصل عليه منها، وجاءت الرسالة بعنوان: "الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء" كما عالج فيها تنويع مصادر دخل البايلك وأوجه إنفاقها¹⁰¹⁴.

1010 - سعيدوني والبوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المقال السابق، ص 170 .

1011 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص 107.

1012 - توفي الخروبي بالجزائر وله مؤلفات عديدة منها كتاب في التفسير والحكم الكبرى، وشرح كتاب عيوب النفس ومداواتها. الزركلي، المرجع السابق، ص 292.

1013 - بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 25.

1014 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، المرجع السابق، ص 84.

وأما محمد بن محمود بن العنابي الذي بعثه الداوي حسين مرات عديدة إلى تونس ومصر والقسطنطينية في شؤون تخص الإيالة، كجلب الدعم والتأييد والسلاح، فيعد نموذج الفقيه المنفتح على قضايا أمته الملم بأسباب النجاح والتفوق¹⁰¹⁵.

لقد كان للفقهاء بعيدي النظر الذين يحسنون لعب الأدوار الهامة في الحروب والنزاعات، بين الدول آثارا بارزة في رأب الكثير من الصدوع التي نشأت بين الدول المغربية الثلاث، وقد تكرر كثيرا بعث الفقهاء في مهمات دبلوماسية نحو البلدان المجاورة في قضايا تهم العلاقات الثنائية، لمكانة الفقهاء عند هذه الدول ولقدرتهم على المرافعة لصالح الدولة، وهو ما يؤكد اتسام الفقهاء بالوفاء والإخلاص لقضايا أوطانهم.

ومن جهة ثانية نجح الفقهاء والمرابطون في غرس عقيدة الولاء للسلطة العثمانية، التي حملت لقب الخلافة العثمانية، ولم يتوقف جهدهم في ميدان معين بل تعداه إلى مناصرة "أولي الأمر"، وطاعتهم والدعاء لهم بالنصر ومحاربة المنافقين الذين تولوا الكفار من النصارى خاصة الإسبان، وقد ألف في هذا الميدان العلماء الكثير من الرسائل وأصدروا الفتاوى التي تنبه من خطر التعاون مع الإسبان وتتوعد أصحابها بالذل والخزي في الدنيا والخسران المبين يوم القيامة، وفي هذا الإطار ألف "عبد القادر المشرفي" رسالته "بهيجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين كبني عامر" التي خصها لتبيين أصول القبائل المتعاونة مع العدو الاسباني مبينا حكم الله فيها، منوها بالسلطة العثمانية وأنها التي تمثل المسلمين وتحمي بيضتهم فواجب تقديم الولاء لها من الدين بالضرورة¹⁰¹⁶. كما ألف ابن ميمون كتابه التحفة المرضية احتفاء بفتح وهران الأول على يد الباشا محمد بكداش¹⁰¹⁷، الذي حرر المدينة من يد المسيحيين الكفار، وترجم للباشا صاحب الفتح وذكر مناقبه وصفاته الحميدة، داعيا الله للدولة بالتوفيق والسداد.

وبالرغم من ضعف الإيالة الذي بدأ يشعر به ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتضافر عوامل الانهيار الطبيعي والسياسي، إلا أن فكرة الولاء للدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة قد

1015 - انظر المبحث الخاص به في الفصل الرابع من هذا البحث...

1016- المهدي البوعبدلي، "أضواء على تاريخ الجزائر.."، المقال السابق، ص 275.

1017- أرسل الداوي "بكداش" مفاتيح مدينة وهران بعد فتحها للباب العالي طالبا منحه قفطان الباشوية لصهره "حسن أوزون" لكن الباب العالي رفض ذلك وقام "بكداش" بالوقوف في وجه الداوي الجديد المعين، لكن تمرد لم يدم طويلا خاصة مع امتناع باي قسنطينة من تسليم دنوش سنة 1709، مما دفع بالانكشارية للثورة عليه وقتله رفقة صهره حسن أوزون.

زادت قوة وشمولا لجهات متعددة من المغرب الإسلامي باستثناء المغرب الأقصى¹⁰¹⁸، فامتدت حتى جنوب الإيالة، وقد أكد لويس رين الباحث الفرنسي، أن الطوارق في شرق الجزائر وفي إفريقيا كانوا يقيمون الصلاة باسم سلطان القسطنطينية وفي "توات" و"قورارة"، وفي الغرب كانت تقام الصلاة باسم سلطان المغرب، وذلك منذ الحملة القاسية التي قادها المنصور السعدي على المنطقة، في النصف الثاني من القرن السادس عشر¹⁰¹⁹...

وبعد احتلال الجزائر سنة 1830 وقعت أو أزمة سياسية وفكرية، بينت في العمق تشبث الأهالي في بجلايب الخلافة العثمانية، حيث اجتمع أعيان البلد وفقهاؤه لمدارسة بعض المسائل الدينية ذات الملح السياسي والتي منها لمن يكون الدعاء دُبر صلاة الجمعة، بعد ما سيطرت فرنسا المسيحية الكافرة على البلد¹⁰²⁰؟

وقد رفض الفرنسيون أن يستمر الجزائريون في رفع الدعاء للسلطان العثماني، وبعد مناقشات حامية الوطيس، توصل المتدارسون إلى صيغة الدعاء الآتية: "اللهم أعن وأيد من يعمل للدين واحيي قلوب الذين يحيون سنة النبي واحفظنا اللهم من مصائب الدنيا والآخرة إنك أنت القوي" وقد وافق على هذه الصيغة الجنرال "دوبرمون"، الذي كان شديد الحرص على فك أي ارتباط عضوي أو فكري بين الجزائر والدولة العثمانية¹⁰²¹.

1018 - وقف السعديون المغاربة في وجه فكرة الخلافة العثمانية في المنطقة، ورفضوا الاعتراف بأحقية العثمانيين بحمل لقب خليفة المسلمين. وقد تجلّى هذا الموقف خاصة في عهد محمد الشيخ السعدي ت1557م والمنصور الذهبي ت1603م الذين دعيا للخلافة العربية الهاشمية بدل الخلافة التركية الأعجمية. لاعتبار سلاطين بني عثمان أعاجم لا تصح الخلافة فيهم، وكان من أبرز نتائج التنافس غفلة المسلمين عن دفع الخطر الإسباني خاصة بعد معركة "وادي المخازن" 1578م، وكان الرحالة الزباني يعارض هذا الرأي، ويقول "ومن الفرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز ولا تصح إلا في ولد فخر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن إدعاء الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يصح أصلاً". للمزيد انظر: الزباني أبو القاسم، **جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت واللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ السلطان المولى سليمان**، تح محمد بيضون، دار المعارف، بيروت، 2003م، ص45.

1019- houari Touati **op.cit.** p12.

1020 - كان قبل 1830 يرفع الدعاء في الصلاة للسلطان في اسطنبول، حيث تقتضي الأعراف الإسلامية أن تقام صلاة الجمعة باسم خليفة رسول الله، لأن الخليفة في جميع بلاد المسلمين هو السيد المطاع، وإمام المسلمين جميعا.

1021 - Louis rinn, **op.cit.** p12

واستمر الوضع بعد ذلك طويلا فكلما تسربت أفكار تشوش على خطبة الجمعة وتدعو للسلطان العثماني تصدت لها الإدارة الفرنسية بقوة وعاقبت من وراءها¹⁰²².

ويمكن القول أن فكرة الخلافة العثمانية في الجزائر بدأت غريبة ومبهمة، ثم نمت خلال مختلف أطوار الحكم العثماني للجزائر، وصار لها شأنًا كبيرا بالتزامن مع سقوط الجزائر. وتطلع الجزائريين لمركز الخلافة طمعا في النجدة، مثلما كان شأن "أحمد باي" قسنطينة و"الأمير عبد القادر"، هذا الأخير وبالرغم من كونه ينتمي للطريقة القادرية التي كانت علاقتها بالأتراك سيئة، إلا أنه أدرك ضرورة الانضواء تحت راية الخلافة، مبديا استعدادا للتعاون معها من أجل إنقاذ الجزائر، جاء في إحدى رسائله التي أرسلها للسلطان "محمود" مستجديا نصرته قوله: "وإننا من عيالك والله سائلك عنا" فأجابه السلطان محمود: "قد أطعتم رضا البارئ ورسوله وكذلك الباب العالي أما نحن فلن نتردد في مكافأتكم لما تستحقونه من الرعاية"¹⁰²³. وكتب الأمير عبد القادر للسلطان "عبد المجيد" سنة 1257 هـ 1841م خطابا مطولا، ومما جاء فيه: "من عبد القادر... ونقبل ترب أعتابكم الرجائي فضلكم وقضاكم إلى سلطان سلاطين الإسلام وحامي بيضة أمة محمد... سيدنا وابن سيدنا السلطان عبد المجيد خان... فالمرغوب أولا العفو عن خطانا... إن جيش الكافر المقابل لنا يناهز المائة آلاف.. سلاح تام، صواعق، ومدافع.... وإني وحياتك السعيدة لولا خوفي على المسلمين ما لازمت سكونا ولا هدوء حتى أقف بين يديك وأقص من أخبار المسلمين بهذا القطر عليك... فإنهم قد غلقت عليهم الأبواب وتعلقوا بجبلك وسبيلك... فأنت الغيث المدرار والبحر الزخار..."¹⁰²⁴.

إن احتلال الجزائر كان صدمة شديدة ليس على الجزائري والنظام السياسي المتهاوي فحسب، بل إن الصدمة بلغت حتى النخب الدينية والفقهية، فقد حاول الفقهاء بعد انكسار المقاومة الرسمية التي قادها الداوي "حسين" وسقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي، الأخذ بزمام الأمر وذلك بمراسلة عموم الأهالي خارج مدينة الجزائر، ملتجئين منهم عدم التعرض للجيش الفرنسي، لإدراكهم الفرق الواضح بين الطرفين وهلاك الآلاف منهم. ويؤسنتج من خلال قراءة بعض نصوص هذه

1022- *ibid.* p12

1023 - مجموعة من المؤلفين، الدولة الجزائرية بين أحمد باي والأمير عبد القادر، منشورات جامعة قسنطينة، 1981، ص 33.

1024 - عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871، الدار التونسية للنشر، تونس 1972، ص 221-226.

المراسلة عدم إدراك جل الفقهاء والعلماء - الذين وقعوا على النداء الموجه للجزائريين - لحجم الكارثة التي حلت بالبلاد بعد سقوط مدينة الجزائر سنة 1830، وزوال ارتباطها بدار الخلافة الإسلامية في القسطنطينية وغموض موقف بعضهم، ويمكن تبرير موقفهم من خلال هذا النداء، بمدى العطف والشفقة التي يوليها هؤلاء الفقهاء للأهالي المسلمين الجزائريين، لتجنيبهم الدخول في مغامرة المقاومة لجيش الاحتلال القوي بعدته وعدده، لما سيتكبدونه من خسائر في الأرواح والممتلكات. كما أن ثقة الفقهاء في رجال الدولة الفرنسية وفي معسول وعودهم في تنفيذ بنود اتفاقية التسليم التي وقعها الداي "حسين" مع الكونت "د بيرمون" قائد الحملة ما زالت قائمة إلى حد ما¹⁰²⁵.

لكن لم يمض سوى وقت قصير حتى تبينت حقيقة الاحتلال الفرنسي، من خلال ممارسته الهمجية وأعمال القتل والإبادة فتغير موقف الفقهاء جذريا حياله، وآثر بعضهم التخفي ونصرة المقاومة، وبعضهم الآخر فضل الهجرة إلى تونس والمشرق العربي، بينما اختار صنف ثالث مقارعة الاستعمار بالحجة والصبر على مكائده وعدم ترك الأهالي بمفردهم دون مؤازرة ومن هؤلاء الشيخ الفقيه "مصطفى بن الكبابطي" المفتي المالكي. الذي بعث له الفقيه "قدور بن رويلة" رسالة سنة 1834، يدعو فيه إلى الإعلان بتحول الجزائر من دار الإسلام إلى دار كفر، وواجب الهجرة لترك بلاد الجزائر والنجاة بالدين والعقيدة¹⁰²⁶.

ويعتقد الكثير من المؤرخين الأوروبيين أن سلطة العلماء الدينية المستمدة من القرآن والسنة، قد تتحول إلى قوة محرّكة للثورات والتمرد في أي وقت، لذلك سعى رجال الحكم إلى موادعة الفقهاء والمفتين، خاصة الذين يتمتعون بصيت وبمكانة مرموقة داخل أوطانهم، وقد لجأ الاستعمار الأوروبي الحديث في أحيان كثيرة إلى الحصول على موادعة الفقهاء والمرابطين واستصدار الفتاوى الفقهية منهم، التي تعتبر وتؤكد للعامة من المسلمين أن الديار التي وقعت بيد الاحتلال، إنما هي بلاد إسلامية وليست "دار كفر" حتى لا يفكر العامة في الهجرة منها أو الثورة عليها.

1025 - رسالة قضاة الجزائر إلى سكان أحوازها جمادى الأولى 1246 الموافق لأكتوبر 1830: "إلى إخواننا المسلمين في البلدان والقرى من عرب وأتراك وقبايل أما بعد اعلموا رحمكم الله أن الجنار السرعسكري الذي ملكه الله لبلادنا بحكمه النافذ وتقديره السابق قد علمنا منه وتحققنا أن خروجه إلى ناحيتكم لم يكن بقصد حرب ولا قتال وإنما بقصد التفرج وإغاثة الضعفاء وإنه يسالم من يسالمه ويحسن إلى جميع من لقيه بغير سلاح..." توقيع: علي بن محمد المانجلاتي مفتي المالكية بالجزائر، والقاضي محمد بن محمود مفتي الحنفية (ابن العنابي). انظر عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900. (د م ج) الجزائر، ص 57.

1026 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء... المرجع السابق، ص 20.

فبطلب من الحاكم العام الفرنسي للجزائر "جيل كامبون"، تحصل هذا الأخير على فتوى من المذاهب الأربعة في "مكة" تعلن أن الجزائر أرض الإسلام والمسلمين وليست دار كفر، بينما اعتُبرت الحركة السنوسية وزعيمها الشيخ "السنوسي" كفارا¹⁰²⁷، لأنهم رفعوا لواء المقاومة للاحتلال الأجنبي، ويُذكر أن الاستعمار البريطاني طلب هو الآخر من فقهاء الحجاز المالكيين والأحناف سنة 1871 إصدار فتوى تعتبر إقليم الهندوستان بلادا إسلامية ودارا للإسلام، حتى لا تجد بريطانيا نفسها في وضعية "تمرد" شاملة وعصيان يأتي على الأخضر واليابس¹⁰²⁸.

المطلب الخامس : دعوة الفقهاء إلى تحمل مسؤولية الإصلاح.

تزعم بعض الفقهاء هذه الدعوة وتحمل على عاتقه الكتابة في شؤون العلماء والفقهاء، ودعوتهم إلى تحمل المسؤولية لدعوة أقرانهم إلى الإصلاح ونشر الخير وألا يكونوا كغيرهم من علماء السلطان الذين رضوا بالفساد والاستبداد، ومن أمثلة هؤلاء:

أولا عبد الكريم الفكون:

صنف فقهاء وعلماء عصره في كتابه السابق ذكره إلى جماعات وأصناف شتى، فمنهم جماعة إلى الجهال المعاندين الضالين المضلين أقرب، فعيب وعار أن ينتسب الأنذال إلى مقامات السادة الأولياء الصوفية كما يقول، أو أن يلحقوا بآثارهم ويتسموا بأسمائهم، وقد وصفهم بقوله "أشباه هؤلاء العلماء بكونه قد غار على أوليائه من أهل العلم والصفوة"¹⁰²⁹.

وصنف آخر من العلماء يرون لأنفسهم القدرة على تغيير مجريات الكون، ففتنوا العامة بما يقولون "فاتخذت لهم أسماء ولما يموتون تبنى عليهم قباب وتنقش عليها أسماءهم"¹⁰³⁰، في إشارة منه إلى الطرقيين والمرابطين الذين يتخذون من الدين مطية لتحقيق أغراضهم. فإن دور مثل هؤلاء سوف يزيدون في الطين بلة ويمعنون في تسريب الجهل والبدع في نفوس العامة.

وهؤلاء في رؤية الفكون مضلون بعيدون عن الحق بما يزعمون فيصفهم بـ "أشباه العلماء المشاغبون الذين أعلنوا أنفسهم أوصياء على الدين وأن سابق الأقدار منوطة بإرادتهم وتأثيرات

- A. Le Chatelier, **les confréries musulmanes du hedjaz**, bibliothèque orientale, Ernest 1027 Leroux, éditeur Paris 1887, p. 269..

- A. Le Chatelier , **op.cit.** p. 269.. 1028

1029- الفكون، المصدر السابق، ص 30.

1030 - المصدر نفسه ، ص32.

الأكوان صادرة عن اختياراتهم فتشوشت قلوب العامة بأوصافهم وصاروا يخشونهم ويهربونهم ومن تعرض لهم بقول أو فعل فجزأوه العقاب الشديد في الدنيا والآخرة والعامة بهم مفتونون، حتى اختاروا لهم من الألقاب التي لا تصلح بهم ولا تصلح لهم كألقاب سادت العلماء العاملين¹⁰³¹.

وصنف ثالث ذكره الفكون وهم العلماء الذين يزعمون الفقه ويتصدرون للفتوى والتدريس ذكر الفكون بعض أوصافهم منها "لا يعرفون منكرا وان عرفوه لا ينكرونه"¹⁰³² وإن وجدوا مآثر حسنة طمسوها، واستهزؤوا بصاحبها¹⁰³³. وهي صفات جد سيئة إذا رافقت النخب الفكرية والدينية في مشوارها التغييري فلا يعقل أن يتصدر للتغيير والدعوة من لا يملك المعرفة اللازمة لذلك ومنها معرفة وجوه الحق ونصرتة ودعمه وتشجيعه وهي خلال نفاها الفكون عن كثير من أقرانه في ذلك الزمان.

إن قراءة متأنية لمنشور الهداية توقف القارئ عند حالة من الحزن والأسى والقلق كان عليها الفكون، الذي كان يدرك أن هناك عيب ما في المنظومة الدينية للدولة، لكنه كان عاجزا على وضع الأصبع على الداء، وكانت عواطفه وأحاسيسه إزاء أزمة الفقه والفقهاء ودورهم في التغيير صادقة وجياشة.

وقد عجز الفكون رغم كل ذلك على قيادة النخب الفكرية لأنه كان شديد الارتباط بالدوائر الصوفية ومقامات الأولياء والزعامات الدينية¹⁰³⁴، مثلما مر بنا في دراسة شخصيته ولم يؤهله هذا الاعتقاد لرؤية عالم الفقه والفقهاء بمنظار تجديدي، كيف لا والرجل لا يعجزه شيء ليؤكد كرامات الوزن الذي رفعه إلى مقامات التقديس جازما أن العناية الربانية تحيط به في كل الأوقات بشكل أو بآخر، وكان يوقن بخروج الخضر عليه السلام وحديثه الخرافي مع الوزن¹⁰³⁵.

ثانيا: الحسين الورتلاني

1031 - المصدر نفسه، ص32..

1032- المصدر نفسه، ص227.

1033- الفكون، المصدر السابق، ص227.

1034 - حفل كتاب "منشور الهداية" بالكثير من الصور و الاشراقات والإلهامات التي كانت يعتقدونها الفكون في شخص العلماء والصالحين، انظر: الفكون، المصدر نفسه، ص36.

1035 - الفكون، المصدر نفسه، ص36.

فقيه ورحالة اكتسب العلوم والمعارف من خلال مدارس العلماء والفقهاء، ومن خلال الرحلة الكبيرة التي قام بها من المغرب الأوسط حتى الحجاز، ومن خلال معاينة فقرات رحلته يتبين لنا أن الرجل كان يحمل هم الفقهاء والعلماء في بلاده وفي البلاد العربية التي زارها، وكان يذكر ملاحظاته دون تردد، ينوه بالخصال الحميدة ويبرز قبح ما يرى من سلوكات هجينة، كان الورتلاني من خلال تتبعنا الرحلة كمن يبحث عن شيء افتقده، ولم يجده طول حياته فتشتت ملاحظاته وجلبته كل القضايا التي مر بها، المدن والجبال والصخور والأضرحة والقرى والوديان والزوايا والفقهاء والعلماء والمساجد¹⁰³⁶.

وفي كل مرة يلتقي فيها الورتلاني بعلماء معينين، كان يقول لمن حوله: "لا تغتر بكل ناهق فتسلم له بدنيك"، وكان يردد قول العز بن عبد السلام: "أن كل شريعة لا حقيقة معها عاطلة، وكل حقيقة لا شريعة معها باطلة"¹⁰³⁷، وهي محاولة فريدة لتنبيه العلماء والعارفين بضرورة التفريق بين العلم الحقيقي والعلم المزيف، بل ربما هي دعوة لضرورة أخذ العلم ممن يعملون به أولاً.

كان الورتلاني ملماً بنقائص عصره فظل يتنقل باستمرار بين القبائل والأمصار يدرس ويبحث ويؤلف، ويكتب الحواشي والتعليق في الفقه والتوحيد والنحو والبلاغة والتصوف، غيرها، وكان له الفضل في تهدئة الأوضاع والخلافات السياسية والقبلية بين فئات المجتمع الحية. وبرر حركته ورحلته الطويلة بتحقيق هذا الهدف السامي بالنسبة إليه "...وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين، إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير، والفتنة بينهم قل أن ترتفع، والهرج بينهم قوي."¹⁰³⁸

وانتقد صمت علماء عصره أمام الكثير من الظواهر السيئة المشينة للدين والإسلام منها، حرمان المرأة من ميراثها الشرعي وتزوج بعض الرجال بأكثر من أربعة نسوة، مثلما ذكر عن الشيخ "إبراهيم الخفاشي" الذي كان متزوجاً باثنتي عشرة امرأة¹⁰³⁹.

ويدقق الورتلاني في تحليل أسباب شيوع الأخلاق الفاسدة ويرجعها ليس فقط إلى سكوت العلماء وأشباههم وإنما إلى مجالستهم أهل البغي والفساد دون أن ينكروا عليهم، وأعطوا مثلاً سيئاً

1036 - الورتلاني، المصدر السابق.

1037 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 642.

1038 - الورتلاني، المصدر نفسه، ص. 636..

1039 - مختار فيلاي الطاهر، المرجع السابق، ص 138.

بالجلوس مع بعض النساء اللائي ينصبن شراك الغواية للكثير من الوجهاء والعلماء¹⁰⁴⁰ بغية الإيقاع بهم في الفاحشة والبغي.

ثالثا: عبد الرزاق بن حمادوش

ولد عبد الرزاق بن حمادوش سنة 1107 بمدينة الجزائر وعمر طويلا حيث يقال أنه عاش نحو 90 سنة، حياة مليئة بالفقر والضعف حاول خلالها الجمع بين العلم والتجارة لكنه لم يفلح، وكان معاصرا لبن عمار وابن علي الورتلاني¹⁰⁴¹. ورغم أن المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله كتب عنه وحقق رحلته لكن جوانب كثيرة من شخصيته لا تزال غير معروفة.

كان منشطاً بين طلب العلوم الدينية والتجارة وإجراء التجارب في الطب والفلك وغيرها من العلوم، ويبدو من خلال بعض ما كتب أنه طبعه كان فيه حدة سريع الانفعال صعب المراس، كتب شعر هجاء في قبائل "أولاد مختار" على بخلهم لما مر بهم في الطريق بين "تطوان" و"مكناس" قال:
وليلة مختار يبيت بها هم مدى الدهر لا يرجى يحور عن الغم
وال قريم كلهم مجمع الردى يسيئون للاضياف في القول والحكم

ولم يذكر ابن حمادوش من خصومه إلا القليل لأنه لم يتولى وظائف هامة يحسد عليها من طرفهم، والوظيفة التي كان يعتقد أنه يقوم بها تتمثل في قراءة "صحيح البخاري" في الجامع الكبير. وبالتالي فإن ابن حمادوش لم يتولى وظيفة رسمية وكان بعيداً عن دار الإمارة وكان يقول أنه "لم يجعل علمه سلماً في الدنيا"¹⁰⁴²

وكان ابن حمادوش كثير الرحلة والسياسة حيث زار المغرب سنة (1145 هـ 1732م) وأبى ملاقة ملكه بسبب ربما غلظة حجابيه، كما رفض مدحه بقصيدة كان ينوي إلقاءها أمامه وعلق على ذلك بقوله: "الحمد لله أغناني الله عن لقيائه"¹⁰⁴³.

ورغم أنه تتقف بثقافة عصره إلا أنه كان يحب مطالعة الكتب العلمية القديمة كمؤلفات ابن سينا في الطب و"إقليدس" في الحساب والمنطق، كما درس مؤلفات "ابن البيطار" و"الأنطاكي"

1040 - وصف الورتلاني هؤلاء العلماء بـ: "من يقتدى به من أهل العلم وينسب إليه الصلاح" انظر مختار فيلالي الطاهر، المرجع نفسه، ص139.

1041 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص425

1042 - أبو القاسم سعد الله، ابن حمادوش الرحالة، المرجع السابق، ص62.

1043 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الثقافي، المرجع السابق، ص426.

المختصين في الطب وكتاب "عبد الرحمن الفاسي" في كيمياء المتفجرات¹⁰⁴⁴، وقد أشاد الباحث الفرنسي "قبريال كولان" بالتفكير المنهجي والعلمي لابن حمادوش من خلال مؤلفاته وقال إن ابن حمادوش كان بعيدا عن التصوف والخرافات¹⁰⁴⁵ واعتبره نابغة فذا وخارج عصره¹⁰⁴⁶.

ولئن كان للورتلاني رغبة في الحفاظ على حبل الوصال مع أقرانه وإمكانية قبول النقد والاعتراف، بفضل من كان زاده العلمي أوفر منه حظا، فإن ابن حمادوش يمثل نموذجا آخر لفقهاء الفترة الذين عجزوا عن إيجاد فضاء التعاون والنقاش بين معاصريه، نظرا لشدة اعتداده بنفسه ونرجسيته المبالغ فيها، فقد روى ابن حمادوش عن نفسه حيث يؤكد أنه كان يفتخر على أقرانه بالعلم، ويصف خصومه بالجهل وقلة المعرفة، ويعرض بطلبة البادية ويسخر منهم¹⁰⁴⁷. وممن ذكرهم بثناء وصدق "أحمد بن عمار" الذي قال أنه وقف معه في محنة فقد الولد حينما عزاه في وفاته من ومن جهة ثانية تقدم بن عمار بإدلاء شهادة له "شهادة علمية" ربما احتاج إليها ابن حمادوش في بعض شؤونته ونشأت بينه وبين بن عمار صداقة قوية.

وامتدت الخصومة بينه وبين المفتي الحنفي ابن علي¹⁰⁴⁸ إلى أبعد الحدود، بالرغم من أن ابن حمادوش هو من تسبب فيها، حينما كان في منزل ابن ميمون ودخل عليهما القاضي ابن علي، فلم ينهض ابن حمادوش احتراما له فخرج ابن علي من الدار مغاضبا¹⁰⁴⁹. وكان ابن حمادوش يعير خصمه المفتي الحنفي بنسبه الأعجمي بينما يتنمي هو إلى النسب الشريف¹⁰⁵⁰. وقد هجا "ابن علي" في أبيات شعرية منها قوله:

خرجت ذليلا لا أعود لمثلها وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

فاني من اللائي فوق الثرى ترى وأنفسنا في العرش تابعة المجد¹⁰⁵¹

وكان يردد دوما، مبالغا في الفخر بنفسه والاعتداد بها، قول الشاعر :

1044 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص433.

1045 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص434.

1046 - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص12.

1047 - أبو القاسم سعد الله، ابن حمادوش.. المرجع السابق، ص 32.

1048 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي الجزء 2، المرجع السابق، ص.251.

1049 - أبو القاسم سعد الله، ابن حمادوش... المرجع السابق ص 32.

1050 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص32.

1051 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه ص 45

كما تبين طبيعة المواضيع التي تشكل مادة النقاش والجدال بين أقران ابن حمادوش من الفقهاء والعلماء، مستوى الاهتمام والقضايا المحركة للعلاقات بين النخب العاملة، ومنها القضايا العقائدية الغيبية التي كانت حاضرة في جلساتهم كما تبين طبيعة القضايا غياب مشروع الفقه وهم التحسين للواقع، كالذي وقع لابن حمادوش مع شيخه أحمد الورززي في مسألة تفضيل الأنبياء على الملائكة أو العكس¹⁰⁵³، وهي مسائل جدلية لا طائل من وراء البحث فيها وتستنزف الأوقات وتشغل عن الأهداف الكبرى التي من الواجب على النخب الاضطلاع بها..

رابعا : ساسي البوني

أحس البوني بواجبه نحو أقرانه من العلماء والفقهاء فقرر أن يخلد ذكرهم في التاريخ وألف المنظومة المسماة "الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة"¹⁰⁵⁴ تحتوي نحوًا من ألف بيت، ذكر فيها علماء بونة وأساتذتها وعلماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة¹⁰⁵⁵، وقد حوت القصيدة صورة قائمة للأوضاع الداخلية، ويذكر أن تأليفه بطلب من بعض رفقاءه ولم يكن بدافع شخصي وفيها يقول:

لِذَاكَ رَامَ مَنِّي بَعْضُ الْأَذْكَاءِ تَوَسَّلًا بِذِكْرِ بَعْضِ الْأَرْكَاءِ
فَجَنَّتُهُ "بُدْرَةَ مَصُونَةٍ" ذَكَرْتُ فِيهَا أَوْلِيَاءَ بُونَةٍ
لَكِنَ بِلَا طَوْلٍ وَلَا تَارِيخٍ لَضِيقِ نَظْمِي بِهِمْ صَرِيحِي

وبعدما انتهى البوني من ذكر من يعرف من علماء بونة، يختم قصيدته بالمقارنة بين علماء الأمس وعلماء اليوم، ليقف على جملة من الحقائق الصارخة في ما يتعلق بقيمة العلماء ومكانتهم في المجتمع، ومدى تأثيرهم فيه فيقول:

وَالْآنَ يَلْحَنُونَ فَوْقَ الْمَنِيرِ لَا يَقْبَلُونَ النَّصْحَ حَتَّى مِنْ بَرِي
وَكُتِبَ الْجَهْلُ عَلَى جِبَاهِهِمْ الْيَوْمَ يَحْتَمُّ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ
لَيْتَ الْجُدُودَ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ وَلَوْ رَأَوْهُمْ لَبَكَوْا عَلَيْهِمْ

1052 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 49.

1053 - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 72-73.

1054 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، المرجع السابق، ص 365.

1055 - علق على القصيدة الباحث الجزائري ابن أبي شنب في "التقويم الجزائري" سنة 1913،

ويتبين من خلال هذه الأبيات أنَّ مدينة بونة في القرن الحادي عشر الهجري، عرّفت انحطاطاً فكرياً وأخلاقياً لا نظير له، ومن ملامحه جهل العلماء والفقهاء، الذين يضطلعون بمهمة إرشاد الناس وتعريفهم أصول دينهم، وزاد في الطين بلة أن هؤلاء الفقهاء والمصلحين كانوا يرفضون النصح من أي كان، ولا يقبلونه برغم أن "الدين النصيحة"؟؟

وضمن البوني قصيدته طلباً لأحد القادة الأتراك، بعدما علا شأنه في الدولة لعله يتذكر المدينة التي آوته واحتضنته، وكانت مقراً له حينما كان على راس الحامية التركية، وتزوج بها وهو محمد "بكداش"، الذي ارتقى إلى منصب باشا الجزائر، وتمثل هذا المطلب في الاهتمام أكثر بمدينة بونة، والنظر إليها ولما آلت إليه من ضعف وتقهقر وهمجية، فقال:

يا حاكم الجزائر	يا أنس نفس الزائر
أريد أن أخبركم	أدام ربي نصركم
بحال هذي القرية	بالصدق لا بالقرية
قد صال فيها الظالم	وهان فيها العالم
خربت المساجد	وقل فيها الساجد
فداركوا الإسلاماً	ونوروا الظلاماً ¹⁰⁵⁶

ومن خلال هذه القصيدة التي جاءت في لون رثائي محزن، يتبين لنا أن البوني كان مدركاً لمآلات الوضع الصعب¹⁰⁵⁷، الذي كان يعيشه العلماء والفقهاء. وتقاسم مع الفكون كثيراً من السمات البارزة لفقهاء الفترة العثمانية، منها ضعفهم العلمي وقلة تدينهم، وضعف أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإقبالهم على الدنيا وزخارفها. والسعي للتقرب من دار السلطان لنيل الخطوة والمكانة الرفيعة، في زمن كثرت فيه المشاغل التي صرفت العلماء، عن وجهتهم فضعفت الهمم وكثرت الهموم والأحزان كما عبر عن ذلك بعضهم¹⁰⁵⁸.

وقد تناول الرحالة المغربي "الجامعي" الحديث عن "البوني"، ووصفه بكثير من أوصاف الصلاح والفهم والإدراك، كما مر بنا الحديث عنه في الفصل الثاني، فتجلى لنا من خلاله صورة الفقيه الراغب

1056 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص66.

1057 - سعد بو فلاقة، "أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف" في مجلة التراث العربي، إصدار اتحاد الكتاب العرب، العدد 93 و 94، دمشق، سوريا، مارس أبريل 2004.

1058 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص74.

في إصلاح شؤون قومه وأمته، حيث قال فيه: "وكان لا يكتف العلم وينشره ويقدمه لكل طالب" ثم يقول "ولما أمت دار الشيخ الرباني أبي العباس أحمد بن القاسم وجدته طلق المحيا أنزلي بمنزل لإكرام أضيافه مهياً فأقمت عنده ينزهي في كل يوم في رياض تأليفه الحديثه وغيرها"¹⁰⁵⁹، فلم يكن البوني حبيس داره ولا منقطعاً عن الناس، بمختلف فئاتهم في سبيل الدعوة والتعليم.

المبحث الرابع: المادة الفقهية المتداولة في العهد العثماني

المطلب الأول: كتب الفقه

لم يكن النظام التعليمي متشابهاً في جميع أنحاء الإيالة فكل مدينة وقرية وحاضرة لها تقاليدھا وأعرافها ونظمها التعليمية الخاصة بها، فمنها ما كان يركز على تحفيظ القرآن الكريم وتدریس اللغة العربية وعلومها من نحو وصرف، ومنها ما كان يهتم بعلوم الحديث والكلام والفلسفة، واعتمد آخرون على تدریس التصوف ودراسة أحوال رجاله ومناقبتهم، ففي مدينة بجاية التي تعد مؤشراً في تناول العلوم والمعارف ونظم تدریسها فقد تنوعت بها الكتب والمراجع التي كانت تدرس للطلبة، ففي مجال التفسير نجد الكشف للزمخشري، وفي الحديث موطأ مالك وكتب الحديث الأخرى، أما في الفقه فقد كان يدرس الطلبة مدونة سحنون والواضحة لعبد المالك بن سعيد (238هـ) و التبصرة للّخمي (478هـ). ومختصر خليل بن إسحاق (776هـ)، وأما في اللغة العربية فنجد التركيز على ألفية بن مالك ومصنفات سيباويه و كتاب الأمالي للقيالي (356هـ) وكتاب الجمل للزجاجي، ونال طلبة التصوف حظاً وافراً من رسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي، وشرح الفصول للقراقي، في علم أصول الفقه¹⁰⁶⁰، وملاحظ ان هذه العلوم لا تدرس لذاتها بل تستغل كوسيلة لفهم واستيعاب العلوم الدينية المهمة¹⁰⁶¹

ويمكن حصر أهم كتب الفقه ومراجعته المستغلة عموماً في التدریس والفتوى والخطابة في العهد العثماني في:

1059 - ابن ميمون الراشدي ، المصدر السابق، ص 54

1060 - حفيظة بلميهوب، "مدرسة بجاية وإسهاماتها في خدمة الفقه المالكي"، الملتقى الخامس للمذهب المالكي، عين الدفلى، الجزائر، 2009، ص95.

1061 - مولاي بلحميسي، "المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 14-15 السنة الثالثة، الجزائر، 1973، ص73.

أولاً : المدونة الكبرى ألفها مالك بن أنس ت179هـ، وتعد من أمهات الفقه المالكي تناولها المغاربة شرحاً وتعليقاً مراراً، يقول عنها الفقيه الشريف التلمساني: " دخلت بجاية فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها وقد سمعت ان بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة وأما اللائي يحفظن ابن الحاجب فلا يحصى عددهن إلا الله" ¹⁰⁶².

ثانياً : رسالة ابن أبي زيد القيرواني تعد رسالة ابن أبي زيد القيرواني، "عمدة" الفقه المالكي والأكثر ذكراً في كتب التاريخ والتراجم، تناولها بالشرح والتعليق عدد كبير من الفقهاء منهم "داوود بن سليمان" 862 هـ و"زروق الفاسي" و"القليصادي" ¹⁰⁶³ وغيرهم ¹⁰⁶⁴.

ومن أكثر الشروحات للرسالة شرح "أحمد بن غنيم بن سالم النفزاوي" (المتوفى: 1126 هـ). في كتابه الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني .

ثالثاً: مختصر خليل بن إسحاق الجندي في الفقه ¹⁰⁶⁵ (ت 776 هـ) هو الشيخ ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المعروف بالجندي، فقيه مالكي ومحقق في الفقه وسائر العبادات على مذهب مالك، شهد له العلماء بالفضل والدقة وتلقاه الطلبة بالقبول نظراً لعدالة خليل واتباعه منهجاً قوياً في الحياة ما دفع كثيراً من الناس إلى اعتقاد الولاية والكرامة في شخصه واختلط عليهم خليل الفقيه بخليل الدرويش المتصوف ¹⁰⁶⁶ وقد قضى خليل نحو خمسة وعشرين سنة في جمع وتنقيح كتابه هذا، ليشكل في نهاية المطاف عمدة الفقه المالكي بلا منازع. سيطر على أغلب الدراسات المتعلقة بالفقه المالكي ¹⁰⁶⁷، على طول الفترات المتعاقبة.

1062 - الورتلاني، المصدر السابق، ص28.

1063 - هو أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالقليصادي (ت891هـ) عالم وفقه وأصولي أندلسي له تأليف عديدة في الحساب والفرائض والفقه، قدم إلى تلمسان استقر عند الشيخ محمد بن مرزوق، وقرأ عليه جمع غفير من الناس، من تأليفه "أشرف المسالك إلى مذهب مالك"، و"شرح مختصر خليل"، و"شرح الرسالة". وغيرها.. انظر ماحي قندوز، موسوعة تراجم علماء تلمسان أو درء النسيان عن علماء حاضرة تلمسان، منشورات جامعة تلمسان، الجزائر. منشور اليكتروني.

1064 - عمار جيدل، "أنماط التأليف في الفقه والأصول في الجزائر بين القرنين السابع والتاسع الهجريين" في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد 01، 2004.

1065 - عمار جيدل، المرجع نفسه.

1066 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 71

1067 - محمد بن ميمون، المصدر نفسه، ص67

وكغيرها من المؤلفات الفقهية الأساسية فقد قام مجموعة من الفقهاء بشرح مختصر خليل وتقديم شروح جديدة عليه وتعليق وحواشي مفيدة، إذ أن لكل بلد من بلدان المسلمين خصوصيات لا توجد في غيره من البلاد، منهم، "أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري" الشهير بـ"المواق" (المتوفى: 897 هـ). وكتابه "التاج والإكليل لمختصر خليل". ومحمد بن عبد الله الخرشي (المتوفى: 1101 هـ). حيث ألف "شرح مختصر خليل"، أما أبو زيد عبد الرحمن الاخضري¹⁰⁶⁸ (ت 983 هـ) فله "مختصر عبد الرحمن الاخضري" في فقه العبادات على مذهب الإمام مالك شرحه "عبد اللطيف بن المسبح"¹⁰⁶⁹.

وألّف "عبد الكريم المغيلي" مختصرا لشرح خليل، كما ألّف "مصطفى الرماصي" حاشية على شرح التتائي لمختصر خليل، وألّف فيه "محمد بن عبد الرحمن البيدري التلمساني: صاحب "ياقوتة الحواشي على شرح الإمام الخراشي سنة 1179"¹⁰⁷⁰. كما ألّف "سعيد قدورة" في مختصر خليل حاشية على شرح "اللقاني" ووضع حاشية له¹⁰⁷¹. وللفقيه التونسي "محمد بن أحمد عlish" التونسي (المتوفى: 1299 هـ). تأليفا صغيرا تحت عنوان "منح الجليل شرح مختصر خليل". كما للشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد المغربي، المعروف بالخطاب الرّعيني (المتوفى: 954 هـ). رسالة سماها "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل".

ونظم "خليفة بن حسن القماري" سنة 1192 كتابا في الفقه سماه جواهر الإكليل في نظم مختصر الشيخ خليل¹⁰⁷² تأسيسا بفقهاء عصره.

وكان أبو راس الناصري العلامة الجزائري يختم قراءة مختصر خليل ثمانية مرات في السنة، على طلبته إلقاء وشرحا¹⁰⁷³، لإدراكه مكانة هذا المؤلف وضرورته القصوى لطلبة العلم والفقه.

1068 - الفقيه المالكي عبد الرحمن بن محمد الصغير بن عامر الشهير بالأخضري 1514/1546م، فقيه ومحقق ولد ببسكرة وانتقل إلى قسنطينة تتلمذ عن عمر الوزان ثم هاجر لتونس من أشهر مؤلفاته: "مختصر العبادات في الفقه المالكي" المعروف بـ: "مختصر الاخضري". ومؤلفات أخرى في اللغة والفرائض والفقه والتصوف، حنفي هلابلي، "عبد الرحمن الاخضري رائد التصوف السلفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية" في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، العدد 07، نوفمبر 2006، ص 71-90.

1069 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 73

1070 - المصدر نفسه، ص 69

1071 - المصدر نفسه، ص 69

1072 - المصدر نفسه، ص 78

رابعاً : مختصر "ابن الحاجب" مؤلفه هو أبو عمرو عثمان بن عمر المصري المعروف بابن الحاجب، لأن والده كان حاجب الأمير "عز الدين موسك الصلاحي"، ولد بـ"إسنا" بصعيد مصر سنة (590هـ)، كان فقيهاً مالكياً جمع بين علوم شتى، مثل أصول الفقه واللغة العربية والقراءات، وكان ثقة حجة صبوراً على البلوى، أخذ عن "أبي الحسن الأبياري"، وقرأ على الإمام "الشاطبي" القراءات، وتلمذ على يديه، الشهاب القرافي، وابن المنير، وناصر الدين الأبياري، وله الكثير من المصنفات المفيدة منها: "الجامع بين الأمهات في الفقه"، و"الكافية في النحو"، و"مختصر المنتهى في أصول الفقه"، و"الأمالي في القراءات"، وغيرها، توفي بالإسكندرية في شوال سنة (646هـ)¹⁰⁷⁴.

ويعد "المختصر" من أهم كتب الفقه المالكي لخص فيه طرق أهل المغرب في كل باب وعدد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كتاب ابن الحاجب بمثابة البرنامج التعريفي للمذهب، عكف عليه الطلبة والفقهاء، خاصة في بجاية. وكان كبير شيوخهم "أبو علي ناصر الدين الزواوي" هو أول من جلبه إلى المغرب الإسلامي فنشره في بجاية، ثم إلى بقية الأوطان خلال القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية. قال الحجوي: "إن ناصر الدين المشدالي هو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهي للمغاربة ورغبهم فيه"¹⁰⁷⁵.

وتداول الفقهاء كذلك العتبية وهي المستخرجة جمعها "محمد بن عتب الأندلسي" وأخذها عن "سحنون" وكان شيوخ المذهب المالكي يرون فيها ضعفاً فأتى "ابن رشد" فشرحها وتكفل بصحتها فأصبحت معتمدة عند أهل الأندلس. وكذلك الواضحة التي ألفها "عبد المالك بن حبيب الأندلسي" سمعاً من "عبد المالك بن الماجشون"، وأما الموازية فقد ألفها "محمد بن إبراهيم" المعروف بـ"ابن المواز المصري" تفقه على يد ابن الماجشون وابن عبد الحكم.

ومن التآليف المتداولة نجد المصنفات والكتب الكاملة في الفقه عامة أو في بعض مسائله، والأراجيز¹⁰⁷⁶ والنظم، مثل القواعد الفقهية للمقري التلمساني (ت759هـ)، واللباب في مناظرة القباب

1073- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، سلسلة الدراسات الكبرى، الجزائر، 1984، ص251.

1074 - بن مخلوف، شجرة النور الزكية، المرجع السابق، ص 168.

1075 - عمار جيدل، المرجع السابق، ص177.

1076 - الأراجيز جمع مفردة أرجوزة وهي والأرجوزة هي القصيدة من بحر الرجز، وفي معجم اللغة العربية المعاصر، أرجوزة جمع أراجيز وأرجوزات وهي قصيدة من بحر الرجز "كان العرب يُشدونها في حذاء الإبل" وتتميز الأرجوزة بخفة تراكيبها ووضوح معانيها وخلوها من العبارات الثقيلة ليسهل حفظها وتداولها.

لسعيد العقباني¹⁰⁷⁷ (840هـ) وغيرها. بالإضافة إلى الكتب المصنفة والمستخرجة فإن هناك "الشروح" و"الحواشي" و"الملخصات العامة" مثل الشروح والتقييدات على الفرائض، مثل شرح التلمسانية في الفرائض لـ"ابن زاغو احمد بن محمد" (ت845هـ) وغيره¹⁰⁷⁸.

وزخرت المدرسة الاباضية هي الأخرى بعدة تأليف فقهية لعل أهمها على الإطلاق كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ عبد العزيز الثميني، وهو مؤلف يشبه "معيان الونشريسي" ولكن في الفقه الإباضي، وكان من دواعي تأليفه انتشار البدع في المجتمع والفساد والعصبية، وكانت ظروف تأليفه صعبة للغاية، قال الثميني يصف الظروف التي كتب فيها "النيل": "اختلست لجمعه من أثناء الأيام فرصا مع ما أكابد وأتجرع من الزمان غصصا في أيام دهش وتموج فتن على عجل وتتابع محن"¹⁰⁷⁹. وقد تحدثنا عن بعض مآسي الرجل في الفصل الثاني من هذا البحث يرجع إليها.

أما الفقه الحنفي فلم يزخر بنفس الأهمية التي كانت للفقه المالكي ومرد ذلك لقلة معتقلي المذهب في الجزائر، وكون فقهاءه يأتون من القسطنطينية ثم يعودون إليها، فلم تكن الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية تسمح ببروز اجتهاد مكتوب يستفيد منه المنتسبون للمذهب¹⁰⁸⁰.

المطلب الثاني: المنتجات الفقهية والدينية ومكانتها

من أبرز ما تميز به المغرب الإسلامي ورود النوازل الفقهية، وقد ضمت هذه المؤلفات الثمينة بين صفحاتها عدة جوانب من الحياة بمختلف شؤونها، أما من حيث الشكل فقد قام مؤلفوها بترتيب أبواب الفقه في هذه النوازل بصورة تيسر عمل الفقهاء والمفتين، فتذكر المسائل التي تتعلق بالعقائد ثم العبادات والعادات والمعاملات والأسرة والمجتمع والبيوع وغيرها وخير مثال على ذلك فتاوي البرزلي¹⁰⁸¹ وفتاوي الونشريسي.

1077 - عمار جيدل، المرجع السابق، ص179.

1078 - عمار جيدل، المرجع نفسه، ص178.

1079 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص76.

1080 - محمد بن ميمون، المصدر نفسه، ص79.

1081 - يسمى الكتاب: "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام" ويسمى بفتاوى البرزلي. وقد ذكر في مقدمته أنه قصد فيه إلى جمع أسئلة اختصرها من نوازل ابن رشد، وابن الحاج، والحاوي لابن عبد النور، وأسئلة عز الدين، وغيرهم من فتاوى المتأخرين من أئمة المالكيين من المغاربة والإفريقيين، ممن أدركهم، وأخذ عنهم، أو عن غيرهم، ممن نقلوا عنهم، وغير ذلك مما اختاره هو أو بعض مشايخه.

فالبرزلي هو أبو القاسم ابن أحمد البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي (ت841هـ). صاحب إحدى أكبر الموسوعات الفقهية، تعددت موارده، واتسعت مادته، وظل نوازل البرزلي من المصادر المعتمدة للكثير من كتب الفقه والفتاوى المعاصرة له أو تلك التي جاءت بعده.

أما أحمد بن يحيى الونشريسي الجزائري أصلاً، والفاسي داراً ووفاة (ت914هـ). فله كتاب "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" جمع فيه الكثير من نصوص وفتاوى الأندلسيين والمغاربة، واحتفظ ببعض ما ضاع منها، ورتبه على أبواب الفقه الكلاسيكية، ونقل فيه بعض الرسائل التي ألقت إجابة عن أسئلة متنوعة المواضيع، منها رسالته لأهل الأندلس يدعوهم فيها للهجرة¹⁰⁸².

واشتهر بنوازله كذلك "يحيى المازوني" بن موسى المغيلي (ت883هـ) السابق ذكره في الفصل الأول من هذا البحث، والمعنونة بـ"الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، حيث جمع فيها نوازل بلاد المغرب الإسلامي التي أجاب عنها علماء تونس، وبجاية والجزائر وتلمسان، وتضم هذه النوازل العشرات من الصور الفكرية والقضايا الفقهية والانشغالات الدينية التي كانت تحكم مجتمع المغرب الإسلامي خاصة منه المغرب الأوسط في القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلاديين¹⁰⁸³.

وهناك صنف آخر من النوازل جمعت أجوبة فقهاء ينتسبون إلى منطقة واحدة، أو إلى مدينة واحدة، فمن تلك التي جمعت فتاوى شيوخ منطقة واحدة قبل العهد العثماني، فتاوي "ابن سهل الأسدي الغرناطي" (ت486هـ)، المعروف بـ"الإعلام بنوازل الأحكام"، جمع كثيرا من النوازل الأندلسية، وقد تكون النوازل أحيانا مجموعة أسئلة وجهت لفقيه واحد فأجاب عنها، مثل نوازل "ابن رشد الجد"¹⁰⁸⁴ 520هـ، وفتاوى القاضي "عياض" (ت544هـ) وابنه محمد وتحمل عنوان "مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام"¹⁰⁸⁵.

1082 - شكلت نوازل الونشريسي موضوع دراسة استفاد منها العشرات من الباحثين في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الإسلامي خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

1083 - بركات إسماعيل، المرجع السابق، ص 21.

1084 - الإمام أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي، (ت520هـ) شيخ المالكية وقاضي الجماعة بقرطبة، تتلمذ على يد "أبي جعفر بن رزق"، عمدة في الفقه ومرجع لا يستغنى عنه، قال فيه "بن بشكوال" في الصلة "كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره عارفا بالفتوى بصيرا بأقوال أئمة المالكية نافذا في علم الفرائض والأصول من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوفار..." من أهم تصانيفه كتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل".

1085 - هذه النسخة من تحقيق محمد بن شريفة، نشر دار الغرب الإسلامي، سنة 1997 م

وأما الصنف الأخير فهي النوازل التي يؤلفها الفقيه ليجيب في قضية واحدة في العبادات، والمعاملات، وكان بعضها: ما يتعلق بالسياسة الشرعية، ويزخر العهد العثماني في الجزائر بفتاوى عديدة منها فتوى الشيخ "عبد القادر المشرفي" في حكم القبائل المتعاونة مع الإسبان، وفتوى الشيخ "بوشقرون الوهراني" الذي أجاب فيها عن مسألة إيمان المقلد وتكفير العوام، وفتوى "محمد بن عبد الكريم المغيلي" في يهود توات، وأجوبة "التسولي" للأمير عبد القادر الجزائري في مسألة تعاون بعض القبائل الجزائرية مع الاستعمار الفرنسي¹⁰⁸⁶.

وقد ترك العلماء والفقهاء المسلمون عشرات الآلاف من الكتب والمصنفات التي تحمل هموم الناس في تلك الحقب وتجب عن جملة القضايا والمشاكل التي واجهتهم، كما تمكنا من دراسة المجتمع الإسلامي بدقائقه وتفصيلاته فتعرف على وضعية المرأة وعلاقتها بالرجل وبيئة الإنسان ومجال تحركه ونشاطاته اليومية، من لبس ومأكل وشغل وعلاقات اجتماعية وثقافية واقتصادية¹⁰⁸⁷.

وتعد كتب النوازل مصدراً أساسياً لكتابة التاريخ في مختلف المجالات، فالنازلة تصور لنا ظروفًا سياسية واجتماعية واقتصادية خاصة لا يحيط بها المؤرخ في كثير من الأحيان¹⁰⁸⁸، وتمثل هذه النوازل¹⁰⁸⁹ في العهد العثماني كما في غيره من أهم المؤلفات التي خلفها الفقهاء لما لها من أهمية كبيرة، فهي مفيدة جدا في دراسة الأوضاع الاجتماعية والثقافية للسكان في أي جهة من جهات الإيالة.

ويلجأ الباحثون والمؤرخون لكتب الفقه والأحكام والنوازل، التي لا يمكن تجاهل إسهاماتها في إثراء المعرفة التاريخية،¹⁰⁹⁰ لارتباط البحث التاريخي بالتغيرات التي تحدث على مستوى المناهج

1086 - أغلب هذه الفتاوى مدروسة في هذه الرسالة يرجى الرجوع إليها للمزيد من الفهم والاستيعاب.

1087 - منير وريس، المرجع السابق، ص ص 151-175.

1088 - مبارك جزاء الحربي، جهود فقهاء المالكية المغاربة في تدوين النوازل الفقهية، كلية الشريعة، جامعة الكويت، مقال اليكتروني.

1089 - النوازل جمع مفردة نازلة وهي الحادثة الطارئة أو المصيبة التي تنزل على الفرد أو الأمة.

1090 - بوية مجاني، "كتب النوازل والأحكام مصدرا للتاريخ الاجتماعي"، أعمال ملتقى دولي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 147.

والأحداث، كما تعطينا الفتاوى صورة واضحة عن المجتمع في العصر المدروس من حيث نظام الحكم والإدارة والتعليم والقضاء والحياة الاقتصادية ومكانة العلماء والأسرة والعلاقات الأسرية¹⁰⁹¹.

وتفيد النوازل كذلك في تقييد الكثير من الأحداث وتتبع مسار التاريخ الاجتماعي للشعوب الإسلامية، بصدق وموضوعية لأن النوازل ألصق بحياة الناس الاجتماعية ومرآة عاكسة لقضاياهم وشاملة لكل أصنافهم وفتاتهم في السلم الاجتماعي والديني، من فقهاء وعلماء وعامة وحرفيين وتجار ومتنبئين وزنادقة وسحرة، كما تتبع النوازل حركة الأفكار الدينية والمذاهب والفرق الإسلامية التي ظهرت خلال التاريخ وأخبار التصوف والمتصوفة وكراماتهم ونبوءاتهم¹⁰⁹².

ومن خلال اطلاعنا على بعض النوازل يتبين لنا "طائفة القضايا" التي عالجتها، مثل نازلة "المسنون في أحكام الطاعون" لـ"ابن قنفذ" (ت810هـ)¹⁰⁹³، و"تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد" لنفس المؤلف، ومن خلال النازلتين يتبين لنا وجود نقاش وجدال كبير، هذا بالفقهاء للتأليف فيه ويتعلق بمقومات الأسرة ومركزاتها الأساسية وأسس قيامها، ويبدو أن الفقيه "ابن مرزوق الحفيد"¹⁰⁹⁴ (ت842هـ) قد رد على ابن قنفذ بورقة بحثية أخرى سماها "إسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم". ولهذا الأخير أيضا نازلة جديدة سماها "الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم"¹⁰⁹⁵.

وبعض النوازل تتحدث عن الظروف الاجتماعية السيئة وزوال الأمن وانتشار الفوضى خاصة في الجهات الداخلية من المغرب الإسلامي، مثلما ورد في نوازل "المازوني" و"الونشريسي" و"البرزلي"،

1091 - محمود عباس حمودة، الوثائق العثمانية في تركيا ومصر ودول شمال إفريقيا /زواج طلاق بيع ايجار استبدال/، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999. ص23

1092 - أحمد السعيد، "النوازل الفقهية والعلوم الإنسانية علم التاريخ مثالا" في دورية كان التاريخية، العدد السادس، 2009 ص17-20.

1093 - ابن قنفذ أحمد بن حسن بن علي أبو العباس الشهير بابن الخطيب، فقيه وباحث ومحقق اهتم بالتراجم والتاريخ والفلك، ولد بقسنطينة وتعلم بها ثم رحل للمغرب، وأخذ من فقهاء فاس ومراكش، وتولى قضاء "دكالة" سنة (729هـ) وعمره 29 سنة، ثم عاد إلى قسنطينة وتولى بها عدة وظائف من الخطابة إلى القضاء إلى الفتوى، اشتهر بالتأليف خاصة في الطبقات والعلماء وفي الفلك والعقائد والحساب، من أشهر مؤلفاته التي زادت عن سبعين كتابا "الوفيات" و"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" و"تسهيل المطالب في تعديل الكواكب"، انظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص268.

1094 - ابن مرزوق فقيه وأصولي ومحقق مالكي نشأ في تلمسان ودرس بها وتعلم على يد ثلة من الشيوخ منهم أبو القاسم العقباني.

1095 - من خلال العنوان نستنتج أن النقاش كان قائما حول مشروعية استعمال "الورق الرومي" في الكتابة.

وما أورده الفقيه "أبو الفضل راشد الوليدي" (ت 675 هـ / 1276م)، من قبل في إحدى نوازله معبرا عما يرى "فيما ينزل به من القبائل من العصبية والفتنة على حطام الدنيا"، حيث نتلمس من خلالها ضعف البنية التركيبية للمجتمع المغربي، ونقف عند عدة ظواهر سلبية منها تهاوي التدين ونمو العصبية، التي غالبا ما تتسبب في اشتعال الحروب وأعمال الغارات على الناس والقبائل الآمنة أو الضعيفة، والسبي والقتل وما يليها، وفي هذا المضمار نجد أن الفقيه "أبو العباس أحمد" المعروف بالمريض يتوجه في رسالة إلى ابن عرفة (ت 803 هـ / 1401م) يستفتيه في شأن قبائل "بني هلال" بالمغرب الأوسط "ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق... هذا دأب سلفهم وخلفهم". وتبين هذه النوازل أن هذا الصنف المتمرد من القبائل قد أرهق الفقهاء والنخب الدينية مثلما أرهق العامة بأفعاله القائمة على السطو والسرقة، فتراوحت مواقف العلماء في التعامل معه بين التشدد مثل ابن عرفة (ت. 803 هـ / 1401 م) والبرزلي، واللين مثل ابن رشد ت. 520 هـ / 1126م. على أن هذه المواقف يغلب عليها الجانب النظري، لأن المعمول به أن أهالي المدن كانوا يتعاملون مع هذه القبائل ويتبادلون معها تجارياً معتبرين ذلك أمراً عادياً¹⁰⁹⁶، وقد لخص ابن خلدون هذه الظاهرة في عبارته المشهورة هي أن هذه القبائل "رزقهم في ظلال رماحهم".

وانطلاقاً من كتب الفقه والنوازل يمكننا أن نستنتج جملة من الأنشطة التي كانت سائدة في البلاد خاصة ما يتعلق بمورد عيش القبائل، الذي نجده يقوم إما على الأنشطة الفلاحية سواء كانت زراعية أو رعوية، وإما على الإغارة على القبائل المجاورة والمدن القريبة منها.

ويجدر بالباحث في ميدان العلوم الاجتماعية الإحاطة بالفترة المراد دراستها وتبسيط شيء من الضوء على الفترات السابقة لها لتأثيرها بها، وتوسيع دائرة البحث لتشمل أقاليم مجاورة للعينة فالمغرب الأوسط أو "إيالة الجزائر" تتصل به جغرافياً وتؤثر فيه "إيالة تونس" و"مملكة المغرب"، فحرية انتقال الأفكار والفتاوى والنوازل وتأثيرها في الأقاليم المجاورة كان فعالاً وكبيراً.

فالدارس من خلال هذه النوازل يجد أن أمراض العصر كانت عامة سواء تعلق الأمر بضعف المجتمعات الإسلامية في هذا النطاق أو ذاك، أو إعراض بعضها عن الدين وأخذه دون وعي وتفقه، وشيوع السلوكيات السيئة وقلة التمسك بالشريعة للجهل وصعوبة المعيشة، وسواد أعمال النهب

والبغي والظلم الواقع بين الرعية نفسها أو بين الرعية ومن يراها، كما أن هناك كثيرا من النوازل التي دامت فترة طويلة واجتهد الفقهاء في البحث في موضوعها في "القاهرة" و"فاس" و"تونس" و"قسنطينة" و"الجزائر" ذكر بعضها الفكون في نوازلها، والهدف من تنويع الإجابات تحصين الفقيه حتى لا يتعرض للطعن والانتقادات¹⁰⁹⁷، أو قد يكون السبب عدم الاطلاع والإلمام بموضوع الفتوى كما ذكرنا آنفا.

وبالرغم من اتسام الفترة المدروسة (1520-1830) بالجفاف الفكري والركود العلمي، فقد حرص جل فقهاء الإيالة على العمل والأخذ من المؤلفات المشهورة في ميدان الفقه ك"مختصر خليل" و"مختصر ابن الحاجب" و"الرسالة"، بينما حاول فقهاء آخرون تكسير هذا الجمود، ونشطوا في ميدان التأليف والعمل على الاجتهاد في استنباط الأحكام القضائية، وشرح الأصول القضائية، ومن أمثلة هؤلاء "سيدي أبو العباس أحمد الغربي" الذي ذكره "الفكون" في منشور الهداية، وأصله من "ميلة" ألف شرحا لرسالة الخليفة "عمر بن الخطاب" في القضاء، حيث يذكر الفكون أن "أحمد الغربي" شرحها شرحا لم يسبقه إليه مثله، ضمّنه جملة من الأحكام التي قلّ أن توجد في مثله، سماها "فتح الملك الوهاب بشرح رسالة عمر بن الخطاب" استنبط منها العديد من الأحكام والمسائل التاريخية والعقدية والمعاني الصوفية والطرائف والأخبار¹⁰⁹⁸. وعمل فقهاء آخرون¹⁰⁹⁹ على عدم الاكتفاء بالعمل بالمذهب الفقهي الواحد ك"الفكون" و"أحمد المقرئ" و"يحيى الشاوي" و"أحمد بن عمار" و"عبد القادر الراشدي" و"ابن العنابي"¹¹⁰⁰.

وكان بعضهم حريصا على طلب الجديد في العلوم والمعرفة الدينية وما بلغه الفقهاء في الأمصار المجاورة، حيث يتحينون زمن مرور ركب الحج فيخرجون للقائه كما يقول ابن ميمون "وكان عادة علماء البلد الخروج لركب الحج لملاقاة علماء الأمصار الأخرى"¹¹⁰¹ فيقع الجلوس عندهم وتبادل النقاش والأفكار حول الفتاوى والمصنفات الجديدة في أغلب ضروب العلم والفقه¹¹⁰².

1097 - قشي فاطمة، "الحياة الفكرية في قسنطينة..."، المقال السابق، ص333.

1098- الفكون، المصدر السابق، ص40.

1099 - ذكرنا أغلبهم في الفصل الثاني من هذه المذكرة.

1100 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص144.

1101 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص78

1102 - كان التواصل الثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني بين دول المغرب الإسلامي شائعا، فهناك الكثير من الفقهاء ممن قدم إلى الجزائر من تونس والمغرب والعكس، مما يوحي بوجود تقارب ثقافي بين هذه الدول، ووجود تسهيلات سياسية بينها، ومن

الفصل الرابع

موقف السلطة الحاكمة من الفقهاء

المبحث الأول: الوجود التركي في الجزائر

المطلب الأول: طبيعة الحكم التركي

المطلب الثاني: السلطة الحاكمة

المطلب الثالث: السلطة السياسية بين الانتخاب والتوريث

المطلب الرابع: بين السلطة السياسية والسلطة الدينية

المطلب الخامس: "الباشا" هرم السلطة الحاكمة

المبحث الثاني: حكام الايالة.

المطلب الأول: حكام المركز

المطلب الثاني: حكام الأطراف

المبحث الثالث: السلطة الحاكمة والفقهاء

المطلب الأول: نظرة السلطة للفقهاء

المطلب الثاني: معايير اختيار الفقهاء

المبحث الرابع: مظاهر العلاقة بين السلطة والفقهاء

المطلب الأول: نماذج الانسجام والتعاون.

المطلب الثاني: نماذج التوتر والنفور.

المبحث الخامس: آثار وانعكاسات النفور بين السلطة والفقهاء

هؤلاء العلماء الذين لعبوا أدوارا في التواصل الثقافي بين بلدان المغرب الإسلامي نجد الشيخ "سعيد قدورة" (تمت ترجمته)، والشيخ "علي الأنصاري" الفقيه المتصوف (ت1648م) والذي كان على صلة وثيقة بيوسف باشا(1647 إلى 1650) حاكم البلاد، ومنهم كذلك الشيخ "محمد بن علي الخروبي" الذي بالإضافة إلى مساهماته العلمية المتنوعة أرسلته السلطة في سفارة إلى المغرب للتفاوض بشأن الحدود بين البلدين سنة 1552م، وغيرهم ... انظر: نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص190 .

المطلب الأول: هجرة الفقهاء.

المطلب الثاني: اضطراب الأوضاع الداخلية.

المبحث الأول: الوجود التركي في الجزائر

المطلب الأول: طبيعة الحكم التركي

بعد الحديث عن الفقهاء ووضعتهم ودورهم الديني والسياسي، أتناول في هذا الفصل موقف السلطة الحاكمة من الفقهاء من مختلف المذاهب والوظائف التي مارسوها، وقبل الحديث في الموضوع كان لابد من إلقاء نظرة عن السلطة الحاكمة في الجزائر خلال العهد العثماني من حيث نشأتها وطبيعة الحكم التركي وفلسفة الدولة التي تأسست وجهاز الحكم المركزي والحكام في الأطراف، محاولا أن أقدم صورة تقريبية عن هذه السلطات وظروف قيامها وتبوءها سدة الحكم ونظرتها للعلم والثقافة بصورة عامة. وقد أوردت مجموع من الآراء للكتاب الغربيين والمحليين في هذا الموضوع لإثراء هذا المبحث.

وما يزال بداية الحكم التركي في الجزائر مختلفا فيه على حد قول الباحث التونسي "عبد الجليل التميمي" في المجلة التاريخية المغربية، وحبسنا لمقاربات تاريخية متباينة بين الكتاب والمؤرخين الذين تزامن وجودهم مع بدايات الحكم العثماني للجزائر وبين من جاء بعدهم¹¹⁰³.

وتندرج رؤية كثير من الرحالة الغربيين فيما يتعلق بالنظام السياسي القائم في الجزائر على أنه نظام ملكي استمد شرعيته من الإبقاء على حالة الجهاد مع النصارى لحماية المسلمين وتحقيق العدالة وتوسيعها¹¹⁰⁴، أو أنه جمهورية عسكرية بحكم سيطرة الجيش الانكشاري على دواليب السلطة¹¹⁰⁵.

وقد وصف كتاب أوروبيون ما وقع من إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية بالمغامرة التي قام بها "حفنة" من المغامرين الأتراك، حين انتصرت على شعوب مسالمة، ونجحت بالعنف في إرساء نظام حكومي قائم في الجزائر وتونس وطرابلس¹¹⁰⁶.

1103 - عبد الجليل التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519" في المجلة التاريخية

المغربية، العدد 05، تونس 1976 ص 99.

1104 - houari touati, op.cit., p 115

1105 - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 41

ومهما حاولنا الفصل في زاوية الرؤيا لهذه الحقبة التاريخية فسنظل حبيسي المقاربات الكلاسيكية، في وقت تعجز فيه الدراسات الحديثة على تقديم صورة جديدة مغايرة للسابق، بسبب غياب وثائق واضحة وتباين الرؤى في تحليل ودراسة تاريخ المنطقة.

ونعتقد أن ما كتبه الغربيون لم يتم فرزه وتقييمه لحد الآن بسبب تصنيفه ضمن كتابات المدرسة الاستعمارية، والحقيقة تؤكد أن كثيرا ممن ينتمون لهذه المدرسة قدموا حقائق جلية تتعلق بموضوع الإشكالية، وفي هذا الصدد يجدر التنويه بما كتبه أحد المؤرخين الفرنسيين يدعى "أميدي ديجوبار"¹¹⁰⁷ في أثناء حديثه عن الحكم التركي في الجزائر مقيما مقارنة بينه وبين الاستعمار الفرنسي، فيقول: "كانت الإدارة التركية حقيقة مقلقة للعرب ووسائلها كانت عنيفة لكنها لا تستحق الأوصاف التي وصفت بها لأنها استطاعت أن تبقى في الجزائر طويلا، بثمانية آلاف جندي بين نحن - الفرنسيون - لم نستطع بخمسين ألف جندي السيطرة عليها رغم أننا أنفقنا ما يزيد عن خمسين مليون فرنك"¹¹⁰⁸

ثم يضيف هذا الكاتب بقوله "في ثمانية سنوات تسببنا في مقتل الجزائريين ثلاثة أضعاف عدد جنود الانكشارية الموجودين في الجزائر، لماذا نقوم بكل هذا السوء أكثر من الأتراك يا ترى؟ لأن هدفنا يختلف عن هدفهم"¹¹⁰⁹.

لقد كان همّ الأتراك الوحيد - كما يردف هذا الكاتب - هو كيفية حكم البلاد وإدارتها واستثمار مقدراتها وسكانها ولم يكن في نواياهم استعمار البلاد بل كان همهم الوحيد تحقيق الاستقرار الداخلي، ولم يلغوا الهوية العربية للأهالي، بل تركوا لهم التصرف في قطاعات شاسعة من البلاد. وإذا فرض الأتراك ضريبة على الأهالي فلم يكن هؤلاء يخشون شيئا على ممتلكاتهم من الضياع والسلب¹¹¹⁰.

1106 - Pananti Filippo, **relation d'un séjour à Alger**, le normant, Paris, 1820.p365.

1107 - كان قائدا عسكريا و مترجما ضمن الحملة الفرنسية على مصر .

1108 - Desjobert, Amédée. **l'Algérie en 1838**, librairie de du fart Paris .1838,p33

1109 - Desjobert, Amédée. **Opcit**, p33

1110 - **Ibid.** , p33

ثم يردف الكاتب : "وفي كلمة واحدة لم تدعم الحكومة التركية وجودها في الجزائر بالكولون التركي، ولم يعلنوا كما فعل الفرنسيون الاحتلال المباشر للبلاد بل ترك الأهالي ينتفعون بأراضيهم وممتلكاتهم. ولم يستدعي الأتراك كما فعل الفرنسيون مشردي آسيا لاحتلال الجزائر"¹¹¹¹.

"لقد فهم الأتراك قوة الأفكار المتعلقة بالملكية ولم يضعوا أنفسهم ضد هذه الأفكار التي تقوم عليها حياة الأفراد والأمم إنما نحن الفرنسيون لم نفهم ما فهمه الأتراك من قبل"¹¹¹².

وعلى النقيض من ذلك تأتي رؤية شارل أندري جوليان زعيم المؤرخين الفرنسيين التي استقاها من "غوتي" و"بوسكي" و"سيلفيستر دوساسي" Silvestre de Sacy و"جوني فرعون" Joanny Pharaon و"لويس بريسي" Louis Bresnier وغيرهم، ممن رسموا صورة قاسية للفترة العثمانية، تصف علاقة الجزائر بالثقافة العربية والإسلامية خلال فترة الحكم العثماني على أنها علاقة المعتدي بالمعتدى عليه¹¹¹³.

ويعتبر جوليان الذي ينطلق من مقاربات تاريخية ذاتية أن الخلافة الإسلامية التركية أو العثمانية، تمثل عائقا في وجه الوحدة الوطنية الجزائرية، تلك الوحدة التي يراها سعد الله قد تحققت بجميع مضامينها السياسية والجغرافية منذ القرن السابع الميلادي¹¹¹⁴.

وينقل "أبو القاسم سعد الله" عن "أندري جوليان" أن الدولة الجزائرية خلال فترة (1516م- 1830م) لم تكن قائمة إلا بالاسم فقط¹¹¹⁵، فيما يعتبر سعد الله أن الدولة الجزائرية كانت تقوم على وحدة جغرافية وسياسية واقتصادية ووحدة فكرية وروحية منذ الفتح الإسلامي، كما كانت هذه الدولة مؤيدة من طرف أغلب سكان الجزائر¹¹¹⁶.

ولم يعمل الأتراك في إطار الخلافة العثمانية في الجزائر لمصلحة دولة أجنبية كبيرة ترعى مصالحها في الدولة المستعمرة مثلما يزعم أصحاب النظرية الاستعمارية¹¹¹⁷، يضيف سعد الله لتباين الفهوم

- Ibid, p33 1111

- ibid, p33 1112

1113 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء.. المرجع السابق، ص64.

1114 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص64.

1115 - المرجع نفسه، ص64.

1116 - المرجع نفسه، ص64.

1117 - سعى مؤيدو هذا التوجه إلى تقديم تفسيرات للتاريخ المحلي تتناسب والرؤية الجديدة التي تطرحها الإدارة الفرنسية، التي استعانت بمحافل من المؤرخين والمثقفين وأسسوا جمعيات ولجان تاريخية أهمها على الإطلاق الجمعية التاريخية الجزائرية التي أصدرت

المتعلقة بالدولة والخلافة كمصطلح تراثي وحدائي بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي مما يستلزم بقاء قراءة التاريخ الجزائري وسلسلة التغييرات التاريخية التي حدثت فيه موضع خلاف جذري بين مختلف المدارس.

ويمثل قزافيي ياكونو Yacono Xavier نموذجاً بارزاً للمدرسة الغربية إذ يقر أن رفض الفرنسيين فكرة تقليد الأتراك في إدارة شؤون البلاد، إنما لكون النظام التركي كان يقوم على "خداع الأهالي وإذلالهم"، فالدايات يقومون بتقاسم الضرائب مع البايات، وهؤلاء يأخذونها من شيوخ القبائل بالقوة والحديد والنار على حد تعبيره. إن البلاد شعبها جاهل وغير مثقف، يقيم في "برابريا" barbarie التي تلفها سحب قاتمة، فلا القوة ولا الحيلة هي التي يجب على الفرنسيين استعمالها، ولكن إذا حالقنا الحظ في أن نجعل العرب يقتربون من ثقافتنا وحضارتنا وبطرق "نظيفة"، فإننا نعمل على القضاء على النظام الضار الذي يعطي لشيخ القبيلة حق استغلال قبيلته حتى إفنائها، يجب القضاء على طرق "الإدارة التركية" التي لا تقيم وزناً لمستقبل الأهالي ولا تعترف إلا بالواقع الراهن والمصلحة الثابتة لها¹¹¹⁸.

ويرى الحاج الشريف الزهار في مذكراته أن الأتراك لم يكونوا مستعمرين فلم يحتلوا أرضاً لأن جيشهم لم يكن ذا عدد يمكنهم أصلاً من احتلال البلاد، فبسكرة كان بها 63 تركيا، وبجاية 44 تركيا، ومعسكر 42، وغيرها من المدن والحاميات لكنهم صنعوا بهذه الأعداد القليلة الولاء لهم¹¹¹⁹. ويقول حمدان خوجة النخبوي الجزائري المخضرم في المرأة، مقارناً بين الحكم التركي والحكم الفرنسي، إنه "يستحسن الحكم التركي مع اعترافه بمواطن الضعف والغلطات التي ارتكبت في عهد

المجلة الإفريقية سنة 1856 وكان الرئيس الشرفي للمجلة في بداية عملها الحاكم العام للجزائر، وعين السيد ألبرتيني مستشاراً ومسئولاً عن الجوانب التاريخية القديمة، وكان من أعضائها البارزين م. كاركوينو أستاذ الآداب بجامعة باريس، ومارسي مدير متحف التاريخ القديم وأستاذ الآداب جامعة الجزائر، وبول أليازارد محافظ متحف الفنون الجميلة بالجزائر وغيرهم، ودرس الباحثون الرواد الأوائل اللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ المحلي دراسة وافية لإدراكهم أن الوصول إلى المصادر المحلية يقتضي تعلم اللغة العربية واللهجات المحلية فأقبلوا عليها دراسة وبحثاً وتمحيصاً وقد لعبت الترجمة دوراً حافلاً في طريق تحقيق الأهداف السابقة الذكر و كان هؤلاء الرواد تلاميذ أغرقوا الحياة التاريخية والبحثية والأكاديمية بعشرات البحوث والدراسات التي صبت في مجملها في ما يعرف بالدراسات الاستشرافية.

1118 - Yacono Xavier. "La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834". In: R.O.M.M, N°1, 1966. pp. 229-244.

1119 - توفيق المدني مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1754-1830 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974، ص 08.

الدايات خاصة، وسبب ذلك مخالفتهم للنظم المقررة، مع المظالم التي كان الجيش يرتكبها باحتقار السكان وإرهاقهم بالمغارم وتسخيرهم في الأعمال الشاقة"¹¹²⁰.

ويعترف حمدان خوجة بأهمية الوجود التركي وضرورته في تحقيق الوحدة والعدالة في المنطقة حينما ينقل في مرآته تصريحاً لأحد قادة الأتراك في الجزائر قوله: "إننا لم نخضع هذا الوطن بحد السيف وإنما أصبحنا سادة بالعدل والإحسان"¹¹²¹ وتحمل دعوة حمدان خوجة مضامين منهجية وعلمية، ودعوة لدراسة موضوعية للتاريخ، بعيداً عن الأحكام المسبقة.

وفي نفس الاتجاه علق المهدي البوعبدلي الباحث الجزائري على "الحكم التركي للجزائر" لدى تحقيقه كتاب الثغر الجماني أن هناك جملة من المسلمات ينبغي الاتفاق حولها:

(1) أن العثمانيين مسلمون جاءوا بغرض الحماية من هجمات الصليبيين.

(2) أن نشاطهم أفرز استقراراً وأمناً للبلاد وحدودها.

(3) اختلاف حكمهم وإقامة العدل كان باختلاف الأحوال والحكام¹¹²².

ومن المؤكد أن الوجود العثماني في الجزائر وتونس أنقذاهما مبكراً من الاحتلال الأوروبي خاصة إسبانيا التي تزعمت الكاثوليكية في العالم المسيحي وكانت عازمة على إخضاع شمال إفريقيا كله لسلطانها وقد تمكنت من تأسيس قاعدة لها في المنطقة بعد احتلال وهران¹¹²³ كما مر بنا في الفصل التمهيدي.

ويرى "عبد الله العروي" أن مكانة الأتراك في المغرب الأوسط بدأت تتراجع بعد استرجاع وهران سنة 1792¹¹²⁴، وهو ما يدفعنا للتساؤل هل كان الوجود التركي ظرفياً بالمنطقة، ومرتباً بالتهديد الإسباني لها؟ وبالتالي لا يمكن الحديث عن مشروع سياسي متكامل، أم أن الظروف المحلية والدولية كانت أقوى مما خطط له الأتراك من إقامة خلافة إسلامية مترامية الأطراف...

وفي المقابل يرى كتاب آخرون أن الوجود العثماني كان يعتمد من جهة على شيوخ القبائل الجزائرية السياسيين والدينيين ومن جهة ثانية، كان يعتمد على فكرة الجامعة الإسلامية والأخوة الدينية

1120 - المهدي البوعبدلي، أضواء على تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 53 .

1121 - حمدان خوجة، المرجع السابق ص 106 .

1122 - ابن سحنون الراشدي، مقدمة الثغر الجماني، المرجع السابق، ص 53 .

1123 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، 005.

1124 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المرجع السابق، ص 369.

والعاطفة، التي كانت تمثلها الخلافة العثمانية¹¹²⁵، ولم يحمل مشروعا سياسيا ومدنيا شاملا كما ذكرنا آنفا، كما كانت دولة الخلافة مرنة في التعامل مع الأوجاقات التابعة لها فتمنحها قسما وافرا من الامتيازات بما فيها الإدارة المحلية¹¹²⁶..

وفي هذا الشأن شبه المؤرخ الجزائري العربي الزبيري الوجود العثماني في الجزائر، بالوجود المرابطي في الأندلس، حيث قام يوسف بن تاشفين بنجدة المسلمين في هذه البلاد، وأمد في عمر الإسلام هناك نحو ثلاث مائة سنة أخرى¹¹²⁷...

ويرجع بعض الدارسين سبب الضعف إلى كون الأتراك لم يندمجوا في المجتمع الجزائري كاندماج الأندلسيين النازحين من اسبانيا وكما اندمجوا في المشرق العربي كمصر وسوريا، فهل يعود ذلك إلى تخوفهم من الجزائريين ما دفعهم لحرماتهم من المناصب كما فعل الرومان من قبل؟؟ أم أن هناك أسبابا أخرى وراء ذلك¹¹²⁸.

المطلب الثاني: السلطة الحاكمة

يصعب الحديث عن السلطة الحاكمة وتقييم أدائها خلال ثلاثمائة وعشرة سنوات التي عمرتها في البلاد، ومهما بالغنا في التحليل فلا يمكن تقديم حكم يناسب جميع مراحل الفترة. وبحكم صعوبة جمع كل أقوال المؤرخين في هذا الموضوع فإننا سوف نختار بعض النماذج التي كانت كتاباتها أساسية وشكلت مادة تاريخية للدارسين فيما بعد.

ففي أول وهلة نجد أحكام "بيار دان"¹¹²⁹ القس المسيحي الذي أورد في كتابه تاريخ برباريا¹¹³⁰ وقراصنتها، صورا قائمة عن السلطة والأترك والبربر والممارسات التي كانت شائعة، والتي توحى حسب رأيه بانعدام وجود دولة تدير البلاد وتنظم شؤونه، وذات معالم واضحة، فقد تحدث

1125 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 08.

1126 - فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2003، ص 118.

1127 - محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، (ش و ن ت)، الجزائر 1972. ص 34.

1128 - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، (ش .و .ن .ت) دت، ص ص 217-218.

1129 - Pierre Dan, **Opcit**

1130 - برباريا *Barbary* كلمة إغريقية استعملت للدلالة عن الأجانب لكنها في العصور الحديثة دلت أكثر على العناصر البشرية المتوحشة ذات الطباع القاسية.

عن السلطة السياسية القائمة سواء في القسطنطينية أو في مختلف إيالاتها، معهما أحكامه بصورة قاسية فضة، فيقول: "يجب التسليم والإيمان أن البشوات وقادة الجيش وهم سادة المنطقة كانوا يختارون أولا من الأسرى الرجال المهمين الذين يبعثون بهم لسيدهم الكبير في القسطنطينية، ويختارون في نفس الوقت أفضل النساء والصبايا الجميلات، اللواتي يحتجن في جناح الحريم، ويقوم بحراستهن الجنود، في الوقت الذي يشبع فيه السلطان نهمه من ممارسة العهر معهن، وفي بعض الأوقات تتحول إحداهن إلى زوجة للسلطان وتجلس على العرش"¹¹³¹

ويضيف بيار دان: "ومهما يكن فإنني لم أجد في العالم من يستحق أوصاف البخل والحقارة من الأتراك والبربر، وليس أدل على ذلك أكثر من استمرارهم في ممارسة أعمالهم الحمقاء التي لا شفقة فيها، وتعذيبهم للنصارى الأسرى لد يهم لا حد له، من أجل افتدائهم والحصول على المال"¹¹³².

ويقول واصفا السكان بالبرابرة أن هؤلاء المتوحشون يقودون الأسرى¹¹³³ إلى بيوتهم ويهيمونهم أنهم دفعوا فيهم أموالا طائلة وأن عليهم فعل ما يمكن لتحريرهم وافتدائهم، وكانت حماقات هؤلاء البرابرة لا تنتهي، فبعض الأسرى كانوا يثقلونهم بالسلاسل تزيد وزنها عن "100 رطل" ويجبرونهم على السير بها في الطرقات¹¹³⁴.

وأما الدبلوماسي البلجيكي "لوجيه دوتاسي" Laugier de Tassy ، فيقر بأنه: "لا توجد لنا أي علاقات بمنطقة بربريا تدلنا عما يحدث في هذا البلد"، وذلك في معرض حديثه عن دوافع تأليف كتابه، الذي كتبه لأسباب خاصة "ولولا بعض أصدقائي الذين طلبوا مني نشره ما اطلع عليه أحد" يقول دوتاسي¹¹³⁵، ثم يضيف "لقد كانت الحرب التي اشتعلت بين هولندة و إيالة الجزائر قد أخذت شطرا كبيرا من النقاشات عند الناس الذين كانوا يتحدثون عن الجزائريين، ولم يكونوا يعرفونهم جيدا"¹¹³⁶ مثلما يعرفون سكان شعوب أخرى بعيدا عنا¹¹³⁷.

1131 - Pierre Dan, **Op.cit** .p 397

1132 - Pierre Dan, **Op.cit** . p 397

ibid. . p400 -1133

1134 - الذي يسلم بشهادات بيار دان المبالغ فيها يمكنه أن يصور الجزائر في هذه الفترة بصور قائمة يعجز القصاصون ورواة الخيال التنبؤ بها والتدقيق في تفاصيلها.

- Laugier de Tassy **op.cit.** . préface 1135

1136 - يقر دوتاسي بمحدودية معرفة الغربيين بالجزائريين فكتب كتابه السابق الذكر ليشكل صورة تكون محور التعامل مع الجزائر.

- Laugier de Tassy, **op.cit.** . préface. 1137

ويرى الأسير الأمريكي جامس كاثكارت¹¹³⁸ أثناء وصفه لمدينة الجزائر في مذكراته، أن المنطقة تتوفر على إمكانيات كبيرة لبناء بلد متطور، والتي إن استغلها الأهالي وأحسنوا توظيفها، نجحوا في تحقيق هذا الهدف أبما نجاح، حيث أشار إلى جملة من مسائل التصحيح ودواعي النجاح والمعوقات، التي تقف في طريق تحقيق ذلك، فيقول: "لو أتيح لهذا البلد نظام للحكم كفء يعمل لرخاء شعبه ويشجع الزراعة والفنون والصناعة لأصبح دون شك في ظرف بضع سنوات قطعة من جنة الخلد، ولو وجدت على رأسه حكومة رشيدة لتحول من معقل للقراصنة وقطاع الطرق كما هي الحال الآن إلى أمة تجارية كبيرة ولأصبحت من بين البلدان الصناعية المتقدمة، ولكن الدول الأوروبية الغيرة على مصالحها والتي تتخوف من منافسة الجزائر لن تسمح لهذا الشعب ولبلده بأن يصبح بلدا صناعيا وتجاريا إلا إذا أخضعتة لسيطرتها كلية".¹¹³⁹

وأما مقاربات "دو قرامون" عن الدولة الجزائرية في مقدمة كتابه تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية¹¹⁴⁰، فلم يستطع التجرد من الخلفية الدينية التي كانت تحكم الصراع بين الشرق والغرب، فعن السلطة الحاكمة يقول: "لقد كانت تمثل فزعا كبيرا وأزمة حقيقية للمسيحية، ولم تستطع أي مجموعة أوروبية أن تكون في منأى من ربابنتها الشجعان" "لقد تردد صوتها في كل الجهات وبلغات الأرض تقريبا وأعطت للعالم مثال الأمة التي تعيش على القرصنة ولا تستغني عنها، مقاومة بكل ندية للهجمات المستمرة التي تتعرض لها بل إنها فرضت ضريبة ذل، على ثلاثة أرباع دول أوروبا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية"¹¹⁴¹

ولقد استطاع الأتراك القضاء على الفرقة في البلاد والفوضى وتمكنوا من توحيد جميع البلاد نحو عدو واحد هو "المسيحية"¹¹⁴².. والنتيجة هي أن الأتراك سيطروا على البلاد لكنهم لم يكونوا يحكموها. هذه السيطرة كانت بالنسبة للأهالي ضرورية وهي خير من الفوضى التي كانت من قبل¹¹⁴³.

1138 - كان هذا الأمريكي ضمن ركاب السفينة ماريا بوسطن ينما استولى الجزائريون عليها سنة 1785 وهي أول سفينة أمريكية تقع في يد القراصنة الجزائريين، انظر: جيمس ليندر كاثكارت، المصدر السابق، ص 9.

1139 - كاثكارت، المصدر السابق، ص.85.

1140 - يحمل عنوان الكتاب أكثر من دلالة ويتضمن توجيهها غير مباشر لنفسية القارئ في رواق خاص يوصله إلى نتائج معينة.

1141 - préface - de Grammont. **Opcit**

1142 - **ibid**, p411.

1143 - **ibid**, p414.

ويكاد يجمع المؤرخون والباحثون والكتاب على أن سلطة الأتراك الفعلية وسيادتهم لم تتجاوز سدس البلاد¹¹⁴⁴، إذ أن كثيرا من القبائل بقيت مستقلة عنها استقلالاً تاماً، خاصة سكان الجبال والصحراء والجهات النائية من الهضاب، ويدخل هذا القول في الدلالة على محدودية الدولة واقتقادها عنصر السيادة على الإقليم، وبالتالي فهي دولة منقوصة السيادة وغير معترف بها، في الجهات المتبقية والتي تمثل المساحة الغالبة.

وفي هذا الشأن يقول أحمد الشريف الزهار "أن سكان تلك الجبال كلهم عصاة لا يتصرف فيهم الآغا أو الباي. بل يتصرف فيهم المرابط لأن المرابط وحتى شيخ الجماعة تركز سلطته على الاحترام و الوقار والوازع الديني"¹¹⁴⁵

ويشاطر هذا الرأي "لويس رين" Louis Rinn حيث يعتبر أن الأهالي لم يعترفوا يوما بالداي وسلطته إلا في حالات معينة ووفق شروط مسبقة، وهو ما يدعو للتخمين أن معاهدة 05 جويلية 1830 لم تكن تعنيهم في شيء، وفي ذلك تفسير لقوة المقاومة التي قادها الأهالي ضد الفرنسيين بعد ذلك¹¹⁴⁶.

أما السلطة الفعلية فيرى دوغرامون de Grammont أنها كانت بيد الديوان¹¹⁴⁷، وتركت للداي القضايا الشكلية، سواء تعلق الأمر بالعيش في القصر وكثرة الحراس الذين يؤمنون وظيفته، أو المعاملة اللائقة التي يلقاها في الاحتفالات والمراسيم، والتشريف الذي يتمثل في ذكر اسمه في المراسلات التي تبدأ ب: "نحن باشا وديوان جيش - ميليشيا- الجزائر الذي لا يقهر". فكل ذلك كان وهما "لأن الحقيقة كما يقول دو غرامون هي "أن الباشا لم يكن سوى موقعا على قرارات الديوان التي لا يستطيع الاعتراض عليها"¹¹⁴⁸.

ويشير "دوغرامون" انشغالا آخر بمس مشروعية السلطة التركية في الجزائر في الصميم، حين يقول أنها كانت تشعر بنوع من النقص في شرعية حكمها، وهو ما يفسر ردة الفعل القوية تجاه من ينبش في ماضيها أو من يعرض بها، خاصة إذا تعلق الأمر بالمشاغبيين من الجيران من المغاربة

1144- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر محمد مزالي، دار بوسلامة، تونس، 1980. ص378

1145- الزهار، المصدر السابق، ص39

122. - Louis Rinn, "Le royaume d'Alger sous les derniers deys" in R.A, N°41, 1897 1146

1147 - الديوان يمثل المؤسسة الثانية بعد الباشا حاكم البلاد، لكنه كان يملك صلاحيات واسعة ويده الحل والربط.

- de Grammont. op.cit. P125. 1148

والتونسيين، الذين كانوا يعيرونها بنسبها المجهول ورصيدها الديني والشرقي الضعيف، أضف إلى ذلك فقد كان الجيران يصفون الجزائريين بقلة الفطنة والغباء كما يقول دوتاسي، لأنهم رضوا بحكم الأتراك¹¹⁴⁹.

هل عجز النظام على ربط علاقات طيبة مع دول الجوار والاعتماد على الدبلوماسية لحل المشاكل معها دون اللجوء للقوة؟ ولماذا لم يحسم الأتراك خاصة في مرحلة القوة والانتشار خلال القرن السادس عشر أمرهم عسكريا مع المغاربة وقد كانوا قادرين على ذلك، خاصة في فترة حكم صالح ريس الذي كان في مقدوره بسط نفوذه على المغرب زمن الصراع بين العلويين والوطاسيين، فقد كان يملك الجيش التركي من قوة السلاح ما يؤهله لذلك، خاصة البنادق النارية التي لم تكن مستعملة من طرف خصومه حين هزمهم سنة 1554م؟؟¹¹⁵⁰

وقد كان للداي شعبان¹¹⁵¹ سجالا طويلا مع مولاي إسماعيل ملك المغرب ومحمد باي حاكم تونس، فقد وصف مولاي إسماعيل الجزائريين مرارا بقلة الحكمة والتهور، ولم يستسغ الداوي هذا الوصف فشن حملة على المغرب قادها بنفسه ووصلت جيوشه مدينة فاس¹¹⁵²، وشتت جيش المغاربة مما اضطر الملك مولاي إسماعيل إلى طلب الصلح مع الجزائريين ولكن بأثمان باهظة¹¹⁵³. ثم وجه الداوي شعبان حملة أخرى لتونس فحاصرها خمسة أشهر، مما دفع بالباي محمد إلى الفرار نحو طرابلس بزوجته وأولاده وغلمانها، ودخل الداوي شعبان تونس واستبيحت المدينة للجيش الانكشاري أياما¹¹⁵⁴.

- Laugier De Tassy. **op.cit**. p 301. 1149

1150 - ديكو دي طريس، تاريخ الشرفاء، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، دت، ص 174.

1151 - حاج شعبان داي تولى شؤون الإيالة سنة 1689 بعد ثورة الانكشارية على ميزومورتو وفراره إلى أزمير وبدأ عهده بوقوع حريق كبير في ميناء الجزائر سنة 1692 وفي هذه السنة أيضا انتصر الداوي شعبان على الجيوش المغربية وفي 1693 وقعت ثورات وفتن داخلية كبيرة بين مختلف القبائل خلال احتفال بعيد الأضحى. وفي السنة المقبلة ثارت الانكشارية على الداوي شعبان وقتلته خنقا. انظر

p260-270 de Grammont h.-d. **op.cit**.

- Laugier De Tassy **op.cit**. p 301. 1152

1153 - يذكر أن السلطان المغربي "مولاي إسماعيل" عندما كان ذاهبا للخيمة التي نصبت لأجل عقد الصلح مع الداوي شعبان، كانت يدها مكتوفتان، وعندما وصل الخيمة قبل الأرض ثلاث مرات، ثم دعا الله أن يستره، ثم خاطب الداوي قائلا له: "أنت خنجر وأنا لحم فان شئت قطع" فلم ينله مكروه من الداوي، انظر: محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 24.

- Laugier De Tassy **ibid**. P302 1154

وحاول ملك المغرب في زمانه تحرير مدينة وهران التي كانت تن تحت براثن الإسبان وذلك قبل نجاح محمد بكداش في تحريرها لأول مرة، لكنه تراجع أمام قوة جدرانها ومناعتها، وقال قوله المشهورة: "هذه حية تحت صخرة"¹¹⁵⁵

وعمل من جهة أخرى السلطان "سيدي محمد بن عبد الله" على التقليل من شأن الجزائر أمام العالم الإسلامي فظهر بمظهر المتواضع أمام السلطان العثماني مبديا في الوقت نفسه القوة والعناد لدايات الجزائر الذين رفضوا الاعتراف بشرعيته¹¹⁵⁶.

وعمل الملك على اجتذاب صداقة تونس وطرابلس لغزل الجزائر، وذلك لنيل استعطاء المسلمين بمهذين البلدين لما قام به من تحرير الأسرى المغاربة من سردينيا، والتوسط لدى دول أوروبا خاصة فرنسا في حال نزاعات نشبت بينها وبين تونس وطرابلس¹¹⁵⁷. واتبع ملك المغرب هذا على إتباع سياسة التوازن الدولي بين السلطنة ودول أوروبا، فبالنسبة للأولى حتى لا يثير مخاوفها أكثر حول طموحاته في المغرب الأوسط، أما بالنسبة للثانية فكان الهدف إبعاد شبح الحرب معها قدر المستطاع. وكانت سياسة الإيقاع بين الجزائر والدولة العثمانية متبعة من طرف ملوك المغرب كلما سنحت الفرصة لذلك، وخير مثال على ذلك قضية الأربعة سفن التي أهداها الملك سيدي محمد بن عبد الله للسلطان العثماني بواسطة داي الجزائر حيث رفض هذا الأخير تسليمها للسلطنة¹¹⁵⁸.

وقد يفسر هذا التوتر بين الجيران ما أورده صاحب الثغر الجماني حيث يقول: "ثم إن دولة الأتراك ضربت بجيرانها وألقت بهذا المغرب الأوسط كلكلها ومدت رواقها على ما بين وجدة إلى منتهى أعمال تونس واتصلت بأطراف عمالة الخليفة في القديم فدوخوا عصاتها ودانت لهم أهلها فانقطعت عروق الفتن وذهبت مواد الشقاق ولم يبق صائل غيرهم"¹¹⁵⁹.

وكانت العلاقة تشهد في بعض الأحيان تحسنا ملحوظا فبعد قدوم الجيش الاسباني وحصاره مدينة وهران سنة 1732 اشترك المغاربة مع الجزائريين في الدفاع عن المدينة وكان الجانب المغربي تحت

1155 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 192.

1156 - رامون لوريديو دياث، المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي، تر مولاي أحمد الكمون، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2013. ص 94-95

1157 - رامون دياث، المرجع نفسه، ص 104

1158 - المرجع نفسه، ص 110

1159 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق ص ص 441-442.

قيادة العليج "برنارد ريبيردا" Bernard Riperda وهو من المسيحيين الهولنديين المهتدين، حيث هجم على الصفوف الاسبانية محققا تقدما ملحوظا، لكن ردة فعل الإسبان كانت في وقتها وفي 01 جويلية 1732 دخل الإسبان وهران فوجدوا فيها مؤنا كبيرة و108 مدفعا، ومات الداي كرد عبدي حزنا على المدينة وانسحب الباي بوشلاغم نحو مستغانم¹¹⁶⁰.

ويذكر ابن حمادوش أن أوقات التآخي بين البلدان كانت قليلة ومنها اجتماع ضم لأول مرة حكام البلدان الثلاثة أو من يمثلونهم دون ترتيب مسبق، فقد التقى حاكم تونس "محمد باي" وأخوه الفارين من حكم ابن عمهما، وحاكم "تطوان" "عبد الواحد بن الباشا احمد الريفي" باشا تطوان فارا من السلطان "عبد الله" الذي تغلب على الدولة وقتل أباه، مع حاكم الجزائر، وعلق بن حمادوش قائلا: "فسبق اللطف فكان اجتماعهما تحت أمر حاكمنا لا فوقه"¹¹⁶¹.

المطلب الثالث: السلطة السياسية بين الانتخاب والتوريث

بالرغم من الأدوار التي لعبها أوجاق الجزائر، نرى أن البلاد كانت في أغلب فتراتها عرضة للفتن والهزات والثورات الشعبية، لغياب نظام سياسي قوي مستقر وثابت. ويتساءل بعض المؤرخين هل كان بالإمكان صناعة هذا الاستقرار وإرساء قواعد ثابتة لدولة حديثة لو عمل بعض قادة الأتراك على توريث الحكم في سلالاتهم، كما وقع في تونس وليبيا؟

ففي تونس كانت السلطة الفعلية منذ النصف الأول من القرن السابع عشر بيد الأسرة المرادية 1631-1702 ثم انتقلت للأسرة الحسينية 1705-1837 بعد ذلك، ولم تغير هذه السياسة الجديدة في مسار العلاقات بين تونس والباب العالي وقد دلت الكثير من المراسلات التي بعث بها السلطان العثماني إلى حكام تونس على مدى الاحترام المتبادل والانسجام بين الطرفين، كتلك التي بعث بها السلطان محمود الثاني إلى حسين باي تونس 1824-1835 يدعوه فيها إلى الوحدة بين الأوجاق الثلاث - ليبيا تونس الجزائر - لتجاوز الأزمة التي تعيشها المنطقة بفعل اشتداد التحرش الغربي بها¹¹⁶².

- Henri-Léonfey, **Histoire D'Oran Avant, Pendant Et Après La Domination Espagnole**. Adolphe Perrier éditeur, Paris. 1858. p143.

1161 - أبو القاسم سعد الله، ابن حمادوش.. المرجع السابق، ص64

1162 - عبد الحفي الخيلي، المرجع السابق . ص 194

ما الذي كان يحول دون القيام بتكوين مملكة مستقلة، هل هو طبيعة المجتمع الجزائري القبليّة الرافضة للذوبان في دولة ملكيّة؟ أم أن التفكير في هذا المستوى لم يكن مطروحا لدى النخب السياسيّة والفكريّة؟ وإذا استثنينا بعض التجارب المحتشمة في انتقال حكم بعض البايلاكات من الباي إلى أبنائه كما حدث مع خلافة عثمان باي لأبيه محمد الكبير باي وهران¹¹⁶³، وتولي أحد أبناء صالح باي الحكم بعد أبيه إلا أن التجربة لم تعمم ولم يستطع أحد من القادة السياسيّين الأتراك فرض هذا النمط من الحكم على الإيالة. فهل كانوا يحسون بضخامة المسؤولية في حال تصدرهم للحكم والسلطة فيخشون بالتالي من الفشل، أم أنهم كانوا ينفذون الأوامر السلطانيّة ويخضعون لجملة الموازنات المحليّة التي تصنعها القوة القبليّة والمرابطة فتجعل منهم أشخاصا مكلفين بمهمة وحينما تنتهي هذه المهمة يغادرون إلى غير رجعة، مما يجعلنا نشكك في ما قاله حمدان خوجة حين ذكر أن كثيرا من الأتراك لا يتزوجون ليس حبا في العزوبية ولكن ليتركوا ثرواتهم لبيت المال¹¹⁶⁴.

ويرى عبد الله العروي أن حكام الجزائر حاولوا تأسيس حكومة قويّة على غرار حكومة الحسين بن علي في تونس، لكن المحاولة كانت متأخرة¹¹⁶⁵، وهذا الكلام يعتقد أنه عار من الدقة فأين هي هذه المحاولات التي قام بها هؤلاء لتوطيد حكمهم؟ ولماذا لم يكتب لها النجاح إذا خاصة وأن فترة الوجود التركي لم تكن بالهينة؟؟

وتثبت القرائن التاريخيّة في هذا الشأن أن السلطة السياسيّة لم تفكر يوما في الانفصال عن الدولة العثمانيّة وبقيت علاقات الأخوة والتعاون في السراء والضراء قائمة، رغم استقلال الدايّات بالحكم منذ 1710، فقد ظلت السلطة المحليّة ترفع كل سنة الهدية الرمزية لاسطنبول اعترافا رمزيا بأحقية السلطان العثماني¹¹⁶⁶ في تولي أمور المسلمين وكان الدايّات يحتفلون كل حين بالمناسبات السعيدة التي تمر بها السلطنة كاعتلاء السلاطين الجدد سدة الحكم أو ميلاد أبنائهم، وقد ساق

1163 - مسلم بن عبد القادر ، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر، تحقيق وتقديم رابح بونار، (ش و ن ت)، الجزائر، 1974، ص62-63.

1164 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص135.

1165 - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص491.

1166 - Robert Mantran, *L'évolution des Relations Politiques entre le Gouvernement Ottoman et les Odjaks de l'ouest du XVIème au XIXème siècles*, in ROMM, université d'Aix-Marseille, pp 52-65

"دوفولكس" كثيرا من الأمثلة التي يعبر فيها الدايات عن سعادتهم بالأحداث المفرحة التي تحدث في العاصمة القسطنطينية فيعمدون إلى زيادة أجور الانكشارية والموظفين، ومنح علاوات لهم¹¹⁶⁷.

لقد خضع حكام الإيالة لمنطق جديد فُرض عليه مع مرور الوقت، لم يسمح بالتفكير في تغيير نظام الحكم الذي قد يكون باهض التكاليف، ويتمثل في: سياسة المحافظة على الوضع الراهن¹¹⁶⁸، ويفسر بعض المؤرخين تصرفات بعض الباشاوات إزاء الخلافة العثمانية على أنها سلوك سياسي يدل على وجود حالة استقلال سياسية قائمة، كرفض استقبال المبعوثين من الدولة العثمانية مثلما ذكر ذلك ابن حمادوش¹¹⁶⁹.

المطلب الرابع: بين السلطة السياسية والسلطة الدينية

يرى أغلب الدارسين أن السلطة الفعلية لم تكن بيد الدوائر السياسية والعسكرية فحسب، بل كانت للدوائر الدينية والمرابطية¹¹⁷⁰ نصيب لا يستهان به، ونتيجة لذلك فقد كانت السلطة التركية تتسم بالواقعية والبراغماتية، سعت من خلالها إلى تحقيق الهدوء والاستقرار استنادا إلى المعطيات الميدانية، ففي المناطق التي تخضع لسيادتها وخاصة المدن ربطت علاقات مصلحة مع العلماء والمرابطين، ومنحتهم امتيازات كبيرة مقابل حيادهم في شؤون الحكم والسياسة¹¹⁷¹، أما الجهات المخالفة والمعارضة لسياستها فقد اتبعت معها أسلوب المتابعة والمراقبة والضغوط والتكاليف. فبفضل حسن التعامل مع المرابطين مكنهم ذلك من بناء نظام قوي والبقاء ثلاث قرون. حيث أحاطوهم بهالة من الاحترام والتقدير فنالوا بذلك مباركتهم وتأيد الأهالي¹¹⁷².

ويعتبر "بيار بوايي" أن الأتراك كانوا يدركون أن المرابطين كان لهم تأثير كبير على السكان مما حدا بهم إلى تجاوز كبائرهم وانحرافاتهم، حتى وإن مست بالنظام العام أو بالشرع الحنيف، شريطة ألا

De Voulx, A.. Tachrifat, **op.cit.** p77. -1167

1168 - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص98.

1169 - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص120.

1170 - انظر خريطة توزيع النفوذ الطرقي في الجزائر الملحق رقم 12.

1171 - Jean de la Faye, **op.cit.** pp 1171, 145-151, 158-160.

1172 - De Grammont, **op.cit.** p409.

يتجهجوا مباشرة على السلطة القائمة. وكانوا يستفيدون من غنائم البحر والقرصنة، ففي سنة 1702 كما تقول إحدى الوثائق استفاد نحو 36 مرابط من مدينة الجزائر من أعطيات القرصنة¹¹⁷³.

ويؤازر هذه الرؤية باحث معاصر بقوله: "يصعب تفسير ظاهرة التقارب التي كانت قائمة بين بعض رجال الدولة التركية والطرق الصوفية المسالمة ومرابطها"، فهل كان التقارب بفعل الإيمان بأهمية هذه الطرق في حياة الإنسان وأهميتها في تزكية أخلاقه، أم هو التقرب من أجل البروز بمظهر المتدين أمام الناس وأمام العامة وإظهار الورع والتقوى¹¹⁷⁴.

ونظرا لدقة المرحلة وتعدد المشارب الولاءات الدينية، فقد صار الوضع يتطلب من الحكام الأتراك البروز بمظهر يليق برئاسة الدولة التي يعيش في ظلها المسلمون حتى وإن خالف ذلك ميول الكثير منهم، ويؤكد بانانتي Pananti أن "الطبقة الحاكمة كانت مجبرة على القيام بكل المراسيم الدينية لتتجنب أن تكون مثالا سيئا"¹¹⁷⁵، سواء بالنسبة للطامعين في السلطة أو الأهالي الذين يحبون السلطة المتديّنة.

كما يتطلب منهم التقرب من المرابطين، حتى في المناطق البعيدة والصعبة، كمنطقة القبائل حيث إمارتا كوكو وبني عباس، التين استوطنت بهما العديد من العائلات المرابطية، فعمد الأتراك إلى التقرب من عناصرها المؤثرة بالهدايا والحبوس والإعفاء الضريبي¹¹⁷⁶.

وتعددت مظاهر التقارب بين الطرفين لتحقيق الثقة بينهما، حفاظا على المصالح المشتركة القائمة بينهما، كتقديم النذور و"الوعّادات" للأولياء والمرابطين¹¹⁷⁷، أو الاستعانة بهم في ضبط أحوال

1173 - Pierre Boyer, "Contribution à l'Etude de la Politique Religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles)" In: **R.O.M.M**, N°1, 1966. pp. 11-49.

1174 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص52.

1175 - Filippo Pananti, **Op.cit** p. 332.

1176 - Pierre Boyer, **op.cit**. pp. 11-49.

1177 - حتى بايات تونس ساروا على منهج هذا التقارب فقد قام الباي حسين بن صالح عندما خرج في إحدى حملاته العسكرية سنة 1807 بأخذ نذر على نفسه تعهد فيه ببناء دار الولي الصالح سيدي علي العريان والسيد محمد بن سيدي سعيد وإصلاح مسجده وتخصيص أوقاف يستعان بها في رعاية طلبة العلم مقابل أن يسانده السكان في دعم حملاته العسكرية في باليك الشرق عبد الكريم غلاب المرجع السابق ص5.

منطقة معينة يسيطرون عليها¹¹⁷⁸، وكانت السلطة السياسية تتخير الجهات والمقابر التي يرقد فيها الأولياء والمرابطين للدفن فيها، تبركا بها¹¹⁷⁹.

فقد كان الاعتقاد في كرامة المرابطين يتجسد أحيانا في الإيمان المطلق بحرماتهم وقربهم من الخالق عز وجل، ففُرض على الوجهاء ورموز السلطة والناس التقرب منهم لدفن موتاهم، فيتحررون الدفن قرب مدافن الصالحين منهم وذوي الكرامات، فاحمد داي 1697 دفن قرب ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وكذلك دفن بهذا الضريح أحمد باي قسنطينة بناء على وصيته، ودفن إبراهيم باي الدولاتلي 1710 قرب ضريح سيدي الكتاني بجانب المدرسة والمسجد الذي يحمل اسمه بوسط مدينة قسنطينة¹¹⁸⁰.

وهكذا فقد صار للأولياء والصالحين شأنا كبيرا وتأثيرا بليغا في حياة العامة والخاصة، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم.

المطلب الخامس: "الباشا" هرم السلطة الحاكمة

أفردت هذا المبحث الذي يتناول هرم السلطة ممثلا في شخص الباشا أو الحاكم العام، لتسليط الضوء عليه ومعرفة مستويات التفاعل مع طبقة الفقهاء والعلماء، قبل أن نصدر أحكاما دون أخذ صورة أولية عن هذا المنصب، وطرق الوصول إليه.

وقد راع هذا الموضوع اهتمام أغلب الدارسين للفترة العثمانية، دون الوصول إلى صيغة تصوُّرية شاملة له، وفي هذا الصدد يرى لوجييه دوتاسي أن الداوي هو الحاكم المطلق يحكم كل الإيالة وفق هواه، ينفذ فيها سلطانه ويعاقب من يشاء، ويتحكم في المناصب ويتصرف فيها كما يشاء. لكن المنافسين كُثُر والثورات والانتفاضات متكررة تتطلب من الداوي القوة والحزم والشدة أحيانا، وأحيانا

1178 - كثيرة هي الأمثلة عن بشاوات وبايات جزائريين جسدت سياستهم التعاون والتحالف مع هذه الفئة فقد أورد فيرو في دراساته أن اتفاقات تمت بين حسين باشا والمرابط سيدي عيسى بن سيدي مومن يتولى هذا الأخير من خلالها الوساطة مع الثوار والمتمردين حين اندلاع الثورات وفتح الحوار بين الطرفين:

Pierre Boyer, *op.cit.* pp. 11-49

1179 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 32.

1180 - محمد بن علي شغيب، المرجع السابق، ص 122.

أخرى تتطلب الطبية والدين. وكان اختيار الداى وفق تنظيم الإيالة يساهم فيه كل رجال الجيش الذين يجتمعون في قصر الداى المتوفي أو الهارب¹¹⁸¹.

ويذكر "دو تاسي" de Tassy أن الشخص المؤهل للقيام بوظيفة الداى يجب أن لا يكون مطعوناً فيه وأن تكون سيرته حسنة ليكون في مستوى المهمة الملقاة على عاتقه ويستقبل الأزمات والملمات بكل رباطة جأش وعزيمة.

لكن كتابا غربيين آخرين يعتقدون أن النظام السياسي في الجزائر خاصة السلطة التنفيذية وهرمها المتمثل في الداى مفتوح للأقوى من الإنكشاريين والأكثر شعبية¹¹⁸².

و الحاكم كان يمثل المسئول العسكري و السياسي للبلاد، و القاضي الأعلى في أمور الحرب والسلم و المسئول على الضرائب وعلى التوظيف، أي له صلاحيات غير محدودة و قد كان القتل هو الوسيلة للحد من صلاحياته فنظريا هو مطلق الصلاحيات في تعيين البايات والموظفين، لكنه يخضع لقواعد صارمة حيث يعزل عن عائلته التي لا يراها إلا مرة في الأسبوع لأنه في نظرهم "أب للجميع"، و رغم الصلاحيات المخولة له إلا أنه كان يتصرف وفق رغبة ضباط الإنكشارية، أي الديوان¹¹⁸³ الذي يمثل قيادة الأركان وصاحب السلطة الفعلية.

وقد وصفه الكاتب الاسباني "جوب كانو" بقوله: "كان الداى غنيا لكنه لم يكن يتصرف في ثروته ولم يكن سيدا عليها وأب بدون زوجة ولا أطفال طاغية بدون حرية وسيدا لا يملك لأنه مستعبد من طرف أتباعه"¹¹⁸⁴، ويتم انتخاب الداى كما يقول الكاتب وفق أعراف البلاد ففي حالة شغور منصب الداى تجتمع قيادة الجيش الانكشاري في منزل الداى، ثم ينادي الأغا بأعلى صوته في القيادة العسكرية طالبا منها من تريد انتخابه لهذا المنصب¹¹⁸⁵، فيقع تسمية واحد أو أكثر، وتكرر المناداة باسم الشخص المرغوب فيه، ولما يحصل أحدهم على الترقية يتم تلبيسه القفطان وإجلاسه على كرسي العرش داعين الله له بالتوفيق والسداد.

1181 - Laugier de Tassy, **op.cit.** p212.

Inconnu, **Description de l'État et de la ville d'Alger**, imprimerie de poveg, / - 1182 gallica,bnf,fr, p18

3- شدرى رشيدة معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر من 1871 - 1830 فترة الدايات، (ر.م.غ.م) قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006. ص21.

1184 - شدرى رشيدة، المرجع نفسه، ص21.

- Laugier de Tassy, **op.cit** 213. 1185

ثم يقوم القاضي أو المفتي بقراءة بعض واجباته منها أن الله اختاره لقيادة البلد والجهاد، معاقبة السيئين والشريرين ومكافئة الصالحين وأن يبذل قصارى جهده في تحقيق السعادة والاستقرار للبلد والجد في تحصيل الضرائب وتحديد سعر الغلات والبضائع لفائدة الفقراء والمساكين¹¹⁸⁶. ومن خلال ذلك يمكن القول أن دوائر الجيش هي من تصنع الباشا أو الداى، وتختاره لتسيير شؤون الإيالة، واستمر الوضع حتى سنة 1816 حينما تحرر الداى "علي خوجة" من نير الانكشارية معتصما بقصر القصبة¹¹⁸⁷، ونقل معه أموالا طائلة كانت قد تكدست في الخزينة بقصر "الجنينة"، خوفا من استيلاء الانكشارية عليها¹¹⁸⁸، ولكن الوقت قد فات لإرساء تقاليد سياسية جديدة تمنح لهرم السلطة مجالا واسعا للتحرك بعيدا عن رقابة الجيش.

ولم تكن السلطة التنفيذية مركزة بيد أشخاص بعينهم يوظفونها في ما يرونه مناسبا، لتدخل المهمات وتعدد طرق ممارستها مما يعود بالسلب على إدارة البلاد. وأن الحكام العثمانيين كانوا أزهد الناس بالإيعاز بتدوين مآثرهم¹¹⁸⁹. لقد كانت السلطة موزعة بين أفراد الديوان وعناصر مؤثرة أخرى تملك المال والنفوذ والوجاهة ولم تكن بيد جهة واحدة ممثلة في الباشا¹¹⁹⁰.

وقد كان "الباشا" وهو الرئيس الأوحد للدولة والمستوجبة طاعته بنصوص الشريعة الإسلامية مستوفيا شروط الحكم من الناحية السياسية والعسكرية لكنه غير مؤهل دينيا لرئاسة الناس بسبب فقدته أدنى المؤهلات التي تخول له الوصول لهذا المنصب، وأقصى ما يربط الحكام بالوسط الديني مظاهر الاحترام للمرابطين والشيوخ والسعي للتقرب منهم بشتى الوسائل لنيل رضاهم وبركتهم ويجد القارئ في لوحات الكثير من المعالم الدينية والقباب عبارات و نصوص تدل على مشاركتهم في تشييدها التماسا للبركة؟ مثل: "أمر بتشيد هذه القبة المباركة مع التابوت أمير المسلمين السيد مصطفى باي أيده

ibid, p214, - 1186

1187 - لوسات فلنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، تر حماد الساحلي، سراس للنشر تونس، 1994، ص 110.

1188 - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، (م، و، ك)، الجزائر، 1985، ص ص 169، 187.

1189 - مولاي بالحميسي، "المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني"، في مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد: 14-15، الجزائر، 1974، ص. 73.

1190 - لوسات فلنزي، المرجع السابق، ص 110..

(كذا) الله، ونفعه بذلك سنة ثمانية عشر بعد المائتين وألف"¹¹⁹¹. ومثل: "أما بعد أمر ببناء هذا المقام السعيد، أمير المسلمين..." إلى آخر النص الذي يوضح أن صاحبه أمر بذلك ويقصد من وراء عمله "وجه الله، ورجاء ثوابه"¹¹⁹².

المبحث الثاني: حكام الإيالة.

المطلب: الأول حكام المركز

يعتبر بعض الباحثين أن التقسيم الكلاسيكي للحكم العثماني في الجزائر على أساس أربعة مراحل رئيسية مرحلة البيرلبايات ومرحلة والباشاوات والأغوات والدايات، ليس له ما يسند من الوثائق التاريخية، وهناك من يقلص هذه المراحل إلى ثلاث، بينما يزيد فيها بعضهم إلى خمس مراحل، غير أن القاسم المشترك طيلة العهد العثماني هو استمرار الولاء الروحي والديني من إيالة الجزائر للخلافة العثمانية، واستمرار تعيين الباشاوات الذين يتولونها ولو كان ذلك بصورة اسمية¹¹⁹³.

ويمكن تصنيف حكام الجزائر وحكام الأقاليم إلى صنفين، صنف أمعن في تسيير شؤون حكمه بالعدل والإنصاف ودفع الأذى عن الرعية قدر المستطاع، وقسم انغمس في الملذات والشهوات وانصرف عن رعاية شؤون الدولة، فكان عرضة للنقمة والثورة.

وتباين موقف السلطة خلال هذه الفترة من العلماء والفقهاء، فمنهم من أحسن معاملته وكُرم، ومنهم من أسيء معاملته، وتعرض للسجن والنفي والقتل، وكان الحكام الأقوياء وأصحاب الانجازات الكبيرة، في منأى عن النقد والنصح والنقمة، التي كان الفقهاء وراءها بحكم واجب إسداء النصح والتي قد تتحول إلى ثورات فيما بعد.

واختلف المؤرخون في تحديد عددهم نظرا لتضارب المراجع وتباينها، ويمكن القول أن عددهم يربو على التسعين حاكما، تولوا حكم الجزائر خلال العهد العثماني. ابتداء من 1519 بدء بعروج وانتهاء بالداي حسين سنة 1830 على امتداد 311 سنة.

Brosselard. "Les inscriptions arabes de Tlemcen", in RA, OPU, v6, 1862, p16. -1191

-1192 انظر الملحق رقم 11 .

1193 - للاطلاع على جملة التعيينات وطبيعة الاتصالات التي كانت بين الإيالة والخلافة العثمانية من خلال الوثائق الأرشيفية يرجع إلى: خليفة حماش، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في العهد العثماني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2010.

ومن المؤرخين الأوائل الذين كتبوا في هذا الموضوع نجد هايدو في كتابه تاريخ ملوك الجزائر¹¹⁹⁴ حيث ذكر نحو 31 حاكما تولوا إيالة الجزائر دون احتساب تكرار بعضهم لعهدته وقد بدأ هايدو بعروج مؤسس الإيالة وانتهاء بمصطفى باشا الذي تولى الحكم سنة بدء 1596. ثم ابن المفتي حسين بن شاوش¹¹⁹⁵ صاحب التقييدات التي حاول من خلالها تقديم صورة عن حكام الجزائر منذ تأسيس الإيالة، كما نجد في هذا الشأن محاولات ابن حمادوش في ذكر باشاوات الجزائر في رحلته حيث ذكر منهم نحو 23 حاكما تولوا من 1064هـ 1653م إلى سنة 1158هـ 1745م تاريخ الانتهاء من تأليفه¹¹⁹⁶، وفي أواخر العهد العثماني تأتي مذكرات أحمد الشريف الزهار الذي نوه فيها بذكر الباشاوات الكبار أصحاب المنجزات الكبيرة ولم يزد عدد من ذكر عن إحدى عشر باشا بدء بعلي باشا بوصباع (1168هـ 1754م 1179هـ 1765م) وانتهاء بالداي حسين¹¹⁹⁷.

ولا تكتمل صورة حكام الجزائر غلا بانتهاء الحكم التركي سنة 1830 حيث حاول المؤرخون ضبط عددهم وتقييد أعمالهم المختلفة التي قاموا بها وفي هذا الشأن تأتي محاولة ألفونس روسو صاحب ترجمة الزهرة النيرة لابن رقية التلمساني سنة 1841م¹¹⁹⁸

أما "أرنست مرسبي" Ernest Mercier فقد ذكر نحو 85 حاكم في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" من "خير الدين بربروس" إلى غاية "الداي حسين" مع احتساب عمليات العودة للسلطة من طرف بعضهم¹¹⁹⁹، عدها بنحو 12 عملية من طرف "حسن بن خير الدين" مرتين "خضر باشا" ثلاثة مرات "كوسى مصطفى" مرتين و"حسن فينيزيانو" و"رمضان باشا" و"حسين الشيخ" و"أحمد باشا" و"إبراهيم باشا" و"يوسف باشا" مرة واحدة، وبقيت الفترة الممتدة من 1623 إلى 1633 بدون معلومات¹²⁰⁰، ويمكن اعتماده لرسم صورة تقريبية لحكام الجزائر في الفترة العثمانية.

- Fray Diego de Haëdo, **Histoire Des Rois d'Alger**, traduite et annotée par H.-D. De 1194
Grammont, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur . Alger 1881

1195 - تم دراسة كتابه والاستفادة منه في الفصل الثاني من هذه المذكرة.

1196 - ابن حمادوش، المصدر السابق، ص ص 225-233

1197 - انظر: أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق.

1198 - رسالة بن رقية بعنوان "الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" كتبها بأمر من الباي محمد بن عثمان سنة 1194 ونشرت بالعربية ثم ترجمت إلى الفرنسية من طرف -ف روسو الفونس.

- Ernest Mercier, **histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)**, t3ème Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868.

1200 Ernest mercier, **op.cit.** p,555. -انظر الملحق رقم 17 "باشاوات الجزائر" الذين ذكرهم مارسبي

ثم يأتي "هنري ديلماس دوغرامون" سنة 1887 ليضع بين يدي القارئ كتابه تاريخ الجزائر تحت الهيمنة التركية 1520-1830، حيث قسمه إلى 26 باب تعرض فيها لجملة الأحداث والوقائع التي عاشتها الإيالة في ظل الحكم التركي ومعتمدا في الوقت نفسه على التقسيم الكلاسيكي للفترة العثمانية، ذكرا نحو 87 حاكم تداولوا على سدة الحكم على امتداد 312 سنة¹²⁰¹.

وكتب "أوجين بلانتي" سنة 1889 "المراسلات بين بشوات الجزائر وحكام فرنسا خلال الحكم العثماني" وفي نهاية تأليفه وضع جدولا ضم قائمة حكام البلاد خلال الفترة المدروسة ومقسما فترة الحكم العثماني إلى ثلاث مراحل تولى خلالها نحو 101 حاكما¹²⁰². وكتب دوفولكس في عدد سنة 1869 من المجلة الإفريقية *Revue Africaine* "تقييدات علماء وباشاوات الجزائر" اعتمادا على تقييدات بن المفتي السابق ذكرها، واعتمد عليها كذلك فيما بعد جورج دلفين (G.) Delphin في المجلة الآسيوية *Revue Asiatique*. لسنة 1922. ولا نغفل في هذا الإطار أعمال ومقاربات المؤرخين الجزائريين "أحمد توفيق المدني"¹²⁰³ و"نور الدين عبد القادر"¹²⁰⁴ والمؤرخ التركي المعاصر "عزيز سامح يلتر"¹²⁰⁵.

ومن خلال قراءة موحدة وتقريبية للمؤلفات السابقة يمكن الإشارة إلى:

أولا / نلاحظ من حيث توزيع الحكام حسب القرون الثلاث التي مرت بها الإيالة، أن المائة سنة الأولى أي من "1520 إلى 1620" حكم نحو 39 باشا، بمعدل 2.5 سنة للحاكم الواحد، وفي المائة الثانية الممتدة من "1620 إلى 1720" حكم نحو 32 حاكما بمعدل 3.12 سنة للحاكم الواحد، في حين بلغ عدد حكام المائة الثالثة الممتدة من 1720 حتى سنة 1830 على اعتبار أن الداوي حسين تولى سنة 1818 واستمر حكمه حتى سقوط البلاد بيد الاحتلال نحو 15 حاكم أي بمعدل متوسط 6.66 سنة، وهو ما يبرز بجلاء عدم استقرار مؤسسة "الباشا" خلال المائة سنة الأولى "بداية الحكم

1201 - Henri-Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la Domination turque** 1830, Earnest Leroux, éditeur, paris 1887

1202 - Eugène Plantet, **Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France, 1579 - 1833 t2**, (1700-1833), Paris, 1889

1203 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766-1791، (م وك)، الجزائر، 1986، (نشر الكتاب لأول مرة سنة 1937).

1204 - نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965

1205 - عزيز سامح التز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر محمود علي عامر، بيروت 1989

العثماني" خلافا للمائة الثالثة التي تربع على كرسي السلطة عدد أقل من الحكام، لكن فاعلية الاستقرار لم تكن مسايرة للتطورات الحاصلة في العالم.

ثانيا / نلاحظ أن أغلب عمليات العودة للسلطة تمت في المائة سنة الأولى من الحكم التركي أي من 1520 إلى 1620.

ثالثا/ تعد فترة حكم الداوي "محمد بن عثمان" أطول فترة في تاريخ الجزائر العثمانية حيث استمر في الحكم نحو 24 سنة من 1766 إلى 1790، ثم يليه البشوات التالية أسماؤهم:

محمد باشا حكم 16 سنة من سنة 1748 إلى سنة 1754

خير الدين باشا بربروس المؤسس حكم 15 سنة من سنة 1518 إلى سنة 1533

حسن أغا حكم 13 سنة من سنة 1533 إلى سنة 1545

إبراهيم باشا حكم 13 سنة من سنة 1762 إلى سنة 1745

بابا علي حكم 12 سنة من سنة 1754 إلى سنة 1766

الداوي حسين حكم 12 سنة¹²⁰⁶ من سنة 1818 إلى سنة 1830

رابعا/ يمكن القول أن كثرة عدد الحكام دليل على سوء استقرار الأحوال السياسية للبلاد، فمتوسط حكم الباشا الواحد طيلة الفترة المدروسة هو "3.45 سنة"، قتل منهم أثناء أداء الخدمة نحو اثني عشرة، وطرد بعضهم وفر البعض الآخر بعد انقلاب الجيش الانكشاري عليه بسبب تأخر الأجور أو ضعفها. يقول الطبيب الانجليزي "طوماس شو" أن أغلبهم لم يكونوا كلهم صالحين، وينهون فترة الحكم مقتولين أو مشنوقين، ويعلق على ذلك بقوله: "واحد من عشرة دايات فقط يحظى بشرف الموت على سريره والتسعة الباقون يغتالون بطرق مختلفة"¹²⁰⁷.

خامسا / نلاحظ أن عدد الباشاوات الذين حكموا الإيالة لفترة تزيد على عشرة سنوات قليل لا يتجاوز السبعة، وهو ما يؤكد عدم استقرار جهاز الحكم وحدوث الاستقطاب بين مختلف أجهزته خاصة بين الديوان والجيش الانكشاري ورياس البحر، غير أن هذه الاضطرابات التي تقع داخل أجهزة السلطة لم تكن تؤثر كثيرا على العامة بل لم تكن العامة تعلم بها إلا بعد حدوثها¹²⁰⁸.

- Eugène Plantet, **Opcit** p 585. 1206

- Thomas Shaw, **op.cit** p404. 1207

1208- أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب إشراف الجزائر 1754-1830، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1974، ص08.

أما عن مستواهم التعليمي فقد كان أغلب الباشاوات بعيدين عن عالم الفكر والعلم والثقافة، تسلموا مقاليد الحكم في ظروف خاصة، وكانوا قبلها يمارسون وظائف دنيا، فكان منهم الإسكافي والحمال والحارس وغسال الموتى والكناس¹²⁰⁹، وغير ذلك من المهن الحقيرة في السلم الاجتماعي، فالداي أحمد باشا العجمي 1695-1698م كان إنسانا مسنا ومريضا وكانت وظيفته ترقية الأحذية¹²¹⁰، ولما تولى السلطة بفضل الديوان، اختزلت مهمته في التوقيع على الوثائق الرسمية التي كانت توضع بين يديه، أما الحكم الفعلي فقد كان بيد الإنكشارية، والشيء نفسه يقال عن الداي علي باشا 1809 الذي كان هو الآخر طاعنا في السن، ويشغل في تغسيل الموتى 1808، وجيء به على أعين العامة ليفك التنافس بين قادة الانكشارية، ويوفر نوعا من الشرعية على استئثارهم بالحكم ولذلك لقب بـ"علي باشا الغسال"¹²¹¹.

ويبرر "فيليبو بانانتي" عدم دخول المطبعة إلى الجزائر في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر برغبة هؤلاء الباشاوات الرافضين للتجديد خوفا من انتشار العلم والمعرفة، فتكون مكانتهم وسلطانهم في خطر¹²¹².

وحتى نرسم صورة واضحة للجهاز التنفيذي - ممثلا في حاكم البلاد سواء تلقب بالباشا أو الداي - لتحدد لنا طبيعة العلاقة التي من المفروض أن تجمعها بالفقهاء، يمكننا تصنيف الحكام إلى أصناف عديدة وفق اختلاف منجزاتهم وأعمالهم التي قاموا بها، فمنهم من ترك أثارا حسنة تجسدت في منجزات خالدة جعلت منه رمزا سياسيا ودينيا يذكر ويحمد عليها، ومنهم من ترك أعمالا دون ذلك، لحق به سوء ذكرها عند العامة والأهالي في ذلك الوقت، وحتى عند المؤرخين أنفسهم.

ففيما يتعلق بالباشاوات ثلاثي سنوات الحكم، لاحظ المؤرخون سوء تسيير فترات حكمهم بسبب تحديدها بثلاث سنوات، فانغمسوا في الملذات وجمع المال ترقبا للعودة إلى أرض الوطن: القسطنطينية¹²¹³.

1209- كان الداي مصطفى الذي حكم من 1798 إلى 1805 يعمل في كنس الزقاق المقابل للثكنة ثم انتقل إلى الثكنة ثم قصر الباشا وظل يترقى حتى بلغ أعلى منصب في الإيالة، انظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، (م و ك) الجزائر، 1989، ص 39..

1210 - بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 25.

1211 - شجري معمر، المرجع السابق، ص 22.

1212 - Philipo Pananti, op.cit. p230.

1213 - De Grammont. op.cit. p. 125.

وقد سجل دوغرامون de Grammont هذه الأمور في كتابه "الجزائر تحت الهيمنة التركية" حيث يذكر: "وعندما تتعرض أمة من أمم أوروبا للقرصنة يعجز الباشا على أخذ حقها من القراصنة ولا يستطيع الاعتراف بعجزه سوى تسويق الحل بالكذب والادعاء من أجل كسب الوقت حتى تمر الثلاث سنوات التي من حكمه ليعود إلى القسطنطينية محملاً بكنوزه قبل أن ينفجر الوضع"¹²¹⁴ وأما حكم الدايات الذي بدأ منذ 1671 فيمكن اعتباره بداية استقلال إيالة الجزائر عن الخلافة العثمانية وتفردا بتسيير شؤونها الداخلية والخارجية، برسم الاتفاقات والمعاهدات مع الدول الأجنبية، وحرية إعلان الحرب وعقد السلم معها، لقد استقلت الجزائر ككيان جغرافي لكن هرم السلطة لم يستقل نهائيا عن السلطنة وكان لزاما عليه أن يحصل على فرمان التولية من الخليفة أو يكون سيف الجلال بانتظاره في قصر الحكم¹²¹⁵.

ويرى المؤرخ "فاضل بيات" أن التحول إلى نظام الدايات لم يكن انقلابيا كم يصوره البعض، وإنما جاء بالتدريج فكلما حدث نقص أو خلل في جانب معين عوضه الديوان دون أن يلقي معارضة من السلطان¹²¹⁶، ومنذ ذلك التاريخ تحول النضال والجهاد الإسلامي ضد المسيحيين من جهاد مقدس إلى حرب غنائم، سعت كل الأطراف إلى اغتنامه¹²¹⁷.

كما نسجل كذلك بداية حدوث الوحشة والتنافر بين قادة رياس البحر وقادة الجيش البري، بحكم أن رياس البحر كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء القرصنة¹²¹⁸، وغالبا ما كانت الغنائم تُقتسم قبل دخولها الميناء.

ولا يمكن بحال من الأحوال اعتبار فترة من فترات الحكم مستقرة دون غيرها، وتفضيلها على الفترات الأخرى كالقول بأفضلية مرحلة حكم الدايات عن سابقتها، وأنها لم تخل من ضعف وترهل، كما لم تخل غيرها من وجود حكام أقوياء متمكنين من تسيير شؤون الإيالة، وبالتالي فإنه من الصعوبة

ibid., introduction, p. VIII 1214-

1215- - كثير من الباشاوات والبايات انقلبوا على الشرعية بالمفهوم السياسي المعاصر، لكن دوامهم في كرسي الحكم لم يدم طويلا، فكان الديوان والانكشارية لهم بالمرصاد، مثلما حدث لمحمد بكداش 1707-1710 وصالح باي 1771-1792 قسطنطينة وغيرهما.

1216 - فاضل بيات، المرجع السابق، ص118.

1217 - عمار بوحوش، تاريخ الجزائر السياسي من البداية وإلى غاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1997. ص60.

1218 - عمار بوحوش، المرجع نفسه. ص60.

بمكان وضع تقييم لأداء حكام الإيالة مبني على مراحل الحكم المعروفة مما يقودنا لوضع سلم تقييم آخر مبني وفق ثلاثة مقاييس هي:

أولاً: الحكام المؤسسون للإيالة:

يعزى الفضل في تأسيس الإيالة بدون شك للإخوة عروج وخير الدين بربروس، الذين قلّما أطماع الإسبان في المغرب الإسلامي وأرسى قواعد الدولة، ولعبا دوراً أساسياً في إلحاقها بالخلافة العثمانية، وبالرغم من الاستشهاد المبكر لعروج في نواحي تلمسان، فقد استطاع خير الدين تحقيق الكثير من المكاسب الداخلية والخارجية.

وكان حسن أغا 1533-1544 الذي تولى باقتراح من خير الدين¹²¹⁹ من أفضل حكام الإيالة فقد ضم قسنطينة لحكمه سنة 1535¹²²⁰ وأرسى قواعد الأمن والعدل فيها بعد سنوات من الفوضى، غير أن أكبر انجاز حققه حسن أغا هو وقوفه في وجه الحملة الصليبية الكبيرة التي قادها شارلكان في 23 أكتوبر سنة 1541 وباءت بنكسة كبيرة¹²²¹.

فقد لعب حسن أغا دوراً رئيسياً في تنظيم المقاومة واتخاذ التدابير اللازمة لحماية المدينة فاستدعى "أهل المدينة ونصب ديواناً عظيماً جمع فيه علماء البلد و صلحاءهم ومشايخهم وجعل

1219 - استدعي خير الدين من طرف السلطان سليمان القانوني إلى استانبول حيث قام بترقيته إلى رتبة "قبطان باشا" لدوره في إسقاط دولة الخفصيين بتونس بعد تواطؤ حكامها مع الأسبان. وكذلك لوفائه للدولة العلية ورفضه مختلف العروض والإغراءات التي تلقاها من الإمبراطور الإسباني "شارل كينت"، انظر سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات 1671-1830، (ر.م.غ.م)، قسم التاريخ، جامعة باتنة، 2012، ص89.

1220 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص309.

1221 - مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541 بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية"، في مجلة الأصاله، العدد 8، ماي وجوان 1972، ص100.

يسكنهم ويطيّب نفوسهم¹²²² ويهّون عليهم أمر هذه العمارة¹²²³ واغتتم حسن أغا هذا الانجاز في بسط نفوذه بالجنوب الشرقي حتى بلغ منطقة الزيبان¹²²⁴.

وتولى "حسن بن خير الدين" 1544 - 1552 الحكم ثلاثة مرات متتالية، وهو ما ينبىء بمقدرته الفائقة في تسيير شؤون الإيالة، ومعرفته بخصائص سكانها فضلا عن حنكته الحربية والإدارية. ففي المرة الأولى اعتنى بإصلاح عمران مدينة الجزائر، الذي أفسدته مختلف الحملات الاسبانية، كبناء المنارة المقابلة لمدينة الجسر أو ما يعرف ببرج الفنار أو برج مولاي الحسن، كما قام بتمهيد الطرق حول المدينة وساهم في دحر طموحات ملك المغرب مولاي محمد في الاستحواذ على تلمسان، ونصب مولاي الحسن الزياني ملكا على تلمسان تحت حماية الجزائر¹²²⁵.

وفي المرة الثانية التي حكم فيها من 1557-1567 استحضر حسن بن خير الدين شيئا من سياسة أبيه وتجاربه، فعمل على إعادة الأمن والاستقرار للبلاد، وكسر شوكة الأسبان في موقعة "مازاگران"¹²²⁶ الشهيرة لما حاولوا بسط نفوذهم على ضواحي وهران سنة 1561 فأسر العشرات منهم¹²²⁷، واتبع "حسن باشا" أسلوب المصاهرة مع الأسر النافذة بالإيالة فتزوج من ابنة ملك "كوكو"¹²²⁸ واستعان بصهره الجديد في محاولة إخضاع الجهات المجاورة من بلاد القبائل كـ"فليسة" و"زواوة"¹²²⁹.

1222 - كان الجيش الإنكشاري قليلا بالمقارنة مع عدد أفراد جيش شارلكان فقد ضم جيش المسلمين نحو ثمانمائة جندي تركي وخمسة آلاف مقاتل من الأندلس وعدد آخر من الأهالي ونظرا لذلك اضطرت أحوال الأهالي وظنوا أن لا ملجأ من الحملة سوى الاستسلام. انظر: حكمت ياسين، "الغزو الاسباني للجزائر في القرن 16 أسبابه ومراحل ونتائجه" في مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973 ص251.

1223 - مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس..."، المرجع السابق، ص100.

1224 - توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص27.

1225 - توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص26.

1226 - خلدها الشعراء والأدباء المحليون في كثير من القصائد والأشعار الملحونة.

1227 - توفيق المدني، المرجع نفسه، ص28.

1228 - مملكة "كوكو" تقع بمنطقة القبائل يعود تاريخ تأسيسها إلى الفترة التي تلت حكم الدولة الزيانية وبداية ظهور الأخوين عروج وخير الدين (القرن 16)، ويعتقد أن أصل ملوكها من الأدارسة ملوك فاس وتلمسان، بعد سقوط الدولة الإدريسية، والجد الأكبر لهم هو عمار بن إدريس، وكانت العلاقات سيئة ومتوترة على ما يبدو بينها وبين السلطة العثمانية التي نصبت بالمنطقة حامية عسكرية قوامها نحو 8000 جندي، انظر أحمد ساحلي، أعلام من زواوة - إقواون - مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، بدون سنة، ص50.

وقد تعرض "حسن بن خير الدين" لثورة الانكشارية¹²³⁰ التي تمردت عليه، ولا شك أن الانتصارات الكبيرة التي حققها "حسن باشا" لم تمر دون إثارة أحقاد المتربصين والمنافسين، خاصة مع شروعه في إحداث إصلاحات جذرية في الإدارة والجيش فأحاطت الدسائس بالرجل ليلقى عليه القبض ويحمل مكبلا إلى القسطنطينية، وتولى بعده ثلاثة حكام لم يصمدوا طويلا في الحكم أمام براءة "حسن باشا" الذي أعيد لمنصبه مجددا¹²³¹. وعند عودته سنة 1562م حاول اقتكاك مدينة وهران من يد الإسبان، فحاصرها برا وبحرا دون جدوى، فانكفأ على الاهتمام بتنظيم الشؤون الإدارية الداخلية للولاية فقسم البلاد إلى أربعة ولايات بايلك الشرق والغرب وال تييطري ودار السلطان. ووقع في عهده احتلال الأسبان للمرسى الكبير مرة ثانية 1564. كما ساهم مع العثمانيين في حصار مالطة للسيطرة عليها لكنها استحال عليهم لموقعها شديد المناعة، ولما بلغ منه الكبر والجهد مبلغه استدعاه السلطان في نهاية الأمر ليكافئه بوزارة البحر كأبيه من قبل والاستفادة من خبراته المكتسبة¹²³².

ونظرا لموقع الإمارة المنيع في قلب جبال جرجرة فقد كان الأتراك يتحاشون الدخول في مواجهة معها، انظر: Tahar Oussedik, *le royaume de Koukou*, E.N.A.L, Alger, 1986, p22 ورغم ذلك فقد نشطت بها التجارة التي ربطتها بمختلف جهات البايك، وكانت القوافل تغدو وتروح إليها خصوصا من ورجلان (ورقلة حاليا)، انظر: أبو زكرياء يحي بن أبو بكر، *سير الأئمة وأخبارهم (المعروف بتاريخ أبي زكرياء)* تحقيق إسماعيل العربي، (د.م.ج)، الجزائر، 1984، ص 127، 1229 - شكلت المصاهرة أو الزواج السياسي كما يحلو للبعض تسميته أسلوبا متينا في إرساء قواعد الأمن والوحدة والاستقرار في مختلف جهات الإيالة في العهد العثماني، وقد لجأ إلى هذا الأسلوب الكثير من القادة والزعماء لتقوية نفوذهم ودرء الأخطار المحتملة وقد صاهر أحمد باي آخر بايات قسنطينة (1826/ 1837) بين العائلات الكبيرة وربط بينها خاصة قبائل فرجية وزواغة، وارتبط بإحدى بنات أسرة المقراني والمدعوة عيشوش بنت الحاج بن عبد السلام المقراني وكان تأثيرها على قرارات زوجها أحمد باي واضحا وجليا حينما أثنته عن إيقاع العقوبة، بأبيها حينما زج به في سجن القصبة بسبب خلافات عائلية. وارتبط أيضا بابنة بومزراق باي التيطري، كما تزوج من " خدوجة " أخت حمدان خوجة المثقف الجزائري المخضرم. وتزوج "عروج" من قبل من زوجة "سالم التومي" الذي كون قد توفي عنها، وتزوج الباي "مصطفى بوشلاغم" من عدة نساء صاهر بهن شيوخ النواحي الغربية وقوادها، وبفضل ذلك استمر في الحكم زهاء ثلاثين سنة كاملة. وتزوج "أحمد باي القلي" 1756 / 1771 من أسرة بوعكاز وابن قانة والمقراني، وزوج شقيقته إلى فرحات ابن أخ شيخ العرب "علي بوعكاز" وقد حذا حذوه خليفته "صالح باي" (1771/ 1792) وابنه "أحمد الشريف" في الزواج من أسرة بن قانة، وفي كثير من الأحيان ما تكون المصاهرة وسيلة لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين السلطة والقبائل.

- de Grammont. *op.cit.* 1887. P73. 1230

1231 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام المرجع السابق، ص 340.

1232 - توفيق المدني، محمد عثمان باشا، المرجع نفسه، ص 26.

ويمكن القول أن مدرسة جزائر غرب البحرية الميدانية، كانت كفؤة في تخرج الإطارات العسكرية التي استفادت منها الخلافة العثمانية¹²³³، في تقوية نفوذها واستخلاص تجارب عديدة لمقارعة العدوان المسيحي الإسباني الذي كان يمثل آنذاك القوة البحرية الأولى عالميا، وقد نوه بشجاعة ربانها الرحالة المغربي "التمغروطي" في كتابه "النفحة المسكية" حيث ذكر أن إحدى الهدايا الثمينة التي أرسلتها الإيالة للسلطنة وقعت فريسة للصمصوم البحر في غياب القراصنة الجزائريين¹²³⁴..

ويعد "صالح ريس" (1552-1556م) خير خليفة لجيل المؤسسين الأوائل، إذ جسد شخصية الحاكم القائد الذي سخر جهده في توطيد أركان الدولة والقضاء على الفتن، فواصل بسط نفوذ الإيالة حتى الجنوب وألحق "توقرت" بحكمه، وفرض إتاوة على حكام "فاس"، كما ضم "تلمسان" نهائيا لحكمه. واسترجع "بجاية" من يد الإسبان سنة 1554 بعد 35 سنة من الاحتلال، ولم يقض "صالح ريس" أجله إلا بداء الطاعون، الذي ضرب البلد بينما كان يستعد بجدة لاسترداد وهران¹²³⁵، بعدما شرع في تحضير لوازم الحملة لاسترجاع المدينة عن عمر يناهز السبعين سنة¹²³⁶.

وجاء بعده "العلاج علي" (1568 - 1571م) الذي كان من قدماء الأسرى النصارى الذين أسلموا وساهموا في إنقاذ بقايا المهجرين الأندلسيين، كما شارك في حرب الصليبيين إلى جانب العثمانيين في موقعة "ليانت" الكبيرة سنة 1571م، التي تحطم فيها أسطول الخلافة العثمانية، وقد أبلى فيها العلاج علي بلاء حسنا، ونظير ذلك استدعاه السلطان العثماني "سليم الثاني" وكلفه ببناء وتنظيم الأسطول العثماني من جديد¹²³⁷.

وكان "علاج علي" رجلا واعيا لدور الدولة العثمانية والأخطار المحدقة بها، لأنه جاء في عهد بدأت فيه ملامح الضعف تدب في أركانها، وقد حاول أن يمنح الدولة القوة من خلال إشراك إدارة

1233 - ممن نال أيضا شرف قيادة البحرية العثمانية "حسن ميزومورتو" باشا الجزائر السابق، فبعد انتهاء خدمته في الجزائر عُيّن في رتبة "قبطان باشا" وتمكن سنة 1695 من هزم "البنادقة" في موقعة "شيو" Chio، وبعدها بستين أصيب بطلق ناري في فخذه خلال معركة أندروس Andros جنوب اليونان، لكنه استمر في قيادة البحرية بكل عزم وجراءة، حتى وفاته انظر: De Grammont, op.cit, p 258

1234 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج02، المرجع السابق، ص147.

1235 - AL-Tilimsani, op.cit., p 133.

1236 - توفيق المدني، محمد عثمان.. المرجع السابق، ص28.

1237 - توفيق المدني، المرجع نفسه، ص30.

الايالات الغربية تونس الجزائر ليبيا في المعركة، وقد أدرك مبكرا تحول منحى القوة لغير صالح العثمانيين بعد معركة ليباني¹²³⁸ المذكورة أعلاه..

ويمكن القول أن جيل المؤسسين الأوائل قد عرف هو الآخر بداية نهايته بعدها وانحزام القوى الإسلامية فيها، ويبقى التأكيد على القول بأن هؤلاء القادة كانوا "مهندسي" إنشاء دولة متميزة ومنظمة وواضعي بذرة كيان جغرافي وسياسي جديد اسمه "الجزائر" على حد تعبير المؤرخ والباحث الفرنسي المعاصر "روبرت مانتران".

ثانيا: حكام ضعاف النفوذ والتأثير

شكل هذا الصنف أغلبية حكام الإيالة وقد تميزوا بضعف الشخصية وقلة التأثير في مجريات الأحداث التي عاصروها وسوء التصرف إزاءها، وقد قصرت فترة حكم أغلبيتهم ومنهم من لم تتجاوز فترة حكمه اليوم الواحد.

كما اتسم بعض هؤلاء بكونهم علوجا دخلوا في الإسلام بعدما تم أسرهم، منهم حسان قورصو¹²³⁹ 1556-1557 ورمضان علعج¹²⁴⁰ الذي حكم في الفترة من 1574 إلى 1577 ثم عين بايا على تونس في 1577، وحسين علعج المدعو فينزيانو¹²⁴¹ 1577 - 1580 وجعفر علعج¹²⁴²

1238- أبو القاسم سعد الله، أبحاث.. المرجع السابق ص189.

1239 - حسان قورصو من المهتدين أصله من جزيرة كورسيكا الإيطالية دشن ولايته بحصار وهران بحرا حتى ضاقت بالأسبان السبل فوجهوا ضغطهم في البحر المتوسط مما اضطر قورصو إلى الانسحاب من وهران نزولا عند طلب السلطان العثماني. وفي سنة 1557 عين جلي على رأس الإيالة مكان قورصو، ولا نعلم سبب هذا التغيير، فهل كان "حسان قورصو" غير مؤدي لوظيفته على أحسن وجه فعزله السلطان، أم أن هناك أمورا أخرى؟؟ غير أن الأكيد أن حسان قورصو رفض الامتثال لأوامر التنحية فوقعت فتنة انتهت بمقتل "كردو جلي" و"حسان قورصو".

1240 - كان "رمضان علعج" هو الآخر من المسيحيين المهتدين ساهم في حملة سنة 1575 لمناصرة "مولاي مالك" ضد "مولاي محمد" في المغرب الأقصى، ووقع في عهده أسر الشاعر الاسباني "سارفانتس" لما كان على سفينة اسبانية في البحر المتوسط، مكث في الأسر بالجزائر نحو 05 سنوات ثم عاد إلى اسبانيا حيث كتب قصته "دان كيشوت" الشهيرة سنة 1605 التي تدور أحداثها حول فارس إسباني أصيب بالجنون فتخيل نفسه يقاتل طاحونة هواء ظنا منه أنها فارس خصم، ومن خلال ملامح هذه القصة يبدو جليا تأثر "سارفانتس" بالأدب العربي والحضارة الإسلامية. للمزيد من المطالعة في الموضوع انظر: عبد اللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ص291،

1241 - أصله من البندقية من مساهماته تحصين مدينة الجزائر وتهينة دفاعاتها ضد الإسبان.

1242 - جعفر علعج 1580-1582 أصله من المجر حاول تجديد مساعي بسط النفوذ على المغرب الأقصى لكن حكومة فاس احتجت لدى السلطان العثماني فحواله إلى حكم ولاية أخرى....

1580-1582 وحسن أغا نفسه كان من أصول كورسيكية وكذا قايد رمضان من جزيرة سردينيا وغيرهم.

وما يمكن ملاحظته في هذا المضمار هو تداول الحكام ذوي الأصول الأوروبية بعد دخولهم في الإسلام خلال الفترة الأولى من الحكم العثماني، بينما قل وجودهم في الفترات المتلاحقة وهو ما يمكن تفسيره بتراجع دور البحرية الجهادي القائم على الدفاع عن بلاد المسلمين، وضعف البريق الذين طالما كان مؤثرا في نفوس الأسرى الأوروبيين المحتجزين في عرض البحر¹²⁴³.

ووقعت في هذه الفترة بعض الظواهر الطبيعية وتركت انطبعا غريبا عند السكان ممزوج بالحيرة والخوف، ولم يكن للفقهاء والعلماء دورا في توضيحها للعامة. ففي عهد محمد باشا وقع كسوف كلي للشمس سنة 1748 بمدينة الجزائر وخلق حالة من الهلع والفوضى، وتعالى الصياح والنواح في المدينة، وكان الناس يحرون مذعورين في الشوارع والطرق.

ويشكل هذا الحدث صورة سيئة لعمق الدولة الهش، ويدعو إلى التساؤل عن مكانة وحضور النخب الدينية وتأثيرها في المجتمع والناس، وغياب التفسير العلمي للظاهرة بالرغم من ورود ذكرها في القرآن والسنة، وتلى ذلك سنة 1754 نزول كميات كبيرة من الثلوج والجليد على مدينة الجزائر رغم موقعها الساحلي ومناخها المعتدل، فحق فعلا تسمية عهد محمد باشا بعهد الظواهر الطبيعية الغربية¹²⁴⁴، كما اهتزت المدينة على وقع الكثير من الزلازل التي خلفت آلاف من القتلى ودمارا كبيرا وخلفت كذلك مزيدا من الخرافات التي عششت داخل مخيلة الأهالي¹²⁴⁵.

1243- لقد كان إشهار إسلام أهل الذمة من يهود ونصارى ظاهرة شائعة في العهد العثماني في المشرق والمغرب الإسلاميين، ولم يكن إسلام الذميين قاصرا على طائفة دون أخرى، بل شمل اليهود المصريين والأجانب من النمسا وأزمير والنصارى الأرمن والنصارى الشوام والمصريين والايطاليين و الجنويين والصقليين، ويقر من يريد الدخول في الإسلام بوحدانية الله ونبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وينبذ غيره من الأديان طائعا مختارا أمام القاضي المسلم والشهود العدول، انظر: سلوى علي ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها السياسية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص45. وكان الدخول في الإسلام يتم أمام القاضي وبحضور شهود عدل انظر الملحق رقم 04.

133. op.cit Al-Tilimsani - 1244

1245 - تشير المصادر التي كتبت عن الزلازل والظواهر الطبيعية الغربية إلى انتشار أساطير وخرافات تدور حول موضوع نشأة الكون وتسييره والظواهر المختلفة التي تعتريه، انظر: محمد غالم، "ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية بين الذاكرة والتاريخ"، في دورية إنسانيات، الأليكترونية <http://insaniyat.revues.org> 9 mai 2013

ولم تشفع بعض المنجزات الكبيرة لأصحابها عند السلطان وعند العامة، وهو الشأن بالنسبة لمحمد بكداش صاحب فتح وهران الأول الذي قضى بسبب تمرد الانكشارية عليه¹²⁴⁶.

ثالثا: الحكام المتأخرون

يرى الكثير من الدارسين أن أوضاع الجزائر خلال القرن 18م أصبحت أكثر استقرارا حيث انتعشت التجارة وحركة الهجرة والتبادل بين مختلف جهاتها، بعدما تمكن حكام الفترة من بناء شبكة طرق لربط جهات الإيالة، والحرص على توفير الأمن والسلامة للسكان¹²⁴⁷، لكن الحالة العامة في البلاد أواخر عهد الدايات كانت مضطربة بسبب الضرائب والفساد الإداري وحركات التمرد المختلفة¹²⁴⁸، وصارت سياسة الحكام تقوم على إطلاق العنان للانكشارية فأكثروا في البلاد القتل والفساد، وصار همهم الحصول على الأموال التي تشبع رغباتهم وتؤمن لأشخاصهم حياة رغيدة¹²⁴⁹. وقد برزت هذه السليبيات خاصة بعد وفاة الداوي "محمد عثمان باشا" الذي ضرب مثالا في حسن السير في¹²⁵⁰ الرعية، حيث بدأت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية تتعقد، وتلقي بظلالها على الواقع السياسي، فانتهجت الدولة سياسة اقتصادية جديدة لتعويض نقائص القرصنة، تقوم على تصدير المحاصيل الزراعية للخارج، وكانت عمليات التصدير تتم بواسطة الشركات الأوربية والمحتكرين اليهود من أسرة "بكري" و"بوشناق"، وتزامن هذا مع جملة من الهزات الاجتماعية كوقوع البلاد تحت

1246- احتفى الشعراء والفقهاء والأدباء والمهتمين بالتراجم والسير بالإنجاز الكبير الذي طال انتظاره والمتمثل في فتح وهران الأول سنة 1707 على يد محمد بكداش منهم صاحب كتاب التحفة المرضية محمد بن ميمون الجزائر الذي ألفه بهذه المناسبة وجمع فيه نخبا من الأشعار والمدائح والذكر الطيب في حق محمد بكداش، لكن الداوي بكداش لما أرسل مفاتيح مدينة وهران للباب العالي بعد فتحها، طلب من السلطان منحه قفطان الباشوية لصهره حسن أوزون، لكن الباب العالي رفض ذلك، وقام بكداش بالوقوف في وجه الداوي الجديد المعين، لكن تمرد لم يدم طويلا، خاصة مع امتناع باي قسنطينة من تسليم دنوش سنة 1709 مما دفع بالانكشارية للثورة عليه وقتله رفقة صهره حسن أوزون. انظر: محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 258 و

De Grammont. Op.cit. p274.

1247 - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص ص 446-459.

1248 - زاهية قدورة، المرجع السابق، ص 492.

1249 - De Grammont, op.cit., p414.

1250 - كان محمد الكبير رمزا للاستقامة والتدين بعيدا عن الشبهات، لا يدخن ولا يشرب الخمر، فرض على التابعين له وخدامه في القصر نفس الشيء وقد نوه بخصاله الكثير من المؤرخين المعاصرين له مثل فونتور دوبارادي. انظر:

Latifa el hassar zeghari, les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda
197jadis esclave a Alger XVIIème siècle, casbah éditions, Alger 2004, p

تأثير المجاعات نتيجة القحط الذي أضر بالزراعة، والسياسية كثورات درقاوة 1805 والتيجانية سنة 1818م، والصراع مع حكام تونس¹²⁵¹ من 1806م إلى غاية 1817، فتناقصت المساحات المستغلة وتعدّد النظام الجبائي وعجز على سد نفقات الدولة، وساءت الأحوال الصحية والمعاشية وانكمش الاقتصاد، بسبب انتشار الأوبئة الفتاكة كالطاعون والاضطرابات المناخية والجفاف والفيضانات، وغزو الجراد والزلازل والحرائق وغلاء الأسعار وشح الأقوات وإتلاف المزروعات¹²⁵².

وكان بإمكان حكام النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إدراك عوامل التفتت والضعف في الدولة والشروع في الإصلاح، سواء بالتنسيق مع الباب العالي أو بإشراك النخب المحلية العسكرية والدينية المختلفة واغتنامهم التحولات الدولية الحاصلة فيها، منها رياح التغيير التي بدأت تهب على الملكيات المطلقة في فرنسا، ثم في بقية دول أوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر، لكن قوة الجمود والمحافظة على الأوضاع القديمة كانت بالنسبة لحكام هذه الفترة مصلحة عليا وقيم لا يجب التفريط فيها. يتقدمهم محمد بن عثمان باشا 1179-1765 الذي أطلق عليه "أحمد الشريف الزهار" نقيب أشرف الجزائر 1754-1830 في مذكراته لقب المجاهد¹²⁵³، لأنه سخر كل مقومات الدولة لجهاد الأوروبيين.

وفي عهده وقعت الحملة الاسبانية الكبيرة بزعماء "أوريلي" على مدينة الجزائر وشارك في صدها صالح باي حاكم الشرق، وكان له دورا بارزا في اندحارها¹²⁵⁴ ويرجع الزهار ذلك في اعتقاده لعوامل غيبية تمثلت في نصر الله للجزائريين وتأنيده لهم؟ حيث يقول "وحقيقة الإيمان كانت في ذلك الوقت لا زالت موجودة"¹²⁵⁵

كما قامت قبائل فليسة بالتمرد سنة 1181-1767 على النظام العام والسلطة، وكانت بهذه المنطقة كثير من الأعراف الجاهلية، كحرمان المرأة من الميراث ومنع الزكاة وغيرها، فأخضعها "محمد

1251 - كان حمودة باشا (ت 1813) من بابايات تونس الذين كانت لهم طموحات توسعية كبيرة تجسدت في محاولة بسط النفوذ على جربة والهجوم على قسنطينة. عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 483.

1252 - انظر وصف أحوال بابلوك الشرق ومختلف أزمتاتها من طرف الشاعر "بلقاسم الرحموني" في آخر هذا الفصل.

1253 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 23.

1254 - انظر دور صالح باي في صد الحملة الاسبانية في: محمد العنزي، تاريخ قسنطينة المسمى فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاؤهم على أوطانها، تح يحي بوعزيز، دار البصائر 2009 ن ص 62 وما بعدها.

1255 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ص 27.

باشا" خلال ثلاث سنوات من الحرب الضروس، بعدما أعلن أفرادها التوبة عن هذه الأفعال، فجعل لهم محمد باشا شيوخا وعلماء يفقهونهم أمر دينهم¹²⁵⁶.

وفي عهد مصطفى باشا وقعت أزمة سياسية بين الجزائر وفرنسا، حيث تم إلقاء القبض على قنصل فرنسا ووضعه في السجن بمدينة الجزائر. مما دفع بمسئول مهم في دولة فرنسا للمجيء للجزائر وعقد صلح معها ويتعلق الأمر بـ "دوبوا تانفيل" Dubois-Thainville وكيل الجمهورية الفرنسية¹²⁵⁷، كما وقعت في عهده حادثة مقتل اليهودي بوشناق نفتالي رئيس الطائفة اليهودية الذي كان يلقي حماية من الداوي مصطفى، فقام احمد خوجة احد الكتاب الأربعة الكبار في الحكومة والذي عزل من طرف مصطفى باشا بتحريض مجموعة من الجند فوثبوا على مصطفى باشا وقتلوه فانتقم احمد خوجة لعزله وجلس على كرسي الحكم لفترة قصيرة¹²⁵⁸.

ويندرج ضمن هذا الصنف من الحكام الداوي عمر، الذي تولى بعد مقتل علي باشا، وحينما تولى شرع في محو آثار ومخلفات أعمال سلفه السيئة، حتى لا تنقلب عليه الأمور فقرر إبعاد الانكشارية عن التدخل في الشؤون السياسية تأسيسا بحموده باشا التونسي، وعوّل كثيرا على الفقهاء لرأب الهوة التي كانت بين السلطة التركية والجزائريين خاصة صهره مفتي الجزائر الشيخ مالك¹²⁵⁹.

ويوصف الداوي "عمر" بأنه كان رجلا عاقلا وحكيما، أخلص لأهل الجزائر فأحبه الصغير والكبير، وكان يحب الإعمار والزخرفة، لكن تزامن اعتلاءه منصب الداوي مع وقوع وباء كبير في المدينة أزهد عشرات المئات من الأرواح تلاه غزو الجراد وفي 1230-1815 فتشاءم الناس منه¹²⁶⁰.

وساهم الداوي عمر في عودة الفرنسيين للاستثمار في ميناء القالة مقابل إتاوة سنوية تبلغ 200.000 فرنك وفي أبريل 1816 قام اللورد الانكليزي إكسماوث بحملته على مدينة الجزائر التي

1256- احمد الشريف الزهار، المصدر نفسه، ص28.

1257 - جمال قنان، العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830 نشر متحف المجاهد، طباعة دار الميزان للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص 179.

1258 - جمال قنان، المرجع نفسه، ص 180.

1259- عزيز سامح البتر، المرجع السابق، ص613.

1260- المرجع نفسه، ص612.

صُدّت ثم تجددت الحملة في أوت 1816، متزامنة مع حملة الأميرال الهولندي "فان دار كابيلن" Van-der-Capelins¹²⁶¹. ووقع اتفاقية مع الأمريكيين بوساطة القنصل الأمريكي وليام شالر¹²⁶².

ويبدو أن الداوي عمر كان مهزوما ماديا ونفسيا، فقد اعترف بالهزيمة ووقع معاهدة التنازل للورد إكسماوث دون شروط، فأطلق سراح الأسرى وامتنع عن المطالبة بأي تعويضات جراء قصف مدينة الجزائر والميناء، وأقصى ما قدر عليه الرجل أن كتب في آخر رسالته للورد " فإن شروطهم قد قبلت فليذهبوا إلى الجحيم " ¹²⁶³.

وجدد الداوي عمر باشا 1815-1816 نفس الطلب من الباب العالي والذي التمس خليفته من قبل ويتجلى ذلك في إعادة بعث الارتباط بمركز الخلافة التركية للمحافظة على الاستقرار الداخلي واستتباب الأمن¹²⁶⁴، وهو ما ينبئ باتساع رقعة العصيان الشعبي وخروج نطاقات كثيرة عن الطاعة والولاء وتفكك بنیان الدولة، وبداية حدوث الوحشة والقطيعة بين الرعية والأترك¹²⁶⁵.

وقد أحس الأوروبيون بهذا التحول في استراتيجيات الإيالة، فقد وصف القنصل ديفال عمر باشا بقوله: "كان يتمتع بشخصية هادئة ومفكرة، كان عنيفا"¹²⁶⁶ غير أنه كان عادلا نجح في تحويل وربط الناس جميعا بمركز السلطة باسطنبول، وكان على تفاهم كبير معها"¹²⁶⁷.

وفي 15 ماي 1816 أعلن "الورد اكس ماوث" للداوي عمر اتفاق دول أوروبا على إنهاء القرصنة¹²⁶⁸، لكن الداوي "عمر" رفض التسليم بهذا الأمر معتبرا العملية مؤامرة من طرف المسيحيين

1261- المرجع نفسه، ص 612.

1262- عزيز سامح اليتز، المرجع السابق، ص 612.

1263 - المرجع نفسه، ص 612.

1264 - جاء في إحدى الرسائل: " منذ استلامي مقاليد الحكم وأنا ساهر على حماية البلد كان الواجب يحتم علينا رفع الطاعة والولاء لكم والدفاع عن البلاد مجاهدنا وحماية الفقراء والضعفاء وحل المشاكل المعلقة على الدولة إن عبدكم لصارف نهاره وليله إلى أداء مثل هذه الواجبات" انظر محمد شاطو، "السلطة العثمانية وعلاقتها بالطرق الصوفية" في مجلة المواقف، العدد 03، جامعة معسكر، 2008، ص 164.

1265 - محمد شاطو، المرجع نفسه، ص 164.

1266 - وصف الزهار في مذكراته فترة حكم عمر باشا بقوله أن أيامه كلها كانت مصائب ومشاكل: الجراد والغلاء، كثرة الموت، هجوم الإنكليز، وكان سفاكا للدماء. انظر: أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 127.

1267- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، المرجع السابق ص 237.

ضد المسلمين، للتخلي عن عمل شرعه العرف والدين وأنهى المقابلة معه بسرعة، وتعرض الوفد الوزاري للاهانة خارج مقر الداوي من طرف الأهالي¹²⁶⁹، كما تعرضت أملاك الأوروبيين في بالك الشرق للسطو بتوجيه من الباوي مما حدا بالقنصل الأمريكي إلى قصف مدينة الجزائر.

ثم تولى الحكم الداوي "علي باشا" الذي وُصف بأنه كان "عبوسا وشريرا مدمنا على الأفيون يتلذذ بالتعذيب وأشكال القتل رغم أنه كان مثقفا يحب القراءة والمطالعة"¹²⁷⁰ فكيف اجتمعت هاتين الصفتين في شخص علي باشا يا ترى؟، استبد الداوي علي باشا بالحكم وصار يشرع القوانين على هواه، ففي فترة القحط التي مرت بها الإيالة، أصدر مرسوما يمنع بموجبه بيع القمح خارج البلاد حفاظا على وفرة في الأسواق المحلية، لكن هذا أدى إلى ممارسة تجارته سرا، كما أصدر مرسوما آخر يقضي برمي النساء الزانيات في البحر، لينتهين عن فعل هذا الجرم، لكن مؤسسات الدولة كالديوان والقضاء مارست ضغوطا كبيرة عليه للعدول عنه، وتعويضه بنفيهن إلى إقليم شرشال¹²⁷¹، وكان الداوي "علي" غير كفء في إدارة البلاد من خلال ما وصفه به "فونتور دو بارادي" *Venture de Paradis* حيث ذكر بأنه كان فاسدا مرتشيا مبذرا للأموال، وقال عنه " : "أنه أنفق كل أموال الخزينة على رفاهية أولاده وزوجته"¹²⁷².

وعمل علي باشا على فرض التدخين على الناس بالقوة فمنع الخمر وعاقب أصحابها وأمر الناس بالصلاة مع الجماعة ونادى مناديه في الأسواق والباحات العامة : " أنه من بقي بديكانه بعد

1268 - كان هذا بعد انعقاد مؤتمر فيينا في الفترة من سبتمبر 1814 إلى جوان 1914 حيث وضعت دول أوروبا رؤية جديدة لفترة لفرنسا ما بعد نابليون بونابرت، وكان من المسائل التي ناقشها المؤتمر وضع حد للقرصنة في البحر المتوسط... من أبرز البنود التي فرضت على الداوي:

أولا منع وتحريم ممارسة القرصنة.

ثانيا تحريم كل العبيد المسيحيين في مدينة الجزائر والمقدر عددهم بنحو 1200 جلهم إسبان وإيطاليون.

ثالثا دفع ضريبة تعويضية تقدر بنحو 500.000 فرنك.

لكن وبغض النظر على مقررات مؤتمري "فيينا" و "إكس لاشايل"، تركت الحرية للداوي للاستمرار في القرصنة ضد الدول الصغيرة، لكن بشرط عدم اعتبار المأسورين من المسيحيين "عبيدا" ولكن اعتبارهم "أسرى حرب"، انظر H.-D. De Grammont.

Opcit. P316.

- de Grammont. **ibid.** P316. 1269

1270 - سامح اليتر ، المرجع السابق ص595.

1271 - المرجع نفسه، ص615..

1272 - *venture de Paradis*, **Op.cit** ,p101.

الآذان فلا يلومن إلا نفسه"¹²⁷³، كما كان شديد الفتك بخصومه وموظفيه الذين يتوجس منهم فزرع بينهم وفي ثكناتهم المخبرين والوشاة فانعدم الأمن وزالت الثقة في الباشا ومحيطه، حتى أنه كان لا ينزع سلاحه أبدا¹²⁷⁴.

وشارت عليه الإنكشارية بسبب انقطاع رواتبهم، فقضى على أغلب الناقمين سنة 1817 م، ثم نقل الخزينة إلى القصبة بمساعدة القبائل و الكراغلة¹²⁷⁵

وقد رفع عنه "محمد خسرو" وزير الحربية العثمانية تقريراً سلبياً للسلطان "محمود الثاني" وصفه بالتهور والظلم خاصة مع المسيحيين بحيث حول كل الصداقات السابقة بين الإيالة والدول الأجنبية إلى منازعات ومهاجمات¹²⁷⁶. وقد اغتيل الحاج علي في حمامه وكان وزيره "عبد الله" أحد المنفذين للعملية ما ينبئ عن تدمير الجميع من سياسته السيئة¹²⁷⁷.

وفي 1818 تولى الإيالة الداوي حسين 1233-1818 الذي حكم في ظل تحولات عالمية ومحلية كبيرة، منها التقارب الأوروبي بشأن الكثير من القضايا الدولية كالتجارة العالمية وممارسة القرصنة وتجارة العبيد، وقد كان من الممكن أن يلعب الداوي حسين في ظل ذلك أدواراً تؤهله للانخراط في السياسة العالمية، لقد أضاع الداوي حسين آخر الفرص الثمينة التي كان بإمكانه اغتنامها، لتغيير شؤون الإيالة وتجنّبها كارثة 1830.

لكن أقل ما يمكن قوله أن الرجل جاء في ظل ظروف صعبة، ومحيط غير قابل للتجديد، أو إعادة التفكير في المعطيات الدولية، وبين نُخب لا تفكر في التحديث والتجديد بل تعتبر ذلك منافياً للدين، مما حدا بالنظام السياسي إلى الوقوع في كثير من الأخطاء الجسيمة التي أطلقت العد التنازلي لزوال إيالة الجزائر. ويؤكد بعض هذا المعنى ما ذهب إليه "سيمون بفايفر" بقوله أن "الداوي حسين" رفض الأخذ بالتجديد والتطوير في دولته، لأن ذلك في اعتقاده يعد "تقليداً للكفار"، بعدما رفض

1273 - الزهار، المصدر السابق، ص137.

1274 - المصدر نفسه. ص136.

1275 - Ghalem, Mohamed, "L'histoire de l'Algérie des origines à 1830" in Algérie, 2000.p29.

1276 - التميمي، بحوث ووثائق .. المرجع السابق، ص234.

1277 - المرجع نفسه، ص236.

طلباً من السلطان العثماني يأمره فيه بتجهيز الجيش على الطريقة الأوروبية¹²⁷⁸، وقال للرسول: "إن احترامه لقوانين آبائه وأجداده وتقاليدهم أكبر من أن يسمح له بتقليد تحديدات الكفار"¹²⁷⁹.

وإن صح هذا الخبر فإن الداوي حسين يمثل حلقة ضعف وفشل وركود، في أعلى هرم الدولة ويكون قد ساهم بصورة كبيرة في ما آلت إليها إيالة الجزائر سنة 1830، وجسّد نمط النظام السياسي المغلق على ذاته، الرفض للابتكار والأخذ بأسباب التطور في شتى المجالات، خاصة في الميدان العسكري الذي يشكل رأس الحربة في أي نظام سياسي.

ورافقت فترة حكمه جملة من الأزمات المحلية والدولية، فقد تجدد النزاع مع تونس سنة 1820، واشتعلت الحرب بينهما، ووقعت مدينة البليدة تحت زلزال كبير كاد يبتلع المدينة، وتم اغتيال أغا العرب "يحيى أغا" في 1825م، ووقع نهب العديد من منازل البعثات القنصلية بعناية¹²⁸⁰.

وفي 1820م تم توقيع معاهدة بين الإيالة وفرنسا بوساطة القنصل الفرنسي "دوفال"، كما تم في سنة 1822م توقيع معاهدة صلح مع جمهورية "توسكانيا" الإيطالية بوساطة القنصل البريطاني "سير ماك دونالد"، وكان القصد منها امتصاص الغضب الدولي بسبب اضطراب الأوضاع في البحر المتوسط واستمرار النشاط القرصني بعيداً عن الرقابة، وفي سنة 1827 بدأت الأزمة السياسية مع فرنسا والتي أساء الداوي حسين معالجتها وانتهت باحتلال الإيالة واجتثاث النظام السياسي التركي في الجزائر من جذوره.

وإذا وُجه إليه لَومٌ ففي شكل تسيير الحكومة، وأنه لم يستعمل جميع وسائله الممكنة لمنع الحرب بين الجزائر وفرنسا¹²⁸¹، إذ لم تكن معركة الجزائر الأخيرة التي خاضها الداوي حسين ضد قوات

1278 - شرع السلطان سليم الثالث في تجديد الدولة العثمانية أوائل القرن التاسع عشر ببناء مدرسة عسكرية حديثة على النمط الأوروبي، وكلية للهندسة لتدريب الجيش الانكشاري، لكن النخب العسكرية المحافظة رفضت هذا التجديد وتمادى الجيش الانكشاري في رفض الإصلاحات وأعلن العصيان على السلطان، فما كان من السلطان إلا أن قضى عليه بعدما صار عبئاً على الدولة. انظر، عبد الحميد أبو سليمان، "الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني" في المجلة التاريخية المغربية العدد 57-58 ص 45-54.

1279- سيمون بفايفر، مذكرات سيمون بفايفر أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تر أبو العيد دودو، (ش.و.ن.ت.). الجزائر، 1974، ص 45.

1280 - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 74.

الاحتلال الفرنسي منظمة جيدا، والجيش المقاوم لم يكن كل أفرادهم يتقاسمون فكرة واحدة وهما مشتركا¹²⁸²، وفضلا عن ذلك لم تكن الظروف المحلية في صالحه، أمام الصمت المبهم لبايات تونس، وعجز ملوك المغرب على تقديم يد المساعدة عسكريا، وعزم باشا طرابلس "يوسف بن علي باشا قرمنلي" على إمداد الداوي حسين بمزيد من الصلوات والأدعية في المساجد والصلوات¹²⁸³.

ومن خلال ما تقدم يمكن القول أن جل حكام المركز الذين تولوا حكم الجزائر في العهد العثماني، كانوا قد تولوا في ظروف خاصة كالانقلابات والاعتقالات والثورات وحركات التمرد، ولم تتشكل نواة نظام سياسي يتسم بالاستقرار والاستمرارية. وشملت معظم أعمال ومنجزات هؤلاء الحكام مع مرور الزمن الأعمال العسكرية والدفاعية المرتبطة بأجواء انعدام الاستقرار بحكم تواصل المعركة بين ضفتي البحر المتوسط، تلك المعركة التي كان في مخيلة كل طرف منها القضاء على الطرف الثاني أو إضعافه، فاستبعدت الحلول القائمة على التفاهم وحسن الجوار. وبالتالي فقد نالت الثقافة والدين واللغة والفقه خلال هذه الفترة حظا وافرا من التهميش والنسيان في خضم السباق نحو الهيمنة وعسكرة المحيط الاجتماعي والسياسي والثقافي.

كما كانت أعمال القتل للباشاوات سمة بارزة، بسبب التأخر عن دفع الأجور للجنود والمنح والأعطيات، وهو ما حدث للداوي مصطفى سنة 1705م حيث وثبت عليه الحامية التركية بمدينة القل وفتكت به، عندما كان في طريق عودته من حملته على تونس¹²⁸⁴، ونال "محمد بكداش" نفس المصير وغيرهما، مما ينم عن وجود مؤسسة عسكرية غير محترفة، وغير نابعة من رحم الأزمة أو مرتبطة بأمن الأمة، ومتفهمة لدورها الإقليمي.

المطلب الثاني: حكام الأطراف

1281 - ويذكره "حمدان خوجة" بصفات حسنة فيقول: "وينتمي هذا الرجل الأمين الصدوق إلى عائلة نبيلة ويتمتع بمعارف واسعة وقد خدم إيالة الجزائر أكثر من ثلاثين سنة ثم يقول لكن الحظ خانته بسبب الخطأ الذي ارتكبه أعضاء حاشيته وجنوده إذ كان منهم من لا أخلاق لهم ولا خبرة ولا شجاعة"، عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 41.

1282 - الهادي الحسني، الاحتلال الفرنسي من خلال نصوص معاصرة، نشر دار عالم الأفكار، الجزائر، 2006، ص ص 75-71.

1283 - طلب الداوي حسين معونة سنة 1245 من باشا ليبيا فكان جواب "القرمنلي" سلمي جدا ومما جاء في الرد: "ونحن ما لنا قدرة نمدوكم بما إلا صالح الدعوات والصلوات في المساجد وفي كل الأوقات"؟ انظر: عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق المرجع السابق، ص 46.

1284 - Ernest Mercier, **Histoire de Constantine**, Marle et F.Biron imprimeur éditeur , 1903 , p243.

كان البايات في إيالاتهم يمثلون صورة مصغرة لحكام المركز في أعمالهم سواء الحسنة أو السيئة، وكانت مجالس البايات لا تخلو من مناقشات بين العلماء، وقد يشارك فيها البايات أنفسهم، لكن بعضهم الآخر كان شحيحا على العلم وعمل على ضموره وقلة الاعتناء به واختفاء طبقة الفحول من الفقهاء شيئا فشيئا، وصار العلم يدرّس في بعض الأوقات دون غيرها، لأن ولائها لم يهتموا ببناء المدارس والإنفاق عليها ولا بتكثير الأوقاف، لسد حاجة الطلبة والمعلمين، وقد لوحظ أن العلوم المدرسة لا تتعدى الفقه وأصول الكلام، ولم تكن تتوفر للمتعلمين دار الإقامة لهم مما شجع الكثير منهم على الهجرة نحو تونس ومصر والحجاز¹²⁸⁵.

أولا: بايات الشرق

يعد بايلك الشرق أكبر البايلكات من حيث الامتداد الجغرافي وحجم الثروات وعدد السكان، تداول على حكمه قرابة الأربعين بايا منهم ولاية أقوياء وآخرين ضعاف، وكان مقر إدارة البايلك منذ تأسيس الحكم التركي به في مدينة قسنطينة، التي طالما تغنى بها الشعراء والأدباء والرحالة، وكان سكانها رغم الخليلط القبلي المهمين عليها من الضواحي يمتازون عن غيرهم من سكان الحواضر الأخرى بالحرص على طلب العلم والفقه وحفظ تاريخ المدينة وتبليغه للأجيال اللاحقة¹²⁸⁶.

ويرجح أن العصر الذهبي لهذا البايلك والذي شهد نوعا من القوة والاستقرار يمتد من 1713 إلى 1792، حكم خلاله خمسة بايات لمدة 79 سنة أي بمعدل 15.8 سنة وتميز باستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهؤلاء البايات هم "قليان حسين باي" المدعو "بو كمية" (1713/ 1736) "حسن باي" بن حسين بوحنك (1736/ 1754) "أحمد باي القلي" (1756/ 1771) "صالح باي" بن مصطفى الزميري (1771/ 1792) وكان أغلب بايات قسنطينة يربطون علاقات طيبة مع القبائل المجاورة للمدينة ليتقوا بها نواب الدهر وتقلبات الزمن ولمؤازرتهم في الملومات¹²⁸⁷.

1285 - مختار فيلالي الطاهر، المرجع السابق، ص ص. 161 - 171.

1286 - Le Roy. *État général et particulier du royaume et de la ville d'Alger, de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer* .. 1750 p42.

1287 - Jean-Pierre Bonnafont, *Réflexions sur l'Algérie*, particulièrement sur la province de Constantine : sur l'origine de cette ville et les beys qui y ont régné depuis l'an de l'égire 1133 (1710) jusqu'en 1253 (1837) /. 1846

وكرر الباي "أحمد القلي" ¹²⁸⁸ الحملة ضد قبائل "زواوة" لتأديبها وتوجيهها بعدما أعلنت التمرد عن السلطة الشرعية، وسعت لمخالفة نصوص الشريعة بعدما أقرت حرمان المرأة من الميراث، بل اعتبرت كيانا مملوكا لغيره ¹²⁸⁹ ولم يستطع الباي تثمين هذه الحملة وإنهاء تمرد زواوة بسبب وعورة التضاريس، ويذكر أن الرحالة الورتلاني هو من نبّه الباي أحمد القلي إلى مثل هذه التجاوزات والمخالفات الشرعية التي يقتربها سكان المنطقة ، فشن هذه الحملة استجابة لداعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ¹²⁹⁰.

وكان "صالح باي" الذي أوصى به "أحمد القلي" لخلافته على رأس البايك أفضل بايات قسنطينة على الإطلاق ¹²⁹¹، وفق ما ذهب إليه جل المؤرخين، عاصر فترة حكم "محمد الكبير" باي وهران، وكان شغوفاً بالعلم ومحباً للعلماء ومجالستهم، يتحرى بدقة المسائل الفقهية، ففي مراسلاته للأجانب كان يتحرى استعمال المصطلحات الشرعية الواجب استعمالها من طرف المؤمن المتبع لهدي السنة النبوية، فحين يخاطب متصرف "الباستيون" بمدينة القالة في مراسلاته كان يستهلها بتحية أهل الكتاب بقوله "السلام على من اتبع الهدى" ¹²⁹²، ولم نجد خلال بحثنا هذا في مراسلات بايات الشرق مع الفرنسيين والأوروبيين من استعمل مثل هذه التحية غيره.

1288 - ينسب أحمد القلي لمدينة القل وهي مدينة كبيرة بناها الرومان عند قدم جبل شاهق كان اسمها القديم "شلو" احتلها الوندال فيما بعد وحطموها، ثم وفد إليها المسلمون زمن الفتح، وهي مدينة "متحضرة مليئة بالصناع وأهلها ظرفاء كرماء وأرضهم كثيرة العطاء"، انظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 54. وقد قاد فيها أحمد القلي الحامية التركية قبل أن يصير بايا على مدينة قسنطينة.

1289 - زواج الميراث زوج معروف لدى المجتمعات الريفية ويرتكز هذا الزواج على أساس أن المرأة التي يموت زوجها عنها تصير زوجة لأقرب الناس إليه خصوصا أحد أخوته، و لكنه إن لم يشأ ذلك زوجها لغيره مقابل الحصول على مهرها، و إلا خلى سبيلها وتركها لتتزوج بمن تشاء على شرط أن تتنازل عن كل ما ورثته عن زوجها المتوفى. انظر: عبد المالك بكاي، "الأسرة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10 هـ 13-16 م" في مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 17، جامعة سطيف، سبتمبر 2013، ص 82-64. (العدد محمل من موقع <http://revues.univ-setif2.dz/index.php?id=749>).

1290 - 227 Vayssettes , op.cit , p.E

1291 - يشكل صالح باي في الذاكرة الجماعية للسكان رمز القوة والحبة والصلاح والاهتمام بالرعية التي قلما تجتمع عند حاكم ولذلك ما تزال مرثيته محل تغني من الكبير والصغير.

1292 - يوجد بأرشفيف المكتبة الوطنية بالعاصمة عدة رسائل بعث بها صالح باي تتضمن هذه المعاني ومنها النسخ المخطوطة في قسم الملاحق رقم 08 (ثلاثة نسخ لرسائل صالح باي).

كما كان يعبر "صالح باي" حاكم ولاية الشرق من خلالها على سيادة الدولة وتبعية جميع الموظفين عربا كانوا أو أتراكا أو أوروبيين للدولة، ما دام الجميع يعملون ضمن اتفاقيات وشروط مضبوطة، وكثيرا ما كانت تتكرر في مراسلته عبارة "خدمنا"، التي تحمل الكثير من المعاني والدلالات¹²⁹³ ..

ومن اشتهر في عهده من الفقهاء الشيخ "عبد القادر الراشدي"، الذي جاء ذكره في تعريف الخلف للحفناوي بقوله "عبد القادر الراشدي العلامة المحقق المجتهد"¹²⁹⁴ ... له تعليقات وفتاوي ومسائل ابتكارية جلييلة وتفسير عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي"¹²⁹⁵.

وكان الراشدي من الفقهاء الذين أعجبوا بسياسة صالح باي فقال فيه :

ملاذنا صالح أصلح ربا به جنس البرية تكبيرا وتفضيلا

وأشرقت بطلوع الشمس طلعتة وحاز فضلا من الرحمن تفضيلا¹²⁹⁶

وقال فيه ابن العنتري : "كان رجلا عاقلا، سيرته مليحة، وسياسته، مستحسنة حميدة، يسمع كلام الشاكين، و ينصر المظلومين، يحب عمل الخير ويرتضيه و يسعى في صلاح العباد، و يعتني بأموهم، أجرى الصدقات على الفقراء... فنال من الخيرات ما لم ينله أحد من البايات قبله و لا بعده"¹²⁹⁷.

وتميز صالح باي بقدرات إدارية كبيرة في تسيير شؤون البايلك المالية التي كانت تتعثر عندها السياسات الإصلاحية المختلفة، حيث نظم شؤون الأوقاف وعمل على حمايتها من أيدي العابثين، وأمر بتسجيل الأملاك الوقفية في سجل جامع كبير من شأنه الحد من الأطماع في الأوقاف وهو ما يبينه توقيعه لوثيقة سنة 1185هـ، جاء فيها : "و لما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة، و لم يكن لهم اعتناء بشأنها و فرطوا في ذلك غاية التفريط"¹²⁹⁸.

1293 - انظر نفس النماذج في نفس الملحق السابق رقم 08.

1294 - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، دراسة وتحقيق عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

1295 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة ، ط2، بيروت، 1985، ص228.

1296 - عبد القادر الراشدي، المصدر السابق، ص37...

1297 - ابن العنتري، المصدر السابق، ص69.

1298 - فاطمة الزهراء قشى، قسنطينة المدينة... المرجع السابق، ص107. 106.

ونسخ السجل في أربع نسخ واحدة عند صاحب بيت المال و الثانية عند شيخ البلد، و الثالثة عند القاضي الحنفي و الرابعة عند القاضي المالكي¹²⁹⁹، ويمكن العلماء من تفقد السجلات من خلال المجلس العلمي و صاحب بيت المال كل سنة. منهم الشيخ العلامة عبد القادر الراشدي مفتي الحنفية، والشيخ "شعبان بن جلول" قاضي الحنفية، والشيخ "احمد العباسي"¹³⁰⁰ مفتي المالكية بمدينة قسنطينة وأحد أعلامها البارزين.

ومن معالم سياسته المالية تحوله في سياسة الإعفاءات الضريبية والامتيازات التي كان يستفيد منها أرباب الزوايا والمرابطين، وهذا ما تسبب في تغيير موقف العلماء والزوايا منه فضلا عن دعمه للثقافة ببناء المدارس كالمدرسة الكتانية التي أصبحت تنافس الزوايا والطرق بمختلف مؤسساتها¹³⁰¹.

بعدها دخل بايلك الشرق في مرحلة الضعف والاضطرابات استمرت من 1792 إلى 1826¹³⁰²، تميزت أوضاع البايك خلالها عموما بالضعف والاضطرابات واندلاع الثورات وانعدام الأمن¹³⁰³ في كثير من ربوعها. وحكم خلالها نحو عشرين بايا تداولوا في فترة لا تزيد عن 34 سنة بمعدل 1.7 سنة للحاكم الواحد¹³⁰⁴.

1299 - المرجع نفسه، ص 107. 106،

1300 - هو أبو العباس احمد بن سعيد العباسي، فقيه وعالم من مدينة قسنطينة ولد و نشأ و عاش ومات بها، درس فيها على علماء كثر ثم هاجر لتونس واتصل بعلماء الزيتونة وأخذ عنهم ثم عاد إلى قسنطينة وتقلد عدة وظائف منها التدريس للحديث الشريف والفقه و اللغة العربية و الخطابة بمسجد بسيدي علي بن مخلوف ومسجد رحبة الصوف. ثم تولى الأوقاف و القضاء و الخطابة و التدريس في الجامع الأعظم. ويقال أن صالح باي قسنطينة، كان يحضر درسه ولما أعجب به قره إليه وجعله من مستشاريه، تخرج على يديه عدة تلاميذ وشيوخ منهم "ابن البطال"، (ت1834م) وصف العباسي بالإمام الفاضل والعالم العامل، والتقي العابد وإمام عصره. "وكان عالما بالقراءات السبعة متمكنا من أدب المناظرة، ترك العباسي عدة مؤلفات منها "نقايد على شرح صحيح مسلم" وشرح وتعليقات على فتاوي ونوازل عصره. توفي بقسنطينة سنة 1251 هـ 1835 م.

1301 - قشى، قسنطينة المدينة... المرجع السابق، ص 106 .

1302 - Leila Babès, . **Pouvoir central, Pouvoir local dans le Beylik de Constantine**, Essai de synthèse, univ de Constantine, 1988, p5

1303 - شويثيام أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800 / 1830، جامعة الإسكندرية، 1988، ص

23

1304 - Babès Leila, . **Op.cit**, p5

ومن جهة أخرى فإن خمسة وعشرين بايا الآخرين الذين حكموا البايك مات ثلاثة منهم فقط ميتة طبيعية، وأربعة منهم عزلوا عن الوظيفة، وثمانية عشر منهم ماتوا قتلا¹³⁰⁵، وهكذا فنسبة 72 بالمائة من البايات الآخرين غادروا قصر الحكم محمولين على الأنعاش.

وأشار بعض الرحالة والمؤرخين منهم الرحالة المغربي الشريف الزياتي إلى ضعف تدينهم، فقد نظم أحدهم حفل استقبال على شرفه، لما كان مارا بمدينة قسنطينة، وأثناء الجلسة كان هذا الباي يدخل مقصورة قرب لوقت قليل ثم يخرج منها، فتنبعث منه رائحة الخمر¹³⁰⁶ كما يضيف الزياتي، مما يدل على فساد أخلاقه وعدم صبره على مفارقة الخمر لحظة واحدة.

ويختلف المؤرخون في شخص آخر بايات الشرق، أحمد باي أحمد الكرغلي 1826/ 1837، الذي فشل في تحويل ميراث الإيالة إلى شخصه، بعد سقوط الجزائر في 1830، برغم كل وسائل الاستعطاف، والوساطات التي استخدمها عند زعماء الباب العالي¹³⁰⁷.

وبالرغم من نجاحه في ضم النخب الدينية من فقهاء ومفتين لمؤازرته في مشروع المقاومة، كما يشهد على ذلك بيان "أحمد باي" والفقهاء في مدينة قسنطينة¹³⁰⁸ إلى عامة الناس يخبرونهم فيه بالتدابير الجديدة المتخذة لرفع الظلم والتجاوزات عن الرعية، والموقع سنة 1246 هـ 1830 م¹³⁰⁹، ولئن نجح في مد روح المقاومة في الشرق حتى سنة 1848 م إلا أنه فقد كل شيء بعد ذلك.

1305- Jean-Pierre Bonnafont, *op.cit.*, 46.

1306 - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999، ص 483.

1307 - عبد الجليل التميمي، "الحاج أحمد باي وبايك قسنطينة 1830/ 1837"، في مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 64، 1978، ص 21.

1308 - جاء في وثيقة مبايعة أحمد باي "ليعلم الواقف على هذا المكتوب الأعظم والمنشور المبارك الأفخم الجالب للخير والسرور المضاعف بحول الله وقوته للبركة والحبور، وبه تكون إن شاء الله عافية البلاد وهناء العباد، وعمارة الوطن، وذهاب البؤس والحن وهو أن الأمير المتفق على إمارته، والنظر في كافة المصالح وعمامة المطالب والمآرب، وهو السيد الحاج أحمد باي المذكور لا خلاف عنه أحد في ذلك وأنه حرر الرعية من كافة المظالم السابقة لا يطالبون بمغرم، ولا محتمة، ولا حلاس... ولا يأخذ منهم شيئا سوى الزكاة والعشر بوجه ما أحكم الشرع" انظر: محمد الصالح العنتري، فريدة المنيسة، المصدر السابق، ص 137.

1309 - وكان ممن وقع البيان شيخ البلد "محمد الفكون" والقاضي الحنفي "مصطفى بن باش تارزي" والقاضي المالكي "أحمد العباسي" والمفتي الحنفي "الشيخ مصطفى" والمفتي المالكي "الشيخ بن عمار" وناظر الأوقاف "محمد العربي بن عيسى" والخليفة مصطفى وقائد الدار "الحاج محمد بن البجاوي" وغيرهم، انظر: عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 464-465.

ويؤكد عبد الجليل التميمي في دراسته المعروفة حول شخصية الحاج أحمد باي الذي حكم من 1826 إلى 1837، أنَّ الرجل قد رفض قطعيا التفاوض أو التراضي مع الاحتلال الفرنسي، وفي نفس الوقت اتبع تعاليم الدين الإسلامي بحذافيرها¹³¹⁰، لكن الزمن لم يكن في صالحه فضلا عما آلت إليه أوضاع الإيالة بعد استسلام الداي حسين، وضعف استجابة السلطان العثماني محمود الثاني لطلبه في تولي شؤون الإيالة.

ثانيا: بابايات التيطري

كان بايلك التيطري يمثل أصغر البايلاكات وأقلها مساحة وموارد اقتصادية، وكذلك من حيث التأثير في مجريات الإيالة سياسيا وفكريا ودينيا، وكان "رجب باي" 1548 - 1568 أول باي تولى شؤون التيطري، عين من قبل "حسان باشا" داي الجزائر، وتكاد تكون المعلومات شحيحة عن البايات الذين تولوا بعده ما عدا ذكر المؤرخين ليحي باي الذي حكم في الفترة من 1575 - 1568 ثم رمضان باي 1575.

وفي 1770 تولى حكم بايلك التيطري الباي "محمد فريرة" الذي صاهر سلطان المغرب "مولاي يزيد" حينما تزوج من أخته "اللا عيشوش"، حكم بعده "صفرة باي" سنة 1772م الذي قتل أثناء معارك مع "أولاد نايل" حينما رفضوا دفع الجباية، وبعد ولاية "مصطفى الوزناجي" بن سليمان 1794 1775م ثم "محمد الذباحين فريرة"¹³¹¹ 1799 - 1794م، الذي تذكر المصادر أنه درس بزواية "تيزي راشد" ببجاية¹³¹². ولما صار على راس البايلاك اتسم حكمه بالاضطراب وقُتل في إحدى المعارك المحلية في التيطري سنة 1799م.

1310 - كتب "أوجان بيقوني" E.Bigonet في المجلة الإفريقية لسنة 1899 أن "أحمد باي" كان متمسكا بأنبل الأخلاق الإسلامية حتى في فترة الحرب، ففي الحراسة ينقل عن أحمد باي توصيته لجنوده: "ابذلوا جهدكم فلكم بكل لحظة حسنة وثوابا وهذا الأمر هو أعظم الأمور عزما وحزما، فلتكونوا أهل يقظة وفطنة والله في عونكم، وأما النصارى الفرنسيس الذين في عناية فإياكم ثم إياكم أن يتعدى عليهم أحد أو يظلمهم أو يضيع لهم شيئا من ماله فإن أرادوا المقام في عناية فعليهم أمان الله ولا ينالهم مكروه، وإن أرادوا الانتقال إلى بلادهم برضاهم وطواعية فلا يمنعهم أحد ولا يتعدى عليهم وليأخذوا ماله وأمتعتهم عن آخرها.

1311 - نال هذا اللقب نظرا للمذابح التي ارتكبها سنة 1744 قبل توليه كرسي البايلاك، انظر:

GUIN. "Note sur le Bey Mohamed dit el Debbah" in RA année 1863 p p 293-298

1312 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 265.

ويذكر المؤرخون شخصية "إبراهيم التلمساني" 1801 - 1799 الذي غزا قبائل أولاد نايل مجددا، واشتهر ببناء الجامع الأحمر بالمدينة، وفي سنة 1809 تولى الحاج "علي مصطفى بومرزاق"¹³¹³ آخر بايات التيطري الحكم، واستمر في السلطة حتى سنة 1830 وكان له فضل كبير في رد هجمات الفرنسيين إلى الساحل، لكنه استسلم في نهاية الأمر بعدما فقد السلاح والمعين ونفي إلى الإسكندرية أين توفي بها.

ثالثا: بايات الغرب

بالرغم من تاريخه وأسبقته في التفاعل مع قضايا البحر الأبيض المتوسط، فقد ظل بايلك الغرب غامضا خاصة خلال القرن السادس والسابع عشر، ويمكن إرجاع سبب ذلك للاحتلال المبكر الذي تعرضت له جهات كثيرة من المنطقة، وعجز العاصمة التاريخية لبني زيان "تلمسان" من أن تكون نواة لعاصمة المنطقة وتتبوأ الصدارة، ولذلك لم يذكر المؤرخون إلا عددا قليلا من بايات الغرب نظرا لاضطراب أحوال البايك¹³¹⁴، وتعرضه للاحتلال مرتين ووقوعه في خط المواجهة الأول مع الإسبان، وعدم استقرار عاصمته، فقد تنقلت عاصمة البايك بين وهران ومستغانم ومازونة ومعسكر¹³¹⁵، واهتز تحت وقع الثورات الدينية والطرقية التي قامت بها درقاوة والتيجانيون مرارا. وقد ذكر "مسلم بن عبد القادر" في تاريخه أن أول باي تولى إدارة المنطقة هو "شعبان الزناقي" الذي قاد أول حملة لتحرير "وهران" انطلاقا من مدينة "مازونة" في سنة 1090هـ 1678م ومات خلال حصارها، وقد قام المولى "إسماعيل" ملك المغرب بحملة عسكرية على مدينة وهران للانتقام له سنة 1692م دون جدوى¹³¹⁶.

-
- 1313 - تولى "حسن باي" سنة 1801، ثم "محمد باي" سنة 1809، الذي خنق بأمر من "بومرزاق" آخر بايات التيطري.
- 1314 - تراجع لمزيد من الاطلاع مذكورة: كمال بن صحراوي، الأوضاع العامة في ريف بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2014.
- 1315 - ساهم الأتراك كثيرا في جعل مدينة معسكر تتبوأ الصدارة في بايلك الغرب بعد سقوط وهران وتعرض مستغانم للقصف والضغوط الكبيرة حيث اتخذها الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1701 عاصمة للبايلك فاستقطبت إليها الفقهاء والعلماء وقادة الجهاد والمقاومة. انظر يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، المرجع السابق، ص 228.
- 1316 - مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر، تح رايح بونار، (ش.و.ن.ت) الجزائر، 1974، ص34.

وعُدَّ "مسلم بن عبد القادر" إجمالي البايات بنحو 26 بايا آخرهم الباي "حسن بن موسى" الذي يسمى عند العامة "حسان الباهي"¹³¹⁷، وتباين أداء حكام البايلك مع الحراك الديني والسياسي والعلمي، فكان منهم من عمل على تشجيع العلم والثقافة وبرزوا بأعمالهم الجليلة. غير أن الفرنسي "هنري ليونفي" Henri-Léonfey صاحب كتاب تاريخ وهران قبل وأثناء وبعد الاحتلال الإسباني، يقول أن أول البايات هو الباي "بوخديجة" الذي كانت عاصمته مازونة سنة 1563¹³¹⁸، ثم حكم بعده الباي "سواق" الذي سمته زوجته فجاء بعده "السايع باي"¹³¹⁹ الذي حكم 11 سنة، وكان من عائلة مرموقة من مازونة، ثم حكم بعده "سعد باي" لكن ثورات الأهالي كانت في ازدياد مطرد، وغت الفوضى التي هزت عاصمة البايلك نفسها، واستمرت تقض مضجع أحد عشرة 11 بايا حكموا البايلك وتكررت حملات التأديب للثوار و المتمردين دون أن تحقق شيئا.

وحكم الباي الخامس عشر "محمد بن عيسى" بايلك الغرب، وقام بحملة كبيرة لتأديب قبائل الصحراء في "أنجاد" التي كانت تمارس الضغوط على قبائل الرعية لدفعها لترك أراضيها¹³²⁰، وخاض ضدها معركة كبيرة لا تزال تعرف إلى اليوم "بيوم الدم" ونالت الهزيمة والجراح كلا الطرفين.¹³²¹ وفي فترة حكم "شعبان باي" حاول استرداد مدينة وهران مرة أخرى فاستشهد تحت أسوارها سنة 1701، ثم خلفه "مصطفى بوشلاغم" الذي استغل قدراته العسكرية والإدارية الكبيرة، وظل دافع الانتقام من الإسبان لمقتل سلفه يحفزه، وبعد إقرار الأمن الداخلي واستيفاء الطاعة للسلطة التركية توجه نحو مدينة وهران وحاصرها بعناية كبيرة وبمرونة فائقة، غير خلالها الخطط العسكرية في كل حين

1317- كان "حسن باي" طباحا للانكشارية ثم صار بائعا للتبغ وكان ذا سياسة ودراية فقربه الباي "بوكابوس" منه ثم صاهره وهكذا فتحت أمامه المناصب السامية حتى تولى البيلكة سنة 1826، وكان قبل ذلك يحب الضعفاء والمساكين والعلماء ويقربهم، ثم تبدل وتغير مثلما ينقل المزارعي بن عودة عن شيخه محمد بن يوسف الزياتي، انظر: مسلم بن عبد القادر، المرجع السابق، ص34.

Henri-Léonfey, **Histoire D'Oran Avant, Pendant Et Après La Domination** -1318
Espagnole. Adolphe Perrier éditeur, Paris. 1858. p275.

1319- ما زال أعقاب "سايع باي" يسكنون إلى اليوم في مازونة.

Léonfey, **op.cit** p276-1320

278**ibid** ,p-1321

حتى سقطت المدينة بيده سنة 1707م، فسارع إلى تنظيم شؤونها ونقل عاصمة البايك إليها¹³²²، وخلفه ابنه "يوسف" لكنه كان ضعيفا ولم يستطع الوفاء لإرث أبيه وأسلافه الأقوياء.

وفي 1780 تولى حكم باييك الغرب الباي "محمد بن عثمان" المعروف بمحمد الكبير فاستأثر بجل مآثر الذكر التي جمعها المؤرخون ودارت حولها مكارم الأفعال لبايات الغرب جميعا.

استطاع "محمد الكبير" أن يوجه جميع القوى المتشتتة نحو هدف واحد هو تحرير وهران واستطاع بفضل عبقريته أن يوحد بين الفقهاء والمرابطين وشهد مدينة معسكر نشاطا حثيثا ميزه الدروس الدينية والتدرب على الجهاد والذي كان يشرف عليه المرابطون وقادة الجيش التركي¹³²³.

ولم تخل معركة تحرير وهران سنة 1792 من نكهة طرقية ومرابطية حيث يذكر أن العلماء ورجال الطرق اجتمعوا قبيل الهجوم لقراءة صحيح البخاري لكون قراءته كما يقول ابن سحنون: "مجربة لدفع الشدائد وتفرج الكرب ولم يمض سوى يومان حتى صارت أبواب الفرج تنفتح بابا بابا، وختمت قراءته في عشرة أيام"¹³²⁴.

قال في شأنه مسلم بن عبد القادر: "وفي أيام دولة أبي عثمان محمد باي صاحب فتح وهران الذي تولى سنة 1780 وكان رجلا جسيما محبا للعلماء والصلحاء قريب الغضب سريع الرضا خافته الملوك في أماكنها وأطاعته الرعايا بأسرها ووفدت عليه وفودهم رحمه الله وعفا عنه"¹³²⁵. وقد نال شرف التكريم من طرف الداوي حسن باشا، وقلده نياشين الفخر والاعتزاز وثبته في مكانه على قيادة باييك الغرب، معترفا له بالفضل في إعادة وهران إلى "دار الإسلام" من جديد وعين ابنه أحدهما نائبا لباي الغرب والأخر قائدا لفليته¹³²⁶، ثم أُرْدِف يقول: "في عهده وقعت زلزلة وهران الكبيرة التي مات فيها كثير من النصارى وكان ذلك السبب في فتحها سنة 1792م-1206هـ. فنتقل إليها بأهله ومخزنه

279 ibid ,p- 1322

1323 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص241.

1324 - ابن سحنون، المصدر السابق، ص299.

1325 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص62-63.

1326 - عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، (رم غ م)، قسم الحضارة الإسلامية كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران 2014، ص34.

وقدم أمامه العلماء والصلحاء ويدهم الإمام البخاري تبركا وتيمنا فحقق الله رجاءه ودمر أعداءه" ¹³²⁷.

لقد كان الباي محمد الكبير بالإضافة إلى خصاله الحميدة المتعلقة بحسن السياسة والسيرة محبا للعلماء يجمعهم في كل صغيرة وكبيرة لمشاورتهم ¹³²⁸ وكان كثيرا ما ينزل عند آرائهم، كما كان مشجعا للشعر والشعراء وللثقافة عموما، وتذكر الروايات أنه منح الشاعر أحمد القرومي مائة محبوب ذهبا مل مدحه عندما بنى مسجد معسكر ¹³²⁹. كثير الاهتمام بالكتب جمعا وقراءة و يطلب من مجالسيه أن يقرؤوها عنده ¹³³⁰ وإذا انفض الناس انفرد بها فكانت له نعم الأنيس ¹³³¹.

ويذكر "ابن هطال" في سيرته أن "محمد الكبير" اقترح من طرف الأهالي للداي "محمد عثمان" باشا خلفا للباي "الحاج خليل" الذي قتل في معركة "عين الحوت" ضد "دراوة" الثائرة في بايلك الغرب ¹³³²، وكان محبا للعلماء والأدباء والفقهاء والشعراء كما يضيف بن هطال وكان يملك مكتبة زاخرة بمنزله تحتوي العديد من الكتب والمخطوطات ¹³³³. وأجرى الأرزاق على العلماء والفقهاء بعد ما حبس الأوقاف على المساجد لتوفير الرزق للعاملين فيها ¹³³⁴ واعتنى بالمدرسين والأئمة والطلبة وجعل لهم أجورا ثابتة من الأوقاف، فاتسعت بذلك حال العلماء، وانشرت الصدور للقراءة والمطالعة وكثر طلبة العلم، وتشوف كل أحد للتدريس، واشتد الحرص على العلم، بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه ¹³³⁵، وامتد اهتمام الباي بالعلم والعلماء خارج البلاد حيث خصص منحا للدارسين في جامع الأزهر، كما أنه التزم تقديم هدية للشيخ "مرتضى الزبيدي" المقيم بمصر وهو

1327 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 64-65.

1328 - محمد يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978 ص- 427

1329 - بن هطال التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص 26.

1330 - سعيدوني والبوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص 170.

1331 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 123.

1332 - بن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص 17.

1333 - المصدر نفسه، ص 26.

1334 - الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص 174.

1335 - سعيدوني والبوعبدلي، المرجع السابق، ص 170.

صاحب كتاب "تاج العروس"، الذي شرح فيه القاموس المحيط للفيروز آبادي، وكان مشجعاً للعلم والإبداع فقد أعطى الشاعر والأديب "أحمد بن علي بن سحنون" مرة مائة دينار ذهباً، لأنه لخص له كتاب الأغاني في جزء واحد¹³³⁶، وقام سنة 1774 ببناء ضريح للشيخ "أحمد بن يوسف الراشدي"، وزاوية لدراسة العلوم الدينية وتحفيظ القرآن و مسجد للصلاة.

وكانت لسياسته الرشيدة وحكمه الصالح سمات عديدة، منها الحرص على العدل والعمل على إسعاد الرعية بما يفرضه عليها الشرع الحنيف دون مبالغة وإسراف¹³³⁷، وقد يمزج سياسته في كثير من الأحيان بوصية عماله ورجال دولته بالبر والصلاح والاستقامة، مع الالتزام بواجبات الدولة حتى تستمر في الوجود وتقوم بالأعباء¹³³⁸.

وذكر "ابن هطال" أنه أثناء عودة الباي محمد الكبير من حملته التي قادته إلى الأغواط، أمر مشايخ الأعراب الذين أذعنوا له بالطاعة والولاء أن يرجع كل واحد منهم إلى بيته وأن يكون باراً بأهله ورعيته كشيخ "العمور" وجبل "راشد" و"أولاد يعقوب"، ويحرص على استمرار الولاء والطاعة للدولة، خاصة دفع الضرائب في وقتها دون تأخير وأن يكون الشخص قائماً على جمعها حريصاً عليها مقدراً لأهميتها¹³³⁹.

ولعب رجال الدين والعلم دوراً مهماً كبيراً للباي محمد الكبير لجهاده الإسبان وتمكنه من تحرير وهران من ريقهم وساهم هذا الأخير في ثراء هذه الفئة بما أغدق عليهم بالمال والنفوذ. وقد حرص البايات على اصطحاب هذه الفئات في مجالس السلطة لإضفاء نوع من الشرعية على القرارات والسياسات المرسومة¹³⁴⁰.

وكان الباي محمد الكبير أول شخصية سياسية جزائرية تمنح نيشان الدولة العثمانية الأول المسمى "نيشان الريشة" الذي لا يمنح سوى للقادة الأبطال وذوي الانتصارات الكبيرة¹³⁴¹، بعد فتح

1336 - توفيق المدني، محمد عثمان باشا... المرجع السابق، ص 141.

1337 - ابن هطال، المصدر السابق، ص 81.

1338 - ابن هطال، المصدر السابق، ص 81.

1339 - المصدر نفسه، ص 81.

1340 - الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص 119.

1341 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 425.

وهران سنة 1792 كما ذكرنا من قبل، حيث قام الباي بإرسال مفاتيح المدينة وأواني من مياها للخليفة العثماني سليم الأول¹³⁴².

وأثنى عليه الفقيه والمحقق مرتضى الزبيدي وقال فيه: "كان يكرم الأدباء والمدرسين والعلماء ومن بين هؤلاء أبو راس الناصري الذي شمله بعطفه وكرمه"¹³⁴³ وقد اتصل الزبيدي بالباي محمد الكبير ونال منه إكراما لكن لا يوضح صاحب الثغر الجماني أين ومتى تم اللقاء بين الرجلين¹³⁴⁴. وبالرغم من أعماله الحسنة لم يسلم الباي محمد الكبير من التشهير به واتهامه بالقتل¹³⁴⁵ أخذ الأموال والسبي كما ذكر ذلك أسيره "تيدنا"، ومات الباي محمد الكبير في طريق عودته من الجزائر وأوصى بدفنه بالمدرسة التي بناها في موضع "خق النطاح"¹³⁴⁶.

خلف "محمد الكبير" باي وهران ابنه "عثمان باي" وصف مسلم بن عبد القادر فقال: "كان يحب اللهو منقطع عن الرعية سار على طريقة بني العباس في البذخ والترف لا يخلو مجلسه من الشعراء والندماء والظرفاء فلا يخرج منه إلا بعد أيام وأصحاب المظالم تنتظر بالباب"¹³⁴⁷، وكان مفتونا بالغناء والحسن فبعث إلى تونس ليظفر ببعض جواربها فأتاه رسوله بجاريتين آية في الجمال فلما بلغ أمره داي الجزائر غضب منه وعزله عن بايلك الغرب ليُعَيّن فيما بعد على رأس بايلك قسنطينة¹³⁴⁸.

وفي 1821 تولى آخر بايات وهران "حسن بن موسى" الذي حكم البايك من سنة 1821م إلى سنة 1830م، وقضى بعنف كبير على ثورة التيجانية¹³⁴⁹ ولم يسلم جل المعارضين من سطوته

1342 - المصدر نفسه، ص454.

1343 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء المرجع السابق، ص 85.

1344 - ابن سحنون، المصدر السابق، ص 150

1345 - Esterhazy Walsin, "Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, in R.A, p71.

1346 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص65.

1347 - المصدر نفسه، ص ص 62-63.

1348 - المصدر نفسه . ص67.

1349 - محمد شاطو، "السلطة العثمانية وعلاقتها بالطرق الصوفية"، في مجلة المواقف، جامعة معسكر، العدد 03، 2008، ص164.

وجبروته¹³⁵⁰ بمن فيهم الشيخ "محي الدين" أبو الأمير "عبد القادر"، حيث قام بسجنه ولولا شفاعته أحد أعيان المخزن لضرب عنقه، ثم عدل عن ذلك مكتفياً بوضعه تحت الإقامة الجبرية¹³⁵¹.

وقد وصفه المزاري بقوله: "كان عربيدا تجرأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية، فبان منه الجور والظلم والتعدي وهتك المحارم وكثر منه الفساد والسفك لدماء العباد ولم ينظر في عاقبة أمره"¹³⁵².

ومما ارتكبه الباي حسن قتله للشيخ "بلقندوز" ببرودة دم دون مراعاة لمكانته ولرمزيته في المدينة، وقد ذكر الحادثة المزاري¹³⁵³ حيث يقول أن الباي حسن جمع جيشا كبيرا اتجه به نحو زاوية الشيخ بلقندوز القادرية بـ"ميناء"¹³⁵⁴، ولم يكن مع الشيخ سوى طلبة القرآن، فعدل عن ذلك قائلا هذا الشيخ لا يثور ضدنا. وفي المرة القادمة أرسل قائدا لإلقاء القبض عليه، لكنه توقف عند نصيحة أحد قادته بعدم القيام بذلك خشية من قيام طلبته بحمايته والدفاع عنه بكل نفس ونفيس، فأمر الباي حسن بقتل جميع الطلبة المرافقين للشيخ ثم تراجع، لأن ذلك سوف يثير القبائل التي ينتمي إليها هؤلاء الطلبة، ثم بعث أحد رجال بني عامر واسمه "بن دحمان" فدخل خيمة الشيخ وأخرجه منها، ثم قاده إلى الباي الذي قتله في الطريق¹³⁵⁵.

لقد كانت ممارسات هذا الباي وسياسته مع الرعية الشديدة والقاسية، إيذانا بنهاية الظلم، قال عنه الزباني: "واعلم أن الأتراك لما تمهد لهم الملك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا فيه من الظلم والمناكير وتواتر ذلك على الألسنة بغاية التواتر وسألت الناس أن يزيل بهم ما حل من ظلمهم"¹³⁵⁶.

Pierre Boyer, *La politique religieuse des turcs*, op.cit., p45 – 1350

1351 – محمد بوشناني، موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني، عمل فرقة بحث بعنوان معسكر المجتمع والتاريخ، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2014، ص19

1352 – المزاري بن عودة، المرجع السابق، ص 350.

1353 – المزاري بن عودة، المرجع السابق، ص362

1354 – "ميناء" إحدى قرى جنوب وهران.

Ahmed Amine Dellai, "Document d'histoire et de littérature algériennes L'assassinat – 1355 de cheikh Belguendouz par le Bey Hassan d'Oran en 1829. ..d'après un chant melhoun. du poète Charef Bentakkouk" in *Insaniyat*.. 2014. <http://insaniyat.revues.org/>

1356 – الزباني بن يوسف، المرجع السابق، ص 253.

وبعد سقوط مدينة الجزائر اتجهت أنظار فرنسا للغرب والشرق لاستكمال بسط النفوذ فاحتل "دام ريمون" المرسى الكبير في 1830/12/13 ثم وجه فلوله نحو وهران وحاول الباي "حسن" التفاوض مع فرنسا لكنه أدرك عجزه عن المقاومة فسلم المدينة للفرنسيين في 1831/01/13، ثم هاجر محملا بثروات البايлик التي استطاع جمعها نحو أزمير التركية مصحوبا بأهله وظل بها حتى وفاته¹³⁵⁷.

قال "مسلم بن عبد القادر" بعد سقوط مدينة وهران بيد الاحتلال الفرنسي، وداعيا إلى الاعتبار بهذه النهاية المؤلمة التي خالف بها رؤية الرحالة الورتلاني¹³⁵⁸ من قبل :

أدبهم ربحم لما طغوا عرفهم بغدرهم لما بغوا
فانشأوا بالظلم ليس من عدل فأخذوا أخذوا وببلا بالمهل

المبحث الثالث: السلطة الحاكمة والفقهاء

المطلب الأول: نظرة السلطة للفقهاء

كان السلم الداخلي واستقرار الأوضاع الداخلية للإيالة من أهم المجالات التي التقى فيها الفقهاء مع السلطة، فقد أبدى الفقهاء والعلماء مرونة كبيرة في الوقوف إلى جانب نظام الحكم في القضاء على الفتن الداخلية، وقد سجل التاريخ في هذا الشأن الكثير من النماذج، فقد بعث الداوي حسن إلى الباي محمد الكبير بضرورة معاقبة قبائل سماتة الواقعة على الطريق بين الجزائر ووهران، والتي كانت تنتحل حرفة قطع الطريق وسبي القوافل والتعدي على المارين في هذه المناطق، فكتب الداوي إليه بذلك وبعث إليه بفتاوى العلماء التي تقر بإباحة دماء هؤلاء المعتدين وأموالهم التي أخذوها، في الحاربة¹³⁵⁹ من المارين بأرضهم، فأرسل محمد الكبير حملة أبادت شملهم وشتت جمعهم¹³⁶⁰.

1357 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج04، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص 18.

1358 - يرى الحسين الورتلاني أن حدوث الفتن ووقوع البلاد تحت طائل الفوضى والهرج والمرج والقتل واستباحة الأموال والأنفس ليس من باب عقوبة نقمة وعذاب ينزل بأهلها من الله وإنما ينزل بهم من باب الابتلاء. انظر الورتلاني، المصدر السابق، ص351.

1359 - الحاربة هي قطع الطريق، وخروج طائفة مسلحة في دار الإسلام لإحداث الفوضى وسفك الدماء وسلب الأموال وإهلاك الحرث والنسل ويدخل في الحاربة جميع العصابات التي تخرج على المسلمين وتهدد أمنهم، وقد شدد الشرع الإسلامي في محاربتها وإلحاق العقوبات الزاجرة في حق أفرادها، انظر: عز الدين بليق، منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، ط 3، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984، ص ص 595-598.

1360 - ابن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص 314.

وفي هذا الإطار نجد أن الباي محمد الكبير كان كثير الاحتكاك بالعلماء والفقهاء، وكان لا يكاد يخطو خطوة دون استشارتهم في كل صغيرة وكبيرة، ففي أثناء فتح وهران 1792 كان إشكال "المغاطيس"¹³⁶¹ وهم سكان وهران الذين كانوا تحت ولاية الإسبان.

وكان السؤال في طريقة التعامل معهم، وماذا يفعل في شأنهم؟ هل يؤمنهم بالرغم من دورهم السلبي وولائهم المخدوش؟ أم يقسو عليهم فتتفرط العقدة ويرحلوا مع الإسبان الكافرين إلى بلادهم فيتنصرون ويتنصّر أعقابهم؟ ويكون الباي بالتالي قد أعان الكافرين على المسلمين؟ وبعد النقاش والمشاورة اقترح عليه العلماء أن يؤمنهم ويدعوهم إلى حال سبيلهم، فبعث إليهم كتابا يأمرهم فيه بالقدوم عليه آمنين، فردّوا عليه أن ابعث لهم بعض المرابطين ممن يثقون فيهم لتطمئن قلوبهم، فبعث إليهم بقاض من وهران وبخطيب المسجد الأكبر فجاء بعضهم وظل البعض الآخر مرتابا في أمره¹³⁶².

وكان للحكام بصورة عامة اليد الطولى على آراء وفتاوى العلماء والفقهاء، فهم في حل من أمرهم بالنسبة لها، في مقابل العامة الذين يرون في تمسك الحكام بالمقاصد الشرعية والأحكام الدينية أمرا ضروريا، ويذكر الفكون في كتابه منشور الهداية، أن من المسائل الكبرى التي وقع حولها الخلاف في مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مسألة اليهودي المدعو المختاري، الذي دخل في الإسلام ثم تجرأ على النبي ص¹³⁶³، ويبدو أن الباي كان متعاطفا مع اليهودي وزمرة من أصدقائه، ولما رفعت القضية للفقهاء في مدينة قسنطينة للنظر فيها اختلفوا في الحكم وانقسموا إلى فريقين:

○ الفريق الأول كان مآزرا للباي وجنده أصدقاء اليهودي.

○ الفريق الثاني أفتى بقتل اليهودي.

فانعقد مجلس القضاء بالجامع الكبير بحضور القضاة والمفتين وعامة الناس، وكان جند الباي وأنصارهم يؤيدون الشيخ يحيى بن محجوبة الفقيه، الذي أفتى بعدم قتله بينما ناصر العامة الشيخ

1361 - المغاطيس يطلق على قبائل بني عامر وفروعها المتعاونة مع الإسبان وقد ورد هذا اللفظ عند المشرفي في رسالته السابقة الذكر بعنوان بحجة الناظر.

1362 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 428.

1363 - لم يبرز الكاتب طبيعة الجرم الذي ارتكبه اليهودي بالضبط سوى قوله "فوقع ذات يوم مع بعض أناس له مشاجرة إلى أن تعاطى فيها جناب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا فحبس وسجن" الفكون، المصدر السابق، ص 64.

الفكون، الذي كان يقول بقتله ليكون عبرة لغيره من اليهود، وفي نهاية المداولات أصدر المجلس قراره بقتل اليهودي، تجنبا لثورة العامة الذين تدمروا من اليهود والجند المواليين لهم من جند الباي¹³⁶⁴.

كما كانت السلطة تتدخل في النزاعات التي تنشأ بين العلماء وكثيرا ما تؤدي إلى انقسامهم أكثر¹³⁶⁵، فتلجأ إلى عقد "مجلس شوري" يضم العلماء والأئمة والفقهاء والأعيان، وتجري مناظرة بينهم وحينما ينقسم المتحاورون وتتشتت رؤاهم، تتدخل السلطة بإتباع رأي معين يخدمها عادة، وتفرضه على الجميع¹³⁶⁶.

واتسم كثير من الأحكام سواء في المركز أو في الأطراف بالسلبية وغياب الأفق واضطراب الرؤية والجنوح إلى الغضب والقتل، والعنف مع المختلف شرائح المجتمع بما في ذلك النخب الفقهية خاصة المالكية، التي لم يرع فيها أي احترام وتقدير.

وكثيرا ما تكرر تدخل الحكام في المسائل الفقهية الدقيقة، والفصل فيها دون علم سابق أو فقه محصل يمكن صاحبه من الاجتهاد، كما وقع حين تدخل الباشا إلى جانب الفقيه الحنفي النيار في خلافه مع المفتي المالكي سعيد قدورة¹³⁶⁷ في مسألة المرأة المطلقة وحكم بقائها في بيت الزوجية. ومن خلال هذا السرد يمكننا أن نصف الحكام في علاقتهم بالفقهاء كما جرت عليه العادة إلى قسمين متباينين، قسم قدم فروض الطاعة والاحترام للفقهاء وقسم آخر رفض التعامل وكانت علاقته بهم سيئة ومضطربة.

المطلب الثاني: معايير اختيار الفقهاء

أولا: الولاء السياسي والديني

كانت السلطة التركية لا تري في المثقف إلا وسيلة لتثبيت السلطة¹³⁶⁸ وتحقيق الاستقرار، على حد تعبير بن العطار صاحب تاريخ قسنطينة. وكان الولاء السياسي والديني عموما المعيار الأساسي الذي يستند عليه الحكام في تعيين موظفي الدولة، ولم يكن أمام الحكام خيارات أخرى غيرها حتى لا يوفروا أجواء المعارضة السياسية والشرعية ضدهم لأنهم في منأى عنها، وقد عبر وليم

1364 - الفكون، المصدر السابق، ص 64.

1365 - المصدر نفسه، ص 456.

1366 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر... ج02، المرجع السابق، ص 456

1367 - صالح بوبشيش، المرجع السابق، ص 62.

1368 - أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ قسنطينة، المرجع السابق، ص 122.

شارل عن تلك الصورة بقوله "إن كل رجل عاقل يستطيع قراءة القرآن يمكنه أن يشغل منصب القاضي عن جدارة"¹³⁶⁹.

ولم يكن فقهاء المالكية والأحناف في نفس المستوى من حيث طريقة التعامل التي يتلقاها فقهاء المذهبين من طرف السلطة الحاكمة، فقد كان المفتي الحنفي الذي يمثل المذهب الرسمي للدولة، يحظى برعاية خاصة في أغلب الأحوال، فقد كان بإمكانه الدخول على الباشا بدون تكلف، وحضور جلسات الديوان، كما كانت له الكلمة العليا في المجلس الشرعي الأعلى¹³⁷⁰.

وكانت السمة البارزة في سياسة التعامل مع فقهاء المالكية، تشريف أقل وتضييق أكبر عليهم إلى درجة ممارسة الضغوط عليهم، والتهديد بالسجن والقتل¹³⁷¹. وقد بسطنا الكلام في هذا الموضوع في الفصل الثاني من هذا البحث.

و قد كانت السلطة القائمة في الجزائر تدرك جيدا الفرق بين العلماء والفقهاء وبين المرابطين والأولياء، أي بين أصحاب السلطة الروحية المعنوية المؤثرة في نفوس الجهلة والأमीين والمسنين، الذين تؤثر فيهم أحاديث الغيب المفعمة بالكرامات والمعجزات، وبين أصحاب السلطة العلمية الفقهية الذين لا يتجاوز تأثيرهم حدود دور العبادة، وتصريف شؤون الأحباس.

فأما بالنسبة للطائفة الأولى فقد سعت السلطة إلى كبت تحركاتها ومراقبتها واتقاء شرورها وتقلباتها لأنها غالبا ما كانت تنطلق من اجتهادات خاصة بهدف تحصيل المكانة المرموقة بين السكان والنفوذ الذي يعود عليها بالموارد المالية والمنافع الاقتصادية.

وأما بالنسبة للفتنة الثانية فقد نجحت السلطة العثمانية في ترويض بعض الطرق وفشلت في ترويض طرق أخرى فاستعانت بنفوذ الموالين لها في ضبط الأمن واستخلاص الضرائب¹³⁷². وتقديم كافة التسهيلات لهم وتوفير لهم الحماية اللازمة بمراسيم رسمية¹³⁷³.

1369 - وليام شارل، المرجع السابق، ص49.

1370 - صالح بوبشيش، المرجع السابق . ص162.

1371 - المرجع نفسه ، ص162.

1372 - خنوف علي، السلطة في الأرياف الشمالية لبابلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسيين،

الميزان للنشر والطباعة، الجزائر، 1999. ص22

1373 - المرجع نفسه، ص20-21.

وقد نجحت السلطة في بدايات وجودها في صناعة تحالفات إستراتيجية مع مرابطي السواحل الجزائرية منهم كما مر بنا في أوائل هذا الفصل، لكنها فشلت في الحفاظ على هذه التحالفات في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث وجدت السلطة التركية نفسها في مواجهة دامية مع التيجانيين¹³⁷⁴ في عين ماضي والقادريين في بايلك الغرب والدركاويين في مختلف جهات الإيالة.

ومما يدل على استخفاف السلطة بالفقهاء موقف الداوي "يوسف باشا" الذي لم يكن ثابتا في الوفاء لطبقة الفقهاء الذين اشرفوا على حفل توليته السلطة، حيث أنه قام بتغييرهم واستبدالهم بطاقم جديد من المواليين له.

وكان "يوسف باشا" قد ضرب المثل في استبدال الموظفين الساميين في "السلك الديني" بآخرين حيث استبدل مفتي الأحناف أربعة مرات ومفتي المالكية ستة مرات، وهو ما يدل على رغبة الباشا في حرية الإدارة والتصرف في شؤون الإيالة. لقد كان تغيير الفقهاء والعلماء من قضاة ومفتين لا يتم على أسس علمية بل كان بدافع البحث عن العناصر التي تقدم الولاء والنصرة والتأييد على أي شيء آخر¹³⁷⁵.

ويمكن التمييز بين مرحلتين متباينتين جسدتا نظرة السلطة للفقهاء والنخب الدينية عموما وتتجسد المرحلة الأولى في مظاهر التعاون والتكاتف بين الطرفين، خلال بداية التواجد العثماني في الجزائر، حينما كان الجميع بحاجة لبعضهم البعض وهذا ما نستشفه من خلال العلاقة الوطيدة التي كانت لعروج ببعض صلحاء وفقهاء البلاد، ويذكر في هذا الشأن حمدان خوجة نقلا عن بعض شيوخ الانكشارية أنه عندما تنشأ قاعدة عسكرية تركية، وحينما تتغير الحامية كل سنة كان الشيوخ الذين مارسوا هذه الوظائف يرددون دوما للشبان الجدد المتحمسين للخدمة سرّ مجيئهم للجزائر وعلاقتهم بها وبسكانها، فيقولون لهم على سبيل التشجيع: "إننا أجنب لم نصبح سادة إلا بالاعتدال

1374 - فشلت السلطات العثمانية دائما في ترويض التيجانيين وكسبهم لصفها كما أن التيجانيين خاصة مؤسس الطريقة احمد التيجاني الذي كان شديد الكره للأتراك ربما بالغ في منح نفسه مكانة دينية قد لا يقبل بها الكثير من الناس حينما ادعى انه رأى النبي ص في المنام وقال له انه شيخه ومربيه قائلا له سوف أكون وسيطا لك عند الله ولقنه الذكر الجديد ويقال أن هذه الرؤيا جعلته ينشط في الدعوة للطريقة الجديدة التي تحمل اسمه فجاب الصحراء نحو من 18 عاما بين أقاليم توات والسودان وتونس حتى صار له أتباع كثيرون انظر، مختار فيلالي الطاهر ، نشأة المرابطين والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن الجرافيك، باتنة، الجزائر، 1976. ص 49. ص 48

- Touati Houari, *Opcit* p121. 1375

واللطافة وفي بلادنا لم نكن رجال دولة وإنما حصلنا على ألقابنا ومراتبنا في هذه الأرض فهذه البلاد إذن وطن لنا وأن واجبنا ومصلحتنا تتطلب منا أن نعمل على إسعاد هؤلاء السكان كما لو كنا نعمل من أجل أنفسنا"¹³⁷⁶.

وأما المرحلة الثانية فقد تميزت بالنفور الشديد والعداوة الظاهرة البينة بين الطرفين والذي دفع نحو المزيد من التعفن في الأوضاع الداخلية وكثرة الثورات والفتن.

ثانياً: عدم التدخل في شؤون الحكم

كان بإمكان الفقهاء بحكم موقعهم الديني، تعكير صفو حكم شخص معين وذلك بتعطيل عقد البيعة التي في حقه على الناس، لكن كثيراً منهم كان يفضل إسداء النصيحة قبل ذلك. فالنصيحة للسلطان من أفضل الأعمال، وقد كان فقهاء الدولة العثمانية يسدون النصيحة ويفضلون الإصلاح ولا يقصرون في القيام بما يساهم في تغيير أحوال البلاد نحو الأفضل، خاصة حينما يبادر السلاطين بوضع تنظيمات وتشريعات وقوانين تخالف في مقاصد الشريعة الإسلامية.

ومن أمثلة ذلك ما قام به السلطان "محمد الفاتح" (ت 1481م) من وضع قانون مدني للعقوبات بديلاً عن الحدود الشرعية، وأكمل هذه المهمة السلطان "سليمان القانوني"، الذي لقب بذلك لكثرة القوانين التي كان يسنها¹³⁷⁷، وقد قدم له الفقيه "مصطفى عالي" (1541-1599) رسالة بعنوان "نصيحة الملوك" تتضمن الدعوة للأخذ بالشريعة الإسلامية، وألف من بعده الفقيه "محمد شريف أسعد أفندي" (ت 1615م) رسالة هامة ضمنها العديد من المعاني والاقترحات التنظيمية سماها "فصول الآراء في شأن الملوك والوزراء"¹³⁷⁸.

وكان "كاتب جلبي" 1658-1609 المشهور بحاجي خليفة، ضمن اللجنة التي شكلها السلطان "مراد الرابع" 1623 - 1640 لبحث الأزمة المالية التي تمر بها الدولة، وكان "كاتب جلبي" مؤرخاً وأديباً متفناً وبعد دراسة وتمحيص للشؤون العامة للدولة ألفه كتابه المشهور "دستور العمل لإصلاح الخلل"، حيث قسمه إلى ثلاثة أجزاء ذكر في مقدمته أن الدولة العثمانية آنذاك تعيش في مرحلة الشيخوخة، وخص الفصل الأول لذكر أحوال الرعية في الدولة وما كانت عليه من أحوال المعيشة، ويبيّن مواطن الضعف فيها، وأما الفصل الثاني فقد خصصه للحديث عن الجيش العثماني

1376- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 131.

1377 - طه جابر العلواني، المقال السابق.

1378 - عبد الحي الخيلي، المرجع السابق، ص 83.

بمختلف فرقته وتشكيلاته، وتحدث في الفصل الثالث والأخير عن أوضاع الخزينة وأسباب فاققتها وعلاقة الخزينة بالقطاعات الأخرى منها مؤسسة الجيش ومؤسسة قصر السلطان مبينا الخلل وسبل علاجه¹³⁷⁹.

وفي عهد نفس الخليفة مراد الرابع برز نجم الفقيه المصلح "قوجي بك" الإداري المصلح الذي ألف رسالة في شأن إصلاح الدولة ودواليب الحكم من موقع مسؤوليته التي تولاهها في عهد "مراد الرابع" حيث صار مستشارا له، ولكثرة ميله لقيم الحرية وتحكيم القوانين بين الناس وتنبهه لمضار انتشار الرشوة وشراء المناصب، لقبه بعض المؤرخين بمنيسكيو الدولة العثمانية¹³⁸⁰.

وأفرد "عيني علي أفندي" (1603-1617 م) في كتابه قوانين "آل عثمان" مجالا للحديث عن تجربة الدولة السابقة سياسيا وعسكريا وسبل إصلاحها، بعدما تداعى الضعف والوهن في مؤسساتها. وفي منتصف القرن السابع عشر ألف "برتوي علي أفندي" (ت 1665هـ) كتابه "ربيع الملوك وآداب سلوك الملوك" وهو يصب في نفس المعاني الإصلاحية السابقة¹³⁸¹. وكانت رسائل النصيح والتوجيه في غالب الأحيان تحول إلى رسائل تطبع لتعميم الاستفادة منها¹³⁸².

وأما في الايالات التابعة للسلطنة ومنها ايالة الجزائر، فقد كانت حالات التوتر والتشنج سمة بارزة بين الطرفين، وقد مارس الحكام مختلف وسائل الضغط على الفقهاء بسبب الخلافات التي كانت تنجم بين بعضهم البعض فقد عزل الأمير مصطفى أهشي أحمد بن سعيد قدورة، وولى مكانه أحد أقاربه ويدعى عبد الرحمن المرتضى¹³⁸³، ومن خلال التوصيف الذي ذكره ابن المفتي فقد كانت الأجواء مشحونة بين الفقهاء من المذهبين الحنفي والمالكي، تنم عن ضعف كبير في الفهم والإدراك لطبيعة المهمة الموكلة إليهم، والتي لا تؤهلهم ليكونوا قدوة صالحة للعامة من الناس، وتنم عن استقالة النظام السياسي في إدارة شؤون الفقهاء من تعيينات وتغييرات مناسبة، كلما دعت الضرورة لذلك. بل لقد ترك الأمر للفقهاء فيما بينهم، ومد فريق منهم بتأييد السلطان خفية وتركت له الحرية في إحداث التغييرات التي يراها مناسبة في أجواء بعيدة عن المهنية والعلمية والكفاءة.

1379 - المرجع نفسه، ص 72.

1380 - المرجع نفسه، ص 83.

1381 - عبد الحي الخيلي، المرجع السابق، ص 72.

1382 - المرجع نفسه، ص 83.

1383 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 104.

وفي جلسة التعيينات دار بين الفقهاء حديث العزل والتنحية في أجواء الترهيب والتخويف وصفها ابن المفتي بقوله: "وجلس سيدي الحاج المهدي بن صالح في مكانه - القاضي المعزول - كما لو أنه قاضي المالكية واستولى على هذه الخطة بسبب هذا التخويف وهذا البهتان الشنيع والفوضى ولم يعارض أحد واعتقد الأمير أن هذا العزل مطابق للشرعة وأنه يحظى برضا العلماء ولكن لا شيء من هذا فعزل سيدي أحمد بكلمة من الأمير وأما قاضي المالكية فاستولى على منصبه غدرا بالرغبة الشديدة التي كانت له وقد وجد ساعة مناسبة أحدثتها ثورة الأهواء ونجح بسبب صمت فريقه فقد كان اجتماع رجال صامتين" ¹³⁸⁴.

وبالرغم من هذه الأجواء فقد بعث بعض الفقهاء برسائل النصح لأولي الأمر، صحيح أنها كانت قليلة ومحتشمة، لكنها تنبئ عن إدراك واع لقضايا البلاد، وقد يبرر البعض قتلها بعدم حاجة بشوات الإيالة لمثلها، بحكم كون أغلبهم أعجميا لا يحسن اللغة العربية، أو ربما لتدني مستواه التعليمي وضعفه الديني، نجد منها رسالة الشيخ "الوزان" الفقيه القسنطيني التي كتبها لباشا الجزائر "حسن أغا" وهي رسالة طويلة استفاض فيها في توضيح دور الأمير المسلم وواجبه نحو رعيته، بناء على سيرة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وذكره بواجبات ثلاث أساسية للإمام المسلم وهي القيام "بواجب الإمامة العظمى، والقيام بواجب القضاء بين المتخاصمين والفصل بين الناس بالحق والفتيا" وهي دعوة متضمنة لوجوب معرفة وبحث مشاكل الرعية والبحث عن أنسب الحلول لها فقها، فهي تتضمن دعوة صريحة للاجتهاد والنظر في أمور الدين ¹³⁸⁵.

ومنها كذلك الرسائل السياسية التي بعثها الفقيه "أحمد بن ساسي البوني" لـ "يوسف باشا" ثم لـ "محمد بكداش" ونشرها وعلق عليها أبو القاسم سعد الله ¹³⁸⁶، وكان لهذه المراسلات دورا في التخفيف من حدة التشنج الواقع في بايلك الشرق بسبب ثورة بن الصخري، وتحمل مضامين الود والتواصل بين الفقهاء والبشوات الذين كانوا حريصين على التعاون بين الطرفين من أجل الاستقرار والأمن في الإيالة ..

1384 - المصدر نفسه، ص 105.

1385 - محمد بن المهدي شغيب، المرجع السابق، ص ص 135-136.

1386 - أبو القاسم سعد الله، "مراسلات يوسف باشا إلى مرابط عنابة"، في مجلة الثقافة، وزارة السياحة والثقافة، عدد 51، الجزائر، 1977، ص 21..

ولما تولى "أحمد باشا" 1694-1698 الحكم بعث له الفقيه "محمد أقوجيل" برسالة يذكره بأن شرعية حكمه مرتبط بمدى ما يحقق من عدالة بين الناس¹³⁸⁷، وبعث أقوجيل برسالة ثانية للباشا "حسين خوجة الشريف"¹³⁸⁸ يخبره فيها بحالة العلماء والفقهاء في الجزائر، واشتغالهم بالحديث والمناظرات، وغفلتهم عن نشر الدين وتبيين الحقيقة للناس بالرغم من أن الباشا حسين خوجة نفسه تعرض للقاضي "الحاج المهدي"، ونفاه إلى خارج الإيالة بعد أن أذله وأهانته وأمره بإرجاع جميع الهدايا التي أعطيت له، وذلك بأن عزا إلى الناس بالهجوم على المركب الذي يقله وأخذ أغلب ما يحمله¹³⁸⁹..

وقد يكون سبب النفور بين الفقهاء والحكام سلوك الفقهاء طريقا يفسد السياسة ويتدخل في شؤونها فقد عزل "الداي حسين" كما يذكر "سيمون بفايفر" المفتي الحنفي ل(تملقه على العرب)- الأهالي - وعين مكانه مفتيا عربيا في هذا المنصب¹³⁹⁰، وهو ما يشير إلى رغبة الداي حسين في إرساء الهدوء والاستقرار وإسكات الناقمين على حكمه.

ثالثا: العلم الشرعي

يأتي العلم الشرعي للفقهاء ومدى تمكنهم من الجانب الديني في المرتبة الثالثة من خلال استقراء الوقائع التاريخية التي مرت بنا، وقد تباينت نظرة السلطة للجانب العلمي للفقهاء، لكن الغالب في الموقف هو تهميش هذا الجانب من أغلب الحكام، الذين تولوا الإيالة سواء في المركز أو في الأطراف، باستثناء الحكام الذين اشتهروا في سيرتهم التاريخية بالاهتمام بالعلم والعلماء، وهي طفرة متميزة في العهد العثماني، ومن أمثلة هؤلاء نجد صالح باي في الشرق والباي محمد بن عثمان الذين عاصرا الكثير من الفقهاء، ففي بايلك الغرب كان أبو راس الناصري وفي الشرق العلامة عبد الراشدي القسنطيني¹³⁹¹، فقد كان الباي محمد الكبير حريصا على جمع الكتب وبناء المكتبات وتشجيع المطالعة والاستنساخ للكتب النادرة كما ذكر ذلك صاحب الثغر الجماني، كما أنه جعل راتباً معلوماً

1387 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 204.

1388 - قال عنه ابن المفتي أنه تولى بفضل دسائسه ولم يدم حكم سوى سنتين من سنة 1705 إلى 1707 تولى بعده "محمد بكداش" الذي فتح وهران أول مرة. ابن المفتي، المصدر السابق، ص 59.

1389 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 104.

1390 - سيمون بفايفر، مذكرات أو لحة تاريخية عن الجزائر، تر أبو العيد دودو، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1974، ص 45.

1391 - تقدمت ترجمتهما في الفصل الثاني من هذا البحث.

من أموال الدولة ومن الأحباس للمهتمين بالعلم طلبا ونشرا فازدهرت الحياة العلمية وانتعش التعليم والتدريس وحرص الناس على طلب العلم¹³⁹².

وكانت مجالس البايات لا تخلو من مناقشات بين العلماء، يشارك فيها البايات أنفسهم، والذين يحرصون دوما على البروز في صورة الحاكم المطلع الدارس والمتعلم. وكان البايات في الوقت نفسه يقفون على مستوى الفقهاء والعلماء، من خلال ما يطرحون من أفكار وما يسوقون حولها من أدلة شرعية.

وقد شكلت محنة الراشدي التي سبق ذكرها صورة جلية للمجتمع العلمي ومكانة الحاكم فيه، وعلاقته بالنخب العلمية والدوائر الصوفية المتنفذة والأسر المحافظة، كما بينت عجز الحاكم على تقديم الحماية الكافية للفقهاء المتنورين والمتمكنين من العلم الشرعي والإنساني، من خلال ما تعرض له الراشدي في نهاية الأزمة من نفي وإبعاد.

وكان أبو راس الناصري لا يكتفي بالقول والمجادلة للعلماء دون بينة فكلما جازاه أحدهم في فن من فنون العلم والفقهاء جاءه برسالة مؤلفة في الموضوع ومستوفية لجميع شروط التأليف المتعارف عليه آنذاك فقد ذكر ابن سحنون الراشدي أن الناصري جرى بينه وبين أحد المقربين من الباي محمد بن عثمان الكبير، نقاش وخلاف حول عبارة "كلا شيء"، وكان الباي يتابع النقاش فما كان من "الناصرى" سوى أن ألف كتابا في المسألة وبعث به إلى منافسه، كما أطلع الباي "محمد الكبير" عليه أيضا.

ولم يكن تعيين الفقهاء في مناصب القضاء من طرف الباشاوات يلقى الاستجابة دوما، والقبول من طرفهم فقد ذكر عن الفقيه "محمد أخو السفار" أنه عرض عليه القضاء فرفضه وقال في يقين: "غضب الباشا أهون علي من غضب الله"¹³⁹³.

وبالرغم من حرص السلطان العثماني على استيفاء شروط الكفاءة والمهنية والعلم والنزاهة في تعيين الموظفين في الإيالة¹³⁹⁴، فإن الواقع المعاش كان مغايرا، بسبب سوء تقدير حامل العلم والفقهاء من طرف العامة والسلطة على حد سواء.

1392 - سعيدوني والبوعبدلي، المرجع السابق، ص 170

1393 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء.. المرجع السابق، ص 12.

1394 - انظر مرسوم السلطان العثماني سليمان القانوني بتقليد صالح رايس مقاليد ولاية الجزائر الغربية في الملحق رقم: 13 .

ومن المحاذير التي تترك أصحاب القرار استيفاء الفقهاء للجانب العلمي دون القدرة على تسيير شؤون الناس خاصة إذا تولوا خطة الفتوى أو القضاء التي تحتاج ممن الليونة وحسن الإدارة الشيء الكثير. وقد ذكر ابن المفتي نماذج عديدة عن فقهاء كانوا عظمي الشأن في الفقه والدين ولكنهم كان ضعفاء في الأمور الإدارية مثل عمار المستغامي الذي قال فيه: "فقيه بياني أصولي صالح وجاهل بأحوال الدنيا بعيد عن أمورها عاصر محمد باشا 1718-1724 وعبيد باشا 1724-1732 وكانا يعظمانه ويتبركان به. وقد ابتلاه الله بزوجة مسرفة ومبذرة وعانى من صهره أخو زوجته محمد بن هدي خليفته على الجامع الكبير، العنت الكبير"¹³⁹⁵.

المبحث الرابع: مظاهر العلاقة بين السلطة والفقهاء

عادة ما تكون حاجة السلطة إلى الفقهاء أكبر من حاجة الفقهاء لرموزها وأركانها، فتبادر السلطة بمراسلة الفقهاء تطلب منهم العون والمدد، خاصة حينما يتعلق الأمر بالمحافظة على السلطة في الأوقات العصيبة التي يكون فيها الحكام بحاجة إلى الدعم المعنوي والتعبئة الشعبية للوقوف في وجه الأخطار المحدقة داخليا أو خارجيا. فيتفنن الحكام في كتابة رسائل الود والمحبة والتقرب من الفقهاء مألين أسطرها بالآيات والأحاديث النبوية شارحين الواجب الشرعي لهم ومذكرين إياهم بضرورة طاعة أمير المسلمين ونصرتة.

أما في أوقات السلم والأمن والاطمئنان فإن الحكام ينسون ما كانوا فيه من الضيق، فيحيدوا عن الصواب ويكثروا الظلم لمختلف فئات المجتمع، فيعم الاستبداد والطغيان.

وتبين لنا هذه الصورة في كثير من الأمثلة، منها تلك المراسلات التي كانت بين يوسف باشا¹³⁹⁶ والشيخ الفقيه أحمد بن ساسي البوني الذي تناولنا ترجمته في الفصل الثاني من هذه المذكرة، ومما جاء في رسالة يوسف باشا "...هذا والمراد إعلامكم إنا كنا أول يومنا عقد العزم علي الجهاد لوهران، واستخلصها من أيدي حزب الشيطان، وإنقاذها من ورطة الكفر والظلال ورأينا أنه

1395- ابن المفتي ، المصدر السابق، ص15.

1396 - حكم "يوسف باشا" مرتين الأولى من 1634 إلى 1637، ثم عاد مجددا للحكم بين سنتي 1640 حتى 1642م. وقد عرفت الفترة الأولى من حكمه فرض غرامات كبيرة على السكان في الأرياف الموجودة على الطريق بين مدينة قسنطينة وعاصمة الإيالة بلغت هذه الضريبة نحو ثلاثمائة بياستر، وفي الفترة الثانية التي تولى فيها شؤون الإيالة حدثت ثورة الانكشارية ضد الديوان، حيث قتل أغا الانكشارية ونفي البقية خارج البلاد منهم يوسف باشا نفسه. انظر. Al-Tilimsani, op.cit, p134.

لا ينجي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه، إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا، طلبا لمرضاته، وقيامًا بحقه وكاتبناكم بجميع هذا رضي الله عنكم لتعلموا حقيقة أمرنا، وما عولنا عليه من إصلاح أهل الإسلام فلتخولوا رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكر والموعظة الحسنة كدأب العلماء في طريقتهم المثلّي¹³⁹⁷.

وفي رسالة ثانية يلتمس الباشا من البوني أن يعينه بالطاعة ويسأل عن أخبار الإيالة، ويخبره بقبول التماسه العفو عن المظلومين الذين طلب البوني العفو عنهم، ثم يقول الباشا: "والواجب عليكم رضي الله عنكم أن تكون أحوالنا منكم ببال وأن لا تدعونا في زوايا الإهمال وأن لا تنسوا أمة نبيكم عليه الصلاة والسلام من دعاء الخير أعقاب الصلوات والتعرف بما يجب عليكم من حقوق السلطان وإن طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحمان"¹³⁹⁸.

المطلب الأول: نماذج الانسجام والتعاون.

كان العثمانيون عامة يجلون العلماء الصوفية ويحترمون المرابطين ويدينون لرجلهم بالولاء ويتبركون بهم، ويرون فيهم الشيخ للمريد والعبد لسيده خلافا للفقهاء¹³⁹⁹، وقد كان للإنكشارية علاقة ود قديمة ووطيدة بالطريقة البكداشية، وظل حاجي بكداش يمثل رمزا دائما لها تتبرك به في كل غزوة تقوم بها.

وأما في الجزائر فقد عوضوا هذه الحاجة بتقديس الأولياء المحليين وزيارة أضرحتهم، كلما خرجوا في شأن من شؤونهم كضريح عبد الرحمن الثعالبي¹⁴⁰⁰ والولي دادة، وسيدي بتقة الذي يعتقد سكان مدينة الجزائر أنه وراء هزيمة شارلكان الكارثية سنة 1541¹⁴⁰¹.

وإذا كان العثمانيون قد اعتمدوا على مقدمي الطريقة البكداشية والمولوية بعاصمة الخلافة، فبالجزائر اعتمدوا على المرابطين ورجال الطرق الصوفية خاصة المنتمين منهم للطريقة الرحمانية، وارتقى هذا التعاون إلى تحالف شبه مقدس.

1397- أبو القاسم سعد الله، "مراسلات يوسف باشا مع مرابط عنابة" في مجلة الثقافة، العدد 51، سنة 1977، ص، ص. 21، 23.

1398- أبو القاسم سعد الله، "مراسلات.. المرجع السابق، ص 25.

1399 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر..، المرجع السابق ص 185.

1400 - الزهار، المرجع السابق، ص 61.

1401 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء المرجع السابق، ص 196.

كما سعى العثمانيون إلى فتح جسور التعاون والتنسيق مع الفقهاء بمختلف صفاتهم ووظائفهم سواء منهم القضاة أو الأئمة أو المفتين، شريطة ألا يكونوا مشاغبين ومثيري بلبلة بين أوساط الأهالي. وقد وجدوا الكثير منهم في الفترة الأولى من الحكم قبل أن يحدث الاحتكاك بين السلطة والفقهاء، وكثير منهم تحمل الأذى في سبيل نصرته حكمهم والعمل على استقراره نذكر منهم الفقيه التلمساني أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو التلمساني (782 - 845 هـ / 1380 - 1441 م)¹⁴⁰² الذي وُصف بالفقيه العابد القائم بفروض الطاعة، وكان حليفا للأتراك ومفتي تلمسان، ولقي من النخب الرافضة للأتراك عنتا كبيرا حتى هجاه الشاعر "أبو عثمان سعيد المنداسي" شاعر الثورات، وكان لبن زاغو كتب عديدة تدل على حسن تفقهه منها "تفسير سورة الفاتحة" و"شرح التلمسانية في الفرائض"، وله فتاوي كثيرة¹⁴⁰³.

وكان من أهم ميادين التعاون بين الفقهاء والسلطين مقاومة العدوان الأجنبي، فقد كانت مشاركة العلماء و"الطلّبة" في المعارك مشاركة فعالة بالإضافة إلى الدعاء من على المنابر والمباركة والتضرع إلى الله لنصرة المسلمين، فقد كانوا يجأرون بالتسبيح والدعاء لله في المساجد والزوايا والاستنجاد به وقراءة صحيح البخاري تبركا به¹⁴⁰⁴.

ولم يكن التواصل بين الفقهاء والأتراك في الجزائر كما كان في بقية الدول العربية لأن اهتمام الأتراك بالعلم والثقافة كان أقل مما هو عليه عند غيرهم من الحكام، بسبب تباين واختلاف لغتهم عن لغة عامة الناس.

وقد شذ عن هذه القاعدة بعض الحكام الذين اضطلعوا بدور رائد في رعاية المدارس والمساجد المشهورة في مدن إيالة الجزائر كمازونة وتلمسان وقسنطينة وبجاية ومعسكر، بالرغم أن تعيين العلماء في هذه المدارس لا يخضع لسلطة الأتراك¹⁴⁰⁵ ولا يتأثر بتباين ميولاتهم وأمزجتهم كما هو شأن التعيين في مناصب القضاء والفتوى¹⁴⁰⁶.

1402 - فقيه وعلامة مشهور ولد في تلمسان وكان متوددا للسلطة السياسية من أشهر تلاميذه عبد الله التنسي التلمساني الفقيه والمحقق.

1403 - الزركلي، المرجع السابق، ص 161.

1404 - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق ص 132.

1405 - المصدر نفسه، ص 132.

1406 - الزركلي، المرجع السابق، ص 571.

ومن أمثلة ذلك نجد الشيخ "مصطفى بن المختار الراشدي"، جد الأمير عبد القادر لما بنى مدرسة "القيطنة"، فقد وقع اختياره على الشيخ "عبد القادر المشرفي" صاحب رسالة "بھجة الناظر....."، للتدريس فيها¹⁴⁰⁷.

وقد ذكرت كتب التاريخ العديد من الأمثلة التي تجسد فيها التعاون والتكامل بين الفقهاء والسلطة الحاكمة لكن غوائل هذه الأخيرة لا تحمد في جميع الحالات، فقد يتقلب مزاج الحاكم بين عشية وضحاها ويتحول من ناصر للفقهاء وعاملاً بأحكامهم إلى جلال نكير.

فقد تحدث الفكون في كتابه منشور الهداية أمثلة عن فقهاء نالوا حظوة كبيرة لدى السلطان إما لعلمهم الواسع، وإما لموادعة السلطان لهم ومن الأمثلة التي أوردها نذكر "المولى علي" القاضي الجليل الذي أطب الفكون في مدحه وذكر محاسنه وقدراته العقلية الكبيرة.

وقد شكل هذا الفقيه القادم من القسطنطينية "باب السلطنة الأحمدية" والمقيم بمدينة قسنطينة صورة مجسدة للفقيه العالم، الذي أحبه الكل من العامة والمعلمين والفقهاء لعلمه ووسطيته وحسن اطلاعه وتديره للمسائل الفقهية وتواضعه، حيث يقول "وهرع إليه واليها وعسكرها وعظموه تعظيماً كبيراً"¹⁴⁰⁸

لكن الدوائر السياسية ودواليب الحكم غير ثابتة وفق ما يخبر به الفكون، فسرعان ما انتقل المولى علي إلى الجزائر، حيث استدعاه الباشا الحاكم، فأقام بها ردها من الزمن "وصار له صيت عظيم، واستقل أياماً بالإمارة، وتزوج بها ثم إنه امتحن"¹⁴⁰⁹ ونفاه العسكر من الجزائر وأخرجوه عن أهله وماله ومات بتونس "منفياً شريداً طريداً"¹⁴¹⁰.

ويبقى التساؤل مطروحاً حول أسباب تقلب السلطة تجاه القاضي المولى علي، هل تصرف تصرفات زاحم بها أهل الحل والعقد من بشوات الجزائر وديوانه؟ أم أن الغيرة والحسد التي تأججت في قلوب أقرانه من مكانته التي ارتقى إليها قد دفّعتة الثمن غالياً؟..

1407- ابن سحنون الراشدي، المصدر نفسه. ص 132.

1408 - ابن الفكون، المصدر السابق ص 225.

1409 - من القضايا الفكرية التي كانت موجودة في العهد العثماني امتحان العلماء والفقهاء لمعرفة مستوياتهم وإدراكهم والوقوف على قدرتهم في الفتوى والقضاء، والتي تتطلب إلماماً بالعلوم الشرعية، وقد يصير الامتحان إعجازاً للفقيه لتثبيتهم في حقه، بالأسئلة والمسائل المتشابهة حتى يسقط عمداً في الخطأ ومن ثمة يصدر حكمهم عليه بالضلال أو الكفر.

1410 - ابن الفكون، المرجع السابق، ص 227.

وقد يكون روح التعاون الذي يديه بعض الفقهاء مبالغ فيه تجاه السلطة فتتحدى هاته الأخيرة في غيرها وضلالها، فالمفتي الحنفي "محمد النيار" الذي أدخل سلوك تقبيل أيدي الحكام كما يذكر ابن المفتي¹⁴¹¹ يكون قد منح ولاء مطلقا للسلطة، وعبر عن ذل وخضوع طبقة الفقهاء في عصره للسلطة الزمنية، وهو ما لا يجب أن يكون.

وكانت حاجة الحكام للفقهاء تتجدد كلما تداعت المشاكل السياسية والأمنية بالإيالة، ففي عام (1206هـ / 1791م) حينما اندلعت الحرب بين الجزائر واسبانيا في وهران، اغتتم ملك المغرب مولاي إسماعيل ومراد باي حاكم تونس الأوضاع، وقام كلاهما بالهجوم على أراضي الإيالة الجزائرية من الشرق والغرب، مما دفع بحسن باشا إلى تجميع الفقهاء واستشارتهم في كيفية الرد على الهجومين.

وفي نفس المناسبة تحالف جموع الفقهاء والعلماء ومدرسي الزوايا القرآنية لمساندة جند الإنكشارية لما عزم الباي محمد الكبير سنة 1791م، حيث رحب الأتراك بهذا التعاون والتلاحم الذي قاده زعماء محليون مثل سي محمد بن عبد الله الجيلالي وقاضي معسكر سي الطاهر بن حواء¹⁴¹².

وانضم إليهم أصحاب الحرف ليؤازروهم في المجهود الحربي من فئات الحدادين والنجارين في أجواء من الأخوة والتضامن¹⁴¹³، وقد وصف هذا المشهد الكبير مؤرخ الحملة محمد بن ميمون الجزائري قال: "وواصل الجيوش من المطوعة الغازين المدونين إلى حقوقهم من المغنم المتقدم والنفل المبارك المعين، فتضاعف بذلك يقينهم، وازداد به على قتال العدو... استحموا بحمى الأبراج المشيدة، وفرج الأبواب المتعددة وتلاحق وابل الأمم المحشودة المحشورة من المجموعة المنصورة الموفورة، تموج بهم موقف الجهاد ويتراكم منهم، وقرهم الله..."¹⁴¹⁴.

وتكررت مظاهر التعاون بين العامة والحرفيين مع السلطة بمباركة الفقهاء ففي سنة 1816 تجمع الحرفيون والبناءون والإنكشاريون لصقل الحجارة من المحاجر ضواحي مدينة الجزائر، لإعادة بناء الأبراج¹⁴¹⁵ التي دمرتها الحملة البحرية الإنجليزية الهولندية في عهد عمر باشا، الذي كان يشرف على ذلك ويحفز العاملين بمضاعفة الأجر اليومي إلى مرتين لكل فرد مدني أو عسكري¹⁴¹⁶.

1411 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 65

1412 - Mahfoud Kaddache, **Op-cit**, P. 142

1413 - انظر إحدى رسائل الجهاد التي كتبها أحد شيوخ المنطقة ملحق 01.. .

1414 - محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص 226

1415 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 203

1416 - Moulay Belhamissi, **Op-cit**, P. 31.

أما على مستوى الفقهاء الإباضيين فإن ولاء الجماعة الميزابية للسلطة التركية، لم يتغير فقها ولا سياسيا، فقد استمرت المصالح المتبادلة والتعاون الوثيق بين الطرفين خلال العهد التركي كله، ما عدا بعض الأحداث التي لم تؤثر في النسق العام للعلاقات بينهما.

ولذلك فإن موقف السلطة التركية من الجماعة الميزابية لم يتغير كذلك وظل الأتراك ينظرون للميزابيين بكثير من الاحترام والتقدير والإنصاف، وقد كان فقهاء الإباضيين كغيرهم من زملائهم في المذاهب الآخرين يعقدون المجالس العلمية في دار السلطان، لمناقشة المسائل العالقة والشكاوي التي تهم الحياة الفقهية في الإيالة¹⁴¹⁷.

وكان يحضر هذه المجالس فضلا عن فقهاء المذهب الإباضي علماء المذاهب الأخرى، فتعقد المناظرات والمناقشات في مختلف المسائل الخلافية، وتفتح الفرصة لكل فقيه ليعبر عن رأي مذهبه في الموضوع بكل حرية¹⁴¹⁸، لقد كانت نظرة السلطة التركية للإباضية كنظرتها لأي فرقة إسلامية أخرى لا ظلم فيها ولا تجاوز للحدود والنصوص المتفق حولها¹⁴¹⁹.

المطلب الثاني: نماذج التوتر والنفور.

تتوتر العلاقات بين السلطة والفقهاء الرافضين العمل معها والاقتراب منها ويعد موضوع الاقتراب من السلطة أو البعد عنها من أكثر المواضيع التي أسالت حبرا كثيرا، ويمثل هذا الأسلوب السلوكي الذي انتهجه كثير من الفقهاء والعلماء آنذاك، سلوكا ينم عن رغبة جامحة في اعتزال السلطة ودواليب الحكم، مبررين اعتزال دار السلطان وكل ما يمت لها بصلة من أقرب القربات التي تحصلها المرء.

وفضلا عن تبريرهم فهم الإسلام بهذه الصورة الميثالية حسب زعمهم، فإنهم يدعون في الوقت نفسه إلى اجتناب دار السلطان التي تعد رمز الظلم والطغيان، وأنها دار تستدرج من يقربها إلى عالم الأهواء والزيف التي هي عليه. وقد أشار إلى ما يشبه ذلك حمدان خوجة في مذكرة الاحتجاج التي بعث بها إلى وزير الحربية الفرنسي في 15 محرم 1249 في هذا الشأن مبررا موقف الفقهاء والعلماء من

1417- علي يحيى معمر، المرجع السابق، ص 339.

1418- المرجع نفسه، ص 339.

1419- المرجع نفسه، ص 339.

السلطة الفرنسية في قوله: "وأیضا علماؤنا یفنون شبابهم في تعلم العلم في الجوامع لا اختلاط لهم بالناس، ولا علم لهم بالقوانين السياسية وتدير الملك ومعاملة السلاطين"¹⁴²⁰.

لقد كان هذا ديدن العلماء والفقهاء في السلوك اليومي، حيث كانوا منعزلين عن الناس منغمسين في قراءة المتون وحفظ الأشعار والقواعد الأصولية، بعيدا عن واقع الحياة وهموم الناس وقضايا الأمة¹⁴²¹. ويبدو أن هذا الفهم ليس خاصا بفقهاء الجزائر فحسب، بل يمكننا أن نجد له مثيلا في كثير من البلدان والأمصار الإسلامية.

ففي مصر علق شيخ الأزهر "عبد الرحمن الشربيني" المتوفي سنة 1326هـ في الموضوع بقوله: "وأما الخدمة التي قام بها الأزهر ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لا غير وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له"¹⁴²².

ثم يقول: "وقد رأيت الكثيرين من إخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة أشدهم فرارا من مظاهر الدنيا الباطلة كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر وذكرهم العاطر"¹⁴²³

ومع افتخار علماء الأزهر بأنهم بعيدين عن الاشتغال بالسياسة لأنها ليست ميدانهم، فإنهم كانوا في كثير من الأحيان مطية للحكومات المتلاحقة لتنفيذ أغراضهم السياسية، وكان ذلك من المطاعن التي وجهت لفقهاء الأزهر¹⁴²⁴.

وقد برر علماء المقاطعة لدار السلطان موقفهم بوجود كثير من العلماء كانوا "يتسارعون إلى أبواب السلاطين والحكام الجائرين وبدلا من أن يقوموا بواجبهم في النصح تراهم يترددون على قصورهم ويخالطونهم ويسعون إليهم، مما يمنح هؤلاء الطغاة والحكام الفرصة في تكبيل هؤلاء العلماء

1420 - الزهراني علي بن بخيت بن عبد الله، الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثرها في حياة الأمة، ر م غ م، جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1414هـ، ص348.

1421 - الزهراني، المرجع نفسه، ص348.

1422 - المرجع نفسه، ص348.

1423 - المرجع نفسه، ص348.

1424 - المرجع نفسه، ص 351

وتكميم أفواههم بغير سيف ولا سوط ولكن بإغداق العطايا ووضعهم في مناصب عالية ذات مرتبات جزيلة ومزايا عظيمة¹⁴²⁵.

وتتشكل بين هذا النموذج من الفقهاء الرافضين الاقتراب من دار السلطان، وبين السلطة الحاكمة، عزلة شعورية قد تتطور مع مرور الوقت وتتحول إلى عداوة مستحكمة.

ومن الذين جسدوا هذا الخيار وحرصوا على التواري من أبواب الحكام الفقيه العالم أحمد المقري، فقد سبق ذكره بأنه لم يكن رجل سياسة وزاهدا في الحكم ومراتبه، فلم يذكر أنه كان له اتصالات مع سلطان أو باشا¹⁴²⁶.

ولئن نجح المقري في البعد عن سلطان الدولة التركية في الجزائر حين وصل نفوذه مدينة تلمسان، التي كانت تمثل للمقري الموطن والدار، فإنه لم ينجح في البعد عن سلطان المغرب محمد الشيخ السعدي، الذي قام باللجوء إلى قائد الإسبان طالبا العون منه في حربه على أخيه السلطان زيدان، فأبى الإسبان إعانتته، ووقع في مأزق كبير فعرض أبناء أسرته كرهائن عندهم، وعاد إلى فاس وطلب من الفقهاء فتوى تجيز له التنازل عن ثغر "العرائش"¹⁴²⁷ للأسبان، مقابل نصرتهم له لاسترداد السلطان من أخيه بعدما ترك أولاده عندهم¹⁴²⁸.

وقد أذعن الفقهاء المغاربة لهوى محمد الشيخ، غير أن المقري التزم داره مستنكرا هذا السلوك رافضا إضفاء الشرعية، على عمل مثل هذا ينخر في عقيدة المسلم فاتهم بموالة قبائل الشراقة، التي قيل أنها قبائل جزائرية تسكن شرق المغرب، وقفت ضد مسعى محمد الشيخ في التنازل عن ثغر "العرائش" للأسبان فاضطر المقري للهجرة للمشرق العربي¹⁴²⁹.

لقد كان المقري يرى كما يرى كثير من الفقهاء الرافضين الاقتراب من دار السلطان والحكم، أن هذا التقرب طعن في إيمان الفقيه وتجرده وإخلاصه وتشكيك في صدقه وولائه لدينه، مستشعرين في الآن ذاته أن دار السلطان هي دار الظلم والجور والبذخ والترف والمجون التي نهى الإسلام عن

1425 - الزهراني، المرجع نفسه السابق، ص 351.

1426 - محمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، دت، ص 159.

1427 - مدينة مغربية تطل على الساحل الغربي للمحيط الأطلسي.

1428 - السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج06، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1955، ص20.

1429 - محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق ص 174

اقتراحها، كما تمثل في رأيهم دار السلطان دار الانحراف عن تعاليم الدين وتطبيق شرائعه التي أنزلها على نبيه. فكان ديدن هذا الصنف من الفقهاء والعلماء البعد والنأي عن عالم الحكم والسياسة. ومن هؤلاء أيضا الذين أبوا القعود عند باب السلطان الفقيه محمد بن أحمد التلمساني المعروف بابن الوقاد، الذي كان يحذر دوما من الجلوس عند أبواب السلاطين والأمراء، ومما قاله في هذا الشأن شعرا:

كُلِّ التراب ولا تعمل لهم عملا فالشر أجمعه في ذلك العمل¹⁴³⁰

وضمن هذا الصنف يمكن أن ندرج نموذجا آخر أعلن المعارضة وجهر بعضيان السلطان، ودعا للخروج عليه والثورة على حكمه والدعوة لتغييره بسلطان مسلم يقيم الحدود وينشر العدل بين الرعية، ورفض اعتزال الحكم وشؤونه، والالتزام ببيته ومسجده أو مدرسته وطلبته، معتبرا ذلك أسمى مراتب الإيمان والإسلام.

وأما في الجزائر فكثيرة هي نماذج التوتر والنفور بين الفقهاء والسلطة، فقبيل استتباب الحكم التركي في الجزائر نقم الإمام المغيلي و انزعج من سلوك سلاطين تلك الفترة من بقايا الزيانين، الذين كانوا يحكمون مملكة تلمسان و بجاية، وسخط على أفعالهم و خاصة على الكيفية التي يعالجون بها رعاياهم ويسيروا بلادهم، و بعد أن أثر فيه سكوت وتغاضي المثقفين و رجال العلم عن الموضوع هاجر المغيلي مثلما مر بنا إلى منطقة تمنطيط بتوات أدرار، وكان لومه على السلاطين بسبب " عدم امتثالهم لا في حياتهم الشخصية ولا في كيفية حكمهم إلى قواعد الإسلام. وعدم الإستماع لدواعي النصح والإرشاد"¹⁴³¹.

ويمكن القول أن أول حادث تشنج بين السلطة ورجال الدين - المرابطين - كان في عهد خير الدين بربروس نفسه حيث وقع التشنج بينه وبين سيدي أحمد بن يوسف الملياني المرابط المشهور. وكان أحمد بن يوسف الملياني الصوفي قد بدأ يتحفظ من العثمانيين وحكمهم بعد فعلتهم بتلمسان¹⁴³² فبعث الشيخ رسالة إلى خير الدين جاء فيها " إن حكمك لا يجري علينا ولا على

1430 - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص 63.

1431 - المغيلي محمد بن عبد الكريم، تاج الدين قي ما يجب على الملوك والسلاطين، المصدر السابق، ص 51.

1432 - أحداث تلمسان تمثلت في معاناة سكانها طويلا تحت حصار العثمانيين قصد الضغط على الأمير الزياني المتجئ بها

سنة 1517

نسلنا ولا على من تعلق بنا و لا على نسلهم فإن رهبتهم أحسنتم وإن خالفتهم عوقبتم¹⁴³³، ويبقى التساؤل مطروحا حول مصدر الثقة الكبيرة التي استند إليها الشيخ في تهديد خير الدين بربروس، ودعوته لاحترام نفوذه ومجاله الحيوي، الذي اختاره لأتباعه عن قناعة وإيمان، وألا يحاول التأثير فيه أو يفكر في اختراقه وإلا سيعاقب على ذلك..

هل كان أحمد بن يوسف يستمد قوته من الكرامات والخوارق التي نسبت إليه ككثير من الشيوخ والمتصوفة في إيالة الجزائر عموما؟ والتي يوظفها في التنبؤ بوقوع كوارث ومصائب لبعض المدن والقرى، كما ذكر بعضها الباحث الفرنسي ريني باسيه في كتاباته، منها قول احمد بن يوسف: "شلف يا خيرة لوطان تخلاي بعد عمارة وتصير كان ويعمروك الفرانصيص النصارى" ويقول أيضا: "متيجة بقرة سمينة وشحمها للقاسي لوها الترك وآخرها للنصارى"¹⁴³⁴.

وأول حالة انسداد سياسي يمكن اعتبارها بين الفقهاء والسلطة، كانت بقدم الفقيه والعالم "قرباش أفندي" الذي ذكره "ابن المفتي" في تقييداته، حيث يقول: "وأول من خطب بالجامع الجديد بباب البحر بعد تمام بنائه قرباش أفندي، وكان قرباش أفندي هذا عالما جاء من بر الترك يجمع عليه الجموع وهو أمر يكرهه الولاية فنفيه"¹⁴³⁵.

ومنه نستشف أن حكام الإيالة كانوا ينفرون من الفقهاء المؤثرين في العامة، ويدركون أن التأثير في العامة لا يكون بالكذب والنفاق والخداع وإنما يكون بالعمل الصالح والقودة الحسنة، فيخشى السلاطين دوما من هذا الصنف من الفقهاء لقدرته على قلب موازين السلطة في اللحظة التي يشاءون فيها ذلك.

وفي قسنطينة نقم الفقيه "أبو العباس أحمد الأوراسي الشاوي" على الأتراك بالمدينة، وزعم البعض أنه نَقَدَ عقد البيعة، وفي سنة 1588م فرّ من المدينة نحو الأوراس، والتحق به أخوه "يحيى بن سليمان الأوراسي"¹⁴³⁶، وقد اعتبر بعض الفقهاء المعاصرين له أن ما قام به من خروج من المدينة إن

1433- صادق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د.م.ج، الجزائر، 1964، ص105، 104

1434 - René Basset, "Dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed Ben Youssef", in **Journal Asiatique**, Paris, 1890, p22.

1435- ابن المفتي، المصدر السابق، ص88.

1436 - ما يزال الشك فيمن قام بالثورة هل هو أبو العباس احمد الأوراسي أم أخوه يحيى بن سليمان ولم يجزم الفكون في منشور الهداية في إسناد زعامة الثورة لأي منهما واكتفى بالقول " والناس يرون أن سيدي يحيى هو القائم لشهرته واعتقاد الناس فيه" ابن الفكون، المصدر السابق، ص54. .

صحت الأدلة عليه فهو يعد "كافرا" لتركه الجماعة المسلمة، وهذا ما ذهب إليه الفقيه القسنطيني "يحيى المحجوب" وسأنده في ذلك "ابن الكماد"¹⁴³⁷ الذي اعتبر الخلاف والخروج عن الإمام مهديد لوحدة الأمة والجماعة المسلمة¹⁴³⁸، وبعد مكيدة دبرت للفقيه الثائر نفذ فيه حكم الإعدام دون مراعاة لشيء.

وبالغ ابن المحجوب في تجريم الفقيه أبي العباس أحمد الأوراسي متوعدا إياه بالثبور والخلود في نار جهنم، بينما سأنده أحد وجهاء المنطقة "إبراهيم بن يوسف الغماري" معتبرا حركته الثورية عملا إسلاميا وبطوليا نال به شرف الشهادة، مؤكدا في نفس الوقت انه سمع الأديب والعالم النقاوسي يقول في الفقيه الثائر كلاما جيدا يفيد في هذا المعنى¹⁴³⁹.

ووقع الخلاف في ما بعد بين المفتي الحنفي النيار مع المفتي المالكي أحمد بن سعيد قدورة¹⁴⁴⁰ في قضية طلاق وقعت في إحدى الأسر بمدينة الجزائر فقد حكم النيار برجوع ملكية السكن للمرأة وسط قوم صالحين¹⁴⁴¹.

ويبدو أن مفتي المالكية خالفه في ذلك وألح على استمرار الزوجة في سكنها في دار الزوجية وهو ما يعني إعفاء الزوج من الدار، واشتد الخلاف بين الفريقين حتى وصل حد السباب بين المفتي الحنفية والمالكية في حرم الجامع الأعظم، واتفقوا إلى رفع النزاع إلى الباشا وانقسم علماء البلد إلى قسمين:

قسم أول هم المساندون لفتوى الأحناف يتقدمهم "مصطفى العنابي" و"الحاج المهدي بن صالح" و"محمد بن قندرون" و"محمد بن النيقرو" ووالده "إبراهيم بن النيقرو"¹⁴⁴².

1437 - ابن الكماد أبو عبد الله محمد قاضي الجماعة بقسنطينة وفقه مالكي تتلمذ على يد الشيخ عمر الوزان عاصر ابن الفكون الذي أخذ عنه الفقه والأدب. ابن الفكون، المصدر نفسه، ص44.

1438 - Houari Touati, **op.cit.**, p 10-9

- Houari Touati **ibid.**, p 110 1439

1440 - أحمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة من كبار فقهاء المالكية له اشتغال بالسياسة - كما يذكر ابن المفتي - من أهل مدينة الجزائر، تولى الفتوى بها، وحكم عليه محمد بكداش بالإعدام سنة 1706، ونقل ابن المفتي الحادثة بقوله: "ولما تولى محمد بكداش مكان الداوي مصطفى باشا سنة 1118 قبض على الأخوين العالمين سيدي أحمد والسيد علال ولدي العلامة الشهير سعيد قدورة وكان الأول مفتيا للمالكية والثاني قاضيا لهم فقتلتهما في محبسهما" انظر: ابن المفتي، المصدر السابق ص102.

1441 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 102.

1442 - المصدر نفسه، ص102.

أما القسم الثاني فيتشكل من مساندي المفتي المالكي ومنهم "محمد بن علي" و"سيدي الطيار" و"سيدي عمار" و"سيدي محمد بن علي بن سيدي المهدي"¹⁴⁴³.

واستقبل الأمير أهشي مصطفى الوفدين، وبعد السماع إلى سيدي مصطفى العنابي الذي قال وأكد أن الحق في هذا الخلاف مع العلماء الحنفية، قرر الأمير عزل سيدي أحمد مفتي المالكية بمدينة الجزائر وولّى مكانه أحد أقاربه وهو عبد الرحمن المرتضى، والغريب في الأمر مثلما يذكر ابن المفتي أن وفد العلماء المالكية سكتوا جميعاً، ولم ينطقوا بكلمة واحدة في هذا المجلس العلمي¹⁴⁴⁴، فهل مرد ذلك إلى خوفهم من سطوة الأمير؟ أم أنه ضعف حجّتهم وعجزهم على تقديم الدليل الشرعي من مذهبهم على ما يرونه من رأي في هذا الموضوع؟ وقد يكون من أسباب سكوتهم ما رأوا من ميل فاضح للباشا والديوان للأحناف وبقينهم أن الكلام لا ينفع مع هذا الصنف من الحكام...¹⁴⁴⁵.

ومن أمثلة هذه المحن التي عاشها الفقهاء محنة القاضي الحاج المهدي والذي زاول مهنة القضاء نحو عشرين شهراً، ثم عزله تلميذه الدولاتلي حسين خوجة شريف، ونفاه إلى بلاد العجم بعد أن أذله وأهانته حيث أمره باسترجاع جميع الهدايا التي أعطيت له، وهجم كثير من الناس على المركب الذي يقله وآخذوا الهدايا والأشياء الثمينة التي يقلها¹⁴⁴⁶.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن الفكون في منشور الهداية عن سيدي يحيى بن سليمان الأوراسي الفقيه المالكي فقد كان "من صنف العلماء الذين كان لهم اتصال بالسلطة وبتدار الإمارة بقسنطينة وكانوا يعتقدون فيه الصلاح ولا يقطعون أمراً دونه في كل مهماتهم فحسده أهل زمانه وأكثروا به الوشي إلى الأمراء وتقولوا عليه خلع البيعة والاستقلال بالرياسة"¹⁴⁴⁷ إلى أن فر من قسنطينة لجبل الأوراس وأخوه أبو العباس أحمد معه وأحاطت به القبائل المنيعة قرفة أولاد عيسى العريان وعجزت

1443 - المصدر نفسه، ص 102.

1444 - قد يكون من أسباب سكوتهم ما رأوا من التبجيل والتكريم للفقهاء الأحناف والزجر للفقهاء المالكية من خلال خطاب الداي وتدخلاته التي جاءت في صف الأحناف.

1445 - ويبقى التساؤل حول مشروعية ما حكم لصالحه الداي وبأي وجه يثبت من ميزان الإحاطة بالأدلة الشرعية خاصة أهشي مصطفى الذي لم تكن له علاقة البتة بعالم الفقه والدين.

1446 - ابن المفتي، المصدر السابق، ص 104.

1447 - بن عياض أبو الفضل بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1986، ص 123.

القوات التركية على القضاء عليه حتى مات غدرا وكان من غدر به طلب منه المبيت والنزول وأقسموا عليه بجاه النبي (ص) فلما أذن لهم نزلوا وقتلوه¹⁴⁴⁸."

وكانت محنة أحمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة وأخوه من أقصى ما لقيه الفقهاء من السلطة المستبدة، فقد كانا من كبار فقهاء المالكية خاصة أحمد الذي كان له اشتغال بالسياسة في مدينة الجزائر كما ذكر آنفا، تولى الفتوى بها بعدما ورثها عن أجداده، لكن محمد بكداش حكم عليه بالإعدام سنة 1706، حيث ينقل عن صاحب تحفة الزائر¹⁴⁴⁹ : "ولما تولى محمد بكداش مكان الداوي مصطفى باشا سنة 1118هـ قبض على الأخوين العالمين سيدي أحمد والسيد علال ولدي العلامة الشهير سعيد قدورة وكان الأول مفتيا للمالكية والثاني قاضيا لهم فقتلتهما في محبسهما"¹⁴⁵⁰.

وينقل "بيار بوايي"¹⁴⁵¹ عن الأب "هيرولت"¹⁴⁵² قصة شديدة تبين مدى سوء المعاملة وقلة التقدير من طرف الأتراك لأصحاب الفضل والوجاهة، حينما تتعلق المسألة بمصالحهم. فقد ذكر أن أحد المفتين الأحناف حكم عليه الديوان بالقتل بأشنع صورة، حيث يُضغَط في فوهة مدفع مخصص لهذا الغرض بالقصبة، ليس لجرم اقترفه، سوى أنه حكم لأحد الأهالي الذي كان في خصام ونزاع مع جندي انكشاري برتبة "بولوكباشي"، ولم ينبُج من هذه العقوبة المأساوية سوى تدخل الداوي "إبراهيم باشا"، ليس من باب نصرة الحق بل لأنه كان يخشى من نقمة السلطان العثماني. وكان هذا المفتي في ما بعد مضطرا لمهادنة الديوان والقبول بسياسته¹⁴⁵³.

وكان المفتون المالكيون في وضعية أسوأ وكانت إقالاتهم من منصب الفتوى رائجة، لأي سبب من الأسباب، رغم رفض الأهالي. ففي مدينة الجزائر كان الأهالي يرغبون في بقاء سيدي سعيد الحاج قدورة في منصب الفتوى الذي شغله من 1621- إلى 1651، لكن الباشا رفض وأصر على

1448- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص54

1449 - محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، دار البقطة العربية، بيروت، 1964.

1450 - محمد بن عبد القادر، المرجع السابق ص102

1451 - Pierre Boyer Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles) In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°1, 1966. pp. 11-49

1452 - قس فرنسي بمدينة الجزائر عايش الأحداث.

1453 - - Pierre Boyer, Contribution..., op.cit. . pp. 11-49

تنحيته¹⁴⁵⁴، وفي سنة 1707 قُتل المفتي "عبد الرحمن المرتضى" من طرف الداوي "مصطفى بكداش" فاهتزت مدينة الجزائر لهول الحدث.

وكانت سياسة إنفاق الأموال العامة وسبل صرفها من أبرز أسباب وعوامل النفور التي وقع حولها الاحتكاك بين العلماء والفقهاء من جهة، والحكام والولاة من جهة ثانية في هذه الفترة، وخاصة سبل إنفاق الأموال المحبسة والأوقاف، وقد كانت رغبة الحكام عموما العمل على فسخ عقود تحبيسها، للاستفادة منها في أمر ما من الأمور¹⁴⁵⁵.

وقد أورد بعض المؤرخين أن الأموال المحبوسة قانونيا وشرعيا كانت سببا في حدوث أزمة عندما أراد حاكم تركي "فك الحبس بعد مرور سنين طويلة" فوقعت منازعات و مناوشات بين مؤيدي الحكم بتعطيل الحبس وفق المذهب الحنفي ورافضين لذلك من المالكيين فكانت بمثابة الفتنة الطائفية التي زادت في الطين بلة¹⁴⁵⁶.

ويرى بعض المؤرخين أن من أسباب تنحية "صالح باي" عن حكم قسنطينة يرجع في الأصل للخلاف الذي وقع حول إنفاق الأموال وسياسة صالح باي المالية التي كانت تتسم بالصرامة. وقد كان صالح باي يرفض أي تقصير من وكلاء المساجد في إنفاق الأموال في غير وجوهها، وقد شرع في إصلاحات مالية عميقة وذلك بتتبع كل مصدر كل دينار وسبيل إنفاقه وجعل لذلك عمالا مهرة بإشراف القضاة واعيان البلد¹⁴⁵⁷.

ويعتقد أن صالح باي جمد الإعفاءات الضريبية التي كانت تستفيد منها المؤسسات الدينية الحرة خاصة الزوايا، لتغطية نفقات البناء والعمران على المدارس، التي نافست الزوايا وبددت صورة التدين التي حرصت عليها طويلا¹⁴⁵⁸، فاشتعلت نار العداوة بينه وبين رجال الدين التقليديين منهم

- ibid. pp. 11-49 1454

1455 - قشي فاطمة الزهراء، "الحياة الفكرية في قسنطينة...المقال السابق، ص 331

1456 - يختلف الوقف والحبوس بين المذهب المالكي والحنفي اختلافا كبيرا، من حيث طريقة التحبيس و مآلات الحبس، وفيما يوجه فيه من شؤون، وقد نقل المؤرخون كثيرا من الأزمات التي وقعت في البلاد بين فقهاء المذهبين، نقل بعضها الفكون في منشور الهداية، وتحدث عنها الباحث الجزائري نصر الدين سعيدوني في كتابه الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، فيرجع له.

1457 - Ouanassa Siari Tengour, « Salah Bey Et La Cite De L'oubli », Insaniyat, 1998, p71- 89

1458 - قشي فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 106.

"سيدي أحمد الزواوي" و"سيدي محمد الغراب" الذين استنكروا سياسته المتشددة وانتهت بالقتل الأسطوري لحاكم قسنطينة الذي تحالفت ضده اغلب القوى المناوئة والمحافظة آنذاك¹⁴⁵⁹.

ويرى بعض الباحثين أن الأوقاف كانت بالإضافة لإنفاقها على الفقراء والمساكين وطلبة العلم والغرباء، تُنفق كذلك على بناء المؤسسات الثقافية وتوسيعها، خاصة المساجد والمدارس وبناء الشكنات والإنفاق عليها، لتوفير المأوى والوسائل الحربية الضرورية¹⁴⁶⁰.

وبالإضافة الى ما سبق يمكننا إدراج أسباب أخرى كانت وراء النفور والتشنج في العلاقة بين الفقهاء والسلطة الزمنية منها:

- الخلاف الفقهي الحنفي المالكي المتخفي داخل المجموعتين الفقهييتين.
 - انتهاء دواعي التحالف بين الطرفين خاصة بعد تحرير وهران النهائي وضمور مسألة الموريسكيين مع مرور الوقت.
 - الضغائن والحسد حول المناصب والوظائف والتي كان أغلبها يشتري بالمال.
- وكان الفقهاء بسبب ضعفهم المادي وانعدام العون العسكري مطية لمزايدات وضغوط عناصر الدولة المختلفة فلم يسلم الفقهاء والعلماء من تسلط الإنكشارية رغم شساعة المساحة بين الفريقين وكان الجيش في بعض الأحيان يغرمونهم حينما تتأخر العلوفات¹⁴⁶¹.

المبحث الخامس: آثار وانعكاسات النفور بين السلطة والفقهاء

المطلب الأول: هجرة الفقهاء.

كان علماء المغرب الأوسط منذ العصور الإسلامية المبكرة ولعين بزيارة المشرق، وكثير منهم فضل الاستقرار به، ومن الذين برز ذكرهم في هذا الشأن قبيل الفترة العثمانية:

الشيخ أبو المحاسن علي بن أبي القاسم محمد التميمي القسنطيني (ت 519 هـ / 1125م) كان أشعري العقيدة محدثا وفقهيا من مدينة قسنطينة زار دمشق وبغداد وأخذ العلم عن شيوخها، وكان

1459 - أحمد بن المبارك العطار، تاريخ قسنطينة، تحقيق رابح بونار، بدون معلومات، ص 75.

1460 - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 124.

1461 - ابن المفتي، المرجع السابق، ص 64.

يجب صناعة الكيمياء والبحث فيهما ومن أفضل تأليفه : "تنزيه الإله وكشف فضائح المشبهة الحشوية"¹⁴⁶².

الشيخ أبو بكر بن عمر بن سالم رضي الدين القسنطيني (ت 695هـ / 1296م) ، كان عالما لغويا وفقيها متمكنا فيه نشأ ببيت المقدس ثم انتقل للقاهرة ودرّس بالأزهر، أخذ عن ابن الحاجب، وأضر آخر عمره¹⁴⁶³.

الشيخ أبو النجى سالم ابن القاضي عفيف الدين بن محمود القسنطيني (ت ق 9 هـ / ق 15م) كان أبوه قاضيا بمدينة قسنطينة زار الإسكندرية ثم أدى فريضة الحج سنة (888هـ / 1483م) واستقر بعدها بمصر، أما الشيخ محمد بن المبارك القسنطيني (ت 868هـ / 1464م) فقد كان عالما و فقيها وأديبا ولد بقسنطينة و نشأ بها و تعلم على يد شيوخها ثم انتقل إلى الحجاز و استقر بالمدينة المنورة. الشيخ قاسم بن عبد الله بن منصور بن عيسى الهلالي القسنطيني (849هـ / 1445م) فقيها مالكيا ومحدثا ولد بقسنطينة سنة (788هـ / 1386م) ثم رحل كغيره من طالبي العلم إلى تونس ونال من شيوخها الكثير من العلم والفضل،

الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن قائد بن موسى الزواوي القسنطيني (857هـ / 1458م) ولد في جرجرة ، ثم انتقل إلى بجاية فتعلم الفقه والتفسير واللغة العربية وقواعدها ثم انتقل الى مدينة قسنطينة حيث استقر بها و أخذ بها علوم العقائد والمنطق وتلمذ على يد أبي عبد الله بن مرزوق الحفيد (ت832هـ) الفقيه الذي شرح "ألفية ابن مالك " وشرح مختصر خليل في ثلاث مجلدات. ثم انتقل إلى الحجاز أين إلتقى به المؤرخ المصري المشهور السخاوي بمكة المكرمة.

الشيخ أبو زكريا يحيى بن أحمد بن عبد السلام بن رحمون ت 888 هـ / 1483 م) الذي يعد من كبار فقهاء المالكية عالم بأصول الدين واللغة العربية و المنطق ولد ونشأ بقسنطينة ودرس في تونس ثم انتقل إلى المشرق وبمصر عين أستاذا بالمدرسة المنصورية والأزهر الشريف. وفي سنة (875هـ / 1470م) أدى مناسك الحج ثم استقر بمكة المكرمة وكان له لقاءات عديدة بالمؤرخ المصري السخاوي وله شرح

1462 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص263.

1463 - عادل نويهض المرجع نفسه، ص263.

رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه، و تعليقات على مختصر خليل و صحيح البخاري. وغيرهم¹⁴⁶⁴.

وأما في العهد التركي فإن السلطة الجديدة لم توفر الأجواء الكافية التي ترضي أذواق جميع الفقهاء بما يطلبونه من ضروب العلم وأجواء الحرية والتشجيع المادي والمعنوي، فكانت النتيجة المنطقية لسياسة التهميش والإكراه والضغط المختلفة التي تمارسها السلطة التركية وضعف المعين الفكري والفقهي للجزائريين هجرة أعداد كبيرة منهم إلى الخارج، وفرارهم من الظلم والطغيان وجور السلطان، وهكذا فإن أسباب الهجرة اختلفت وتباينت بين أسباب سياسية وأسباب ثقافية وأسباب اجتماعية¹⁴⁶⁵.

فمن أسباب الهجرة الثقافية طلب العلم، للذين يريدون مواصلة الدراسة وتحصيل المزيد من المعارف والإجازات في مختلف الفنون، ومن أمثلة هذا الصنف أبو العباس أحمد المقرئ (986-1041هـ/ 1578-1631م) صاحب كتاب "روضة الأس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقينته من أعلام الحضريتين: مراكش وفاس"¹⁴⁶⁶ الذي ألفه في المغرب، وكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"¹⁴⁶⁷ الذي انتهى من كتابته قبيل وفاته بمصر. وكان المقرئ شغوفاً بالسعي للاستزادة من العلوم وتدريسها، وظل متنقلاً بين فاس ومراكش، ثم يمم نحو المشرق حيث كشف عن مؤهلات علمية كثيرة، مكنته من التدريس في الأزهر وفي مكة والمدينة المنورة وفي بيت المقدس ودمشق¹⁴⁶⁸.

1464 - فيلاي عبد العزيز ، "أبرز علماء قسنطينة وأثرهم في بلاد المغرب والمشرق خلال العهد الحفصي القرن 13م- 16م" في مجلة جامعة قسنطينة، العدد الأول، جوان 1990.

1465 - لبصير سعاد، هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر في العهد العثماني 1516-1830 ر.م.غ.م. جامعة متنوري، قسم التاريخ، قسنطينة، سنة 2008.

1466 - أحمد المقرئ، روضة الأس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقينته من أعلام الحضريتين: مراكش وفاس، تح عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية، الرباط، 1383هـ/ 1964م).

1467 - من أهم طبعاته الطبعة اللبنانية، في ثمانية مجلدات، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت (1388هـ/ 1968م).

1468 - أحمد المقرئ، نفح الطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، ج1، ص: 56-57.

وقد يكون سبب الهجرة والخروج من البلد، البحث عن الشيخ المعلم، الذي يوجه مريده نحو المزيد من النجاح، فقد ذكر ابن ميمون عن نفسه أنه تعلق بطلب شيخ يقوده، لما سمع مقولة كانت تتردد في فاس تقول، "لولا المري ما عرفت ربي".¹⁴⁶⁹ فوقع في نفسه لزوم البحث عن المري¹⁴⁶⁹.

وقد يتمحور سبب الهجرة في طبيعة تركيب السكان في مرحلة معينة من مراحل التاريخ، حين يكون سكان المدن وبعض الحواضر غير قابلين للتأثر بالعلوم والاستزادة فيها، لسيطرة الدوائر التقليدية والصوفية عليها، فمدينة قسنطينة التي قلنا آنفا أنها مشاكسة للفقهاء والعلماء¹⁴⁷⁰ تعني بالعلم في بعض الأوقات و تحمله في أوقات أخرى، لأن ولائها لم يهتموا ببناء المدارس ولا باستغلال الأوقاف والأحباس في تشجيع ونشر التعليم والثقافة¹⁴⁷¹.

كما أن العلوم التي كانت تدرس بالجزائر عموما لا تتعدى بعض العلوم الإنسانية كالفقه وعلم أصول الكلام. مع عدم توفر أماكن لإقامة طلبة العلم، وكذلك انعدام معونات تخصص للإنفاق عليهم، وهذا من شأنه أن يؤدي لا محالة لاختفاء العلم والعلماء، وهو من الأسباب التي اضطر لأجلها الكثير من الطلبة والعلماء إلى الهجرة نحو تونس¹⁴⁷² ومصر¹⁴⁷³.

أما أسباب الهجرة السياسية فعادة ما تكون بالنسبة للفقهاء الذين عجزوا عن تغيير الواقع السياسي والاجتماعي والديني، أو التأقلم معه، فلم يبق أمامهم سوى الهجرة والابتعاد عن مجال السلطة الحاكمة، التي ما تزال ترفض الاستماع لهم والنزول عند أحكام الدين الإسلامي. ففي ظل السياسة المجحفة والغليظة للحكام في حق أهل العلم والفقه كما مر بنا فقد اضطر الكثير منهم إلى الهجرة والرحلة في طلب العلم والفقه وفي نشرهما، ومنهم من أطلال الهجرة وعاد إلى موطنه بعد سنوات عديدة كالفقيه والمفتي المالكي أحمد بن عمار والفقيه المالكي حمودة المقايسي، والفقيه محمد بن محمود بن العنابي، و محمد بن عبد الرحمن البوني سنة (1099هـ/1652م)

1469 - أبو الحسن علي بن ميمون الغماري الفاسي، بيان غرب الإسلام بواسطة صنفين من المتفكّهة والمثقفّة من أهل مصر والشام وما يليهما من بلاد الأعجام، تح حكيمة شامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007 ص 07.

1470 - الورتلاني، المصدر السابق، ص 356.

1471 - الورتلاني المصدر نفسه. ص 356

1472 - امتدح الورتلاني في رحلته كثيرا أمراء تونس وشعبها آنذاك وعلماءها لأنهم يشجعون العلم ولا يؤخرون جهدا في سبيل خدمة العلماء والفقهاء.

1473 - مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 161، 165، 166، 169، 171.

ومنهم من آثر الاستقرار في دار الغرب خاصة بالمشرق كمصر والشام والحجاز، كأحمد المقرئ صاحب كتاب نفح الطيب ويحيى الشاوي، وعيسى الثعالبي، وغيرهم وبهجرة هذه النخبة من العلماء تركت فجوة عميقة على مستوى الحياة الثقافية والدينية في الجزائر.

وقد تحدث أبو القاسم سعد الله عن العلماء الذين رحلوا من تلمسان إلى فاس أوائل العهد العثماني أي بعد سقوط وهران بيد الإسبان، فقال: "بالإضافة إلى التدهور الاقتصادي والسياسي شهدت تلمسان تدهوراً اجتماعياً وثقافياً، فقد هاجر عدد من عائلاتها الغنية والعلمية إلى المغرب الأقصى فراراً من الإسبان الذين تدخلوا في شؤون دولة بني زيان عند ضعفها السياسي، ثم فراراً من حكم العثمانيين عند استيلائهم بالقوة على تلمسان، ومن العائلات الشهيرة التي هاجرت إلى المغرب الأقصى عائلة الونشريسي والمقرئ"¹⁴⁷⁴.

وقد نال أغلب العلماء المهاجرين في البلاد الجديدة حظوة وتقديراً لدى السكان، وبرزوا في شتى ميادين العلوم، ومنهم علي بن والي بن حمزة الذي برع في علم الرياضيات وتوفي في مكة المكرمة، ومحمد بن عبد الرحمن البوني الذي اشتهر في الأدب وتوفي في بلاد الحجاز¹⁴⁷⁵.

وكان العلماء الجزائريون الذين استقروا نهائياً في بلاد المشرق¹⁴⁷⁶ لا يجدون بديلاً من زيارة مصر خاصة جامع الأزهر، وجلس بعضهم مدرسا فيه. والبعض الآخر ارتقى حتى شغل مشيخة الأزهر كالشيخ الفقيه "يحيى الشاوي" الملياني 1621 1685 الذي كان أول جزائري يرتقي هذا المنصب من غير المصريين¹⁴⁷⁷.

ويمثل الحجاز لأداء فريضة الحج هدف أغلب الفقهاء المهاجرين للمشرق، وكذلك زيارة بيت المقدس ودمشق، ومن جملة الفقهاء والعلماء المهاجرين نحو المشرق والمغرب والذين أحصاهم الباحثون نذكر:

محمد بن أحمد بن محمد ابن الوقاد ت 1593 وعبد الرحمن بن محمد بن أحمد ابن الوقاد 1647ت، وكلاهما من فقهاء تلمسان توليا الخطابة والفتوى والإقراء لصحيح البخاري لكنهما فرا من

1474- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص172.

1475 - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص 416.

1476 - فيلاي عبد العزيز، المرجع السابق، 90.

1477 - مرت بنا ترجمته في الفصل الثاني من البحث.

تلمسان نتيجة وقوعها تحت الحكم التركي وكانت وجهتهما مدينة تارودانت جنوب المغرب الأقصى¹⁴⁷⁸ ..

أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ولد بتلمسان سنة 1578 واستقر بالقاهرة زمنا حتى أدركته المنية سنة 1931، وقد تقدمت ترجمته سابقا¹⁴⁷⁹

محمد بن عبد الرحمن البوني: ولد سنة 1606م بعنابة، هاجر إلى الحجاز واستقر بمكة وكان شاعرا وأديبا¹⁴⁸⁰.

الكماد القسنطيني 1704م توفي بالقاهرة¹⁴⁸¹

مصطفى بن عبد الله الرماصي مستغانم 1724م توفي بالقاهرة تقدمت ترجمته.

ابن الترجمان علي بن محمد الجزائر 1771م موسكو عاصمة روسيا¹⁴⁸².

محمد بن حسن الجزائري توفي سنة 1773م بالقاهرة.

أبو العباس الجزائري من مواليد جنوب المغرب الأوسط سنة 1778م توفي بالقاهرة.

علي بن محمد الميللي الجمالي ولد بميلة سنة 1833م وتوفي بالقاهرة.

محمد بن محمود ابن العنابي ولد بعنابة و توفي سنة 1850 بالإسكندرية بمصر¹⁴⁸³.

المطلب الثاني: اضطراب الأوضاع الداخلية.

منذ العهود الأولى للتاريخ الإسلامي استقر في ثقافة المسلمين، أن الخروج على "الإمام" أو "ال خليفة" بغية المطالبة بعزله من دون وجه حجة¹⁴⁸⁴، من المسائل غير الميسورة منالا من الناحية الفقهية، واستند المانعون للخروج على الإمام بترسانة من القواعد الفقهية والأصولية، والنصوص

1478 - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 343.

1479 - عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية من القرن الثالث الهجري إلى القرن الرابع عشر الهجري، (د م ج) الجزائر، 1995. ص 299.

1480 - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص 51.

1481 - Touati Houari, op.cit p121.

1482 - احمد توفيق المدني، محمد عثمان... المرجع السابق، ص 70.

1483 - أبو القاسم سعد الله، ابن العنابي... المرجع السابق، ص 04.

1484 - هذه الرؤية المطروحة تخص فقه الخروج على الإمام والحاكم عند أهل السنة والجماعة وما عليه جمهورهم ولا تعني بالضرورة الفرق الإسلامية الأخرى من خوارج وشيعة.

الدينية من القرآن والسنة، منها حديث النبي ص، حينما سئل عن الحكام الذين لم يستوفوا شروط الخلافة، أفلا نناذبهم؟؟ قال: " لا ما أقاموا فيكم الصلاة". وفي رواية أخرى، "إلا أن تروا منهم كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". وقوله عليه السلام: "من رأى من أميره شيء يكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية"¹⁴⁸⁵.

ويجفل التاريخ الإسلامي بحالات ونماذج عديدة من حلقات الصراع والتشنج التي تتعلق بتضارب الفتاوى الشرعية بالتشريعات السلطانية، وأدت مرارا إلى خروج الناس عن طاعة السلطان والثورة عليه.

ولقد كان العهد العثماني مثيرا لكثير من التساؤلات في هذا الشأن، وحول ما قامت به مختلف القبائل الناقمة من ثورات وانتفاضات شعبية على امتداد تاريخه الطويل..

فهل كانت هذه الثورات الشعبية ثورات منعزلة تفتقر للمسوغات الشرعية الضرورية، ففقدت بريقها وضعفت حجتها فقل أنصارها ومؤيديها مع مرور الوقت؟ أم أنها كانت حركات تمرد تقوم لأبسط الأسباب؟؟

ولم تكن الدوافع الدينية وحدها خلف الثورات حيث يرى كثير من المؤرخين أن البيئة الجغرافية تمثل عنصرا أساسيا في حدوثها، كما أن معظم الحركات الانفصالية والثورات القوية التي قامت ضد الخلافة العثمانية ظهرت في القرن الثامن عشر باستثناء حركة الشيخ "فخر الدين المغني" في لبنان سنة 1635م وذلك بسبب انعكاسات الحروب الروسية العثمانية¹⁴⁸⁶.

أما في إيالة الجزائر فقد كانت القبائل التي تقيم في الجهات الجبلية كالأوراس وجرجرة تعيش دوما في حركة تمرد وثورة ورفض، لأن سلطان الدولة لا يصلها، وقد شكل هذا الفراغ الطبيعي والسياسي والفكري عنصرا إلهام للمرابطين، وفضاء عمل ونشاط وحراك لهم، كما استغلت القبائل البدوية المتغطرة والقوية شساعة الهضاب وفرضت أجواء من الفوضى وعدم الاستقرار¹⁴⁸⁷.

1485 - الدهلوي، المرجع السابق، ص232.

1486 - محمد حسن العبدروس، الأطلس التاريخي للخلافة العثمانية التنوع الحضاري وأثره على النظم الإدارية لدولة الخلافة، دار الكتاب الحديث، 2012، ص204.

1487 - houari op.cit p25 2-.

هل كانت الطبيعة القاسية تصنع الرغبة في الثورة بما توفره من أمن للثائرين؟ إذا كان الأمر كذلك فإن الطبيعة نفسها لا تصنع منهم ثائرين ملهمين¹⁴⁸⁸، لأن الثورة تعني كذلك السلاح والمال والقدرة على التنظيم، لقد كانت القبائل العربية في الشرق وفي الغرب محل فوضى وعدم استقرار، لفقدتها الدور السياسي الذي احتكرته المدينة، فكانت تشكل تهديدا دائما للسلطة، رغم تعدد مظاهر علاقتها بها، من خلال الخدمات المقدمة والمتبادلة إلا أنها لم تستقر على حال بسبب ولائها السياسي الضعيف¹⁴⁸⁹.

وكان بنو عامر - وقد مر بنا الحديث عنهم - من أمثلة هذه القبائل الثائرة، صنفهم بن مريم صاحب البستان، ضمن القبائل البغاة في سهول تسالة¹⁴⁹⁰، شرقي تلمسان وجنوب وهران، وكان علماء المدن وفقهائهم واضحين منذ البداية في الدعوة لمحاربتها، بل حرموا التعامل معها واعتبروا طعامها اغتصاب ومحرم على المسلمين تحصيله بأي وجه من الوجوه¹⁴⁹¹، ولم تحل أواخر القرن السادس عشر حتى أجمع أغلب فقهاء المغرب الإسلامي على تفسيقهم وقتالهم، منهم الفقيه التونسي بن عرفة والفقيه يحيى الونشريسي في نوازله وعبد القادر المشرفي في رسالته بجهة الناظر كما مر بنا. واستطاعت السلطة التركية بجيش قليل أن تحفظ الأمن والاستقرار بصورة دائمة، وذلك بفضل الاقتصاد في الوسائل الإدارية، والمتمثلة في مركزية محدودة وإدارة مبسطة وجيش قليل العدد، الأمر الذي عجزت عنه السلطة الاستعمارية الفرنسية بعد 1830.

لقد كان منطق الثورة على النظام التركي في الأرياف مستساغا بسبب الضرائب المفروضة على الريفيين الذين كان ينهشهم الفقر والفاقة، خلافا للمدينة التي كانت الضرائب فيها تؤدي بصور شتى. وكان حكام المدينة ينالون احتراما كبيرا من طرف سكانها، وفق تعبير "وليام سبنسر" فبالنسبة لهؤلاء السكان، فإن الحكام يمثلون رمز القوة والثروة والرفاهية التي ينعمون بها، فلم يكن هناك سببا لتحدي حكامهم، وحتى في أحلك الظروف لم يفكر سكان المدينة في الثورة على السلطة القائمة أو الانقلاب عليها¹⁴⁹²، ولقد كان بإمكانهم الوثوب على الحكم أثناء صراع التولي بين الأوجاق أو حين انقسام

- ibid p251. 1488

- ibid p251. 1489

- ibid p252. 1490

2- ibid p25 1491

1492 - وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 64.

الديوان في مسألة استخلاف الباشا، ويبلغ الخلاف أشده سرعان ما تعود الأمور إلى نصابها بسرعة فائقة¹⁴⁹³.

ولعب الفقهاء والعلماء دوراً أساسياً في إضفاء الشرعية أو خلعها عمن يشاؤون، بما يطرحونه من مبررات الإذعان للسلطان وطاعته¹⁴⁹⁴، ففي ثورة 1637م التي قادتها جموع قبائل "الحنانشة" و"الذواودة" ضد الحكم التركي في بايلك الشرق، والتي اتّسمت بالعنف والشمول، وكادت تقتلع جذور الحكم التركي فيه¹⁴⁹⁵، لكنّ تأخّر عُلَمَاء "قسنطينة" وبونة "عناية" في تأييدها ودعوة الناس لاحتضانها، وإعلان الولاء لها كان سبباً في زوالها¹⁴⁹⁶، دون أن تحقق شيئاً من أهدافها، وهذا ما يبرز بجلاء مكانة فئة العلماء والفقهاء والقضاة في هذه الفترة، وتعرف هذه الثورة بثورة "ابن الصخري" نسبة للزعيم الذي قادها، بعد مقتل أبيه "محمد الصخري بوعكاز" من طرف "مراد باي" حاكم قسنطينة، بعد محاكمة سريعة وغير مسؤولة¹⁴⁹⁷.

وتصدى فقهاء بايلك الغرب كذلك في القرن السابع عشر لتمرّد قبائل "الأحرار" على النظام السياسي، ولم تكن هذه القبائل في منأى عن فتوى الفقهاء بالطعن في نسبها الشريف الذي تزعمه، لما رافق هذه القبائل من أعمال عدوانية ضد غيرها. رغم تعهدها على الطاعة وإبرام الهدنة مع الباي "شعبان" سنة 1687م - 1098هـ حينما كان في مازونة¹⁴⁹⁸.

و اندلعت بعد ذلك ثورة "دراقوة"¹⁴⁹⁹ التي هزت البايك مجدداً، ولم تكن أسبابها فقط مرتبطة بالأسباب الطبيعية والاجتماعية المحركة للثورات، فقد ذكر "مسلم بن عبد القادر" أن "ضعف

1493 - المصدر نفسه ، ص 64.

1494 - طرح الورتلاني الذي عاش خلال القرن الثامن عشر في رحلته قضية الخروج على السلطان وكان يرى أن ولاية الأمور تجب طاعتهم إذا كانوا يصلون ما لم يأمرؤا بمعصية فان أمرؤا بها فلا يسمع منهم ثم ساق نقاشاً مطولاً في الموضوع تحت عنوان وجوب طاعة ولاية الأمر في غير معصية وما في معنى ذلك انظر الورتلاني، المصدر السابق، ص ص 359-362.

1495 - مولاي بلحميسي، "الثورة على الأتراك في الجزائر" في مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، العدد 48 سنة 1973.

1496 - Op , Leila Babès . Cit, p10.

1497 - بن العتري، المصدر السابق، ص36.

1498 - Houari Touati, op.cit. p251.

1499 - اندلعت الثورة الدراقوية من موضع عين الحوت قرب "تموشنت" سنة 1192هـ للخروج على الدولة التركية، ومات في محاولة وأدها خليل باي وهران نفسه، فخلفه محمد الكبير، وكان الولاء الديني المتشنت لبايك الغرب السبب في تأييد الطريقة الدراقوية، التي كان ملوك المغرب يديرونها ويتحكمون فيها، وقد استغلوها لزعة استقرار البايك ونواحي وهران، انظر: لوسات

الحكام كان من دوافع الثورة والانقلاب عليهم، فالسلطان القوي أدعى للبقاء والهدوء والاستقرار"، فحينما ذكر مسلم بن عبد القادر ولاية "مصطفى بن محمد العجمي" الذي تولى سنة 1215هـ 1800م قال فيه أنه "كان رجلا عاقلا غير أنه كان جبانا ظهرت في أيامه درقاوة"¹⁵⁰⁰، تمكنت درقاوة من نشر أجواء الفتن والهرج والمرج، فانعدم الأمن والاستقرار في ربوع البلاد، وشوهد قطاع الطرق واللصوص يصلون ويجولون في كثير من الجهات بسببها¹⁵⁰¹.

وشكلت الدعاية الدينية نجاحا كبيرا في التعريف بالثورة، حينما أخذ الثوار يروجون أساطير وكرامات على مسامع الناس تتعلق بزعيم الثورة "عبد القادر بن الشريف الدرقاوي"¹⁵⁰²، الذي أعلن العصيان وطالب جموع أهالي الغرب بالالتفاف حوله لجهاد الأتراك بدءاً من سنة 1802م.

وعجز فقهاء البايك الغربي على صد أبواقها الدعائية القوية، بمن فيهم المؤرخ والكاظم "مسلم بن عبد القادر" الوهراني الذي يعده البعض من فقهاء السلطان حيث حاول كشف حقيقة الطريقة الدرقاوية، بتثبيت انتساب مؤسسها للمغرب الأقصى، وتلقي أوامرها من هناك في الثورة على الحكم التركي في الجزائر¹⁵⁰³.

ووصف مسلم درقاوة وأتباعها وشيوخها بأنهم: "كانوا ينتحلون العبادات ويتلبسون ببعض التحيات يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف يجتمعون في الحلائق، ويذكرون الاسم المفرد، ويركبون القصب والحمير ويعلقون معهم قلائد من البيوش ويتظاهرون الزهد في الدنيا ومهما توجهوا إلى الناس يدارونهم يظنون أنهم على الحقيقة حتى أصبحوا ملوكا"¹⁵⁰⁴

وكان بن الشريف يتردد على أبي عبد الله محمد الدرقاوي شيخ الطريقة الدرقاوية بالمغرب الأقصى، كلما ضاقت به السبل يستنصحه ويطلب منه المدد، فكان يقول له ردا على الأهالي والأتباع الذين يستنصرونه على ظلم الأتراك: "انصروهم والله ينصرك"¹⁵⁰⁵.

فلنزي، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، ترجمة حماد الساحلي، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 107.

وانظر كذلك ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص 17.

1500 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 19.

1501 - بلغت أجواء الفتن وانعدام الثقة بين عناصر المجتمع حتى قيل إذا أراد أحد أن يفتك بخصمه ادعى عليه بأنه درقاوي.

1502 - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، 288.

1503 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 70.

1504 - المصدر نفسه، ص 71.

1505 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق ص 288

كما دخل هذا المعتزك الفقيه والمؤرخ أبو راس الناصري العلامة المحقق¹⁵⁰⁶، حيث اتهم من قبل خصومه وأعدائه بتأييد ثورة درقاوة ضد الأتراك سنة 1217 هـ/1802م والدعوة لها، فتوجس خيفة من الحكم التركي أن يأخذه بدون دليل وعلى حين غرة، فهرب إلى الجبال المجاورة وظل بها مستمسكا حتى أنطفئت نار الثورة، وسكن لهيبها، فعاد إلى معسكر وقدم الدليل على براءته، مما رمي به سابقا، وألف كتابه المعروف " درء الشقاوة في حرب درقاوة".

ودارت بين الأتراك والدرقاويين في بايلك الغرب حروب كثيرة¹⁵⁰⁷، وشملت بايلك الوسط والشرق، ومن أشهر المعارك التي وقعت بين الطرفين معركة "فرطاسة" الشهيرة، التي دارت رحاها سنة 1219 هـ/1804م وقد ذكرها حسن خوجة التركي صاحب كتاب در الأعيان، وأورد أشعارا صورت من خلالها العمليات القتالية وبطولات القادة وهزيمة الأتراك رغم العدد والعدة منها:

فرطاسة يومها ترى الجنو به ما بين تلى وأسرى غير ناجينا
فالباي جاء بجيش لا نفاد له به يريد لقا العدو باغينا
فلم يحقق له سعي ولا أمل بل جاء جنده صفر الكف بالينا
فاليوم لابن الشريف عو فيه على باي الأعاجم لولا الدين لا دينا

وقد وصف "مسلم بن عبد القادر" الوضع في بايلك الغرب بعد ثورة درقاوة بالنكد والضيق بقوله: " فأمسى الباي ومخزنه في نكد و أصبح الدرقاوي و أتباعه في رغد"¹⁵⁰⁸ و اتخذ الثوار من مدينة "معسكر" مقرا لهم وبدأت القبائل تعلن الجهاد ضد العثمانيين و المواليين لهم، وأورد "الزياني" في دليل الحيران بعض معالم الدعاية الدرقاوية منها قولهم في الناس: "وقد نزعنا عنكم ظلم الترك و الذل....و المغارم و المكوس فالواجب عليكم مبايعتنا فوافقه جم غفير، وخلق كثير¹⁵⁰⁹"، وامتدت الثورة من مليانة إلى غاية تلمسان، ولم يتمكن من وضع حد لها سوى الباي "محمد المقلش" الذي تمكن من رفع الحصار عن مدينة وهران، وإعادة الحياة لها بعدما عاش سكانها أوضاعا صعبة، ثم شرع

1506 - تم التعريف به سابقا.

soulèvement des Derkaoua de la province historique sur le - Adrien Delpech, "Résumé 1507 Benmohamed, bach defter du bey Hassan, de Mosselem d'Oran, d'après la chronique d'El in R.A., 1874.- p.p. 38-58 - 18131800

1508 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 73

1509- الزياني، المصدر السابق، ص 209 .

في إخضاع البايك و مطاردة الدرقاويين¹⁵¹⁰، و التقى الطرفان في معركة "أولاد زائر"¹⁵¹¹ التي انسحب منها الدرقاوي إلى "بني سناسن" نواحي تلمسان و هناك مات بالوباء سنة 1809م¹⁵¹².
 وكان من أبرز نتائجها حدوث الوحشة بين الأهالي والأتراك، وأعطت الفرصة للمغرب للتدخل في شؤون إيالة الجزائر، كما ساهمت في هجرة الفقهاء والعلماء حتى لا يشكلوا رأيا واحدا ضد السلطة التركية وكان مسلم بن عبد القادر يرى أن درقاوة كانت وبالا على المنطقة¹⁵¹³.
 وكانت الثورات تستمد في بعض الأحيان وقودها من سجال الشعراء، الداعين للانتفاضة ضد الأتراك لسبب أو لآخر، وقد كان الشاعر سعيد المنداسي من الشعراء الذين بالغوا في هجاء الأتراك والدعوة لحربهم، ومن أشعاره في هذا الشأن قوله:

أمن قادر بالله يحمي تلمسان	فان بها من قوم ياجوج اخوانا
بني السد ذو القرنين للناس رحمة	فيا ليتته من شوكة الترك هنانا
ولكن وراء السد عم فسادهم	وهم افسدوا في الغرب كفرا تلمسانا ¹⁵¹⁴
فقل لابن زاغو للضلال أئمة	تدبر لحاك الله ما قال مولانا
فان امير الترك فرعون قائم	وانت جليس السوء في زي هامانا
قتلت فحول العلم صبرا ولم تزل	على عهدك المعلوم في الزيف هيما
فما قام شعبان شعبان ليلة	ولا صام في الإسلام رمضان رمضان ¹⁵¹⁵
إلى أن يقول:	

فما دب فوق الأرض كالترك مجرم ولا ولدت حواء كالترك إنسانا¹⁵¹⁶

وكان للرحالة المغربي الشريف الزباني نفس الانطباع حول الأتراك وسياستهم في تلمسان القائمة على قهر العلماء والنيل منهم ومما قاله في هذا الشأن :

- de Grammont, **op.cit**, p365 1510

1511 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 85

1512 - Esterhazy, **op.cit**, p208..

1513 - بونقاب مختار، "انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري"، في مجلة المواقف، جامعة معسكر، العدد 03 2008 ، ص140

1514- مسعود بن ساري، تلمسان في الشعر الجزائري في العهدين الزياني والعثماني، (ر.م.غ.م)، قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، 2008 . ص222
 1515- مسعود بن ساري، المرجع السابق، ص223.

1516- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص259.

كانت تلمسان بالأعلام صائلة وبالجياد ولم يربط بها الحمر
أصاها المسخ إذ عادت تباع بها مناصب العلم للأجلاف والخور
وكيف لا وجنود الترك حولكم تسوقكم بعصا الخسف ولا تذر
لكن إلى الله أشكو دفع غصتكم فهو المؤمل والمرجو ينتصر¹⁵¹⁷

كما نقم "المنداسي" على فقهاء السلطان الذين لانوا له وقبلوا بظلمه للرعية منهم الفقيه التلمساني بن زاغو، الذي دعا إلى اللين في التعامل مع الأتراك وإعلان الولاء والطاعة، فقال فيه المنداسي أغلظ الأبيات الشعرية التي كتبها منها:

لقد صرف الدهر العويس لئاما غلاظا شدادا في المواطن طغيانا
كعاد وأهل الرس والفرس ما بقوا ولا بقيت في الأرض قوم ابن كنعانا
وإخوان لوط والعمالق إذا عتوا وتبع والأحزاب بيضا وسودانا¹⁵¹⁸
وقال اقتلوا فالقتل يردع غيرهم فلا رق ذاك القلب منه ولا لانا¹⁵¹⁹

ودعا آخرون للثورة ودقوا طبول الحرب، وتغنوا بالبطولات والمعارك التي أنجزها الثوار فتنتقل أشعارهم من قرية لقرية ومن دوار لآخر، في الأعراس والأعياد والمناسبات، وخير مثال على ذلك ثورة "سويد"¹⁵²⁰ التي تعد من أكبر الثورات التي هزت بايلك الغرب، وعُرفت في التاريخ بثورة "المحال"¹⁵²¹ ودامت أكثر من قرنين من الزمن، وتفاعل معها الشعراء والمداحون، منهم الشاعر "بن السويكت"¹⁵²² الذي خلد هذه الثورة حيث يقول:

على ارهيو وعلى جديوية كارسين الترك جوف والسويد جاوا للقبيلة

1517- مسعود بن ساري، المرجع نفسه، ص 223.

1518- المرجع نفسه، ص 142.

1519- المرجع نفسه، ص 142.

1520 - تعد قبيلة سويد من القبائل العربية الكبيرة التي هاجرت مع بني هلال في القرن الثالث الهجري وقد كان لها مواقف متصلة من الوجود العثماني في الجزائر وأنجبت العديد من الشعراء الذين تصدوا بشعرهم للأتراك منهم الشاعر ابن السويكت السويدي، انظر: المهدي البوعبدلي، "الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، جانفي فيفري 1987، ص ص 35-45.

1521 - بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 36.

1522 - الشاعر "بن السويكت" شاعر شعبي جزائري سجل العديد من الملاحم والثورات التي قامت بها قبيلته "سويد" ضد الحكم التركي ببائلك الغرب، وامتد نفوذها من "تنس" حتى نواحي "مستغانم" ثم تقلصت حتى "العطاف"، وقد سجل تاريخ القبيلة عبد الرحمن بن خلدون في تاريخه، انظر: بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 34.

الترك جاروا واسويد عقابهم طافحين والترك شاربين الهبال في سطة

الترك للبالا ينزادوا واسويد
ما اعطاوا الصفحة¹⁵²³

ويذكر أن هذه الثورة اندلعت بسبب رفض الأهالي وأمرائهم الخضوع للترك، وقد سجل شاعر آخر موقف بعض القبائل من وسط الشلف رفضت الخنوع والاستسلام بقوله:

قالوا الترك ندو الشلف لا وهمة قلناهم جدودنا في الواد

ما نتركوش شلف حتى تطيب الصمة وما نهدوش العقبة على الأولاد¹⁵²⁴

وفي قسنطينة ظهرت ثورة ابن الأحرش الدرقاوي¹⁵²⁵ سنة 1800م-1215هـ الذي وصفه مسلم بن عبد القادر الوهراني بقوله: "وكان أتى إلى القبائل أصحاب الأرياف وادعى أنه صاحب وقت (منقذ) وكانت إليه حيل أظهرها إليهم فناصروه"¹⁵²⁶، والتقى جموع الثائرين بالأترك شمال قسنطينة حيث قتل الباي عثمان في منطقة وادي الزهور بعدما نصب له الأعراب كمينا في مكان مغلق، ثم أطلقوا مياه نهر وادي الكبير عليه، فهلك وهلك معه جند كثير غرقا ولم ينج إلا القليل¹⁵²⁷.

واشتعلت نار الثورة مجددا في بايلك الغرب تزعمها هذه المرة التيجانيون¹⁵²⁸ ولما لم يجد مؤسسها استجابة مطمئنة تخلص من إثارة القبائل وتحيج العواطف ضد الأتراك فانتقل التيجاني إلى فاس حيث توفي بها سنة 1815م، وعاد أبنائه إلى "عين ماضي" لنشر فكر أبيهم وتعاليم طريقته التي اشتد عودها وصار لها أتباع كثيرون، وما إن حلت سنة 1820 م حتى وجه الأتراك حملة جديدة للمدينة المتمردة في الجنوب ولكنها لم تأتي بثمارها. وفي سنة 1825 قام أتباعه بنقل الحرب شمالا

1523- بن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 36.

1524 - يستفز الشاعر سامعيه من بني قبيلته للاستمرار في الثورة والمقاومة والتعاهد على تصفية الأتراك وأن لا يورثوا لأبنائهم مشاكل وأزمات في المستقبل.

1525 - خنوف علي، المرجع السابق، ص 44.

1526 - مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 67.

1527 - المصدر نفسه، ص 68.

1528 - ينتسب التيجانيون إلى أبي العباس أحمد التيجاني، المولود سنة 1737 / بعين ماضي بالمغرب الأوسط قضى فترة متجولا في الصحراء ثم ذهب للحج، ومكث بالمشرق سنتين، ثم عاد إلى تلمسان التي وجد بها باي وهران له بالمرصاد حيث بدأ ينشر أفكاره الجديدة، ثم انتقل إلى مسقط رأسه عين ماضي لكونها بعيدة عن مراقبة السلطة واستطاع نشر عداوة الأتراك بها، خاصة بعد حملة الباي محمد الكبير سنة 1782 م نحو الجنوب. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر.. ج1 المرجع السابق، ص 518.

ليثأروا من الأتراك فتحالفوا مع سكان غريس الذين بايعوا الثورة¹⁵²⁹، لكن القبائل المشاغبة كبني عامر، البرجية، الزمالة، و سويد رفضت مساندتها¹⁵³⁰ واستطاع الباي حسن عزل أعيان القبائل واجتثاث جذور التمرد.

وقد صور الشعراء الشعبيين الذين عاشوا في هذه الفترة، ودعوا إلى اليقظة والانتباه، مثل الشاعر الشعبي المدعو الشيخ بالقاسم الرحموني الحداد¹⁵³¹ من مدينة قسنطينة، الذي صور الواقع المعاش بمدينة قسنطينة أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، في قصيدة من الشعر الملحون تضم تسعة وستين بيتا، وجاءت مشحونة بصور قائمة عن المدينة في بداية القرن التاسع عشر، يقول في بعض أبياتها:

بالقبائل راهي اتحشات والشاوية كلاتهم جات
والسوافة ذوك اللزجات حتى مزيتته زادو
مغاربة وشراقة حفلات جاين ليها بالكثرات
فازعين ليها بثبات مثل هيس جرادو
بني مزاب¹⁵³² أقوات بالسّلعات مخلفين نسا هم وابنات
وبعدهم يولدوا¹⁵³³ كيف نخبر هاي سيدي
بالفساد في كمان حوما واش تنظروا فيها هلكت
راهي فسدت

1529 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 159

1530- الغالي الغربي، الثورات الشعبية أثناء العهد التركي، (ر. م. غ. م) جامعة دمشق، سوريا، 1985، ص 192 .
1531- ولد في عهد صالح باي مات أبوه صغيرا فتزوجت أمه بمحمد كفل اليتيم وعلمه صناعته ومنه اخذ اسمه وسرعان ما توفي كافله فوجد نفسه يتيما فاتجه نحو محط الحشاشين بالمدينة حيث كان يستمع للشعراء الشعبيين وسرعان ما اكتسب الخبرة فتفتقت قريحته بقدرته على الحفظ والسجع وصار شيخا في الشعر الشعبي وسرد القصص والبطولات المختلفة وكان لسانه سليطا يخشاه الناس ويذكر مرة انه كان جالسا عند حلاق يعالج زبونا فلما انتهى من حلاقته أعطاه الزبون مبالغ كبيرة تفوق أجرته ثم انصرف فعدى الحلاق خلفه يا فلان يا فلان لقد أخطأت في حساب الأجرة، فقال له الزبون كلا ولكن ألا تخشى من الذي عندك لو يعلم بغير ما صنعت كيف سيعيرني ويهجوني في قصائده ولست في استعداد لتقبل وسماع أشعاره. مات الرحموني زمن شاكرباي.
انظر A. Cour, **Constantine en 1802 d'après une chanson populaire** , in R.A, N0 60, 1919, pp224-230
1532- يقر الشاعر في هذا الموقف بحقيقة عناية الميزابيين بالتجارة والتحكم في حركة نقل البضائع والسلع وهي عادة لا تزال ليوم الناس هذا.

1533- A. Cour, **op.cit**, pp224-230.

ما بقات تسمى بلدة

واش تنظروا في ذي الدنيا عادت عميا

اليهود جاءت ليهم محبة عادوا عليا

باللباس وقصور تدهش

والمسلم في فم الحيا يعطي الجازيا

والكفر يقوي و يعرش ديننا ضعف ولى فديا لأهل العديا

كل يوم ينسب وينغش كل يتقوى جرحي هاي جوشي¹⁵³⁴

وللقصيدة أهمية تاريخية كبيرة بحكم تعداد الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها المدينة، بل حتى الطبيعية منها التي ذكرها الشاعر، منها هجرة القبائل من مختلف الجهات إلى المدينة منها: القبائل، الشاوية، السوافة، بني ميزاب، وانتشار الفساد الذي يعيق استمرار الحياة الطبيعية، ويحدد الحقوق والواجبات، حتى ضاعت معالم المدينة، فضلا عن تمكن اليهود وتبوؤهم مكانة مرموقة وصار الناس يحبونهم ويتزلفون إليهم، لموقعهم الاجتماعي و ثرائهم الفاحش. وصار المسلم نظرا لحقارته هو من يدفع الجزية - الضرائب - وليس اليهود، وانتشرت خلال سيئة داخل الأسرة من جهة، كزوال المحبة والثقة بين الإخوة وداخل المجتمع كارتفاع الأسعار والجفاف وقلة الأمطار، وتراجع الحرث لانعدام الأمن أو لاشتغال الفلاحين بقضايا أخرى، ويأمل الشاعر بالرغم منها في اقتراب موعد الحسم في النظام السياسي القائم العاجز عن التغيير نحو الأفضل...

ويصور أحد الشعراء الشعبيين الوضع في بايلك الغرب بعد فشل ثورة درقاوة وثورة التيجانيين بقوله: "تحزمت رجالي للفتن التل تحلى و تزول منه الذخائر، و تصير النخلة برخلة و لاشك تحلى الجزائر¹⁵³⁵".

والحقيقة التي صارت بينة كما يقول "لوسات فلنري" "إن سلطة الداى والإدارة التركية قد أوهنتها انتفاضات السكان قبيل الاحتلال سواء في الجزائر الغربية أو الجزائر الشرقية"¹⁵³⁶ ولم يبق من دور تقوم به هذه الثورات والانتفاضات سوى انتظار قادم جديد يحمل في جعبته الأسلحة الكافية للإجهاز على السلطة التركية والتصور الكافي لبناء إيالة الجزائر بعد القضاء على الحكم التركي.

- ibid, pp224-230 1534

1535- سعيدوني والبوعبدلي، المرجع السابق، ص39

1536 - لوسات فلنري، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، ترجمة حماد الساحلي، سراس للنشر، تونس، 1994 ص111...

ويمكن الوقوف على جملة من الحقائق من خلال هذا المبحث يمكن إجمالها في:

كان ولاء الأهالي للسلطة القائمة في المدينة، سدا منيعا في وجه محاولات الانقلاب والتمرد، حتى في فترة الضعف والتراجع التي شهدتها الإيالة في النصف الثاني من القرن 18 وأوائل القرن 19، حيث اتسمت الأوضاع الاجتماعية والسياسية بعدم الاستقرار وأخذ النسيج الاجتماعي يتفكك ويضعف، ولاحق في الأفق مؤشرات اهتزاز بنية النظام السياسي والدولة ككل، وتزامن هذا مع تفوق الدول الأجنبية عسكريا وبحريا وتجلت أطماعها في الإيالة.

انفجار الثورات الشعبية والانتفاضات التي يكون وراءها العصاة والمتمردون بعد وفاة القادة الأقوياء والزعماء فبعد وفاة "محمد عثمان باشا" داي الجزائر اندلعت الثورات وحركات العصيان في غرب وجنوب دار السلطان وهي نفس الفترة التي توفي فيها صالح باي قسنطينة والباي محمد الكبير في وهران، وتسببت في انقطاع الطرق بين المدن كوهرة ومدينة الجزائر وبين هاته الأخيرة وعاصمة بايلك التيطري المدية بسبب تمرد قبائل "سماتة"، وكلف الباشا حسن الذي خلف الداي السابق بالقضاء على هذه الحركات وأبلغه موقف فقهاء وعلماء المنطقة الداعي إلى اعتبارهم عصاة وفساقا ومستباحة أموالهم ودمائهم¹⁵³⁷.

التنافر الفكري بين الدرقاوية في بايلك الغرب والقادرية في بايلك الشرق والتيجانية في الجنوب كان سببا في فشل هذه الثورات، التي اكتفت بكونها ردود أفعال بسيطة وسريعة لكنها لا تعبر عن هم واحد أو تحمل مشروعا سياسيا واضح المعالم.

الخاتمة

في الأخير لا يسعنا سوى القول أنه مهما قمنا به من أجل البحث إلا أن ذلك لا يمنحنا الشعور بالرضا في تحقيق ما وضعناه من أهداف وما كنا نرجوه من نتائج، وقد يجد الباحث صعوبة كبيرة في تحرير الخاتمة التي يرغب أن يقدمها للقارئ كنتائج لأعماله ومساعدته التي قضى في سبيل تحصيلها سنوات عديدة بين دور العلم والمعرفة بمختلف أشكالها.

ولعل أبرز ما يمكن قوله في الخاتمة في ما يتعلق بالنزاع والخلاف الذي ساد طويلا بين المؤرخين والباحثين حول دوافع الوجود العثماني، بين مجرم للأتراك وواصف لهم بأوصاف الاستعمار وحب السيطرة، وبين منصف لهم في اعتقاده ومبرر لوجودهم في إطار الأخوة الإسلامية العالمية، التي تقتضي النصرة والمؤازرة، وبين هذا وذاك تبقى مسألة مهمة بحاجة لمزيد من البحث والتنقيب والتحليل، وتتمثل في تبرير سرعة تبوء الأتراك مراتب الصدارة في الجزائر في ظرف زمني قصير من جهة، ومن جهة ثانية سرعة خروجهم أيضا حيث فقدوا على إثر ذلك كل شيء بعد نحو من ثلاث مائة سنة، وطيلة هذه المدة كان العجز واضحا في بلورة مشروع دولة حديثة وبناء اقتصاد مستقر ومجتمع متماسك ومنسجم بين مختلف عناصره وينطلق من رؤية فكرية وحضارية واحدة وواضحة المعالم.

كما أننا فضلا عن ذلك يمكننا حوصلة جملة من النتائج التي تلمسناها من خلال هذه الأطروحة في:

كان القرن السادس عشر الميلادي يجسد بداية ضعف الإدراك لضرورات الوحدة بين المسلمين في المغرب الإسلامي، خاصة الوحدة الثقافية، حيث بدأت منذ ذلك الحين القيم الفكرية تنتشت وتتبعثر الرؤى، وعجزت النخب الدينية والسياسية عن التأثير في حياة العامة من الناس، واكتفى كل فقيه بمن حوله من الناس. وذلك نتيجة سنوات الجمود والتقهر الفكري التي عاشها العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، وعجز بقايا الحفصيين والزيانيين على بعث مشروع دولة محلية من جديد مما أدى إلى تشكل فراغ سياسي كبير سعت إلى ملئه المشيخات المحلية والقيادات الدينية والنخب الفقهية بالتعاون مع الأتراك .

اعتماد العثمانيين على شيوخ القبائل الجزائرية السياسيين والدينيين من جهة، ومن جهة ثانية على فكرة الجامعة الإسلامية والأخوة الدينية والعاطفة التي كانت تحملها فكرة الخلافة العثمانية، وعدم تطويرهم للإدارة بما يتماشى مع روح العصر.

ضعف التعاون بين الفقهاء والسلطة والنفور بينهما كانا سمة بارزة، صبغت الأجواء السياسية والفكرية، لضعف الاستقرار السياسي والاجتماعي وفشل النخب المحلية السياسية والدينية في خلق تحالف بينهما يستفيد منه المجتمع الجزائري في بعث عملية التثقيف والتطوير الذاتي. وكان التداول بين العلماء والفقهاء والسلطة الحاكمة يتباين بتنوع البيئة السياسية والاهتمامات المحلية وطبيعة المرحلة التي يعيشها البلد. وقد تحالفت السلطة والفقهاء خلال نكبات سقوط الأندلس واحتلال وهران وتلمسان وبجاية وسواحل المغرب الإسلامي، حيث تموقع الجميع في صف المقاومة وفي خندق الدفاع، ثم تفككت هذه التحالفات بعد زوال مبرراتها (الخطر المشترك).

اقتسام النفوذ السياسي والديني بصورة غير متكافئة بين النخب الدينية - الفقهية والطرقية - والسياسية، فقد كانت أغلبية السكان خاصة في القرى والأرياف تدين بالولاء المطلق للطرق الصوفية والمشايخات الدينية والشرف والأجواد وغيرهم، وكان نفوذ السلطة السياسية يمارس في المدن والحوضر الكبرى والحاميات بمشاركة الأسر العلمية المتحالفة معها، وانقطع الفقهاء عن التأثير في مسارات الحياة اليومية للناس وقل نفوذهم إلى أدنى مستوى، وانحصر في بعض المؤسسات كالمساجد والمحاكم أو خلال المناسبات الدينية وزمان التحركات الجهادية.

طغيان الفكر الصوفي بمفرداته القوية العديدة الغامضة على مجتمع الفقهاء وعلماء العصر، فلم يسلم من الوقوع في هذا الاعتقاد المؤسس لثقافة الخرافة والأسطورة العاجز عن خلق أجواء التفاعل الحضاري، إلا القليل منهم.

عزوف المجتمع الجزائري عن طلب العلم بسبب انعدام وقلة إمكانيات تحصيله، مما ساهم في عجز الفقهاء على صناعة مجتمع واع وعالم بحقيقة دينه ومتمسك بشريعته، وعجز الفقهاء والعلماء على قلة عددهم في بناء نواة مجتمع جديد متنور يكون أساسا لانطلاقة حضارية جديدة، فكانت صيرورة التفاعل بين المجتمع والفقهاء في تدني وتراجع خلافا لبعض البلدان العربية الأخرى.

انصهار الكثير من النصوص الشرعية الإسلامية والأحكام الفقهية في الممارسات الجماعية اليومية للسكان وتمثلها في جزء هام من الموروث الثقافي للجزائريين، لكن دون أن تخضع للبحث والتطوير والاجتهاد في مضامينها.

اتسام عقائد الجزائريين في العهد العثماني بالسطحية واكتفاؤهم بالحفاظ على الموجود وخضوع إيمانهم للتسليم والانقياد لما تركه الأولون دون دراية كافية وقدر مقبول من الفهم والإحاطة والفحص، وهو ما اصطاح عليه الأصوليون إسلام التقليد وتجلي هذا الضعف في تيسير مهمة الاحتلال الفرنسي فيما بعد في تفكيك البنية العقدية والأخلاقية للمجتمع وتدجين الموروث الثقافي الذي يعد الرافد الأساسي الذي يحمل صور العقائد والأخلاق والنصوص الشرعية.

انزواء المجتمع الجزائري في إطار ثقافة شعبية إنسانية ساكنة وغير متطلعة افتقدت لنخبة عالمة ولفقهاء متنورين يقودونه نحو التطلع لبناء كيان ثقافي متميز مثلما توفر للجارتين تونس والمغرب، بسبب انحسار المعرفة العلمية وانكماش الفعل الحضاري نتيجة الحروب والصراعات الدائمة والمتكررة التي كان حوض البحر المتوسط الغربي مسرحا لها حتى سنة 1830..

انحصار المذهب الإباضي في دائرة مغلقة بمنطقة ميزاب ودورانه في فقه ساكن " مرحلة الكتمان"، التي تتأقلم مع الأوضاع الجديدة الضاغطة على الجماعة الاباضية، ومحافظا في آن واحد على مصالح الجماعة، وكانت النتيجة الدخول في عزلة شعورية وفقهية عن المناطق المجاورة، فلا تؤثر ولا تتأثر بما يدور حولها، إلا في المجال الاقتصادي والتجاري والأمني.

الاضطرابات التي كانت تقع داخل أجهزة السلطة لم يكن لها تأثير على العامة بل كان لها دورا في كثرة عدد الباشاوات والراغبين في بلوغ هذا المنصب فاختلف عطاء رجال الحكم على مر المراحل التي سادوا خلالها فمنهم الأقوياء مؤسسو الإيالة، أصحاب المشاريع والطموحات ومنهم ضعاف النفوذ والتأثير. وكان من نتائج هذه الاضطرابات غياب المشروع السياسي والفكري للدولة - المغرب الأوسط-.

شكل حكام الأطراف صورة مصغرة لحكام المركز في أعمالهم سواء الحسنة أو السيئة، واستطاع بعضهم أن يرفع ذكره أفضل من أغلب البشوات الذين حكموا المركز..

التزام أغلب الفقهاء والحكام سواء في المركز أو في الأطراف بالتبعية للدولة العثمانية وعدم السماح لأنفسهم بالتفكير في الخروج عن مساحة الظل التي كانت تبسطها الدولة العثمانية، حتى في أصعب الأوقات التي كانت تمر بها كالحروب مع دول أوروبا أو قيام حركات الاستقلال في البلقان وغيرها.

ساهمت رداءة الوضع الثقافي والسياسي في هجرة الفقهاء هروبا من الظلم ومن "السلطان الجائر"، ورفضهم الانخراط في الثورات والانتفاضات الشعبية والدينية غير المؤطرة والتي كانت تأتي في

غالب الأحيان على الأخضر واليابس، وكانت بمثابة "فتن آخر الزمان" على حد تعبير بعضهم، مما أدى إلى تشتت الأوعية الفقهية للمغرب الأوسط وتوزعها بين الحواضر التاريخية القديمة كتلمسان وبجاية وقسنطينة ومازونة، وانعزال الكيانات الفقهية الأخرى في دائرة الجمود والتقليد كمنطقة الشلف بني راشد وزاوة بونة وغيرها، واستفادة كثير من الدول الإسلامية من الباع الفقهي العميق لفقهاء المغرب الأوسط كتونس ومصر والمغرب والحجاز والشام والسلطنة العثمانية.

وفي الأخير نقول أن إمكانيات بناء دولة قوية وحديثة كانت متوفرة بمختلف عناصرها إلا أن المشروع السياسي والفكري للدولة لم يكن متجليا بسبب الاضطرابات التي كانت تقع داخل أجهزة السلطة، ولم يكن لها أي تأثير على العامة إلا أنها كشفت عن رغبة القادة السياسيين في الوصول للسلطة فقط مهما كان الثمن.

- الملاحق
- قائمة المصادر والمراجع
- فهرس المواضيع

TEXTE D'UN ACTE D'ABJURATION

provenant de la collection de M, le Pasteur Dürr.

الحمد لله بالمحكمة الحنفية من بلد الجزائر المحمية بالله تعالى
 امام السيد القاضي الواضع طابعه اعلاه اشهد النصارى يركب
 الموسكوا لدى شهيديه انه تبرأ من دين النصارى ودخل لدين
 الاسلام وشهد ان لا اله الا الله وان سيدنا محمد رسول الله وسماء
 السيد القاضي عبد الله بمحضر الاصبايحي حسن بن سليمان بتاريخ
 اواخر جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ وعبد الرحمن بن احمد وفقه الله
 et en encre rouge :

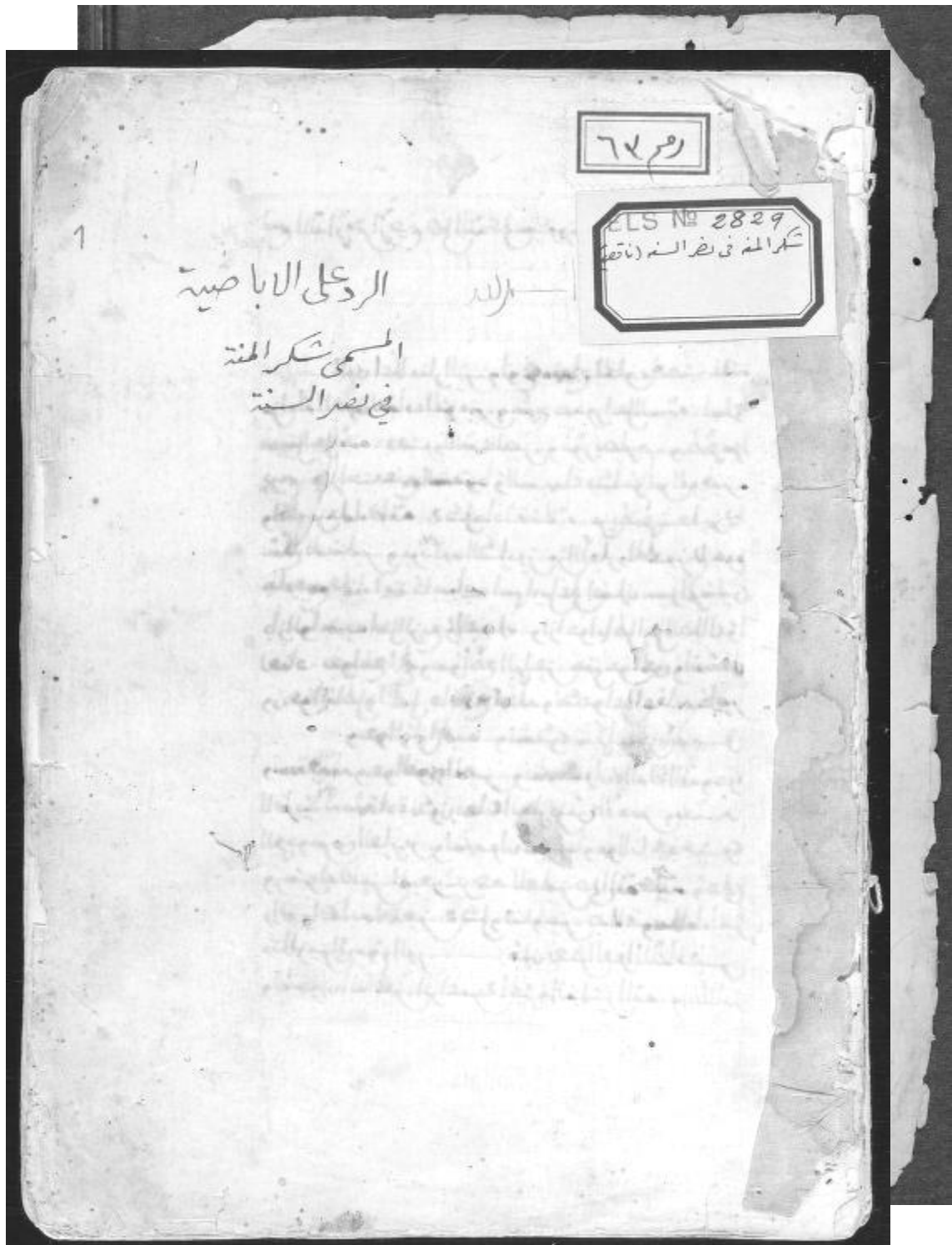
وكذلك اقر بمحضرتنا ان الله واحد وان جميع الرسل حق والتزم
 شريعة الاسلام

نص العقد:

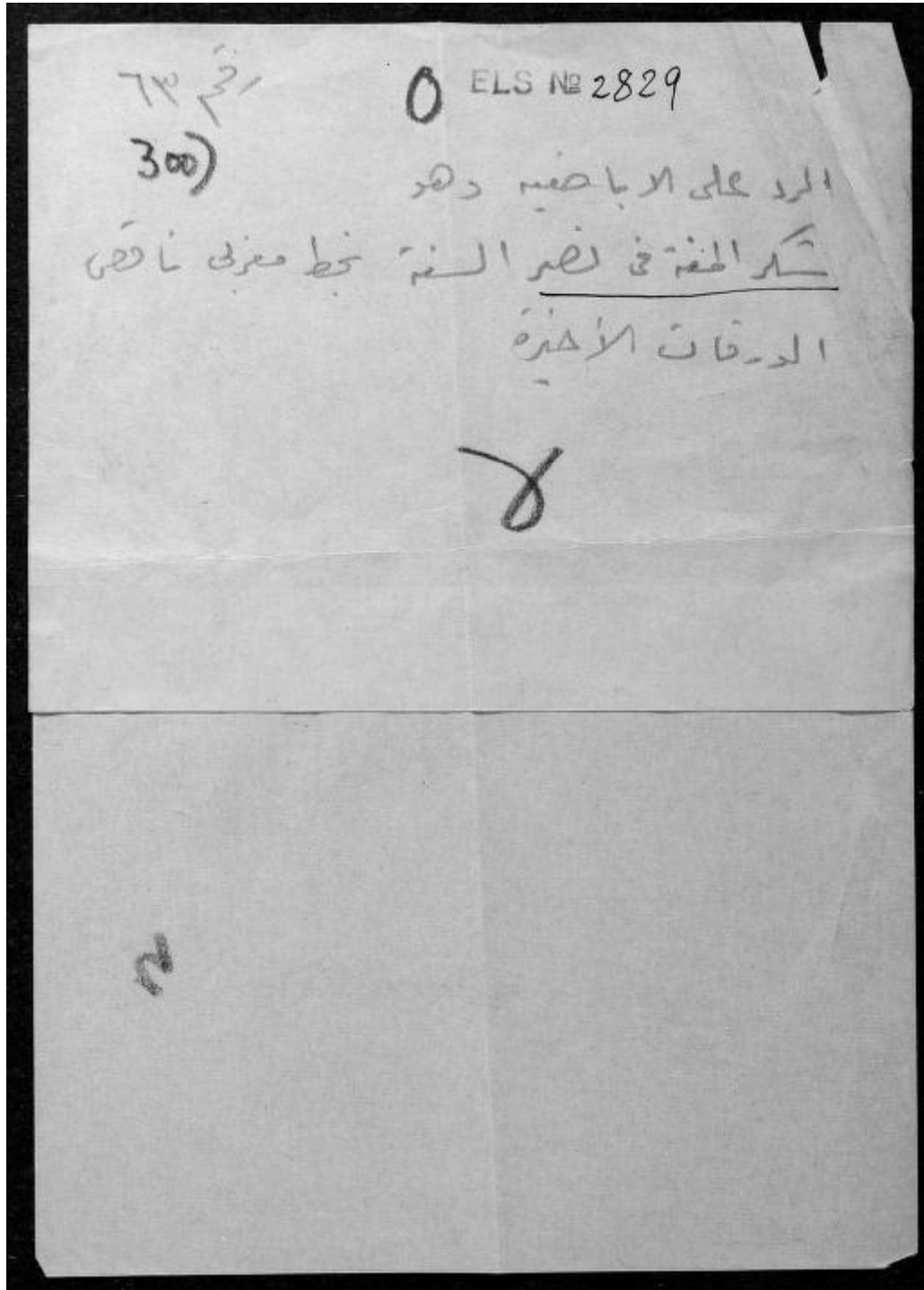
الحمد لله بالمحكمة الحنفية ببلد الجزائر المحمية بالله تعالى امام السيد القاضي الواضع طابعه اعلاه اشهد النصارى
 يركب الموسكوا لدى شهيديه أنه تبرأ من دين النصارى ودخل لدين الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمد
 رسول الله وسماء السيد القاضي عبد الله بمحضر الاصبايحي حسن بن سليمان بتاريخ أواخر جمادى الثانية سنة 1252
 وعبد الرحمن بن أحمد وفقه الله وكذلك أقر بمحضرتنا أن الله واحد وأن جميع الرسل حق والتزم شريعة الإسلام¹⁵³⁸.

ملحق رقم 02 مخطوط الرد على الاباضية المسمى شكر المنة في نصر السنة شكر المنة في نصر السنة
 للشيخ أحمد بن محمد الطرابلسي المكنى المالكي / ت 1056 هـ

1538- L j bressnier formule d'abjuration selon la loi musulmane in revue africaine
 .volume 7 année 1863 p 351-352.



الصفحة الأخيرة الموجودة من المخطوط الذي لا تزال صفحاته غير مكتملة



تحرير الدخان

وَمَنْ تَحَرَّمَ الدُّخَانَ عَيْنَانِ هَاتِي كَرَّةَ الْعَلَاءِ فِي الدُّخَانِ
 الْمُتَعَارِعِ عَلَى تَصَوِيرِ الْأَبْصَارِ فِي مَعْدِنِهَا الْخَنْبَلِيَّةِ
 فِي بَابِ الْفَضْرِ وَنَحْضِهِ فَالْشَيْخُ الْإِسْلَامُ
 وَالتَّحْقِيقُ الْعَدِيدُ حَدَّثَ وَكَانَ حُكْمُهُ بِدَقِيقِ
 فِي سَمْعِهِ مِائَتُ عَشْرَةِ بَعْدِ أَلْفٍ يَدْعُو
 بِشَارِئِهِ أَنَّهُ لَا يُمْسِكُ وَإِنْ سَلِمَ لَهُ فَهُوَ مُبْتَدِرٌ
 وَهُوَ حَرَامٌ لِجَوَائِزِ أَمْتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَلَامُهُ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَالْتِ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مَسْكُورٍ وَمُبْتَدِرٍ فَالْوَلِيُّ
 مِنَ الْكِبَالِ يَرْتَضَاهُ لَهُ الْمَرْءُ وَالْمَرْءُ يَتَرَوَّمُ بِهِ
 الْأَمْرُ عَنْهُ مِنْ أَوْفَرِ طَعَالٍ إِنْ اسْتَفْعَالَ قَتْلَهُ
 زَيْمًا أَضْرَبَ الْبَيْتَ نَعْمَ الْإِصْرَارُ عَلَيْهِ كَبِيرَةٌ
 كَسَا بِرِ الصَّغَامِ أَنْتَقَمَ مِنْهُ بِخَرَبِهِ الْقَهْمُ
 حَالِمْ مِنْ يَمَلِ الطَّيْبِ لَا تَوَجَّهْ
 الْحَقَائِدُ كَانَتْهَا هَاتِي عَرَبٌ لِنَفْسِهِ
 لَعْنَةُ اللَّهِ بِهِءُ أَمِيرٍ أَمِيرٍ

مخطوطة تحريم الدخان للسمعوني بنفس عنوان مخطوطة أخرى تنسب ابن اسام الدين العصامي الاسفرايني المتوفي سنة 1627 المصدر مكتبة المصطفى الاليكترونية.

أصل المخطوطة تحريم الدخان من جامعة طوكيو وتتكون المخطوطة من صفتحتن الصفحة الثانية غير واضحة تماما:

نص المخطوطة:

ومن تحريم الدخان ما ذكره العلماء في الدر المختار على تنوير الأبصار في مذهب الحنفية في باب الشرب ونصه قال شيخنا النجم و.... الذي حدث وكان حدوثه بدمشق في سنة خمس عشرة بعد الإلف يدعي شاربه أنه لا يسكر وإن سلم له فهو مفتر وهو حرام لحديث أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر قال وليس من الكبائر تناوله المرة والمرتين ومع نهي ولي الأمر عنه حرام قطعاً على أن استعماله مثله ربما اضر بالبدن نعم الإصرار عليه كبيرة كسائر الصغائر انتهى منه بحرفه اللهم صل على من يحل الطيبات ويحرم الخبائث كاتبها محمد عزاب لنفسه لطف الله به آمين آمين آمين.....

ملحق رقم 04 . فتوى أهل التحقيق والعرفان في الرد على من حرم شرب الدخان مصطفى بن الخطيب
البيبي الحنفي، ذكر فيه عديد الأقوال المحرمة للدخان رفعت المسألة للفقهاء سنة 1042هـ نسخة
المخطوطة بجامعة الملك سعود تحت رقم ف 81652.



حكا في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال اذا صليتم خلف الامام فماسيلوه عن
 اربعة مسائل فانه اجابكم عنهما فانه يكون
 اماما فان لم يحكم عنهما فعيد واصلا بكم
 الاول فقل له انت صليت هذه الصلاة
 لاجل مولانا القوم فان قال صلاتي لاجلي
 ونيتي للقوم فقد اجاب والثاني نحن
 اتخذناك اماما فان قال اتخذت القرآن
 اماما فقد اجاب والثالث نحن اقتدينا
 بك وانت بمن اقتديت فان قال لا
 اقتدينا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم
 فقد اجاب الرابع نحن نتم صلاتنا بك
 وانت بمن نتم صلاتك فان قال نتم
 صلاتي بالتكبير والتسليم فانه
 اجاب ونصح الصلاة خلفه والله
 اعلم المستهف

الصفحة الأولى من رسالة المشرفي بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان ... كبنى عامر

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

* فال الشيخ البقيه الامام * الفدوة العلامة الحبر الهمام *
من امره بالله حبى * أبو المكارم سيدى عبد القادر بن عبد الله ابن
أبي جلال المشرفى * الغريسي رحمه الله ونفعنا به في الدارين *
* آمين . آمين *

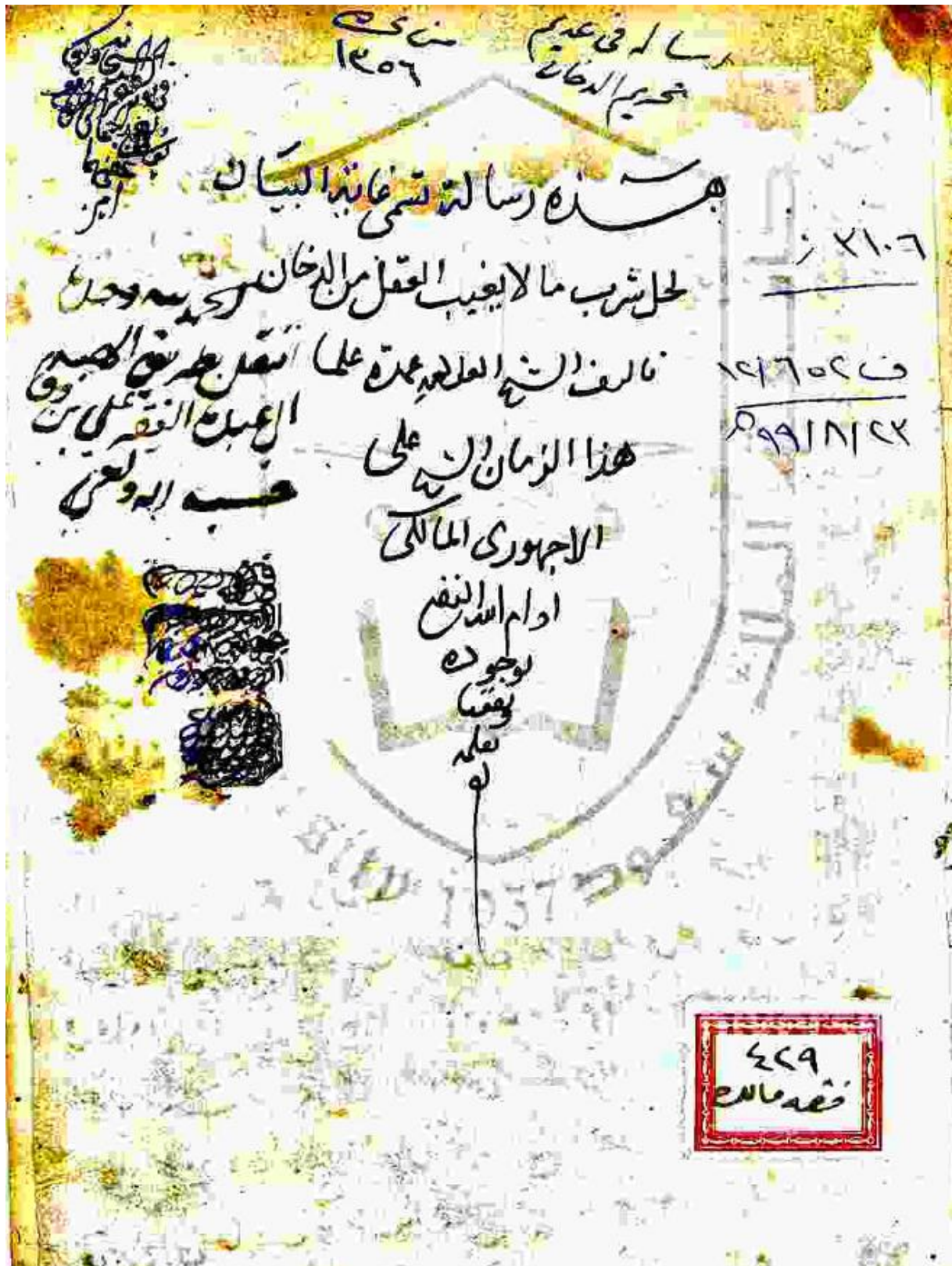
الحمد لله وحده حق حده * والصلاة والسلام التامان على من
لأنى بعده * وبعد بهذا التفييد سميت بهجة الناظر * في أخبار
الداخلين تحت ولاية لا سبانيين بوهرا من الاعراب كبنى
عامر * وما انا اشرع في المراد * ومن الله تعالى اسأل لاستمداد * إنه على
ما يشاء قدير * وبالأجابة جدير * لا رب غيره * ولا خير لا خيرة *
اعلم أن هؤلاء الاسبانيين لا شك انهم جرفه من الروم لا من
الفرنج بدليل ان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه
لهرفل عظيم الروم وبعثه له مع دحية الكلبي يدعو الى الاسلام
هو الان عند ملك طليطلة وفداراه لا بن الصايغ النحوى لما وجدته
عليه فلاوون سلطان مصر وسموا بالاسبانيين نسبة لاسبانيا بقطع
الهمزة المكسورة وهي مدينتهم القديمة * وفائدة ملكهم القويمة *
وفد تلاشت وبقي الاسم لها وأما لان ففائدة ملكهم مدينة مدريل
بالام ويفال لها مدريد بالبال ايضا حذو طليطلة ومسكنهم بارض

* بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
اما بعد امر ببناء هذا الهمام السعيد امير المسلمين المجاهد
في سبيل رب العالمين المنصور ببطل الله المتوكل عليه المعتمد في
جميع اموره على ربه مجند الجنود المنصور الرايات والبنود مولانا
الدولتلى السيد على باشا امر بذلك المعظم لارفع السيد ابراهيم
باى فصد بذلك وجه الله العظيم ورجا ثوابه الجسيم وهو مقام
الشيخ الولي الصالح والفطرب الواضح سيدى محمد ابن العالم سيدى
محمد بن على بن سيد عبد الله بن منصور نفعنا الله بهم امين عام
اربعة وسبعين ومائة والى *

المرجع المجلة الإفريقية انظر ملحق المراجع والمصادر الأجنبية

نص السند الذي يتصل بالشيخ سعيد قدورة الجزائري في رواية موطأ الإمام مالك رضي الله عنه

شيخ الإسلام وصدر الأئمة الأعلام أبي عثمان سعيد بن إبراهيم الجزائري مفتياً عرف بقدرة قرأ على قدوة الأئمة أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان ستين سنة وهو قرأه كذلك على أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنيسي وأبي زيد عبد الرحمن بن علي بن أحمد العاصمي، والحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنيسي قراءة عليه، وأبي زيد عبد الرحمن الشعالبي والتنيسي قرأه قراءة بحث وتحقيق على أبي عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد وهو قرأه كذلك على أبي عبد الله محمد بن جابر الوادياشي قال حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي قال حدثنا القاضي أبو العباس أحمد بن يزيد القرطبي قال حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق القرطبي قال حدثنا محمد بن فرج مولى الطلاع القرطبي قال حدثنا القاضي أبو الوليد يونس بن مغيث الصفار القرطبي قال حدثنا أبو عيسى يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى القرطبي قال أخبرنا يحيى بن يحيى الليثي القرطبي قال أخبرنا إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه سماعاً لجميعه إلا الأبواب الثلاثة الأخيرة من كتاب الاعتكاف باب خروج المعتكف إلى العيد، وباب قضاء الاعتكاف، وباب النكاح في الاعتكاف".



غاية البيان حل ما لا يغيب العقل من الدخان تأليف الشيخ علي الاجهوري المالكي جامعة الملك سعود تحت رقم 602/12 ف

[illegible]

باسم الله الرحمن الرحيم
 على الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين
 وادعهم ما وضع في سنة الله وما شئوا من غير ما شئوا
 على الله على الله عليه وسلم من أمور عظام ووجه
 والمسلمين السابقين عالم حيا حيا في الدنيا والآخرة
 الله تعالى والتعليق بنسبهم في النسخة السابقة
 بلاد الحرمين وأخرى من المولى الحسين الله ولا تلج
 رجعة من الوفاة كحق وان كان على أمورهم سنة
 يستحقون وقد تعلق ذلك اللعن ومن حواسمهم
 به نفسه. اناء القتل والظلم لولا النصارا
 الخير المستقيم وصحوا هذه الامم المظلمة
 النصارى من ملجأ الى الله سبحانه كد صبح
 لولا ملجأ الى الله الا الله وخضعوا له مطوية
 هو ما عن العظيمة الشان يوم الاسبوع
 وسمو ابن التميم والتمس منهم استنواهم
 هم من منهم من باع نفسه لهم في ذلك المكان
 السعالي في ما مثل ما اتوا به اليهم في الساعة
 الا حين وادخله الله على من عصاه الله
 التعميم من في عليه وادعوا اليه غايه
 كجملته الله سبحانه من السراء والسرور
 ونقض ما لم يزل على رءوس العالمين
 به من اب وخدمته واخذ عليه ان لا يذمهم
 وعلمه خير المولى ابنه وابي واستخدمه
 القتل حين رده عليه وابطل امره بين
 في معانيها حلالا والله ورؤسها التي
 قتل منهم جماعة غير الحمد اليه الدوله
 نصر بها عظيم ما في مصطفاه على اربعة
 وبما لم يزل ما يرضى به جميع الاسام
 بركة من عظامهم من منجى في كل

قائمة المصادر والمراجع

أولا / المصادر المخطوطة:

1. رسالة مخطوطة تحت رقم 68 مخطوطات المكتبة الوطنية المجموعة رقم 3190 تتضمن رغبة أحد الشيوخ يدعى محمد درويش في زيارة قبر ولي دادة بمدينة الجزائر.
2. رسالة مخطوطة بعنوان " الرد على الاباضية المسمى شكر المنة في نصر السنة شكر المنة في نصر السنة" للشيخ أحمد بن محمد الطرابلسي المكنى المالكي / ت 1056 هـ ملحق رقم 03 مكتبة تونس.
3. رسالة مخطوطة تحريم الدخان للسمعوني بنفس عنوان مخطوطة أخرى تنسب ابن أسام الدين العصامي الاسفراييني المتوفي سنة 1627 .
4. نص مخطوط من محكمة حنفية يقر إسلام أحد النصارى . بالجملة الإفريقية منقول من النسخة الأصلية.
5. نسخة منقولة من النص الأصلي من رسالة عبد القادر المشرفي بعنوان "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان... كيني عامر" ملحق بالجملة الإفريقية.
6. نسخة مخطوطة تضم فتوى بعنوان " فتوى أهل التحقيق والعرفان في الرد على من حرم شرب الدخان" لمصطفى بن الخطيب البياي الحنفي، سنة 1042 هـ نسخة المخطوطة موجودة بجامعة الملك سعود تحت رقم ف 81652 .
7. نص الرسالة التي بعث بها الميزابيون للباشا التركي يشتكون فيها من تجاوز صالح باي للاتفاقات السابقة بين الطرفين
8. عبد الغني (النابلسي): الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان ،دمشق 1983 ص 2، 3، 10، 12، 25.

ثانيا / المصادر المنشورة:

1. ابن أبي الدينار (الرعيي القيرواني)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس ، 1286هـ
2. ابن المفتي (حسين بن شاوش)، تقييدات ابن المفتي، تقديم كعوان فارس، دار النشر بيت الحكمة، الجزائر 2008،
3. ابن بشكوال (أبو القاسم) ، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق عزت العطار الحسيني جزء 01 ط2 مكتبة الخانجي القاهرة 1994 ص119.
4. ابن جزى (الغرناطي محمد)، قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان،
5. ابن حزم (الأندلسي)، الإحكام في أصول الأحكام، ج2، تح احمد محمد شاكر، منشورات دار الأفق الجديدة، بيروت، 1980 ص 126.
6. ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1961.
7. ابن زاكور (الفاسي)، نشر أزاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان من فضائل أكابر الأعيان، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011. ص: 40-41.
8. ابن مريم (محمد بن احمد الشريف)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1958.
9. ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، ج03، ط03، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1993، ص305.
10. أبو زكرياء (يحيى بن أبو بكر)، سير الأئمة وأخبارهم (المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تح إسماعيل العربي، (د.م.ج)، الجزائر، 1984، ص 127.

11. الأشعري (أبو الحسن)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج01، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1969 ص182.
12. الأصفهاني (أبو نعيم)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10 أجزاء، دار السعادة، مصر، 1996.
13. البغدادي (الخطيب)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، دت.
14. بفايفر (سيمون)، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر تر أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، الجزائر 1974، ص 45.
15. بن العنابي (محمد بن محمود)، السعي الحمود في نظام الجنود، تح محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983، ص60.
16. بن العنزي (محمد)، تاريخ قسنطينة المسمى فريدة منسوبة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاؤهم على أوطانها، تحقيق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 62.
17. بن المقفع (عبد الله)، أثار ابن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1989.
18. بن تيمية (نقي الدين)، الخلافة والملك، تح حماد سلامة ومحمد عويضة، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر،
19. بن تيمية (نقي الدين)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق وتعليق علي بن نايف الشحود الطبعة الأولى 2012. ص 175..
20. بن حمادوش (عبد الرزاق)، رحلة بن حمادوش المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق وتحم أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983. ص236.
21. بن عظم (أبو القاسم المرادي)، كتاب الأجوبة، تح محمد الحبيب الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج تونس، 2004.
22. بن عمار (أحمد)، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا، الجزائر، دت، ص15
23. بن عياض (أبو الفضل بن موسى)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تح أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1986، ص123.
24. بن فرحون (برهان الدين)، درة الغواص في محاضرة الخواص، تح محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، تونس، دت.
25. بن ميمون (الغماري الفاسي أبو الحسن علي)، بيان غربة الإسلام بواسطة صنفين من المتفقهة والمتفكرة من أهل مصر والشام وما يليهما من بلاد الأعجام، تح حكيمة شامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007 ص76.
26. بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ش و ن ت الجزائر، 1972، ص 25.
27. بن هطال (أحمد التلمساني)، رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب القاهرة، 1969، ص26.
28. بن يوسف (عبد القادر)، رسالتان في الإمامة العظمى، تح هشام بن حيجر الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971. ص35.
29. بوشقرون (محمد الوهراني)، الجيش والكمين لقتال من كفر عامة المسلمين، دار الصحابة للتراث والنشر والتحقيق والتوزيع، طنطا، مصر، 1992، ص18
30. الجبرتي (عبد الرحمن)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج04، الغزوة الفرنسية، تح عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997، ص 81.

31. الجصاص (أحمد بن أبي بكر الرازي)، أحكام القرآن، ج 03، دار الكتاب العربي، لبنان، 1325هـ ص 216.
32. الجويني (أبو المعالي)، الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق عبد العظيم الديب، وزارة الشؤون الدينية، قطر، 1400هـ، ص، ص 238.
33. الحشني (حسن) قضاة الأندلس دار الكتاب المصري اللبناني، بيروت، 1989 ص 28.
34. خوجة (حمدان بن عثمان)، المرأة، تع محمد العربي الزيري، ش و ن ت ، ط 2، الجزائر، 1982.
35. دي طريس (دييكو) ، تاريخ الشرفاء، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، دت، ص 174.
36. الذهبي (شمس الدين) ، سير أعلام النبلاء، ج 09، ط 11، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1996م، ص 134.
37. الراشدي (بن سحنون)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص 12.
38. الراشدي (عبد القادر) تحفة الإخوان في تحريم الدخان، دراسة وتحقيق عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
39. الزمخشري (أبو القاسم جار الله)، أساس البلاغة، محقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 ص 346.
40. الزهار (أحمد الشريف)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1754-1830، تح أحمد توفيق المدني، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1974، ص 08.
41. الزباني (أبو القاسم) ، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1991، ص 145.
42. الزباني (أبو القاسم) ، جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت واللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ السلطان المولى سليمان، تحقيق محمد بيضون، دار المعارف، بيروت، 2003م، ص 45.
43. الزباني (محمد بن يوسف)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978 ص- 427
44. سينسر (وليم)، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006
45. السخاوي (شمس الدين)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، دت.
46. السلاوي (الناصرى)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 01، تح وتو جعفر ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص 139.
47. شالر (وليام)، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، تر إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1982 .
48. الشهرستاني (محمد)، الملل والنحل، ط 02، تح أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان ، 1413 - 1992، ص ص 40-44...
49. العطار (أحمد بن المبارك) ، تاريخ قسنطينة، تحقيق رابح بونار، بدون معلومات ، ص 75،
50. العنتري (محمد الصالح)، مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، (ش.و.ن.ت.)، الجزائر، 1974.

51. العياشي (أبو سالم)، الرحلة العياشية (1663/1661)، تح سعيد الفاضلي سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.
52. الغبريني (أحمد)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تح رايح بونار ، ش.و.ن.ت ،
53. الغزالي (أبو حامد)، إحياء علوم الدين، ج01، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1981، ص 17.
54. الفكون (عبد الكريم) ، منشور الهداية في كشف من ادّعى العلم والولاية" ، تقديم وتحقيق وتعليق، الدكتور أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م ص 60
55. القيرواني (أبو فارس عبد العزيز)، الفتوى المالكية في أفعال الصوفية، جمع وتحقيق أبو أحمد علي الكندي، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، 2009، ص05.
56. القيسي (أبو المهلب هيثم)، أدب القاضي والقضاء، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1970، ص22-26.
57. كاثكارت (جيمس ليندر)، مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر إسماعيل العربي، (د م ج)، الجزائر ، 1982،
58. كارافيحال (مارمول)، إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط ، المغرب، 1984،
59. الكلبي (أبو القاسم محمد بن جزي)، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبية على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية، تح محمد بن سيدي محمد مولاي، ص332.
60. الماوردي (أبو الحسن) ، أدب الدنيا والدين، ط 04، شرح وتعليق محمد كريم رايح، دار اقرأ، بيروت ، 1985، ص150.
61. الماوردي (أبو الحسن)، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409 – 1989،
62. الماوردي (أبو الحسن)، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تح محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، ج 1 ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981 ص75.
63. الماوردي (أبو الحسن)، نصيحة الملوك، تحقيق خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح – الكويت 1403 – 1983
64. المحبي (محمد أمين)، خلاصة الأثر في أعيان القرن، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1983 ، ص235..
65. مسلم (بن عبد القادر) ، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات وال نوادر، تح وتق رايح بونار، (ش.و.ن.ت)، الجزائر، 1974، ص62-63.
66. المشرفي (عبد القادر) ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين من الأعراب كني عامر. تح وتق: محمد عبد الكريم. دار مكتبة الحياة. بيروت.
67. المقرئ (أحمد) ، نفح الطيب، تح إحسان عباس، ج1، ص: 56-57.
68. المقرئ (أحمد)، روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين: مراکش وفاس، تح عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية، الرباط، 1383هـ/ 1964م.
69. ميترن (ج)، يوميات أسر في الجزائر 1814-1816، ترجمة ج ه بوسكي، وج ق بوسكي، تعريب محمد زروال، دار هومة للنشر، الجزائر، 2011، ص28.

70. الناصري (أبوراس المعسكري)، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج01، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص19،
71. هابنسترايت (أو.)، رحلة ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)، تر ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008.
72. هارون (عبد السلام محمد)، تهذيب سيرة ابن هشام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، 1374هـ . ص224
73. الورتلاني (الحسين)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تح ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا ، الجزائر، 1908 . ص266.
74. الوزان (حسن)، وصف إفريقيا، تر محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1982.
75. الونشريسي (أحمد بن يحيى)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب، ج02 ، تح محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981 .

ثالثا / المراجع العربية:

1. إبراهيم بك (حليم) ، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، دت، ص173.
2. إبراهيم عيسى (عبد الرزاق) ، تاريخ القضاء في مصر العثمانية 1517-1798، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الصحافة، القاهرة، 1998...
3. أبو زهرة (محمد) ، أبو حنيفة حياته عصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1945، ص143
4. أبو زهرة (محمد) ، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج2، دار الفكر العربي، دت، ص137.
5. أبو مصطفى (كمال) ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، 1997، ص24 .
6. إسماعيل (عبد الجواد)، دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني، ط01، مكتبة وهبة، القاهرة، . 1996.
7. إسماعيل (علي سعيد)، الأزهر على مسرح السياسة المصرية دراسة في تطور العلاقة بين التربية والسياسة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص62.
8. الأشرف (مصطفى) ، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة دار المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983 ، ص214.
9. أعوش (بكير بن سعيد)، دراسات إسلامية في الأصول الإباضية بدون معلومات ط03.
10. آق كندوز (أحمد) و سعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، *Mass matbaacilik khagitane istanbul* مؤسسة وقف البحوث العثمانية اسطنبول، 2008، ص48
11. أوزتونا (يلماز) ، تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا 1988 ص255.
12. الباروني (أبو الربيع سليمان) ، مختصر تاريخ الاباضية، مطبعة الضامري للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، سلطنة عمان، 1995 ، ص73.
13. بالحيمسي(مولاي) ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص31.
14. برنارد (لويس) ، اسطنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تر سيد رضوان علي، ط02، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية، 1982، ص180.

15. برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ترجمة حمادي ساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 425.
16. بروكلمان (كارل)، الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ط3، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1961.
17. بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار الملايين، بيروت، 1948، ص 491.
18. البشري (طارق)، الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، القاهرة: دار الشروق، ط2، 2005م، ص 24-26.
19. بعيزيق (صالح)، بحاية في العهد الحفصي منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مطبعة علامات، تونس 2006 ص 353.
20. البكري (عبد الستار بن عبد الوهاب)، فيض الملك الوهاب المتعالي بأبناء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي، ترجمة عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، 2006. ص 281.
21. بل (ألفراد)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط2، 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.
22. بليق (عز الدين)، منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، ط3، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984، ص 595-598.
23. بن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ترجمة لجنة من العلماء، تونس، 1963، ص 10.
24. بن أشنهو (عبد الحميد)، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، ش.و.ن.ت. الجزائر 1972، ص 34.
25. بن بكير (يوسف)، تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية غرداية 1992،
26. بن عودة (الزاري)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ترجمة ودراسة د. يحيى بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
27. بن غنام (حسين الشيخ)، تاريخ نجد، المعروف بتاريخ ابن غنام، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار الشروق، الرياض،
28. بن قينة (عمر)، الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي، دار أسامة، عمان، الأردن، ص 60.
29. بن محمد (مصطفى)، أصول وتاريخ الفرق الإسلامية ص 112-126 1424 هـ - 2003 م
30. بن مخلوف (محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349 هـ. ص 77.
31. بن معمّر (علي يحيى)، الإباضية في موكب التاريخ - الإباضية في الجزائر - مكتبة وهبة، القاهرة، 1979.
32. بن معمّر (علي يحيى)، الإباضية بين الفرق الإسلامية، ط 1، مكتبة وهبة. القاهرة.. 1976 م. ص 353.
33. بن معمّر (محمد)، تحقيق رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004 - ص 72.
34. بوحوش (عمار)، تاريخ الجزائر السياسي من البداية وإلى غاية 1962، دار الغرب الإسلامي، لبنان،
35. بورويبة (رشيد)، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، د.م.ج، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر 1977

36. بوعزيز (يحيى) ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2009 ص 208
37. بوعزيز (يحيى)، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينية واستيلاؤهم على أوطانها الجزائر 2008 ص31..
38. بوعزيز (يحيى)، أعلام الفكر الثقافي في الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.
39. بوعزيز (يحيى)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، د م ج الجزائر 1991 ص 45.
40. بوعمران (الشيخ)، قضايا في الثقافة والتاريخ دار تالة الجزائر 2003، ص69.
41. بيات (فاضل)، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت 2003، 118.
42. تاديوس (ليفيتسكي) المؤرخون الاباضيون في إفريقيا الشمالية ترجمة ماهر جزار وريما جزار دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2000، ص43
43. التر (عزيز سامح) ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط01، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1989 ، ص17.
44. التميمي (عبد الجليل) ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871، الدار التونسية للنشر ، تونس 1972،
45. التميمي (عبد الجليل)، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن16م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009.
46. ثابت(محمد خالد) ، تاريخ الاحتفال بمولد النبي ومظاهره في العالم، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011.
47. جابر (أبو بكر الجزائري) ، العلم والعلماء، دار الشهاب، باتنة، 1985.
48. الجزائري (محمد بن عبد الكريم)، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دت ، ص44.
49. الجزيري (عبد الرحمن)، الفقه على المذاهب الأربعة، الجزء الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ، 1970 ، ص
50. الجندي (عبد الحليم) ، أئمة الفقه الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1972، ص 23.
51. جوليان (شارل أندري)، تاريخ إفريقيا الشمالية ترجمة م مزالي دار بوسلامة تونس 1980.ص378
52. الجيلالي (عبد الرحمن) ، تاريخ الجزائر العام، الجزء 4 ، الطبعة 4 ، دار الثقافة، بيروت 1984 م ص 150
53. حرب(محمد) ، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، سوريا، دت، ص 32.
54. حسن (احمد محمود) واحمد (إبراهيم الشريف) العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة،
55. الحفناوي (أبو القاسم) ، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة ، ط2، بيروت، 1985، ص228.
56. الحلي (محمد الطرايشي) ، تبصرة الإخوان في بيان أضرار التبغ المشهور بالدخان، مطبعة الجمالية، مصر، دت، ص
57. حللمي (عبد القادر)، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبيل 1830، دار الفكر الإسلامي، الجزائر. دت.
58. حمادو (نذير) ، المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، دار الفجر للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 2008،
59. حمودة (محمود عباس) ، الوثائق العثمانية في تركيا ومصر ودول شمال إفريقيا زواج طلاق بيع إيجار استبدال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999. ص23
60. الحنيطي (سعد خلف)، الفقيه والسلطان فقهاء العراق والسلطة العباسية 132 198 نموذجاً دار البيارق عمان الاردن 1999 ص29.
61. الحويري (محمود محمد) ، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة،

62. خلاف (عبد الوهاب) ، علم أصول الفقه، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية عسر، القاهرة،
63. خليفات (عوض محمد) ، الأصول التاريخية للفرقة الاباضية، ط03، وزارة التراث القومي والثقافة، العدد 27، سلطنة عمان، 1994، ص09.
64. خليل (شرف الدين)، ابن خلدون، دار مكتبة الهلال، بيروت 1985 ص.ص 23-40.
65. خنوف (علي)، السلطة في الأرياف الشمالية لبابلك الشرق الجزائري نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسيين، الميزان للنشر والطباعة، الجزائر، 1999. ص22
66. الخيلي (عبد الحي)، النخبة والإصلاح نماذج من الفكر الإصلاحية العثماني بين القرنين 16م و19م، تق عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط جامعة محمد05 اكدال المغرب، 2014، ص 159.
67. دبور(محمد علي) ، نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج01، المطبعة التعاونية، الجزائر، 1965، ص231.
68. دراج(محمد) ، الدخول العثماني للجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص178.
69. الدهلوي (شاه ولي الله) ، حجة الله البالغة، تح سيد سابق، ج01، دار الجيل للنشر والتوزيع، 2005. ص
70. دودو (أبو العيد)، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، م و ك، الجزائر، 1989.
71. دياث رامون (لوريديو) ، المغرب وأحلام الزعامة على الغرب الإسلامي، تج: مولاي احمد الكمون، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2013. ص94-95
72. ديفولكس (ألبير) ، مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني، تح مصطفى بن حموش، دار الأمة، الجزائر ،
73. الزاوي (الطاهر أحمد)، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية، وبه ملحق الفتاوي الزاوية على مذهب السادة المالكية، تحقيق ناصر الدين محمد الشريف، 1999، ص03.
74. الزيري (محمد العربي) ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ش و ن ت، الجزائر 1972.
75. الزيري (محمد العربي) ، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، (ش.و.ن.ت.) ، الجزائر، 1981، ص 47
76. الزحيلي (وهبة) ، الفقه الإسلامي وأدلته، الجزء 01 ، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق 1985، ص16.
77. الزركلي (خير الدين) ، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج 08، ط05، دار العلم للملايين، لبنان، ص 175.
78. زغروت (فتحي) ، النوازل الكبرى في التاريخ الإسلامي، ط01، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 484
79. زوزو (عبد الحميد) ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830 - 1900، (م.و.ك.)، الجزائر، 1984،.
80. ساحلي (أحمد) ، أعلام من زواوة - إقواون - مطبعة الثورة الإفريقية، الجزائر، دت.
81. سعد الله (أبو القاسم) ، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط02 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990. ص30.
82. سعد الله (أبو القاسم) ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط2، ش و ن ت، الجزائر، 1981..
83. سعد الله (أبو القاسم) ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996.
84. سعد الله (أبو القاسم) ، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وأثاره، د م ج، الجزائر 1982.
85. سعد الله (أبو القاسم) ، تجارب في الأدب والرحلة، م و ك ، الجزائر، 1983.

86. سعد الله (أبو القاسم) ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1986.
87. سعد الله (أبو القاسم) ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص. 54.
88. سعد الله (أبو القاسم) تاريخ الجزائر الثقافي ، طبعة دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998.
89. سعد الله (أبو القاسم) تاريخ الجزائر الثقافي، ش و ن ت الجزائر 1981.
90. سعد الله (أبو القاسم)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط03، (ش و ن ت) الجزائر، 1982، ص37.
91. سعيدوني (ناصر الدين) ، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي سنة 1999،
92. سعيدوني (ناصر الدين) ، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2000. ص81.
93. سعيدوني (ناصر الدين)، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
94. سعيدوني (ناصر الدين)، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني-، م و ك، الجزائر، 1984.
95. سعيدوني (ناصر الدين)، والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج04، العهد العثماني، وزارة الثقافة والسياحة، (م . و . ك) 1984 .
96. سماوي (صالح بن عمر)، العزابة ودورهم في المجتمع الاباضي بميزاب الجزء الأول نشر جمعية التراث غرداية الجزائر 2005، ص 292.
97. السنوسي (أبو عبد الله محمد بن عثمان) ، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج01، تح محمد الشاذلي النيفر، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1983، ص107.
98. شغيب (محمد المهدي) ، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980. ص 382.
99. شلتوت(محمد) ، الفتاوى دراسة لمشكلات المسلم المعاصر، ط02 دار القلم، بدون سنة ص195.
100. شلوصر (فندلين) ، قسنطينة أيام أحمد باي، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو ، (ش.و.ن.ت.)، الجزائر، 1980، ص
101. شوفالييه (كورين) ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 . 1541، تر جمال حمدانه، د م ج، الجزائر، 1991، ص. 85.
102. شويتيم (أرزقي) ، المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني(926هـ-1519هـ / 1246م-1830م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.
103. صادق (محمد الحاج)، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، د.م.ج، الجزائر، 1964، ص105، 104.
104. الصالح (صباحي)، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين بيروت 1982. ص275.
105. الضيقة (حسن)، الدولة العثمانية، الثقافة والمجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي، لبنان، 1997، ص118.
106. الطالبي (محمد) ، الدولة الأغلبية 296هـ 184 909م 800م التاريخ السياسي، ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1985، ص73.
107. الطلاي (إبراهيم محمد) ، مزاب بلد كفاح، دراسة تاريخية اجتماعية، دار البعث قسنطينة 1970.
108. الطمار (محمد) ، تاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت، الجزائر، دت ص 238.

109. الطيباوي (عبد اللطيف) ، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ص291،)
110. عادلة (علي الحمد)، قيام الدولة الفاطمية في بلاد افريقية والمغرب، دار ومطابع المستقبل، الإسكندرية، 19 ص 80
111. عبد القادر (نور الدين) ، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية مطبعة البعث قسنطينة 1965، ص86.
112. عدار (يوسف) ، أصول أحكام النظر والتقليد عند علماء الغرب الإسلامي في القرون 09 و10 و11 الهجرية، مع تحقيق "الجيش والكمين" (ر.م.غ.م) كلية أصول الدين، جامعة الجزائر، 1999 .
113. العروي (عبد الله) ، مجمل تاريخ المغرب، ج03، ط02، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009، ص640.
114. العلوي (الصحي) العلماء والخلفاء دراسة في أصول العلاقة بين السائس والعالم الدار التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم تونس 2006 ص69.
115. عميراوي (أحميدة) ، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس، دار البعث، قسنطينة ، 2002 .
116. عميرة (عبد الرحمن) ، مواقف العلماء أمام الحكام والولاة، دار العلم والثقافة، القاهرة، 2002.
117. العيدروس (محمد حسن) ، الأطلس التاريخي للخلافة العثمانية التنوع الحضاري واثره على النظم الإدارية لدولة الخلافة، دار الكتاب الحديث، 2012، ص204.
118. غلاب (عبد الكريم) ، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، ج 02، دار الغرب الإسلامي، 1996.
119. فركوس (صالح) ، تاريخ النظم القانونية والإسلامية، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة 2001،
120. الفلاني (صالح بن محمد)، قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر ج01، تح عامر حسن صبري، دار الشروق، جدة، السعودية، 1984.
121. فلنري (لوسات) ، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830، تح حماد الساحلي، سراس للنشر، تونس 1994 ص110..
122. فيلاي (مختار الطاهر) ، نشأة المرابطين والطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن الجرافيكي، باتنة، الجزائر، 1976، ص49. ص48
123. القاسمي (ظافر)، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار النفائس الطبعة الثالثة، بيروت لبنان 1980، ص233.
124. قدورة (زاهية) ، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1975، ص492.
125. قسوم (عبد الرزاق) ، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الشركة و.ن.ت، الجزائر 1978 ص25..
126. القطب (سمير عبد الرزاق) ، أنساب العرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1968.
127. قنان (جمال)، العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830 نشر متحف المجاهد، طباعة دار الميزان للنشر والتوزيع، الجزائر بدون تاريخ ص179.
128. قنان (جمال)، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات متحف المجاهد، 1994
129. الكيرواني (حبيب احمد)، أبو حنيفة وأصحابه، مكتب البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دت، ص52

130. مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، تر علي سيد الصاوي، دار عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.
131. المحامي (محمد فريد بك)، تاريخ الدولة العثمانية تح إحسان حقي دار النفائس الطبعة الاولى بيروت لبنان 1981 ص 448
132. محرز (أمين)، الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671، دار البصائر، الجزائر، 2011.
133. محمد الأمين (بلغيث)، دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير، الجزائر 2006، ص 120،
134. محمصابي (صبحي)، المجتهدون في القضاء، دار العلم للملايين، بيروت، ط 01، 1980، ص 86.
135. محمود فرج (فرج)، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، د م ج، الجزائر، 1977. ص 20.21
136. المدني (أحمد توفيق)، حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، ش و ن ت، الجزائر،
137. المدني (أحمد توفيق)، محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 170.
138. مصطفى أحمد (عبد الرحيم)، أصول التاريخ العثماني، ط 02، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص 110.
139. المعموري (الطاهر)، منهج اعداد البحوث في الدراسات والتراث، سراس للنشر، تونس، 1999. ص 110.
140. مقديش (محمود بن سعيد)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تر علي الزواري، محمد محفوظ دار الغرب الإسلامي تونس 2002.
141. مهدي (محمد حسن)، الاباضية نشأتها وعقائدها، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ص 194.
142. ميلاد علي (سلوى)، وثائق أهل الذمة في العصر العثماني وأهميتها السياسية دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983،
143. النامي (عمرو خليفة)، دراسات عن الاباضية، تج ميخائيل خوري تح محمد الصالح ناجر ومصطفى باجو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 2001 ص 156.
144. النوري (حمو عيسى) دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، المجلد الأول، دار البعث، قسنطينة، بدون سنة/ الكتاب بدون تهميش وبدون ذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها ص 175.
145. هلال (عمار)، العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية من القرن الثالث الهجري الى القرن الرابع عشر الهجري، د م ج، الجزائر 1995. ص 299.
146. ياغي (إسماعيل)، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط 01، الرياض، 1996 م. د.
147. اليعقوبي (أحمد)، كتاب البلدان تح هنري بيريس، المطبعة الرسمية، الجزائر، 1960، ص 13.

رابعا / الرسائل الجامعية:

1. بركات (إسماعيل)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحي المازوني، (ر م غ م)، تخصص التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري 2010، ص 172.
2. بعارسية (صباح)، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ر.م.غ.م، جامعة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2012، ص 38.

3. بلغيث (عبد القادر) ، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، (رم غ م)، قسم الحضارة الإسلامية كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران 2014، ص34.
4. بن بلة (خيرة) ، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2007.
5. بن ساري (مسعود) ، تلمسان في الشعر الجزائري في العهدين الزياني والعثماني، (ر م . غ . م) ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2008 . ص222
6. بن صحراوي (كمال) ، الأوضاع العامة في ريف بابلوك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر. 2014.
7. بن قادة (سبع) ، المذهب المالكي بالمغرب الأوسط حتى منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، (ر م غ م)، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران الجزائر، 2004، ص26.
8. بوراس (يحي) ، العمارة الدفاعية في منطقة وادي ميزاب نموذج قصر بني يزقن من القرن 10 هـ 16م إلى القرن 13 هـ 19م، (ر م غ م)، كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر 2002م. ص24.
9. بولطيف (لخضر) ، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي ، ر.م.غ.م. جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2002 ، ص04.
10. التهامي (إبراهيم علي) ، أهل السنة والجماعة في المغرب وجهودهم في مقاومة الانحرافات العقيدية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى مكة المملكة العربية السعودية 1412، ص 506.
11. ثابت (جميلة) ، دور الأعلاج في العلاقات بين الجزائر ودول جنوب غرب أوروبا خلال القرنين 16م و17م ، (ر م غ م) ، المركز الجامعي غرداية، 2010-2011، ص 41.
12. حمادة (حمزة) ، جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب، ش.م.غ.م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2007-2008.
13. حماش (خليفة) ، الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص 1064.
14. الزهراني (علي بن بجيت) ، الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثرها في حياة الأمة، (ر م غ م)، جامعة أم القرى مكة المكرمة، 1414هـ، ص258.
15. سامعي (إسماعيل) ، دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، (ر م غ م)، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر، 1995، ص52.
16. سعودي (بمينة) ، الحياة الأدبية في قسنطينة خلال الفترة العثمانية، (ر.م.غ.م) كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.
17. الشافعي (درويش)، علاقات الايالات العثمانية في غرب المتوسط مع اسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ر م غ م، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي غرداية، 2010-2011 ،
18. شويثيام (أرزقي) ، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انخياره 1800 / 1830، (ر م م) جامعة الإسكندرية، 1988، ص 23

19. صغيري (سفيان) ، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات 1671-1830، (ر. م. غ. م) قسم التاريخ، جامعة باتنة، 2012، ص89.
20. عايشة (محمد) ، الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين 16 م و17 م ، ر م غ م ، المركز الجامعي ، غرداية، 2011.
21. قشي (فاطمة الزهراء) ، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن 13 الهجري،" من أواخر القرن 18 إلى منتصف القرن 19"، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية، 1998. ..
22. لبصير (سعاد) ، هجرة ونفي أهل العلم والدين من الجزائر في العهد العثماني 1516-1830 ر.م.غ.م. قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، سنة 2008.
23. معاشي (جميلة) ، الانكشافية والمجتمع ببابلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.
24. معمر شكري (رشيدة) ، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر من 1871 - 1830 فترة الدايات (ر م غ م)، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006 .
25. موساوي (القشاعي فلة) ، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2005.
26. الواليش (فتيحة) ، الحياة الحضرية في بابلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 1994، ص119

خامسا / مقالات الدوريات والملتقيات والندوات:

1. أنساعد (سميرة) ، "صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني"، في مجلة التراث العربي، -مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 97 ، دمشق، السنة مارس 2005
2. أبو سليمان (عبد الحميد)، "الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني" في المجلة التاريخية المغربية العدد 57-58 ، تونس 1987 .
3. أحمدون (عبد الخالق)، "عناية المغاربة بالعقيدة الأشعرية"، في مجلة التاريخ العربي، العدد51 جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب ص03.
4. إسماعيل (نجي رضوان)، "الاستدلال بسد الذرائع عند المالكية"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 51-67.
5. الاقرش (دلندة)، "جدلية التجديد والتواصل في الحياة الفكرية بتونس" في المجلة التاريخية المغربية، العددين، 57-58 ، تونس 1987 ، ص 83-91.
6. باجو (مصطفى) ، "علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم"، في جريدة السبيل، 2007،
7. برنارد (لويس)، "الدولة والفرد في المجتمع الإسلامي"، في مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، العدد90، الجزائر، 1985، ص80.
8. بلحميسي (مولاي) "غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541 بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية"، في مجلة الأصالة العدد 8 ، ماي وجوان 1972، ص.100.

9. بلحميسي (مولاي)، "الثورة على الأتراك في الجزائر" في مجلة الثقافة، إصدار وزارة الثقافة والاتصال العدد 48 سنة 1973، الجزائر.
10. بلحميسي (مولاي)، "المؤرخون الفرنسيون والجزائر في العصر العثماني"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد 14-15 السنة الثالثة، الجزائر، 1973، ص73.
11. بلغيث (محمد الأمين)، "مدرسة مازونة الفقهية وآثارها"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، صص 114-132.
12. بلميهوب (حفيظة)، "مدرسة بجاية وإسهاماتها في خدمة الفقه المالكي"، في الملتقى الخامس للمذهب المالكي، عين الدفلى، الجزائر، 2009، ص95.
13. بن خروف (عمار)، "جماعة بني ميزاب في مدينة الجزائر في العهد العثماني 1520-1830" في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي غرداية، العدد الأول 2006. ص43.
14. بو عزيز (يحيى)، "الإنتاج الفكري والأدبي للشيخ أبي راس الناصري العسكري"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 53_54، تونس، جويلية 1989.
15. بو فلاقة (سعد)، "أحمد البوني وكتابه التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف" في مجلة التراث العربي، إصدار اتحاد الكتاب العرب، العدد 93 و 94، دمشق، سوريا، مارس أبريل 2004.
16. بوشيش (صالح)، "المدارس الفقهية في الجزائر خلال الحكم العثماني"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، سنة 2004، ص160.
17. بوشناني (محمد)، "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني"، عمل فرقة بحث بعنوان معسكر المجتمع والتاريخ، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، 2014،
18. البوعبدلي (المهدي)، "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، في مجلة الأصالة، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد خاص، ص 275.
19. البوعبدلي (المهدي)، "الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، جانفي فيفري 1987، صص 35-45.
20. بونقاب (مختار)، "انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري"، في مجلة المواقف، جامعة معسكر، العدد 03، الجزائر. سنة 2008، ص 140.
21. يريم (عبد المجيد)، "التفقه في الدين بين التمدد والتحرر"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر العدد 01 سنة 2004 ص 322
22. التميمي (عبد الجليل)، "الحاج احمد باي وبايلك قسنطينة 1830/1837"، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 64، 1978، ص 21.
23. التميمي (عبد الجليل)، "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، تونس، 1989. ص11.
24. التميمي (عبد الجليل)، "العثمانيون والبحر الأبيض المتوسط الإشكالات والمقاربات الجديدة" في منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أعمال ملتقى جامعة محمد الخامس، المغرب، ص19

25. التميمي (عبد الجليل)، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 05، تونس 1976 ص 99.
26. جيدل (عمار)، "أنماط التأليف في الفقه والأصول في الجزائر بين القرنين السابع والتاسع الهجريين" مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد 01، السنة 2004.
27. حكمت (ياسين)، "الغزو الإسباني للجزائر في القرن 16 أسبابه ومراحل ونتائجه" في مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، سنة 1973، ص 251.
28. حوالف (عكاشة)، "ثورة الفقهاء وأسباب سيادة المذهب المالكي بالأندلس"، ضمن أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي، وزارة الشؤون الدينية، ولاية عين الدفلة، الجزائر، 2008. ص 107.
29. الدغيم (محمود السيد)، "أضواء على البحرية الإسلامية العثمانية"، من أعمال ندوة المؤرخين العرب بالقاهرة نوفمبر 1993 منشورات اتحاد المؤرخين العرب القاهرة 1994 ص 392.
30. دي إيلزا (ميغل)، والهادي الوسلاقي، "ملاحظات أب إسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 12، تونس، 1978، ص 196.
31. رويس (منير)، "استفادة البحث التاريخي من كتب التراث الفقه والأحكام والفتاوي"، في مجلة التراث، جامعة الزيتونة، تونس، 2003-2004 ص 161.
32. زاقور (أحسن)، "مدارس الفقه المالكي"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 27-51.
33. زربوخ (عبد الحق)، "أبو راس الناصري الجزائري ومؤلفاته"، في مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد 98 - السنة الخامسة والعشرون، جوان 2005.
34. الزيتوني (الشاعري)، "ذكرى الإمام مالك بن انس"، أعمال ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، ج 01، فاس، المغرب، 1980. ص 223.
35. سعد الله (أبو القاسم)، "مراسلات يوسف باشا مع مرابط عنابة" في مجلة الثقافة، العدد 51، وزارة الإعلام والثقافة سنة 1977، ص. ص. 21، 23.
36. سعد الله (أبو القاسم)، "الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر" - مجلة الثقافة العدد (61) - وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر 1981...
37. سعد الله (أبو القاسم)، "المفتي الجزائري المصري ابن العنابي وكتابه السعي المحمود في نظام الجنود" مستخرج من كتاب بحوث في تاريخ الجزائر، مطبعة جامعة عين شمس القاهرة.
38. السعيد (أحمد)، "النوازل الفقهية والعلوم الإنسانية علم التاريخ مثلاً" في دورية كان التاريخية، العدد السادس، سنة 2009 ص 17-20.
39. عنان (محمد بن عبد الله)، "سقوط الأنندلس وآخر مسلميهما" في مجلة الأصالة، العدد 27، وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975.
40. سعيود (إبراهيم)، "من تراث الأسرى الجزائريين في إيطاليا خلال القرنين 17 و 18 الميلاديين"، في مجلة واحات، العدد الأول، جامعة غرداية، 2009، ص 71.

41. سكحال (محمد)، "نظرات في الاجتهاد والتقليد"، أعمال ملتقى الفقه المالكي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عين الدفلى الجزائر ص 449
42. سي يوسف (محمد)، "نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 57-58 تونس 1990..
43. سيب (خير الدين)، "انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب"، من أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي، ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس، وزارة الشؤون الدينية، عين الدفلة، الجزائر، سنة 2008، ص 66.
44. شاطو (محمد)، "السلطة العثمانية وعلاقتها بالطرق الصوفية"، مجلة المواقف، جامعة معسكر، العدد 03، 2008،
45. عبد العزيز (حمزة بدر) ومحمد حسام الدين إسماعيل، "دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني" من أعمال الندوة العلمية هيئة فولبرايت، دار الأفاق العربية، القاهرة، 1996 ص 159.
46. عدوان (عصام محمد علي)، "شيخ الإسلام أبو السعود أفندي 1493-1574"، في مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 22، فيغري، 2011، ص ص 261-290.
47. العلواني (طه جابر)، "التمذهب الفقهي في العهد العثماني" في المجلة التاريخية المغربية، العدد، تونس ص 379-
48. عميراوي (حميدة)، "أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية"، في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 18، قسنطينة، فيفري 2005.
49. فلوسي (مسعود بن موسى)، "المذهب المالكي والسلطات المتعاقبة في الجزائر"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 68-97.
50. فيلاي (عبد العزيز)، "أبرز علماء قسنطينة وأثرهم في بلاد المغرب والمشرق خلال العهد الحفصي القرن 13م- 16م" في مجلة جامعة قسنطينة، العدد الأول، جوان قسنطينة 1990.
51. قشي (فاطمة الزهراء)، "الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 57-58 تونس 1990، ص 328.
52. مبروك (المصري)، "المدرسة الفقهية التواتية"، في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد الأول، جامعة الجزائر، 2004، ص ص 98-115.
53. مجاني (بوبة)، "كتب النوازل والأحكام مصدرا للتاريخ الاجتماعي" في أعمال ملتقى دولي، قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 147.
54. مسعود (العبد)، "المربطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني" في مجلة سيرتا، جامعة قسنطينة الجزائر، 1988 ص 10 وما بعدها.
55. مغلي (محمد البشير الهاشمي)، "حيرة الاختلاف بين مقلدة المالكية ومجتهدة الغرب الإسلامي" في مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية جامعة الجزائر العدد 01 2004 ص 237.
56. مكحلي (محمد)، "الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827م" في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، الجزائر.
57. نمير (عقيل)، "حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر: أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية"، في أبحاث الندوة العلمية حول: الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ص 121.

58. هلايلي (حنفي)، "عبد الرحمن الاخضري رائد التصوف السلفي في الجزائر خلال الفترة العثمانية" في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، العدد السابع، نوفمبر 2006، . قسنطينة، ص71-90.
59. الورياعي (محمد)، "أثر الشخصية المغربية في فقه مالك"، ندوة الإمام مالك، ج01، فاس، 1980، ص298.
60. سعيدي (يحيى)، "خطة الفتوى في المذهب المالكي"، في أعمال الملتقى الثالث للمذهب المالكي، المذهب المالكي في طة ور التأسيس أعلامه وخصائصه ومدوناته، تنظيم وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عين الدفلى الجزائر، أبريل 2007،
61. غطاس (عائشة)، "سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمدينة الجزائر في العهد العثماني"، في مجلة إنسانيات، ع 3، الجزائر 1997، ص 71.
- سادسا / مقالات وكتابات اليكترونية
1. إبراهيم القادري بودشيش "صحوة المذهب المالكي خلال القرن الخامس الهجري" / مقال اليكتروني، جامعة مكناس.
2. بن قادة صادق، "الذاكرة المكتوبة والتاريخ : أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)" في مجلة إنسانيات ،
3. <http://insaniyat.revues.org> ص. ص 45-35، 1998 /
4. صائب عبد الحميد، "المذاهب والفرق في الإسلام النشأة والمعالم" سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، كتاب اليكتروني. ص65.
5. محمد المنوني، "عبد الرحمن الجامعي الفاسي حامل راية الأدب على مستوى المغرب الكبير"، رحلة عبد الرحمان بن عبد الله الجامعي الفاسي التاج المشرق الجامع ليوافيت المغرب والمشرق" مقال اليكتروني من بيبليوغرافية المغرب - maroc
- Bibliographie
6. محمد غالم، "ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية، بين الذاكرة والتاريخ"، في دورية انسانيات، الاليكترونية 9 <http://insaniyat.revues.org> mai 2013
7. عبد المالك بكاي، الأسرة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10هـ 13-16م في مجلة العلوم الاجتماعية العدد 17 سبتمبر 2013 pp:64-82 جامعة سطيف من موقع <http://revues.univ-setif2.dz/index.php?id=749>
8. يوسف عذار محمد بن أبي جمعة الوهراني (حياته وآثاره) مقال اليكتروني.
9. الاخضري، فتاوى مدرسة مازونة، مقال اليكتروني www.malikiya.ma.
10. أرجمند قوران، نقل الأتراك الجزائريين لمسلمي الأندلس إلى شمال أفريقيا ونتائجه، ترجمه من التركية بتصرف: عامر الهنيبي مراجعة وتدقيق وتصويب الترجمة العثمانية: د. منذر أبو هواش مقال اليكتروني. - andalus.dbzworld.org/t102-topic
11. بوشناني محمد، المغرب ندوة الجزائر الأولى 2004 مقال اليكتروني. daharchives.alhayat.com
12. الجامعي عبد الرحمن الفاسي، التاج المشرق الجامع ليوافيت المغرب والمشرق مقال اليكتروني من بيبليوغرافية المغرب rihlamaroc.blogspot.com/2012/01-maroc-Bibliographie
13. الحاج موسى بن بكير، ميزاب في العهد العثماني 1510 - 1830 ، في دورية الحياة ، مقال اليكتروني 2008م، ص 143-121 [www.ayanemzabghardaia.org/...](http://www.ayanemzabghardaia.org/)

14. حمدادو بن عمر، الشيخ سيدي محمد أبو عبد الله المغوفل 1023 هـ دفين وادي شلف وتأليفه: قصيدة في مدح النبي فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب. مقال اليكتروني-www.metlili.chaamba.com/vb/showthread.php?t=16902&langid=2
15. سميرة أنساعد ،. المشرق العربي من خلال الرحالة الجزائريين مقال اليكتروني.
www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php
16. عبد الرحمن بن سعد العتياف الدوسري ، إتخاف المريد بعالي الأسانيد، مراجعة وتدقيق بدر بن علي بن طامي العتيبي الطبعة الثانية، موقع أهل الحديث .
www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php
17. عبد السلام شقور، جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان المغرب، مقال اليكتروني.
www.attarikh-alarabi.ma/Html/Adad41partie11.htm
18. ماحي قندوز موسوعة تراجم علماء تلمسان أو درء النسيان عن علماء حاضرة تلمسان جامعة تلمسان، مقال اليكتروني، الجزائر
www.ketabpedia.com/44867
19. ماهر ياسين الفحل، أثر اختلاف المتون والأسانيد في اختلاف الفقهاء، كتاب اليكتروني،
www.alislam4all.com/modules/mydownloads/.../fagaha_magreb.rtf
20. مبارك جزاء الحربي نماذج من جهود فقهاء المالكية المغاربة في تدوين النوازل الفقهية .مقال اليكتروني.
www.alislam4all.com/modules/mydownloads/.../fagaha_magreb.rtf
21. مبارك جزاء الحربي، جهود فقهاء المالكية المغاربة في تدوين النوازل الفقهية، كلية الشريعة، جامعة الكويت، مقال اليكتروني.
www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=143574
22. محمد بن أحمد بن محمد عlish، فَتْحُ الْعَلِيِّ الْمَالِكِي فِي الْفُتُوى عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ -فتاوى ابن عlish رحمه الله محمد بن أحمد بن محمد عlish 1217 - 1299 هـ جمع وتنسيق علي بن نايف الشحود مقال اليكتروني
<https://ar.wikipedia.org/wiki/>
23. محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام، تقديم عبد الرزاق عفيفي، كتاب اليكتروني، ص ص 90 -
<http://ia801602.us.archive.org/9/item...> 94
24. ولي الله الدهلوي. الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد، <http://www.mktaba.org/>
25. محمد غالم، ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية، بين الذاكرة والتاريخ، في دورية انسانيات، الاليكترونية
<http://insaniyat.revues.org> 9 mai 2013
26. محي الدين عبد السلام البلتاجي، عرض للخلاف بين المدارس الفقهيّة، من خلال كتاب "موقف الإمام الشافعي من مدرسة العراق الفقهية" مقال اليكتروني، 2008.
www.alukah.net/alqseer/1051/page/12/
27. معتز الخطيب. الفقه والفقيه ومتغيرات السلطة 2012 مقال اليكتروني
www.aljazeera.net/programs

28. نجم الدين اهنتاتي تطور المذهب الحنفي بالقيروان خلال القرون الوسطى المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية جامعة الزيتونة، تونس، مقال اليكتروني.
29. www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad13partie7
30. <http://www.ibadiyah.com/vb/showthread.php?t=1723>
31. محمد خير فلاحه، الخلافة العثمانية من المهد إلى اللحد، كتاب اليكتروني
32. إسماعيل شفيعي سروسثاني، النزعة اليونانية أو الهيلينية، مركز موعود الثقافي، موقع اليكتروني، <http://www.aranthropos.com/> و <http://mouood.org/arabic/item>
33. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، كتاب اليكتروني. <http://www.alwarraq.com>
34. محمد مكحلي، "الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827م" في مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر. مقال اليكتروني.
35. إبراهيم بحاز، مشوهات الإباضية، نظرة من الداخل والخارج، مقال اليكتروني، <http://www.ibadiyah.com/vb/archive/index.php/t-529.html> بتاريخ 7-10-1424 هـ
36. <https://ar.wikipedia.org/wiki> الموسوعة الحرة، / موقع ويكيبيديا
37. http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=6531
38. <http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=Fatw> aId&Id=64087

سابعاً / معاجم وقواميس

1. ابن منظور، لسان العرب، م11، ط3، دار صادر، بيروت، 1994.
2. مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، ج 01، معهد الإنماء العربي اللبناني، بيروت، لبنان، 1986.
3. الكتاني (عبد الحي بن عبد الكبير)، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1986.
4. الفيروز آبادي)، القاموس المحيط، الجزء04، ط2، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، 1344هـ، ص289.
5. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط02، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1980، ص 24.
6. إبراهيم زكي) خورشيد، دائرة المعارف الإسلامية، بدون معلومات، 1933، ص ص 477-478.
7. أحمد رضا، معجم متن اللغة، المجلد الرابع، مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، 1379هـ، ص438.
8. خالد رمضان حسن، معجم أصول الفقه، ط1، الروضة للنشر والتوزيع، مصر 1998، ص214.
9. رابح عيدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة للنشر، الجزائر، 2002.
10. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993..
11. عبد الفتاح) مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، المجلد 03، ط01، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994، ص59.
12. جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، أعلام المغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000م

13. ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، المجلد الحادي عشر، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1994.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. Al-Tilimsani Muhammad Ibn Muhammad. *chroniques de la régence d'Alger* .traduites d'un manuscrit arabe intitulé el-zohrat-el-nayerat, traduit par Alphonse Rousseau, Alger, imprimerie du gouvernement 1841p 133.
2. Aumerat MM., La propriété urbaine à Alger, in **RA**, n°41, année 1897, p327
3. Babès Leila., **Pouvoir central, Pouvoir local dans le Beylik de Constantine** , Essai de synthèse , univ de Constantine , 1988, p5
4. Basset René, "Dictons satiriques attribués à Sidi Ahmed Ben Youssef", in **Journal Asiatique**, Paris, 1890, p22.
5. Ben Chouaib abou Baker abdessalem, "Les marabouts guérisseurs", in **R.A** N°51 ,1907, pp 250. 255.
6. Benachenhou Abdelkader , **l'Etat Algérien sous l'Emir Abdelkader** sans date , p 92 .
7. Berbrugger A. "un voyage de Paris à Alger en 1731 par le sieur Tollot" in , **RA**, n°66, Alger, 1867, pp430-431.
8. Bigonet E, une Inscription Arabe de Constantine, in **RA**; n°47, 1903, p307.
9. Bodin M., " Notes et questions sur sidi Ahmed Ben Youssef ",in **R.A** N° 66, 1925 ,p132.
10. Bodin A, "Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran, par Si Abd-el-Kader el Mercheft". In **RA** V 65 année OPU , Alger 1924,
11. Bonnafont Jean-Pierre. **Réflexions sur l'Algérie**, de 1710 jusqu'en 1837 , librairie du le doyen, galerie d'Orléans , Paris 1846 ..
12. Bontemps Claude, **Manuel des Institutions Algériennes de la domination Turque a l'Indépendance** , T1, éditions Cujas, France,1976.
13. Bourde Paul, **A travers l'Algérie: souvenirs de l'excursion parlementaire** (septembre-octobre 1879), / gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France. P08.
14. Boyer Pierre, **Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger (XVIe-XIXe siècles)** In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°1, 1966. pp. 11-49.
15. Boyer Pierre, **la vie quotidienne a Alger a la veille de l'intervention Francaise** , imprimerie nationale , Monaco , 1964
16. Braudel Fernand, "Les espagnoles et l'Afrique du nord de 1492 a 1877" , in **R.A**, OPU Alger, n°69 année 1928,p81
17. chevalier Corinne, **les trente premières années de l'état d'Alger 1510-1541**.opu Alger 1986.p26.
18. Cour Auguste, Constantine en 1802 d'après une chanson populaire , in **R.A**, N0 60, 1919, pp224-230
19. Coyne A, "le Mzab", in **RA**, journal des travaux de la société historique algérienne, volume 23, année 1879, challamel aîné, libraire, paris 1879 p172-210
20. Dan Pierre **Histoire de Barbarie. Et de ses Corsaires des royaumes, & des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, & de Tripoli**. Pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire seconde édition PARIS 1646
21. De Grammont Henri. **Histoire D'Alger .sous la domination Turque (1515-1830)** Ernest Leroux, éditeur PARIS 1887 p .02.
22. , De Grammont Henri. **le r'azaouat est-il l'œuvre de kheir-ed-din (Barberousse**, imprimerie de x. Duteil Villeneuve-sur-Lot
23. De Meynard Barbier et Charles-Adrien-Casimir, **Dictionnaire turc-français**, publications 347l'école des langues orientales vivantes, V1 ,Ernest le roux éditions, Paris, 1881, p

- De Paradis Jean Michel Venture. (, **Tunis et Alger au XVIIIe siècle**, mémoires et .24
observations rassemblés et présentés par Joseph Cusq, Edition Sindbad, Paris, 1982, p.257
- De Tassy Laugier, **histoire du royaume d'Alger**, loysel, Paris, 1992 p345, .25
- de Voulx A., **Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne** .26
régence d'Alger, gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France.... 1852..p77
- Dellai Ahmed Amine, « Document d'histoire et de littérature algériennes L'assassinat de .27
cheikh Belguendouz par le Bey Hassan d'Oran en 1829. ..d'après un chant melhoun. du poète
Charef Bentakkouk », in **Insaniyat**.. 2014. <http://insaniyat.revues.org/>
- soulèvement des Derkaoua de la province historique sur le Delpech Adrien, "Résumé .28
Benmohamed, bach defter du bey Hassan, de 1800 Mosselem d'Oran, d'après la chronique d'El
" in **R.A.**, 1874.- p.p. 38-58 -.1813
- Despaemet J. , **Coutumes Institutions, Croyances des Indigènes de l'Algérie** , tome1, imp. .29
la tipo-litho et jules carbonel, Alger, 1939, p 276.
- historiques sur l'administration de l'ancienne Devoulx Albert, **Tachrifat**. Recueil de notes .30
.p. 51 ,régence d'Alger, Imp. du GG 1853
- Douté Edmond. **Notes Sur L'islâm Maghrébin**. Extrait de la Revue de l'Histoire des .31
Religion. Tomes XI Et Xli. .Ernest Leroux, Éditeur Paris. p 89
- Duchesne E.-A., **de la prostitution dans la ville d'Alger depuis la conquête**, j.-b. baillière, .32
. libraire paris, 1853, PP. 21...
- , librairie de **tell — Kabylie — Sahara de l'Algérie** Dumas le général, **mœurs et coutumes** .33
pp 136-137. .1853 .PARIS . l. hachette et Cie
- , éditions la Rose , Paris , 1951 , 4Emerit Marcel , **l'Algérie à l'époque d'Abdelkader** , T .34
p237 .
- Esterhazy Walsin, **Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, in **R.A**, p71. .35
- Filali Kamel. "Sainteté maraboutique et mysticisme « Contribution à l'étude du mouvement .36
maraboutique en Algérie sous la domination ottomane" In **insaniat** résumé de thèse de doctorat.
1995. p. 117-140
- .Gaid Mouloud, **Chronique des Beys de Constantine**, O.P.U, Alger,sans date. .37
- Gautier E.F., **Structure de l'Algérie , Société d'Editions Géographiques et Scientifiques** , .38
Paris , 1920 , p32.
- Geoffrey Fisher (Sir), **légende barbaresque**, traduit par Farida Hellal, office des .39
publications universitaires, Alger, 2000.
- George Delphin, , "**histoire des pachas d'Alger de 1515-1749**" in j.a, avril. juin, 1922. .40
- Ghalem Mohamed, , "**L'histoire de l'Algérie des origines à 1830**" in Algérie, 2000.p29. .41
- Grand champ Pierre, "**une mission délicate en Barbarie au XVIIème**" siècle, in **R. A**, n°412- .42
.413, Alger, 1947, pp. Op.cit, p.224
- Grand Champ Pierre, "**le prétendu voyage de William Lightgow dans les états de Barbarie** .43
224..(1615-1616) " , in **R. A**, n°412-413, Alger, 1947, pp. Op.cit, p
- Guin , "note sur le bey Mohamed dit el Debah", in **RA** année 1863 p p 293-298 .44
- Haido Fraye Diego de , **Topographie et Histoire Générale d'Alger**, Traduit de l'espagnol .45
par, Dr. Monnereau A. Berbrugger. 1870. p196 Ouvrage numérique
- Houari touati, **entre dieu et les hommes lettres saints et sorciers au Maghreb 17eme siècle** .46
éditions de l'école des hautes études en science sociales paris. 1994. P73.
- Inconnu **Description de l'État et de la ville d'Alger** imprimerie de poveg, p18 .47
- inconnu, **Voyage dans les états barbaresques de Maroc Alger Tunis et tripoli ou lettres** .48
d'un des captifs (racheté par mm les chanoines de la sainte trinité) 1782. Paris. p189.
- Kaddache Mahfoud , **L'Algérie durant la période ottomane**, OPU, Alger, 1992, p. 114. .49
- Le Chatelier A. **les confréries musulmanes du hedjaz** bibliothèque orientale Ernest Leroux, .50
éditeur Paris 1887, p. 269..

Léonfey Henri. Histoire D'Oran Avant, Pendant Et Après La Domination Espagnole	.51
.Adolphe Perrier éditeur Paris. 1858. p275.	
Mac Guckin de Slane William (1801-1878). Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique ; suivi du Catalogue des manuscrits arabes les plus importants de la bibliothèque d'Alger et de la bibliothèque de Cid-hammouda à Constantine / par M. le baron de Slane,....	.52
1845/	
politiques entre le gouvernement ottoman et les Mantran Robert, L'évolution des relations	.53
XIXe siècle, Université d'Aix - Marseille, odjaks de l'ouest du XVIe au	
Marmol Caravejal, l'Afrique de Marmol , traduction de Nicolas Oenot Feslon d'Ablancourt	.54
, tome 3, Paris , pp 437 – 444	
Masqueray Émile, (1843-1894). Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouïa de l'Auras, Béni Mzab).	.55
Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France1886.	
Masson Paul, , Histoire des Etablissements et du Commerce Français Dans L'Afrique	.56
Barbaresque (1560-1793), Hachette et Cie, Paris, 1903.	
les deux sieges de Constantine (1836-1837) imprimerie, librairie L. .Mercier Ernest	.57
Poulet , Constantine ,1896,	
Mercier Ernest , Histoire de Constantine , Marle et F.Biron imprimeur éditeur , 1903 , p	.58
440 .	
Mercier Ernest : « Constantine au 16ème siècle , Elévation de la famille El Feggoun » , in	.59
R.S.A.C , 1878 , p 218 .	
Mercier Ernest, histoire de l'Afrique septentrionale (berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830) , tome second, Paris, Ernest Leroux éditeur,	.60
1868p,419.	
Mercier Ernest, Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale,	.61
édition Challamel, Paris 1875.	
Oussedik Tahar, le royaume de Kouakou , E.N.A.L,Alger,1986,p22	.62
Pananti Philipo, relation d'un séjour à Alger , imprimerie de la normand, Paris 1820. P	.63
366	
Plantet Eugène correspondance des deys d'alger avec la cour de france1579 - 1833 tome	.64
second (1700-1833) Paris1889	
Jourdan imprimerie, Alger, Rinn Louis, le Royaume d'Alger sous le dernier dey , Adolphe	.65
.1900	
sur l'islam en Algérie Adolphe Jourdan, Rinn Louis. Marabouts et Khouans/ étude	.66
pp144- 145.1884libraire-éditeur. Alger	
Robin le Commandant, les Imesseblens in R,A. Jourdan, Libraire-éditeur Constantine	.67
Volume 18 Année 1874 p401	
Robin le Commandant. Le Mzab et son annexion à la France , par le commandant Robin,...	.68
(20 mars 1884.). 1884	
Romney Alain. " l'Etat Turc st les pouvoirs religieux en Algérie de la fin du 18ème et au	.69
début du 19ème siècle", in Cahiers de la Méditerranée , N°41, dec1990,.	
Shaw Thomas, Voyage dans la régence d'Alger , traduit par J. Mac Carthy, Bouslama,	.70
Tunis, s.d.	
shuval Tal , la ville d'Alger vers la fin du XVIIIème siècle population et cadre urbain	.71
CNRS éditions, 2005,p119.	
, 3 نسانيات/Tengour Ouanassa Siari, « Salah Bey Et La Cite De L'oubli » , Insaniyat /	.72
1998, 71-89	
Van Krieken Gérard, corsaires et marchands, les relations entre Alger et les pays bas,	.73
1604-1830,.	

- 1837**, à Vayssettes Eugène, *Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517* .74
233 Editions Bouchène, Paris, 2002, pp 233-
- Yacono Xavier. *La Régence d'Alger en 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834*. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, N°1, 1966. pp. 229-244. la régence d'Alger en 1830, .75
- zaghari Latifa el hassar, *les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda* .76
jadis esclave a Alger XVIIème siècle, casbah éditions, Alger, 2004 p 85-86.
- Zeys Ernest, (1835-1909). *Législation mozabite, son origine, ses sources, son présent, son* .77
..53avenir. Leçon d'ouverture faite à l'École de droit d'Alger, 1886 p
- L j Bressnier, "formule d'abjuration selon la loi musulmane" in *RA*, v7, année 1863 p 351- .78
352.

الفصل الأول

المذاهب الفقهية في الجزائر

العثمانية

11	المبحث الأول: الخلاف الفقهي ونشأة المدارس الفقهية
17	المطلب الأول: بداية الخلاف الفقهي
19	المطلب الثاني: نشأة المذاهب الفقهية
19	المبحث الثاني: المذهب الحنفي في الجزائر
19	المطلب الأول: التعريف به
24	المطلب الثاني: انتشاره في المغرب الإسلامي
24	أولا / المذهب الحنفي في المرحلة الأولى
28	ثانيا / المذهب الحنفي في المرحلة الثانية
29	المطلب الثالث / بعض خصوصيات المذهب الحنفي
29	أولا / ولاية المرأة في الزواج
31	ثانيا / النيبذ
33	ثالثا / المساجد الحنفية
38	المبحث الثالث/ المذهب المالكي في الجزائر
38	المطلب الأول/ التعريف به
42	المطلب الثاني/ مسارات المذهب المالكي في المغرب الإسلامي
53	المطلب الثالث/ مكانة المذهب المالكي عند السكان
56	المبحث الرابع/ المذهب الإباضي في الجزائر
58	المطلب الأول/ نشأة المذهب
59	المطلب الثاني/ المذهب الإباضي في المغرب الأوسط
61	المطلب الثالث / آراء الاباضية الفقهية والعقدية.

61	 أولاً: العقائد الاباضية
63	 ثانياً : المسائل الفقهية
66	 المطلب الرابع / التنظيم الإداري والاجتماعي لميزاب
66	 أولاً الوضع العام
68	 ثانياً التنظيم الإداري
71	 المطلب الخامس / الفقه الإباضي في خدمة الوحدة السياسية
71	 أولاً : قوة الجماعة المعنوية
72	 ثانياً : حمل العامة على رأي فقهي واحد.
74	 المطلب السادس / علاقة الميزابيين بالسلطة الحاكمة
78	 المطلب السابع / مساهمة الاباضيين في دعم الحكم التركي
79	 أولاً : حملة شارلكان 1541
80	 ثانياً : القضاء على تمرد الكراغلة
81	 ثالثاً : المساهمة في صد الحملة الفرنسية سنة 1830

الفصل الثاني

مكانة الفقهاء في المجتمع الجزائري

83	 المبحث الأول/ التدين في المجتمع الجزائري
83	 المطلب الأول / واقع التدين
88	 المطلب الثاني/ التدين بين التقليد والاجتهاد
91	 المطلب الثالث / حرية التدين
95	 المطلب الرابع / المجتمع الجزائري بين الفقه والتصوف.
402	 المطلب الخامس / مستويات التأثير الصوفي
105	 المطلب السادس / الفقهاء والتصوف:
108	 المبحث الثاني/ الفقهاء المفتون والقضاة
108	 المطلب الأول / الفقهاء الأحناف
110	 المطلب الثاني / الفقهاء المالكيون
125	 المطلب الثالث/ الفقهاء الإباضيون
129	 المبحث الثالث / نماذج لفقهاء بارزين في العهد العثماني
130	 سعيد قدورة / نموذج التعاون مع السلطة
135	 أحمد المقرئ / الفقيه النائي عن دار السلطان
139	 عبد الكريم الفكون / بين الفقه و التصوف

146	 يحيى الشاوي / الفقيه الموسوعي
152	 مصطفى الرماصي / الفقيه المتنور
156	 أبو العباس أحمد البوني / الفقيه الشاعر
159	 عبد القادر الراشدي / الفقيه المجدد
165	 أبو رأس الناصري / صاحب الرؤى الجديدة
171	 محمد بن العنابي / الفقيه المخضرم
183	 <u>المبحث الرابع العلاقة بين المذاهب الفقهية</u>

الفصل الثالث

الفقهاء ودورهم الديني والسياسي

192	 <u>المبحث الأول/ الحياة العلمية للفقهاء</u>
192	 المطلب الأول/ وضعية الفقهاء و مكانتهم
197	 المطلب الثاني/ الأنشطة العلمية للفقهاء
197	 أولا : المناظرات والمساجلات الفقهية
201	 ثانيا : التفقه بالشعر والألغاز
204	 المطلب الثالث / التنافس بين الفقهاء
209	 <u>المبحث الثاني/ دور الفقهاء الديني</u>
209	 المطلب الأول: الجانب العقدي
209	 أولا : محاربة الغلو والتطرف..
212	 ثانيا : تصحيح ولاء العامة للدين
217	 ثالثا : الفقهاء والتبرك بالأضرحة.
219	 المطلب الثاني: الجانب الاجتماعي
223	 أولا : الفقهاء وقضايا المرأة.
226	 ثانيا : الفقهاء والاحتفالات الشعبية.
229	 ثالثا: الفقهاء وآفات العصر العثماني
235	 <u>المبحث الثالث/ دور الفقهاء السياسي</u>
235	 المطلب الأول الفقهاء والفكر السياسي
238	 المطلب الثاني : الخلافة الإسلامية في اللغة والتراث
241	 المطلب الثالث : مشروعية الخلافة العثمانية
250	 المطلب الرابع : الفقهاء الجزائريون والخلافة العثمانية
255	 المطلب الخامس: دعوة الفقهاء إلى تحمل مسؤولية الإصلاح.

260	المبحث الرابع المادة الفقهية المتداولة في العهد العثماني
260	المطلب الأول : كتب الفقه
261	أولا : المدونة الكبرى
261	ثانيا : رسالة ابن أبي زيد القيرواني
262	ثالثا: مختصر خليل بن إسحاق الجندي في الفقه
263	رابعا : مختصر "ابن الحاجب"
265	المطلب الثاني : المنتجات الفقهية والدينية ومكانتها
	<u>الفصل الرابع</u>
	<u>موقف السلطة الحاكمة من الفقهاء</u>
272	المبحث الأول الوجود التركي في الجزائر
272	المطلب الأول/ طبيعة الحكم التركي
279	المطلب الثاني/ السلطة الحاكمة
283	المطلب الثالث /السلطة السياسية بين الانتخاب والتوريث
285	المطلب الرابع / بين السلطة السياسية والسلطة الدينية
288	المطلب الخامس / - لباشا - هرم السلطة الحاكمة
290	المبحث الثاني حكام الايالة.
290	المطلب/ الأول حكام المركز
297	أولا / الحكام المؤسسون للايالة:
300	ثانيا / حكام ضعاف النفوذ والتأثير
302	ثالثا / الحكام المتأخرون
310	المطلب الثاني /حكام الأطراف
311	أولا / بايات الشرق
316	ثانيا / بايات التيطري
317	ثالثا/ بايات الغرب
324	المبحث الثالث السلطة الحاكمة والفقهاء
324	المطلب الأول/ نظرة السلطة للفقهاء
327	المطلب الثاني / معايير اختيار الفقهاء
327	أولا / الولاء السياسي والديني
328	ثانيا / عدم التدخل في شؤون الحكم
330	ثالثا / العلم الشرعي

334	المبحث الرابع / مظاهر العلاقة بين السلطة والفقهاء
335	المطلب الأول / نماذج الانسجام والتعاون.
339	المطلب الثاني / نماذج التوتر والنفور.
349	المبحث الخامس آثار وانعكاسات النفور بين السلطة والفقهاء
349	المطلب الأول / هجرة الفقهاء.
353	المطلب الثاني / اضطراب الأوضاع الداخلية.
366	الخاتمة .
369	الملاحق والبيبلوغرافيا
391	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس المواضيع



مذكرة دكتوراه: الفقهاء والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني

الطالب: محمد أوجرتني

ملخص الرسالة:

موضوع البحث يدور حول علاقة الفقهاء بدار السلطان في الجزائر خلال العهد العثماني، وتندرج ضمن هذا السياق جملة التساؤلات التي قدمناها في إشكالية البحث حول الفقهاء ومكانتهم الدينية والاجتماعية ومدى فهمهم لسياق الأحداث التي كانوا يعيشونها، كيف عاجلت الفتاوى والنوازل والاجتهادات التي وضعوها المشاكل والأزمات الطارئة، كيف كانت أجواء التعامل بين الفقهاء أنفسهم من مختلف المذاهب السائدة آنذاك سواء الفقهاء المالكيون أو الحنفيون أو الإباضيون، ما هو مدى انعكاس التنوع الفقهي على الوحدة العقائدية والمذهبية للجزائريين خلال هذه الفترة.

أما السلطة فإن تساؤلنا حولها يدور حول شكلها ونشأتها وعلاقتها بعالم الفقه والدين ودور الفقهاء والعلماء في التأثير فيها، وهل كانت في انسجام معهم أم أنها كانت على طرف نقيض، كيف كانت هذه السلطة سواء في المركز أو في الأطراف، تنظر للفقه والتجديد؟

كما تساءلنا حول وجود حكام متنورين وهل كان هناك تعاون بين الطرفين في سبيل إرساء قواعد دولة منظمة.

وقد عملنا في هذا البحث وفق المناهج المتبعة في دراسة التاريخ الحديث فتارة نستعمل المنهج الاستقرائي الاستنتاجي، وتارة أخرى نعتمد أسلوب المقارنة بين العينات التاريخية المتوفرة، وأحيانا نعمل إلى السرد والنقل بتصرف خاصة للمسائل المتعلقة بالقضايا الفقهية، فهو الأفدر على توضيحها وتقديمها بصورة قابلة للاستيعاب. كما عملنا على ترجمة ومقارنة كثيرا من النصوص والكتابات الأجنبية -الفرنسية- بالكتابات العربية محاولين تقديم أفضل الصور وأقربها للمنطق التاريخي، وحاولنا استنطاق بعض المخطوطات وتوظيفها في مجال بحثنا لتقديم الجديد في مجال الدراسة التي تضمنتها هذه المذكرة.

وقد قمنا بالاستعانة بالقضايا الفقهية التاريخية، واستغللها دون تعمق في المسائل الخلافية التي حتما ستدفعنا بعيدا عن أهداف الدراسة، وقد سقنا بعض المسائل الفقهية من تعريفات ومسائل ليس من جانب الخوض في الفقه المقارن، بقدر ما هو استغللها لخدمة الوقائع الجديدة وفهم التصورات المكتسبة التي عرفتها الجزائر .

قسم البحث إلى أربعة فصول أساسية، الفصل الأول فقد جعلناه تحت عنوان المذاهب الفقهية في الجزائر العثمانية وأما الفصل الثاني فقد كان بعنوان مكانة الفقهاء في المجتمع الجزائري، وكان عنوان الفصل الثالث الفقهاء ودورهم الديني والسياسي وختمت البحث بفصل رابع بعنوان موقف السلطة الحاكمة من الفقهاء وختمنا البحث بحوصلة نهائية جمعنا من خلالها أهم النتائج المتوصل إليها، ومنها:

اعتماد العثمانيين على شيوخ القبائل الجزائرية السياسيين والدينيين من جهة، ومن جهة ثانية على فكرة الجامعة الإسلامية والأخوة الدينية والعاطفة التي كانت تحملها فكرة الخلافة العثمانية، وعدم تطويرهم للإدارة بما يتماشى مع روح العصر.

ضعف التعاون بين الفقهاء والسلطة والنفور بينهما كانا سمة بارزة، صبغت الأجواء السياسية والفكرية، لضعف الاستقرار السياسي والاجتماعي وفشل النخب المحلية السياسية والدينية في خلق تحالف بينهما يستفيد منه المجتمع الجزائري في بعث عملية التثقيف والتطوير الذاتي. مظلم

اقتسام النفوذ السياسي والديني بين النخب الدينية - الفقهية والطرقية - والسياسية، فقد كانت أغلبية السكان خاصة في القرى والأرياف تدين بالولاء المطلق للطرق الصوفية والمشايخات الدينية والشرف والأجواد وغيرهم، وكان نفوذ السلطة السياسية يمارس في المدن والحوضر الكبرى والحاميات بمشاركة الأسر العلمية المتحالفة معها.

طغيان الفكر الصوفي بمفرداته القوية العديدة الغامضة على مجتمع الفقهاء وعلماء العصر، فلم يسلم من الوقوع في هذا الاعتقاد المؤسس لثقافة الخرافة والأسطورة العاجز عن خلق أجواء التفاعل الحضاري، إلا القليل منهم. عزوف المجتمع الجزائري عن طلب العلم بسبب انعدام وقلة إمكانيات تحصيله، مما ساهم في عجز الفقهاء على صناعة مجتمع واع وعالم بحقيقة دينه وتمسك بشريعته، وعجز الفقهاء والعلماء على قلة عددهم في بناء نواة مجتمع جديد متنور يكون أساسا لانطلاقة حضارية جديدة، فكانت صيرورة التفاعل بين المجتمع والفقهاء في تدني وتراجع خلافا لبعض البلدان العربية الأخرى.

اتسام عقائد الجزائريين في العهد العثماني بالسطحية واكتفائهم بالحفاظ على الموجود وخضوع إيمانهم للتسليم والانقياد لما تركه الأولون دون دراية كافية وقدر مقبول من الفهم والإحاطة والفحص، وهو ما اصطلاح عليه الأصوليون إسلام التقليد وتجلي هذا الضعف في تيسير مهمة الاحتلال الفرنسي فيما بعد في تفكيك البنية العقديّة والأخلاقية للمجتمع وتدجين الموروث الثقافي الذي يعد الرافد الأساسي الذي يحمل صور العقائد والأخلاق والنصوص الشرعية.

الاضطرابات التي كانت تقع داخل أجهزة السلطة لم يكن لها تأثير على العامة بل كان لها دورا في كثرة عدد الباشاوات والراغبين في بلوغ هذا المنصب فاختلف عطاء رجال الحكم على مر المراحل التي سادوا خلالها فمنهم الأقوياء مؤسسو الإيالة، أصحاب المشاريع والطموحات ومنهم ضعاف النفوذ والتأثير. وكان من نتائج هذه الاضطرابات غياب المشروع السياسي والفكري للدولة - المغرب الأوسط -.

التزام أغلب الفقهاء والحكام سواء في المركز أو في الأطراف بالتبعية للدولة العثمانية وعدم التفكير في الخروج عن الدولة، حتى في أصعب الأوقات التي كانت تمر بها كالحروب مع دول أوروبا أو قيام حركات الاستقلال في البلقان وغيرها.

Thèse de doctorat intitulée ; les savants Religieux et le pouvoir politique en Algérie pendant la période ottomane.

Oudjertni Mohamed

Résumé de la thèse

Le sujet du thèse de cette recherche tourne autour des savants de et leurs relations en Algérie avec les autorités du pouvoir politique à l'époque ottomane. Le problématique se pose donc sur les questions de relations et de comportement de cette classe savante, que nous avons voulu éclaircir dans la recherche, aussi nous parlions des problèmes surgis dans le domaine religieux et social, nous nous posons la question sur les mesures que font dans cette de leur compréhension du contexte des événements qui vivaient

Comment les fatwas et interprétations ont-ils fait face aux problèmes d'urgence et de situations de crise sociopolitiques?

Comment était l'atmosphère de l'interaction entre les savants juristes eux-mêmes des diverses sectes de l'époque; juristes malikites ou hanafites ou Abadites, et Quel est le reflet de la diversité religieuse sur l'unité doctrinale des Algériens au niveau idéologique et religieux au cours de cette période. et puis quel rôle jouaient ces savants dans la structure du régime politique, sur le plan local et international, or La puissance et la mise en pratique des connaissances juridiques nécessite des relations avec le monde du Fiqh et de religion, et le rôle des chercheurs et des scientifiques pour pratiquer une influence légitime sur la classe politique mérite d'être en harmonie avec les principales chapelles du monde musulmans. Et enfin Comment était-ce pouvoir soit au centre ou aux parties, considérer la jurisprudence et de renouvellement?

Nous nous sommes demandés aussi sur l'existence des dirigeants éclairés, et s'il y avait une coopération entre les parties de la société des savants, afin de mieux voir l'organisation de l'Etat, sous le régime turc.

Nous avons travaillé dans cette recherche en conformité avec les méthodes utilisées dans l'étude de l'histoire moderne Parfois, nous utilisons le raisonnement inductif, et d'autres fois on se fier à la comparaison entre les échantillons historiques, méthode indispensable et qui parfois nous obligeait d'écrire le récit pour mieux comprendre les faits spéciaux liés aux questions de notre recherche.

Nous avons également travaillé sur la traduction d'un grand nombre de textes et de faire comparer les textes étrangers et les écrits arabes, en essayant de fournir les meilleures approches qui soient en harmonie avec la logique historique, et nous avons essayé de faire usage quelques manuscrits et de les employer dans notre recherche, d'une façon nouvelle dans le domaine de l'étude et de critique se de l'histoire.

Nous avons, avec l'aide des questions de jurisprudence historique essayer d'exploiter les différentes questions litigieuses qu'aient connaît la régence, et qui parfois inévitablement, nous mènent – semble t'ils– loin des objectifs de l'étude, or Quelques questions doctrinales paraissaient imposées vu la valeur dont elles disposées.

notre plan de recherche est divisé en quatre grands chapitres, le premier chapitre a fait dans les écoles de jurisprudence islamique à titre Algérie ottomane du deuxième chapitre a été intitulé juristes de position dans la société algérienne, et ce fut le troisième chapitre titre savants et rôle religieux et politique, on termine notre travail par un dernier chapitre intitulé La position des autorités politiques de tutelle des juristes, et nous avons terminé la recherche en traçant les résultats tirées de cette étude en conclusion. parmi les résultats les plus importants de la recherche on signe;

Adoption des Ottomans du système tribale dans le cote politique et religieux d'une part, et d'une seconde part ils maintenait l'idée de l'Université islamique – khilafa islamia– qui considérait les liens fraternelles de l'islam comme seul et unique lien qui pouvaient unifier les pays musulmans et consolider les relations bilatérales, or la passion qui a été porté par l'idée que l'Empire ottoman mettait en œuvre toutes ses moyens pour sauvegarder et développer les pays placés sous son autorité a cette époque.

On constate que la faible Coopération entre les savants eux même caractérise la vie spirituelle designant un atmosphère politique et intellectuelle ténébreux, la faiblesse de la stabilité politique et sociale et l'échec des élites politiques et religieuses locales dans la création d'une alliance entre eux au profit de la société algérienne,

Le partage de l'influence politique et religieuse parmi les élites religieuses-jurisprudentiel et sufistes, sur la majorité de la population est divergée, en particulier dans les villages et les zones rurales fidèles absolument aux mouvements rituels et des confréries religieuses soufies, et les chefs de la noblesse cherifienne tels que les chorfats et les jouawads

En outre l'influence du pouvoir politique est exercé beaucoup plus dans les villes et les grandes garnisons turcs, avec la participation des familles scientifiques – savantes qui c'est alliés avec lui.

L'absolutisme de la pensée soufique forte de nombreuses pratiques mystérieuses, c'est faite en opposition à la société savante, dominante par ses croyances que même plusieurs savants érudits ne pouvaient s'épargner de s'effondrer devant de telles croyances, c'est ce qui explique la décadence culturelle face aux rites mythique et légendaire, incapable de créer une atmosphère d'interaction culturelle,

l'allusion de la société algérienne pour l'application de la science à cause du manque et le manque de possibilités recueillies, ce qui a contribué au déficit des juristes sur la communauté consciente et le monde de la réalité de la religion, et l'incapacité des chercheurs et des scientifiques pour mettre en œuvre la construction du noyau d'une nouvelle société éclairée, sur laquelle se base le lancement d'une nouvelle civilisation, or le modernisme européen vécu au début du 19^{ème} siècle seraient été le processus d'interaction entre la communauté soufique et les savants chercheurs, marquait le déclin spirituel contrairement à d'autres pays arabes, sous la domination turc

la croyance des Algériens se Caractérise dans le Pacte éthéré ottoman, basé sur l'intérêt de maintenir rituel existant, et la soumission à la foi pratique et aux connaissances suffisantes pour mener une vie simple et modéré, que les anciens ont pu tracer,

l'incompréhension du relations internationales fait subir la régence un examen infernal causé par le fondamentaliste Islamique traditionnel, et qui démontre une faiblesse archaïque qui facilite la tâche de l'occupation française de 1830.

Les savants à l'intérieur des organes du pouvoir n'ont aucun effet sur le public, mais ils ont eu un rôle déterminant dans la vie politique de plusieurs pachas

L'engagement de la majorité des savants et des dirigeants spirituels soit au centre de la régence qu'a ses parties a l'appuis et l'extension de l'Empire ottoman, et d'unifier tout les atouts de l'état, même durant les moments les plus difficiles, tant que les guerres avec les pays européens ou les mouvements d'indépendance dans les Balkans et ailleurs ne soient achevées.

abstract

The subject of the thesis of this research revolves around the scholars and their relationships in Algeria with the authorities of political power in Ottoman times. The problem therefore arises on issues of relationships and behavior of the scholarly class, we wanted to clarify in the research, as we talked about the problems arising in the religious and social

How fatwas and interpretations did they deal with emergency issues and socio-political crises?

How was the atmosphere of interaction between scholars lawyers themselves of the various sects of the time; Maliki or Hanafi jurists or Abadites, and What is the reflection of religious diversity on doctrinal unity of Algerians ideological and Religious level during this period, and then what role played these scholars in the structure of the political system on the local and international level, or the power and the implementation of legal knowledge requires relationship with the world Fiqh and religion, and the role of researchers and scientists to pursue a legitimate influence on the political class deserves to be in harmony with the main chapel of the world Muslims, Finally How was this power is in the center or to the parties, considering the jurisprudence and renewal?

we request also about the existence of enlightened leaders, and if there was cooperation between the parties of the society of scholars, to better see the organization of the state, under Turkish rule.

We have worked in this research in accordance with the methods used in the study of modern history Sometimes we use inductive reasoning, and other times we rely a comparison between historical samples, and sometimes indispensable method we obliged to write the story to understand the special facts related to issues of our research.

We also worked on the translation of a large number of texts and to compare the foreign texts and Arabic writings, trying to provide the best approaches that are consistent with the logic of history, and we tried to use some manuscripts and use them in our search for a new way in the field of the study and criticism of history.

We, with the help of historical jurisprudence issues trying to exploit the various contentious issues may have knows the regency, and sometimes inevitably lead us far of the study objectives, gold Some doctrinal issues seemed imposed saw the value they placed.

our research plan is divided into four chapters, the first chapter did in the schools of Islamic jurisprudence as Ottoman Algeria's second chapter was titled position of lawyers in Algerian society, and this was the third chapter scholars title and role religious and political, we finish our work by a final chapter entitled the position of political authorities guardianship

lawyers, and we ended the search by plotting the results from this study concluded. among the most important results of research on sign

Adoption of the tribal system of the Ottomans in the political and religious dimension one hand and a second hand they kept the idea of the Islamic University – khilafa islamia– who considered the fraternal ties of Islam as the one and only link which could unify Muslim countries and strengthen bilateral relations, or the passion that was worn by the idea that the Ottoman Empire was implementing all its means to safeguard and develop the country under its authority at that's time.

It is found that the low cooperation between scientists themselves characterizes the spiritual life designating a political and intellectual atmosphere dark, weak political and social stability and the failure of local political and religious elites in the creation of an alliance between them in favor of Algerian society,

The sharing of political and religious influence among the elites and jurisprudential religieuses– sufistes, the majority of the population is diverged, particularly in villages and rural areas absolutely faithful to the ritual movements and Sufi religious brotherhoods, and heads Chérifienne of the nobility such as chorfats and jouawads

In addition the influence of political power is exercised much in the cities and large Turkish garrisons, with the participation of scientists –savantes families that ESR allies with him.

The absolutism of the strong Sufi thought many mysterious practices is made in opposition to the scientific society, by its dominant beliefs that even many learned scholars could not save collapse before such beliefs is which explains the cultural decadence face the mythical and legendary rites, unable to create a cultural atmosphere interaction,

the hint of Algerian society for the application of science because of the lack and lack of opportunities gathered, which contributed to the deficit lawyers on conscious community and the world of the reality of religion and the inability of researchers and scientists to implement the core of the construction of a new enlightened society, which is based on the launch of a new civilization or European modernism lived in the early 19th century would have been the interaction process between the Sufi scholars and research community, marked the spiritual decline unlike other Arab countries, under the Turkish domination

the belief of Algerians Identifies the Ottoman ethereal Covenant, based on the interest of maintaining existing ritual, and the bid practical faith and sufficient knowledge to live a simple and moderate life, which the ancients could trace, misunderstanding of international relations subjected regency hellish examination caused by the traditional Islamic fundamentalist and which shows an archaic weakness that makes it easier for the French occupation in 1830.

Scholars within the organs of power have no effect on the public, but they had a decisive role in political life of several pashas.

The commitment of the majority of scholars and spiritual leaders is at the center of the regency has its parts has the support and expansion of the Ottoman Empire, and to unify all the assets of the state, even during the most difficult times, as the wars with European countries or the independence movements in the Balkans and elsewhere are completed.